

الكتاب الثاني
تأليف
نوفل أفندي بن نعمة الله بن جرجس



1966
المسي

زبدة الصحائف في سياحة المعارف

1966

تأليف

نوفل أفندي بن نعمة الله بن جرجس

نوفل الطرابلسي

1966

يا أيها القوم الذين تفتنوا في ضبط كرات الحروب وقرها
هيا انشروا نعم اليراع وحسبكم ان ترووا عن قيم الفراع وشرها

بيروت ١٨٧٩

مجلس معارف ودراسات

فهرست

	صفحة
المقدمة في اقسام التاريخ	١
القسم الاول من التاريخ وهو القرون الاولى	٤
المعارف في بلاد الكلدان	٥
المعارف عند العبرانيين	١١
المعارف في بلاد الفرس	٢٥
المعارف في فينيقية	٢٥
المعارف في مصر	٤٢
المعارف في الصين	٧٨
المعارف في الهند	٩٢
المعارف في بلاد اليونان وفيه مقدمة واربعة فصول وخاتمة	١٠١
المقدمة	١٠١
الفصل الأول في كيفية تقدمات اليونان الى وقوع الانقسام بين اسبرطة واثينا	١١١
الفصل الثاني في كيفية سلوك اهل اسبرطة	١١٥
الفصل الثالث في كيفية سلوك اهل اثينا	١١٨
الفصل الرابع في خلاصة ما اشتمر به الفريقان من المعارف الخ	١٢٢
الخاتمة في احوال اليونان الاخيرة	١٢٥
المعارف عند الرومانيين وفيه مقدمة وبجثمان في كل منها عدة فصول	١٢٩
المقدمة في اصل الرومانيين ومنشاهم	١٢٩

- ١٤٤ البحث الاول في حالة العلوم والفنون منذ قيام المشيخة الرومانية الى
انقسام المملكة واستيلاء البربر على القيصريّة الغربية سنة ٤٩٥ م
وفيه ٧ فصول وخاتمة
- ١٤٤ الفصل الاول في نقومات الرومانيين منذ قيام المشيخة المذكورة الى
ان ظهر الامبراطور اوغسطس قيصر سنة ٥١ م
- ١٤٦ الفصل الثاني في ما حدث في زمن القياصرة الوثنيين لحد سنة ٣٣٠ م
- ١٥٢ - الفصل الثالث في حالة المعارف من راءة المشيخة الى اخر مدة
القياصرة المذكورين
- ١٦٨ الفصل الرابع في ماجريات القياصرة المسيحيين منذ تنصر قسطنطين
الكبير الى ان انقسمت المملكة في سنة ٣٩٥ م
- ١٧٣ القسم الثاني من التاريخ المعروف بالقرون الوسطى
- ١٧٣ الفصل الخامس في امبراطرة القيصريّة الشرقية منذ انصالتها عن
الغربية الى ان افتتحها آل عثمان سنة ١٤٥٣
- ١٧٦ الفصل السادس في المبادي الفلسفية العمومية منذ تنصر قسطنطين
الكبير الى ظهور الدولة العباسية بالمشرق وكرلوس الأكبر
في المغرب سنة ٨٠٠ م
- ١٨٧ الفصل السابع في حالة الاداب والفنون في القيصريّة الشرقية خاصة
منذ توطيد الديانة المسيحية الى نهاية القرن الثامن
- ٢٠٦ الخاتمة في حالة الاداب والمعارف في القيصريّة المذكورة منذ القرن
التاسع الى ان افتتحها آل عثمان سنة ١٤٥٣ م
- ٢١٤ البحث الثاني المعارف في الامبراطورية الرومانية الغربية منذ انصالتها
عن الشرقية الى نهاية القرون الوسطى وفيه سبعة فصول وخاتمة
- ٢١٤ الفصل الاول في ما حدث على المعارف في هذه الامبراطورية منذ
انصالتها المذكور الى ان استولى عليها البربر سنة ٤٩٥ م

٢١٦	الفصل الثاني في بيان انواع ونسبة وإخلاق وعوائد القبائل الهاجرة على الامبراطورية المذكورة
٢٢٠	الفصل الثالث في حالة المعارف منذ النوح وتملك الملك ثيودور بق الاستروغوطي الى وقت اختلاط الرومانيين بالجرمانيين
٢٢٤	الفصل الرابع في حالة العلوم والمعارف بعد اختلاط الرومانيين بالجرمانيين الى ان تولى الامبراطورية كراوس الأكبر
٢٣٠	الفصل الخامس في حالة العلوم والمعارف في زمن كراوس الأكبر المذكور
٢٦٠	الفصل السادس في حالة العلوم والمعارف منذ وفاة كراوس المذكور الى بناء وقوع الحاربات الصليبية اعني نهاية القرن ١١
٢٧٢	نبذة في تفاصيل احوال جهالة الاعصر المذكورة
٢٧٧	دواعي الحروب الصليبية من سنة ١٠٩٦ الى سنة ١٢٧٠ م
٢٨٢	الفصل السابع في حالة العلوم والمعارف منذ اشهر الحروب الصليبية سنة ١١٠٠ الى نهاية القرن الرابع عشر
٢٩٠	العلوم
٢٩١	المنارس
٢٩٦	اللغات
٢٩٨	الفلسفة
٣٠٣	اللاهوت
٣٠٥	الجغرافيا
٣٠٦	فوائد التجارة منذ اشهر الحروب المذكورة الى نهاية القرن الخامس عشر
٣١٢	الصنائع والمهن منذ القرن العاشر الى نهاية القرن الخامس عشر
٣١٦	الحجاة في امتيازات القرن الخامس عشر ويايها قصبتان
٣١٩	القضية الاولى في خلاصة ما تقدمت تفاصيله عن كيفية استدراجات

الافرنج الادبية لحد القرن الخامس عشر وفيها مطلبان

- ٢١٩ المطلب الاول في خلاصة ما تقدمت تفاصيلة لحد القرن الخامس عشر
- ٢٢٤ المطلب الثاني في تقدمات المعارف والاداب عند بعض الممالك المذكورة في القرن الخامس عشر
- ٢٢٤ روسيا
- ٢٢٧ فرنسا
- ٢٢٢ انكلترة
- ٢٢٢ ايطاليا
- ٢٤٤ القضية الثانية في الاكتشافات الارضية وفيه مطلبان
- ٢٤٥ المطلب الاول في اكتشاف راس الرجاء الصالح
- ٢٥٠ المطلب الثاني في اكتشاف الدنيا الجديدة المسماة بامريكا
- ٢٦٣ القسم الثالث من التاريخ وهو المعروف بالقرون الاخيرة وفيه فصلان
- ٢٦٣ الفصل الاول في الكلام على المعارف في ممالك اوروبا الافرنجية
- ٢٦٣ القرن السادس عشر
- ٢٦٣ امتيازاته
- ٢٦٤ الفلسفة فيه
- ٢٦٥ استدراجات مدنية
- ٢٦٥ ايطاليا
- ٢٧١ فرنسا
- ٢٧٦ روسيا
- ٢٧٧ اسرانيا
- ٢٧٧ انكلترة
- ٢٧٧ دانمارك
- ٢٧٨ اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

٢٨١	القرن السابع عشر
٢٨١	امتيازاته
٢٨٣	الفلسفة فيه
٢٨٨	استدراجات مدنية
٢٨٨	فرانسا
٢٩١	روسيا
٤٠٠	انكلترة
٤٠٢	المانيا
٤٠٢	اكتشافات علمية وتقدمات صناعية
٤٠٦	القرن الثامن عشر
٤٠٦	امتيازاته
٤٠٦	الفلسفة فيه
٤٠٧	استدراجات مدنية
٤٠٧	اوستريا
٤٠٨	ايطاليا
٤١٧	فرانسا
٤٢١	روسيا
٤٢٣	اسوج
٤٢٩	المانيا
٤٢٩	انكلترة
٤٤١	اكتشافات علمية وتقدمات صناعية
٤٤٤	القرن التاسع عشر
٤٤٤	امتيازاته
٤٤٤	الفلسفة فيه
٤٤٩	اصول شعوب الدول الافرنجية الحاضرة ومراكز تقدماتها الحالية

في القرن التاسع عشر وفيه مطلبان

٤٤٩ المطلب الاول في الكلام على دول اوروبا القديمة التي تأسست من

الشعوب المتبربرة الهاجرة على الامبراطورية النمربية

٤٤٩ ايطاليا

٤٥٤ فرنسا

٤٦٠ اسبانيا

٤٦١ البرتوكال

٤٦٣ انكاترة

٤٦٤ المطلب الثاني في الكلام على الدول التي حدثت بعد ذلك في

الاقاليم الشمالية والشرقية التي كانت خرجت منها تلك القبائل

التي سبقت الاشارة اليها في تعريف المطلب الاول

٤٦٤ المانيا

٤٦٦ النمسا

٤٦٧ بروسيا

٤٦٨ الفلنك

٤٦٩ بلجيكا

٤٧٠ الدانمارك

٤٧١ السويد

٤٧٣ اسوج وبروج

٤٧٣ روسيا

٤٧٩ اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

٥٠١ تقدم الصناعة بالنسبة الى العلوم ومركزها في القرن التاسع عشر

٥١٩ الفصل الثاني في الكلام في المعارف في بلاد الدولة العلية العثمانية

منذ الفتوح الى القرن التاسع عشر

المقدمة

في أقسام التاريخ

يقسم الأفرنج التاريخ إلى ثلاثة أقسام الأول يسمونه القرون الأولى وهو تاريخ الزمان القديم المجهول ويبتدي من بدء الخليقة إلى الزمن الذي فيه أغار البربر على المملكة الرومانية فزقوها واستولوا على أقاليمها في سنة ٢٩٥ م فيكون محتويًا على وقائع ٤٤٠ سنة حسب التوراة العبرانية وتحتة ثلاثة فصول الأول من بدء الخليقة إلى زمن قورش ملك العجم مؤسس الحكومة الملكية سنة ٥٥١ ق م وأكثر وقائع هذا الزمن مأخوذة من الكتاب المقدس. والفصل الثاني من زمن قورش المذكور إلى زمن أغسطس قيصر الروماني الذي نقل الحكومة الرومانية من المشيخة إلى الإمبراطورية وهو يتضمن وقائع ٥٠٠ سنة من سنة ٢٤٥٢ إلى سنة ٢٩٥٢ سنة للعالم (سنة ٥١ قبل الميلاد) والفصل الثالث من عصر القيصر المذكور إلى زمن ثيودوسيوس الأكبر قيصر القسطنطينية الذي تولى المملكة في سنة ٢٧٩ م وقسمها بين ولديه في حالي حياته إلى قيصرتين شرقية وغربية فهو محتوي على وقائع ٤٢٠ سنة

والقسم الثاني يسمونه القرون الوسطى وهو يتضمن وقائع نحو ١١٠٠ سنة ويقسمونه أيضًا إلى ثلاثة فصول الأول من عهد ثيودوسيوس الأكبر المذكور إلى زمن شرلمانيا أو كرلوس مانوس اعني كرلوس الأكبر مؤسس الإمبراطورية

الغربية في فرنسا سنة ٨٠٠ ب م والثاني من عهد هذا الامبراطور الى نهاية
الحروب الصليبية وابتداء التمدن في بلاد اوربا وذلك نحو ١٣٠٠ ب م والثالث
من نهاية الحروب المذكورة الى الزمن الذي فيه اكتشف خرستوفورس
كوليبوس الدنيا الجديدة المسماة باميركا سنة ١٤٩٢ ب م
والقسم الثالث يسمونه القرون الاخيرة ويشتمل ايضا على ثلثة فصول
الاول مجنوي على وقائع ١٥٦ سنة منذ كُشفت اميركا الى الزمن الذي فيه
صارت مصالحة وستفاليا ووضعت النظمات والقوانين الجديدة في اصول
الادارات الدولية سنة ١٦٤٨ ب م والثاني من هذه المصالحة الى الزمن الذي
فيه حصلت الفتن العظيمة في فرنسا سنة ١٧٩٨ ب م والثالث من ابتداء
الزمن المذكور الى سنة ١٨٥٢ ب م

ومن ثم لا يخفى بانها لا بد من ان تكون الناس في كل قسم من اقسام
التاريخ المذكور على طبقات متفاوتة في التمدن الناتج من وسائط المعاشرة
والاثتلاف وكل ما يتسبب عنه اتساع دائرة العلوم والمعارف بمقدار ما يكونون
مطبوعين عليه من الجراءة والاقدام او الوسوس والاهام وهذا ايضا ينشأ
طبعاً من كيفية التصرف في استعمال العقل الموهوب من الله سبحانه وتعالى
خاصةً بتمازجها الانسان عن باقي الحيوانات التي تشاركه في الطبيعة والسكن
واشتغاله بالبحث عن حقائق الامور الواقعة تحت حواسها كما كانت من
الدقائق الخفية فان حسن هذا الاستعمال عند قوم او قبيلة نمت فيهم القوى
العقالية فكثرت عندهم المعارف وزادت الاختراعات وظهرت الاكتشافات
ذات الفوائد الجليلة فترقى تلك الامة الى اوج المعالي في مقام المدنية واما ان
ساء هذا الاستعمال في اي شعب او ملة من الشعوب والملل فانه يهبط به الى
حضيض الوحش والبربرية وفي الحالة الاولى يبقى الذكر جميلاً مخلاً على
الدوام واما في الثانية فانه يكون حطيطاً خاملاً بين الانام غير انه في الحالتين
قد قضى الله بعدم الامكان على الخوض في ادراك حقيقة ذاته الالهية وكنه صفاته

الاذلية وغاية مقاصده الربانية فليس للناس دليل على ذلك الا اعلاناته
الروحية ولا مرشد اليه غير ما جاد به عليهم من الكتب المقدسة السماوية فلا
ينبغي اذن ان نائف من معارف قوم وان وجد في اعتقادهم الدينية
اعظم المخرافات ولا نتق باراء اخر به في مثل هذه المباحث
لكونهم من صحة العقيدة في اعلى الدرجات
بل اينما تظهر لنا اثار العقول
ينبغي ان نتلقاها
بعين الاعتبار
والقبول

القيس الأول

من التاريخ وهو القرون الأولى

قد ذكرنا في ما مرّ بان أكثر وقائع هذا الزمن ماخوذ عن الكتاب المقدس ولذلك لا يمكننا ان نتكلم عنه هنا شيئاً باكثر او اوضح ما بسطناه في صدر الفصل الثامن من المقالة الأولى من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف وخصوصاً ما كان من هذه الوقائع مختصاً بالعالم القديم الذي كان قبل الطوفان الذي يخبرنا الكتاب المقدس بمحدثه بعد خلق آدم أول البشر نحو ٦٥٦ سنة اعني سنة ٢٣٤٨ قبل الميلاد وعلى مقتضى الاصطلاح الشائع المعول عليه الان وهو ان ميلاد المسيح كان بعد خلق آدم بنحو ٤٠٠٤ سنين حسب سلسلة تواريخ الآباء القدماء المستخرجة من التوراة العبرانية اما ما كان بعد الطوفان المذكور فقد ذكره المورخون بتفاصيل اجالية منها ما هو مؤسس على ما ورد في الكتاب المقدس ايضاً ومنها ما هو متحصل اما ما وصل بالنقل الشفاهي الى اوائل المورخين واما ما نتج عن الفحص في الآثار القديمة بواسطة جهد مدققي المتأخرين وبخلاصة ما قاله النوم المحققون بالنظر الى احوال اهل هذا القسم التاريخي الذي نحن بصدده هو انه ليس كل امة قديمة تستحق ان يبحث عنها بخلاف اهل مصر والعبرانيين والصين والهند والعجم والسريان واليونانيين فانهم كانوا دون غيرهم في القرون الأولى يستحقون البحث عن احوالهم نظراً لما في مالكم من الآثار الشهيرة المرغوبة التي تدلُّ

الباحث عنها على ما كانت عليه في وقتها غير ان الاختلاف واقع بين المورخين في تعيين الشعب الذي ابتدي قبل غيره من هذه الطوائف في ممارسة العلوم والفنون فمنهم من قال المصريون وأيد ذلك بقوله لكونهم كانوا اصلاً لكثيرين من القبائل والشعوب المتدنة ومنهم من يقول الكلدانيون ويؤيد ذلك بما يقوله ستانايوس بان سحرة العجم المعدودين بين العلماء اخذوا معارفهم عن الكلدان الذين هم اقدم جداً من المصريين وبما قاله شيشرون اوقيقرون اول فلاسفة الرومانيين ومورخيتهم ان شعب الكلدان شعب العلماء الكلي القديمة اه لكن اذا التفتنا للمبدي الماخوذة من الكتاب المقدس ايضاً نرى بانه بعد اندراس العالم القديم بيه الطوفان انطلق بنونوح بعد خروجهم من الفلك الذي به نجا نوح واولاده من الفرق دون سائر اهل الارض الى ارض شنعار الواقعة في جنوب جبل اراراط وبعد ان استوطنوا هناك وصاروا شعباً عظيماً اجمع رايهم على بناء برج عظيم لكي يلتجئوا اليه وقت الحاجة ويخلصوا به من الهلاك والفرق اذا حدث طوفان آخر فشرعوا في بناء ذلك البرج ولازالوا يرتفعون به عن وجه الارض الى ان بلبل الله السنتم سنة ٢٢٤٧ ق م فكفوا حينئذ عن العمل وتفرقوا على سطح الكرة ولعل كل فرقة منهم كانت تكلم بلغة واحدة تجمعت وانضمت الى بعضها وذهبت الى جهة معلومة منها ودعي اسم ذلك البرج برج بابل الى يومنا هذا ولذلك كان لا يبعد عن العقل في كونهم هم اول من مارس العلوم والفنون في ارض شنعار المعروفة بارض الكلدانيين التي قصبتها كانت مدينة بابل عينها التي نُسب اليها البرج المذكور وبناء على هذا جميعه نجعل بداءة الكلام هنا على سكان هذه الارض فنقول

المعارف في بلاد الكلدان

الكلدانيون يقال لهم السريان والبابايون ايضاً وهم قدماء العراق

والاكراد يسكنون في الجزيرة التي بين نهري دجلة والفرات باقليم اسيا ويسمونها
اليونان ميزوبوتاميا وهي من اعظم اقطار الارض
قال ابن خلدون المغربي ان معنى الكلدانيين موحدون ومعنى سريانيين
مشركون وقال اخرون ان الكلدان هم الذين يسكنون كالديا قسماً من مملكة
بابل وقد اخذوا هذه التسمية من كاسديم او كوسديم بن حام وهو كوش (تلك
١٠: ١١) وانه حسب تواريخ القدماء هم اول من ابتدا بالعلوم ولئن كان
المصريون قد ارادوا ان يخصصوا هذا المجد لذواتهم فادعوا ان الكلدان عائلة
من عائلاتهم

ولم يعلم المورخون شيئاً من امور غربية وقعت في تلك النواحي حتى يوصلوا
عليه غير ان بعضهم يذكر بان مدينة بابل الموضوعة على نهر الفرات قصبة بلاد
الكلدانيين وبنينوى الموضوعة على نهر دجلة قصبة بلاد الاشوريين كانتا اعظم
مدن هاتين الملكتين ثم بعد قليل من الزمان صار الكلدانيون والاشوريون
امة واحدة وصار الاسان يتواردان على مسمى واحد

اما مدينة بابل المذكورة قصبة بلاد الكلدان فقد بناها نمرود حفيد حام
بن نوح سنة ٢٢٠٠ ق م وزادتها قوة ونظاماً سميراميس الملكة زوجة نينوس
ملك الاشوريين والملوك المتداولة بعدها حتى قام بختنصر وابنه توكريس سنة
٦٢٤ ق م فجعلها في اعلى درجات العظمة والجلال بحيث صارت تعد من
غرائب الدنيا فان هذه المدينة كانت قائمة في وسط سهل فسيح وارض مخصبة
جداً وكان نهر الفرات يخرقها جاريًا من الشمال الى الجنوب وهي محصنة بسور
مربع يبلغ محيطه ٦٠ ميلاً وعرضه ٨٧ قدماً بحيث تجري فوقه ٦ عربات صفاً
واحدًا وارتفاعه ٢٠٠ قدم وكان على جانب النهر من الناحيتين في وسطها
رصيف وسور رفيع متين في الغاية وفوق النهر قنطرة عجيبة من حجر يعبر عليها
من احد الجانبين الى الاخر وكان للمدينة ١٠٠ باب من نحاس عظيمة جداً
وكان خارج المدينة ترعانان تجتمع اليها ماء النهر عند فيضه وينصرف منها

الى دجلة فلا يطغ على المدينة وداخلها سدود عظيمة تمنع فيض النهر من جانبيه وكانوا يقطعون الحجارة لتلك الابنية من غربي المدينة فحدث من ذلك هناك حفرة عمها ٣٥ قدماً ودائرتها ٤٥ ميلاً وعلى طرفي القنطرة القائمة فوق النهر قصران عظيمان بينهما قبة تصل اقدمها بالآخر تحت النهر ودائرة الشرقي منها ٤ اميال وحولها ٣ اسوار حصينة وهو اقدم القصرين ودائرة الغربي ٨ اميال وفي داخله بسايتين معلقة واحداً فوق واحد على هيئة درجات السلم الى مسطواة اسوار المدينة وفيها اشجار كبيرة

وبقرب القصر القديم هيكل بعل اوبلوس اوبيلوس الذي بنته سيراهيس الملكة التي تقدم ذكرها لدفن ابيها بيلوس الآتي ذكره وهو مربع البناء ودائرتها ٣ اميال وفي وسط هذا الهيكل برج عظيم ارتفاعه ٦٠٠ قدم وكان هذا البناء العجيب مركباً من ٨ ابراج علوكل واحد منها ٧٥ قدماً وكان يُنزل منها بسلام مستديرة بها من خارج وفوق الهيكل تمثال من ذهب علوه ٤٠ قدماً وتمثيل اخر غير كثيرة وامتعة ثمينة لاستعمال العبادة الوثنية مما لا يحصى ثمة ومن ذلك يتضح عظم غنى السلطنة البابلية وقوتها ولذلك كانت تدعى بابل المدينة الذهبية ومالكها سيدة الممالك وقال فريق اخر من المؤرخين في كلامهم على بابل ومن غرائبها هيكل بلوس الذي ارتفاعه ٤٠ قدماً (يريدون حالته المحاضرة بعد ان خرب) وهو احد عجائب الدنيا السبع ^(١) ويسمى الان صومعة

(١) غرائب الدنيا السبع التي يتعجب منها الناس في عصرنا هذا هي مذكورة في كثير من كتب القدماء غير انه يوجد اختلاف في تعدادها اذ منهم من قال بانها ١ هي هيكل بلوس الذي نحن بصدد ٢ اهرام الجيزة ٣ منارة فاروس ببلاد مصر ٤ هيكل ديانة في افسس ٥ ضريح الملك موزول في اناطولي وهو قبر عظيم بنته له زوجته الملكة ارطيميزة بمدينة تسمى هاليكرناس وهي وطن هرودوتوس اول مورخي اليونان وكانت دار اقامة ملوك كاريا في شبه جزيرة صغيرة جهة جزيرة قوس المسماة الان استانكوي ٦ التمثال المشهور في رودس ٧ تمثال جوبيتر في اولمبة ومنهم من قال بانها هي ١ صنم رودس ٢ الاهرام المصرية ٣ القنوات التي يجري فيها الماء الى مدينة رومية ٤

بابل او برج بابل وفي الكتب العربية يسمونه برج نمرود وعدوه من غرائب الدنيا لعظمه واستحكام بنائه العجيب وقد اندرس الان ولم يبق منه غير اسوار متهدمة في شكل مربع وهو البرج الذي شرع في بنائه بنونوح ليتقوا به من طوفان اخر يحدث في الارض قبابل الله السنتم واما تسميته بهيكل بعل او بلوس فهو لكون بعض السواح زعموا نظراً لاعبارهم ما كانت عليه هذه المدينة من الاتعاع العظيم بانه هو هيكل بلوس اله الواقين وهو الشمس لكن لا يبعد الاجماع بين الرايين لانه يحتل بانه بعد ان شرع بنونوح في بنائه للفاية المذكورة حوله سكان البلاد هيكلًا لمعبودهم المذكور وقد بقي هذا الهيكل منتصبًا بعد ابتداء التاريخ المسيحي وهو لم ينزل متاسكًا الى الآن ومع انه صار تلة خراب لم ينقص ارتفاعه عن ٢٥ قدمًا وعليه قطع عمارات من الطوب ترن كالزجاج دايلاً على انها لفيت حرًا شديدًا

ثم لما استولى قورش ملك مادي وفارس موسى السلطنة الملوكية الذي سبق ذكره على هذه المدينة في سنة ٥٥١ ق م اخذت وقتئذ في الانحطاط فتهدمت اسوارها الشامخة حتى انتهت الى ربع ارتفاعها القديم وكذلك احد خلفاء هذا الملك اخذ كنوزها كلها واباد تماثيل الذهب والفضة فلما استولى عليها الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٠ ق م اراد ان يعيدها الى عظمتها الاولى ويجعلها عاصمة البلاد لكنه في اثناء ذلك توفي فبطل العمل وفي سنة ١٢٠ ق م قام جبار اخر بارثياني وخرّب اعظم ما وجد منها وما زالت اخذة في الخراب الى القرن الرابع من الميلاد فتم خرابها وصارت تلالاً لكن السواح في هذه الازمنة الاخيرة قد عرفوا مكانها وهم يتفقدون آثارها وخرائبها اذ انها بعد ان كانت

اللدبرنك في مصر ٥ منارة الاسكندرية المعروفة بمنارة فاروس ٦ سور بابل ٧ هيكل ديانة في افسس وزعم اخرون انها ١ تمثال رودس ٢ اهرام مصر ٣ هيكل افسس ٤ جنائن بابل المعلقة ٥ قبر الملك موزول او هو ماوسوليوس ٦ كهف جزيرة اتني بانروس ٧ لغز كريت

اعظم المدائن صارت اعظم الخرائب واطفي ذكرها فاندرست بقاياها
واما مدينة نينوى التي هي قصة بلاد اشور فباني النبي بناها هو الهور بن
سام بن نوح وفي بعض الكتب العربية نينوس بن نرود باني مدينة بابل الذي
مر ذكره وهي نظير مدينة بابل بكونها من اقدم مدن العالم واشهرها وكان
بناؤها سنة ٢٠٢٦ ق م والمؤرخون الوثنيون يصفونها بان ارتفاع اسوارها كان
١٠٠ قدم تجري فوقها ثلاث مركبات صفاً واحداً ودائرتها ٦٠ ميلاً وهي
محصنة بالف وخمس مئة قلعة طول الواحدة منها ٢٠٠ قدم ويؤيد ذلك
قول يونان النبي بان امتدادها كان مسيرة ٢ ايام قيل ان بناء اسوار المدينة
وقلاعها تم بنحو ٨ سنين وكان عدد الذين اشتغلوا بذلك نحو مليون واربع مئة
الف نفس وقيل ايضاً ان اهلها كانوا يبلغون في العدد ٦٠٠ الف نفس ثم ان
خلفاء نرود على هذه المدينة واظبوا على تحسينها واتساع بنائها الى ان جاء
بختنصر الاول الذي جعل مملكة بابل مستقلة وخرّب مدينة نينوى المذكورة
ومن ذلك الوقت اخذت في الدثار محتمى ان مكانها بقي مجهولاً عند الاجيال
المتاخرة زماناً طويلاً غير انه منذ بعض سنوات ذهب اليها ايضاً جماعة من اهل
السياحة وكان بينهم رجل انكليزي مشهوراً بالنظر في مثل ذلك فصرف زماناً
في التنقيب على خراباتها الكثيرة الاشكال وبعد الحفر في التلال والروابي انكشف
هناك عن ابنية وصور ونقوش وغير ذلك من الآثار القديمة من ذلك صورة
سنياريب الملك وقد اخذت الى بلاد الانكليز مع بعض تماثيل وصور اخرى
غيرها وهي الان محفوظة في بيت الآثار القديمة في مدينة لندن
وكان اول من اشتهر بالعلوم بين اهالي هذه البلاد زرواسترة يقال بانه
كان في زمن النرود ويلي المعلم بيلوس معلم الملك الذي كان سنة ٢١٢٠
ق م فوضع بعد موته في صنف الالهة وسمت له بنته سراميس قبراً في بابل الوسطى
وهو هيكل بعل تلى ما سبقت الاشارة الى ذلك في معالجته واخيراً ظهر المعلم
بدروسوس الذي اشتهر بالتاريخ الذي قدمه الى بطليموس فيلادلف ملك

مصر سنة ٢٨٢ ق م وهو اول من استخرج العلوم الكلدانية الى اليونانية فكافاه
اهل اثينا بان اليسوا تمثاله عندهم ذهباً وكان من المرمر
وكان والعلماء الكلدانيون حكماء بابل يتقنون رصد الكواكب بغاية
التدقيق واخترعوا لها المزاول وتقدموا جداً في هذا العلم وكانت النون
والصنائع عندهم عظيمة جداً واكثروا فيها من النفاخر والتزين حتى وفي الاطعمة
ايضاً وكانت ابينتهم عظيمة كابنية المصريين مزخرفة بانواع النقش والحفر
والتصوير وكان لهم في علم الطب ايضاً باع طويل فكانوا ياتون بالمرضى
ويضعونهم في الازقة ومعابر الطرق بقصد انه اذا مر عليهم احد من قد اصاب
بذلك الداء المصاب به المريض براه فيعلمهم سبب شفاؤه من تلك العلة وبهذه
الواسطة مارسوا علم الطب جيداً حتى برعوا فيه واتقوه غاية الاتقان وكانوا
يكتبون اسماء العلاجات المفيدة على الواح ويعلقونها في هيكل اله الطب
ثم آل امرهم اخيراً للتعليق بامور كاذبة فزعموا معرفة الحوادث المستقبلية
من رصد الكواكب الذي يسمونه علم التنجيم حتى انهم عبدوا هذه الكواكب مع
معرفةهم الاله الحق فكانوا بذلك هم اول من ابدع هذه الضلالة واستحالت
جميع علومهم الى الحرافات كتآليف باطلة عن المزمعات وتفسير الاحلام
والسحر وتقسيم علومهم هذه على بعض عائلاتهم حتى صاروا كل عائلة يفرغ
جهده في تنوية علمه وان يمتد الى بيته والذين يتخلفون بعده وكانت هذه
العائلات تتخذ اول الكراسي في الاقاليم وتكون معافاة من التكاليف العامة
ومن الخراج

وزعم بعض المؤلفين ايضاً بان نينوس باني مدينة نينوي الذي مر ذكره
كان صنع صنماً لايه سنة ٢٠٥٩ ق م واظهره للناس وامر بعبادته فاقتدى به
الناس وصاروا يعبدون ملوكهم وامراءهم وشجعانهم بعد ان كانوا تاهوا قبل
ذلك عن عبادة الخالق وصاروا يعبدون الشمس والقمر وسائر الكواكب
فكانوا بذلك اول من انشأ مذهب الصابئة ايضاً يعني عبادة الاوثان وتاليه

الاسلاف اي الاعتماد بالوهية بعض افراد الرجال اذ قد اتخذوا اولاً لكل
كوكب صنفاً وبالنالي صنم بعل الذي اشرنا في ما مر بانته بيلوس معلم الملك
وهو من اعظم معبوداتهم وسهوه اله الارض الاكبر لانهم يزقوا به عن الشمس
وكان من جملة آلهتهم نسروخ ومعناه نسر عظيم ومنها ايضاً ما هو على صورة
السك وكانوا يعبدون الملكة سراميس المتقدم فكرها واقاموا لها تماثيل منقوشة
بهيئة حمامة لزعيمهم انها تحولت الى هذا النوع من الطيور بعد موتها وبسبب
ضلافهم هذا امر الله ابراهيم الاب الاول للشعب الاسرائيلي ان يخرج من تلك
الارض ليحفظ هو ونسله من بعده عبادة الله الحقيقية في ارض كنعان اها هم
فاستمروا على ما هم عليه الى ان فشت بينهم الرذائل وكثرت المفاسد سيما حين
كان قورش ملكاً على بابل قال بعض المولدين ولاغرابة في ذلك لان
الاعتمادات الفاسدة تولد المفاسد فان مفسد الكهل المركب اشبع من مفسد
البيسط ولذلك ذهبت عفة نساءهم وحياء رجالهم
وكانت قد امتدت عاوم هولاء ما تقوم بهدة تصيرة الى بلاد فارس وفيبيقية
العربية ووصلت اليها مصحوبة بما ذكرناه من تلك الاضاليل والحرافات ايضاً
غير انه ينبغي قبل الشروع في تفاصيل ذلك ان نتم حديث ما جرى لابراهيم
الذي ذكرنا بان الله امره ان يخرج من تلك الارض ليحفظ هو ونسله عبادة الله
الحقيقية في ارض كنعان

المعارف عند العبرانيين

لا ينبغي بان ابراهيم المشار اليه في ما تقدم هو ابن نلرح بن ناحور بن سروج
بن رعو بن فالح بن عابر بن شالح بن قينان بن ارفكشاد بن سام بن نوح ولد
لتارح المذكور بعد الطوفان بنحو ٢٠ سنة في بلاد الكلدانيين الواقعة في الجهة

الجنوبية من مملكة اشور وكانت تابعة لها على ما سبق ايضاحه في الكلام على الكلدانيين ومع ان اهالي تلك البلاد كانوا وقتئذ مشهورين بالمعارف والفنون وبارعين في علم الهيئة والنجوم المزبا التي اوجبت اخيراً الرومانيين ان يستندوهم ويستخدموهم في الامور المهمة فبتركوا عبادة الله الحقيقية وفضلوا عبادة الكواكب والآن اردفوها باتخاذ الاوثان كما سبق تفصيل ذلك ايضاً اما ابراهيم فكان باقياً على عبادة الله الحقيقية وكان في اول امره يرعى الغنم في سهول تلك البلاد الى ان توفي ابنه ولما امره الله بالخروج من وطنه والذهاب الى الارض التي وعده ان يعطيها في المستقبل ملكاً لنسائه امثال ما امره به سبحانه وتعالى وتوطن اولاً في حاران وهي مدينة بين نهري دجلة والفرات وكان ذلك سنة ١٢١١ ق م ثم لازال يجول هو وخدامه ومواشيه من مكان الى مكان ساكنين في الخيام التي فيها رزق ايضاً ولده اساعيل من هاجر واسحق من سارة الى سنة ١٧٠٦ ق م حيثما نزل سبطه يعقوب وجميع اهل بيته الى مصر بعد وفاته هو وزوجته اذ كان وقتئذ يوسف بن يعقوب المشار اليه متسلطاً على جميع هذه المملكة من قبل فرعون طوطميس الثالث احد ملوك الدولة الثامنة عشرة على ما حققه المحققون خلافاً لما قاله ماربييت بك ناظر الاتيعة خانية المصرية في مولفه من ان فرعون يوسف كان من ملوك رعاة العرب الذين سوف ياتي ذكرهم في الكلام على المصريين ولا زال نسله مقيماً هناك الى سنة ١٤٩١ ق م عند ما اخرجهُ الله تعالى منها الى ارض كنعان بقوة الايات والعجائب التي اصطنعها عن يد موسى النبي على عهد الملك منيفتا ابن رمسيس الثاني وخليفته على مملكة مصر من العائلة الملوكية التاسعة عشرة فتكون مدة اقامة هذا الشعب المسي بالebraانيين من نسل ابراهيم المشار اليه منذ خروجه هو نفسه من ارض الكلدانيين الى تلك السنة التي خرجوا فيها من مصر ٤٣٠ سنة وكان اهل بيت يعقوب المدعو اسرائيل حين دخلوا الى مصر ٧٠ نفساً (تك ٤٦: ٢٧) وخرجوا من هناك ٦٠٠ الف ماشٍ على الاولاد (خر ١٢: ٢٧) ثم بعد ان اقاموا

تأهين في البرية ٤٠ سنة ازلت البداوة بها عنهم جبانة الذل والعبودية التي كانوا
 الفوها مدة اقامتهم في مصر افتتحو الاراضي التي وعد الله ابراهيم جدهم الاعلى ان
 يعطيها لنسله ولقتسموها بينهم بمساحة الحبل عن يد يشوع بن نون خليفة موسى
 سنة ١٤٥٠ ق م قال احد المؤلفين ان العبرانيين كانوا وقتئذ يبلغون نحو
 مليون ونصف من النفوس ويخبرنا الكتاب المقدس ايضاً بانهم لم يجناجوا في
 مدة هذا التيه الى سعي في الحصول على المطاعم والملابس لانه جلت قدرته
 كانه يقبضهم بالبن والسلاوي ويسفهم من صخرة تابعة كانت تتبعهم حيثما حلوا
 واحذبتهم التي خرجوا بها من مصر لم تلب وكذلك اثوابهم لم تنهر ويقبضهم حجر
 الشمس نهاراً بحماية من الغمام ويضي عليهم في الليل بعمود من نار الى ان دخلوا
 ارض كنعان كما ذكرنا

وكان يقضي بينهم موسى النبي المشار اليه بحسبها بامر الله جل شانه مدة
 حياته الى ان توفي قبل ان دخلوا ارض الميعاد وبعد ذلك خلفه يشوع بن نون
 وهو الذي قادهم في افتتاح البلاد وقسمها بينهم بمساحة الحبل كما تقدم ثم بعد
 وفاة يشوع بن نون كان يتولى امرهم القواد الذين كان يخناهم الله لنصرتهم في
 حروبهم مع جيرانهم اهالي فلسطين وكانوا يسمون بالقضاة حيث لم تكن لهم
 سلطة كسلطة الحكام الذين يظنون الاحكام ويضعون القوانين بل كانوا يجامون
 عن الشرائع الالهية المنزلة على موسى النبي ويحافظون على حقوق الشعب
 وينظرون لكليات مصالحهم ويعتقون من المجرمين ولاسيما الذين يتوغلون في
 العبادة الاصنامية وكان عدد هؤلاء القضاة ١٤ رجلاً دامت احكامهم نحو
 ٢١٠ سنين من بعد موت يشوع بعشرين سنة الى ان تملك اول ملك في
 اسرائيل ومن ثم طلب الشعب من صهونيل النبي وكان يومئذ قاضياً ورئيساً
 عليهم ان يسمع لهم ملكاً كسائر شعوب الارض والحوا عليه بذلك حيث كان بين
 لهم حقوق الملوك ليكفوا عن طلبهم هذا واخيراً استجاب سؤلهم وسمع لهم رجلاً
 يقال له شاول بن قيس من بني بنيامين احد الاسباط وهم قبائل اليهود الآتي

ذكرهم وكان جميل المظهر لكن لما لم يكن مستقيم القلب في الطاعة لاحكام الله لم يثبت الملك لبيئو من بعده بل بعد موته اخنار الشعب رجلاً كان اعده الله لهنة الوظيفة ومسحوه ونبيل النبي ملكاً برث شاول في حياة شاول المذكور وهو داود بن يسي من قبيلة يهوذا فتولى المملكة ١٠٥٥ ق م وكان نبياً جليلاً وملكاً مهاباً معاً وشاعراً فصيحاً وهو صاحب كتاب الزبور الذي لا يزال اكثر الناس يسبحون الله بنشائده الروحية ولما تقرر ملكه جعل كرسي مملكته مدينة اورشليم المعروفة في الكتب العربية ببيت المقدس وهي مبنية على جبل يسي موريا الذي كاد ابراهيم الخليل المقدم ذكره ان يقرب عليه ابنة اسحق ضخمة لله سنة ١٧٨١ ق م والقصة مشهورة (تك ٢٢: ١٤) وكانت بناء هذه المدينة عند خروج هذا الشعب من ارض مصر بناها سكان البلاد الاولين وكان قبلها هذا الجبل قفراً ثم لما اقترع اليهود ارض كنعان عندما امتلكوها واقتسموها على ما ذكرنا اصابته قرعتها لسبط يهوذا وبنيامين لكنهما بعد ذلك احترقت ثم اعاد اليا بوسيون بناءها وحصنوها تحصيناً متيناً جداً حتى ظنوا ان العرج والعميان يقدرون ان يجمعوها من داود المشار اليه لكنه امتلكها اخيراً وجعلها كرسي المملكة على ما ذكرنا وفي مدة ملكه وملك سليمان ابوه الآتي ذكره كانت في عز فخرها وفاضت بالخبرات والاموال ولم يكن للفضة فيها اعتبار بيزيد عن اعتبار حجارة الارض ثم اخذ داود في اصلاح احوال المملكة فهدبها وشيد ما حتى صارت على جانب عظيم من العظمة والفخار والشوكة والاقطار واعده بعد ذلك فيها كل ما يلزم من الادوات لبناء بيت الله اذ كان قد مضى على اليهود نحو ٤٨ سنة منذ خروجهم من مصر ولم يكن لهم مسجد يقيمون فيه فرائض ديانتهم لكن لم يتم هذا العمل العظيم الا في ايام ابنه سليمان على ما يأتي اما داود فانه لما سار امام الله بقلب سليم وغده الله بان يعطي الملك لنسبه من بعده وان المسيح يأتي من ذريته وبعد ان توفي قام ابنه سليمان المقدم ذكره مكانه وكان له من الحكمة التي اعطاها اياها الله ما لم يكن لاحد قباه ولا يكون بعده فاعنتي بيناه هذا

البيت المقدم ذكره فكان هيكلًا عجيبًا في العالم اشتهر باسم هيكل سليمان بناه في ٧ سنين واكمل عمارته سنة ١٠٠٤ ق م طوله ٦٠ ذراعًا وعرضه ٢٠ ذراعًا وسكته اي ارتفاعه ٢٠ ذراعًا والرفاق قدام الهيكل طوله ٢٠ ذراعًا حسب عرض البيت وعرضه ١٠ اذرع وله غرفات على الدائر وكان بناؤه بحجارة صحيحة متقنة ولم يسمع في بناؤه منحت ولا معول ولا اداة من حديد (وان صنعت لي مذبحًا من حجارة فلا تبنو منها مخونة اذا رفعت عليها ازيمالك تدنسها خر ٢٠:٢٥) وبنى ٢٠ ذراعًا من موخر البيت والهيكل الذي امامه ٤٠ ذراعًا لتتم الستين وكان يستخر في كل شهر ١٠ آلاف رجل يرسلهم الى لبنان لاجل قطع خشب الارز والسرو وما عدا من كان معهم من قبيل ملك صور و ٧ آلاف يحملون الاحمال و ٨٠ ألفًا يقطعون حجارة من الجبل وكانت وكلاؤه على هذا العمل ٢٢٠٠ رجل ثم انه زين هذا الهيكل من داخله بانواع النقوش والتماثيل الملبسة بالذهب بحيث لا يستطيع لسان القلم ان يصفه ويحصى قيمة نفقته وبنى ايضا قصر بيت الملك في اورشليم وقصرًا في بعلبك لزوجته ابنة فرعون ملك مصر ومدينة تدمر الى غير ذلك من الابنية والعمارات المشيدة وخصوصًا في اورشليم مدينة ملكه وجلب اليها الماء ثم بعد وفاته انقسمت المملكة الى قسمين في ايام تملك ابنو رحبعام سنة ٩٧٥ ق م القسم الاول مملكة يهوذا وكان كرسية اورشليم المذكورة وبنى تحت تسلط سلالة داود واما القسم الثاني فسمي مملكة اسرائيل وكان كرسية السامرة وقد تعاقب على هذا القسم الثاني ١٦ ملكًا اولهم يربعام بن نباط وكان تحت تسلطه ١٠ اعباط من بني اسرائيل فازاغهم عن عبادة الله حيث بنى لهم بيتًا على جبل سامرة ونصب لهم فيه عجلين ليعبدوها وبذلك صرف قلوب اكثر رعاياه عن الصعود في كل سنة الى بيت الله في اورشليم كمادة اليهود لئلا تميل بذلك قلوبهم الى مملكة يهوذا وعلى هذا المنوال كان اكثر ملوك هذا القسم عبدة اوثان استمر ملكهم ٢٥٠ سنة الى ان زحف اليهم شلناصر ملك اشور سنة ٧٢١ ق م وحاصر السامرة وافتتحها واسر الاسباط

العشرة مع ملكهم ونقلهم الى بلاده واسكن عوضهم اقواماً من رعاياه الاصليين فكانوا هم اصل فرقة السمره كما اوضحنا تفاصيل ذلك في القسم الرابع من المقالة الثانية . من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف وعلى هذه الصورة انقضت مملكة الاسباط العشرة وتلاشى ذكر شعوبها حتى لم يسمع لهم خبر بعد ذلك واما مملكة يهوذا فكان ملوكها كذلك ١٩ ملكاً على التعاقب من ذرية داود وكان بعضهم من اهل التفوس والصلاح الى ان كان صدقيا اخر ملوكهم زحف نبوخذ نصر ملك بابل بجيوشه وحاصر اورشليم وافتتحها واسر صدقيا المذكور وقلع عينيه واحرق المدينة والهيكل بالنار وسي كل شعب يهوذا ما عدا المستاكين والفقراء الى بلاده وهكذا انقضت هذه المملكة ايضاً سنة ٥٨٨ ق م وكانت مدتها ٢٨٧ سنة بعد انفصال مملكة اسرائيل عنها ولا زال اليهود المذكورون في هذا السبي الى ان استولى قورش ملك بابل فاذن لهم في اواخر حكمه ان يرجعوا الى بلادهم بعد ان اخذ عليهم العهد والمواثيق ان يبقوا في طاعته والانقياد الى اوامر من يتخلفه فرجعوا وبنوا الهيكل تحت رياسة عزرا الكاتب ومارسوا طقوس عبادتهم وبقوا خاضعين الى الفرس الى ان استولى على البلاد الاسكندر المكدوني وطرد الفرس منها سنة ٣٣٠ ق م قال يوسيفوس المورخ اليهودي ان اسكندر الكبير لما قدم بجيوشه نحو الفرس ليفتحها انتقاماً لامدادهم اهل صور بالذخائر والعلوفات عند ما كان محاصراً المدينة ظهر له ملاك في الطريق ويهدده على ما كان قصده من خراب اورشليم فخاف الاسكندر وعدل عما كان مصمماً عليه وعلى رواية اخرى انه ابصر فيها الاسقف الكبير الذي كان يراه في منامه قبل ذلك ببشره بفتح اسيا فلما رآه خر ساجداً لما راي اسم الله تعالى مكتوباً على الحلة الكهنوتية التي كانت عليه وعلى اية صورة كان الحال فان هذا الفاتح عند وصوله الى المدينة دخلها كزائر وسجد لاله اسرائيل في الهيكل واتحف الكهنة بهدايا فاخرة ثم تحول عنها تاصداً داربوس ملك الفرس ثم بعد موت الاسكندر تغلب المصريون واستمرت شعوب اليهود

تحت تسلطهم مدة طويلة الى ان اتى انتيوخوس الرابع من ملوك الدولة السلوقدية
وافتح البلاد واسر الالهالي واذل امة اليهود وقتل منهم خلقاً كثيراً والمراجع الى
بلاد استناب عليهم رجلاً يقال له فيلاكس وامرته بان يلزمهم كمرهما على اكل لحم
الخنزير والسجود للاصنام والامتناع عن الخنثان وعن حفظ السبت والافقتل
كل من خالف امره فكان من جملة من قتل وقتل الشهداء المكابيون السبعة
المشههورين وفي سنة ١٦٦ ق م قام بين اليهود رجل جبار من المكابيين المذكورين
بدع مثنيا بن يوحانان الكاهن فساد السوربين من البلاد واستبد بالمملكة
ثم جرت بيته وبين نيكيروس احد قواد الرومانيين وقعة قتل فيها واعد موته
استولت ذريته على اليهودية وصاروا ملوكاً الى ان جاء بومي القائد الروماني
وافتح البلاد سنة ٤٠ ق م واستناب عليها رجلاً من بلاد ادوم يسمى انتيباتروس
وكان من عظماء اليهود وشارفهم وسنة ٢٧ ق م عزله الرومانيون عن الولاية
واقاموا عوضه هيرودس الكبير الذي في ايامه ولد المسيح في بيت لحم اليهودية
ومن ثم دامت ملوك اليهود على الخضوع الى الرومانيين نارة والعصاة اخرى
الى سنة ٤٠ م حينما افتتح تيطس اورشليم بعد حصار شديد مات به نحو ١١٠٠
الف من اليهود داخل الحصار واشتد الجوع على الالهالي المحصورين فاكلوا
الجلود ولحم الكلاب حتى اضطرت بعض سائهم ان تاكل ابنها واحترق
الهيكل والمدينة بالنار وسي منهم ٩٧ الفاً استصحهم تيطس معه عند رجوعه الى
بلادهم وكان يلقى منهم في كل مهزلة للسباع والوحوش الضارية التي كانت معه
فتزقهم والباقيون بيعوا عبيداً في رومية وكان قد بقي جانب من اليهود في اورشليم
فاخذوا برعمون المدينة بعد رحيل الرومانيين عنها واقاموا منها جانباً عظيماً
ولما بلغ ذلك القيصر ادريانوس الروماني ادركهم حالاً وهمدم ما كانوا قد
جددوه من اسوار المدينة وبيوتها وجعلها مساحة واحدة على الارض وفتحها
وزرعها ملحا وبذلك انتهت مملكة يهوذا وتم خراب اورشليم وتشتت ما بقي من
اليهود في اقطار الارض

ويطلق على هذا الشعب عدة القاب منها عبرانيون وقد أطلق هذا اللقب على ابراهيم الاب الاول الذي سبق ذكره لما عبر وتعدى نهر الفرات ليسكن ارض كنعان فثبيل له ابراهيم العبراني اما معنى ابراهيم فهو اب ائمة كبيرة ومنها اسراييليون نسبة الى اسراييل وهو اسم سبي الله به يعقوب حفيد ابراهيم واما الاسباط (تك ٢٢: ٢٨) ومعناه امير مع الله ومنها ايضا يهود نسبة الى يهوذا بن يعقوب وكانوا يقسمون الى ١٢ سبطاً بعدد اولاد يعقوب المشار اليه وهكذا قسم يشوع بن نون ارض كنعان ووزعها على ١٢ سبطاً عبرانه لما خصص الله سبط لاوي لخدمة الكهنوت ورتب له العشور والذور على شعب اليهود وان يعيش من خدمة الهيكل منعة عن الاشتراك مع باقي الشعب في امتلاك قسم مخصوص وانما عين له بعض القرى لسكوه فقط فقام مقامه في تكملة العدد نسل يوسف حيث قسم الى سبطين وهما افرايم ومنسى بحسب ما طلب يعقوب الى ابيه يوسف المشار اليه عند ما زاره وهو مريض مرض الموت (انظر تك ٤٨: ٥) ثم لما انقرضت مملكة اسراييل على ما ذكرنا في ما مر تلاشي بانقراضها ١٠ اسباط من الاسباط المذكورة ولم يبق غير سبطي يهوذا وبنيامين

وبعد ان اسر بختنصر ملك بابل هذه البقية ايضا في سنة ٥٨٨ ق م واقامت في بلاده ٧٠ سنة ورجعت الى اورشليم حسب ما تقدم وشرعت في بناء الهيكل انقسمت الى فرقتين احدها تمسكت بالكتب المقدسة فقط وسميت صاد يكيم اي الصديقين ويقال الصدوقيون وانفق معها السامريون الذين مر ذكرهم والاخرى اضافت الى ذلك تقاليد المشايخ ونسب ما ظن فيها من القداسة قيل لها خاسيديم اي التقيين ومنها اتسل الفريسيون والاسينيون وصادف ذلك امتداد الفلسفة اليونانية وقتئذ فتشعبت اليهود في آرائها الى فرقي متعددة وطوائف شتى ذكرناها مفصلاً بقدر الامكان في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا تطيل الكلام عليها هنا

وكانوا في مبدأ أمرهم يتكلمون بلغة خاصة بهم تسمى عبرانية نسبة لم وهي لم
تزل معتبرة ليس عندهم فقط بل وعند كل العلماء وخاصة احبار الديانة
المسيحية حيث بها كتبت كتب العهد العتيق الآتي ذكرها وهي احدى اللغات
السامية من لغات اسيا وشهرتها تغني عن وصفها ويكتبونها بحروف مخصوصة
يبتدون بها من اليمن الى الشمال كالخط العزبي الذي يعصلها بعدة حروف
لا توجد فيها

• اما قواعد ديانتهم فهي معروفة ومفصلة بقدر الامكان في القسم الرابع من
كتابنا زبدة الضحائف الذي مر ذكره وهي الاساس الاصلي لدايات الكهانية
وخاصة الديانة المسيحية

وعلماء هذه الامة هم اول علماء الارض واشهرهم فان موسى النبي الذي
اخرج بني اسرائيل من ارض مصر كان يهذب قبل بعثته بكل حكمة المصريين
ومنه تفقه جميع شعب اليهود بين العلوم والكتب التي كتبها هذا النبي العظيم
بوحى من الله خمسة هي الاساس الوحيد الذي بينى عليه اهم الامور من العلوم
التاريخية والجغرافية وغير ذلك من المعارف العظيمة بالرغم عن كل مقاومتها
بل هم ذواتهم يلتزمون غالباً مع كل مكابراتهم الى الانقياد لما تضمنته من القضايا
التي ذكرها مع انه لم يكن قصد هذا النبي تاليفاً من هذا القبيل وانما جاء ما جاء
من ذلك معه بالعرض لتفصّل اظهار عظمة القدرة الالهية وكيفية اعتنائها بخلق
آدم اول البشر وسبب سقطته اول انسان وجد على الارض والوسيلة التي اعدّها
الله عز وجلّ حالاً لمغفرة ذنوبه والتكفير عن سيئات نسائه الذي فسد بفساد
طبيعة آدم المشار اليه الى ان يتصل لافراز الشعب الاسرائيلي الذي نحن
بصدده لانتماء ذلك القصد الالهي وكتبه هذه هي اقدم كتاب يوجد في العالم
وتتضمن ما عدا العالمين الروحية اعجب تاريخ عن خلق السموات والارض
سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد بنص التوراة العبرانية وعليه يعتمد الرومانيون والفتنة
اقلام المؤرخين ايضاً او سنة ٥٥٠٨ بنص التوراة السبعينية كما هو المعول عليه

عند الروم وغيرهم من الطوائف الشرقية ثم وترتيب ما ابدعه البارئ تعالى في السنة
ايام اوهي الادوار العظيمة المعبّر عنها بالايام حسب ما برتبها الجيولوجيون في هذه
الازمنة الاخيرة واخبار الطوفان الذي وقع سنة ٢٢٤٨ ق م وببلبة الالسن
سنة ٢٢٢٤ ق م وكيفية توزيع الجنس البشري على سطح الارض وهذه الاخبار التي
لاربيب في صحتها قد عرفها هذا النبي ايس من مجرد الوحي الذي قاده الى كتابتها
وصان قلمه في ضبطها فقط بل يستدل من نفس هذه الاسفار بانهارها وصلت اليه
بالقل الشفاهي ايضاً عن خمسة اشخاص وجدوا بينه وبين آدم وهؤلاء الاشخاص
كاتبوا من المتعبرين الذين لا بد من انهم بواسطتهم قد تسلسل الخبر من آدم اليه
بكل امانة فالاول منهم كان متوشاخ وهو قد عاش معاصراً لآدم ٤٤٢ سنة
والثاني سام وهو قد عاش معاصراً لمتوشاخ ٩٨ سنة والثالث اسحق وهو قد
عاش معاصراً لسام ٥٠ سنة والرابع لاوي وهو قد عاش معاصراً لاسحق ٢٤ سنة
والخامس قهات بن لاوي وابو عيرام الذي كانت سنو حياته ١٢٢ سنة ويحتمل
انه عاصر موسى اوان ابيه لاوي قد باصر ابني عيرام الذي قد عاصر موسى
(انظر خر ٦: ١٦-٢٦) لانه كان من موت نذوي الى ولادة موسى ٤٢ سنة
وكان بينها شخصان من طوال الاعمار وهما قهات المذكور الذي عاش ١٢٢
سنة وعيرام ابيه الذي عاش ١٢٧ سنة قال بعض المؤلفين في كلامه على اول
سفر من هذه الاسفار الخمسة المسمى سفر التكوين انه من هذا الخبر الالهي والعناية
الربانية اللتين هما اجل الاشياء واعظها اتخذ اكثر القدماء من الفلاسفة
والمجتهدين والمؤرخين رواياتهم التي كتبوها وجميع التعاليم المتأخرة وابداع
الصناعات والفنون العظيمة الصحيحة قد افادت اثبات الحوادث التي كتبها
وشرحها موسى النبي فان واقعة الطوفان العظي وتترك كل ما عداها لم تتحقق
بواسطة بواقي الحيوانات الحفرية الكائنة في كل جزء من الكرة فقط بل يشتهر
ايضاً مؤرخون كثيرون من الوثنيين القدماء والحاصل انه لو لم يوجد هذا
التاريخ المحوي في العهد العتيق لكان العالم في اشد ظلمة لا يعرف من اين اتى

ولا الى ابن يذهب وربما ان الانسان يتعلم من اول صفحة منه في برهة ساعة
 اكثر مما تعلمته بدون كل الفلاسفة بمدة ٤٠٠٠ سنة وكذلك ننضع صحتها بنوع
 فائق من مطابقتها كل المطابقة الحقائق المعروفة والاكتشافات الطبيعية
 والجيولوجية المستجدة فاذا نظرنا مثلاً الى علم الجيولوجيا نرى بانها يجب ان
 تتقهراجيالاً حتى لنصل الى بدء تاريخ خلق العالم ونجد هذه الاسفار لاتمنعنا عن
 ان نفحص في هذا البحر مما اردنا اذ تغبرنا عن هذه الحقايق بانها قد حدثت في
 البدء وتترك ذلك البدء سراً مجهولاً ثم قد نقرر عند علماء هذا الفن انه بعد
 ايجاد مادة الارض توالت ٦ مدات حصلت فيها تغييرات معلومة استعملها
 لخلق الانسان وتوطئة لجعل هذا العالم مسكناً مناسباً له وهذه الاسفار كذلك
 لا يوجد فيها ما يناقض هذه الحقايق المقررة في هذا الفن البتة بل بالعكس اي
 يوجد بها ما يؤيد ذلك ويثبتة واما ما اعترض عليه بعضهم في قضية خلق الله
 النور في اليوم الاول والكواكب في اليوم الرابع لما فيه من التناقض فقد رد عليه
 كثيرون من العلماء منهم المعلم بوييه للجيولوجي الفرنسي بجواب من نفس
 هذا الفن ادرجناه في القسم الثالث من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف
 في اصول المعارف واما ما زعموه بخصوص عدم وجود الادبي قبل الطوفان
 حيث لا توجد آثارهم من اعضاءه ولا من صنائعهم بين الراسب الطوفانية
 فالانفاس اليه يتوقف على اثبات كون الباحثين في مثل هذه الامار بحثوا في
 كل اجزاء الكرة الارضية ولم يبق منها ولا جزء واحد لم يعرفوا خباياها وكذلك
 البحور التي يمكن انما حدثت بعد الطوفان وغمرت تلك المحلات التي كانت
 مجتمعا لفيف البشر الذي كان موجودا قبل الطوفان اذ ان الكتاب المقدس
 نفسه الذي منه وحده عرفت هذه الحقائق قبل ان يتكلم عليها حكماء العالم
 لا يخبرنا بان العالم انتشر على وجه الارض قبل ظهور هذه الحادثة واما ما يروونه
 من ان الطوفان لم يكن كلياً بل كان جزئياً يعني انه لم يكن شاملاً وجه الارض
 كلها فانه وان لم تكن جزئيتها على فرض صحتها منافية كل المناقاة لاتمام الغاية

المطلوبة منه التي هي فرض الجنس البشري المنحصر وجوده وقتئذٍ رها في ذلك المركز فقط ما عدا نوح وحيه الا ان اسنادهم دعواهم هذه بما يميلون الى تصديقهم من قدمية بعض الشعوب التي تقهر تاريخها الى ما قبل آهم بالوف سنين لا يمكن اتناقده مع ما يراه غالب العبيد وواجبين بشأن قرب عهد الدور الرابع الذي فيه وجد الادي حسب رأيهم على سطح الارض فضلاً عن تقاليد نفس الشعوب المذكورة التي يمكن اتخاذها دليلاً على ان الطوفان المذكور كان عمومياً وليس خصوصياً كما يزعمون وهي مدروجة في البحث الرابع من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلترجع هناك واما ما ظنه غيرهم من عريضي الدعوى بعدم ايقافه بليلة الله السن بني نوح بسبب زعمونه ركيكاً وهو شروع في ساء البرج للوقاية من طوفان اخر يحدث على الارض والحال ان هذا السبب الذي يزعمونه ركيكاً لم يكن كما زعموا بل هو من اعظم الاسباب التي يلتفت اليها لخبر القوم لئلا يصرفوا اوقاتهم بالباطل وانعاجهم بما لا طائل تحته اذ لا ريب انه بواسطة بليلة المستهم يصر فون عن هذا العمل المسبب عن اوهام فاسدة ولا نفع لهم فيه الى التفرق على سطح الارض للغاية التي خلقهم الله اليها كما جرى ذلك بالوثق نسو حسبها يخبرنا الكتاب عنه وهناك بعض اعتراضات اخرى يعترضونها منها ان الطوفان وقع بسبب حادثه طبيعية اصابت الكرة الارضية وان قوس قزح كذلك هونانتي عن انعكاس اشعة الشمس وانغلاق البحر لموسى كان سبب المد والجزر فلم يكن شيء من هذه الامور ما يدل على معجزة خصوصية من الله ولا تعلم ما هي البوائك العلمية التي تلجئهم الى مثل هذه الاعتراضات الامقاصد شخصية لتكذيب الكتاب مع ان الكتاب لا يعلمنا بان نحكم على وحب انفاذ متناصده الالهية بدون ان يستخدم لها الوسائط الطبيعية فهل اذا كان وقوع الطوفان مثلاً بمحادث من الحوادث التي يظنونها يبطل كون وقوع ذلك كان بامر الله سبحانه لغاية اباده الجنس البشري الذي كان موجوداً وقتئذٍ كما نعلم من كتاب الله وهل يمنع تسبب قوس قزح عن انعكاس

الاشعة الشمسية صلاحية استخدام الله هذا القوس علامة على ميثاقه بعدم وقوع طوفان اخر مع كونه ربما كان ظهوره يتوقف طبيعياً على عدم وقوع خلل في مجرى مئة في النواميس الطبيعية ثم نفرض ان عمور الاسرائيليين الجزر الاحمر كان في وقت الجزر وتعقيب فرعون وجنوده اياهم بد محمولو هذا البحر كان وقت المد فهل يحتمل ذلك على معارف موسى وجهل فرعون وقومو بمالة هذا البحر او يسند ذلك الى الصدفة ولا تكون على اية حالة ارادوها يد الله القوية في هذا الامر حتى افهمها اما اعمت قلب فرعون وحكائه واما حكمت بوقوع هذه الصدفة في ذات الوقت المناسب لاتمام ما حصل واما دعواهم بوجود قبر نفس الملك الذي في عصره خرج الاسرائيليون من ارض مصر بين السور الملوكية الموجودة حتى الان بالصعيد في الجهة المعروفة باباب الملوك فجوابه سوف ياتي عند ذكر منغظا الثاني الذي نقرر الراي اخيراً على ان خرجهم كان في مدة سلطنته فابراجع في التكلام على ملوك المصريين وكافي بهاتف في صبري بقول آنت مشتعل في حوادث ادبية او في مناقشات ديبية ولكن بعد ان راجعت ما قد كتبت وجدت ذاتي لم اكتب الا ما ذكره الا التليل منه الافاضل خالو الغرض من المورخين لاثبات ما عرفوه وحتفوه من فضل هذا الهي العظيم ثم اشهر بعدة ايضاً سليمان الملك احكيم الذي تقدم ذكره وقد تولى المملكة بعد داود ابيه سنة ١٠١٥ ق م ذكر في التوراة (امل ٢٠:٤) انه فاق في الحكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر وكان صيته في جميع الامم حواليه وتكلم ثلاثة الاف مثل وكانت نشأته ١٠٠٥ وتكلم عن الاشجار من الارز الذي في لبنان الى الزوفا البابت في الحائط وتكلم عن البهايم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك وكانوا ياتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمته ويقول بعض العلماء من اليهود ان كتب هذا الحكيم المذكورة في ما يخص بالبيانات وغيرها قد اهلها احبار اليهود الى ان تلاشت نظراً لما فيها من الفوائد الفعالة في مداواة الامراض حذراً من ان يتكل اليهود عليها ويهلوا الاتكال على الله كما فعلوا في

الحكمة الفخاسية التي كسرها حزقيا الملك

اما معارف هذه الامة وعلومها الاصلية فكانت منحصرة في فرائضها الدينية وشرائعها السياسية والادبية وكانوا يحسنون الموسيقى ونظم الشعر حتى ان كثيرا من الاسفار المقدسة وجدت نظما كسفر ايوب والزبور والامثال والجامعة ونشيد الانشاد ومرثي ارميا واقسام اخر من اسفار الانبياء وكان الفريسيون منهم لا يتخلون من علم الطبيعيات والهندسة واغلب حكماء السنة والكتبة الذين وظيفتهم نساخة الكتب المقدسة ويميلون الى مطالعة العلوم والفنون ويفسرون الشريعة ويهدبون الشعب كانوا منهم والاسينيون وهم فرقة تنسب الى الفيثاغورسيين او الى الكليبين كانوا يجهلون بدرس الادب وعلم الطب وتعليمه وفي الفحص عن القوة المولدة للنباتات والحجادات

اما صنائعهم فكانت منحصرة في زرع الحبوب وغرس الكرم والزيتون والتين وسائر الفواكه ويعرفون صناعة البناء والتجارة والخياطة والطب والنساجة وصياغة الحلي من الذهب والفضة والظاهر انهم كانوا يتعاملون بهذين المعدنين وزنا ولا يعرفون سك المسكوكات الى ان حكمهم الاجانب وقال بعض الكتبة ان الاسرائيليين كانوا يصورون على عملتهم ازهارا واشجارا وغير ذلك لما ان دينهم كان لا يسوغ لهم تصوير الاشخاص وكانت آلات حروبهم السيوف والرماح والمقاييع ويتعممون بالعمائم وسائر ملابسهم تشابه ملابس العرب

واما انبياءهم فكانوا رتبة من رجال الله قد قاموا خصوصا بينهم وكانوا يخبرونهم بالوحي عن مقاصده تعالى في الازمنة المستقبلية ويعلمون لهم ارادته من جهة الواجبات المطلوبة منهم والحوادث المشهورة التي ستجري بينهم فكانوا بهذا الاعتبار كسفراء الله لدى البشر وهم كانوا علماء هذه الامة واول من وضع التاريخ كان موسى النبي على ما سبقتم تفاصيله وهم ايضا دونوا اغلب التاريخ اليهودية المنضمة الى الكتاب وكانوا يدرسون الشعب في اللاهوت ويهدبونهم في الدين

والفضيلة وكانوا معينين للكهنة واللاويين بتعليم الديانة وخصوصاً في مملكة اسرائيل ويساعدون الملوك في الامور الشائعة التي تناول الى ازدياد التقوى والنضائل ولهم مدارس اول ذكرها كان في ايام صموئيل النبي وهي مقامة في بعض مدنها كجبعة ونايوت وبيت ايل والجبل والاربعاء حيث كان الشبان يجتمعون لكي يتعلموا الامور الدينية ويستعدوا للتعليم الشعب وكان تلامذتها يُسمون بني الانبياء هذا ما كان من ذلك قبل المسيح واما بعد انقراض دولة اليهود وتلاشيها فكان بقي لهم مدرسة في طبريا وكان من معلمها حاخام يقال له يهوذا جمع تقليدات هذه الامة في كتاب سماه المشنة وذلك بين سنة ١٦٠ وسنة ٢٢٥ للتاريخ المسيحي وفي هذه المدرسة وضعت الحركات المستعملة الان في اللغة العبرانية وضبطت اسفار العهد القديم وابتدي في المعتقدات حسب التفاسير التلمودية والتلمود عند اليهود اشبه باقوال الاباء عند الصاري وفي مراجعة الكلام على اليهود في القسم الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف ما به الكفاية للوقوف على تفاصيل شرائع واداب واحكام هذه الامة وما آل اليه امرها

المعارف في بلاد الفرس

ويقال لهم العجم واذر بيجان يستكون وراء نهر دجلة فالعجم في الجنوب واذر بيجان في الشمال وكانت مملكتهم في القديم منقسمة الى ثلثة اقسام فكان القسم المسمى بخوزستان جزءاً من مملكة بابل والقسم المسمى بفارس الذي سُميت مملكة ايران مستقلاً واما الاجزاء الشمالية المسماة باذر بيجان المذكورة فكانت تابعة للملكة اشور ثم استقلت بذاتها في ايام الملك سردانبال الذي اضاعها بانها كوه في اللذات وتسمت بمملكة مادي

وبعد ان استقلت اذربيجان بخلعها نيرسرد نال المذكور اقام اهلها مدة
بلا رئيس لهم ولا حكم عليهم حتى كان قبل الميلاد بنحو ٦٠٠ سنة جعلوا لهم
ملوكا يسي اولهم ديجوسيس فحكمهم في البداية بما ينضيه العدل والانصاف
لكن لما عظم شأنه اراد ان يخوف رعيته فاحجب في قصره منيع لا يدع احدا
يدخل عليه الا امراء دولته وكان الضحك محضرتة او البصاق بعد ذنبا
يستوجب فاعاله الموت

وهذا الملك هو الذي بي مدينة همدان ليتخذها دار مملكته وجعل لها ٧
اسوار بعضها داخل بعض بنوع ان كل سور من هذه الاسوار لا يعلو عن الثاني
الا بمقدار شاربفة فقط وكانت هذه الشراريف تختلف في الالوان ما بين ابيض
واسود مازرق واحمر وارجواني وكان السارس من فضة والسابع من ذهب
وداخل السور السابع كانت سراية الملك وقد صنع لها محلا حصينا لحفظ
خزائنه وكوزهه واما الشعب فكان يسكن بين الاسوار ومن كان له دعوى
كان يعرضها على الملك بالورق فكان يفضيها ويرسلها بانا الحكم عليها وكان له
جواسيس في كل اطراف المملكة يلاحظون اعمال الرعايا ويقررون له عن احوالهم
ثم لم تطل المدة حتى صارت بلاد اذربيجان المذكورة رعية للاعاجم الذين
بقوا محافظين على اخلاقهم القديمة لان ازهو الشرقي كان صير ملوك اذربيجان
ورعاياهم الى الرخاوة كما ان تربية اولاد الامراء الي كانت موكولة الى النساء
والخصيان اعمت فيهم التكسر بدلا عن اخلاق الرجوية ولا زال الحال على
هذا المنوال الى ان تزوج ملك فارس بابنة ملك ماديه يعني اذربيجان التي
نحن بصدها وولد له ابن نحو سنة ٥٨٠ ق م تسمى قورش وهو الملك المشهور
ذي استبد به بالسلطة الم. ثقلة وتولينه يتندي المورخون بالوصل الثاني من قسم
التاريخ الاول المسمى بالفرون الاولى كما سبقت الاشارة الى ذلك في مقدمة هذا
الكتاب

فجعل هذا الملك فارس وماديه مملكة واحدة وصيرها مشهورة جدا

بالعظمة والنعوكة لكن كثرة غزواته وفتوحاته انتجت اخيراً للاهالي المصائب بدلاً عن السعادة حيث سرت احوال اذربيجان الي فارس ايضاً وصار العجم ذوي رخاوة وتكبر بسبب الراحة والاموال بل ولحق الفساد الملك نفسه بسبب مبالغته في رفاهية اطعمته وملابسه الاذربيجانية واهل تربية اولاده وكان يتلقى خضوع الرعية بكبر وهو الذي اسس في هذه المملكة الحكم المطلق الذي هو عبارة عن عمل الملك بارادته ورايه لا بشريعة وقانون حيث كان يرى انه يستحق التصرف بحكمه في اموال رعيته واعمارهم حسب هواه فيعاملهم معاملة العبيد الخنثيين وقد كمل الفساد لكل شيء على يد اوائل خلفائه حتى صار لاراذل الخصبان والعبيد كلمة نافذة في ديوانهم وكانت المرزبانان وحكام الابلية تكف الالهالي فوق الطاقة ولا تقاصهم الملوك لاشتغالهم عن ذلك شهواتهم

ومن حملة ما يحكى من الحوادث الدالة على رذائل ذلك العصر هو ان كميز بن قورش المقدم ذكره كان متوحشاً في سلطنته وحميته غيرته على قتل اخيه سرديس وابتد القوانين ايضاً بزواجه لاخته نفيته ولما انتشار القضاة في هذا الزواج الناحش اجابوه من الجبن بان القاون برخص للوك جميع ما يريدونه •

وما لابس بذكره هنا لكونه ينبي عن عوائد القوم واصطلاحاتهم ايضاً وهو انه لما تولى السلطنة دارا الذي حاربه الاسكندر المقدوني وظفريه وبيلاده كان قصد الهجوم على بلاد التتار فارساً واوله طائراً وفاراً وصدفة وخمسة اسهم ففسر له ذلك بعض امرائه بان معناه اذا كان العجم لا يفرّون مثل الطير ولا يخفون في الارض كالهارولايغلسون في الماء كالضفدع فلا ملامة لهم من سهام التتار قال بعض المواقين وان تكن بلاد المشرق من عادتها استعمال الكتابة لكن الظاهر ان مثل هذا اختراع لا اصل له اخترع لشحن التوارنج بالابور المستحسنة

وبقيت بلاد فارس ومادي علي ما هي عليه من الاتحاد الى سنة ٢٢٠ ق م
لما انتصر الاسكندر المكدوني علي دارا المذكور ثم بعد وفاة الاسكندر صارت هذه
البلاد اسلوقوس الي ان قامت قبيلة الفريسيين وطردت الروم وحدثت دولة
اخرى في بلاد مادي وفارس الي سنة ٢٦٠ م فابتدأت دولة فارسية اصلية
تُعرف بالساسانية نسبة الي ساسان وهي معلة بـرو من بلاد خراسان وملوك هذه
الدولة هم آكاسرة العجم

ثم تغلب عليها المسلمون وكانت الواقعة الاولى بقرب قادسية الكوفة في
غربي العراق العربي وادخلوا فيها الدين الاسلامي علي مذهب الشيعة قال
ابن خلدون المغربي انه بعد ما فتح بلاد فارس بالاسلام في زمن خلافة
عثمان بن عفان وكانت الفرس تزعم وقتئذ انهم هم الاحرار والاسياد وبعدون
سائر الناس عبيدا لهم رام البعض منهم كيد المسلمين بالمجيلة فاظهروا الدين
بدينهم وكان رجل منهم يقال له عمار ويلقب بخدش وابو مسلم الخراساني
وشنفاد واشنيس والمنفع وبابك وغيرهم فاستمالوا اهل الشيع باظهار محبة اهل
البيت واستبشاع ظلم علي بن ابي طالب الي ان احمالوا علي انقياد الناس الي
مذهب الشيعة والقول بالحلول وسقوط الثرائع وبهم تاسست هذه العنائد في
بلاد العجم

واستمرت هذه البلاد تحت ولاية الخلفاء الي ان قامت الدولة السلجوقية
بعد ان انقرضت الدولة السامانية التي كانت اخذت ما وراء النهر وقويت
الدولة الاسماعيلية في العراق العجمي ثم تساطت التتار علي تلك البلاد في سنة
١٢٥٨ م (سنة ٦٥٦ للهجرة)

وكان لهلاك اول ملوك التتار المذكورين مرصد سلطاني في مراغة من
اذربيجان اقام عليه العالم الشهير بصير الدين الطوسي وهناك صنع الزيج
المعروف بالزيج الخاني وكان يستعين بهويد الدين العرضي ومحي الدين المغربي
والطوسي نسبة الي طوس وهي قرية من بخارا

والدولة المستوية الان هي من التتار المذكورين وملوكها بجاولون الان ان
يقولوا ويشيعوا لغة العرب والأتراك والفرس وعلوم البلاغة والعروض والعلوم
الشرعية والطب والنجوم وارباب المعرفة هم الذين يحظون بالمناصب المهمة وعلى
الخصوص ملكها الحالي نصر الدين شاه الذي تولى الملكة في سنة ١٨٤٨م فانه
يوصف بحسن السياسة والتدبير والمحبة لرعاياه وقد انشأ عدة مدارس كنية
لدرس العلوم والفنون واكتساب المعارف والآداب لنجاح الاهالي وفي سنة
١٨٦٣م اذن بادخال الشريط البرقي اي التلغراف الى اقطار بلاده وقد
زار منذ بضعة شهور بعض عواصم اوربا بقصد ملاحظة احوالها وادخال تمدنها
الى بلاده وحيث كان ذلك مما يوجب تعبير في الاخلاق والعوائد القديمة
نفر البعض من اعضاء العائلة الملوكية وكثيرون من عضاء البلاد واضطروه
الى عزل وزيره الاعظم لكونه هو الذي حسن له هذا الامر المما في لارادتهم وملكة
اعاده بعد مدة جزئية وهو مصمم على انفاذ مقاصده مع سئوح الفرص المناسبة
واما ديانة اهالي البلاد القديمة فكانت الديانة المجوسية وحيث قد
ذكرت مفصلة بتدر الامكان في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة
الصحائف في اصول المعارف فلا حاجة الى تكرار ذلك هنا ويقال بانة الى الان
يوجد منهم بقايا على هذا المذهب وهم نحو ٤٠٠ عائلة في نواحي بزد من جنوبي
خراسان ولهم هيكل على راس جبل في تلك البلاد ويحفظون فيه النار المقدسة
ويقال بان واضعة زرداشت المشهور كان ظهوره بمدينة يقال لها اريه من
مدن هذه المملكة

وذكر مطبوعون ان في القرن التاسع من الميلاذ (الثالث من الهجرة) ظهر
نصابري وهو رجل خارجي رئيس فرقة خوارج في خوزستان تدعي الاسلامية
وتسمى الزابية وهي غير الصابية عبدة النجوم وكتب عبادته مولفة بعبارة لغة من
اللسان السرياني تشبه لغة اهل بلاد الجليل وهي اقليم صغد ببلاد فلسطين
وقواعد هذا المذهب تقرب من قواعد الاساعيلية ويشوبها شيء من عقائد

الجوس واصحابه يسهون انفسهم اصحاب يوحنس ومعنى هذا الاسم على ما قاله علماء اللغات الشرقية النور وهم يتبركون بالصليب ويستعملون شيئاً يقرب من العباد ويتقربون بذيح الدجاج والغنم

وذكر العلامة الفاضل كرتيمايوس فان ديك الايركاني في جغرافيته انه يوجد في مكران احدى اقسام باوخستان طائفة تسمى اللودية من عقائدهم ان الانسان لا غاية في خلقه الا ان يعيش ويموت وينسى ذكره فان كان في لذة عيش فانه ان يطلب طول الحياة وان كان في ضيق فانه ان يطلب الموت لذته بل ان يقتل نفسه ايضاً ومتى مات احدهم يدفنون معه كل ما يحرص به حتى ينسى ذكره ولا يتزوجون بل يعيشون في الزنا والفسق

وقال ايضاً ان في جبال هند كوش قسم يعرف ببلاد كافرستان يسكنه قوم كانوا قبلاً في بلاد قندهار ثم طردهم المسلمون من هناك فجاءت فرقة منهم وسكنت في هذه البقعة واستبروا على عبادتهم الوثنية وهم يغزون البلاد المجاورة لهم ويقتلون المسلمين وفي اعيادهم يضع لأرجل منهم ريش الطير في عمامة دليلاً على عدد المسلمين الذين قتلهم لكل قبيل ريشة

ثم في ايامنا هذه ظهر عندهم الرجل المسمى بباب الله واعلمه يدعي الألوهية وتبعه قوم يسهون ذواتهم البالية يبلغ عددهم على ما قيل ٢٠٠ الف منهم من يظهر الاعتراف به ومنهم من يبطنه ولما اخذ مذهبهم في الامتداد طرده الملك من البلاد فجاء ببعض جماعتهم الى البلاد العثمانية ثم آل امره الى الإقامة في عكا تحت الحفظ وفي ما ذكرناه عنه في البحث الرابع من المقالة الثمانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف ما به الكفاية فليراجع من شاء

والظاهر انه كان يحصل في هذه المملكة اضطهاد على سائر المذاهب وخاصة النصرانية حيث ذكر في بعض النشرات المطبوعة في سنة ١٨٦٧ م (سنة ١٢٨٤ للهجرة) ان شاه ايران اصدر امراً برفع الاضطهاد عن شعب النساطرة وهم فرقة من الصاري وانعم عليهم بمبلغ من الدراهم لاجل عمار كنيسته ونصب

عليهم واليآ من اهل مذهبيهم فقد مت له دولة الانكليز تخر برشكر على ذلك
واما لغات العجم فان اقدمها على ما قاله مطبرون لغة يقال لها زند وهو
لسان كتب دهن الفرس المسماة زنداوستا وهي تشتمل على اخبار قديمة جدا
مجردة عما يوثق به واما اللغة اليهودية اي لغة المقيانين والشجيمان فكانت مستعملة
في العراق العجمي وفي ميديا الكبرى وعند البرنثة وقيل انهم كانوا لا يستعملون
غيرها في ديوان الملوك من نسل قورش وترجمت كتب الجوس اليها وفي سنة
٢١٠ م ابتداء الملوك الساسانية الذين مر ذكرهم ان يرفضوا اللغة اليهودية
المذكورة وادخلوا الى بلاد العجم لغة اقليم فارس الذي هو اقليم بلاد العجم
الحقيقية لكن لما فتحت بلاد العجم بالاسلام في القرن الاول من الهجرة (السابع
من الميلاذ) بطل اللسان الفارسي من ديوان ملوك العجم وبقي الى سنة ٢٦٢
للهجرة (سنة ٩٧٧ م) فشرع حينئذ الديلمية في ان يعيدوا لهذا اللسان قوته
القديمة ومن ثم اتخبت الشعراء العظام وارباب الخطابات والانشامة لغة كثيرة
الالفاظ والكلمات عذبة الاصوات والنفحات سموها باللغة الفارسية الجديدة
والان قامت مقام هذا اللسان اللغة التركية في شمال بلاد العجم بل في طهران
دار المملكة فلسان الفارسي الجديد والحالة هذه لا يلقب بلقب الدردي يعني لغة
ديوان الملك الاجازا

وكانوا يربون اولادهم تربية عامة يوهلونهم بها للشجاعة والفهم وحتى تم عمر
الولد ١٧ سنة سلموه لارباب المعارف ليحسنوا تربيتة بالتعليمات والآداب
خصوصا ما يجب بالوطن وكان لا يتمكن احد منهم من وظيفة قبل تغذيه
بمعارف هذه المدرسة وكذلك اولاد ملوكهم ايضا كانوا يستفيدون بحسن التربية
المعارف والآداب

وكان من قوانينهم المماقة على الرذائل والخيانة والحث على العدل
وبغض البطالة والكذب وتشريف الزراعة حتى ان الامير منهم كان يأكل مع
الحراثين مرة في كل سنة وكان الكذب عارا كبيرا عندهم

وكانوا يعاقبون اصحاب الجنايات بعقوبات خشنية فكانوا يسلمون عصاة
امر الدولة وهم احياء او يقطعون بدن العاصي نصفين ويفتأون اعين من يخشون
منه فتنة في الدولة واما قطع الاذان والانوف والايدي فهو من مسرات ملوكهم
المتقدمين والمتأخرين ومن جلد بامر الملك لا بد له من ان ياتي ويسجد امامه
على ركبتيه ويثني عليه خيراً حيث انه تذكره والقي الببال منه

ومن عادة ملوكهم ان ياكلوا على صوت المغاني والالات ورقص الرافصات
وكانت ولاية الاقاليم على عهد ملوك الفرثيين او البرثة وقد تقدم ذكرهم تمام
تحت الموائد الملوكية ليتلوا مع غاية الاحترام والتعظيم ما يفضل من الطعام
وبرى لهم وكانت الرعايا تحيي ملوكها بالسجود وياقبتهم باخي الشمس والقمر
ويفتخرون بانهم هم اول من ابتدع خصي الادميين ليجعلوا لحريمهم حراساً
جبابرة ليس في قلوبهم رافة وكان هولاء الخصيان في سراية ملوك اصغر اكثر
عدداً وشوكة من ديوان ملوك العجم المتأخرين وهم الذين كانوا يربون اولاد
الملوك في الزمن القديم كما ذكرنا في ملة تقدم وقد مدح افلاطون هذه التربية
عندهم

ولارال من العوائد القديمة الموسم المسي كلروز (يوم الورد) الذي يثرون
فيه الزهور

ومن آدابهم القديمة اتخاذ الشمسيات والكراسي المنقولة والسجاجيد
الصغيرة التي تُفرش تحت الكراسي ومنهم اتصل ذلك بالافرنج

وقد ذكرنا في كتابنا زينة الصحائف في اصول المعارف البعض من علمائهم
القدم كإني الشوي وزرداشت اللذين وضعنا لهم اصول العبادات والمعلم
ابستايوس ولعله الذي سماه ابن خلدون المغربي كيستاسف والمعلم لسنانوس
الذي نقل العلوم الفارسية الى اليونانيين وكذلك بعد الخلفاء العباسيين زهت ايضاً
بينهم العلوم والمعارف وكانت ذات رونق وبهجة في زمن دولة صوفية العجم فان
قصائد الفردوسي وسعدي وحافظ ترجمت الى لغات الافرنج واعجمت اهالي

اوربا قال . مطربون انما مع كونها خالية من المعاني كان ما اشتملت عليه من
التخيل الحماسي اليانع الزهور لا تشم منه الا رائحة الورد والمنثور ولا يسمع من
الفاظها الا تغريد الهزار والشعرور

وقد تقدم ذكر المرصد السلطاني الذي كان للسلطان هلاكو المشهور
الذي اخرج بغداد واقام عليه نصير الدين البطوسي وطوس قرية من بخارا
خرج منها الامام الغزالي هذا وقد خرج من بلاد العم ايضا كثيرون من اكابر
علماء اللغة العربية وادبائها وشعرائها حتى انه لا يمكن حصرهم منهم الامام
ابوزكريا يحيى الهريزي شارح ديوان الحماسة وابن خالوف الهداني الشاعر
والشيخ احمد بن الحسين المعروف بديع الزمان الهداني صاحب المقامات التي
عارضها المحريري والشيخ محمد الفزويني صاحب كتاب عجائب المخلوقات
وكتاب اثار البلدان وكتاب تلخيص المفتاح في البيان والشيخ مجد الدين
الفيروزبادي صاحب القاموس المحيط وسيبويه المشهور امام البصريين في
النحو وابواسحق الاصطخري صاحب المصنفات في الجغرافية

ومن مدينة مرو شاهجان التي قتل بها يزيد جرد اخر ملوك الفرس ظهرت
دولة بني العباس وكانت مقام المأمون العباسي لما كان بخراسان وفي دارجل
منها يعرف بابي النجم المعيطي صبغ اول سواد لبسته المسودة وسوف يأتي توضيح
ذلك في كتابنا صناعة الطرب في تقدمات العرب وخرج من هذه المدينة
ايضا كتاب الخلافة وجماعة من الائمة

ويوجد في مدينة فرسبوليس التي هي مدينة الفرس الاصلية وكانت من
اعظم مدن العالم كثير من النقوش والاعمدة والهياكل والقبور المنحوتة في الصخور
وتقول اليهود ان في مدينة همدان قبر الملكة اسثير ومردخاي الشهيرين في
الكتاب المقدس

ويوجد الآن في مدينة تبريز التي كانت اعظم مدن بلاد العم في الغنى
والنجارة وكان فيها نحو ٢٥٠ جامعا كثير من المدارس والمكاتب

اما ابنيهم فانها وان تكن فاخرة ولم قصور عظيمة شاهقة من جمانها قصر
 عظيم في مدينة اصبهان يقال له (قرق ستون) يعني قصر الاربعين عموداً
 وكل عمود منها قائم على اربعة سباع من نفس المرمر وفيه من النقش البديع
 وانواع التحف والتصاوير المزخرفة ما يدهش النظر ويذهل الفكر ولكنها مع
 ذلك جميعه لا تقاس بملك الهائر والابنية الهائلة التي كانت في ايام الملك
 زركسيس بن داربوس الذي هو خامس ملك من ملوك مادي و فارس
 ويقال بان معامل هذه البلاد قد وصلت منذ القرن السابع عشر للميلاد
 (الحادي عشر للهجرة) الى درجة كمال بالنسبة للتطربز على الفاش والحريز
 والجاد وصناعة آنية الفخار العجيبي وفخار زرنج يساوي آنية الصين في الدقة
 والصفاء والشفافية وكانوا يشتغلون منه آنية جيدة تقاوم حر النار والصيني
 الكرماني المشهور بمغنته ولا زالت معامل الجلود والصاغري والسفنيان منذ
 زمن قورش الى الان زاهية زاهرة وهم يحسنون شغل النحاس ايضاً وكانت النسي
 الفارسية اعظم الاقواس ببلاد المشرق ولا يمكن لارباب الصناعة ببلاد اوربا
 ان يقدوا السيوف العجيبة المصطنعة من الحديد والبولاد على منوال السيوف
 الدمشقية القديمة المسماة بالطبائيات والموسى وباقي ادوات الفولاذ عندهم جيدة
 الصناعة ولا زال الى هذا الوقت تشتغل سيوف عظيمة في قزوين وخراسان
 وتعرف صنعة الفولاذ الجيد المصطنعة منه تلك السيوف اذا وجد عليها عروق
 متموجة تكون على شكل خيوط الحرير وبسقاطون فولادها بالذهب وهذه
 السيوف لا تنثني ابداً ويقال ان تيمورلك الشهير اخذ الصنائعية من دمشق
 وذهب بهم الى بلاد العم وكانت سيوف دمشق من صفايح دقيقة مستطيلة
 نصب على التعاقب من الحديد والفولاذ ولهذا كانت لينة مرنة بحيث ان
 السيف ينثني الى مقبضه ويقطع في اصالب الاجسام وقد ذهب سر هذه الصناعة
 الان واما اقمشة العم القطبية والصوفية التي يصطنعونها من شعر المعز ووبر
 الابل كشالات الكشمير والبسطو والطنافس وكذلك حريرهم الذي يصطنعون

منه الخمل وغيره وقاشهم الخيش والمشجر فهذه كلها قد بلغت درجة عالية في
الجودة ويعرفون الآن تبييض المراء وصل الالماس وشغله وخالصة الامراتهم
لم يفقدوا فماً من الفنون التي كانت مستعملة في عنقوان تقدمهم بل اضافوا اليها
اموراً جديدة كتفصيص الزجاج والمينا فانهم يعرفون ذلك الآن ويحسنون
صناعته

المعارف في فينيقة

الفينيقيون هم سكان سواحل البحر الابيض الشامي غربي سوريا وارصهم
تمتد من قرب جبل الكرمل جنوباً الى قرب مصب نهر العاصي شمالاً وكان
تملكهم في ساحل البحر وبعض الجبال والسهول بين الجبل الشرقي والجبل
الغربي ولكل مدينة شهيرة من مدنهم ملك مستقل

وقيل لهم الفينيقيون نسبة الى فينيقية قال بعضهم ان معناها الارض
الواطئة المنخفضة فكانه قيل بلاد الغور والغورما قابل النجد وذهب اخرون
الى انها سميت بذلك نسبة الى فينكس اخي قدموس الصوري الآتي ذكره
وقال المحققون ان فينكس التي نسبوا اليها هي اسم للنخل في اليونانية او بالحري
للثمر وهي تدل في الاصل على اللون لاهل الجوهراي على لون اسمر مائل الى
الحمرة كلون ثمر النخل وهي ايضا اسم لرداء ارجواني كان الفينيقيون يلبسونه
وكان النخل في تلك الايام كثيراً في فينيقية حتى صارت صورة هذه الشجرة رمزاً
على اهل البلاد فكانوا يصورونها على مسكوكاتهم فقام بذلك اليونانيون
وقد يسمون ايضاً بالصوريين نسبة الى صور احدي مدنهم العظيمة وسماي
ذكرها وليس لكونهم من ولاية سوريا التي سميت بهذا الاسم نسبة الى اقليم من

اقاليمها الثلاثة التي هي سوريا وفينيقية وفلسطين وكانوا يسمون ايضا كنعانيين
وبلادهم ارض كنعان لان اهلها القدماء هم اولاد كنعان بن حام بن نوح ويقال
ان الصيدونيين سكان صيدا هم اولاد صيدون بكر كنعان والعرقيين سكان
عرقا اولاد العرقى سادس ابنائهم والسينييين سكان معاملة بالقرب من طرابلس
اعلمها الضنية هم اولاد السيني سابع ابنائهم والارواديين سكان ارواد اولاد
الاروادي ثامن ابنائهم (تك ١٠: ١٩) وذهب قوم بان سكان فينيقية الاولين هم
من ذرية آرام الخامس من اباء سام (تك ١٠: ٢٢) وان الكنعانيين المذكورين
اختلفوا معهم وقيل غير ذلك

ويقال ان اول مدينة عمرها الفينيقيون هي مدينة صيدا اسسوها سنة
١٨٠٤ ق م نسبة الى صيدون بكر كنعان على ما تقدم ابراده وثانيها مدينة
صور التي صارت اشهر مدن فينيقية بالغنى والعظمة وسعة التجارة ومعرفة اهلها
بسلوك البحار ومهارتهم في الصنائع قال بعض المؤلفين ان البعض من اهالي
صيدون بنوا هذه المدينة قبل بناء هيكل سليمان في اورشليم بنحو ٢٤٠ سنة
فيكون ذلك سنة ١٢٥٠ ق م وصارت قاعدة الدنيا كثيرة الامل والزائرين
جزيرة العُدَد والعدَد واما الان فلا يوجد من آثار عظيمها القديمة الا عدة
اعمدة مكسرة منبثة في المدينة وآثار كيسة فسجية وبقايا قنطرة ماء كان يجري
فيها الماء من راس العين على ما يُظن الى المدينة واما طرابلس فيقال بانها
رحل في تلك الايام القديمة من المدينتين المذكورتين اي صيدا وصور اناس
معهم جماعة من رواد وبنى كل فريق منهم محلة في الموقع الذي فيه الان
الاسكلة ثم انقسمت تلك الابنية الى واحدة ودعيت باسم طرابلس لان معناها في
اللغة اليونانية المدن الثلاث (واظن ان ذلك وقع عند ما حارب الاسكندر
المكدوني مدبنتي صور وصيدا فهرب منها قوم اخنشاء من الحرب وجاءوا الى
هذه البقعة وبنوا المحلات المذكورة وتوطنوا فيها لما انه لم يُعثر لها على ذكر ولا اسم
قبل هذا الاسم اليوناني ولئن قال اخرون غير ذلك) وقال بعض المؤلفين ان

هذه المدينة اشتهرت في الزمن القديم كسائر مدن فينيقية وكان فيها ديوان
للفينيقيين يتفاوضون فيه في الامور الاكثراهية في ملكهم

وبعد ان عمّر الفينيقيون المذكورون اول مدنهم التي تقي صيدا على ما
ذكرنا باكثر من ٢ قرون اعني نحو سنة ١٥٠٠ ق م افتتح بلادهم سينوستريس
ملك مصر وكتب تاريخ فتوحه هذا على بعض الصخور عند نهر الكلب وكان
ذلك قبل خروج الاسرائيليين من ارض مصر ودخولهم في سنة ١٤٥٠ ق م الى
ارض الامعاد

ثم في سنة ٧٢٠ ق م استولى عليها سنجاريب ويقال له شلماصر ملك اشور
وهو الاشوريون ونقش كذلك صورته وكتب اعماله ايضا على الصخور عند نهر
الكلب المذكور

ولما افتتحها الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٤ ق م بنى في عرفها ميكلاً للزهرة
جاء اليه تيطس الفيصر الروماني بعد ان افتتح مدينة اورشليم وقدم فيه ذبايح
شكراً لمعبوداته على انتصاره وظفره بشعب اليهود. وفيه ولد اسكندر سنيروس
احد الفياصرة الرومانيين ايضا

ولما انتقلت الى الرومانيين في سنة ٦٥ ق م عمروا بلادها وساقوا اليها
المياه وجلبوا اليها الاعمدة العظيمة من مصر وزينوها بهياكل عظيمة محكمة البناء
وهبوا الطرق والى الآن يوجد على صخور نهر الكلب صخران احدهما مورخ
باللغة اليونانية والاخر باللغة اللاتينية يجبران بان عساكر هذه الامة اصلحوا
الطريق المذكورة التي لم تنزل الى الآن تُعرف بالطريق الانطوني نسبة الى
انطونيوس قيصر الروماني الذي افتتحها ويقال ان هذا الملك وقلوبترة
واغسطوس ونيرون وتربانوس سكلوا في طرابلس عملة ووضعوا اسمها عليها ولم
يبق منها شيء للآن واما بيروت فان اغسطوس قيصر اعطاها حقوق المدن
الرومانية الاصلية وسماها على اسم بنته جوليا فيليكس وزينها الملك اغريفوس
الاكبر وبني فيها ملاعب واروقة وحمامات الى ان اشتهرت في الجيل الثاني

بعد المسيح بمدرسة علم الفقه واناها تلاميذ من بلاد اليونان والديار المصرية
وكانت تلقب بمدينة العلماء وبرزعة الفقه ايضاً
ولازالت هذه البلاد بيد الرومانيين المذكورين الى ان انقسمت المملكة
الرومانية الى شرقية وغربية ومن ثم صارت تابعة القيصرية الشرقية
ولما افتتحها المسلمون في سنة ١١ للهجرة (سنة ٦٢٢ م) جمع في طرابلس
القاضي ابوطالب حسن مكتبة عظيمة اوصل بعضهم عدد كتبها الى ٣٠٠ الف
مجلد واستكثروا آخرون فقالوا لانها هي ١٠٠ الف مجلد في اللغة العربية والنارسية
واليونانية

ولما جاء الصليبيون في سنة ٤٩٣ للهجرة (١٠٩٩ م) وتملكوا جميع شاطئ
البحر وبعض الاماكن في شرقي الجبل الغربي وشرقي بحر اوطا احترفت المكتبة
المذكورة في اثناء افتتاحهم لتلك المدينة ثم بنى ريموند من تولس الذي تولى
عليها قلعها واقام فيها الايطاليون حارة مخصوصة لتجاراتهم ممتازة يحكمون
فيها بمقتضى قوانينهم كما فعلوا في عكا وصور وغيرها وتناولوا منها زراعة قصب
السكر الى اوربا ثم رتبوا في جميع البلاد التي استولوا عليها الترتيب الذي كان
وقته جارياً في بلادهم وجعلوا الفلاحين كالعبيد يبيعونهم ويشترونهم مع
الارض وصالحوا الطائفة المارونية مع الكنيسة الرومانية وبقيت البلاد في
ايادهم الى ان رجعت الى المسلمين في سنة ١٢٧٠ للميلاد (سنة ٦٦٩ للهجرة)
وفي سنة ٩٢٢ للهجرة (سنة ١٥١٦ م) اخذها السلطان سليم العثماني من
يد الغوري ملك مصر ووجد كذلك صخر اخر من صخور نهر الكلب محرر عليه
باللغة العربية قيل انه تذكاراً لما فعله السلطان المشار اليه في هذه البلاد التي هي
والحالة هذه من جملة ابالات الدولة العلية

وكانت ديانة اهل فيثية في الازمنة القديمة صابئة نظير ديانات مجاورتهم
من الامم اي انهم يعبدون النجوم والكواكب السماوية على ما ذكرنا في البحث
الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف وكانوا

بقدمون لبعل ويقال له مولوك ايضاً وهو احد معبوداتهم ذبايح بشرية من
الاولاد الصغار يطرحونهم احياء على ذراعيه المحماتين بالنار وكان ذلك التمثال
مصنوعاً من نحاس وله راس عجل مكللاً بتاج ملكي وذراعه تمتد ودتان كانه
مستعد لاحتضان ما يقدم له فكانوا يضرمون منحة ناراً الى ان يجتبي ثم يلقون
الولد الذي يقدمونه له على ذراعيه فيموت حالاً لشدة الحرارة (يقول مولفه
جرت عادة الناس ان يقدموا القرابين ويذروا الذور لاهتهم رجاء بان
يحفظوهم هم وعبالهم واولادهم من المضائب والبلايا التي من اعظمها المصاب في
الولد فاذا كان هؤلاء يستعطفون آلهتهم بحرق اطفالهم احياء فا الذي يرجونه
اذا من شفقة تلك الالهة اما اذا كانوا يفعلون ذلك تكفيراً لسيئاتهم فيا لها من
حكمة غريبة بها يداوون الامراض بذات العال عينها وباله من اله ايضاً ياخذ
البري مجريرة المذنب ولا يعفو الا بعد ان يتشفى)

اما لغتهم فكانت على ما قيل كاللغة العبرانية قال بعض كذبة الافرنج انه
لم يبق لها اثر الا في خواتم جمع بعضهم احدى علماء جرمايا وتعلم منها هذه اللغة
المائة

وحيث ان اراضي صور عقيدة اضطر اهلها التمدد الى تعليم الصنائع
فاقادتهم التجارب والتفكرات والاتفاقيات معرفة امور كثيرة المنافع منها انهم
استنبطوا عمل الزجاج واشتهروا في حسن الصباغ ولا سيما الصباغ باللون
الارجواني ويقال بانهم استدلوا عليه من كلب لاحد الرعاة كسر معارة واكلها
وتلون حمكة بهذا اللون فاستخرجوا هذه الصبغة وقتئذ من الحار الى ان صار
هذا اللون زينة الملوك وزاد مجدهم ايضاً باختراع حروف الهجاء عند ما كان
المصريون يصورون صورة الاشياء او يصططعون لها علامات فاستنبطوا هم
الطريق الاسهل النارجية وجعلوا علامة لكل صوت اصلي تسمى حرفاً وحروفهم
هذه صارت منشأ للحروف الاخرى فان اليونانيين اخذوا حروفهم منها ومن
حروف اليونانيين استخرج اللاتينيون حروفهم التي هي حروف اهل اوربا

الآن^(١). ثم بواسطة اسفارهم الجرية اخترعوا قسماً من علم الاوسترونومية اي
 الملك لاهاليمية وهو معرفة الاسفار الجرية وانتخبوا النجمة الشمالية المدعوة بالمسار
 لتكون قائداً للنوتية في اسفارهم وجميع الامم اقتدوا بهم في ذلك حيث كان لا
 زال ما ظهر بيت الابرّة وكانوا يسافرون حول افريقية في الزمن الذي كان
 فيه سير السفن في وسط البحار من الامور المستحيلة والذي سهل عليهم ركوب
 البحر غابات جبل لبنان التي كانوا يقطعون منها الاخشاب لانشاء سفنهم
 وكانوا يشتغلون بانواع كثيرة من الصنائع ايضاً كانواع الحلي من الذهب
 والفضة وغير ذلك من انواع القوش والزينة والمعادن والعاج واجناس
 الاقمشة فان الانسية الفينيقية كانت ذات شهرة ورواج في كل العالم غير انهم
 كانوا يحبون الفخمة والترفة ويمتقرون الغرباء
 واتسعت تجارتهم على وجه عجيب في الهند وفرانسا واسبايا وانكلترا التي
 سورها مدينة القصد، ومنها اوصلوا تجارتهم الى الاوقيايوس الغربي حتى ان

(١) يوجد اختلاف كلي بين المؤلفين في هذا المعنى ولذلك قال احد المدققين بانه لا يعلم
 يقيناً من هو الذي اخترع هذا الفن قبل غيره لان البعض يسمونه الى مهنون المصري نحو
 سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد والبعض قالوا ان ظهور القراءة والكتابة كان سنة ١٧٢٢ قبل الميلاد
 وفي تواريخ الصينيين ان فوحي موسس مملكته سنة ٢٦٥٠ ق م علم الاهالي عدة امور من
 جعلها الكتابة لكن ربما كان ذلك بالمسنة الى الكتابة القديمة المعروفة عند المصريين
 بالهبروغليفية ونظيرها عند الصينيين ايضاً غير ان الكتابة بالحروف الالهية يقول المعلم
 اسحق نيوتون بانها من مخترعات الادوميين واكد آخرون بانها من مخترعات الفينيقيين ثم
 يصعب ايضاً تعيين الزمن الذي انتشرت فيه اذ بعض المورحين يقول بان قدموس
 السوري الذي بنى مدينة طيبه ببلاد اليونان سنة ١٥٥٠ ق م علمهم ايضاً الكتابة بهذه
 الحروف والبعض يقولون ان اليونان كانوا لا يعرفون الكتابة حين محاصرة بلاد تروادة
 وان اشعار اميروس المتخلفة بهذه المحاصرة وكان المداخون يشدونها من غير ان تكون
 مدونة ومن المعلوم بان ظهور هذا الشاعر كان في سنة ١١٥٠ ق م ولذلك قال آخرون ان
 دخول الكتابة الى بلاد اليونان كان في سنة ٧٥٤ ق م واما استعمالها في مصر فكان في سنة
 ٦٦٠ ق م وعلى ذلك اتفق الاكثرون

اهل ارلاندة التابعة لانكثرة لازلوا يدعوا الى الان بانهم من نسل الفينيقيين
 وذلك دعوا انفسهم في هذه الايام بالفنيان ووصل الفينيقيون الى بلاد
 الاندلس وكانوا جعلوا مدينة فارس ايضاً مركزاً لتجاريتهم وكانوا يستخرجون
 من اقليم اتيكيا ببلاد اليونان مكاسب عظيمة الى ان صار عندهم جميع خيرات
 الدنيا وكثرت في ايادهم الغضة حتى انهم استثقلوا حملها في بعض الاسفار
 فانخذوها هلوباً للمراكب عوض الرصاص

وليس انهم عمروا بلادهم فقط بل عمرت بزلاتهم مدناً اخرى في غيرها
 ايضاً لان منهم خرج قدموس الصوري الذي ذهب الى اقليم بيوتيا من بلاد
 اليونان وعمر هناك مدينة طيق وعلم اهلها زراعة العنب وعمل المعادن وحروف
 الهجاء وذكر بعضهم ان قدموس المذكور مضى باقربائه واحزابه الى هناك بعد
 محاربة يشوع بن نون وافتتاحه عليه مدينة موطنه التي يُظن انها كانت في
 نواحي حرمون الذي هو جبل الشيخ ثم خرجت ايضاً ديدون اخت نغالون
 ملك صور لما قتل اخوها المذكور زوجها لياخذ امواله فجمعت امراته المذكورة
 تلك الاموال وهربت بها الى افريقية وعمرت مدينة قرطاجنة ببلاد المغرب
 بالقرب من المحل الذي فيه تونس الآن وكان ذلك في سنة ٨٩٠ ق م وقبل
 تاسيس مدينة رومية بنحو ١٢٠ سنة ثم بعد ذلك صارت قرينتها وفي رتبتهما
 وخصيمتهما بالمداوة والبحروب ولما عمرت هذه المدينة وما حولها بقبائل من ارض
 كنعان قبيل وقتئذ لولارومية لكانت قرطاجنة اول مدن العالم ولولا الاسكندرية
 لكانت ثاني مدينة من مدن الدنيا وصارت بحسب وضعها مركزاً للتجارة
 وكان اهلها ارباب صنائع وفنون خصوصاً علم الزراعة وركوب البحار لكنها اخيراً
 خربت محروب الرومانيين المتواصلة معها وذلك سنة ١٤٦ ق م ثم بني على
 آثارها مدينة اخرى سميت بهذا الاسم لم تشتهر الا في زمن اغسطس قيصر
 الروماني وصارت ثاني مدينة رومية في الاهم في ذلك ثم خربت ايضاً محروب العرب
 في صدر الاسلام حتى لم يبق لها اثر وعمر الفينيقيون ايضاً في جنوبي اسبانيا

مدينة الغدير التي تسمى كاذبر و عمروا مدنا اخرى في الارض المجاورة بحر الروم
والجزائر المتفرقة في ذلك البحر كروندس وقبرص ومالطة وغيرها وعمروا في
بلادهم عمائر اخرى بخصيصة ولما شرع سليمان ملك اسرائيل ببناء هيكل الله في
اورشليم استخضر لذلك بنائين من صور وهم الذين اسسوا مدينة بعلبك حيث
توجد حجارة طولها نحو ٣٠ ذراعاً وارتفاعها ٧ اذرع

ولا يرى حاجة الى ذكر مشاهير علماء الصوريين هنا اذ قد تكلمنا بقدر
ما وصل اليها من ذلك في كتاب زبدة الضعائف في اصول المعارف ولم نفتنا
من وصلنا اخباره منهم هناك الأسيانكونيانون الذي يقال بأنه ولد في بيروت
وهو مورخ شهير وله مؤلفات في ديانة الفينيقيين والمصريين ورسائل نافعة في
الطبيعيات وغيرها وقد ترجم بعضها الى اللغة اليونانية في الجيل الثاني بعد
المسيح ولم يبق الا ان منها الأبعض حواش طبعت على حديثها في سنة ١٨٢٦م وقد
ظن البعض ان هذا المورخ كان معاصراً للملكة سيراميس التي مر ذكرها في
الكلام على الكلدانيين وقال اخرون انه كان في عهد موسى النبي ومنهم من جعله
سنة ١٢٠٠ ق م وقيل بل قبل الميلاد بنحو ٦٠٠ سنة فقط وكان الذي ترجم ما
ترجم من كتبه هذه رجل من اهالي فينيقية ايضاً يقال له فياوت الجبيلي فزعم
بعضهم بان فياوت المذكور هو الذي اليها وليس بترجمها .

المعارف في مصر

جرت عادة اكثر المؤلفين ان يتبدؤوا بذكر المصريين قبل غيرهم لظنهم
بانهم كانوا اصلاً لكثير من الشعوب والقبائل لكن البعض من المدققين يقول
بأنه في العصر الذي ذهب فيه قدموس الصوري الى بلاد اليونان يجب ان
نعتبره مصراً ايضاً دعيت أما للعلوم حيث ان العلوم امتدت اليها من فينيقية

وسميت مصر بهذا الاسم نسبة الى بانيتها مينس او مينوس المسمى في الكتاب المقدس مصرايم بن حام بن نوح (تك 10: 7) ويظن بأنه هو اول ملوكها وكان ذلك سنة ٢١٨٤ ق م وأما ماربيت بك ناظر الانبيقة خانه المصرية وغيره من الباحثين في الاثار القديمة فيزعمون بان انتشاء الحكومة الملكية فيها كان سنة ٥٠٠٤ ق م متعللين في ذلك بما عدوه من العائلات الملوكية التي تسلطت عليها من ذلك الوقت الى ان استولى عليها المسلمون وعدد تلك السلطات ٢٤ فرقة كبيرة ترجع كل منها الى عائلة ملوكية تنسب الى المدينة التي كانت تحت مملكتها وهم يستندون في ذلك على ما فهموه من الاثار القديمة التي لم تنزل فيها الى الان وبالتالي على مولفات مورخين سوف نذكرهم واما تسمية اهلها بالقبطة فهي نسبة الى مدينة قديمة في الصعيد تسمى قفط قال بعض المؤلفين ان ساحلها كان المدينة التي يقال لها الان قما وينسب اليها الفخار المشهور بالفناوي يشربون به الماء لكونه خفيفاً ومتى قرب من بخار الماء فقد حرارته وقال ماربيت بك ان المصريين اخذوا هذا الاسم الى قبطة منذ تركوا ديارهم الوثنية وتدينوا بالديانة المسيحية عند ما صدر امر الفيصري ثيودوسيوس الاكبر بحو عبادة الاصنام وخراب الهياكل المصرية (سنة ٣٨١ م كما يتضح ذلك مما ياتي في محله)

وفي خرافات اهلها المتقدمين ان اول من حكمها كان الالهة وان اولهم يسمى بركان حكمها ٩٠٠٠ سنة وان كوكب الشمس المسمى ارزيس وزوجته القمر المسماة ازيس واخاها عطارد المسمى هرمس آلهة اخترعوا اصول الشرائع والاعنون والعلوم وهذا الزعم الوهية كل من اخترع امراً غريباً كما رباب التصانيف العجيبة وامثالهم وهو احد الاسباب الاصلية في التمسك بعبادة الاوثان فان هرمس المذكور هو اشهر علماءهم وبنار علم فلسفتهم قال صاحب تدكرة الحكم ان هرمس هذا كان يسكن في صعيد مصر ويسمى عند العبرانيين اخنوخ وهو عمدة العرب ادريس وهو اول من تكلم على الجواهر العلوية والحركات النجومية وعلم الفلسفة للناس

وبنى الهياكل وعرف خواص الاشياء في المنافع الطبية ونظم قصيدة في الامور
 السماوية والارضية واخبر عن طوفان نوح انتهى كلامه لكن ما يعول عليه من
 جهة نقلات الأحكام فيها حسب رواية بعض المؤرخين هو انه بعد انقضاء مدة
 مينس المذكور مضت عدة قرون مجهولة تملك فيها على مصر ملوك كثيرون
 من اهلها ذكر عن واحد منهم يقال له اسومندياس او اوسيمانديروس انه كان له
 اخزانه كتب نقش على بابها حروف معناها هنا دواء الروح وقد ذكر في بعض
 لمولفات ملك من ملوك مصر بهذا الاسم وانه تولى المملكة سنة ١٩٠٤ ق م ثم
 بعد الملوك المذكورين تولى عاينها ملوك من رعاة العرب اولي المواشي واما
 مارييت بك وغيره فيقولون لم تكن ملوك مصر جميعها متتابعة الواحد بعد
 الاخر بل كان منها كثيرون معاصرين بعضهم بعضاً منهم من كان مستقلاً باقليم
 ومنهم من كان منفرداً بمقاطعة اخرى ودعوا جميعهم فراعمة جمع فرعون وهي
 كلمة مصرية اصلا فاراه ومعناها نور الشمس وان مينس او هو منتزاول ملوكها
 كان معتبراً بين شعبه ومهيباً عند هم حتى انهم قدموا له العبادة كاله وهو
 الذي بنى مدينة منفيس وحول النيل عن مجراه الاصلح واصلح احوال الرعية
 بتحسين الزراعة ونظم القوانين والاحكام وكانت مدة حكمه ٦٢ سنة ثم في ايام ابنه
 اثوثيس شرع بتزيين مدينة منفيس المذكورة وبنى فيها الهياكل والنصور المشيدة
 وفي ايام حكم فرعون فينخس الملك الثاني من الدولة الثانية تدين اثوراييس الها
 في منفيس وفي ايام خليفة بوسيريس بنيت مدينة ثيبة في بلاد الصعيد وهي
 المدعوة الان بقصر ابي الحجاج وجعلها تحت الملك اما الدولة الرابعة فكان
 سرير ملكها في منفيس وثاني ملوكها كان منقاري الذي بنى الهرم الثالث اي
 الاصغر في ارض الجيزة وخامس ملوكها شوفو واخوه نوشوفو اللذان كانا
 يملكان معا وبنيا الهرم الاول اي الاكبر في ارض الجيزة ايضاً اما الهرم الثاني اي
 الاوسط فقد بناه الملك شافري الذي هو من ملوك الدولة الخامسة ولكنه
 نُسب الى سوفيس الثاني غلطاً وظن بعضهم من بعض ملاحظات فلكية ان

هذه الاهرام بنيت في الجيزة سنة ٢١٢٢ ق م لما كانت التين هو نجم القطب
 وفي ايام الملك اوسيرطاس الثالث من ملوك الدولة الثانية عشرة تاسست
 مدينة الكرنك في بلاد الصعيد ثم خلفه عامونتهي الثالث المذي اقام الابنية
 العظيمة في اقليم الفيوم ورسم عليها اسمه وفي ايام الملك طباوس اخر ملوك الدولة
 السادسة عشرة كانت اغارة الملوك الرعاة الفسيف مر ذكرهم على مملكة مصر
 قال بعض المؤلفين انهم طوائف مختلفة جاءوا اليها من جهة اسيا ودخاوها من
 الجهة البحرية المسماة دلنا واستولوا على جميع جهات مصر السفلى تحت راية
 الوليد بن دوفع وهو الذي يسمى عند اليونان باسم سلاطيس ولما استقر بالولاية
 احرق المعابد والهياكل وبنى القلع والحصون وشعبها بالعساكر ومهمات الحرب
 خوفا من هجوم المصريين وجعل مدينة منفيس تحت المملكة وكان المصريون
 يكرهون هولاء الرعاة وينفرون منهم لفسادتهم وكثرة جورهم واحتقارهم الديانة
 المصرية واستمرت احكام البلاد في اباديهم نحو ٢٦٠ سنة وقبل ٥١١ سنة واعل
 الاول هو الاصح الى ان استخلصها منهم فرعون اموسيس بعد حروب شديدة ثم
 بعد اموسيس المذكور تولى ابنه امنوفيس الاول نحو ١٨٠٠ ق م وهو راس
 الدولة الثامنة عشرة وفي ايامه وجد كثير من صور الخيول منقوشة ومرسومة على
 الحجارة والصخور ولذلك يُظن ان هذه الحيوانات لم يكن لها وجود قبل دخول
 الرعاة المذكورين الى مصر ولكن هم الذين ادخلوها لانها لو كانت موجودة
 قديما لكان لابد من نقشها مع باقي الحيوانات التي كانت الاهالي تعني برسمها
 وقد كثر هذا النوع من الحيوان في تلك البلاد حتى صارت التجار تستجلبه من
 الديار المصرية الى الاقطار الشامية في ايام سليمان بن داود ملك اسرائيل
 ومن اثار هذا الملك ايضا الرواق الشهير الموجود في هيكل الكرنك وهو من
 ابداع الابنية القديمة ولم يزل الى الان اسمه مرسوما على الفناطر الفرميدية التي
 بناها حي ثيبة وصورتها في قاعة النصابير الملكية بالصعيد والى جانب ملكة حبشية
 فاستدلوا من ذلك على ان المصريين كانوا يتزوجون بالسودان وفي ايام

فرعون طوطيس الثالث الذي تولى المملكة سنة ١٧٥١ ق م تلت المسلة المسماة
 بمسلة فرعون الى الاسكندرية ومن آثاره ايضا مسلة اخرى موجودة الان
 في القسطنطينية واخرى ثالثة في رومية مكتوب عليها اسمه ومنها الرواق الملكي
 الموجود في الكرنك حيث توجد صورته ايضا ويظن انه في ايام هذا الملك بيع
 يوسف الى مصر وفسر له احلامه فتقدم في بايو وصار مسلطا على ارض مصر
 كلها ولئن كان يوجد اختلاف في ذلك بين المؤرخين ومن ملوك هذه الدولة
 الثامنة عشر ايضا امنوفيس الثالث الملقب عند اليونان بالممنون وكان قد
 ادعى لنفسه الالهية وانشا هيكلًا على ميسرة النيل تجاه ناحية ثيبة وقد تخرب
 الآن وانهدم ولم يبق من اثره الا الصنم الكبير وهو عبارة عن صورة هذا الملك
 وكان المصريون يعبدونه ويعتقدون انه كلما اشرقت الشمس يسمع منه صوت
 فكان الناس يتاثرون من ذلك لعدم معرفتهم سببه ولا زال السبب مجهولاً
 الى ان اتى السارکردنرويلكنسون الانكليزي وشاهد هذا الصنم فوجد في جوفه
 حجراً اذا ضرب به سمع له طنين وتكثتكة ثم ظهر اخيراً الملك رمسيس الثاني
 ثالث فراعنة الدولة التاسعة عشرة المشهور عند اليونان باسم سينوستريس
 وبعد ان تولى المملكة في سنة ١٥٦٢ ق م اشتهر بالفتوحات واخترع القوانين
 يحكى عنه انه عبر البحر الاحمر وتوصل الى الهند وجهاز عمارة في بحر الروم وكانت
 سفينته التي ركبها وقتئذ اول سفينة ظهرت في بلاد اليونان واستولى على بلاد
 الشام وزعموا انه هو اول ملك عزم ان يوصل البحر الاحمر بالبحر الابيض وكانت
 جنوده نحو ٦٠٠ الف مقاتل مشاة و٢٤ الف خيالة و٢٧ الف عربية حربية
 وغزا الحبشة وانتصر عليهم ودخل ماوراء نهر الكمك (في الهند) ووصل الى البحر
 المحيط الاكبر وفتح بلاد اناطولي والتتار وكان كلما فتح قطراً شيد فيه هياكل
 واثاراً تدل على نصرته فلذلك كان يوجد في عدة مواضع مكتوباً ما معناه
 سينوستريس ملك الملوك وسيد السادات فتح هذه الارض بسلاحه وزعم بعضهم
 ان سينوستريس هذا كان يسمى سبساقي ايضا وخالف فيه اخرون حيث لم

تثبت حقيقة ذلك لان تاريخ مصر لم يظهر للوضوح الا من سنة ٦٧٠ ق م منذ
 عصر الملك ايزمبتكوس الذي فتح ابواب مصر للغرباء وتعاشر المصريون مع
 اليونان وغيرهم كما يتضح ذلك مما باقي غير ان ما كان من امثال هذه المزعومات
 ما اقبلت له محلاً للتحقيقات الجديدة وما ربما تذكره منه هنا انما تذكره كيلا يخلو
 المقام من الاستحاطة بما قاله المؤلفون بشانهم ثم ان سينوستريس المذكور اقام في
 مصر هياكل عديدة من اموال الغنائم التي سلبها من الامم حتى لا يكاد يوجد
 في ولدي النيل اثر من الابنية القديمة الا وعليه اسمه ورسمه وشيد ما يلزم من
 الجسور والقناطر والترع والخجان لمنفعة البلاد ورفع الاراضي المنخفضة التي
 يفسدها فيضان النيل وبالجملة قد وصلت مصر في ايامه الى اقصى درجات
 الرفعة والمجد وزهت ايضا بالعلوم والفنون وهو الذي قسم المملكة الى ٢٦ اقليماً
 واقام على كل اقليم نواباً لاجل جمع الاناوة وهو الذي رسم صورة الخاتمة على ما
 قيل وصور فيها صورة المدن التي افتتحها لابين لاهل مصر عظم مملكته وفي ايام
 ابنه منظط الثاني الذي حكم مصر سنة ١٥٠٠ ق م خرج بنو اسرائيل من مصر
 تحت رياسة موسى النبي سنة ١٤٩٢ ق م واثن انكر على ذلك بعضهم لزعمهم بان
 فرعون الذي خرج هذا الشعب في ايامه ذكر عنه في التوراة بانه غرق في البحر
 الاحمر وهذا الملك يوجد له قبر بين قبور الملوك الباقية بالصعيد في الجهة
 المعروفة بباب الملوك لان ذلك ليس ببرهان قاطع لتأييد الاعتراض اذ من
 المحتمل ان يكون المصريون الذين يجتهدون في كتم هذه الواقعة الخلة في شان
 ديانتهم وعظمة ملوكهم بنوا قبراً لهذا الملك بدون ان يدفن احد فيه ايزيلوا
 بواسطته هذا العار عنهم وما يويد ذلك تولية بنته طوسير على تخت المملكة بعده
 قبل اخيها الصغير لقصوره وزواجها برجل ليس من بيت الملك يقال له
 صفتا منظط ومعناه عبد النار على ان جدها سينوستريس المتقدم ذكره كان
 له نحو ٢٠ ولداً من الذكور فلم تكن وقعت تلك الحادثة الهائلة التي افترضت
 بها ذكورهم لما تمكنت هذه البنت من الجلوس على سرير المملكة ولا تزوجت

برجل ليس من بيت الملك على ما ذكرنا اما سيسق الذي كان يُظنُّ بأنه هو
 سينوستريس على ما ذكرنا في ما مرَّ فقد تحقق امره بأنه راس الدولة الثانية
 والعشرين تلك. نحو سنة ٩٠٠ ق م وتاريخ فتوحه مدن يهوذا ونهب خزائن
 الهيكل وخزائن بيت الملك الى اخره لم يزل مصوراً على حيطان هيكل
 الكرنك العظيم ومكتوباً عليه يهوذا ملكي اي مملكة يهوذا تحت قبضة يدي ثم
 لما ملك طهراق احد ملوك الدولة الخامسة والعشرين وهي دولة حبشية زاد في
 تحسين الهيكل الذي بناه في بلاد الحبشة وزخرفته وازاد
 ايضاً قاعة عظيمة الى هيكل مدينة آبوني ثيبة وبهذا الملك انتهت الدولة
 الحبشية المذكورة من بلاد مصر وقامت الدولة السادسة والعشرين وكان
 راسها الملك ايساماتيكوس الاول الذي سمي هيرودوتوس ايساميس وفي
 بعض المؤلفات ايزميتكوس وقد سبق ذكره بأنه هو الذي فتح ابواب مصر
 للغرباء وكان تملكه سنة ٦٦٤ ق م فجمع هذا الملك بلاد مصر تحت سلطته بعد
 ان كانت قد انقسمت قبلاً بين ١٢ قائداً من عظمائها وكان رجلاً حاذقاً
 محمود السيرة وتعتبر مدة ملكه مهمة للغاية اذ في ايامه انتهى الايهام والالتباس
 التاريخي حيث درج استعمال الكتابة بالحروف الابجدية وتركت الكتابة ذات
 القوش والصور وجعل مدينة منفيس كرسياً للملك وفي ايامه تقدمت بلاد
 مصر الى درجة سامية في التمدن والمعارف والغنى لانه اعنى بتجسيها وتنظيمها
 وبنى فيها الليرنت على شاطئ النيل وهو بناء عظيم بعدد البعض من عجائب
 الدنيا السبع فكان يشتمل على ٢٠٠٠٠ مغدع و١٢ قصرًا ملوكياً داخل باب
 واحد وكلها مسقوفة بالرخام المرمر بناه سنة ٥٠٠ ق م وجدد معاهدات تجارية
 بينه وبين اليونان واهل صور وسهل اسباب الاخذ والعطاء حتى صارت
 مصر مركزاً لتجارة الامم ولما تولى بعده ابنه نخو ويقال نخوس اونيكوس سنة
 ٦١٠ وفي بعض المواضع سنة ٦٢٦ ق م كان كاييه له عناية واهتمام بتجسين
 احوال الرعية وتوسيع دائرة التجارة فشرع في ايصال نهر النيل بالبحر الاحمر

بواسطة ترعة طولها ٩٦ ميلاً لكنه لم ينجح اما مارييت بك فيقول ان اول من حفر هذا المخلج هو الملك سنبوس الاول من ملوك الدولة التاسعة عشرة الذي خلفه على المملكة سينوستريس المقدم ذكره ثم ان نخوس المذكور امر جماعة من الفنيقيين ان يكشفوا له حدود افرقية پاسرها فساروا في البحر ثلاث سنوات من جهة بحر القزم وبعد ان جازوا راس الموجاء الصالح عبروا بوغاز جبل طارق وعادوا في اخر الثالثة الى مصب النيل ولما عصى امزيس او اماسيس الذي كان استخامة نبوخذ نصر ملك فارس على مصر بعد ان حاربها وانزل بن نخوس المذكور عن كرسيها استقل هذا الخليفة بملك مصر سنة ٥٨٩ ق م وساعد التجارة فلذلك انجذب اليونانيون الى مملكتو حتى جاء اليها الفلاسفة ايضاً مثل سولون وفيثاغورس ليتعلموا فيها بعض العلوم وهو كان اخر ملوك الدول المصرية الوطنية (فتمت بذلك نبوة حزقيال ص ٣٠: ١٢) حيث قد تسلط عليها بعدة اكثر الدول القديمة ولم يعد يملك عليها ملك منها واول من استفتحها من الغرباء كان بختنصر ملك بابل ثم اضيفت الى مملكة فارس ومادي في عصر كمبريز بن كورش وذلك سنة ٥٢٥ ق م وهو الذي استخلصها من يد اماسيس الذي مر ذكره واستمرت خاضعة للفرس الى ان استفتحها اسكندر بن فيليبس المقدوني سنة ٣٣٢ ق م وبني فيها مدينة الاسكندرية وسماها باسمه وجعلها على نسق المباني المكدونية واذن لكثير من اهالي بلاد اليونان واهالي المشرق ان يستوطنوا بها وفتح ابوابها لجميع الناس واعدها مركزاً للتجارة اهل العالم كما هي الى يومنا هذا

ثم بعد وفاة الاسكندر تولى زمام مصر الدولة البطلموسية وكان اول ملوكها سوطير بن لاغوس تولى سلطنتها سنة ٣٢٢ ق م ويعرفه بطلموس الاول وكان حاذقاً عادلاً محباً للعلوم اتخذ الاسكندرية داراً لاقامته مع ابناءه منفيس على حالها اعني داراً للسلطنة رسماً ومقر سائر الاحتفالات الملكية لا يلبس الناج الملكي الايم او جدد مدناً كثيرة وفتح الترع المردومة واعثنى باتساع التجارة

واصلاح امور الفلاحة والزراعة وشرع في تميم الهياكل والتصوير والمباني العظيمة
 ومنها ضريح للاسكندر المكدوني المذكور لا يعرف الا ان محيل وجوده ومنارة
 الاسكندرية المعروفة بالفاروس وسوف يأتي الكلام عليها .
 وهو الذي اسس مكتبة الاسكندرية التي جمع له كتبها النفيسة رجل يقال
 له ديمتريوس دو قالير قال بعثهم ان هذا الملك جمع في تلك الخزانة ما ينوف
 عن ٤٠ الف مجلد سماها بالام ثم جمع اخرى وسماها بالبنت ولا زالت تتزايد
 تلك الكتب حتى وصلت في العدد الى ٧٠٠ الف مجلد وقبل ٤٠٠ الف
 فامتلا كل من هيكل روثيون وهيكل سريس كتباً لها اعتبار عظيم من
 كتب اليونانيين والمصريين والحباشة والكلدانيين والهنديين والفرس والسوريين
 والعبرانيين وكانت هذه المكتبة مشتهرة على العلوم واللغات والاديان المختلفة
 وبهذه المكتبة تأسست تلك المدرسة العظيمة المشهورة التي عرفت عند
 العرب برواق الحكمة وصارت مقصداً لطلبة العلوم من سائر الاقطار حيثما
 رتب لها النفقات واحضر اليها المعلمين من كل الجهات ومن ثم صارت مدينة
 الاسكندرية مجعماً للمذاهب والعلماء فتواد من هذا الاختلاط القول بالحلول
 اذ جلب اليها اليونان نظريات حكمائهم ودقائق سفسطيتم وعلم فيها كهنة
 منف بعضاً من عقائدهم وعلم فيها اليهود ايضاً حقائق الكتب المقدسة وجاء
 اليها المجوس ليعلموا فيها علم التنجيم وعلم الكاذب المسمى باسمهم قال بعض
 المؤلفين ان اشهر مدارس علم الفلك عند القدماء مدرسة الاسكندرية التي
 انشاها الملوك البطلموسية فان فيها ابتدئ باستعمال الآلات الفلكية سنة ٢٠٠
 ق م وهناك اخترعت اولاً آلات لقياس الزوايا ومن اشهر معلميها الفيلسوف
 هيرخوس نحو سنة ١٥٠ ق م وبطلموس نحو سنة ١٤٠ ق م الف كتاباً في هذا
 الفن سماه المجسطي وكان عليه الاعتماد الى القرن الخامس عشر والسادس عشر
 بعد المسيح الى ان قام كوبرنيكوس من بروسيا وغيره فابطلوا الحكماء (وسوف
 يأتي الكلام على ذلك في محاور) وقال اخرون انه لما تولى المملكة بطلموس

فيلادلف بن بطليموس سوطير المقدم ذكره في سنة ٢٨٢ ق م التفت الى توسيع دائرة العلوم والفنون وانواع الصنائع واكثر من تحصيل الكتب التي اضافها الى مكتبة ابيه وحيث كان ماهراً في علم الفلك والهندسة اظهر حركة القمر والف ككتاباً في الجغرافيا وامر بترجمة التوراة من اللغة العبرانية الى اليونانية لمنفعة اليهود الذين كان ابوه قد جلاهم من بلادهم واسكنهم مصر فترجمها له ٧٠ نفر من اليهود ولذلك قيل لها الترجمة السبعينية يُقال ان من جملتهم كان سيمان الشيخ الذي حمل المسيح على ذراعيه في هيكل اورشليم وُظن ايضاً بانه هو جد غمالاتيل معلم الناموس (اع ٥: ٣٤) ثم امر هذا الملك ايضاً مانيتيون الكاهن المصري ان يكتب له تاريخ مصر باللغة اليونانية فجمع هذا الكاهن لها تاريخاً من الدفاتر الرسمية والاوراق والاثار والرسوم القديمة الموجودة بومئذ في ارض مصر وبعده واعلمه في القرن الثاني قبل الميلاد اخترع اكتزيبيوس في هذه المدرسة ايضاً طلونية او آلة لرمي السهام بواسطة قوة مرونة الهواء المتكاثفة وساعة تدل على مرور الوقت بمرور كمية من الماء في انبوبة على قطر معلوم ثم في القرن الخامس بعد الميلاد اخترع هيرون الالة المعروفة بالبحر ويسمى بها الجربون بالعبارة تُرفع بها الاثقال من الاحجار ونحوها وتكلم على تمدد الهواء من الحرارة وهو صاحب النافورة الشهيرة بنافورة هيرون وهي آلة ينضغط بها الهواء من نفس تركيب الآلة وفيها ايضاً ابتداء هروفيلوس وفيلابوس من اطباء بتشريح الاجسام البشرية .

ثم انعكف هذا الملك على عمليات ومشروعات ذات منافع وفوائد كما استكشف طريق البحر بالاسفار والوقوف على حقيقة منابع النيل وارسل سفناً لاستكشاف سواحل الحبشة والبلاد السودانية وبالجملة قد زادت في ايام هذا الملك المعارف والتجارات في ذلك القسم بخلاف غيره من الاقسام الاخر التي تولاهما خلفاء الاسكندر وزادت تجارة الاسكندرية على بلاد قورنثة وسيرا قوسة ببلاد اليونانيين وكان فيها خليج مبداء من اكينوس ونهايته الى البحر

الاحمر وكان مجهولاً على شاطئيهِ خانات وفنادق بوضع فيها البضائع الآتية من اسبانيا الجنوبية وقال ابن خلدون المغربي ان بطليموس الازنبا (لا اعلم من هو الذي ارادته بهذا اللقب من اعضاء هذه العائلة الملوكية) بنى ملعباً للخيل شهيراً في الاسكندرية اخترق في زمن القيصر زينون (الذي تولى الامبراطورية الشرقية سنة ٤٧٤ م) وفي ايام بطليموس الثالث ابن بطليموس الثاني الملقب بالكريم الذي تولى الحكومة في سنة ٢٤٦ ق م سُرِقَ من هيكَل الزهرة شعر الملكة برنيقي زوجة هذا الملك وكانت قد نذرته لذلك الهيكل لينتصر زوجها في حروب التي كانت جارية بينه وبين انطيوخوس ملك سوريا فبلغ خبره الى الملك فغضب واراد قتل الحراس فدخل عليه بعض المنجمين وكان متقدماً في بابهِ واخبره بان الزهرة هي التي اخذت الشعر ونقلته الى السماء ووضعت بين النجوم فسر الملك بذلك ومن ثم سُمي شعر الملكة برنيقي بين الناس من جملة مجاميع النجوم

وبعد انقضاء الدولة البطلموسية بموت كليوباترا اخر ملوكها نحو سنة ٢٩٤ ق م دخلت مصر تحت سلطة القيصريّة الرومانية قال بعض المؤلفين ان الاسكندرية صارت حينئذٍ مصدراً جديداً الى الفلسفة في عصر اغسطوس قيصر الذي افتتحها فكانت جميع طلبة العلم في ذلك الزمان يتقاطرون الى هذه المدينة من كل جنسٍ رغبة في تلك المكتبة التي لم يكن لها نظير في غيرها وكان المعلم بونامون قد وضع فيها اصول الفلسفة المنتخبة التي تسمت اصحابها اكلستيكين وهي انه لا يجب ان يتوقف الطالب على تحصيل العلم من معلم مخصوص بل ينبغي تحصيل الحقائق من تعاليم جميع الفلاسفة بشرط موافقتها للعقل والصواب وقبولها بعد البحث المستطيل ثم بعد ان خرب هذه المدرسة ثيودوسيوس الاكبر قيصر القسطنطينية بجملته هياكل الوثنيين باسباب معارضة امينوس سكاس واصحابه الديانة المسيحية على وجه التعنت والعناد وحرقت المكتبة ايضاً باغراء البطريرك ثيوفيلوس سنة ٢٩٠ م جدد هناك هذه الفلسفة المنتخبة جماعة من

الفلاسفة المسيحيين الذين كانوا قد تخرجوا فيها كما ذكر ذلك بتفاصيله في كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف ولا زالوا يارسبونها ما امكن الى ان فتحت الاسكندرية وبلاد مصر بالاسلام سنة ٢٠ للهجرة (سنة ٦٤٠ م) قال العلامة رفاعة بك الطيطاوي نقلاً عن ابي الفداء بن عمرو بن العاص استشار وقتئذ الخليفة عمر بن الخطاب بشأن ما كان باقياً من الكتب فيها فامرهُ بحرقها وكانت نحو ٤٠٠ الف مجلد قائلًا ان كانت موافقة للقرآن فحسب في غنية عنها وان كانت مخالفة فهي مضرّة لاجلنا بها فاوقد بها المسلمون الحمامات ٦ اشهر وكانوا نحو ٤٠٠ حمام ونقول الا فرنج اذا كان هذا صحيحاً فيهاها من خسارة فاحشة لا يمكن جبرها وهما ينبغي ان نلاحظ بانه نظراً الى عدد الكتب ونسبتها للحمامات يستبين بانهم جعلوا لكل حمام منها نصف كتاب تقريباً في كل يوم وايتمهم ابانوا لنا عن مقدار جرم الكتاب لعرف ان كان يكفي ذلك الحمام اولا يكفي وهذا لا يخلو الامر من وقوع الغلط اما في مقدار الكتب واما في عدد الحمامات واما في كل الحكاية من اصحابها

ولما اتصلت سلطنة مصر بالخلفاء الفاطميين وكان استيلائها من العباسيين المعزاد بن الله ثالث الخلفاء المذكورين بعد موت كافور الاخشيدى على يد قائد جيوشه جوهر بنى هذا القائد مدينة القاهرة واسس مدرستها الكبرى الشهيرة بالجامع الازهر فنقل اليها المعز المذكور ما كان في قصره بالمدينة من الاموال والامتنعة وسار اليها في سنة ٣٦٢ للهجرة (سنة ٩٧٢ م) وجعل هذه المدينة دار خلافتهم ولما تولى الخلافة بعده حفيده الحاكم بامر الله ابو علي منصور العبيدي صاحب ديانة الدروز التي تدلنا عليها في اخر كتابنا المسى بسوسة سليمان في اصول العقائد والاديان بما فيه الكفاية عن الاعادة ها بنى في هذه المدينة مدرسة سماها دار الحكمة واجلس فيها القراء وحملت اليها الكتب من الخزائن والقصور ودخل اليها الناس وجلس فيها الفقهاء والمنجمون والنحاة واصحاب اللغة والاطباء وحصل فيها من الكتب في سائر العلوم واجرى

على ما فيها من الخدام والفتهاء الارزاق وجعل فيها ما يحتاج اليه من الخبز والورق والاقلام والمجاير وذلك في سنة ٢٩٥ للهجرة (سنة ١٠٠٤ م) لكثرة ابطالها في ما بعد المأمون وزير الخليفة المستنصر العبيدي بسبب حميد بن مكي الاطفيحي الفصار وغيره من تخرجوا فيها وادعوا الربوبية وقتل حميد المذكور وذلك سنة ٥١٧ للهجرة (١١٢٣ م) ومن اراد الاطلاع على هذه الحكاية بالتفصيل فعليه مراجعتها في كتابنا الثالث المسمى بصناعة الطرب في تقدمات العرب

وبعد ان انقضت الخلافة العاطمية المذكورة وتولى سلطنة مصر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ابوب راس الدولة الكردية سنة ٥٦٧ للهجرة (سنة ١١٧١ م) بنى في القاهرة المذكورة قلعة الجبل والبئر المشهورة بها المعروفة ببئر يوسف وعمتها نحو ٣٠ قدم ومع ذلك يمكن النزول فيها الى العمق ولولم ينزل راكباً على حمارٍ لما فيها من الدرج الدوار واقام لهذه المدينة سوراً ايضاً وكان في زمن الخلفاء العاطميين مبنياً باللبن

ثم بعد ان قرض السلطان سليم الاول العثماني الدولة المجر كسبية التي كانت خلفت الدولة الكردية المذكورة واستولى على هذه البلاد سنة ٩٢٣ للهجرة (سنة ١٥١٧ م) قويت فيها شوكة المالك الذين اضرّوا بها كثيراً بسبب عدم انقيادهم التام الى اوامر السلاطين العثمانية ولا زال الحال على هذا المتوال الى ان تولى وزارتها محمد علي باشا سنة ١٢١٩ للهجرة (سنة ١٨٠٤ م) فجلب اليها هذا الوزير الضباط الفرنسيين لاجل تعليم العساكر النظامية وبنى السفن الحربية وانشأ فيها المدارس لتعليم العلوم والفنون واللغات الاجنبية وادخل اليها معامل القطن والحزير والاصواف وغير ذلك من الصناعات الاوربية وانشأ قلماً مخصوصاً لترجمة الكتب وطابع لطبع ما يترجمه المترجمون من اللغات الاجنبية وامر باشها جريدة رسمية تسمى الوقائع المصرية وارسل عدداً وافراً من اهالي مصر الى اوربا لاجل تحصيل اللغات واتقان العلوم ونشرها في وطنهم ووضع

سالك الاشارة للمخاض بين مصر والاسكندرية وبنى عمارات وشيد قصوراً وانشأ حدائق جميلة منها جنيحة شبرا الشهبرة ومهد الاراضي وفتح الخلبان والترع واقام سدوداً لمنع اضرار زيادة فيضان ماء النيل وانشأ المعامل والورش لصب المدافع وعمل الباروت وغير ذلك من الاذوات الحربية ثم حصل اخيراً على سباح الدولة العلية بان تكون حكومة مصر له ولخلفائه بطريق التوارث خلفاً عن سالف مع اعتبار هذه الولاية حصّة من المملكة العثمانية وخاضعة من كل الوجوه لاوامرها العلية وبعد ان توفي هذا الوزير وانتقلت الحكومة من بعد خليفته الاول الى حفيده عباس باشا وذلك في سنة ١٢٦٥ للهجرة (سنة ١٨٤٨ م) شرع هذا الوزير ايضاً بانشاء التلغراف والطريق الحديدية من مصر الى الاسكندرية ثم تولى بعده عمه محمد سعيد باشا في سنة ١٢٧١ للهجرة (سنة ١٨٥٤ م) وانشأ طريق المنشية بالاسكندرية وغرس فيها الاشجار وجعلها من احسن المنتزهات وكان قد شرع بوصل البحر الابيض بالبحر الاحمر وذلك تسمت المدينة التي تاسست على معبر هذا الخليج ببورت سعيد ابي باب سعيد نسبة له غير ان هذا العمل لم ينجز في ايامه بل تم في ايام خليفته وهو ابن اخيه اسماعيل باشا الذي تولى الحكومة في سنة ١٢٨٠ للهجرة (سنة ١٨٦٣ م) وسعت له الدولة العلية العثمانية ان يكتب رسماً بالحد بوي وهو لفظ فارسي يشير الى استقلال صاحبه من بعض الوجوه في الحكم وقد كان هذا اللقب يطلق قبل الان في البلاد المصرية رسماً ايضاً على حده محمد علي باشا المشار اليه في ما تقدم لكن بدون ان تقر له الدولة او تجيزه عليه

اما ديانة قدماء المصريين فكانت من اشنع العبادات الوثنية لانه كما تغابت العلوم والساطة في بلادهم كذلك كانت عبادة الاصنام ايضاً وفي مطالعة ما كتبناه عنها في كتاب سوسنة سليمان في اصول العقائد والادبان غنى عن الاعادة غير انه لا بأس من ايراد بعض ما نقله الرواة من خرافاتهم المتعلقة في هذه العبادة الاصنامية

قال ابن خلدون المغربي في كلامه على المصر بين بانه كانت لهم اليد الطولى في صناعة السحر وكان الملوك مصر عناية شديدة بذلك حتى كان من مباهاتهم موسى النبي وحشر السحرة له ما كان (يشير الى ما ذكر في التوراة خر ١٢:٧) وبقايا الاثار السحرية في براكين اخميم من صعيد مصر ما يشهد لذلك ايضاً وقال صاحب تذكرة الحكم ان المصر بين كانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة وكانوا يسهون من تعبد ما جميعاً ٧ سنين بالماهر وكل من تعبد لكل واحدة منها ٧ سنين الى ان ينتهي في ذلك مدة ٤٩ سنة بالفاطر ويجلس الى جانب الملك فلا يعمل الملك عملاً الأبعد مشاورته له فيه وكان معيناً لكل واحدة من هذه النجوم السبعة كاهن ياتي في كل يوم صباحاً الى الملك فيسأله الفاطر المذكور ابن صاحبك فيجيبه في البرج الفلاني وفي كذا درجة وكذا ثانية وهكذا الى ان يسأل السبعة وبعد ذلك يعمل الملك بحسب ما نقتضيه احكام هذه الكواكب في ذلك اليوم وعدد ما يحدث امر من الامور المهمة يجلس الملك في قصره ويستدعي الكهنة جميعاً فكانت اشالي مصر تجتمع في الاسواق للفرجة عليهم لان كل واحد من الكهنة المدعوين كان يجيب دعوة الملك ويحضر اليه راكباً على شيء يناسب الكوكب الذي يكون متعبداً له والطبول تضرب قدامه وغير ذلك من انواع الملاهي فهم من يكون مستغرقاً في الاوار لا يستطيع بسببها النظر اليه ومنهم من يكون راكباً اسداً يسوقه بشعبان عوض السوط ومن هولاء الكهنة ظهر ٧ ملوك حكموا البلاد المصرية احدثهم يقال له صيلم وهو اول من اتخذ مقياساً لزيادة ماء النيل فعلم بركة من نحاس وعليها عفتان ذكر واشي وفيها قليل من الماء وفي اوان زيادة النيل بكل سنة كانت تجتمع الكهنة ويتكلم بكلام فيصف احد العقابين فان كان الذكر كان النيل زائداً وان كان الاشي فيكون ناقصاً والكاهن الثاني اسمه عشاءش عمل ميزاناً في هيكل الشمس وكتب على كفة منه حنماً وعلى الثانية يطلاء ووضع الى جانبه حجارة فاذا حضر متخاصمان في قضية من القضايا اخذ كل منهما حجراً ووضعه في كفة فتثقل كفة

الحق ونخف كفة المبطل والثالث عمل مرآة من ٧ معادن وجعل في وسطها صورة امرأة جالسة وفي حجرها طفل فكان من نظر في تلك المرآة رأى الاقليم الذي اراده ووقف على ما هو جارٍ فيه من الحوادث وإذا اصطب امرأة وجع في جسها مسحت به موضعه من جسد تلك الصورة فنبرا من ساعتها والرابع عمل شجرة اغصانها من حديد عليها طيور متى قوب منها ظالم نسكت به تلك الطيور فلا يتركوه حتى يقر بها فعل من المظالم وعمل صنما من التراب سماه عبد زحل فكانوا يتحاكمون اليه فمن كان زائعا عن الحق ثبت مكانه فلا يمكنه ان يتحرك ما لم يعترف بما عليه والحامس عمل شجرة من النحاس فكان كل وحشيد او طيرا اقترب اليها بقي مكانه غير متحرك الى ان يوخذ وعمل على باب المدينة صنين الواحد عن يمين الباب والاخر عن اليسار فاذا دخل احد وكان من اهل الحبر ضحك الصنم الذي عن يمين الباب وان كان من اهل الشر صرخ الصنم الذي عن يساره والكاهن السادس عمل وزنة فكان اذا باع احد شيئا وقبض ثمنه من اي نوع كان من المعاملة وضع الدراهم المقبوضة في كفة من الميزان ووضع تلك الوزنة في الكفة الثانية فاذا قابلتها كانت تامة العدد وصحيحة العيار والآن فتكون ناقصة من اي نوع كانت من الدراهم او انقطع او الفضة او الذهب والكاهن السابع عمل اعمالا عجيبه بطول شرحها واخبرنا غاب مدة اقام فيها المصريون بلا ملك الى ان كانت الشمس في برج الحمل ظهر اليهم في السحاب وخاطبهم قائلا لا تطعموا في عودتي فاني لست براحع اليكم وانما اقيموا فلانا ليكون عليكم سلطانا عوضي. انتهى

والظاهر انهم لم يتفقدوا صناعة التصوير كما اتتهم اليونان حيث ان ايدي اصنامهم كانت ملتصقة باجسامها وكذلك انفخاها وارجلها ملتصقة ببعضها غير متحركة واذلك كانت غير مالوفة لادم انقائها واظنهم كانوا يصورون اوزريس المهم بصور مخنلة على حسب الاوقات فكانت اشكاله متنوعة عند غروب الشمس وعند الشفق وعند طلوع الفجر وشروق الشمس وفي وقت الظهور وزمن

السحاب والصيف والشتاء اذ تارة كانوا بصورته على هيئة شاب لا لبس خرقه
 قماش ساترة لجميع بدنواخذ به ايدي الى جهة صدره وعلى راسه كرة ساوية
 وتارة على شكل احد رعاة فرجيا وعلى راسه قلنسوة ايضا وهو قابض على عصا
 والى جانب كيش وطورا يجعلون تمثالة عند غروب الشمس على شكل سائق عربية
 بيده سوط جالسا على زهرة شجر السدر وكانوا بصورون ابليس وهي اشهر
 معبوداتهم بعد اوزيريس المذكور حاملة على راسها اوراقا كبيرة او قدرا او
 دواليب او شرافات جدران او كرة او صورة هلال وكثيرا ما كانوا يصورونها
 ايضا واضعة طفلا في حجرها ترضعه ثديها وفي راسها قرون كقرون شاة او ثور
 او تيس او يصورونها قابضة بيدها على منجل وكانوا يصورون هورس احد الهنم
 ايضا على نحو تسعة او عشرة ثيل اشهرها ما كان على شكل شخص قابض على
 راس بازي وبيده صليب مربوط فيه حمار او على صورة طفل صغير بين
 اوزيريس وابليس لكونهم يعتقدون بانها ولدهما وتارة بصورته وراسه مطوق
 بثمانين من ذهب امام بيده مدرة وهي الالة التي يذرون بها القمح وكانوا
 يصورون انوبيس على شكل شخص راسه كراس الكلب معلقا في ذراع امانا ذو
 حلقة وبيده اليمنى براع والى اجنحة في رجليه وخلعه صورة مجمع وسلحفاة وكانوا
 يصورون كانوب بصورة اناه كبير على صورة راس امراة وبازي برسوم عالية حروف
 هيروغليفية وكانوا يصورون ايبس بصورة عجل اسود على ظهره صورة حذاء
 (نوع من الطيور) وعلى لسانه صورة خنفساة (نوع من الحشرات) وشعر ذنبه
 على نوعين وفي اضلاعه شكل هلال وكانوا يصورون اوزيريس بصور متعددة
 وسوا كل صورة منها باسم اما اسمه هو واما اسم اوزيريس او ايبس اللذين تقدم
 ذكرها لكونهم يعتقدونهم واحدا وشوهد على بعض تماثيلهم تمثالة على صورة
 شخص هرم في راسه 7 أضغائر مثل قرون السانة وهي انثى الذئب مستورا بخرقة
 قماش طويلة عريضة منقوشة ببعض علامات من علامات منطقة البروج
 وقاضيا بيده اليسرى المطلقة دون غيرها من سائر اجزاء جسمه على شعبان

محيط بجميع جسده واما اقبنيف الذي كانوا يعتقدونه الخالق للدنيا وحده فكانوا بصورته على شكل شخص خارج من فوه بيضة لان البيضة كانت عندهم علامة على العالم ويستنبين من الاثار القديمة الموجودة في اراضي مصر الواسعة بان هذه الامة المصرية كانت تعني بتصوير كل شيء من انواع الحيوانات والالات الصناعية بل وعاداتهم المحلية ايضا فقلن العلامة الهائل رفاعة بك الطمطاوي أنه يوجد في ردم قرية يقال لها انسانة كثير من التماثيل والصور تعتقد العامة بمصر الان انها صور بشر حل بهم المسخ وان الكهوف القريبة من مدينة اسيوط تحوى على تصاوير قديمة عجيبة محفوظة الى الان لم تذهب بهجتها وكان في قرية يقال لها دندرة صورة منطقة البروج وهي جبر فيو صورة الفلك اخذها الفرنسيون الى باريس ووضعوه في المتحف الملكية كما جرت عادتهم وعادة غيرهم من الافرنج الذين يعرفون هذه البلاد وغيرها من مدن المشرق وقد سلبوا اثارا كثيرة كانت زينة لها وما ذاك الا لعدم اعتناء اهالي البلاد وقلة معارفهم فلا يجدون لها مزية ولا يدركون لما قدرها بوجب اعتبارها والمحافظة عليها (بل سوف يرد عليك هنا وفي كتاب صناجة الطرب في تقدمات العرب كيف كان البعض من الحكام والاهلين يفعلون بما هو منظور لديهم منها) وهذه المنطقة التي نحن بصددنا تولع بها علماء امور الاقدمين في فرانسوا واستخرجوا منها نتائج كثيرة وكذلك يوجد بالقرب من قرية ارمنت هيكل فيه كثير من الصور ومن جملتها صورة الزرافة التي هي الآن ليست من الحيوانات الموجودة في هذا الاقليم ثم هيكل اخر في مدينة اسنا وتصاوير كثيرة ايضا في كهفين بقرب قرية يقال لها الطية يفهم منها كيف كان قدماء المصريين يصرفون زمنهم ويشغلونه وكيف كانت آدابهم ومن جملتها صور آلات الفلاحة المستعملة عندهم من قديم الزمان ولعل هذا هو الهيكل الذي اكتشف عليه المعلم ماريات فقال ان هيكل الحديقة المصرية هو مشيد لثلاثة آلهة وهم (حسب الاصل) هاتور وهورس وهورسنتو وهو على شكل غرفة ناوسية وهندسة

منافية اصول هندسة الهياكل لان كثرة نوافذه ترسل كمية وافرة من النور الى داخله ليظهر ما فيه من الزخرفة ووجود هذا الاثر الناوسي صار باعنا على الدلالة عن ثلاثة اعصار مختلفة فانه دل اولاً على عادة اتخاذ الغرفات الناوسية ثانياً على كيفية دفن الموتى فيها ثالثاً وضع آثار قديمة على حدة من المدفون تكشف عن غوامض تاريخ المصريين القدماء وجدران هذا الهيكل من داخل مزينة بتصاوير منقورة في الصخر وكلها تنبي عن عوائد وتصرفات تلك الامة المصرية فيشاهد على تلك الجدران صور من يستحضر الخمر ومن يصطاد الوحش ومن يقتنص الطيور بالاشباك ومن يصطاد الاسماك ومن جهة اخرى تشاهد تصاوير ملاحين يتصارعون على الماء ومنهم من يمارس التروض بالعاب مختلفة ومن يعتني في انقار عمل الاواني ومنهم من هو حامل على عاتقه احمالاً ثقيلة ومنهم من ينقر في الصخور ومن ينحت التماثيل ومن يبني السفن ومن يثقل في اصناف التجارة ومن يعقد الابنية ومن يتروض في صناعة سفر الجمار ومنهم من يصطاد فوس البحر والتمساح ومنهم من يستحضر طعام الاسمكة ومنهم من يصطاد السمك بالصنارة ومنهم من برعى المواشي ومنهم من يجرث الاراضي ويلقي البذار ويعتني في نصب الكروم وبالجملة يرى تاريخ مصر كله مسطراً على جدران هذا الهيكل وفي آثار مدينة كانت تسمى سابقاً امبوس يوجد هيكل فيه عدة تصاوير غير كاملة تدل على ان القدماء من اهل مصر كانوا يستعملون في الرسم طريقة المتأخرين للمستعملة الان عند الاورنج بالهندسة المعتادة

وكانت لغة المصريين القديمة مجهولة جداً للمتأخرين وكان الظن بانها من اللغات الماتة ولم يبق لها اثر ولا سيما ان كل ما وجد من الكتابات على تلك الاثار الباقية من المباني القديمة كالاعمدة وحيطان الهياكل او مرسومها على اللقائف التي كانوا يلفون بها الموتى المعنطين كان من نوع الرسم والنقوش ايضاً وتسمى الهيروغليفية وهي عبارة عن اشارات مستعملة من صور الاشباح الطبيعية

وكانت على ما فهم اخيراً نوعين الاول يشير الى اصواتٍ نطقية يدل عليها
ببعض النوش المصاحبة لتلك النصوص والمختلفة والثاني تحت هيئة اشباح تدل
على جلٍ مخمّرة ولم تدرج عندهم الكتابة بالحروف الابجدية الا في زمن تملك
الملك ايساما نيكوس الاول راس الدولة السادسة والعشرين كما سبقت الاشارة
اليه في ما تقدم وذلك سنة ٦٦٠ ق م ومن ثم انحصرت الكتابة الهيروغليفية
المذكورة في الكهنة فنط حيث داوموا استعمالها لاجل اخفاء علومهم عن العامة
الى لمن دخلت بينهم الديانة المسيحية ومن ثم ابطالوها لكونها كانت تذكرهم
باحوالهم الجاهلية وعاداتهم الوثنية واتخذوا بدلها طريقة الكتابة اليونانية فمع
مرور الازمنة تناسى امرها بالكلية وكان كل ما يتكلمه المناخرون عما يبحثون فيه
من تلك الاثار يتكلمونه اما بطريق الحدس والتخمين واما اخذاً عن مورخين
اقدمهم لم يتجاوز ٤٥٠ سنة قبل التاريخ المسيحي كمبرودونوس المورخ اليوناني
الذي كان زار هذه البلاد ووصفها في تاريخه ثم فعل نظيره ثيودور الصقلي وكان
وقد عليها سنة ٨ ق م واسترابون احد علماء الجغرافيا اليونانيين وكان معاصراً
لثيودور المذكور وبلوتاركة الذي الف سنة ٩٠ ب م رسالة باللغة اليونانية في
ما كان يعبده المصريين من الالهين اللذين هما اكبر آلهتهم المعروفين بايزيس
واوزريس وقد تقدم ذكرها وغير ذلك ما يتعلق بديانة المصريين القديمة
بحسب ما كان يتناقله المصريون جيلاً بعد جيل من الاحاديث واما التاريخ
الذي كان كتبه مايمون الكاهن المصري بامر بطليموس فيلادلف في سنة
٢٥٠ ق م على ما اشرنا اليه في ما تقدم فقد صالت عليه يد الدهر واغنائته
الغوائل ولم يصل الى عصرنا منه الا بعض قطع رواها بعض المورخين لكن لما
اهتدى الى فلك ذلك الفلم الهيروغليفية المقدم ذكره احد حناق الفرنسيين
وهو المحقق الشهير المعلم شبوليون وكان ذلك في سنة ١٨٢٢ م تحقّق الامر
وظهر بان لغة المصريين القدماء لم تعدم بالكلية وليست هي الالفة التي لازال
الي الان يستعملها قبطة مصر في كتبهم الدينية ولم يازجها من الالفاظ الاجنبية

غير بعض كلمات من اللغة اليونانية احنا جوا الى اضافتها منذ اعتنقوا الديانة
المسيحية

والذي ابقي تلك الآثار العظيمة التي اتخذها المتأخرون ولا سيما الان
مصدراً لكثير من معرفة حقائق امور مصر التاريخية على ما ذكرنا هو اعتناء
اهاليها الاعضاء التام بالامور التي يتخذ ذكرهم بواسطتها كالأبنية المنينة الشامخة
العجيبة وغير ذلك من الاشياء المهولة لا الظرفية بحيث لا يمكن للدهران يتغلب
عليها كل التغلب ومبالغ فضلهم فيها انما هو اقتحام المشاق ومصادمة الموانع التي
تعرصهم في عملها كالأهرام الثلاثة الموجودة في ارض البحيزة وهي تبعد اميالاً
قليلة عن القاهرة وتعد من عجائب الدنيا السبع اعظمها مربع الشكل وكل
ناحية من نواحي قاعدته ٧٤٦ قدماً فيكون محيطه ٢٩٨٤ قدماً وهي تغطي ١٤
جريباً من الارض (الجريب يتحصل من ضرب ٦٠ ذراعاً في مثلها فيكون
الخارج ٣٦٠٠ ذراع مربع ويكون مقدار الاربعه عشر جريباً المذكورة (٥٠٤٠٠
ذراع مربع) وارتفاعه ٥٦٠ قدماً وقد اختلفت فيها آراء المؤرخين السالفين
فمنهم من قال ان احد الملوك بناها واعد الاول لدفنهِ والثاني لدفن زوجته
والثالث لدفن ابنتهِ وان زوجته وابنتهُ دفنتا في ما اعد لها واما هو فلم يدفن
في ما اعد له لفسدِ وبقي مفتوحاً الى الان لكن ابن خلدون المغربي يقول
ان المنفذ الموجود الان في احد الأهرام الثلاثة حدث في زمن المأمون الخليفة
السابع من بني العباس لما اراد هدم هذه الأهرام والسبب الذي اوردهُ في ذلك
سوف نذكرهُ في كتاب صناعة الطرب في تقدمات العرب واخرون قالوا
ان هذه الأهرام كانت هياكل لعبادة الشمس المسماة بتندهم اوزيريس وانه لو عرفت
الرسوم المنقوشة عليها بالخط القديم لامكن منها معرفة سبب بنائها وانه لم يتكلم
عليها احد من علماء اليونانيين الا هيروdotus وحده وان سواح الافرنج
التأخرين لا زالوا لم يعرفوا هل هذا القلم هو القلم المصري القديم ذو النصابير
او قلم اخر لان القلم الاول هو قلم الاسرار والثاني قلم معتاد ذو حروف هجائية

وقال بعض العلماء المتساويين ان هذه الاهرام كانت نامية في كل الارض فاصطنعها اهل مصر وقالوا ايضا انه وجد اهرام نشأ كلها في الرسم باقليم المكسيك من بلاد اميركا ومنها استدلوا على تقدم اهل تلك البلاد لكونها مثل اهرام مصر عظيمة البناء ولذلك ظن بعض المشتغلين بانثار القدماء وان كان هذا من قبيل الشذوذ ان اصل اهل اميركا من قبائل المصريين جاءوا اليها في زمن الملك سينوستريس صاحب التوحات العظيمة وقد مر ذكره لكمة لما لم يفهم صراحة من كلام المؤرخين ان هذا الملك ذهب الى بلاد اميركا كان قول من قال ذلك هو بمجرد الفرض والتقدير وحيث كان يوجد ايضا كثير من هذه الاهرام على جهة منابع النيل بعضها من الاجر وهي منشورة على خط طول ٤٤ فرائخ تسمى اهرام ابي صبر ترجح راي قوم بان هذه الاهرام كانت مدافن للملوك مصر اول الثيران المقدسة التي كانوا يعبدونها تحت اسم ايبس لوجودها غالبا في المحلات التي توجد بها قبور موتاهم وقد مر عليك في تقدم ما عمل عليه المحققون بعد ان فك المعلم شيلويون المقدم ذكره ذلك القلم الهيروغليفي على ما اشرنا في ما سبق وهو ان الهرم الاكبر ساه شوفو واخوه نوشوفو مدفنا لهما وقد تحقق عندهم ذلك من كتابة اسميها المنقوشة على بعض حجارة الهرم المذكور واما الهرم الاوسط فقد بناه الملك شافري والثالث الاصغر بناه الملك منقاري لكون اسميه وجد كذلك محورا فيه ويقال ان تابوته الآن بين الآثار القديمة في مدينة لوندرا وقد ايد ذلك ما كتبه ماربيت بك الفرنسي ناظر الانتبة خانة المصرية في مولفه ونصه ان الملك كيوبس من ملوك الدولة الرابعة ويسمى في القبيودات المسطرة على الآثار بذلك العصر خوفو كان مشغوقا بحب ابتناء المباني وتشبيد العمارات فان اعظم الاهرام الموجودة في الديار المصرية كان قبر هذا الملك وعلى ما قيل ان ١٠٠ الف عامل كانوا يتناوبون العمل في عمارته وكل ٢ اشهر يستبدلون بغيرهم مرة ٢٠ سنة وانه في الحقيقة ليس فوق طاقة ارباب الصناعة المتأخرين ان يعملوا نظيرها وانما الذي يصعب ولو في ايامنا

هنا هو ان يبنى في داخلها حجرات بطرقات تصل بعضها ببعض ومع ما هو
محمول عليها من الاثقال الجسيمة تمكث مدة ٦٠ قرناً من الزمن على اتم حال
بدون ان يعثر فيها ادنى اختلال اه وكاننا قد ضمن مقالنا هذه كلها الفاضي عبد
الروهاب المصري بهذه الابيات ان يقول

امباني الاهرام كم من واعظ	صدع القلوب ولم يفه بلسانه
اذكرني قولاً تقادم عهده	ابن الذي الهرمان من بنيانه
هن الجبال الشامخات تكاد ان	تمتد فوق الارض من كيوانه
لو ان كسرى جالس في سفحها	لاجل تجلسه على ابوانه
ثبتت على حر الزمان وبرده	مدداً ولم ناسف على حدثانه
والشمس في احراقها والريج عنه	دهبونها والسيل في جريانها
هل عابد قد خصها بعبادة	حتى سميت في الجوف فوق عنانه
او قائل يقضي بركة نفسه	من بعد فرقتو الى جثانه
فاختارها لكنوزه ولجسه	قبراً ليامن من اذى طوفانه
او انها للسائرات مراصد	يخنار راصدها اعز مكانه
اولها وصفت بشوب كواكب	احكام فرس الدهر او يونانه
او انهم نقشوا على حيطانها	اعلا بجار الفكر في بنيانه
في قلب رائها ليعلم نفسه	فكر بعض عابو طرف بنيانه

يشير بقوله ابن الذي الى اخر البيت الى قول ابي الطيب المتنبى

ابن الذي الهرمان من بنيانه	ما قومه ما يوهه ما المصرع
تخلف الآثار عن اصحابها	حيناً فيصرعها الزمان فتنبع

هذا ولا باس ان تذكر هنا ما وصل اليها من اخبار بعض ما كان من هذا
النيل من تلك الآثار ولئن طال الكلام في هذا المقام فمن ذلك ما يوجد

بالقرب من اهرام الجيزة المذكورة ويسمى الافرنج بالسفنكس واما المصريون
الآن فيسمونه ابا الهول وهو تمثال كبيرة راس اسنان على جثة حيوان من
ذوات الاربع أطرافه نحو ١٢٥ قدماً واليواش ارضهم بقوله

تأمل هيئة الهربن وانظر . ويتهما ابو الهول العيب
كعاريبين على رحل . بمعويين بينهما رقيب
وفيض الحجر عندها دموع . وصوت الريح بينها نجيب
وظاهر سخن يوسف مثل صب . تخلف فهو محزون ككئيب

ومما ايضا المسلات الغربية وهي حجارة عظيمة ارتفاع احدها ١٩٠ قدماً
قطعة واحدة ووجدت منها الآن واحدة في الاسكندرية ارتفاعها ٦٤ قدماً
والعرب يسمونها مسلة الاسكندرية ومسلة كابواترا والعامية تقول مسلة
فرعون وعليها كثير من الكتابة بالفلم القديم وقد ذكرنا في ما مر بانها نقلت
في زمن فرعون طوطيس الثالث سنة ١٧٥١ ق م وقد نقل منها ايضا واحدة
الى رومية مکتوب عليها اسم هذا الملك وهي اعظم من المسلة التي كانت موجودة
هناك وتوجد كذلك واحدة نالفة في التسطنطينية ومنذ مدة نقلت واحدة رابعة
الى انكلترا ايضا فوصلت الى المحل الذي عينوه لها في سنة ١٨٢٨ م

واما عمود السواري الموجود في الاسكندرية (السواري جمع سارية وهي
الاسطوانة) فقد قال الامام الفريزي عنه بانة لم يكن وحدة بل كان حوله
نحو ٤٠٠ عمود كسرهما قراجا والي الاسكندرية في ايام السلطان صلاح الدين
يوسف بن ايوب وربما بشاطي البحر ابو عر على العدو سلوكة وان هذه الاعمدة
كانت تحمل رواقا فيو خزانه كتب وان ارستطاليس كان اقام في هذا الرواق
يعلم الفلسفة ومنه اتخذ تلامذته اسم الرواقيين وذكر ايضا ان طول هذا العمود
مع قاعدته ٧٠ ذراعاً وقطره ٥ اذرع وقال آخرون ان طوله ٦٢ ذراعاً وكسر
وذكره الفاضل العلامة رفاعه بك الطمطاري فقال انه مرتفع نحو ٨٨ قدماً
وانه كان من زينة هيكل قديم ثم نقل هذا الهيكل وصنعوه مدرسة كان فيها

خزانة كتب الاسكندرية لان الظاهر ان المدارس وميادين الرياضات كانت بجوارها، المدينة الخارجة عن سورها ونقل آخرون عن المسعودي انه راي في جبل اسوان اخا هذا العمود وقد هدمس ونقر ولم يفصل من الجبل وقال ابن خلدون ان الاسكندر المكدوني هو الذي اقام هذا العمود وبني رواق الحكمة المذكور وقال المحققون من المتأخرين بان هذا العمود يسمى عمود بونيبوس وهو قائد من الفواد الرومانيين اقامه في سنة ٢٩٦ ب م تذكارا للملك ديوكليتيان الفيصر الروماني الذي كان حاصر الاسكندرية بهذه السنة كما يتضح ذلك في محله

اما منارة الاسكندرية التي ذكرنا في ما تقدم بان بانيتها كان بطليموس ستير خليفة الاسكندر المكدوني على مصر نقلاً عما رواه بعض المؤرخين فقد برى آخرون بان بانيتها هو بطليموس فيلادلف ابن بطليموس المذكور وذلك في سنة ٢٨٢ قبل المسيح وقد اكثر مؤرخو العرب ايضاً من ذكرها وجميعهم يتفقون مع الاقدمين بانها معدودة من عجائب الدنيا السبع اقيمت للاضائة على الجريين فكان ينظر نورها على بعد عظيم لان ارتفاعها كان ٥٠٠ قدم لكنهم يختلفون كذلك في من هو الذي بناها فمنهم من قال هو الاسكندر المكدوني وبعضهم يزعمون ان ملكة يقال لها دلوكه جعلتها مرقياً بان يرد بلاد مصر من العدو وقال ابن خلدون المغربي ان دلوكه هن ملكة التبط عليهم بعد غرق فرعون موسى لخوفهم من ملوك الشام وكانت من بيت الملك (لعلمها طوسير ابنة منقظا الثاني التي تقدم ذكرها في الكلام على فراعنة مصر) وهي التي بنت على ارض مصر الحماط الشهير بمحاطط العجوز لان عمرها طال وكبرت جداً واتخذت البرابي ومقاييس النيل وقال ايضاً نقلاً عن ابن العميد وغيره من المؤرخين المسيحيين ان كليوباترا بنت بطليموس ديونيسيوس ومعنى كليوباترا الساكنة على الصخرة وهي اخر الملوك البطلموسية بمصر هي التي حفرت خليج الاسكندرية وبنت بالاسكندرية هيكل زحل وبنت مقواساً باخميم واخر

بانصتا وبنيت ايضاً الفاروس بالاسكندرية وهي المنارة التي نحن بصدددها وقد اشار آخرون الى تفاصيلها فقالوا ان طولها كان ١٠٠ ذراع في الارتفاع وان الوليد احد ملوك بني اوية بعث جيشاً هدم نصفها طمعاً في اموال يجدها فيها وذكر المفريزي ان بعضهم قاس هذا المنار فكان علوه ٢٢٢ ذراعاً وهو ثلاث طبقات الاولى مربعة والثانية مربعة والثالثة متدورة وان ابن جبير يقول ان هذا المنار يظهر من مسافة ٧٠ ميلاً وانه لما استولى احمد بن طولون على الاسكندرية بنى عليه قبة من الخشب فاخذتها الرياح وفي ايام الظاهر بيبرس سقط بعض اركان هذا المنار فامر ببناء ما اتهدم منه في سنة ٦٧٢ للهجرة (سنة ١٢٧٤ م) وبنى مكان القبة مسجداً ثم هدم المسجد بمحدث زلزلة في سنة ٧٠١ للهجرة (سنة ١٣٠١ م) ثم بنى في سنة ٧٠٢ للهجرة (سنة ١٣٠٢ م) وبنى على حاله (ولم تنف بعد ذلك في تاريخ من التواريخ على شيء من اخبارها)

وقد بقي علينا ان نذكر ائراً آخر ذكره الفاضل العلامة رفاعه بك الطمطاوي منه يعلم محل قطع هذه الحجارة العظيمة وما كان يكابده المصريون في قطعها ونقلها نظراً لبعده الشاسع لوس عن محلات تلك الآثار التي ذكرناها في الاقليم المصري نفسه بل الى ما هو اعظم منها بعداً مع فوائد اخرى غير ذلك وهوانه في محل اصوان القديمة توجد آثار هذه المدينة من اعمدة الصوان وبنائه مربع مفتوح الاعلاق قال بعضهم ان بها كان مرصد الهيئة في قديم الزمان وانه يبذل الجهد في البحث يمكن الكشف عن البئر المشهورة التي كانوا يرون في قعرها الشمس يوم الانقلاب الصيفي وبعض الافرنج اثبت عدم امكان ذلك الامر وبما ان هذه المدينة كانت مثل مقدمة الجيش للمصريين في عدة ازمته مختلفة نجد ما مشتتة على آثار حكام مصر في الزمن القديم والحديث فنرى بها هياكل الفراعنة والبطلموسية وقصورهم الخفية في الرمال وقلاع الروم والعرب واسوارهم وفوق هذه الآثار نجد كتابة فرانسواوية دالة على ان عساكر متاخري الافرنج وحكامهم جاءوا اليها وضربوا بها خيامهم ووضعوا فيها خطوطهم ورسومهم

وارصادهم وغير ذلك توجد بها العلامي الصوانية المرتفعة ذوات اللون الاحمر
انغبر المظوعة كالمسلات ومن هذه المقاطع الحجرية اخذ المصريون احجار براهيم
وهياكلهم وثمانيتهم العجيبة وانتشرت الاعمدة العظيمة في جميع بر مصر وبلاد الشام
وغيرها ولم يزل حتى الآن هناك تلك المسلة او البرية التي اشار اليها المسعودي
بانه في مقطعا ما سكة فيه تدل على نذل جهد القداماء وصبرهم وتقدمهم في
شغل هذه الاشياء

ولكن كيف بما ذكرناه والاولا لو اردنا ان نستوفي ذكر كل ما يوجد في اراضي
مصر من الآثار الشهيرة لاحتاج الارقام الى مبادئ مخصوصة فان ما ذكره
المؤرخون من ذلك يكاد يفوق التصديق اذا نكل اراضيها مشحونة من الآثار
العجيبة وخراب الهياكل والابنية القديمة التي صارت تلالا بعد ان كانت مشحونة
باعدة عظيمة شامخة مرصوفة بكتابات ونقوش وصور. قال بعض السواح ان
الانسان اذا مشى بين خرائبها يلهو انامل في الماضي عن ملاحظة الحاضر
وتلهو قوة اهلها عن التفكير في فواحشهم ما. ومن اراد التوسع في معرفة ما احتوته
هذه الآثار والكوز من الاشارات والرموز التي تدل على ما كانت عليه هذه البلاد
من الاحوال في ما مر من سالف الاعصار والاجيال فعليه بالكتاب المسمى
بقناصة اهل العصر من خلاصة تاريخ مصر تاليف اوغسطوس مارييت بك
احد علماء فرنسا وبين وناظر مصلحة الانتبة المصرية المطبوع في بولاق
سنة ١٢٨١ هـ (سنة ١٨٦٤ م)

غير انه لا بأس من ختم الكلام في هذا المقام بذكر ما ابداه اصحاب
التدقيق من العرب والافرنج من الملاحظات على ما هو من قبيل هذه الابنية
العظيمة التي اعدتها المصريون لمقاومة الدهر ونوال آرائهم بواسطة من تخليد
الذكر. قال ابن خلدون المغربي انظر الى بلاط الوايد بدمشق وجامع بني امية
بقرطبة والقطرة التي على واديهما وكذلك بناء الحمايا لجلب الماء الى قرطاجنة
في القناة الراكبة عليها وانار شرشال بالمغرب وامرام مصر وكثير من هذه الآثار

المائة للعبث تعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف واعلم ان تلك
الافعال الاقدمين انما كانت بالهند واجتماع العملة وكثرت الايدي عليها
فبذلك شيدت تلك الهياكل والاصانع ولا تتوهم ما تتوهمه العامة ان ذلك لعظم
اجسام الاقدمين عن اجسامنا الى ان قال ولقد سَوَّع في ذلك النصاص (اي
في عظم اجسام الاقدمين الذي اشار اليه) وتغائلوا في وسطهم عن عاد وثمود
والعالمة في ذلك اخباراً عريضة في الكذب ومن اغربها ما يحكون عن عوج بن
عناق رجل من العمالة الذين قاتلهم بنو اسرائيل في الشام زعموا انه كان اطول
يتناول السمك من البحر ويشوي به الى الكس الى ان قال انما ثار غلظهم في هذا
انهم استعظمو امار الامم ولم يعلموا حال الدول في الاجتماع والتماون وما
يجعل بذلك وبالهند من الآثار العظيمة فصرفوه الى قوة الاجسام واما
ما ذكره المسعودي نقلًا عن الفلاسفة مزعمًا لا مستند له الى ان قال ونحن نشاهد
مساكن الاولين وابوابهم وطرقهم في ما احدثوه من البنابر والهياكل والديار
كدبارثود النخوة في الصلد من الصخر بيوتًا صغارًا وابوابها ضيقة لا تزيد في
جوها ومساحتها على المتعاهد الان وقال غيره من العرب ايضا في ملاحظاتهم
على مارة الاسكندرية التي مر ذكرها يكن ان يكون هذا المنار بيتًا لرصد
النجوم مبني على اسلوب غريب وطرز عجيب بواسطة قوة جبرية على العمال
كما يحكم على نظائره من الاعمال وقل ويابير الموائف الفرنسي المشهور في
بعض موامته ويلتزم ان يعرف الانسان بان تكايف بناء هرام مصر لم يتكلف
على ملوكها سوى ما كان يأكله العملة من البصل

وما يترجح في الكرحلة على اغاية المذكورة ايضا قضية تحنيط الاموات
واثن قال بعض الموائين ان المصريين كانوا يعتقدون ان حفظ رمة الميت
تكون سببًا في سعادتهم وبنأ من ذلك اعتناؤهم بتصوير الاموات وحنيطهم على
وجه عجيب حتى انه الى الان يوجد في مصر رم القدماء من العجيب انهم كانوا
ينفرون من تلك الرمم بعد تصيرها. قال ان خالدون وصورة هذا العمل انهم

كانوا يدهنون الجثة بالاسان ويدفنونها في الكهوف والسراديب المنحوتة في
الصخور على شاطئ النيل فتمت مات شخص سلموا جثته للحنطين فكانوا يخرجون
احشاء الميت ودماعه على وجه محكم وينقون الجسد في مواد بمصطكاثة بها
خاصة حفظ الجسم قروناً متعاقبة ثم يلفونها في عصائب فتسمى موميا ويدفنونها
مع تابوت مزين او صندوق على صورة الموميا واما قبور الملوك والاكابر فانها
تكون في سراديب مخصوصة منحوتة في الحجر منقوشة الظاهر بنقش يدل على
مرتبة الميت وعبادته وقد يلتقي في بعض هذه المقابر اصنام موضوعة بقرب الميت
وقد يُطالع في بعض الاحيان في كهف الموميات على قراطيس من ورق شجرة
اوراق الكتابة مكتوب فيها تماثيل وصور دالة على معنى قيل ان فيها نبتة مخصرة
متضمنة حياة الميت وما علمه فيها ولكن لا احد الى الان يصل الى فهمها وبوجد
في هذه المومي ايضاً صورة خنافس مصنوعة من حجر اليشب او الصوان
والرخام الاحمر وفيها ايضاً فواكه ودواب مصبرة واذا كانت الميت اثني غنية
زينوها بجملها والبسوها شيئاً تهزل فيه مفاصلها فلا يدرجونها في ثوب سادج
بل على صورة الاحياء وصدوق الميت يكون من خشب الجميز ويزينونه
داخلاً وخارجاً ويضعون على القبر رخامة معنونة باسم الميت ورتبته. انتهى كلامه.
وذكر بعض الافرنج صناعة التحنيط هذه فقالوا انها كانت باخراج دماغ الفم
من المخربن واخراج الامعاء الا القلب والكليتين من ثقب في الخاصرة ثم
يغسلونها بخمر النخل ويردونها الى اجوافها ويملأون الراس واجواف الامعاء
بالمر والنفرة وكل انواع الاطياب والعطور ويدهنون الجسد بالزيت العطرية
من ٢٠ يوماً ثم يوضع في ماء ناترون ٤٠ يوماً ثم يلف بلثائف مغموسة بالمر
وتدهن اللثائف من خارج بماء الصبغ للوقاية من الهواء ثم يوضع في تابوت من
خشب او من حجر ويدفع لاهل الذب بيقوته في بيوتهم او يضعونه في مدفن
ومن هذه الاجسام ما هو باق الى ايامنا هذه فان اهالي المنوفية يستخرجون هذه
الاجسام من المدافن الكائنة نواحي الاهرام المسماة اهرام ابي صير ويبيعونها

للأطباء فهي المعروفة بالمومية الأدمية (يقول مواف هذا الكتاب اني لما رجعت من القاهرة الى طرابلس الشام وطني الاصل في سنة ١٢٤٧ للهجرة (سنة ١٨٢١ م) مررت في طريقي على الاسكندرية واقمت فيها مدة سنة دخلت في اثنا عشر احد المخازن وكان مملوا من هذه الميامي بجميع انواعها فكان من جملة ما رايت امرأة شابة موضوعة ضمن صناديق بعضها داخل بعض وقد برح من ذاكرتي ان كانت تلك الصناديق اثني عشر او ثلاثة وكل صندوق من تلك الصناديق كان نظير الآخر في صناعتها وما هو مرسوم عليه من النقوش وعلى غطاء الصندوق صورة تلك الامراة التي كانت ضمن الصندوق الداخلي الا ان الصندوق الخارجي كان قد اسود وتبرأ اما الصندوق الداخلي المذكور فكان كانه مصنوع لوقت نظر اليباض اخشاب وحسن ما عليها من الصورة والنقش والصفال وكانت المرآة كالمائة ولون وجهها لم يتغير ذو يباض مشوب بحمرة غير متاثر من ذبول المرض والموت وكان هذب عينيها مسبلاً على اجفانها المطبقة كأنطباقها للنوم وشعر راسها وحواجبها لم تتلف منه واحدة وكانت اعضاءها تستبين كأنها عريانة لشدة اندماج العصائب عليها وانقان لفها حتى ان اظفارها وشيئات عقد اصابعها الدقيقة كانت تلوح ظاهرة ظهوراً بيئاً تحت هذه اللماثف الممتنة التي خزق طرفها احد اصحابي وكان متفرجاً معي فسمع لها صوت وظهر منها غبار كما لو كانت ماخوذة لوقتها من حانوت بائعها) وكان ما ذكره المورخون عن كثرة مدن مصر وابنتها يكاد يكون من المبالغات لولانتك الآثار الباقية فيها الى الآن كذلك اهلها الذين هم الان نحو مائتين من البشر فانه يقال بانهم كانوا في الزمن السابق ٢٨ مليوناً ولكن مع ذلك قد حقق بعضهم انهم لم يزيدوا اصلاً على ٦ ملايين حداً وسطاً

واراضي هذه البلاد كلها مروية بنهر النيل الذي يجري في واديها ولا يوجد بها ماء يصلح للشرب غيره والى الان حتى عرف مخرجه وقبل دخوله الى مصر يتعرض لجريانه صخور فتحدث نوع من الشلالات تسمى جنادل النيل وهي

ثلاثة الاول منها في بلاد دنككة والثاني في بلاد النوبة والثالث عند دخول النيل إلى مصر وهو يتبدل في الزيادة عند الانقلاب الصيفي ويصل إلى اعلا درجة الارتفاع عند الاعتدال الخريفي فيستمر على ذلك عدة أيام ثم يأخذ في التناقص إلى الانقلاب الشتوي قال بعض الجغرافيين ان عاة فيض في ذلك الوقت هي وقوع الامطار الغزيرة في الجبال المجاورة لخارجه وقد اشار إلى ذلك الابرتيم بن المعز بن قواد

اما ترى الرعد بكى واشتكى والبرق قد اومض واستضحكا
فانظر الى غيم كصبيغ الدجى اضحك وجه الاوض لما بكى
وانظر لماء النيل في مده كانه الصندل قد مسكا

ثم ان لم تنق زيادة هذا النهر اذرع او فاقت ٢٤ ذراعاً فان مصر تنفسي القحط واذك يقال عن ركة قارون او بحيرة قارون ونسي بحيرة موريس ايضاً وهي في القيوم بالنرب من التربة التي يقال لها خليج يوسف انها مخزنة بالايادي في الزمن القديم وان مياهها حُفظت بواسطة سد في طرفها واستعملت لسقي الارض المجاورة لها . ومة استظهر بعضهم بان المصريين هم الذين اخترعوا عمل الجببرات وانهم عمال هذه البحيرة واعدوها لصف مياه النيل الزائدة عن اللزوم واطلاقها عند الحاجة اليها وهي اعظم ما يستحق مخترعه ان يستمر ذكره وبدوم فخره . وعين بعضهم من عمالها بانهم كان في ايام ملوك العرب اولي المواشي الذين سبق ذكرهم ولما كانت اخبار الدماء ليست بمنقحة على ما يتعلق بها . قال بعض المدقنين من الافرنج انها مبيع مياه عظيمة وجده سباح هن الازمة بين الجبال جهة الجنوب على غربي الدل غير ان ماريت بك يقول الان ان الذي عمالها هو ملك عاش ونهت في الثالث من ملوك العمالة الملوكية الثمانية عشرة وقد مر ذكره انتهى وهي بحيرة متسعة جداً طولها نحو ٣٠ ميلاً وعرضها نحو ٦ امال وقد ذكرت في الجزء الاول من تاريخ اربابون الاول المترجم من اللغة الفرنسية إلى التركية بمصر ولم يذكر في اسم المواقف الاصلية

وخلاصة ما قاله فيها مترجماً انه يوجد في وسطها جزيرة صغيرة كانت اهلها
مدينة ازسيفوه وتدعى الآن قو يدفنون فيها مواهم ولم فيها مقابر معدة لكل
بقدر حاله وفي وسط الجزيرة هيكلاً للعبادة لازال موجوداً الى الان وهذه الجزيرة
المجمولة مدينة للاموات في شبه بالمدن المسكونة بالاحياء غير انه لا يمكن العبور
اليها من جهة لاحاطتها بالماء وكان خازن هذه الجزيرة رحل يقال له تارون
فاذا مات رجل من الكبراء شيعه امله باحتفال عظيم بعد تحنيطه (على الوجه
المقدم ذكره) الى عمل مني على شاطئ البحيرة معداً لهذا الامر ويتركه هناك
بعد ان يجعلوا فوقه اعلاناً باسمه ودرهم ياخذها تارون اجرة له فياتي تارون
ويقله في فلكه الى الجزيرة ويدفنه في المحل المعين له انتهى

وبعد ان حذر ماء النيل من الاراضي تراما مكتسبة ما طين الذي يرسب
عليه امة وهو يدماها ويقربها على تغذية النبات والزررع وكلما زاد فيض النيل
زاد الخصب وفي ذلك يقول ابو الحسين المعروف بابن الوزير

ارى ابداً كثيراً من قليلٍ وندراً في الحقبه من هلالٍ
فلا عجب فكل خنج ماء بمصر مسبب الخنج مالٍ
زيادة اصبع في كل يومٍ زيادة اذرع في حسن حالٍ

وانك جرت العادة الى بومنا هذا بان يكون لكل صنع من اصفاغ
مصر وحاراتها ساد بطرفه صب حاً على كل بيت من البيوت بفردته وبعد
ان يجي بعمه الصباح كل ذكر يوجد في ذلك البيت اسمه بشرهم اجالاً بمقدار
الزيادة الحاصلة في النيل ذلك اليوم ولا يزال على ذلك مدة اقبضان حتى
تنتهي فيجمع منهم جوائز

وحيث ان هذا الفيضان لا بد ان يتسبب عنه اختلاط الحقول والمزارع
والاراضي في كل سنة كما لا يجي كون هذا الامر بخصوصه داعياً الى تقدم
انصر بن في علم الهندسة ونوع اخص المساحة والرامهم ان يبذلوا جهدهم الى

ان صاروا يمسحون الارض مساحةً صحيحةً ويقيسون زيادة ماء النيل ويعرفون مقدارها وكانوا تلقنوا هذين العلمين من رجل يقال له ابونيس وهو هرمس الذي سبق ذكره فنظموه في سلك الالهة على ما اشرنا هناك .

وكما علمهم ابونيس المذكور ذينك العلمين علمهم كذلك معرفة سير الكواكب باستعمال الآلات الهندسية الى ان صارت الجغرافيا وعلم النجوم مقصدهم الاعظم ففسهوا سنتهم الى ١٢ شهراً اقمر بالان سنتهم كانت ٢٥٤ يوماً على حساب القمر ثم جعلوها ٢٦٥ يوماً وبعض ساعات على حساب الشمس وقيل انهم كانوا يتمكون هذه الساعات الى ان يجمع منها في كل ٤٦٠ سنة سنة كاملة فيكبسونها دفعة واحدة وكانت اساء شهرهم في الزمن القديم تختلف عن الاسماء المستعملة عندهم الآن فكانت على ما رواه الامام المقرئ تسمى توت بوني انور سواق طوبي ماكير فامينوت برموتي باحون باوني اميبي اييفا فلما استعملوا الكبس ابدلوها فقالوا توت بابيه هاتور كيهك طوبي امشير برمهاث برموده بشنس باوونة اييب مسرى وحيث انهم جعلوا كل شهر منها ٣٠ يوماً فجعلوا الخمسة ايام التي تبقى من السنة البسيطة او السنة من السنة الكبيسة نظير شهر مستقل وسوها ايام النسي ويسهون اول يوم من توت وهو راس سنتهم يوم البروز (والظاهر انهم اخذوا ذلك عن الفرس بعد ان استولوا على مصر ومعناه بلغة فارس اليوم الجديد) وهو يقع دائماً في ٣٠ من شهر آب الرومي فتى عرفت ذلك عرفت مواقع اوائل شهور القبط كلها ويقال ايضاً انهم كانوا مثل اهل فارس لا يستعملون الاسابيع من الايام في الشهر واول من استعملها هم اهالي برب الشام وما حو اليه نقلاً عن اليهود الذين اخذوا ذلك من الكتاب المقدس حيث ذكر في سفر الحكاية ان الله خلق السماوات والارض في ستة ايام واستراح في اليوم السابع وانما كان المصريون يستعملون لكل يوم من الشهر اسماً كما هو العمل في تواريخ الفرس وداموا على ذلك الى ان اضطرم القيصريون بولوس اغسطوس الروماني على كبس يوم في كل اربع سنين فترك المصريون حينئذ

استعمال اسماء الايام الثلثين لاحتياجهم في يوم الكبس الى اسم مخصوص له
 واستعمال الاسابيع . قال بعض المؤلفين ان هذين العلمين (اي الجغرافيا وعلم
 النجوم) قد سببوا الفساد في علوم المصريين حتى الطب ايضا .

وكان هناك رجل اخر اسمه اوزرليس ، نظمه المصريون في سلك الالهة ايضا
 لكونه اخترع آلة الحراثة وبالاجمال يقال ان المصريين هم اول من استعمل
 الحديد والنار وكان ذلك مجهولاً لغيرهم واخترعوا الخبز للطعام وصنع الزجاج
 بالوان متنوعة كاون الزمرد والعقيق وغيرها

وكانوا يتقنون الطب اتقاناً جيداً بحيث ان الطبيب كان لا يتفرغ عندهم
 الا لمعالجة مرض واحد من الامراض وهم اول من استعمل الضادات في سنة
 ١٤٩٤ ق م غير ان تعاقبهم في علم الفلك وصناعة السحر قد افسد هذه الصناعة
 فزعموا ان للاجرام السماوية دخلاً في امراض البشر وكانوا يتخاطبون مع الارواح
 في تطيب المرضى كما يفعل السبيرتزميون الآن في اوربا

وكانت الحرف والصنائع تتوارث بينهم فلا يوزن لاحد في غير حرفة ابيه
 وكانوا يعرفون الفنون العظيمة قبل اجتماع العبرانيين وصيرورتهم شعباً فكانت
 ترى في مصر الاقمشة الرفيعة واواني القش البديعة ولم اليد الطولى في صياغة
 الذهب والفضة وكانوا يصطنعون منها خواتم نفيسة وقلائد ثمينة يبيعون
 ويشترون بها ويحسنون عمل كل شيء ملبغ غير ان غيرتهم كانت قليلة ولذلك
 كان تقدمهم بطيئاً ولم يبلغ عندهم اتقان الاشياء الغاية

واما تجارتهم فكانت منحصرة في غلاتهم ومحصولاتهم وكان لهم اتصال مع
 الهند بواسطة بلاد العرب فكانوا يرسلون الى تلك النواحي ما راج عندهم من
 الحبوب والماشية والفخار والزجاج ويستبدلون بذلك منهم العطر والبهار
 والياقوت وغيرها

والظاهر انهم ارشدوا بذات الطريقة التي ارشدها الصيدين الآتي ذكرهم
 الى الانقياد للحكم الملوكي المسي سلطنة وهي حكم الاباء على ابنائهم فكما ان لكل

عذيرة رئيساً بحكمها وحده، انتخبوا لسائر الامهالي عندهم رئيساً يكون حاكماً عليهم
 يحكم الاب وهو الملك

وكانت القوانين هي التي ترشد ملوك مصر الى الاحكام انا وضعها فكان
 مختصاً بالكهنة فقط ولذلك لما قسم سينوستريس الملك اراضي مصر الى ٢٦
 اقليماً على ما سبقت الاشارة اليه في تعاليمه قسم هذه الاراضي ايضاً بين الملك والكهنة
 والعساكر وترك الرعية يتعيشون من اشغالهم فنشأ من ذلك قوة الكهنة حتى
 صاروا وحدهم يمارسون العلوم وزادت شوكتهم الى ان استقلوا بوضع القوانين
 على ما ذكرنا وكان من وظائفهم ايضاً مسح الاراضي وتقدير الخراج على الناس
 ايامهم فلا يدفعون شيئاً عن املاكهم وكان لكل منهم كل يوم قسم من اللحوم
 المندسة ومن لحم البقر والاوز غير انه لم يسمح لهم ان ياكلوا سمكاً وكانوا يحافظون
 جداً على نظافة اجسادهم وملابسهم وكانوا يحلقون شعرا اجسادهم كل ٢ ايام ولا
 يلبسون الاثواب من كتان وكانوا يغتسلون بماء بارد مرتين في النهار ومرتين في
 الليل ايضاً وكان كبير الكهنة يأتي كل يوم الى الملك ليخبره على احوال النضائل
 والملوكية ويأمن من صرفته عنها وكانت الرعية تشهر احوال الملك بعد موته
 كسائر افراد الرعية فمن كان من الملوك ساوكة ساوكة جري لا يدفعون جثته
 وقد جرى ذلك لكثيرين من القراعنة الذين حرمو النباشم من واجبات
 الدفن الا - المالية في قبورهم التي كانوا يصرفون زمناً طويلاً في تزينتها داخل
 الامرام ولذلك كان انتخاب الملك سينوستريس المذكور من نخوت مصر الثلاثة
 ٢٠ قاصياً تكونت بهم حكمة لها غاية الا - تمام وجهل مصاريف الحكمة على نفوسه
 وحافهم ان لا يطبعوا اذا امرهم بشيء فيؤذونهم وكان مذاكرة النضايان يجرى
 بينهم بكتابة خوفاً من ان الفصاحة تستر الحق وكان لهم صورة يسعون بها تمثال
 الحقية متى ظهر الحق بيد انسان امسكها رئيس النضايان وامر الحق ان يلبسها
 وكان لهم احكام شرعية وعوائد عجيبة تدونت في نواريجهم ودفاتر شرائعهم
 منها انه اذا احماج انسان الى انتراض مانع يجوز له ان يتراض ويبرهن في

نظير دية جثة والده المدفون فيكون قبر ابي المدفون تحت يد اللاتن الى وقت
استحقاق المال فاذا لم يبق المدفون دية ومات حرم من دفنه في مقابر والديه
ونحرم اولاده ابغماً ما لم يوقل دين والدم واما فيما عدا ذلك فيكون محل توفية
الدين اموال المدين فلا تسلط للدين على ذات المدين وكانوا يضربون الراني
الف عصاً واما الزانية فينظمون انها ويوسمون العسكري الذي يجين في
الحرب بعلامة ظاهرة ومن كان يمكنه تخليص مقتول من يد قاتله ولم يخلفه
عوقب بالموت والقتل الذي يوجد بين البلاد يلزم اقرب المدن لمحل وجوده
عمل جنازة عظيمة له ذات مصاريف كثيرة وكانوا في كل سنة يسألون كل
انسان عن كسبه فان ظهر لم انه تعيش على خلاف الجائز عوقب بالموت
وكانوا يبغضون الاجانب بغضاً عظيماً فلا يجالسونهم ولا يتساوون معهم طعاماً
حتى ولا ياكلون طعاماً قُطع بسكاكين الغرباء واذا مات احد من الاشراف
ترفع نساء بيته واقاربوه وجومهن بالوجل ثم يقرعن صدورهن ويطفن في المدينة
صارخات باكيات وتمكنا يفعل الرجال ايضاً وبعد ذلك ياتون بالجسد الى
المخطين ثم بعد التخييط بصير القضاة على الميت وهو انهم ياتون بالجثة الى امام
كرسي القضاة فان كان الميت من اهل الصلاح والتقوى وجاء من شهد
بذلك برز القضاة بدفن مكرماً وان كان ذمياً فبجاً دفن على خلاف اللاتق
واو كان من اعظم الاشراف

وخلصة ما قيل مجتمهم على وجه الاجال هو ان ملكتهم من اقدم الممالك
واقواها سطوة وان كانت ليست منشأ لتعلمو لكنها كانت حافظة لها حتى فاقت
اهل الازمنة القديمة وبدحون بكونهم كانوا ذوي معارف عظيمة وخصال صلوية
وتربوا بالدين ولا يجبون نفص العوائد اثابته غير ان علومهم لم تبلغ درجة كمال
اكونهم ارباب جبن وبدع ومجتمرون كل ما لم تجر به عادتهم واذا صح ما قيل
من ان الصينيين هم في الاصل نزلة من نزلات المصريين هاجروا الى الصين
وتهم تاسست تلك المملكة فتكون هن الخصال صاحبهم الى تلك البلاد ايضاً

نظراً لما يحكى بثلاثها في اخلاق اهل الصين كما يعلم ذلك مما باقى بخلاف
العبرانيين واليونانيين الذين لم يكتبوا من المصريين الا ما كان ثاقفاً ومفيداً

المعارف في الصين

ان هذه المملكة من اقدم مالِك الارض واعظمتها لكن تاريخها من اسقمتواريخ
لدنيا واطلها فلا يعتمد عليه نظراً لما يتضمه من الخرافات والحكايات الغريبة
البعيدة عن التصديق ولذلك كان في كلام محققي المولفين الذين تكلموا على
هذه المملكة اختلاف من جهة تاسيسها اذ منهم من يقول ان اصل الصينيين
فرع من المصريين لان هذه المملكة لم تحدث وتصير مملكة الا في سنة ١٩٧٧ ق م
لما عمرت من اهالي مصر الذين هاجروا اليها ونزلوا بها فاصلهم يكون من
قبائل مصر من قدماء القبطه وذهب الاكثرون الى ما هو جدير بالتصديق
اكثر من ذلك فقالوا ان تاريخها يمتد من سنة ٢٢٠٠ ق م وان الذين اسسوها
هم اولاد نوح وذلك عند تفرقهم تحت تدبير باهوال الذي خلعه كون وقيل ان
موسسها هو فوهي الذي يظنونه بانته نوح نفسه ولكن يعسر البرهان على ذلك
اما اهلها فيزعمون بانهم اقدم من ذلك بكثير

ولم تُعرف عند سكانها باسم الصين الى سنة ٢٥٠ ق م اذ كان ملكها
حينئذ يدعى تسين وهو من عائلة مشهورة عندهم اما في غير محلات كالهند
والعرب والعجم وباقي مالِك اسيا فلم تُعرف الا بهذا الاسم او ما يشبهه كجن او تشن
او سن او شينا وهم جراً وربما اخذوا هذا الاسم من نبوة اشعيا ص ٤٩: ١٢
حيث يذكر هنا ارض سينيم واما اهلها فكانوا يسمونها بايحاء كثيرة اشهرها
تيان هيا اي تحت السماء ومعناها الارض او سزها لي ومعناها الاربعة بحور او
تشن كوه جن ومعناها المملكة المتوسطة

وهم بحسبونها افضل قسم في الدنيا وهي في الحقيقة اعظم قسم لان مساحتها تبلغ نحو ٩ ملايين ميل مربع وعدد سكانها يبلغ نحو ٢٦٧ مليوناً من النفوس وذلك يساوي ثلث البشر يموت منهم كل شهر نحو ١١ مليون واحد قال بعض كتبة الافرنج لو ان اهل الصين مروا امامنا صفاً خمسة خمسة نهاراً وليلاً بدون انقطاع وهم يمشون حسب المشي الاعتيادي لاحتاجوا الى ٧ سنين لتكميل هذا المرور

وحكومة هذه البلاد الى لها لحد الان اكثر من ٤ آلاف سنة على حالها واحدة لم تتغير وهي دائماً مملكة حاكمة واحدة بالاجماع وقد عد المورخون دولها الى هذا اليوم فكانت ٢٢ دولة لكن لا يوجد بين اخبار ملوكها القدماء شيء يستحق الذكر الا الى زمن دولة تشين او هي تشاو التي استولت على السلطنة من سنة ١١٠٠ ق م الى سنة ٢٤٦ ق م غير ان بعض المؤلفين يقول نقلاً عن توارنج الصينيين بان فوهي مؤسس مملكتهم في سنة ٢٦٥٠ ق م علم الاهالي تربية المواشي والكتابة وقسم السنة وقرر الزواج وحيث كانوا يستعملون في كتابتهم الحروف الهيروغرافية فكانوا يرسمون راس انسان مقروناً بجثة حية للدلالة على رئيس امتهم فوهي المذكور لما كان عليه من الحكمة والدراية في سياسة المملكة وكانوا يرسمون راس ثور مقروناً بجثة انسان للدلالة على اول من ادخل صناعة الحرث والزراعة الى بلادهم ووضع النير على اعناق الثيران ولم تبرح ملوك الصين تتخذ ملكهم فوهي المشار اليه الى يومنا هذا ثم في زمن تملك دولة تشين المذكورة ظهر اول فلاسفتهم المعتبرين المسي كون فونس او كون فوشو وهو معروف عند البعض باسم كونفوسوس وفي بعض التراجم العربية كنفزة وكانت ولادته في السنة التي ولد فيها قورش ملك مادي وفارس فيكون معاصراً لعزرا الكاهن الاسرائيلي وهيرودوتوس المورخ اليوناني وكانت وفاته سنة ٤٧٦ ق م فيكون عاش ٧٠ سنة وكتب جملة تأليف في الدين والآداب والسياسة لم تنزل موجودة الى هذا اليوم ويعتبرها الصينيون اعتباراً عظيماً كاساس ديانتهم

وآدابهم وفي ما ذكرناه منها في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة
 الصعائف في اصول المعارف كفاية عن تلخيص ما تضمنته مما غير بارئ اولاهن
 الكتب لا علم عند المتأخرين بشيء من تاريخ الصين القديم وهذا القديسرف هو
 اول من انعكف على اصلاح بلادهم وشرائعها واصطلاحاتها وانى فيم السباب
 التجارة والزراعة وهو وهيرودوتوس المذكور بحسبان عند العلماء ابوي التاريخ
 والاكثرون بفضاوته على الثاني لانه ما عدا كتاباته التاريخية ترك لبلادهم تعاليم
 ادبية انت بفوائد كثيرة من وقت مات الى الان ثم في مدة تملك الدولة الثانية
 وهيردولة تسن التي خلفت الدولة المقدم ذكرها من سنة ٤٩٦ ق م الى سنة ٢٠٥
 ق م شرع في بناء سور الصين المشهور في سنة ٢٢٠ ق م بامر الملك سيوانكي
 وقيل سين شاي وفي بعض المواقات لم تذكر اسمه بل مذكور بانه اول ملك
 من ملوك تسين وانه اكمل في ١٠ سنين وبوجد في ذلك اختلافات بين المؤرخين
 اما المعول عليه هو ما ذكرناه مما والعرب نسي هذا السور بالسد الاكبر اوسد
 الاسكندرو هو مما يتعجب منه ومن الناس من بعده من عجائب الدنيا السبع على
 ما قد ذكرناه في الكلام على الكلدانيين وقد ذكرنا ان طول هذا السور مع
 تعاريجو نحو ١٥٠٠ ميل وارتفاعه ما بين ٢٠ - ٢٥ قدماً وسكته عند اسفله
 نحو ٢٥ قدماً وعند اعلاه نحو ٢٠ قدماً وفي راس هذا السور درابزون على
 دابرتي علوه ٥ اقدام وفي مسافته كل ٢٠٠ ذراع برج علوه ٤٠ قدماً وسكته مثل
 علوه وهو مبني من الحجارة المنخوتة من الصوان ومن القرميد المشوي وسطحه مصفح
 بالقرميد الكبير ثم داخل السور الاول سور ثان مثله غير ان طوله ٤٠٠ ميل
 وقد زيد على الاول سور من الاخشاب طوله ٥٠٠ ميل لكنه ليس بقديم وهو
 يرسم على الخارطات الكبيرة العظيمة ويمر على الجبال المستوعرة ويخترق الودية
 العميقة ويمتد من اقليم شنسي الى البحر الاصفر والسبب الذي اجبا هذا الملك الى
 بناءه هو ايرد عن بلادهم حاجات التبار انما اراد الله عكس ذلك لان الملوك
 الذين جاسوا على كرسي الحكومة الصينية منذ ٢٥٠ سنة الى الان هم من ذات

هؤلاء التتار الذين اراد منهم وقال بعض المؤرخين ان هذا السورلم يبق على بنائه القديم بل بني وهدم عدة مرات على حسب اقتضاء سياسة تلك المملكة فاذا الموجود الآن غير قديم فلا عجب من بقاءه الى الان ويجكي ايضا عن هذا الملك الذي بناه بانه عند فراغه من بنائه ازداد تعجباً بنفسه وافتخر على من تقدمه من الملوك والسلاطين واخذ يعامل الناس بالتساوة والجهروت واذا كان يريد اطفاء خبر الاولين ومن سبقه من الملوك ويظهر للتاخرين بانه هو اول ملاطين الصين لم ير سبيلاً الى ذلك الا اعدام المؤرخين وانلاف قيود المملكة فامر احد الايام بدفن ٤٠٠ رجل من العلماء وهم في قيد الحياة ثم امر ايضا بحرق كل الكتب والتواريخ الموجودة في خزائن المملكة وكذلك بعد انتهاء هذه الدولة قامت دولة اخرى تعرف بدولة هان وذلك من سنة ٢٠١ ق م الى سنة ٢٦٤ م وهي التي من ملوكها الامبراطور قاني والبعض يقولون انه كوانك الذي كان على غاية من الخفة والطيش وكان يكره الموت ويود الحياة فاخذ يبحث ويفتش على طريقة تدفع عنه شرب كأس الموت وبعد ان صرف زماناً طويلاً في الامتحانات المحالية كاستعمال المعاجين المقوية والمشروبات المعشمة ادركته المنية فخاب سعيه ثم جلس بعده ملك اخر وكان مغرمًا بمطالعة التواريخ والخبار ولذلك اهل مصالح المملكة وانعكف على الدرس والقرأة فبغضه وزيره وهج الشعب لقتله اما هو فبعد ان تمتق ذلك برأى العين عاد الى مكتبته واضرم بها النار فاحترقت وكان عددها نحو ١٤٠ الف مجلد ثم هجم عليه الشعب وقتلوه وقال بعض المؤرخين ان في سنة ٥٢ م احدث قوة ملك الصين (وهو ولا بد من ملوك هذه الدولة) مذهباً مخصوصاً يسمى دين قوة فاعتقد الصينيون بانه اله وبيروته منجي الناس من الذنوب وفي سنة ٦١٧ ق م جلس ملك آخر يدعي سيكوكين وبنى لنفسه قصرًا عظيمًا من ابهى القصور المرخرفة واتقنه اتقانًا خارجًا عن حد العادة وطلبي حيطانه بهاء الذهب وفرشه بانواع المفروشات الثمينة والامتعة الفاخرة فلما مات دخل ابنة الى هذا القصر فاندش

من فرط حسنه وجماله وقال في نفسوان وجود هذا القصر ما يفسد عقول
الملوك ويزيدهم في التكبر والخفقه ومن ثم امر بحرقه فأحرق وفي سنة ١٠٠٠ م
جلس على كرسي الملكة رجل شهير بالمعارف والآداب يدعى اشوانكتسون
وكان على جانب عظيم من الزهد والبداعة وكال الاستقامة وكان ذا حكمة
وفراسة مطبوعاً على مكارم الاخلاق حريصاً وساهراً على جلب الراحة للبلاد
والعباد فاحبه رعاياه ومن جملة مزاياه الغربية انه كان ينام على بساط الارض
بدون فراش ويربط في عنقه جرساً بحيث اذا تحول من جهة الى جهة رهو
مستغرق في نوم يستيقظ بصوت الجرس معتبراً ذلك الوقت وقتاً مناسباً
لقيامه من النوم ثم في سنة ١٢١٠ م زحف جنكيز ملك التتار والغول بجيوشه
واستولى على جانب عظيم من هذه المملكة ولما اكل ابنه قوبلاي خان افتتاحها
اسس فيها مدينة باكين واستمرت البلاد تحت تسلط ذريته الى سنة ١٢٦٨ م
حين استخلصتها منهم العائلة المعروفة بدولة مينك التي في ايامها ابتداء دخول
الاجانب الى بلاد الصين واول من دخل اليها كان البورتغاليون وذلك في
سنة ١٥١٦ م وهم الذين فتحوا الباب لدخول باقي الدول الاوروبية ثم تبعهم
الفلنكيون سنة ١٦٢٤ م ثم الانكليز في ذلك القرن ذاته ثم المسكوب ثم
الفرنساويون والاميركانيون ولكنهم لم ياخذوا مركزاً ثابتاً في تلك البلاد نظراً
لبغض الاهالي مخالطة الاجانب ومن سلاطين هذه الدولة الامبراطور شنكنا
الذي جلس على سرير الملك سنة ١٥٢٢ م وفي ايامه ظهر معدن من الحجارة
الكرمية في تلك البلاد واخذ الاهالي في حفره ونقطيعه فلما جاء احد الناس ذات
يوم الى هذا الملك ببعض قطع منه التفت الى من حوله بعد ان اخذها من يده
وعاينها وصاح باعلى صوته قائلاً لم اتظنون ايها الناس ان هذه الحجارة كريمة
قالوا نعم انها كريمة ونفيسة قال اذا كان الامر كما تزعمون فلا بد ان يكون لها نتائج
مفيدة فاخبروني اذا ما هي فوائدنا نستطيع ان نشبع جائعاً او نكسو عرياناً ثم
امر بتعطيل ذلك المعدن وردمه وان يشغل اولئك الناس في عمل اخر اهم

وانفع ثم في سنة ٦٤٥ ا ب م طردت هذه الدولة قبياة من التتار المانشو المعروفة بدولة نانسينك وهي الباقية الى اياسا هذه ومن ملوكها الامبراطور كنجي الذي في ايامه دخلت طلد يانة النصرانية الى البلاد بواسطة الرهبان اليسوعيين واذ كان يميل اليها اصدر امراً ملكياً في سنة ١٦٩٢ يمنع به معلمها جملة امتيازات ثم قرب اليه احد الرهبان المذكورين وجماعة من سفاراة فكان نفوذه عظيماً في البلاد واجتهد اليسوعيون في تهذيب النور وتعليمهم ونجحوا نجاحاً عظيماً وهم الذين افادوا العالم معرفة احوال الصين الداخلية اذ كانت قبل ذلك مجهولة لكن لما توفي هذا الملك في سنة ١٧٢٢ وتولى مكانه ابنه بون شينك مقتد اليسوعيين المذكورين ولم يعاملهم معاملة ابيه وزاد على ذلك ان نفاهم من العاصمة اولاً الى كتون ثم الى مكاو وفقدت كل انعامهم وكان اول مشروع سنة وكلاء هذا الملك عند ما تسلم زمام الملك قاصراً هو منع الخصيان المتولجين بحراسة الحرم الملوكي عن الارتقاء والتوصل الى اية وظيفة كانت من وظائف البلاد مع انهم كانوا يرتقون قبل ذلك الى اعلى المناصب ونقشوا هذه السنة على الواح من حديد وزن كل منها نحو ٤٠٠ افة فحصل من ذلك الوقت السلام والراحة في كل انحاء السلطنة غير انه منذ تولى الملكة تاوكوانك حفيده في سنة ١٨٢٠ الى ان تولى الملك الحامي تشي سيانك ومعناه المسعد قامت الحروب على ساق وقدم بين ملوك هذه البلاد والدول الافرنجية وخاصة الانكليز بسبب حيز تجارة افقيون الى ان انتهت بهروب سلفه هيان فونك ووفاته بعد ذلك بسنة ومن ثم تمكنت المحبة بين هذا الامبراطور الحامي وسائر الدول وجعلوا بينهم روابط ومعاهدات باقامة السفراء والنواب بين الطرفين ولذلك ترى الآن سفراء الممالك الاوربية وكلاءها منتشرين في اكثر المدن الصينية ولا سيما في الاساكل البحرية ولم يبق مانع لجولان رعاياهم في كل اقطار السلطنة وتخصصت مدن عديدة لتكون موانئها مفتوحة لتجارتهم وان لا يصبراد في تعرض للديانة المسيحية ولا لبناء الكنائس والبيوت وغيرها وكذلك بطلت العادة القديمة التي

كان يحترمها الصينيون جداً وهي قتل من اراد الخروج من اهل الى البلاد الى بلاد الاجانب او على رواية اخرى عدم استطاعة احد منهم ان يخرج من بلاده بغير اذن من الحكم على مدة معينة فان تجاوزها لا يعود يقبل في البلاد وطنياً بل يحسب غريباً اجنبياً وصارت رسالهم الان تنفاطر الى بلاد اوربا وغيرها ومنذ ١٠ سنين ذهب البعض منهم الى بلاد اميركا قاصدين اخراج الذهب من معادن كاليفورنيا قال بعض الكتاب انه يوجد الآن منهم نحو ١٥ الفاً هناك يفلحون الارض ويزرعون الشاي ويربون دود القز ويستاجرون في غير ذلك من الاشغال ايضاً

اما ديانة اهل الصين فهي تشعب الى عدة فروع كلها وثنية كما لا يخفى لانهم وان كانوا عموماً يعتقدون بوجود اله غير منظور فهم يتخذون الاوثان ويتقربون بالذبائح للكل كسب السماوية ووجود عندهم من الاديان القديمة ايضاً دين السحرة الذين يعبدون الشياطين ويستعملون السحر والصينيون بالاجمال يشبهون قدماء المصريين وغيرهم من عبدة الاوثان بكونهم يولعون البعض من كبار فلاسفتهم ومشاهير علمائهم فان العلماء الذين يفتخرون بهم كبوداس (وهو بوذه رئيس المهتم) وجينوسوفينس وكونفوسيوس وقو (الذين تقدم ذكرها) واتلاس هم معبودون عندهم بمنزلة الهة وهنا يقول مولف هذا الكتاب ان اصحاب هذه الاسماء وامثالهم مذكورون في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف عند الكلام على اديان اهل الصين وانما حيث كان لا يخاو الامر من وجود الاختلاف في صيغة بعض الاسماء سواء كانت هذه او غيرها في الكتب التي نقلنا عنها عبارات هذا الكتاب وغيره وذلك اما من تصحيف اقلام الكتبة او من المترجمين الذين يتصرفون كما شاءوا في ما يقوم مقام الاحرف الغربية عن اللغة التي يترجمون اليها او في الاصطلاحات المخصوصة في الاصل المنقول عنه للاسماء الاعلام فاما ان يحذفوها واما ان يبقوها بحسب ما ترشد اليه فوطنهم كما انه يوجد ايضاً خلاف ربما كان يعتقد به في تعيين سني

تاريخ بعض الحوادث فقد يعثر في كتبنا هذه على شيء من هذين النوعين
 لالتزامنا ظاهراً بالأصل المنقول عنه عند ذكر ما يلزم تكرار الكلام عليه في بعض
 المواضع اذ لا يمكننا البحث عن حقيقة الاصل في الاسماء لهدم معرفتنا اللغات
 الاجنبية ولا عن حقيقة سني التاريخ اذ يتشكى كثيرون من اعظم المؤلفين من
 صعوبة ادراكها بالتمام ثم قد كان يلزمنا هنا ايضاً ان نرجع الى ما كنا بصدده
 من الكلام على ادیان اهل الصين التي اعظمها الديانة البوذية نسبة الى رئيسها
 بوذاص الذي تقدم ذكره ويسمى كوتاما بوذا المولود في سنة ٦٢٤ ق م لولم
 تكن تفاصيل هذه الديانة وغيرها من الاديان الثلاثة هناك مذكورة في الجمل
 الذي تقدم ذكره من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف مع باقي فروع
 الديانات الوثنية المحاضرة ولذلك نعدل عنها الى ما لا باس من الوقوف عليه
 من تأثير ماداة دعاء الديانة المسيحية هناك

لا يخفى بانها منذ القديم كان ممنوعاً على الاطلاق دخول اي اجنبي كان
 الى هذه البلاد وكانت حياة كل من دخل اليها منهم تحت خطر شديد واشدة
 مما حفظه ملوكها واهاليها على ذلك بنوا السور العظيم الذي سبقت تفاصيله في ما
 مرّ وذلك قبل التاريخ المسيحي بنحو ٢ قرون لكن كانه لم يمنع هذا السور مهاجمة
 التار واستيلاءهم على كرسي السلطنة كذلك لم تمنع ايضاً تلك الصرامة
 والتشديدات على الاجانب من دخول بعض السياح خفية الى بعض اقسام
 هذه المملكة بل ان دعاء الدين المسيحي ايضاً كانوا يبشرون هناك بالديانة
 المسيحية في القرن الاول للميلاد وحسبك انه في سنة ٦٨٥ م عثر بعض الاهالي
 بالقرب من مدينة سنغفوه وهي بعد باكين عاصمة المملكة في الاتساع والحسن
 على لوح من المرمر تحت الارض مكتوب عليه بالخط الصيني كلمات سر يانية
 فوقها صليب فاجتهد العلماء في البحث عن معرفة هذه الكلمات فوجدوها
 مشتملة على ٦٣ علامة منقوشة بالحروف الصينية فتاملوها فاذا هي عبارة عن
 رسالة تتضمن اصول دين النصرانية وعدة مسائل تتعلق بقوانين القسوس واسماء

الملوك الذين كانوا سبباً في نشر هذه الديانة التي اظهرها في تلك الجهة دعاء من قسوس النساطرة سنة ٦٢٣م وكانوا قد قصدوا هذه المملكة من بلاد العجم والشام ولما تحقق بانها كان لهؤلاء الرعاة في بلاد الصين عدة كنائس كما هو محقق ايضاً بانها في سنة ٥٠٠ وقيل سنة ٥٢٢م نقل راهبان من الرهبان اللاتينيين الذين كانوا موجودين وقتئذٍ هناك دود القز الى القسطنطينية وكانا قد خباها في عكا زيتها حذرًا من شريعة الصين لانها كانت تمنع اخراج مثل هذا الصنف من البلاد ثم من القسطنطينية نقل الى غيرها من بلاد اوربا واسيا وامبركا وقال بعض المؤلفين في كلامه على صرامة هذه البلاد انه لم يكن هناك الامينا واحدة مفتوحة للافرنج تسمى كتون ومع ذلك كانوا لا يدخلونها الا بشروط صعبة ولا يعرف ذلك الا قسوس الافرنج في هذه البلاد التي كانوا ينشرون الدين المسيحي فيها لكنهم طردوا منها اخيراً فلم يبق منهم الا القليل بوظائف معلمين للعلوم تحت حامية الدولة الصينية والظاهر انه اراد بذلك ما مر عليك ذكره من تقدم هذه الطائفة في ايام الامبراطور ككهي سنة ٦٩٢م ونفيهم في ايام ابنو يون شينك في سنة ١٧٢٢م ثم في بعض النشرات المطبوعة في اثناء تاليف هذا الكتاب ذكر ان في سنة ١٨٤٨م قام رجل يقال له تي بن اون قيل انه عرف الديانة المسيحية من معايشة بعض المبشرين وادعى بان له نوعاً من الالهية وهج حركة عجيبة غريبة في تلك المملكة واخذ ينتقل من مدينة الى اخرى ومن قرية الى غيرها ويجرك اصحابه بحمية عجيبة لمقاومة عبادة الاصنام ويظهر لهم فضل الديانة المسيحية فانضم اليه عدد غفير واشهروا ديانتهم التي هي ان الله الحي الحقيقي هو موضوع عبادتهم وسجودهم واليه يلتجئون في الضيق ومنه وحده يطلبون المعونة ويعلمون الذين يخازون اليهم حفظ السبت بكل تدقيق واتخاذ الوصايا العشر قاعة لايمانهم والتوبة عن الخطايا والايان بالمسيح ومنع الافيون والدخان مطلقاً الا انهم لم يقتصروا على هذه القواعد بل مزجوها ببعض قواعد وثنية فلما سمع الملك باخبارهم غضب جداً وحبس كثيرين منهم الى ان مات

البعض في الحبوس ومن جرى ذلك هاج الذين لم يفعلوا في يد الملك تحت
رياسة تي من اون المذكور وضربوا الدواة واتصروا عليها وجعلوا يتقدمون من
بلد الى اخرى فكل بلد اطاعتهم امنوها وضوا رجالها اليهم واكتفوا بكسر
اصنامها واقتلوا رجالها ونساءها واولادها بدمون شفقة وكسروا الاصنام
وطرحوها في الاسواق وهكذا تملكوا على اكثر البلاد وشيخوا كتابات كثيرة ضد
الحكومة حتى جعلوا الاهالي يكرهونها للغاية وفي نشرة اخرى مطبوعة في سنة
١٨٦٩ ذكر بان الصينيين قاموا على الاكليسوس الروماني في اباله سزخان
وقتلوا منهم ٣٠ نفرًا لكون الحكم الصيني اصدر امره بتجميع الاملاك التي كانت
للرهبان اليسوعيين المقدم ذكرهم وخسروها عند ما طردوا من البلاد بامر
الملك منذ ٢٠٠ سنة لانه لما تمت شروط المصالحة بين الملكين الصينية
والفرنساوية (وذلك في اثناء الحروب التي ذكرنا بانها كانت قائمة ساق على
قدم بين هذه الدولة الصينية ودولة اوربا من سنة ١٨٢٠ م الى ايام الملك
الحالي) وعد ملك الصين اليسوعيين بتجميع املاكهم على شرط ان يرهقوا
حتهم وياتوا بصكوكهم فارسلوا حالاً الى رومية واستحضروا رزمًا من الصكوك
القديمة التي اثبتت حتهم باملاك عظيمة في اكثر مدن الصين وامند هذا الامر
الى كل اقطار المملكة واخيرًا اشاعت الجرائد ايضًا بان المبشرين بالانجيل
الان يتواردون من كل الجمعيات الى هذه البلاد بكل همة ونشاط ويفتحون
مدارس ومطابع ويبنون كنائس وتيسر لهم الدخول الى كل اقطار المملكة بعد
ان كان لا يؤذن لهم ان يسكنوا الا في بعض المدن على شط البحر وزيادة على
ذلك اصدرت الحكومة من تلقاء ذاتها او امرتهى عن مقاومتهم واضطهاد
تلاميذهم وتمنع ايضًا نصلح او ترميم الهياكل الوثنية التي خربت في المملكة الا
ما يخص بالفيلسوف كُن فوشو وفي احدى المقاطعات منعت الحكومة دوران
الاصنام جهراً بالاحتفال حسب العادة القديمة وقدمت النصيحة للاهالي
بتقليل مصاريفهم على الذبايح والوثان

اما ما قيل في حكم هذه البلاد فهو على ما رواه بعضهم كان قبل تملك الملوك سياسة جمهورية لان كل ابي عائلة كان يجب ان يطاع بكل تدين لكونه كان حاكما مطلقا على عائلته وله الحق بان يقاص باي قضاص شاءه ما عدا الموت ودام الحال على هذا المنوال الى ان تملك اول ملوكهم سنة ٢٠٧ ق م (وهو التملك الاول لعائلة ايشناه) ومن ثم صارت الاحكام بين الحكم الملكي المطلق والقييد حيث صار لهم شرائع وقوانين مكتوبة وان يكن الملك له استطاعة ان يغير شيئا منها غير انه لا يتجاسر في الغالب على خرق العوائد القديمة ويتعاشى قرض ما كان منها اصليا جرت عليه الاحكام زمانا طويلا وانما يعزل ويولي كما يشاء ويعين الخليفة بعده على المملكة وقال اخرون ان الملك الحالي اصله من التتار وله السلطان المطلق على رعاياه وعلى املاكهم حتى لو اراد قتل احد منهم ظلما او سلب امواله او عمل شيء ردي بدون حق لا يوجد شريعة ولا قانون يمنع من ذلك وشعبه يسجدون له ويلقبونه بحاكم الانفس على الارض وابن السماء وحرسة الساطاني يبلغ ٤ الفا وعند مقابلة او وصول امرته الى رعاياه يخرون جميعا سجودا له ما سبب الارض ٩ مرات يجباهم وتاج الملك عندهم يوخذ بالارث فرما تولى تخت الملك ولد صغير يكون تحت تدبير الاوصياء الى ان يبلغ

وهذه المملكة المملوكة من السكان فيها اكثر من ٤ الاف مدينة محصنة على شطوطها البحرية باكثر من ٤٤٠ قلعة وقرى وقصبات لا تحصى ومدنها غاصة بالناس فان مدينة باكين قصبة المملكة يوجد بها نحو مائتين من النفوس وهي على شكل مربع مستطيل يحيطها سور ارتفاعه نحو ١٠ قدم وعرضه ٣٠ قدما بحيث تدور فوقه الحراس وهم راكبون خيولهم وفي جوانب هذا السور ١٢ بابا تملؤها ابراج لاقامة الحراس والمحافظة وتنقسم هذه المدينة الى قسمين جنوبي وشمالى فالجنوبي فيه اكثر مساكن العامة واما الشمالى ففيه سراية الملك وبساتينها وجنائنها التي هي في غاية البهجة والظرف وفي هذا القسم ايضا كثير من الجبرات

المصنعة والزهور البهية والاشجار المختلفة وخلاصة الامران هذه المدينة بالاجال هي في غاية البهجة وحسن النظام وتخنوي على كثير من القصور الملوكة والمدارس والقشلات والهيكل المزخرفة والابنية الفاخرة وياها مدينة صوشو واهلها مليون ونصف وكتون واهلها مليون واحد وناكين التي كانت قصبة المملكة قبل بكين المذكورة واهلها نحو نصف مليون وفيها الهيكل المشهور الذي تكلمنا عليه بجلة هياكل الصين في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف. قال بعض المؤلفين ان اطرف الاماكن واشرفها عندهم ثلاث مدن وهي صوشو وكتون ولا بوشو ويقولون بان السعيد منهم هو من ولد في صوشو وسكن في كتون ومات في لا بوشو لانهم يزعمون بان في الاولى يوجد اطرف البشر وفي الثانية اغنى البشر وفي الثالثة احسن التواييت

ولا عجب في كون مدنهم هذه التي ذكرناها خاصة بهذا المندار من النفوس لانهم لا يطلبون محلاً واسعاً للسكن بل يبنون بيوتهم من الخشب وتكون غالباً طبقة واحدة مقسمة الى عدة مسكن صغيرة وربما وجد اولاد وابوهم وخدم وابو خدم الى ثلاثة اجيال يسكنون في بيت واحد ويوجد قسم عظيم نحو ١٠٠ الف نفس يسكنون في القوارب في محل يقال له قرية القوارب حيث يوجد منها نحو ٤٠ الف مرتبة في النهر صقوا متخاذية وبين كل صفين شبه سوق عظيمة فكانها مدينة كبيرة سابحة على وجه الماء وشريرة المملكة لا تسع لسكانها بالخروج للسكنى في الملبر وكل قارب يخنوي على عائلة مشتملة على جدود واولاد واولاد اولاد كما ذكرنا

والغالب في اخلاق اهالي هذه البلاد الغش والخداع لكن يضرب بهم المثل في اكرام الوالدين وبروي عنهم احاديث كثيرة في ذلك منها ما نولداً صغيراً كان ابواه فقيرين وبينهم صغيراً ووسخاً في الغاية حتى كثر فيه البرغش جداً فلكي يمنع اذى البرغش عن والديه خلع كل ثيابه ونام بلا غطاء لكي يحوم عليه البرغش ويلهى عن والديه اما الوالدين فليس عندهم من الخنو والشفقة

على اولادهم ما يقابل ذلك لانه اذا كان احد الوالدين له عدة اولاد لا يقدر ان يقوم بعاشهم يجوز له ان يلقبهم في النهر ليتخلص منهم ولا يعارضه احد
واما طرق الزواج وشرائعه عندهم التي منها سواغية زواج كل الاخوة
بامرأة واحدة تقوم بحقوق الزوجية لهم جميعاً ما كان عددهم فهي منفصلة في
البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف
وهم على ما يوصفون قصار القامة قليلاً صفر الالوان مختلفوا الاشكال بحسب
اقابهم ومع ذلك فان ضخم الجسم عندهم من احسن الظرف واكبرهم ميريون
اظافر ايادهم حتى تطول كثيراً ومتى طالت يعاون لها سنادات لكي لا تنكسر
ويستظرفون صغرا رجل النساء ولذلك يعاون قوالب من حديد يضعون
فيها ارجل البنات في صغرهن حتى متى كبرن تكون ارجلهن صغيرة كارجل
المعزى فلا يقدر ان على المشي كثيراً ولا على العمل ومن ثم كان ذلك محصوراً
في بنات الاكابر الذين يخصصون بنتاً من كل عائلة ليكسبوا هذا الحسن
الغريب ومن اعظم المحاسن عندهم صغر العينين وضخامة الشفتين ومن عوائدهم
ان يجلقوا شعر رؤوسهم ويتركوا منه خصلة في اعلى الراس حتى تطول فيجدلونها
ويرخونها على ظهورهم

واكثرهم يلبسون اقصة طويلة شبيهة بالمرابيل ويتمنطقون باحزمة
حربية وينقلون سداكين او خناجر في احزمتهم ومن عاداتهم ان لا يسبح لاحد
منهم ان يلبس اللون الاصفر لان هذا اللون مختص بالمائلة الملوكية واما بقية
الالوان فيلبسون ما شاءوا منها

ولا ياتون من اكل حشرات الارض كالفار والجرذان بل يبيعون الكلاب
الفاطسة جهراً في الاسواق وفي ما ذكرناه من ولائهم ومادهم في البحث الرابع
من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف ما هو كاف في
هذا الباب

اما لغتهم فهي من اقدم اللغات وقلما تغيرت عن حالتها القديمة كما يحدث

في اكثر اللغات قال بعض الكتبة من المسيحيين ان دعاة الانجيل وجدوا صعوبات كثيرة عند ما ارادوا ان يشرحوا للاهلالي حقائق الديانة المسيحية في هذه اللغة لانه من حيث لا توجد عندهم افكار صحيحة في قلوبهم من جهة الدين فكذلك لا توجد كلمات موافقة للتعبير عنها في لغتهم

وكتابتهم هي من اعلى الى اسفل ويستعملون عوض الحروف علامات واشارات منها اصلية ومنها فرعية وقد احصى عدد هذه العلامات الدالة على كلمات لغتهم فكانت نحو ٣٥ الفاً أما اذا حسبت العلامات القديمة التي هي الان مهملات عندهم الا نادراً فيكون عددها ٤٤٤٤٩ علامة ولذلك يعسر جداً علم القراءة والكتابة عندهم وقال بعض المولدين ان هذه العلامات والاشارات يبلغ عددها ٨٠ الفاً وكل علامة تشير الى كلمة او الى جملة كاملة والدارج منها الان ١٠ الاف علامة منقسمة الى ١٨ فرعاً وكل قسم يتكلم بفرع دون الاخر وفي الازمنة التي كانت فيها اوربا هريرية وعامة سكانها يلبسون الجلود او عراة كانت بلاد الصين بالنسبة اليها متمدنة وتمتاز من القديم بصناعة الفغفوري وقد تحقق الان انه ما عدا هذا الفخار الظريف الذي في كل العالم لم يزل يسمى بالصيني للمحل استنباطه ينسب اليها اختراع القبله نامة اي بيت الابرة المغناطيسية المعروفة بالحك وصناعة الطبع وعمل الباروت وزاد اخرون صناعة الزجاج وذلك قبل التاريخ المسيحي ولكن بقيت مخترعاتهم هذه ناقصة للغاية لانهم وصلوا الى درجة معلومة ووقفوا هناك وحسبك ان طريقة الطباعة عندهم هي بجنر الكتابة التي يريدون طبعتها في الواح من الخشب كل لوح على قياس جرم الكتاب الذي يخنارونه طولاً وعرضاً فيكون عدد الالواح اللازمة لطبع الكتاب كعدد صحائفه ومع هذا قد كثرت عندهم الكتب ورخصت وصار اكثر الناس يقدر على اقتنائها لكن اكثرها قصص واشعار وتواريخ فلما يوثق بها

وهم يحسنون صناعة النقوش والتصاوير ويصنعون ورق الكتابة او

انقرطاس من قشر شجر التوت ومن شرانق الحرير والقطن والقنب والتبن ولم
اليد الطولى في بعض الصنائع ولا سيما الحفر في العاج ويصطنعون من الصيني
الذي مر ذكره تماثيل لآلهتهم في معامل مخصوصة ومن صناعاتهم ايضا اقمشة
الحرير والقطن والكتان والجوخ والبسط

ولا يجناجون الى شيء من محصولات البلاد الاجنبية لان بلادهم واسعة
حسبا ذكرنا في ما مر وهي مخصبة جدا واكثرهم اصحاب اجتهاد ونشاط يمكنهم
ان يحصلوا فيها كل ما يجناجون اليه وكل اراضيهم تقريبا هي عامرة بالفلاحة
والزراعة حتى ان الجبال العالية صارت سهولا معتبرة مصلحة باهتمام عظيم وقد
بنوا حولها حيطانا عظاما لحفظ ترابها ومن عادة ملكهم انه بعد ان يخرج الى
الحارج كل سنة ليجسد لبوذه الهه ياتون اليه بشورين مزينين فيخلع عه ايسه
الملوكي ويحترث عليها في الارض بعض الامم تشريفا لحرفة الزراعة واكثره المياه
عندهم اصطنعوا طلبات يستخذمونها عند الحاجة لرش الارض بالماء كما مطر
وتجارتهم متسعة جدا حتى انه يوجد في بعض مدينهم احيانا الوف
من المراكب التجارية من مالك مختلفة ترى للناظر كغابات ملتفة ساجمة على
من المياه ومن آثارهم ونشاطهم ايضا ترعة عظيمة حفرها في بلادهم لكي
بواسطتها مع الانهر التي تتصل بها تجري الزوارق في البلاد من كتون الى
باكين طولها نحو ٦٥٠ ميلا لكنها لم تصنع دفعة واحدة بل حفر بعضها في الجبل
السابع وبعضها في الجبل الثالث عشر بعد المسح وفي البلاد ترع اخرى غير
هذه يسهل بها نقل بضائع التجارة من مكان الى اخر ولاجل ذلك قل اعنائهم
بتهديد الطرق في البر الا انهم قطعوا مناخ في بعض الجبال الواقعة في طريق
القوافل بين المدن الكبار

واعظم تجارتهم في الشاي الذي هو من النباتات المعتبرة عندهم ويزعمون
ان اصل بذاره كان من اهداب جفون احد آلهتهم تقطع اغصانه وتؤخذ اوراقه
وتجفف قليلا على نار لينة ثم تلت كل ورقة باليد ويوضع في صناديق مبطنة

بالرصاص ويرسل الى الجهات ويقطفون ورقه في السنة ٢ مرات يخرج منه في كل سنة ٤٠٠ الف اقة وفي كتون ديوان للتجارة مولف من ١٢ عضواً من اعظم التجار توقف على تدبيرهم جميع صوايح المنجر .
 ولتختم كلامنا هنا بما اتفق عليه اكثر المولفين وهو ان اهالي الصين كانوا ذوي معارف عظيمة لكن حيث اشتهروا المصريين بكونهم لا يحبون نقض العوائد الثابتة ويحفظون كل ما لم تجر به عادتهم وما ذاك الا لكونهم اصحاب جبن وبدع فلم تبلغ علومهم درجة كمال وما يزيد الأسف انهم مع كون معرفتهم والحالة هذه بالعلوم قليلة جداً بالنسبة لما عند اهالي اوربا قد تسبب عن قلة مخالطتهم ببقية الشعوب واطلاعهم على ما عند غيرهم غرورهم بانفسهم انهم احكم الناس وانهم قد بلغوا الغاية القصوى في المعرفة والهيئة الاجتماعية ويسمون ما عندهم برابرة

المعارف في الهند

يظهر ان بلاد الهند التي هي جزء اسيا الجنوبي كانت معمورة قبل غيرها بالسكان والآداب وتشتل على قبائل عديدة متشرة في كل اقطارها ولكل قبيلة ولاية وحكام مستقلة بذاتها اشبه بدول اوربا غير ان اخبارها في الابام القديمة كاخبار الصين سقيمة جداً وثاربخها مشحون بالخرافات والافاويل البعيدة عن التصديق مما لا يهيم الفاري معرفته

وقد اختلف المعلومون من جهة تسميتها هندياً فزعم البعض انها نسبت هكذا نسبة الى نهر الهند والسند وهما كلمتان معناها باللغة السنسكريتية الازرق نسبة الى لون مياهه وقال اخرون ان اسم هند ماخوذ من كلمة ايندو ومعناها قمر وذهب بعضهم ان هذه التسمية مقتبسة من كلمة هندو بالفارسية ومعناها الاسود

نسبة الى سواد اهلها ولكن فلما بوثق في صحة هذا الاقتباس لانه يصعب التصديق بان امة من الامم تتخذ لنفسها اسما ولقباً اجنبياً والاجدر بها ان تطلق على ذاتها لقباً ما تنوذاً من نفس لغتها والجغرافيون يقسمون هذه البلاد الى قسمين وهما هندستان والهند الصينية اما الاول فهو الاعظم والاشهر وعلو مدار كلامنا هنا واما الثاني فهو ما كان مجازياً بلاد الصين ويتضمن ثلاث ممالك صغيرة وهي بورما وسيام وكوشين او كوشينصين

واشهر ما يروى عنها من الحوادث هو ان سينوستريس ملك مصر كان غزاهم ولا يعلم بالتحقيق ماذا جرى عند ذلك وكانت غزتها قبلة الملكة سيراميس ونحو سنة ١٢٠٠ ق م اشتدت الحروب بين الاهالي في شان بعض الهتهم واخيراً استملكتم الفرس بعضها في عصر داربوس بن هستانس سنة ٥٠٠ ق م ثم اتاها الاسكندر المكدوني بمئة وعشرين الف مقاتل واستولى على جانب عظيم منها ولما لم ترض عساكره ان تبعد عن بلادها اكثر مما بعدت عاد الى بلاد فارس ثم انعقدت شروط الصلح بين الملك سلوقس احد خلفائه الذي تولى قسم سوريا وملك قسماً من الهند نحو سنة ٢٠٠ ق م وبعده غزاهم الملك انطيوخوس ايضاً ورتب على بعضها الجزية وبعد وفاته عادت الى حالتها الاولى واستولى عليها ملوك من اهلها فانقسمت الى عدة ممالك مستقلة على ما تقدم الى زمن خلافة الوليد بن يزيد الاموي وحينئذ استفتح المسلمون بعض السند وفي ايام بعض الخلفاء قطعوا نهر الهند ونهبوا نواحي البلاد الشمالية ولكن لم يملك فيها احد منهم ولما قام السلطان محمود الغزنوي استفتح جانباً من الهند وازافته الى مملكته فلما انقرضت الدولة الغزنوية انقسمت املاكها في الهند الى عدة اقسام واستولى عليها من استطاع ودامت الحروب قائمة بين ممالكها عدة قرون وكان من اشهر ملوكها الملك اوزرنيب فانه ملك من سنة ١٦٦٠ الى سنة ١٧٠٧ م واتصر على اكثر ممالك الهند وجعلها مملكة واحدة لكن بعد وفاته انقسمت املاكه بين بنوه وانقرضت ذواتهم بعد مضي نحو ٥٠ سنة ونحو سنة

١٧٢٩ م غزا الجهات الشمالية نادر شاه ابران وثبها وعاد بغنيمة وافرة وفي
 اثناء تلك الحملات كان اهل البورتغال قد كشفوا طريقاً الى الهند من جوي
 افريقية سنة ١٤٩٨ م باكتشافهم الراس الذي سموه راس الرجاء الصالح
 وكانوا بهذه الوساطة هم اول من دخل من الافرنج الى هذه البلاد وبقيت
 التجارة بين الهند واوربا في ايديهم الى انه في اقل من ٥٠ سنة صار لهم املاك
 واسعة ومدائن كثيرة في الهند ثم امتدوا الى اطراف السند وصار لهم عدة مراكز
 تجارية غير انه حيث لم يحسنوا السلوك مع الاهالي خسروا ذلك جميعه تدريجاً
 وفي بداية القرن السابع عشر للبلاد دخلها الفلمسكيون واستخلصوا منهم عدة
 مدائن لكنهم التزموا اخيراً ان يتنازلوا عنها هم ايضاً للانكليز الذين ابتدأوا في
 التجارة مع اهالي الهند في سنة ١٦١٤ م بواسطة شركة تجارية شكلوها لهذه
 الغاية وكانت اول اقامتهم في مدينة سورات وفي سنة ١٦٤٠ م سمح لهم احد
 الولاة بقطعة ارض تباع مساحتها ٥ اميال فابتدوا فيها لهم مركزاً ثم اشتروا من
 والٍ اخر بعض ارض واقاموا فيها عدة مراكز وكانت هذه المراكز شبه بخانات
 لوضع بضائعهم التجارية وذخائرهم الحربية لانهم كانوا دائماً على حذر من بطش
 الاهالي وغزوات الافرنج الاجانب ثم حدث في اواسط الجيل السابع عشر ان
 احترقت ابنة الشاه جهان في مدينة دلهي وهي قريبة من ناري كانت موقودة
 فارسل الشاه المذكور يطلب طبيباً من الانكليز فارسلوا له جراحاً ماهراً عالماً
 حتى برئت فطلب اليه ابوها ان يقترح عليه ما اراد ليكافئته به على خدمته
 فالتبس منه امرأ باعطاء الرخصة للشركة المذكورة ان توصل تجارتها الى كل
 اقطار السلطنة بدون ان تدفع عليها رسماً ثانياً خلاف المدفوع في سورات وان
 ياذن لها ايضاً بانشاء مراكز جديدة فصادف الخامسة هذا مزيد القبول
 وصدرت الاوامر باجرائه من ذلك اليوم وسنة ١٦٦٢ م وهب الشاه جهان
 المذكور لكارلوس الثاني ملك انكلترة جزيرة بوهي فتنازل عنها هذا الملك
 الى الشراكة تحت مبلغ معلوم فنقلوا اليها من سورات وجعلوها مركزهم الاكبر

بعد ان اقاموا فيها حاكماً انكليزياً وكذلك كانت اهل فرنسا وهولندا تجر في جهات اخرى من البلاد الى ان تمكنت قوة فرنسا وبين ويلات شوكتهم وقهروا الانكليز اكثر من مرة واخذوا منهم بعض املاكهم وتشتت الحال على ذلك مدة الى ان انتصر عليهم الانكليز اخيراً في ١٧٦١ م واسروا حكامهم موسيولالي ومن ذلك الوقت اخذت شوكة الشراكة الانكليزية ان تنقوى شيئاً فشيئاً حتى استولت على الجاناب الاكبر من بلاد الهند وتعوضت بذلك عما اضاعته وقتلته من املاكها في اميركا واستمرت حكومة البلاد في ايدي الشراكة الانكليزية المذكورة الى ١٨٦٠ م ومن ثم تنازلت عنها باسباب الى نفس الحكومة الانكليزية وهي الآن تحت تصرف احكامها وايرادها السنوي يعادل ايراد انكلترا الذي يجاوز ٧٠ مايوناً من الليرات الانكليزية

ثم ان اهل هذه البلاد الاصليين المعروفين بالهنود ينقسمون الى اربعة اقسام الاول البراهمة ويقال لهم الكهنة ايضاً والثاني الجند ومن هذا القسم تكون الملوك والمحكام والثالث التجار والفلاحون والرابع اصحاب الصنائع والعمال من كل نوع وهذا القسم الاخير ينقسم ايضاً الى اقسام شتى باعتبار الصنائع والعمل وجميع هذه الاقسام لا تختلط ببعضها اصلاً ولا يمكن لمن ولد في احدها ان ينتقل الى الاخر قال بعض المؤلفين ان الهنود منقسمون من قديم الزمان الى عدة طوائف متميزة عن بعضها شرفاً وخسة ادناها طائفة الباربا وهي تعيش منعزلة وحدها مبعوضة لغيرها

وديانتهم وثنية على المذهب البرهمني وهي تعلم بوجود الهضابط الكل اقام ثلاثة آلهة نواباً عن نفسهم وهم برهمة ووشنو وسيوى والظاهر انها اساء لبعض العلماء الذين اشتهروا بينهم في الزمان القديم ونحمت هؤلاء آلهة اخرى كثيرة ذكر بعضهم انه حسب عددها ٤٠٠ الف وقال اخرون انها اكثر كثيراً جداً وبما ان هذه الديانة لم تنزل الى الآن متغلبة على جزء عظيم من الارض وهي فرع من فروع الديانة الوثنية التي والحالة هذه ينقاد اليها نحو ثلثي البشر ولذلك

تحسب من اصل الديانات الموجودة في العالم فقد تكلمنا عليها بتفاصيلها وكيفية طرق العبادة المستعملة عند اهلها وكل ما يتعلق بذلك بقدر ما وصل اليها في البحث الرابع من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف .

اما لغاتهم فهي نحو عشر لغات متفرجة من اصل واحد يقال له السنسكريت وهذه اللغة الاصلية لا يتكلمون بها الا الآن ولكن كتب علومهم الروحية مكتوبة بها وفيها مشابهة غريبة لبعض لغات اوربا دالة على اشتقاق اللغات من اصل واحد واما اللغة الهندية الفاتحة الآن في اكثر البلاد فهي ممتزجة من لغات الهند والمارسية القديمة والعربية وغالبا تكتب بالخط العربي على شكل الخط الفارسي

والبراهمة او الكهنة الذين سبقت الاشارة اليهم هم امناء الدين واولاد طوائف هذه البلاد واشراف الشعب الهندي ويعلوشانهم على الجميع لاشتغالهم بالشرائع وسماوا براهمة باسم براهي الذي يعتقدونه الها او عقلاً عالياً وكان تسلطهم ونفوذ كلمتهم كجوس العم وكهنة المصريين وبعضهم يتعاطون اشق الاحوال لاجل تعذيب انفسهم فكانوا يبوون في الشمس الحارة جداً ويعرضون اجسامهم للموت حتى ان كثيراً منهم من قتل نفسه ومنهم من لا ملبس له اصلاً ولذلك يسمونهم فلاسفة متعسفين

وقال بعض المؤلفين انه كان من طوائف الهند ايضاً طائفة معدة لاختبار الملك بسلوك رعيته اما طائفة الزراع فكانت تتمتع من حرفة الزراعة براحة عظيمة بينهم فما كان احد يقدر ان يخرج الملاح عن اشغالها لكي يستعمله في غيرها ولا يبس التعدي اموالهم ولا اجسامهم

وكان لهم علوم كثيرة منها انهم كانوا يعرفون الفلك ويعتقدون ان الارض سطح بسيط في وسطه جبل تدور حوله الكواكب ويتكلمون على ذلك بخرافات جميعها مفصلة في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف لتعلقها بامور ديانتهم وانما لهم حسابات دقيقة في حركات

الاجسام السماوية واصابات زيجية لا تخل عن الصحة الانادراً وكانوا يعتنون
بالفلسفة والشعر وقد اجتهد بعض ملوك الفرس في نقل شيء من كتبهم الى
الفارسية ثم انتقلت من الفارسية الى العربية وكانت الفلاسفة اليونانيون ايضاً
يقصدونهم ليستفيدوا من علومهم ومعارفهم

والهم ينسب اختراع الارقام الهندية الحسابية وعلمهم اخذها العرب
الذين اوصلوها الى الافرنج ايضاً ولعب الشطرنج قال ابن خلدون وغيره
من مورخي الاسلام ان رجلاً من حكماء الهند يقال له صصه بن داهر اخترع
لعيب الشطرنج (وهو لعب تعتبره الامم المتقدمة فوق الالعاب بكثير ودون
العلوم بيسير) وانه وضعه للملك من ملوك الهند يقال له شهرام فلما اعرضه عليه
اعجبه وفرح به كثيراً وامر ان تكون آله في بيوت الديانة وراها افضل ما علم
لانها آله للعرب وقال لصصه المذكور اقترح علي ما تشتهي فاقترح ان يعطى
على اول بيت من بيوت رقعة الشطرنج حبة واحدة من الحنطة وبعد ذلك
يضاعف له في كل بيت يليه القدر الذي يكون في البيت الذي قبلة الى النهاية
وطريقة هذا البضعيف ان يكون في البيت الاول حبة واحدة وفي البيت الثاني
حبتان والثالث اربع حبات والرابع ثماني حبات والخامس ست عشرة والسادس
اثنتان وثلاثون حبة هكذا الى نهاية الاربعة وستين بيتاً فاستصغر الملك ذلك
وامر ارباب الديوان فحسبوه وقالوا ما عندنا قمع يفي بهنا فاستنكر الملك هذه
المقالة واحضر ارباب الديوان وسالم فقالوا او جمع كل قمع في الدنيا ما بلغ
هذا القدر فطالبهم باقامة البرهان فتعدوا وحسبوه امامه فلما ظهر له صدقهم
قال لصصه انت في اقتراحك ما اقترحت اعظم حالاً من صنعك الشطرنج.

انتهى

يقول مولفة ان حساب ذلك ينتهي الى سبعة وعشرين الف الف وخمسة
وخمسة وسبعين الف وتسعمائة واربعين مخزناً وكسور لكل مخزن الف الف افه
وكل افه اربع مائة درهم وكل درهم اربعة وستون فحبة وزعموا ان السبب في

وضعه ان ازد شير بن بابك وقيل ارد شير ومعناه بالعربية دقيق وحليب لان
 معنى ارد تحقيق ومعنى شير حليب او حلاوة وهو اول ملك من ملوك الفرس
 الاخيرة قد وضع الورد فسموه نرد شير نسبة الى واضعه المذكور وجعله مثلاً للدينا
 واهلها فرتب الرقعة ١٢ بيتاً بعدد شهور السنة وجعل القطع ٣٠ قطعة بعدد
 ايام الشهر نصفها ابيض والنصف الثاني اسود إشارة الى الليل والنهار وجعل
 النصوص (الزهر) مثل القدر ونقله باهل الدنيا فافتخرت الفرس بوضع هذا
 النرد وكان ملك الهند يومئذ يقال له بلهيت فوضع له صه الشطرنج كما ذكر
 فقضت حكاه ذلك العصر بترجيح على النرد والورد هو المعروف في زملنا
 بالطاوة وهو نوع من الالعاب مفيد بحكم الزهر الرموز به الى القضاء والقدر
 او الدهر والشطرنج يخالفه في ذلك لانه منوط بتدبير العقل ووصل اعبه الى
 بلاد الافرنج بعد القرن العاشر من الميلاد وكان من العاب الرومانيين في
 القرون الوسطى وقد قال فيه بعض حكماءهم مورياً بحال الدنيا يخرج الشاه
 والفرس والفلاح من كيس واحد يحظى كل بنصيبه ويمشي مع صاحبه على
 حسب قوته فاذا فرغ اللعب يرجع الكل الى ذلك الكيس

وكان عند الهنود البارود وبعض اسلحه قبل اكتشافه في اوربا ولهم اليد
 الطولى في بعض الصنائع ولاسيما في عمل الموائد والالعاب والاسرة المرصعة
 بالعاج وعرق اللؤلؤ وفي مدينة كثير قاعدة بلاد كثير تصطنع الشالات
 المنسوبة اليها وينسجونها من زغب المعزى الذي بنيت عند اصول شعرها في
 ايام البرد وينثر منه في ايام الحر وفي مدينة الملتان يصطنع كثير من اقشة
 الحرير والبسط والطنافس وفي مدينة بنارس تصطنع حلي الذهب والفضة
 وهم يحسنون ذلك للغاية وكذلك يحسنون ترصيع وتقطيع الحجارة الكريمة وفي
 مدينة مدرس معامل القطن والرجاج وفي دكا او هي دوكا ورش الحرير والشاش
 والقاش المصبوغ

وتجارة هذه البلاد رائجة جداً خصوصاً في ملح البارود والافيون والحرير

والقطن والقطيفة والصوف الخير والمسك والراوند الذي يأتي من بلاد المغول
وفي ما يخرج من الارض وما يصطاد من الآلى على السواحل خصوصاً جهة
جزيرة سيلان وفي الماس الذي يوجد خصوصاً في اقليم غلكندة وشيلان الكثير
والشاش وغيره من الاقمشة والاشناب الظريفة اللون والطيبة الرائحة

وسكان هذه البلاد الان هم ثلاثة اصناف هنود ومسلمون وفرس اما الهنود
فقد مر ذكرهم واما الفرس فهم من اصل فارسي طردت اسلافهم من بلاد
فارس وما زالوا على دينهم القديم اي عبادة النار واما المسلمون فمن اصل
عربي وربما اخناط هذان الصنفان بالسكان الاصليين وذكر بعض الجغرافيين
ان الهنود يبلغون ٢٠٠ مليون منهم ١٥٩ مليوناً تحت تسلط الانكليز و٤١ مليوناً
في حالة الاستقلال وربما كان في هذا العدد شيء من المبالغة اذ ان بعض
المتقين يقول في كتابه الذي الهم قبل ذلك بدة قريية لا يتفق معها ان يزيد
عدد اهالي الهند بهذا المقدار ان الهنود الاصليين يبلغون ١١٠ ملايين من
الانفس والاسلام ١٦ مليوناً والسيكة الذين عبادتهم مخلوطة بالاسلام والبراهمة
٤ ملايين وهناك ايضاً نحو مايون ونصف نيماري من طائفة النساطرة
لما اتى اهل البورتغال الى تلك البلاد على ما ذكرنا في ما تقدم الزموا جانباً
منهم ان يدخلوا في مذهب الكنيسة الرومانية فعلى هذا المعدل يكون عدد
الجميع ١٢١ مليوناً ونصفاً

وقصبة هذه البلاد مدينة كلكتة وهي مقر المحاكم الانكليزي تحوي من
السكان ٢٢٠ وقيل ٢٥٠ الفاً من النفوس وبها جمعية علماء شهيرة ومدرسة علوم
اسلامية ومن المدن الشهيرة التابعة لها مدينة دلي فيها كثير من الابنية الفاخرة
والجوامع والمساجد ومنارة عظيمة ارتفاعها ٢٤٢ قدماً ومدينة اخرى فيها مسجد
عظيم يسمى تاج المل وهو مبني على قبر امراة السلطان جهان شاه وقد بالغ
السواح في وصف محاسنه

المعارف في بلاد اليونان

وفي مقدمة وأربعة فصول وخاتمة

المقدمة

لا يخفى ان المعارف كانت في من ذكرنا من الشعوب كما انها طفلة لم تحصل على الشبيبة الا عند هذه الامة اليونانية ذات الشجاعة العجيبة والحكمة الغربية التي كل من حريتها وعظم شأنها وانما سياسة وهندسة هياكلها اوجب لها الاعتبار والشهرة العظيمة حتى صار الجاهل بما فعلته ونتائجها يعد عاراً بين الناس وقدسية هذا الجزء اليوناني صاعدة جداً جهة الاولية فلم تكن معروفة وقبلما يوثق بكل ما رواه المؤرخون في شأنها انما ما يقال من ان اصل اليونانيين من نسل ياوان بن يافث بن نوح فهو بقرب ما ذكره هيرودوتوس اول مؤرخهم في هذا المعنى وكانوا في مبدئ امرهم متوحشين عادمي التمدن برعون المواشي ويعلمون الارض ويسكنون في الكهوف ثم تعلموا عمل الاخصاص ولبس الجلود فكان ذلك اول اختراعاتهم وكانوا يقناتون بالبقول والجذور. قيل انه لما علمهم فلاسفس اكل البلوط وضعوه في مصاف الالهة والسبب في ذلك هو انه بالقرب من عصر ابراهيم الاب الاول ابني اسرائيل كان ما جرا الى بلادهم قوم من الفينيقيين يقال لهم التيتانيون واخناطوا بهم فاخذ عنهم الالهة الى جملته معارف اخرجتهم نوعاً عن حالتهم البربرية ومن ذلك عبادة الالهة الفينيقيين كما ورائوس

وساتورنوس ويقال ساترن وهو زحل عند العرب وزفس اوجويتير وهو
المشري ومن المعلوم بان اصل هولاء الالهة اناس من البشر لكنهم اشتهروا في
بعض الامور فوضعهم شعوبهم في صف الالهة كما سبق القول عن امثال ذلك
وحيث ان ادخل اليونانيون فلاسيفوس المذكور بحجة هولاء التبتانيين في مصاف الهتهم
ايضاً اذ كانوا يقدمون لكل من اشتهر منهم اكراماً عظيماً بعد موته اقتداء بما
تعلموه منهم وهذا هو اصل خرافات اليونانيين من جهة ديانتهم التي تكلمنا عنها
تفصيلاً بقدر الممكن في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف
في اصول المعارف فلا حاجة الى اعادةها غير انه لا بد لنا من ان نذكر شيئاً مما
قاله بعض المدققين من المؤلفين بشانها نظراً لتوقف معرفة الاداب اليونانية
بل واكثر الافرنجية الحاضرة ايضاً على مطالعتها وتسمى عند الافرنج علم الميثولوجيا
وخلاصة ما قالوه هو انه منذ اخذت بلاد اليونانيين ان تتلقي الغرباء تولعت
بسباع الخرافات حتى نظمتها في سلك الالهيات وادعوا ان اختراعها ليس الا
من منصب الالهية . الا انه قد يعثر الانسان من هذه الخرافات على امور
حقيقية ومهمة فانها حكايات ابتدعتها المتقدمون لتشريف ارباب العقول
عندهم وتأييده روسائهم او نظهم في حين الاعوان والعتاة وهم ليسوا في الحقيقة الا
اشخاصاً ارباب عقول كاملة او شجاعة فاضلة وبعض ما يحكى عنهم هو من باب
صحيح التاريخ او هو من قبيل الرموز والاشارات التي ظاهرها من قبيل
الكفريات الصريحة لمن ياخذ بظاهرها ويترك باطنها ولكن المقصود منها مجرد
الحقائق الباطنة لا الظواهر الباطلة بل منها ما يدل على كنايات اديبة ونكات
فلسفية ومنها ما هو محض اختراع شعراء جاهليتهم لاجل تحسين اشعارهم كاختراع
شعراء العرب في زمن جاهليتهم اموراً كثيرة لا اصل لها بينون عليها نظهم فان
ساترن مثلاً يريدون به في خرافاتهم الدهر يقولون ان الدهر هو ابن السماء
والارض واول حكاياتهم هو ان القدر اخبر الدهر المذكور ان احد ابناؤه ينزل
عن كرسي ملكه فكان الدهر ياكل اولاده حين وضع امهم لهم فهذه حكاية

رمزية عن كون الزمن يفتك دائماً بآبائهم ثم يقولون ان زوجة الدهر ولدت ذات يوم خشيت على مولودها من افتراس ابيها فنهطت حجراً مثلما ينطأ الطفل واعطته لزوجها فابتلعته حالاً ثم انها فعلت ذلك لخلاص عدة اولاد منهم واحد يقال له جوييتير يعنون عنه بانة الهه الالهة والظاهر انه كان ملكاً بجزيرة اكربت طرد اباه من المملكة وقسمها بينه وبين اخويها وكان يقال لاحدها نبطون والثاني ابوطون فابقي لنفسه جهة الشرق من الجزيرة واعطى ابوطون جهة الغرب منها واخذ نبطون شاطي البحر ومباشرة الصناعة البحرية ولذلك قالوا ان جوييتير كان اله السماء اي الجزء الاعلى من الجزيرة ونبطون اله البحار وابوطون اله النيران التي معناها الجزء الاسفل ثم لما علم ساترن مجيلة زوجته ووجود اولاد له منها خاف على نفسه وهرب الى بلاد ايطاليا في زمن الملك بانوس وهو ملك من ملوك ايطاليا عبده بعد موته كانه اله يعتقدون انه ذو وجهين ينظر باحدهما المستقبل وبالاخر الماضي والمعنى الاشاري الى ذلك انه ملك عظيم كان يعرف ما مضى وينظر في عواقب ما ياتي ويصورونه بصورة شخص في احدى يديه مفتاح والاخرى قضيب اما المفتاح فلانهم كانوا يعتقدون انه مخترع الابواب والاقفال واما القضيب فلانه يحكم به في الطريق ليامن به اهل السباحة وكانت ابامه تسمى ايامر الهنلان حكمة كان خالياً من المكدرات وكانت رعيته في غاية الراحة وخالو الببال فعلم الدهر هذا الملك علم الفلاحة وتقوم الستين ثم انهم كانوا يصورون ساترن المذكور ايضاً بصورة شيخ هرم باحدى يديه منشار وفي الاخرى منكب او ساعة رملية اشارة الى ان الدهر يفني كل شيء وانه يخرج ما عنده من الخبثات كحبوب الرمل وقد سمي اليونان باسم ساترن هذا نجمة زحل وسوا باسم جوييتير نجمة المشتري على ما تقدم وعليه فقس باقي القسم الاول من آلهتهم الذي جعلوه رتيبين الاولى تخموي على الهة علويين كجوييتير المذكور ونبطون ويونون وغيرهم وعلى الهة سفليين وهم الهة الارض والليل والنوم والاعائب كبان وفونة والساتيرية وغيرهم وقد

ذكرناهم جميعاً في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في
 اصول المعارف الذي مر ذكره واما آلهة القسم الثاني الذي تركنا الكلام عليها
 الى هذا الكتاب وفيه انصاف الالهة يعني فحول الرجال الذين لعظم شجاعتهم
 اعتمد اليونانيون بانهم متولدون بين الباقي والفاقي اي بين العرو بشر فان منها
 برشاوش الذي يزعمون انه ابن جوبيتير مولود له من اينا بنت اكرربوس
 ملك ارغوس بدعواهم انه ركب فرساً ذا جناحين يسمى بيغازة وآل امره ان
 جوبيتير نظمه هو وهذا الفرس في سلك صور الكواكب فان من جملة الكواكب
 المعروفة الان برشاوش والفرس ذا الجناحين ومن المعلوم ان الفلكيين استنبطوا
 اسماء الكواكب من هذه الخرافات ومنها هرقل وهو اشتهر فحول رجال القدماء
 يزعمون انه ولد لجوبيتير ايضاً من الكمينه زوجة انقريبون ملك طيوه وانه
 قطع الشعبانين اللذين ارسلتهما يونون زوجة ابيه جوبيتير لاهلاكه ثم لما
 تصالحت معه اخيراً ارضعته فطار من لبنها شيء في السماء وانتشر فحدث عنه
 طريق اللبنة وهي الحجر ثم قتل ايضاً اسداً كان يخرب البلاد وينتس اهلها في
 اجمة نيبا وصار يلبس جلد علامة على اول نصرانه وقتل تينبا ذا ٧ رؤوس
 كان في بحيرة لرنه وقبض على خنزير وحشي كان يجبال اريمته وقتل بقرة
 وحشية كانت تخرب البلاد التي حول جبل مينا وكانت رجالها من نحاس
 وقرونها من ذهب وطرده طيوراً ذات قوة خارجة عن العادة كانت بجيرة
 استغالة باقليم ارقاديا تقطع المارة بعفاليها وهزم النساء الحريبات المسترجلات
 المسماة امازونات بقرب نهر ترمدون وكذلك قتل ديوميدي وبوزريس وكانا
 مشهورين بالظلم وقتل جريون ملك اسبانيا وكان ظالماً وله ٢ اجسام ومسح
 اصطبلاث او مجياس ملك اليدة ويهندستو الفاتحة نظفها من الروائح الرديئة
 التي كانت تنجب الطاعون وقتل ثورا وحشياً كان ساطعاً بطنون اله الجمار
 ليفتريس اليونانيين لما غضب عليهم ودخل بستان مسبردية بعد ان نوم الافعى
 التي كانت تحرسه وكان اطلس يمنع عنه السماء بكتفيه واتى من ذلك البستان

بتفاح الذهب (قبيل هو البرنقال وقيل البطاطا) ونزل النار السفليات وانفذ
منها سريرة مخرج معها حبيبة طيسة وانفذ ابطالها من ظلم قافوس بن بركان
وقطع السلاسل التي كانت ابروميته وهي المسماة عند الفلكيين بالمرارة المسلسلة
مربوطة بها في جبال قاف وانتصر على الله بن الارض في محاربه اباه وقتل
ليفوس لكونه بعد ان تغلب على مدينة طيوه قتل ملكها الذي هو زوج امه
وادخل اوقيانوس (البحر المحيط) في الجزء الذي يفصل اوربا من افريقية عند
ما فتح بوغاز جبل قادس المسي الآن جبل طارق وذكر العلماء ان هذه الامور
المنسوبة الى هرقل هي تشبه الى حوادث اغلبها لم تكن له وحده بل كان هناك
اناس غيره مسنون بهذا الاسم ايضا ولكل منهم فعل فنسبت جميع افعالهم له
ومنها طيسة بن ابيجة ملك الاثينيين الذي كان معاصرا هرقل وكان من
افاربه واحب الناس اليه كما ذكرنا في ما مر وكان مواعا يقتل الظلمة الذين
منهم سيرون الذي كان يرعى المارة في البحر وبروكستة الذي كان يمدد الغرباء
النازلين عنده على فراشه فان زادت اقدامهم عنه قطعها او جرهم باربع خيول
وقتل ثورا عظيما كان يخرب ارياف مرثون وخنزيرا وحشيا كانت بعثته ديانة
(احدى آلهتهم) الى اقليم ايطوليا حين غضبت على مدينة خلكيدونيا لاهالم في
عبادتها وقتل منيطور الذي كان حيا نانا نصفه على صورة رجل والنصف
الاخر على شكل ثور ولدته بازبنا بنت الشمس من زوجها مينوس ملك اكريت
وسوف ياتي ذكره وكان ابوه وضعه في مهواة وكان يغذيه لحوم الادميين
وانذلك كان اهل اثينا ملتزمين ان يرسلوا له في كل سنة ٧ صبيان بالقرعة
لاجل غداؤه واخنطف هيلانة التي خالصها بعد ذلك اخوها كستور وبولكس
وسياتي ذكرها وذلك بعد خراب تروادة بثانين سنة وكان معه في ذلك
بيروتوس ثم شرعا في اخذ بروزر بيته بنت ملك المولوسيين وكان يجرسها كلب
عقور يسمى سرييرا او قرييرا فقطع بيروتوس ذلك الكلب وقيل بل نزل طيسة
المذكور مع بيروتوس الى النار لخراج بروزر بيته المذكورة منها فقبض عليه

ابوطون (اله النيران) وكبائه بالسلاسل فقطع الكلب المذكور بيروتوس واما طيسة فانقذه هر قول المقدم ذكره فكافاه على صنيعه هنا بذها بوجهة في محاربتيه النساء المسترجلات وانتضاره عليهن على ما تقدم. ومنها كستور وبولكس المذكوران هنا ويُعبّر عنها عند الهلكيين بالجوزاء او التوامين فاما كستور فكانت له اخت تسمى اكايتمسترة وكلاهما اولاد تندر ملك ايباليا ببلاد اليونان واما بولكس فكانت له اخت تسمى هيلانة وكانا كلاهما مولودين بن علي ما زعموا لجويبتير من ايداء زوجة الملك المذكور لكن جويبتير تبنى اخيرا كستور محبة في اخيه بولكس وامران كلاهما يعيش مدة ويموت اخرى لكونه قسم الازلية التي لبولكس ابنه بينه وبين اخيه كستور ثم صار كل منهما معدودا في جملة الكواكب الساوية وكانا في المنزلة الثالثة من منطقة البروج وسماها برج الجوزاء ولم ينالاهن المنزلة الا بكونها خدما للناس لاسيا بقطع دابر لصوص البحر فلما كان الجربون يجترعونها. ومنها يازون بن يازون ملك تساليا الذي نهب صوف الذهب من بلاد خلكيدونيا وهو صوف خروف يزعمون بان الالهة اهدينه الى اتماس ملك طيوه فذبحه ولده افر كسوس لجويبتير واعطى الصوف الى امير من تلك البلاد يسمى اينا وضعه في اجرة منذورة للريح وحرسه بشعبان لا ينام اصلا وبانوار تخرج من انوفها النار وكان يساعد يازون على قصده هذا هر قول وطيسة وكستور وبولكس واورفة ولنصة وتيفيس وغيرهم فتوجهوا جميعا راكبين سفينة رئيسها الذي كان يقبض على دفتها تيفيس وكان لنصة لحدّة بصره يكشف ما تحت الماء من الافات البحرية وكان اورفة^(١) يسليهم بالغيا والالحان

(١) اورفة المذكور بسمونة عقل العود ايضا لانه لما كان في خرافاتهم لكل شيء عقل يعطونه كاله كانت العقول عندهم اكثر عددا من العقول العشرة التي يذكرها الفلاسفة وبما انه كان الانبيا كان اذا ضرب العود هامت الاشجار والاحجار وتزحزحت عن محالها ووقفت مياه الانهار عن جريانها وانجذبت اليه الوحوش طربا ويزعمون انه لما ماتت زوجته من لدغة افعى في يوم ابتناؤها بها دخلت النار فموسى اليها لياخذها بعد ان ادعش

والاورغونوطية يسيرون السفينة بالمجاديف وهرقول يعوقهم عن السفر اما لضخامته وتقل جسمه على السفينة او لكونه كان يأكل كثيراً وخلاصة الامر انهم وصلوا الى خلكيدونيا واخذ بازون صوف الذهب وذكر علماء الازمنة ان هذه غزوة كانت سنة 7٤ بعد تاسيس مدينة ترقادة وقبل اخذها بتسع وسبعين سنة. ومنها اوديب بن ليوس ملك طيوه وولده ايتيوكل وبولينس ومن حديثه انه كان يوجد بقرب المدينة المذكورة السفنكس وهو غول ماهر راسه كراس المرأة وجسمه على هيئة كلب وذنبه كالثعبان واجنحة وصورة مخالب ورجليه كالاسد وكان يلغز على كل من مر عليه فان اجابه والآفترسه الى ان صارت تلك المدينة كالصحراء الموحشة فامر حينئذ اكربون خال اوديب المذكور وكان بومئذ ملكاً عوض ليوس بانه كل من حل اللغز يعطيه المملكة ويزوجه باخته يوكسته وكان لغز الغول المذكور هو هنا ما هو الحيوان الذي يمشي في الصباح على اربع وفي الظهيرة على اثنتين وفي المساء على ثلاث ففسر اوديب هذا اللغز وقال هو الانسان فعند ذلك غضب السفنكس لكونه صار كالملغوب والتي نفسه في البحر واما اوديب فانه تزوج يوكسته واستولى على المملكة وكانت يوكسته التي تزوجها امه ارملة ليوس ابيه فلما عرف ذلك اخيراً فقا عيني نفسه وترك المملكة لولديه منها وهم ايتيوكل وبولينس فتقسم هذان الاخوان المملكة وانفقا على ان كلا منهما يحكمها سنة فكان اولها في الحكم ايتيوكل فلما مضت سنته لم يكن اخاه منها فكان ذلك سبباً في حرب طيوه المشهور الذي اصببت به هذه العائلة الملكية. وكذلك كانت عائلة طنطال ملك فرجيا مثل عائلة اوديب في سوء الحظ والمسكنة وكان طنطال المذكور من نسل جوبيتر الا انه كان كافراً فانه ذبح ولده بيلوبس ليمنح بذلك شجاعة من

بالحان خازن النار فاتفق معه هذا الخازن على انه يسلمها له بشرط ان لا يلتفت الى خلف وهو خارج لكفة لما لم يحافظ على هذا الشرط والتفت اليها غابت عن بصره فمن قهره عليها لم يطق بعد ذلك رؤية السماء ابداً فلم يخالط مدة حياته الا الرجال

الالهة اضافة فلم ياكلوا منه شيئاً بل احيوه وانما كانت السنبلة لشرها اكلت
 كتفها فعوضوه عنه بكنف من العاج والقوا اياه طيطال المذكور في جهنم
 ليعذب بالجوع والظاء والمياه تجري حوله والاثمار دائية منه وكان من اولاده
 نيوبا زوجة ايفنون التي مسخت صخرة بعد ان قتل ابولون وديانة اولادها لكونها
 كانت كافرة مثل ابيها . واما ابنة بيابوس فانه غلب اينوميوس ملك ايلاذة
 واستولى على مملكته وتزوج بنته هيبودايا وولد له منها ولدان وهما اطرة وطسنة
 اللذان حيث لم تتفق كلمتها وقع بينهما شقاق آل امره اخيراً الى ان مشأ عنه
 حرب ترودة المشهور وكان باريس بن بريام احد ملوك ترودة ويسى ايضاً
 اسكدر وولد له من امراته التي تسمى هيكوبه وكانت امه رات قبل ذلك في المنام
 وكانت حامله به كانه خرج منها مصباح اضرم النار في المدينة فاولوه انها تلد
 ولداً يجرب الوطن (قال بعضهم ان مثل هذه الاحلام كانت الجاهلية يجترعونها
 بعد حصول الشيء والأفان رابطة وعلاقة بين ما يقع وبين ما يتخياله النائم
 او ليس ان الحوادث التي تحصل في المستقبل انما تتعلق باحوال لارابطة بينها
 وبين حركات النائم وهي متصورة في التوقف على اسبابها والتاريخ الخرافي مشحون
 من امثال تلك الاحلام) فلما بلغت اباه بريام تلك الرويا امر بنته لكن امه
 بعثته الى اثنين من الرعاة ربياه سراً فكان في حال تلك التربية الدينية تلوح
 عليه الصفات الملوكية حتى ان يونون (زوجة جوبيتير) ومنيروه (الهة الحكمة)
 ووينوس (الهة العشق) جعلته حكماً في المشاجرة التي وقعت بينهن حين كن
 في وليمة عرس طيطيس وبيلا التي لم تدع اليها الهة الفتنة فحصلت لها الغيرة من
 ذلك ورمت بينهن رمانة من ذهب مكتوباً عليها تخف بها الاجل منكن فحكم
 باريس بانها للزهرة فصار هو وعيانه مبعوضين ليونون ومنيروه ثم انه تسابق
 مع اخيه هيطور فغلبه فغضب هيطور من ذلك وعزم على قتله لكن لما ظهر انه
 من الفرائس انه اخوه وتحقق ذلك من الجواهر التي كانت معلقة عليه وكانت امه
 اعطتها للراعي وامرته بتعاليتها عليه فعرها هيطور فنسي تعبير الرويا واعندته

واوأة اليو. ومنها ايضا اوليس او هو عولوس الذي كان ملكا على جزيرتي ايتاكة ودولكلوم التي نسي الآن طياكي وهو ابوتلماكوس. صاحب القصة المشهورة المولفة من الاديب فتاون الفرنسي وسوف ياتي ذكره في محله وقد ترجمها من اللغة الفرنسية الى العربية العلامة الفاضل رفاعة بك الطهطاوي في مصر والآن تطبع في اخر صحائف حديقة الاخبار في بيروت. ومنها دردانوس بن جويتير من امرائه المسماة ايلقتراحا وكان له اخ يحكم معه اقليم توسكانا ببلاد ايطاليا اختلة وذهب الى اقليم تروادة وتزوج بنت حاكم هذا الاقليم واسس معه مدينة تروادة المذكورة وكان ذلك قبل تاسيس مدينة رومية بنحو ٧٠٠ سنة اي سنة ١٤٥٠ ق م وفي بعض التواريخ سنة ١٢٢٤ ق م ولما كان هرقول وقد تقدم ذكره اختطف هزيونة بنت بريام المذكور في ما مروا عطاها لبعض روساء عساكر اليونان في وقتما كان مشغولا بتخريب بلاد تروادة فعزم باريس على تخليصها لكونها عنته واذلك توجه الى مينياس بن اطرة بن يلويس بن طنطال وهو اخو اغا ممنون فالقت مينوس محبته في قلب هيلانة زوجة مينياس المذكور فتولعت به وذهبت معه الى تروادة ففرح والده بذلك رجاء ان يفتدي اليونان هيلانة هك بينه ويردوها اليه لكن خاب امله لان اليونان امتنعوا عن رد هزيونة وتخربوا جميعا وذهبوا الى تروادة في طلب هيلانة فحاصروا هذه المدينة عشر سنوات حتى اضحمت^(١) بالكلية وكان سبب طول مدة الحصار عدة امور اولها ان اهل اسيا جميعا ذهبوا الى معاونة الترواديين ثانيها شجاعة هيكتور ثالثا مشاجرة وقعت بين اغا ممنون المذكور واشيل وانتهى

(١) حيث ان اخبار هذه الحرب مستنبطة من اشعار اوميروس كانت الاعينقاد عد الاكثرين بانها من جملة التحريفات اليونانية ودام ذلك الى ان ظهر العلامة هنري شلمين الجرماني وايدها بواسطته كشيء في سنة ١٨٧٦ م الكوز الثمينة من غنائمها المدفونة بمدينة مسيني في قبر اغا ممنون وغيره من الابطال الذين كانوا في هذه الحراة كما سوف يرد في محله من هذا الكتاب

الحال بخراب هذه المدينة سنة 1184 ق م. وكان ونية بن وينوس وابوه انكيزة احد امراء مدينة تروادة المذكورة فخاصته وينوس امه من هذا الحرب وذهبت به الى المحل الذي اسست به ديدون (التي سبق ذكرها في الكلام على الفينيقيين) مدينة قرطاجنة ومكث عند ديدون المذكورة عدة اشهر ثم ذهب بامر جوبيتير الى ايطاليا وتزوج لوينيا بنت الملك لاتينوس وخلعه على ملكه لكونها حتى زوجته واسس فيها مدينة رومية قال بعض المؤلفين ان حوادث اينية وديدون هي محض اشاعات عند العوام ومحض تخيلات باطلة عند الشعراء (نظير لومبروس وغيره اذ لا يخفى بان اشهر هذه الحوادث وغيرها من الوقائع والحروب في زمن جاهلية اليونان هي ماخوذة عنهم ولا ريب ان كثيراً منها لا يوثق بصحتها وخصوصاً ما نحن بصدده من اخبار نخول شجعانهم المعتبرين عندهم انصاف الهة او الهة من القسم الثاني على ما سبقت الاشارة اليه) والافقد ذكر علماء الازمنة ان اينة كانت قبل ديدون بثلاثماية سنة ولكن الشعراء لم ينظروا الى ترتيب الازمان بل نظموا اشعارهم في هذين الشخصين على منتهى تخيلاتهم الباطلة وقد ذكر المورخون بان هذين الشخصين احدهما اول موسس رومية والاخر اول موسس قرطاجنة وكانت كل واحدة من هاتين المدينتين معاصرة للآخرى وخصيبتها بحيث لم تكن مشغولة الا بالبحث عن تدمير عدوتها ثم انتهى الامر ان صارت احدهما (قرطاجنة) تحت طاعة الاخرى (رومية) ومن مراجعة حديث قرطاجنة المدرج في الكلام على الفينيقيين تعلم كيفية ذلك انتهى

الفصل الأول

في كيفية تقدمات اليونانيين الى وقوع الانقسام بين اسبرطة واثينا

قد كان السبب في ايراد ما ذكرناه من اخبار انصاف الالهة المذكورين
التيثانيون الذين جاءوا من فينيقية وعلوا اليونانيين جملة معارف منها اصول
عبادة آلهتهم ثم بعد ان انشأوا عند هم جملة مدائن صارت فيما بعد مالك صغيرة
من اقدمها مدينة سيسيوم عند خليج ليبانتو وكان وضع اساساتها في عصر ناحور
جد ابراهيم الخليل الاب الاول للاسرائيليين ابي نحو سنة ٢٠٨٩ ق م ومدينة
ارغوس ايضا في اواخر ايام ابراهيم الميثار الي اعني سنة ١٨٥٦ ق م كثرت
غزواتهم وحروبهم فتلاشوا وانهوضوا ومن ثم رجع اليونانيون الى حالتهم القديمة
وبقوا على ذلك نحو ٣٠٠ سنة الى ان وافى الى بلادهم رجل مصري يقال له قفروبس
وبعيتهم قوم من بلاده فاسسوا مدينة اثينا التي صارت اخيرا وطننا للمعارف
والعلوم وذلك في سنة ١٥٥٦ ق م وسوها قفروبيا نسبة له ثم بنوا ارغوس
وسبارطة واسس قفروبس المذكور في اثينا محكمة اربوس باغوس ومعناها تل
المرنج نسبة الى التل الذي بناها عليه واطرفها لمقاصدة الفاتلين وهذه المحكمة هي
التي استنضات شهرتها في ما بعد (وكان من اعضائها ديونيسيوس الاربوباغي
المذكور في اعمال الرسل ص ٢٤:١٧ وهو من اشهر علمائهم واول مسيحي تنصر
عن يد بولس الرسول الذي ادخل الديانة المسيحية بينهم سنة ٥٢ م) ثم اظهر
لم قفروبس المذكور ايضا الدين وسن لم الزواج بعد ان كانوا لا يعرفونه كما
ان رجلا مصريا اخر يقال له دانيوس كان اول من ادخل عندهم علم الفلاحة

في ملكة ارغوس مع غيرها من الفنون وفي سنة ١٥٥٠ ق م اتى الى قسم من بلاد اليونان يدعى بيوتيا رجل من اهالي فينيقية يقال له قدموس وبني قلعة عظيمة سماها كادمه حيث بني بعد حين مدينة طيبة او ثيبة اليونانية وادخل معه فن الكتابة بحروف هجائية كانت مستنبطة في بلاده قال بعض المؤلفين انه وضع منها ١٦ حرفاً ثم اكملها اخيراً بلاميدس وسيونيدس وكان اليونانيون اولاً يكتبون سطرًا من اليسار الى اليمين ثم سطرًا من اليمين الى اليسار وعلمهم ايضا زراعة العنب وعمل المعادن فانتشرت هذه الفنون في بلاد اليونان ومنها الى سائر بلاد المغرب وفي خرافاتهم ما ملخصه ان قدموس بن اجنور ملك الصوريين بعد ان حكم طيبة مدة اصيب بمصائب منها احتراق بنته سمياة حيث احبت ان ترى جوبيتير على صورته الاصلية وكان ذلك باغراء يونون زوجة جوبيتير لغيرتها منها فتشككت لها في شكل عجوز واقنعتهما ان تطلب منه ان ياتي لزيارتها على شكله الاصيلي كما ياتي ليونون فلما جاء اليها اقترحت عليه ذلك وحلته بنهر في الجنة يقال له الستكس فاجاب سواها حرمة لهذا اليمين وظهر لها كما يظهر ليونون فاحترقت بصواعقه وكانت حلى منه فاخذ جوبيتير الجنين من بطنها لحوفه عابه ووضعته في فخذ الى ان جاء اوان وضه فكان هو بنجوس الآتي ذكره الذي علمهم زراعة العنب واما جمهور المؤلفين فيعتقدون ان المراد بنجوس المذكور هو نوح الاب الثاني للبشر لانه هو اول من غرس الكرم بعد الطوفان العام واعنصر النبيذ نك ٢: ٩ وزعم اخرون انه هو الشرود المذكور في التوراة لان كلمة شرود معناها باللغة العبرانية يكوس يعني بن كوش ومن مصائب قدموس المذكور ايضا غرق ابنته هينر عند ما هربت من زوجها اطاس ومنها ان ابنته اغاوة قفلت ولدها المسما بنتا حين سخر من مواسم الميناوية ومنها طرد انيفون له من مملكته فذهب هو وزوجته هرميون الى ايليريا واقاما بها مدة طويلة كئيبين حزنين الى ان رثي لحالها الالهة فغيروها الى صورة ثعبانين . انتهى . وهناك رجل آخر يقال له اطر بطوليس خاطر يتقطع نفسه

أربا حيث علمهم صناعة الحراثة كما خاطر بخوس الذي مر ذكره لما علمهم زراعة

العنب

ولما كانت حروب هذه الامة قبل ان تفتح بلاد تروادة التي مر ذكرها كثيرة جداً واضعفتهم عن مقاومة الاعداء قام بينهم رجل يقال له امفكتيون او امفطيون واضطروهم الى التحالف مع بعضهم فتعاهد اهل ١٢ مدينة من اعظم مدنها وتحالفوا على الاتفاق وكانت رسل هذه المدن تحضر كل سنة مرتين الى مدينة تيرموبوليس للذاكرة بمجلس رتبوه هناك للحكم في فصل الخصومات وسموه امفكتيون باسم واضعوا المذكور

ثم بعد ان استولوا على مدينة تروادة المذكورة في التاريخ الذي اشرنا اليه وخربوها بعد ان كانت شهيرة في بلاد اسيا بالقرب من بوغاز كاليوبولي ولا زالت اثارها باقية الى الان اسسوا هناك عوضها مدينة ثانية سموها باسمها ونزلت قبائل منهم بالجزائر التي بالقرب من شطوط بلاد اسيا الصغرى المسماة الان اناطولي واكثره راحتهم هناك مارسوا العلوم والفنون وكثرت عندهم المعارف والف لم مينوس ملك كريد الذي سماه شعراؤهم قاضي النيران وقد مر ذكره قوانين اغلبها الحث على الحرب ادعى انه اُلم بها

وفي سنة ٩٢٢ ق م ظهر بينهم اول شاعر وكان اسمه هسيودور ولعله هزيودرس الذي ذكره بعضهم فقال انه كان معاصراً لاوميروس نشأ في ضيعة من ضيعة بيوتيا ولم يصل المتأخرين من شعراء الأقصيدين ان احداها سميت نسبة الالهة موضوعها الميثولوجية التي مر ذكرها وما فصلناه منها هنا وفي كتاب زينة الصحائف في اصول المعارف لجهة توليد الهتهم وما جرى بينهم من الحوادث والثانية سميت الاشغال اليومية وموضوعها الزراعة ومتعلقاتها وله ايضاً قصيدة اخرى تعرف بترس هيراكليس (هرقول) وشعره جيد ومنبول لكنه لم يضاع شعراوميروس الذي عرف بانه هو اول شعراء اليونان ظهر في سنة ٨٨٥ ق م وكان صاحب قريحة بدبعة وعقل فائق نشأ بمدينة ازمبرا

جزيرة ساقص المسماة جزيرة المصطكى وساج في جميع بلاد اليونان وبلاد
 اناطولي وجزائر البحر الرومي وبر مصر وغيرها من البلدان فبرع في علم الجغرافيا
 والاداب والاخلاق والعوائد وشرف اليونانيين بقصبتين حماسيتين تسمى
 احدهما الاليادة والثانية اودوسيا وهما تتعلقان بمدح حروب اليونانيين
 وخرافاتهم خصوصا حرب جروادة الذي مر ذكره ولشعره حماسة عظيمة شهيرة
 في كتب العلوم الادبية الافرنجية ومعروفة عند العرب ايضا وايوا اشار ابن
 الصائغ بقوله مدكاني اوميروس لد بن محمد ^{٢٢} ويقال بانه فقد بصره عندما
 ذهب من المورة الى كولوفون ببلاد اليونان ومن ثم لقب بالاعمى وكان يطوف
 متسولا وهو ينشد اشعاره قطعة قطعة في اثناء تطوفه وبعده اعنتى بجمعها
 بيزستراتوس المشهور خليفة سولون وسوف يأتي ذكره وزعم بعض المتأخرين ان
 اوميروس المذكور ليس هو الا شخصا موهوما متخيلا نسبت اليه اشعار اليونان
 المتفرقة كما نقول العرب في مجنون ليلي والظاهر ان الذي الجاهم الى هذا الزعم
 هو عين ما الجأ غيرهم الى قول ما قالوه بشأن لغة اليونان وسوف نورده في
 الكلام على كل من اللغة والشعر في محله

وكانوا قبل كل شيء اعدوا مواضع لانواع اللعب المختلفة كركض الخيل
 والمصارعة والبحري والمقاتلة والملاكمة وسائر انواع الرياضات التي تصلح البدن
 وتفيد النشاط والخفة والعاوية وتجعله مستعدا للاشغال الحربية وان كان
 شهاها الفساد بعد مدة حتى صارت كانتها من السخريات حيث انحصرت
 خاصة بالمصارعين او بفخر الرجل منهم بسبق فرسه وان كان راكبها غيره
 وفقدوا بسببها الاعناء بالمصالح العامة الى غير ذلك من الامور المضرة وكانوا
 يقيمونها في مواسم مخصوصة لاهتهم لانذكر منها هنا الا الملاعب الاولمبية التي
 كانوا يشهرونها اكراما لجوبيتر في كل اربع سنوات مرة بالقرب من مدينة
 لمية ببلاد المورة ولذلك سميت الاولمبية وكان اعظم ما فيها راحة الخيل
 وكانت المسافة ما بين اللعين تسمى بالاولمبياد ويكانوا يورخون وكان اول

اولياد عندهم سنة ٧٧٦ ق م واما باقي هذه المواسم فهو مذكور في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا يلزم ان نكرر تعدادها هنا وكانوا في البعض منها كالمواسم الساترنالية ابي المختصة بساترن يغلقون الدواوين والمدارس العامة وينهادون ويوخرون عقاب المذنبين وينفاعدون عن الحروب وكان السادات يخدمون خدمهم على الموائد وكان الرجل الغائب في هذه الملاعب التي يلعبونها فيها يلبسونه اكليلاً من اغصان الزيتون الاخضر ويتفوننه بالتمصيق ويكرمونه اكراماً لا مزيد عليه وكان من اراد الدخول بحجة اللاعبين لابد له من ان يعد نفسه لذلك بامتناعه عن الاطعمة الغليظة وانواع المسكرات وعن كل ما يضعف الجسم ليتمكن من نوال الغلبة والى هذا اشار بولس الرسول في رسالته الى اهل كورنثوس (ص ٩: ٢٤ و ٢٧) وفي هذا العصر ايضاً بنى الهيكل المشهور لابلون في المورة

ثم انقسمت هذه الامة اليونانية الى فرقتين الاولى اهالي اسبرطة وهي مدينة شهيرة من بلاد المورة كانت كرسي مملكة لاقونيا بينها وبين البحر مسافة قريبة وتسمى ايضاً لقد مونة وقد عدت مع الزمان فلا يوجد الان الاثارها والثانية اهالي اثينا كرسي ولاية اتيكه وذهب كل منها مذهباً خاصاً به كما يعلم ذلك من التفاصيل الآتية .

الفصل الثاني

في كيفية سلوك اهالي اسبرطة

اما اسبرطة فيزعمون ان اول ملوكها كان هرقول وقد مر ذكره وانها بقيت مدة ٩٠٠ سنة تحت حكم ملكين من ذريته ثم في سنة ١٨٤ ق م

ظهرت اسباب اوجبت لكورغة بن الملك اونومة ان يسافر من بلاد اسبرطة الى بلاد اليونانيين وبلاد ابوتيا وبر مصر لكيما يتعلم شرائع تلك البلاد فعند رجوعه شرع في تنظيم الحكومة واقبمت لهم مشورة نسمت بالنسنت وهي مركبة من ٢٨ رجلاً غير انه لما قويت شوكة ارباب هذه المشورة اكونهم كانوا مستمرين لا يتغيرون صارت اهالي البلاد تنتخب كل سنة ٥ قضاة لاجل منع ارباب المشورة من تجاوز الحد وصار لهؤلاء القضاة كلمة نافذة حتى انهم يعاقبون ارباب المشورة ويجرون جزاءهم ولو بالموت وتبذت احكامهم على نفس الملك ايضاً وكانوا يسمون ايغوريس وذهب بعض المؤرخين ان هذه المشورة ترتبت بعد لكورغة المذكور بنحو ١٢٠ سنة ثم مزج لكورغة الاحكام بالاداب وجعل اهل اسبرطة كعيلة واحدة متحدين في المصلحة العامة مقبلين على اصلاح اوطانهم فازم من ذلك استواء الناس غنى وفقراً حيث انه قسم الارض بينهم بالسوية وابطل معاملة الذهب والفضة وكل زينة لا تتوقف عليها المعيشة وجعل المعاملة بينهم بقطع ثقيلة من الحديد وصار المملوك واهل البلاد ياكلون على مائدة واحدة وزهدوا في المآكل والمشرب وكانوا لا يتجادون الا في الاشياء المفيدة النافعة مع بعض نكات دقيقة وملح ادبية للتسلية وبراعون في ذلك الادب لتهديب الاخلاق ايضاً ثم ينتقلون للمخاطبات الجدية وللتريصات العسكرية والحركات البدنية والالعاب التي تقوي ابدانهم وتجلب لهم الفخار وكانوا ممنوعين من العلوم الدنيوية ومن الصنائع المزخرفة وانما يميلون الى الشعر لكونه يهيج النفوس ويزيدها شجاعة وحماسة

وكان من اعظم الاسباب التي نشأ عنها تحول الرجال وكبراء الابطال فيهم احكام تربية الاطفال فانهم كانوا يربونهم على طرف الجمهورية وكانوا يعودونهم على الشجاعة والقوة وكانت المرضعات لا تجعلن لهم قماطاً ويعودونهم على عدم الخوف من ظلام الليل وعلى عدم التشكي الا للحاجة لازمة ومتى بلغ الطفل ٧ سنين سلوه الى المعلم ليعلمه الاشغال والتجارب على المشاق والتعب

والاسراع بالطاعة وكان المعلمون يسوون بين الاولاد في الثعالم بالمكاتب العمومية بلا تمييز لاحد في تعليم شيء وتقديمه على اخر بل يعلمون الكل مع بعضهم بطريقة واحدة وكانوا يجعلون كل من ظهرت نجابته في التعلم حاكماً على من عداه ممن لم تظهر له نجابة وكانوا يحضرون اولادهم معهم على المواعيد العمومية ليغتنموا فائدة تلك المجالس ويسالونهم عن الاشياء المهمة ويطلبون رايهم ويحاملونهم على سرعة المجاوبة مع الاختصار والبلاغة. وانما كانوا يأمرونهم باختلاس مؤونتهم ويعاقبون من يطالع عليه في هذا الامر ليعلموهم على التحيل والمكابدة الحربية وعلى شدة النيقظ والاحتراس واقترام الاخطار وليس في ذلك شيء من رائحة السرقة لوجود الاذن المسوغ له شرعاً في احكامهم وكانوا اذا راوا في اولادهم من هو زمن لا ينفع في الخدم المعتادة قتلوه وكانوا يضربون الاصحاء منهم بالقضبان ضرباً مبرحاً ربما افضى بهم الى الموت عند هيكل ديانة (احدي الهتهم) ليعودوهم على تحمل الآلام وبذلك وامثاله من العوائد الخشنية يستدل على انهم كانوا لا يعرفون في امورهم الرفق الدال على الحكمة والعقل

واول ما أسسه لكورغة في شرائعه هو تشجيع اهالي اسبرطة ونصيبرهم محاربيين لا ينغلبون فكانوا دائماً مستعدين للحرب كانهم في معسكر وكانوا يقدمون على الحرب فرحين مستبشرين وكان يعلمهم ان الحرب لا يقصد به الا الذب عن النفس فلا يؤخذ من قتيل سلبه وان لا يتخذوا سفناً بحرية تخافة ان يجرم ذلك للاسفار البعيدة والفتوحات وكانوا يكسبون اصنامهم ولا سيما صنم الزهرة بالزرديات تشجيعاً لانفسهم لانهم اذا راوا الهتهم مكسوة باثواب الحرب حصل لهم من ذلك حماسة واشتاقوا اليها واذا قدموا لذك الالهة هدايا او قرابين قدموا ما قيمته قليلة خوفاً من التبذير وكانت صلواتهم قليلة ولا يهتمون بشأن الجنائز دليلاً على عدم انزعاجهم من الموت وكانوا يتنازرون عن غيرهم بحب الفخار والوطن والشجاعة والانتباه للشرائع الى ان صاروا بذلك محترمين عند من جاورهم ومحكمين في فصل الخصومات بسائر بلاد اليونان وبلغ من خصالم

المدوحة ان رجلاً منهم يسمى بداريطس كان صاحب معارف ومع ذلك ابوا ان يجعلوه من اهل مشورتهم التي كانت تحنوي على ٣٠٠ نفر فلم يثروا من ذلك بل اظهر الفرح قائلاً بمعنى لي الفرح والشكر حيث ان سبارطة وجدت لها ٣٠٠ رجل خيراً مني

ونظم ايضاً لكورغة النساء في سالك تربيتي حيث لمن اليد العليا على قلوب الرجال فاكتسبن من التعليم فضائل الرجال وصحة الابدان واورثن ذلك لاولادهن حيث اوجب عليهن معاناة الرياضات الشاقة وكانت البنات ايضاً مستمرات على اللعب والمصارعة ولذلك حصل من النساء عندهم عجائب مدة طويلة واحترمن الرجال حتى ان احدهن قالت لابنها وكان قد جرح جرحاً بايقاً صار به اعرج يا بني لا بأس عليك بذلك فانك لم تسر بعد الان خطوة الا وذكيرت شجاعتك وقالت اخرى لابنها وقد ناولته ترسه عند ما كان ذاهباً الى الحرب عداً ما به واما عليه تعني بذلك اغلب وارجع اليّ يا اومت كرماً فياتي بي بك قومك محمولاً عليه وعلى هذا المنوال تشيدت جمهورية اسبارطة وقويت جداً وتعاظمت واقفعت الرعب في قلوب جميع مالك اليونان التي امست تخاف سطوتها مدة ٥٠٠ سنة

الفصل الثالث

في كيفية سلوك اهالي اثينا

واما اهالي اثينا التي هي من الاقطار المجذبة وزال عنها الجذب بسبب نجابة اهلها حتى صارت معمورة فانهم كانوا يكثرون من زراعة شجر الزيتون ويؤمنون به لانه اصل رزقهم ويعتقدون انه هدية اهدتها لهم الحكمة الالهية ثم بعد ان

مكثوا مدةً منقسمين الى ١٢ قرية على ما ذكرنا في ما سبق وجاء زمن حرب
 تروادة الذية سببت الاشارة اليو جمعهم رجل يقال له تيزه وجعلهم جمهورية
 واحدة وكان كرسي مملكتهم اثينا وقسمهم الى ٣ مراتب الاولى اهل الشرف
 والثانية الفلاحون والثالثة اهل الحرف وكان حكمهم اولاً من نوع الملكي حتى
 زمان احد ملوكهم المسمى قودروس الذي كان معاصراً لساؤل ملك اسرائيل
 وفي ايام هذا الملك اعني بعد فتح طروادة بنحو ٨٠ سنة رجع الهيراكلدية وهم من
 نسل هرقل الى بلادهم المورة وكان قبل ذلك طردهم منها رجل يقال له
 اوربستي جداً اغاممنون الذي تقدم ذكره

ثم لما اتوا لمحاربة اثينا ايضاً استشاروا في هيكل ابولون الفال فانباهم انهم
 يفوزون بالغلبة على الاثينيين ان لم يقتل ملكهم قودوروس المذكور في الحرب
 واذ كانوا يرضخون لمثل هذه الاوهام احتسروا جداً من قتلها اما قودروس فلما
 علم بذلك تزيماً بلباس العامة ودخل بين صفوف الجنود الهيراكلدية وقتل في
 المعركة حباً بانقاذ وطنه ولما شعر الهيراكلدية بما فعل وراوا جثته مجندلة على
 الثرى بين صفوفهم يتسوا من الغاية وانقلبوا راجعين وكان ذلك في سنة ١٠٨٢
 ق م اما الاثينيون فلم يجوبوا ان يولوا بعد قودوروس المذكور ملكاً عليهم بل
 جعلوا جوبيتيراهم ملكاً عليهم وقلدوا الحكم الى ٣٠٠ شخص من الاراكنة واول
 من تولى هذا المنصب كان ابن قودوروس وخلفه بنوه من بعده واستمر الحكم في
 يد ذريته نحو ٢١٢ سنة كان منصب الاراخنة فيها متوارثاً من الاب الى الابن
 واخيراً جعلوا للقاضي مدة ١٠ سنوات ثم جعلوها سنة واحدة ثم جعلوا الحكم الى
 ٦ منهم فقط وقسموا الحكم بينهم لتقل هيبتهم بعد ان كانوا جميعهم يشتركون في
 مهام الدولة لزعيمهم بانه متى كثرت المحكام قلت هيبة الحكومة وحيث لم تكن لهم
 وقتشئ شرائع اتفقوا رجلاً يقال له ادركون قيل انه كان رئيس الاراكنة
 المذكورين ليرتب لهم شرائع فرتب لهم شرائع بغاية التشديد حتى انه جعل
 الموت عقاباً لكل من ارتكب ذنباً ولذلك اهلتم هذه الشرائع المبنية على سفك

الدماء وطلب فقرأوهم الحكومة الديموقراطية واغنياوهم الارستوقراطية ومعنى الديموقراطية الجمهورية التي يحكمها اهلها من غير ان يكون لهم ملك سواء كان ذلك بشورة منها او من اعيانها الموكلين عنها فان الحكومة التي يحكمها ملك يسمونها مونرشيكية واما الارستوقراطية فهي حكومة الاشراف والاعيان والاصل في هذا الاسم هو الجيد القوي وقد ذكرنا ذلك هنا تبعاً للاصل والآ في ذلك الوقت لم يكونوا عرفوا هذه القواعد بعد وانما حقيقة الامر هي ان اهل الجبال كانت تريد بان الرعية هي التي تتكلم في المصالح لان اهل المدينة ليس مثلهم في العدد واما اهل السهول فقالوا ينبغي ان توكل المصالح الى اهل الاعتبار واما البحر يون فقالوا ينبغي ان يكون الحكم من الاهالي واهل الاعتبار واخيراً استقر رأيهم على ان يطلبوا من رجل يقال له سولون وكان من ذرية ملكهم قدروس ان يرتب لهم شرائع وكان سولون فيلسوفاً معاصراً الى تاليس الملبطي الذي هو اول فلاسفتهم حسبما يتضح ذلك من مراجعة الفصل الاول من المقالة الاولى من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف وكان مولده في الاولبياد الخامس والثلاثين اي نحو سنة ٦٤٠ ق م بمدينة اثينا وتوفي وعمره ٧٨ سنة وكان ذا عقل عظيم وقوة عظيمة مع صدق وثبات وكان شاعراً ماهراً وخطيباً فقيهاً بالقوانين شجاعاً في الحرب شديد الغيرة على حماية حرية وطنه وعدواً كبيراً للظلمة وقليل الاعناء في عاومراتب اهلهم ولم يكن يعتني بالبحث في الاسباب الطبيعية بل كان يصرف همه بالكلية في علم الاخلاق والسياسة وانه هذه الحكمة العظيمة وهي خير الامور اوسطها وكان صرف بعض زمان صباه في السفر الى بر مصر ليتعلم فيها قوانين الحكم وجميع ما يلزم للشرائع وعوائد البلاد وصادف رجوعه الى اثينا هذه الاحوال فوضع لاهلها الشرائع التي طلبوها منه على ما ذكرنا وكان ذلك في سنة ٥٩٤ ق م وكانت تلك الشرائع التي وضعها شرائع عادلة مناسبة لروح ذلك العصر واحوال البلاد وجعل السطة الاجرائية في جمعيه من الشعب لا يدخلها الا من كان قد اتى عليه ٣٠ سنة ذكرها

بعض المؤلفين فقال انه كان لاهل اثينا ديوان مشورة عمومية تذاكر في الامور المهمة حتى ان اعضاءها كانوا يقيمون الدعاوي على ديوان السنن الذي كان مركباً من ٤٠٠ شخص ثم تزايد بعد ذلك الى ٥٠٠ وقيل ٦٠٠ وكانت هذه المشورة تجتمع كل ٨ ايام مرة وكان كل من كان عمره ٥٠ سنة يبيد رايه فيها وربما كانت فصاحة واحد من هولاء الخطباء ارباب الفتن تغلب حكمة ارباب السنن ولذلك قال انخرسيس الاثقوثي الى سولون المقدم ذكره اني لا تعجب مما عندهم فان العقلاء لم يحق التشاور والمجانين هم الذين يحكمون . وكان انخرسيس المذكور معدوداً من الفلاسفة اليونانيين السبعة الكبار المذكورة اسماؤهم في المقالة الاولى من كتاب زبده الصحائف في اصول المعارف وهو ثاري الاصل واخو قدويداس ملك بلاد التتار اكن أمه يونانية جاء الى اثينا في الاولمبياد ٤٧ اعني سنة ٥٨٨ ق م وقتل بعد ان رجع الى بلده بدمية جزئية وكان فيلسوفاً محترماً بين الحكماء غايه الاحترام جامعاً بين اللغتين اي لغته الاصلية ولغة اليونان وكان فصيحاً ذا نشاط في كل شيء يعانیه ويتعلق به وكان سريعاً في خطبه مع الاختصار دقيقاً في الفاظه وعباراته بليغاً سريعاً في الكلام حتى كان اذا ما نثله احد في الطق يقال ان فلاناً يتكلم بعبارته ثنائرية وكانت بحسب نظم الاشعار ولذلك نظم جميع قوانين بلاد التتار وضم الى ذلك منظومة في علم الحرب وهو الذي اخترع طريقة عمل اواني الفخار بالدولاب وكان سبب قدومه الى بلاد اليونان لكي يتعلم اللغة والاخلاق وعوائد البلاد فلما رجع الى بلاده قتله اخوه لكونه اراد ان يعمل عبداً لام الآلهة كما تعمل اليونان ثم ان سولون جدد ايضاً محكمة اربوس باغوس وجعل اربابها من قدماء الاراكنة وكان يقيد فيها الامور العامة وتعليم الاولاد لمعرفة ان بقاء هن المملكة يكون بتربيتهم وكان من قوانينه التي وضعها لم بان كل انسان ثبت عليه انه لم يشتغل بحرفة ولا صنعة وانهم بذلك ٣ مرات فانه يفضح على رؤوس الاشهاد وكذلك من يذر في امواله ويحرم ابويه من القوت الا اذا كان لم يعلمه صنعة

واما الوالد اذا نجل بالانفاق على ولده فلا يعاقب وانه لا يجب ان تجهز
 المرأة الى زوجها باكثر من ٢ اثواب وامتعة قليلة الثمن وان كل من اجتمع
 بالنساء الزواني لا يكون من ارباب مشورة الوعظ وان كل من سكر من ارباب
 المشورة يعاقب بالنقل وقسم الشعب الى ٤ رتب بحسب وجاهتهم وغناهم
 وانتخب ارباب الوظائف من الثلث الرتب الاولى واما الرتبة الرابعة فهي عامة
 الشعب وكانوا يمنعون من حبس المديون ومن لم يكن له ذرية فله ان يوصي
 بجميع ماله ومن مات في الحرب وله ذرية فتريبة ذريته تكون على الجمهورية
 واذا حصلت بينهم فتنة عظيمة كانت جميع الاهالي مامورين باشهار السلاح
 وحماء لاختاد نار الفتنة ثم انهم ضيقوا المصاريف التي كانوا يعطونها لنسائهم في
 ذهابهم للجوائز والاحتفالات الدينية وكانوا يقبلون جميع الغربا غير انهم
 لا يكفونهم من الحكومة وفي القانون المسي استراسيه ان كل من اتهم بنفوذ
 الكلمة والشوكة وانحط عليه راي ٦٠٠ الف من الاهالي فانه ينفى ١٠ سنوات
 واما السارق فجزاؤه القتل واهتم سولون ايضا بتوسيع دائرة المتجر وترقية
 اسباب المعامل والصنائع والفنون وتكثيرها والزم كل انسان ان يباشر عملا ما
 من الاعمال لتحصيل ضروريات المعيشة على ما ذكرنا وحرص الناس على
 العفة وطهارة السيرة والاقلاع عن استعمال الكلام المخلق في الاداب او غير
 اللائق ومن خالف ذلك عوقب اشد العقاب

وبعد ان مهد هذا الرجل العظيم الامور واشهر شرائعها واخرجها من حيز
 القوة الى الفعل على ما ذكرنا قصد السياحة خارج بلاده فسافر واتى منازل
 اليونان في اسيا الصغرى ثم ايدى التي كانت ملكها كريسوس المشهور بالغنى
 واختلفت الاقوال بعد رجوعه الى بلاده فمنهم من قال ان اهل اثينا ارادوا
 ان يصيروه ملكا فلم يقبل ومنهم من قال انه وجد جميع ما كان نظمه ورتبه قد
 فقد نظامه ورأى عوضه فتنا قائمة لم يستطع اخذ نارها وذلك لان رجلا
 يدعى بيزستراتوس كان قد اخنلس الحكم من الراكنة فبذل سواون جهده

عينا لتخليص بلاده من يد هذا المقتصب ولم ينجح وخلاصة الامر تولى الملكة
 بيزتراتوس المذكور في سنة ٥٨٠ ق م اما سولون فيبعد موتو رسم الاثينيون
 صورته من نحاس اصفر وجعلوه ماسكا كتاب القانون الذهبي الفه بيده وعليه
 ثياب مثل ثياب امير الرعية واما اهل مدينة سلاتينا فصوروه مثل خطيب
 يتكلم ويامر وينهى العالم ويدها موضوعتان في طي ثيابه واما بيزتراتوس
 المذكور فنجح باستمالة الشعب اليه وبعامته اهل اثينا باللطاف والاحسان ثم عين
 سكان القرى لزراعة الارض ليتباعوا عن الخاصات والتعصبات لئلا كان
 عند اهل اثينا المذكورين من الطيش والخفة فكانوا اذا وجدوا شخصا منهم
 صاحب معارف وفضائل حماهم الغيرة منه على نفيه ثم بعد ذلك يشتمون اليه
 فيردونه ويعطون له منصبا او وظيفة ثم بعد قليل يرجعون لئلا كانوا عليه
 فيعاملونه بالظلم وينفونه فلما عين بيزتراتوس سكان القرى لزراعة الارض كما
 ذكرنا احيوا موات الاراضي وكان الفلاح منهم يدفع العشر الى بيت المال
 وسهل عليهم هذا الامر بما حصلوا عليه من الراحة وحل اهالي الملكة على الرغبة
 والميل للعلوم والفنون ورتب لهم خزانة كتب وكان يحيط به اشهر حكاء ذلك
 العصر وكان بلاطة كدرسة للعلماء وهو اول من اعنى بجمع اشعار او ميروس
 كما سبقت الاشارة الى ذلك وامرهم ان يتعلموها واقام لهم نبينا عظيما في المدينة

الفصل الرابع

في خلاصة ما اشتهر به الفريقان من الحرف والصنائع والفنون
 والآداب واسباب ذلك

ثم لما وقعت اخيرا بعض اسباب سياسية اوجبت الخصام بين اهل

سبارطة واهل اثينا وتمكنت العداوة بين الفريقين شرع كل من جمهورية اثينا وجمهورية اسبارطة في اكتساب الشهرة العجيبة مخافة ان يفوق بعضهم بعضاً فيها مع كون ان كلاً منهما يخالف الاخر في الطباع والاداب بحيث لا يمكن تصادقهما في الالفة والاجتماع ومن ثم حصلت من كل منهما اشياء عجيبة وامور غريبة فكان من شان اهالي سبارطة ان لا يهتموا بشيء سوى الحرب ولا يشتغلوا في مدينتهم الا بصنائع الاسلحة العامة وكانوا فقراء الحال بخلاف اهالي اثينا فانهم كانوا يشتغلون في مدينتهم بالصنائع والحرف ومواعين باكتساب المعارف حتى صاروا اغنيا وكانوا يحبون الفخر والوطن واذا احتاجت الجمهورية للحرب تركوا اشغالهم وصاروا كلهم عساكر وكانت عقولهم كاملة بقدر ما فيهم من الشجاعة وما زالت هذه الاوصاف في هاتين الجمهوريتين حتى اشتهرتا ببلاد اليونان وشاع ذكرها ولو اتفقنا على العمل بالقوانين لكنا اصلاً نافعاً للجميع العالم وانما كانت اهالي سبارطة هي التي نعمل بها دون اثينا وهما خلاصة ما قد اشتهرتا به من الحرف والصنائع والفنون والاداب على وجه الاجمال وهي

كان اليونانيون في مبادي امرهم وزمان توحشهم يكرهون الفلاحة والزراعة فلما اشتغلوا بالمعارف تعلموها حتى انه اعثنى بها الملوك والفلاسفة وكانت اهالي اثينا تزرع الزيتون خاصة لان اراضيهم لا تقبل زراعة غيره وياخذون الحبوب التي يقنانون بها من قبائلهم

ثم عرفوا ايضا بان التجارة ربما اغمت عن الزراعة اذا وقع تبادل جيد فلذلك نص اغزنيفون المورخ اليوناني في هذا الباب على هذه الحرفة في بعض مؤلفاته السياسية قائلاً انه ينبغي معاملة ارباب التجارة باللين والرفق ودفع الاثمان لهم قبل المبيع واعطاهم سفناً يجعلون فيها عروض التجارة اذا علمت امانتهم سواء كانوا من اهالي الوطن او غربا اجانب ومن المعلوم انه كلما زادت اموال احاد الناس كثرت اموال الملائكة فصارت بلاد قورنثية وسبراقوسة عامرة بسبب التجارة

ثم لما تولى مملكة اثينا بيركليس الخطيب اليوناني تلميذ انكسفوراس
 الفيلسوف في سنة ٤٨٦ ق م وكان ذا فصاحة وقرابة بحيث لم يكن احد من
 معاصريه مساوياً له حل اليونانيين على الاشتغال بالمحرف المهمة والصنائع
 العظيمة فاشتغلوا بها مدة ٢٠٠ سنة كانت عمارات اليونان فيها على ٢ انواع نوع
 ينسب الى دريد والثاني الى ايونيا والثالث الى قورنثية ولم تنزل هذه الانواع
 موجودة بصفتهما لم تتغير وكانوا كلما حسنوا ابنيتهم وزادوا في انقان البناء اشبهوا
 الاقدمين في عدم التزين وقد نص بعض قوانين افسس المشهورة في الكتب
 العربية بمدينة اهل الكهف^(١) على منع الاسراف في بناء الميادين العامة وترك
 المغالاة في ذلك وانه ينبغي ان المهندس يعين مقدار ما يلزم صرفه من الاموال
 في العارة التي يريدون انشاها وبرهن امواله على ذلك فان لم يزد ما صرف
 فيها على ما عينه انعموا عليه باعطاء جائزة وان زاد مقدار الربح دفعوه فاذا
 كثرت الزيادة عن ذلك اخذوا الزائد من اموالهم وفي هذه المدينة التي لم يبق
 منها للآن الا بعض اثار بني اليونانيين سكان اسيا الصغرى هيكل ديانة
 وتسمى ايضاً ارطاميس وهي الالهة التي كان يعبدها اهالي البلاد وهو معدود
 من عجائب الدنيا السبع طوله ٤٥٠ قدماً وعرضه ٢٠٠ قدم وكان مشتملاً على
 ١٢٦ عموداً ارتفاع الواحد ٧٠ قدماً واشتركوا في ما انفقوه عليه واهدوه لهذه
 الصنعة ثم بعد ان استمر ٢٢٠ سنة عامراً أُحرق يوم ولادة الاسكندر المكدوني
 فزعم الافسسيون ان النار لم تتمكن من احراقه الا لكون ديانة المذكورة كانت

(١) سميت مدينة افسس بهذا الاسم في الكتب العربية لان اهل الكهف عند المسلمين
 هم الغنية السبعة المشهورون عند بعض طوائف النصارى بهذه الاسماء وهي مكسيبيليانوس
 وبمفيلس ومرتينيانوس ودونيوس وانطونيوس واكسكوستديانوس وقسطنطينس
 ويعتقدون انهم رقدوا في مغارة من هذه المدينة على عهد داكوس الملك سنة ٢٥٠ ب م
 فناموا ١٨٤ سنة الى ان تملك الفيصر ثاودوسوس الصغير فاستيقظوا ثم خامرهم النعاس
 ثانية فناموا سنة ٤٢٤ ب م واما عند المسلمين فاسماؤهم يهينجا مكشيلينا مثلينا وبرنوش
 شارنوش مرتولش طفشيطوططير ومدة نومهم كانت ٢٠٠ سنة شمسية

مشغولة في ذلك اليوم بولادة اوليباس ام الاسكندر والذي احرقه رجل يقال
له ارسترات كان حامل الذكر فاراد ان يجعل له شهرة بحرقه ولذلك نهى
اهل افسس من ان ينطق احد باسمه جزاء له وعقابا لكن ضرب المثل عندهم
بقوله ان الاحق الذي لا يقدر على اصطناع قفص حفير قدر على خراب
هيكل عظيم ولم يبق من هذا الهيكل للآن الا بعض القناطر التي كانت مبنيا
عليها ولم تنزل اصحاب السياحة يبحثون عن اثاره في محله مع ان هذه المدينة
كانت عامرة في الزمن القديم بالعلوم والفنون وغاصة بالاهل والسكان حتى
وفي مبادي القرن الاول للتاريخ المسيحي وفيها كانت واقعة بولس الرسول مع
ديتريوس الصائغ واهل حرفته المذكورة في اعمال الرسل (ص ١٩: ٢٤-٤١)
وكانت اصنام اليونانيين على هيئة اصنام المصريين ابيادها ملصقة
باجسامها وكذلك اخذاها وارجلها ملصقة ببعضها غير متحركة ولا مالوفة
لعدم اتقانها واتقانها الى ان ظهر رجل يقال له فدياس فبالغ في اتقانها وحسن
صنعها على حسب علومه ومعارفه وكان هذا الرجل صور صنفا يوضع على
عمود فضاهاه رجل مخاصم له يقال له الكامين وصور صنفا مثله فنظر الناس
لكل منها فوجدوا صنم فدياس قبيح المنظر وصنم الكامين بالعكس فعرف
فدياس علة ذلك وهي عدم وضع الصنم في محله فامرهم ان يجعلوه في الموضع
الذي عينه له فلما وضعوه في محله وجدوا الامر بخلاف ما نظروه قبلا واقروا
بالخطا في ما كانوا اعتقدوه ثم اشتهر غيره من الذين يصنعون الاوثان منهم
ميرون ولينيب وابركستيل وشاع ذكرهم بحسن صناعتهم ومن جملة ما اتفق
لاحدهم ابركستيل المذكور ومدح عليه هوانه صور صنين على صورة الزهرة ثم
اعطاها لاهل بلاد كوس ليخاروا منها واحدا فاخاروا واحدا لا يعادل
الاخر في الحسن وذلك لان الذي لم يخاروه كان مستورا ببراقع واما الذي
اخاروه فكان مكشوقا مع انه لم يكن عند اليونانيين وقتئذ من الالوان الا
اربعة فقط ثم اشتهر ايضا في هذه الصناعة بولينبوت وابولدوز وزكسيس

ويرهسبوز وتيمنت وايل وبرنجين وغيرهم
 وكان اهم ما عند اليونانيين من الاشياء العظيمة العزف بالآلات الموسيقية
 فكان اكثر تعلقهم واهتمامهم به وكانت الحانهم واغانيتهم ظريفة ونشأ عن ذلك
 رقة مزاجهم وحسن طباعهم وتجاهلهم اقتحام المهالك في القتال وكانوا يدخلون
 منها في تربية الاطفال ما هو ضروري لكن كانت قوانين اهل سبارطة تمنع
 الاختراع والمريادة فيها والظاهر ان الموسيقى لم يكمل حسنها وظرافتها الا في
 زمن المتأخرين .

وكانوا في زمن اوميروس يجهلون العلوم الحربية والقوانين العسكرية فلما
 جربوا امور القتال اشتغلوا بالعلوم المتعلقة بالحروب حتى تعلموها وتهوروا فيها
 فصاروا ينصبون عراضهم على وجه عظيم ويرتبون العساكر ترتيباً حسناً ومن
 اطلع على تاريخ محاصرتهم سراقوسة وصور عرف مقدار درجتهم في ذلك وكان
 اكثر عساكرهم مشاة وخيالهم يركبون من غير ركابات وسروج وكانوا يقاتلون
 في المركبات ايضاً ثم تركوها لعدم نفعها وكانوا اذا نزلوا للقتال تلبس اهلها
 سبارطة ثياباً حمراً الوانها كلون الدم لئلا يظهر من جرح منهم وكانوا ينعمون
 على شجيمان عساكرهم ويعاقبون الجبان وكان من قوانينهم ان كل واحد من
 الاهالي عليه ان يحمل السلاح ما لم يبلغ عمره ٦٠ سنة

وكانوا يوصفون بالاداب العظيمة كالذوق السليم وقوة الادراك واتساع
 اللغة وحسنها بحيث تالفها الاسماع ولا تنجحها فسادوا بعلومهم الادبية على من سواهم
 من الامم وصاروا قدوة لغيرهم في المعارف وكانت لغتهم لا نظير لها في الفصاحة
 والحسن في كل شيء ولا سيما في زمن اوميروس فكانت جامعة اللطف
 والظرافة والحماسة والقوة ولذلك استدل بعض المتأخرين على ان هذه الاوصاف
 الجميلة والحاسن العظيمة كانت موجودة قبل اوميروس ناشية من كتب مولفة
 في عاوم الادب لانه لا يمكن استنباطها وانتشارها الا من الكتب المولفة في تلك
 العلوم وقال اخرون غير ذلك وعد بعض الوعاظ من المسيحيين من جملة

اسباب تاخير عبي المسبح الى العالم مدة هذا مقدارها من بدء الخبايعة الى الزمن الذي جاء به استكمال لغة اليونان هذه الصفات التي ذكرناها لتقدير ان تقوم بخدمة بشرى الانجيل الذي لم تكن في تلك الاعصر ارفة تقدر ان تقوم بتبليغ مقاصده نظيرها

وكان لم اعننا عظيم في الشعر حتى ان الخشنيين منهم كانوا يشعرون وكانوا يميلون بالطبع الى جعل حظوظهم واغانيتهم متعلقة بالالهة التي يعبدونها وبالشجعان الذين يدحونهم وبالوقائع التي يعانون حفظها وقصيدة اوميلوس المسماة الياذة حث فيها اليونانيين على ترك الفتن بينهم وعلى الشجاعة والحماسة ولم يتعرض فيها لذكر الفضائل ومكارم الاخلاق لفانها في ذلك الوقت وقصائد هذا الشاعر هي التي نشأ على منوالها القصائد الحزنية وكان من عاداتهم ان يلعبوا في الميادين العامة العاباً مسلية يحكون فيها السير والنقص والوقائع فلما كانت قصائد اشيلس المعاصر للملك اكرسيس الذي تولى مملكة فارس سنة ٤٨٥ ق م نشأ عن انشادها والاطلاع عليها بعض الظلم اخترع شاعر اخر يقال له اسقلوس ابداع منها وكان في زمن هذا الشاعر شاعر آخر يسمى اوربيدس فنظم القصائد الحزنية المقدم ذكرها التي كانت توثر في القلوب لهما فيها من النكات الادبية وكان في عصر الحكيم سولون اخترع شاعر يقال له طسيبس فن القصائد الاعابية المسماة درماتيقية وهذه القصائد كانت هزليات قبيحة ولم يكن لها فائدة الا التهيئة لطرق العفل وتحسين القرينة ثم بعد ان كانوا معنادين على مواظبة اشعار الحزنية استحسنوا تلك الاشعار المشتملة على السخرية والمجون الفاقدة للحميا التي نظمها الشاعر ارسطوفان ولا يعلم كيف كانوا يرخصون له في العتابهم الاستهزاء بالالوهية وارباب الدولة والمحكام واصحاب سقراط احد الفلاسفة ومن خلل هذه الالعاب انهم كانوا يوذون الناس بها بالمبالغة في ذمهم وهجوم ثم في زمن حكم الثلاثين ظالماً الذين حكموا سنة ٦٢٤ ق م وكانت مدتهم نحو ٢ سنوات ازبلت تلك الالعاب القديمة وحدثت العاب مشتملة على

في الالفاظ ولم يكن لهم مذاهب مضادة لبعضها ولم يضلوا في الاراء الخرافية
 والمذاهب الهدرية كما حصل اخيراً منذ ظهر تاليس المليطي الذي كان معاصراً
 للحكيم سولون الذي مر ذكره حيث انهم صاروا يتعقلون ويبرهنون على اصل
 العالم ومبدئيه وعلى العلة الاولى وعلى جميع الاشياء التي يعسر على العقل معرفتها.
 يحكى ان تاليس المذكور كان ذات يوم يبرصد النجوم فوقع في هوة فقالت له
 عجوز كيف تعرف السماء مع انك لا تنظر ما تحت رجلك قال بعض المؤلفين
 في الواقع ان سير النجوم وان امكنت معرفته الا ان كلام هذه المرأة معقول لان
 معناه انه لا ينبغي للانسان ان يتأمل في ما هو فوق طاقته ومعرفته وكان
 مولد هذا الفيلسوف سنة ٦٤٠ ق م وهو اول الفلاسفة الذين اخذوا في التعقل
 والبرهنة على ما اشرنا وكان رئيس القسم الاول منهم المعروف باليوناني ومن
 اشهر تعاليمه ان الماء هو اول الكائنات وعنه وجدت سائر الصور والمواد وان
 الله اوجد كل شيء من الماء وهو راي قديم ذهب اليه قدماء المصريين وعندهم
 اخذه هذا الفيلسوف لانه تعلم في مصر وهو ما زال مقبولاً ومعولاً عليه عند
 كثيرين من علماء هذا العصر ثم اخترع نظم الاشعار المسدسة وهو اول من
 اخبر عن كسوفات الشمس والقمر قبل وقوعها واظهر الكهرومائية بالحك وعرف
 طريقة مقياس ارتفاع الاهرام والقلاع ونحوها من ظلها الجنوبي حين تكون
 الشمس في زمن الاعتدال وهو الذي قال ان السنة ٣٦٥ يوماً ورتب قواعد
 الفصول وحدد الشهور ورصد الدب الاصغراي بنات نعش . والثاني
 فيثاغورس رئيس القسم الثاني المسمى بالايطالياني وكان ظهوره سنة ٥٢٦ ق م
 وهو اول من تلقب بالفيلسوف وكان يعتقد تناسخ الارواح واول من علم عن
 استدارة الارض وقال بوجود المتقاطبات ووضع جدول الضرب للارقام
 الحسابية واخترع اصول الاحمان والانغام ومن تلامذته ارخيتاس او اركيتاس
 تاريتينيوس الذي اخترع البكرة والبرمة فكان بذلك هو المؤسس الاول
 للعلم الطبيعي الميكانيكي ومن ثم تشعب هذان الفساف الى فرق متعددة

يضاد بعضها بعضاً كالفرقة السقراطية التي كان رئيسها سقراط ومن
تعاليمها المعقولات ووحداية الله والفرقة الفيروانية التي وضعها ارستيب
تلميذ سقراط وزعمت بانه لا يوجد فرق اصلاً بين الخير والشر وحصرت سعادة
الانسان في اللذات الزمنية فقط والفرقة الاشراقية التي وضعها افلاطون الذي
يقال انه عثر على كتب موسى الذي واخذ عنها اشياء كثيرة اضافها الى فلسفته
وقد سماه قيفرون بالفيلسوف الالهي ويصح ان يقال عنه ما قاله بولس الرسول
بانه كان من الذين لما عرفوا الله لم يعبدوه او يشكروه كما (رومية ص ٢١:١)
ومن تلامذته ارستطاليس رئيس جمعية المشائين الذي اشتهرت تعاليمه جداً
واعندتها العرب وتشبهت بها افلاطون واما زمانا طويلاً وما زالوا يعولون على بعضها
الى الان وهو اول من شرع بتشريح الحيوانات لمعرفة طبائعها وخصوصياتها
وكان ذلك بامر الاسكندر المكدوني ونفقت والفرقة الكلية التي اسسها
اتيشينيوس ودوجينس اللذان رفضا العلم كانه شيء لا نفع فيه وابتعدا عن
معاشرة الناس ولما هم والجمعية الرواقية التي وضعها زينون الذي كان يعلم بان
سعادة الانسان تقوم في الفضيلة وحدها . والفرقة الهيرقليسية التي كان رئيسها
هيرقليطس الافسسي الذي كان رجلاً متكبراً يحقر الناس ويعيش في الجبال
والفرقة الالياتيكية المنسوبة الى اليا او فيليبا الابطالياني الذي زعم بان العالم
ازلي ولا يمكن ان يكون من العدم ومهد بذلك الطريق الى سبه نوسا الذي
انكر الالهية والفرقة البيرونية التي انهم بيروني منكر الحقيقة والفرقة الابيقورية
التي كان رئيسها ابيقور الذي من قواعد تعاليمه انكار عناية الله وخلود النفس
ووجود الارواح وانه يلزم رفض كل شيء غير التمتع باللذات وافراح الدنيا
وخلاصة الارواح الفاسدة صارت اخيراً منبعاً للاوهام الباطلة والجذليات
الخطرة واهمال حقيقة الاداب والاعظ وقواعدها واصولها وعلى هذه الصورة
اخذها الرومانيون عن اليونانيين حتى ان كثيراً من تلك القواعد الفاسدة
كانت سرت الى العبرانيين ايضاً ومن اراد الاتساع بمعرفة تفاصيل ما ذكرناه

بأكثر ايضاحٍ فعليه بمراجعة المقالة الاولى من كتاب زبدة الصحائف في اصول
المعارف

وقد اشتغل اليونانيون بعلم الفلك والجغرافيا والهندسة ونجحت امالم في
هذا الفن الاخير كل النجاح وذكر صاحب تذكرة الحكم اقليدس الصورى
صاحب الهندسة بجملة فلاسفة اليونان على ان لقبه يدل على انه كان من
الفينيقيين وليس من اليونان وقال ابن خلدون المغربي ان اقليدس صاحب
كتاب الاصول في الهندسة كان نجاراً وكذلك ابولونيوس صاحب كتاب
المخروطات وميلاوس وغيرهم

ومن اليونانيين نشأ ايضاً علم الطب وكانوا يتداولونه لساناً لا كتابة حتى
ظهر بقراط فكتب عدة فصول فيه شرحها ابن القفّ وكان ظهوره سنة
٤٦٠ ق م قال بعض المؤلفين انه ينبغي ان يكون بقراط اول من اخترع
الطب الموسس على النظر في احوال المرضى والتجربيات وقد اخترع لذلك
المارستانات اعني بيوت الصحة وذكره صاحب تذكرة الحكم فقال انه كان
يسكن مدينة حمص من بلاد الشام وله تاليف في الطب ترجمت في عهد
المأمون الخليفة السابع من بني العباس الى اللغة العربية وبعده ظهر جالينوس
من برغامس وذلك في مبادي القرن الثاني للميلاد وله تاليف كثيرة ونصايف
جايمة فمرسها على ماروثة العرب يتجاوز المائة وظهر معه روفس وغيره فوسعوا
دائرة هذا الفن وكان من اعتقادهم فيه هو ان للاجرام السموية دخلاً في امراض
البشر وتأثيراً في اجسامهم ولذلك قال بقراط ان الطبيب الذي لا يعرف علم
النجوم لا يعتمد عليه لكونه ملزوماً ان يتحرى اصح الاوقات لاعطاء الدوا وكذا
قال جالينوس من بعده وكانا يزعمان ان بجران المريض ياتي في اليوم السابع
والرابع عشر والحادي والعشرين وهي الايام التي ينتقل فيها القمر من حال الى
حال بل جعلوا ايضاً جسم الانسان بمنزلة عالم صغير فتزلا القلب فيه بمنزلة
الشمس في الافلاك والدماع بمنزلة القمر وزعموا ان المشتري يتولى الرثة والمرنج

يتولى الكبد وزحل يتولى المرة والزهرة تتولى الكليتين وعطارده يتولى الات
الناسل والظاهر ان هذه الاوهام سرت اليهم من المصريين الذين اخذوا عنهم
كثيراً من معارفهم ومن انشغاهم ان اطباء اليونانيين كانوا كالفلاسفة ايضاً في
تشعبهم الى عدة مذاهب بعضها عدو لبعض واختلفهم في اصول العلوم ووصلهم
الى عمليات متناقضة فكان الانسان منهم يشتغل مدة حياته في الرد على غيره
وتأييد مذمبه ولذلك حتى ان يقال بانه نعم لا ينكر فضل هذه الامة اليونانية
على المتأخرين في كثير من انواع العلوم والفنون ولكن المتأخرون فاقوا عليها
في اغلب الامور بالطرق المستحسنه والاستكشافات النافعة

غير انه ما يستحق الاعتبار في فضائلها ايضاً هو شوكة معارفها التي لم تبرح
وقفت ساطية على دواة التبرير والجهل في حالتها قوة اسلمتها وضعفها لانها لما
تسلطت تحت راية الاسكندر المكدوني وتغلبت على كثير من الممالك في الارض
كافأت مصر على ما كان لها عابها من الابادي قديماً باعادة ما كان لها من
رونق العلوم وبهجة المعارف وقد كان ضاع منها ذلك مدة تسلط العجم عليها فانه
لما كان من عادة هذا الفاتح ان يعمر مدناً في المواقع الملايئة للتجارة في شطوط
الاقاليم التي يفتحها ويسميها باسمه بنى كذلك في اقليم مصر بعد ان انتزعه من
يد الفرس المذكورين مدينة على شاطي بحر الروم سماها اتمكدرية ثم لما خلفه
بعد موته على مملكة مصر بطليموس ستيبر احد قواد عساكره اعاد في هذه المدينة
ما كان اندرس في تلك البلاد من انواع العلوم والفنون بل زاد عليها اموراً
لم تكن تعرفها من قبل فتجددت شهرتها ثانية في زمنه وزادت رونقاً وبهجة في
زمن خلفائه من بعده وكذلك لما آل امر الامة اليونانية ان تدخل تحت حكم
اخوتها الرومانيين سنة ١٦٦ ق م نشرت لهم ايضاً علومها ومعارفها وما كانت
وقفت منصفة به من المتأخر التي هي اعظم ما كان متولعاً به اولئك القوم الذين
كانوا غير موصوفين الا بالفتوحات فقط نظراً لكمال عقولها ومعارفها وادابها
وتعليقها لم حقيقة الشعر ومحاسنه والبلاغة وعلم التاريخ والادب كما يشهد لها

بذلك تأليف الذين اخذوا هذه العلوم عنها واشتهروا بها من الرومانيين انفسهم
 كترانس وقيفرون وورجيل وهراس وغيرهم ولم تقتصر معهم في هذا الفعل
 الحسن على هذه المرة فقط بل امتدت بعواقبهم ومن خلفهم في ايطاليا وجاورهم
 في سائر بلاد اوربا مرة ثانية ايضاً وهي في حالة الجلاء والالتجاء اليهم لما هجر
 بعض علماءها مدينة القسطنطينية وقت ما افتتحها آل عثمان كما يعلم ذلك من
 التفصيلات الآتية في القرون الاخيرة فكان ذلك داعياً الى اكرامها وتعظيمها
 حيث كانت قدوة لغربنا في الشيم الجميلة والفضائل الجليلة

الخاتمة

ثم لازال اليونانيون تحت حكم الرومانيين من ذلك الزمان الذي اشرنا
 اليه الى سنة ٢٦٤ ب م عندما انقسمت المملكة الرومانية الى قيصريتين شرقية
 وغربية ومن ثم صارت بلادهم المسماة بهيلاس جزءاً من القيصرية الشرقية ولما
 افتتح آل عثمان المشار اليهم هذه القيصرية في سنة ١٤٥٢ ب م صارت كذلك
 جزءاً من المملكة العثمانية الى سنة ١٨٢١ ب م ثم اسقطت وتحرر جانب كبير منها
 انضم اليه في ما بعد الجزائر اليونانية السبع التي كانت باقية تحت تسلط او حامية
 الانكليز لحد سنة ١٨٦٨ ب م .

وكان اول من ترأس على هذه المملكة الجديدة رجل يقال له كابودواستريا
 قتل سنة ١٨٢١ فاتخبت دول اوربا العظام اي انكلترة وروسيا وفرنسا واثون
 ثاني اولاد ملك بافاريا ملكاً نودي باسمه رسمياً في ١٨ اب سنة ١٨٢٢ وفي
 سنة ١٨٢٥ نقل كرسي المملكة من نوبليا الى اثينا ومن هذا الوقت بيندي تاريخ
 هذه المدينة كمركز للتمدن الحديث في ذلك القسم

ولما استمرت هذه المملكة تحت سلطة الملك المشار اليه سلطة استبدادية لحد

سنة ١٨٤٢ ساء ذلك اهالي البلاد جداً لانهم كانوا يتوقعون حكومة ملكية مقيدة وحينئذ قام الجنرال كالجيس قائد العساكر المقيمة في اثينا بمواطاة الشعب واحاط ليلة ١٤ ايلول بقصر الملك وطلب اقامة جمعية نواب من الأمة لوضع دستور نظامات للبلاد فرضي الملك بذلك وترتبت وزارة جديدة وطلبت نواب الامة فجرى انتخابهم من احسن رجال البلاد وكان عدد هم ٢٢٥ عضواً وللحين شرعوا في الاعمال وقبيلت النظامات التي وضعوها في ١٦ اذار سنة ١٨٤٤ فكانت من اهم قواعد ما ضامته حقوق الاهالي السياسية والشخصية ومساواة جميع التبعة لدى الشريعة وحرية الاديان والمطبعة واقامة مدارس على نفقة الدولة وعدم انتهاك حرمة المراسلات وعدم سجن احد من دون محاكمة ونحويل الدعاوي الى محكمين يعرفون بالجورسي واستقلال القضاة في احكامهم ونفويض سن الشرائع الى الملك ومجلس نواب ينتخبه الشعب الى ٢ سنين ومجلس شيوخ (سنا) ينتخبهم الملك الى مدة حياتهم وينتخب ايضا الوزراء الا انهم يكونون خاضعين لنظامات البلاد اذا اخلوا بامورياتهم الى غير ذلك من النظامات التي لا محل هنا لذكرها وقد سلكت البلاد بحسب هذه النظامات من حين قبلتها الى الان غير انه بقيت هناك اسباب اخرى اوجبت اخيراً خلع او ثون الاول المشار اليه سنة ١٨٦٢م فتولى الملكة بعده جورج الاول ابن ملك الدانيمارك وبعد جلوسه ببرهة جزئية تزلت ملكة الانكليز عن الجزائر اليونانية السبع التي كانت تحت حكومتها وازافتها الى مملكة هذا الملك الجديد على ما سبقت الاشارة اليه

وكان عدد اهالي اثينا لحد الوقت الذي جلس فيه هذا الملك على التخت نحو ٢٠ الف نفس ومن ثم اخذت تتقدم في ايامه تقدماً بطيئاً في الثروة وعدد الاهالي الى ان صارت اهاليها في سنة ١٨٧١ (٤٨١٠٧) انفس وهي الآن قسبة مقاطعة اثينا وبيوتيا وعاصمة مملكة اليونان على ما تقدم وهي لاتزال آخذة في استرجاع ما فقدته من سمو المقام بين عواصم العالم اذ شرع الاغنياء

من الاهالي بينون في القسم الشرقي منها بيوتاً جميلة وتراهم حيثما توجهوا ينظرون اليها بعين الحب والاحترام كما صفة الامة اليونانية هذا علا ما بها من الابنية الفاخرة التي لا يوجد مثلها في غيرها وخاصة البقية الباقية من تلك الهياكل التي كانوا يبنونها لاصنامهم وهي ما يذهل الناظرين واما بيوتها العمومية الحالية فنما قصر الملك وهو ظريف ذو ثلاث طبقات موقعة بالقرب من جبل ليكاتبوس ومجاس النواب ومنازل العساكر والمرسح وبناء عظيم أُقيم لاجتماع اكاديمية الامة والمعروض الاثار والمدرسة السياسية ونحو ١٠٠ كنيسة بعضها من افخر الابنية واعظمها كنيسة القديس نيقوديموس بُنيت في القرون المتوسطة على نسق بيزنطي وفيها ايضاً شوارع كثيرة متسعة وساحات مرتبة نظيفة وما يدل على ذلك دكاكينها وقها وبيوتها ومنازل الغربا فيها وغير ذلك

وكانت هذه المملكة في الزمن القديم العلوم والفلسفة ومنها ظهرت الفلاسفة المشاهير الذين نشروا العلوم والمعارف في سائر اجزاء القارة على ما سبقت تفاصيله ولا زالت حتى الآن تحذو حذوا سلافها اذ انه ما من مدينة فعلت بقدر ما فعلته اثينا بعد ان اخذت حريتها فان فيها مدارس حسنة النظام ولها معلمون ماهرون لادارتها والتعليم فيها ومن جليلها مدرسة كبرى معتبرة تشتمل على ٤٢ معلماً و ٦٠٠ تلميذ قد حدث في نظامها حذو مدارس المانيا الكبرى وهي تعلم الطب والشرائع واللاهوت ولها مكتبة عظيمة تحتوي على ٢٠ الف مجلد من احسن المؤلفات وكان انشاء هذه المدرسة في سنة ١٨٢٦ م ولها ١١ مدرسة اعدادية ونحو ٧٠٠ مدرسة للعلوم من ذلك مدارس كثيرة لتعليم البنات كل ما يلزمهن من المعارف والصنائع

والمطابع حرّة في اثينا كمطابع انكلترة وامريكا يخرج منها سنوياً كتب شتى واللاهالي عموماً رغبة شديدة في العلوم والفنون وانفانها وترى اليونان في الخارج يفتخرون بمدارسهم ويرسلون اليها المساعدات والامدادات من كل الجهات فان احد اليونان الموسرين تبرّع بمبلغ نصف مليون من الفرنكات

لاقامة مدرسة عالية للصنائع والعلوم ورجلاً اخر من تساليا يُسمى بلانجيس تبرع كذلك بمبلغ ٣٠٠ الف فرنك للمدرسة الكبرى حتى ان مجلساً للسكاكين خلف ٦٠٠ درخه جمعها من صناعه فتبرع منها بمائة درخه لتلك المدرسة وفي وقت طبع هذا الكتاب قد نشرت الجرائد خبر وفاة يواكيم الثاني بطربك القسطنطينية وتبرعه بخلفائه القديية وقدرها ٣٠٠ الف ليرا عثمانية الى المدارس اليونانية في هذه المملكة ومن هنا تعلم رغبة هذه الامة ونذها الاموال في سبيل توسيع دائرة المدارس وتقوية المكتبة في بلادها حتى انها تزداد قوة سنة فسنة وقد اقيم في اثينا مدرسة للصنائع تؤذن بالنجاح واخذ اليونان في الالتفات الى الصنائع المستظرفة والمهارة فيها

واما في البلاد جميعاً نحو مايون ونصف تقريباً وهم مشهورون بمجال الصورة والواثيم في الغالب سمرنقية واعينهم سود كبيرة ولهم نباهة وذكاء وحدة في الطباع ومحبون الحروب والغنائم وكانوا في الزمن القديم يعبدون الاوثان التي منها صنم رودس المعداد بجملته عجائب الدنيا السبع وكان من نحاس قائماً فوق مينائها والسفن تمر من بين رجليه وقد سبق الكلام عليه في محله واما الان فانهم مسيحيون حسب مذهب كنيسة الروم الارثوذكسية ويوجد بينهم ٧٠ الفاً كاثوليك وقليل من الامون واليهود والحرية مباحة لكل الاديان والحكومة من نوع الملكي المقيد والتجارة المحايية في هذه البلاد ذات رواج ونشاط واما الخارجية فضيقة الدائرة وقليلة الاهمية ولذلك ترى التجار اليونانيين منتشرين في اكثر المدن الشهيرة بقصد التجارة التي لهم ولع عظيم وبراعة زائدة فيها

المعارف عند الرومانيين

وفيه مقدمة ومبحثان في كل منها عدة فصول

المقدمة

يقال ان ايطاليا عمرت سنة ١٩٠٤ قبل الميلاد وانها كانت تسمى قديماً ساتورينا ثم غلب عليها اسم ايطاليا نسبة الى ايطالوس احد ملوكها عندما الذين وفدوا اليها من اركاديا (قسم من المورة ببلاد اليونان) في الجيل الرابع عشر قبل الميلاد وقيل بل كانت اول ملوكها يُسمى بيكوس وانه حكمها سنة ١٢٤٩ ق م واذلك تسمى يونانية الكبرى ايضا لكون سكانها المشهورين قديماً باسم الكيتم هم فرقة من اليونانيين على ما ذكر قال ابن خلدون المغربي ان اليونانيين يتشعبون الى فرقتين احدها الاغريقيون الذين اخصوا اخيراً باسم يونانيين (وهم الذين كنا بصدد الكلام عليهم) والثانية لانيونيون الذين اخصوا كذلك اخيراً باسم رومانيين وقال ايضا ان يونان هو المذكور في التوراة باسم يافان او ياوان (والاخير اصح على ما تقدم في الكلام على اليونان) من ولد يافث (تكوين ص ١٠ : ١) فعربته العرب يونان وكان له ٣ اولاد احدهم اغريقيس ابوالاغريقيين وثانيهم رومي ابوالروم وثالثهم

لاتينوس^(١) ابو اللاتينيين (اي الرومانيين الذين نحن بصددهم) وفي بعض المولفات ان لاتينوس الاول اعني المذكور تولى المملكة سنة ١٢٢٦ ق م وهو اول ملوك هذه الامة ولا زالت ايطاليا تحت حكم ذريته الى ان بنى رومولوس مدينة رومية واتخذها كرسيا له ولذريته من بعده ومن ثم اتخذ اللاتينيون اسم رومانيين نسبة له او الى عاصمة مملكتهم التي نسمت باسمه

وكان رومولوس هذا على ما قيل شيخ جماعة من قطاع الطريق وكان له اخ يسمى روموس اوريموس ابنتيا على تلة هناك تسمى البلاتين على نهر تيبير تبعد عن البحر ١٦ ميلا بعض الكواخ واقاما حولها حائطا لمنع مهاجمات الاعداء وكان ذلك سنة ٧٥٢ ق م قيل ان ذلك الحائط كان واطيا حتى ان روموس اخا رومولوس احفره لوطوه وقال لاخيه يوما انظرن هذا السور سور مدينة فغضب رومولوس من كلامه وطعمه بحربة كانت في يده فاماته وكان ذلك اول دم سفك والتطخت به اسوار هذه المدينة واستقل هو وحده في تلك الاكواخ وكان قد اجتمع اليه وقتئذ نحو ٣٠٠ نفس ما هب ودب جعل نفسه كبيرا عليهم ولا زال يسارع في تكثير رعيته وبأوي اليه ارباب الشرور الذين ارتكبوا الذنوب في بلادهم ولم يكتمهم المكث بها وصاروا يهرعون اليه من كل جانب لاجل الحماية وهو يحمي كل من اتى اليه الى ان تجمع عنده نحو ٣ آلاف نفر بدون نساء

وكان من جملة القبائل الساكنة بلاد ايطاليا في ذلك الوقت قوم يقال لهم الصايون او السايون ساكنين في ولاية قريبة من ولايتهم فطلب من اهل هذه الولاية ان يزوجوا بناتهم برجال مملكتهم فابوا ذلك فاحتال عليهم بان صنع عيدا في بلده مشتة لآعلى العاب ودعاهم للفرجة والوليمة التي اعد لها فجاؤا

(١) يظن بعض العلماء من النصارى ان لاتينوس هذا هو المرموز عنه بالوحش الذي عدد حروف اسمه ٦٦٦ في سفر الرويا (ص ١٨:١٢) لانهم يحسبونه هكذا

L	α	τ	ε	ι	ν	ο	ς
٢٠	١	٢٠٠	٥	١٠	٥٠	٧٠	٢٠٠

٦٦٦ جملة ذلك

مع نساءهم وبناتهم ولما كانوا ملتهين في الفرجة والذات المآكل وقد اعجبهم براعة الرومانيين في الرقص واللعب اظهر رومولوس لاصحابه اشارة كان اتفق معهم عليها فسلوا سيوفهم وهجموا على ضيوفهم وقتلوا اكثرهم وبهذه الطريقة سلب بناتهم قهراً عنهم وزوجهن لجنوده فلما بلغ هذا الفعل القبيح سائر طوائف الصابيين غضبوا وانضم بعضهم الى بعض وجاءوا لمحاربة الرومانيين فالتقاهم رومولوس بجاعته لكن قبل ان انتشب القتال بين الفريقين دخلت النساء اللواتي اسرهن الرومانيون الى ساحة الحرب وفرقن بين الطرفين صائحات باعلى اصواتهن ارجعوا ولا تضروا بعضكم بعضاً فآية فرقة مكما اتصرت على الاخرى لانجاب علينا سوى الحزن والاسف لاننا بنات الفرقة الاولى ونساء الفرقة الثانية فائركلامهن في قلوب الفريقين وتصالحا بدون قتال

ومن ثم انتخب القوم رومولوس حاكماً عليهم فساهم احسن سياسة واخذ في تقوية ملكته بالتدابير المثقمة وتسليح العساكر وقسم جاعته النازين معه على ٢ قبائل وجعل كل قبيلة ١٠ التزامات وقسم الارض التي معه ٢ اقسام القسم الاول اوقفة على العبادة الدينية والثاني ابقاء لمصالح الملكة والثالث وزعه على اهالي الملكة فكانت حصة كل واحد منهم نحو فدانين طين لا غير ورتب لهم السنة ايضاً لكنه جعلها ٢٠٠ يوم فقط مقسمة على ١٠ شهور كل شهر ٢٠ يوماً ثم احدث مجلس مشورة مولفاً من قضاة ونواب وجعل ارباباً نحو ٢٠ شخص فكانت وظيفتهم تنظيم احوال البلاد وفض المشاكل وتنفيذ الاحكام والشاور في الامور ثم يعرضون ما يتشاورون فيه الى الرعية ليقوا اراءهم فيه او يحكمون بما يتنصيه نظرهم وجعل وظيفته هو نفسه رئاسة العسكر وقيادته ورتب مجالس مشورة للرعايا اما المشورة العظمى فكانت للدعوى والوقائع المهمة ورئاسة الدين ثم انه اذن لكل واحد من العامة ان يتخذ له مولى من ارباب المشورة ليحصل الاتحاد بين ارباب المشورة والرعية حيث نصبر الموالي من اهالي المشورة تحامي عن محسوبيهم من الرعية

واقترضت خشونتهم ان جعلوا اول احكامهم انه يجوز تطليق الزوجة اذا فعلت ذنباً ولو بنحو شرب الخمر من غير ان يجوز للمرأة ان تفترق من زوجها بابة علة كانت وثانيتها ان الأب هو مطلق التصرف بالنسبة الى اولاده فله ان يبيع ابنة الى ٣ مرات في اي سن كان وان يحكم بقتل ابنه. وان يتركه في الازقة اذا كان سبيء التركيب بشرط ان يستشير به اشخاص من جيرانه في امر الذكور واما البنات فلا يحتاج الى مشورة احد فيهن بمثل ذلك

وكانت ايطاليا في ذلك الزمان مثل بلاد اليونان في بدايتها القديمة منقسمة الى عدة ام وطوائف صغيرة واكثرهم اشبه بالوحوش ولا رابطة بينهم من انواع الائتناس والاتحاد ولا محبة فكانت رومية في حروب دائمة معهم وكان رومولوس في تلك المحروب منصوراً عليهم دائماً حتى مات وكانت مدة حكمه ٢٧ سنة وقد اختلفوا في موته فمنهم من زعم انه خطف بغتة الى السماء وقال آخرون انه كان قد صم على ان يجعل نفسه ملكاً مستقلاً فخلعه الشعب ومزقوه ارباً وهذا يوافق ما رواه بعضهم بانه مات قتيلاً في مشورة جهها سنة ٧١٥ ق م

وبعد موت رومولوس المذكور قام ملك ثاني على رومية يدعى توما فنيابيوس وكان رجلاً حازماً حكماً محباً للسلام فسّر شرائع عديدة حسنة وعلم رعاياه الزراعة وعدة صنائع نافعة وضم الى السنة التي كان رتبها سلطه رومولوس على ما ذكرنا في ما مر شهرين آخرين لابلاغها الى ٢٦٠ يوماً وكانت مدة تملكه ٤٣ سنة ويقال انه في مدة تملك احد خلفائه المسمى تركوين الثاني او المتكبر الذي تولى سنة ٥٥٣ ق م دخلت عليه امرأة في ذات يوم الى الديوان وفي يدها ٩ مجلدات من الكتب واعرضتها عليه للبيع وطلبت في ثمنها مبلغاً فاحشاً واذ كانت الكتب المذكورة مجهولة عنده استعظم ثمنها وامتنع عن مشتراها فرجعت المرأة بالكتب الى دارها واحرقت منها ٢ ثم قصدته في اليوم الثاني واعرضت عليه السنة الباقية بنفس الثمن الاول فامتنع ايضاً فتركته

ورجعت اليه في اليوم الثالث ومعها ٢ كتب فقط واعرضتها عليه بالثمن الاول فتناثر الملك ونجى من هذا الامر وصم على ان يشتري الكتب منها ليرى ما فيها واذا بالمرأة انفتحت بين يديه واخفت في الحال فاذا قل الملك وجميع الحاضرين من الاكابر والاعيان ثم فتحوا الكتب وطالعوها فوجدوها رسائل واشارات تتضمن على حكم ونبوات مولفة من بعض النساء (واعلم ان المعروفات بالسبيليات) فاحترمها الرومانيون غاية الاحترام واعتبروها كايا من منزلة وحفظوها في خزائنهم وكانوا يتلونونها بكل خشوع واعتبار كلما وقعوا في شدة او ضيق معتقد بن بانها تنبئهم بما يحدث في الازمنة المستقبلية

وخلاصة الكلام هي انه برومولوس المذكور وجاءه تولدت اخيراً ملكة عظيمة بعد ان حكمها اولاً خلفاؤه نحو ٢٢ سنة وطردها منها على عهد سيطوبرة التي هي اخر ملوكهم في سنة ٥٢٢ ق م ومن ثم صارت مشورة ديموقراطية الى ان نملك رومية بولبوس الذي صار قيصر ودعي اسمه اغسطوس سنة ٥١ ق م وجعلها دار قيصرية الرومانيين وكانت وقتئذ صارت اعظم بلاد الدنيا وزقت اعظم الممالك الكبيرة ثم اخيراً انقسمت الى قيصريتين شرقية وغربية بعد وفاة القيصر ثيودوسيوس الاكبر سنة ٢٩٥ م فصار قيصريتها ايمبراطرة القيصرية الغربية فقط الى ان طردهم منها البربر سنة ٤٩٥ م واستولى عليها الملوك الغوطيون ثم بعدهم الملوك اللونجباردبون الذين قرضهم كرلوس مانوس اعني الاكبر وهم انقضت منها الشوكة الملوكية غير انها بقيت حافظة استقلالها القديم بكونها صارت مركز شوكة الكنيسة اللاتينية تحت رياسة الباباوات الذين ابتدوا بممارسة الحكم الزمني منذ زمن البابا استفانوس الثاني سنة ٧٥٢ م ودام الحال على هذا المنوال الى ان استولى على رومية الملك فيكتور عمانوئيل وضماها الي مملكة ايطاليا وجعلها قسبة بلاده وذلك في سنة ١٨٧١ م

البحث الاول

في حالة العلوم والفنون منذ قيام المشيخة الرومانية الى انقسام المملكة
واستيلاء البربر على القيصرية الغربية في سنة ٤٦٥ م
وفيه ٧ فصول وخاتمة

الفصل الاول

في تقدمات الرومانيين منذ قيام المشورة الديموقراطية المذكورة ونسي
المشيخة ايضاً في سنة ٥٢٢ وقيل سنة ٥٠٩ م الى ان ظهر
الامبراطور اوغستوس قيصر الذي تولى الساطنة
سنة ٥١ م ونقل الحكومة من المشيخة الى
الحكومة الملكية

بعد ان طُرد خلفاء روم واولوس وذراريه من رومية على ما تقدم استلم زمام
الحكومة اثنان من النضاة وتلقب كل واحد منهما بلقب قنصل اي منفذ الاحكام
وكان الشعب ينتخبون هؤلاء القناصل في كل سنة واول من تعين له ان الوظيفة
رجالان يقال لاحدهما بروموس والثاني كولانيوس وكان بروموس عادلاً مهيباً
محباً للوطن حتى انه حكم بالموث على ابني الاثين بسبب جنائيه ارتكباها ولم
يشفق عليهما وكان سكان رومية يومئذ منقسمين الى حزبين الاول من

الاشراف والثاني من العامة وكان جميع ارباب المجلس العالمي واكثر الاكابر
والعد من القسم الاول وكان انتخاب الفناصل منوطاً بهم فقويت شوكتهم
وعظمة سطوتهم وصاروا اصحاب الحمل والربط فنشأ عن ذلك فن ومشاجرات
بين الطرفين الا انه مع كل ذلك انتظم حال الدولة مع تمادي الزمان وتعاضل
امرها وقويت شوكتها في الداخل والخارج وازداد عدد اهلها ونفقت في
زهوتها ورونتها الى ان دهمها جيش الغاليين سكان فرانس سنة ٢٨٩ ق م
وافتنحروها تحت قيادة الجنرال برنوس بعد ان دافعت عن نفسها مدة طويلة
لكن اخيراً فتك بهم كاملوس احد ابطال الرومانيين حتى انه لم يرجع منهم
احد الى بلاده ومن ثم اخذ الرومانيون في محاربة الدول والممالك الاجبية
فبرعوا في فن الحرب واستولوا على بلاد اليونانيين في سنة ١٦٦ ق م ودمروا
قرطاجنة التي كانت الداعية لهم في سنة ١٤٦ ق م على ما سبقت الاشارة اليه
في محلنا وبعد ان احرق قائدهم المدعو سيبيو مدينة قرطاجنة المذكورة ورجع
الى رومية بالغنائم والاموال البسوة عند وصوله اليها اكاليل الغلبة والانتصار
التي هي من اعظم جوائزهم وساروا به الى الكابيتول بهوكب عظيم بحسب العادة
الجارية عندهم في مثل ذلك وسوف تاتي تفاصيلها في الفصل التالي وما زالوا
يفتحون البلاد والممالك الى ان استولوا على اسبانيا ومملكة نوميديا المعروفة الان
بجزائر الغرب واخضعوا ولايات ايطاليا واتصروا على متريدانس ملك بنطس
في اسيا الصغرى بعد ان حاربوه ٤ سنة واخيراً ظهر في رومية قائدان احدهما
يدعى بومي والآخر بوليوس وكان بومي اكبر سناً واشهر لانه كان قد افتتح ١٥
مملكة واخذ ٨٠٠ مدينة اما بوليوس فلم يكن اقل شهرة وشجاعة منه فانه هو ايضاً
اثار حروباً كثيرة على فرانس وجرمانيا وبريتانيا ويقال بانه انتصر في حروبه
على ٢ ملايين من الناس وقتل نحو مليون منهم فجزت بين هذين القائدين
حروب سببها الحسد آل الامر فيها الى انتصار بوليوس وهرب بومي الى مصر
واخيراً قتل وجيء برأسه الى بوليوس المذكور فخن عليه ولم يرد ان يراه ولما بلغ

اعضاء المجلس الروماني هذا الانتصار قدموا تهاليل الفرح لاهتهم ومنحوا بوليوس
السلطة المطلقة فكان ذلك بداية نقل الحكومة الرومانية من المشيخة الى
الامبراطورية ويعتبره المورخون فصلاً ثالثاً به ينتهي القسم الاول من اقسام
التاريخ

الفصل الثاني

في ما حدث في زمن القياصرة الوثنيين اعني منذ تولية بوليوس قيصر
ونقل الحكومة الرومانية من المشيخة الى الامبراطورية الى ان
تنصر الملك قسطنطين الكبير ونقل الكرسي القيصري
من رومية الى القسطنطينية في سنة ٣٣٠ م

والا منح اعضاء المجلس الروماني السلطة المطلقة الى بوليوس قيصر المذكور
على ما اشرنا كان ذلك مقصوداً على مدة حياته فقط وانقبوه بتيصر وحكموا له
بالقداسة فصنعوا له تمثالاً واقاموه بين تماثيل الهتهم وابطالم في الكابيتول
بالقرب من تمثال جوبيتير وكتبوا عليه هذا تمثال قيصر نصف الاله ولما رأى
بوليوس ذاته في هذه الرفعة والمكانة عند الشعب لم يبق عليه ما كان يشتهر به الا
ان بسى نفسه ملكاً فوجه كل افكاره وقواه الى استمالة الناس وارضاء العساكر
بواسطة عمل الولايم والضيافات وانواع الافراح والملاذات التي كان يعلمها لهم
ومن ذلك وليمة دعي اليها الجيش الروماني جميعه فكانت مدوداً في اسواق
رومية ٢٢ الف مائدة مملوءة بالطعمة اللذيذة والمشروبات الفاخرة ولم يمنع احد
من الجلوس عليها والمناولة منها سواء كان غنياً او صعلوكاً فسروا جميعاً بذلك
ونسوا حرمتهم واقتنعوا بمشاهدته في هذه الولايم العمومية جالسا على عرش من
الذهب وعلى راسه اكليل مرصع بالجواهر النفيسة لكن اخيراً قتله رجل من

محيي الحرية يقال له بروتوس وقال لفيقرون الفيلسوف الروماني الشهير^(١) وكان احد ارباب المجلس ومحبا لوطنه تهمل وافرح يا ابا الوطن لان رومية قد تحررت الآن وكان ذلك في سنة ٤٤ ق م غير انه قبل موته نحو سنة كان احضر من الاسكندرية احد مشاهير الفلكيين يسمى صوصيجان واصلح حساب السنة الشمسية بزيادته فيها ٦ ساعات وكانوا يحسبونها قبل ذلك ٣٦٥ يوماً فقط فجعلها ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات ورنب لاجل هذه الزيادة ان تكون كل سنة رابعة كيبساً اعني ٤٦٦ يوماً ولشدة كبريائه وزيادته جبروته وضع اسمه في شهرين هما اعظم شهور السنة نظراً الى شدة حرارتها وطول النهار فيها فسمي شهر تموز يوليوس وشهر اب اوغسطس وجعل كل واحد منهما ٣١ يوماً ومع ذلك بقي في عماله هذا خلل اصلحه البابا غريغوريوس الثالث عشر كما يتضح ذلك في ما ياتي . ثم بعد قتل يوليوس المذكور حدث خلل عظيم في رومية حيث كان لهذا القيصرا بن اخت اسمه اوكتافوس كان صغيراً لما مات ابوه فتبناه خاله المذكور واعنى بتربيته وارسله الى بلاد اليونان لتعليم والتهديب ولما قتل خاله كان عمره ١٨ سنة فعندما بلغه الخبر جاء الى رومية ليستولي على ميراثه فاعطاه مرقس انطونيوس احد رؤساء الجمهورية جزءاً عظيماً من الميراث وتزوج باخته اوكتاوة واشركه معه في رئاسة الجمهورية واشركا اميراً ثالثاً معها يقال له ليبيدوس وكانوا جميعاً يكرهون الجمهورية ويميلون الى الملكية فانفقوا على تشتيت شمل مخالفيهم واخذوا في قتل كل من ظنوه مقاوماً لهم واغروا الناس بالاموال حتى ان البعض كانوا يقتلون اباؤهم وأعرّ الناس اليهم لمخالفتهم اوكتافوس وشركاؤهم ثم في ما بعد آل الامر الى عمل هؤلاء الثلاثة على

(١) كان فيلسوفاً عظيماً واديباً ماهراً من اعظم مشاهير الرومانيين ولد بمدينة اربنيوم سنة ٦٤٧ بعد تاسيس رومية فيكون ذلك سنة ١٠٧ ق م وتلقن علومه بمدينة اثينا الى ان فاتق اقراة حتى قال فيه احد معلميه واحسرتاه على بلاد اليونان قد هزمت بجند الرومان وكان يشفي الى الاكادهميين ونظراً لبلاغته خطاباته كان يجذب الكل الى رايه بقوة كلامه

تدمير بعضهم بعضاً وجرت بينهم امور بطول شرحها اعتقها بقاء او كنافيوس
 وحدة بدون مقاوم ولا منازع فاستقل بنفسه في الاحكام ولقب ذاته بالامبراطور
 واشتهر باسم قيصر ونسى ايضاً اوغسطوس ومعناه الموقر وهي القاب ثلاثة
 مترادفة على معنى واحد تطلق عند الرومانيين على كل ملك من ملوكهم وكان
 المجلس العالي اعطاه ايضاً لقب باترباتريا ومعناه ابوطوب وغير ذلك من
 الالقاب على سبيل التفعيم والتعظيم ومن ذلك الوقت تم تحويل الجمهورية
 الرومانية الى دوائر ملكية

وكان اوغسطوس هذا من افراد الملوك عادلاً حليماً رتب قوانين عادلة
 لراحة الاهالي وكان يميل الى العلوم والاداب قال بعض المؤلفين ان هذا
 القيصر كان من اعظم الخطباء وابرع الكتبة وقد ترك جملة مولفات نفيسة
 ولما استولى على بلاد مصر اعاد الى المدرسة البطلموسية التي سبق ذكرها في
 الكلام على المصريين رونقا زائداً عما كانت عليه فكانت جميع طلبة العلم تنقاطر
 اليها في ايامه . وكان مع سطوته وابهته وتدبعا انيساً وكانت رومية في مدة حكمه
 بغاية الهدو والسلام

وفي ايامه عاش ورجيل ويقال له فيرجيل ايضاً وهوراس واوفيد وغيرهم
 من مشاهير الشعراء وحازوا على اعلاء وشاهم بانظاره ولذلك مدحوه في
 اشعارهم واطنبوا في وصفه

وكذلك وجد تيتلوه الذي اختلف في منشأه فنيل مدينة بندو وقيل
 ابونة وانه تآليف مفيدة من اشهرها التاريخ الروماني وهو بيتدي به من تاسيس
 رومية الى وفاة القيصر درصوص في بلاد النمسا وكان ذلك في سنة ٢٢ ق م
 وبالجملة والتفصيل ان في ايام هذا القيصر اخذت البلاد الرومانية في

فصبره اول فصل مع انطونيوس في رومية ولقبه العساكر امبراطوراً ومعناه قائد
 الجيوش ثم غلب هذا اللقب عند الافرنج على سلطان السلاطين وكان منبهاً بان لا يعرف
 ابوه مات قبلاً سنة ٤٢ ق م ويوجد له الآن مولفات جسيمة صحيحة

التقدم الى اعظم درجات المعارف والفنون وقد عاش عمراً طويلاً ثم توفي في سنة ١٤ ب م وله من العمر ٧٦ سنة بعد ان حكم ٤٤ سنة حكومة ملكية فضلاً عن مدة رياسته الجمهورية وكان العامل على اليهود من قبله في اورشليم هيرودوس وفي مدة حكمه صار الاكتتاب العمومي المذكور في لوقا ص ١٠٢ وبسببه ذهب يوسف ومريم الى بيت لحم حيث ولد المسيح

وبعد وفاته تولى الفيصرية طيباريوس قيصر الذي في ايامه صاحب السيد المسيح في اورشليم باس نائبه عليها المدعو بيبلاطس البنطي والى هذا الفيصر تُنسب مدينة طبرية التي بناها هيرودوس انتيباس بن هيرودس الكبير وكان عاملاً له على اليهودية وسأها باسمه ثم بعد موت طيباريوس المذكور خلفه كليفولا الذي من غريب اعاليه انه اصطنع اصطبلًا من المرمر لفرس له كان يعزها وعل لها حوضًا من العاج ورصع سروجها باللؤلؤ والجواهر وفيد اسمها في دفتر الكهنة بزعم انها ستصير ذات يوم حاكمة على الرومانيين

وبعد خلفه كلود بوس سنة ٤١ ب م وكانت له مشاركة في الاداب والمعارف فالف تاريخ رومية وقرطاجنة وغير ذلك من الكتب التي فندت وضاعت

ثم خلفه في سنة ٥٤ ب م نيرون الذي كان يبغض المسيحيين وقتل الذين تنصروا من اهالي رومية ثم قتل بولس وبطرس ومرقس الانجيلي الذي كان وقتئذ بالاسكندرية وذلك في سنة ١٢ من ملكه وقتل ايضاً امرأته واخاه ومعلمه الفيلسوف سينيكا وامر بحرق جانب عظيم من رومية لجرد زناه وكان ينظر اليها وهو على احد السطوح بعزف بالعود ثم اتهم المسيحيين بذلك واجرى عليهم قصاصات صارمة وبعد موته تخلفه ملوك منهم فسباسيانوس الذي تولى الملكة سنة ٦٩ م وكان وقتئذ يجارب اليهود في اليهودية فلما بلغه موت سالس وكانت العساكر الموجودة معه تنادي به باسمه قيصرًا سار الى رومية واقام ابنة

تيطس مكانه فافتتح اورشليم واحرق الهيكل وبدد شمل اليهود وازال ملكهم
الزوال الاخير وذلك في سنة ٧٠ ب م

وفي ايامه وايام ابيه تيطس المذكور الذي تولى المملكة بعده في سنة ٧٩ ب م
وجد تاسيت المورخ المشهور الذي كان اعظم اهل عصره ولكثرة معارفه وصل
الى اكبر مناصب الامبراطورية وقد انحفه بذلك هذان الفيصران وله تأليف
عديدة مفيدة منها كتابة الذي اودع فيه اخلاق الجرمانيين ومنها تاريخ الفياصرة
وعدة تواريخ اخرى شهيرة اضاع بعضها صروف الزمان وبعضها باقى ومرغوب
فيه الى الان

ومن الفياصرة المذكورين دو ميتيانوس الذي خاف اخاه تيطس المذكور
سنة ٨١ ب م وكان متعظماً متكبراً مولعاً بقتل النفوس حتى قتل الذبان بيده
ايضاً ولقب ذاته الهاً وسيداً وكان يبغض اليهود والنصارى ويامر بقتلهم وحبس
يوحنا الانجيلي في بطس وما يحكى عنه انه استدعى ذات يوم ارباب المجلس
وطلب منهم ان يثذكروا مع بعضهم عن الذلاطمة وافضلها وان يعطوا قرارهم
عن احسن الاواني المناسبة لطبخ نوع من انواع السمك

وفي ايامه وجد استناس الشاعر الروماني المشهور فاغدى عليه بالخيرات
ولهذا الشاعر قصائد مشهورة احسنها القصيدة المسماة برتيوس واخرى تسمى
تيايد ترجمت الى الفرنسية ترجمت حسنة توفي بمدينة نالي سنة ١٠٠ ب م
ثم بعد دو ميتيانوس المذكور خلفه سرفا سنة ٩٦ ب م وفي ايامه امر برد من
كان منفيًا من المسيحيين وابعاح لهم التمسك بدنياهم وارجع يوحنا الانجيلي الى
افسس ثم خلفه تراجان وكان على جانب عظيم من الحكمة والفطنة وشدة
الباس فحفت المكوس واهتم بحلب كل ما من شاء راحة الرعية فاشأ القماطر
واصلح الطرق وجدد المواشي البحرية لتكثير التجارات والمعاملات وبني في رومية
ملعباً لسباق الخيل وجدد مكتبة عظيمة واقام العمود الرخامي الابيض المسى
التراجيان ورسم عليه الحروب التي وقعت بين الرومانيين وباقي الدول غير انه

كان يضطهد المسيحيين فامر بقتل سمعان بن كلاوبا اسقف اورشليم عند زيارته انطاكية سنة ١٠٧ ب م وامر بطرح اغاطيوس اسقف تلك المدينة في جب الاسود

ولما خلفه ابن عمه ادريانوس سنة ١١٧ ب م قتل كذلك خلقا كثيرا من اليهود والنصارى ورمم مدينة القدس وبنائها بعد ان كانت مهدومة منذ حصار تيطس على ما ذكرنا في ما مر فرجع اليها اليهود وزادوا في تحسينها ونحسينها لكن لما بلغه انهم يريدون الخروج عن طاعته ارسل اليهم العساكر وقتل اكثرهم وخرب المدينة حتى صارت قاعا صافصفا وكان هذا الخراب بعد ٥٢ سنة من خراب تيطس ثم خلفه تيطس انطونيوس سنة ١٢٨ ب م وفي ايامه حصل المسيحيون على تمام الراحة حيث رفع عنهم تلك الاضطهادات السابقة واعطاهم حريتهم

ثم خلفه مرقس اوريليوس انطونيوس سنة ١٦١ ب م وكان متمسكا بذهب زينون الحكيم احد الفلاسفة اليونانيين وقد تقدم ذكره في ما مر فكان هذا القيصر من المتشفيين وانعكف على المطالعات والدروس واكتساب العلوم والفنون

واعقبه ابنه كومودوس سنة ١٨٠ ب م ولما مات استصوب الشعب ان يضعوا المنصب القيصري في المزد ليناله من يدفع فيه مالا اكثر من غيره فاستقر البيع على بوليانوس لكنه لم يثبت في الملك الا ٢٦ يوما وقتل ثم بعد وفاة سفيروس الذي قتله ايضا خلفه ابنه كاراكلا وكان رجلا دمويا قتل كثيرين من اكابر الناس وكان يتزى بزى اسكندر المكدوني في اللبس والعوائد ثم عانى تمثال اسكندر المذكور على الهياكل والمعابد وسى نفسه اسكندر لتكون هذه التماثيل رمزاً له وقام بعده كوريسيانوس هليوكوبالوس سنة ٢١٨ ب م وكان غلاما يدعى المحسن والجمال قيل له بسيانوس يعني الشمس لحسنه وجماله وكان في اكثر الاوقات يتزى بزى النساء فيضع في عنقه قلادة وفي يده اساور

من الذهب وينشر في قصره انواع الزهور والرياحين فقتله الاهالي وتولى بعده ابن عمه اسكندر سيفروس سنة ٢٢٢ م وهو الذي ولد في هيكل الزهرة بعرقيا من اعمال طرابلس الشام على ما ذكر في الكلام على الفينيقيين وكانت امة مسيحية يقال لها مامة وهي من بنات الضنية ايضا وكان يستشيرها في جميع اموره ويعمل برايتها ولذلك ابطل عبادة الاوثان واخرج الاصنام من رومية ودعا الناس الى الدين المسيحي وكان كثيرا ما يجمع الاهالي وبعضهم بخطابات مفيدة ويبارك بحسن ملاحظته ما يقع من الخلال والفلسد في اقطار المملكة وكان ينعم على اهل الفنون والصنائع بالجوائز السنوية لترغيبهم وتنشيطهم ولم يكن يقبل في ديوانه احدا من ارباب الملاهي والآلات من المغنين كسائر اسلافه وكان يامر بدفع اجور العساكر في اوقاتها وبزور المرضى من الجند في خيامهم

ثم بعد وفاة هذا القيصر تعاقب على الكرسي القيصري عدة ملوك وثنيين لم تكن ايامهم الا ايام حروب وفتن واضطرابات وسرت هذه الاحوال في اكثر الولايات الرومانية وتحرك الغوثيون الذين تسلمهم العرب الفوط في سنة ٢٥١ ب م من الاقاليم الشمالية وخرجوا من بلادهم واجتازوا نهر الطونة وحاربوا الولايات الرومانية واستولوا عليها ونهبوها ولازال الحال على هذا المنوال الى ان تولى القيصرية ديوكليان في سنة ٢٨٥ ب م وهو الذي يقال بانه في ايامه نصب عمود السواري بالاسكدرية تذكارا للمحاصرتين اياها في سنة ٢٩٦ ب م وكان ذاهمة ونشاط ومدة حكمه ابتداء نظام جديد اكمل في حكم قسطنطين الكبير الذي سوف ياتي ذكره في الكلام على الفياصرة المسيحيين لكنه اثار اضطهادا عظيما على الصاري في كل اقاليم سلطنته قصد بان يعوا اثرهم عن وجه الارض ومن جملة ذلك انه امر يوما وهو بمدينة نيكوميديا بمحرق ٦٠٠ نفس منهم كانوا مجتهدين للصلاة في يوم عيد الميلاد سنة ٣٠٢ ب م وكانت هذه النكبة العاشرة والاخيرة التي اضر بها الرومانيون الشعوب المسيحية

الفصل الثالث

في حالة العلوم والمعارف التي كان عليها الرومانيون منذ ابتداء شوكتهم اعني من بداية المشيخة الى اخر الفياصرة الوثنيين الذين مر ذكرهم

لا يخفى بان ادارة احكام الرومانيين وعالوهم منهم قد يسرا لهم ما لم يتيسر لغيرهم من الفتوحات والانتصارات فان السلطنة الرومانية في ايام اوكتافىوس قيصر الذي تقدم ذكره كانت في اعظم واعلى درجة من الزهو والنفى وكانت متسلطة على جميع شعوب اوربا ما عدا بعض القبائل في الجهات الشمالية منها استمر واما محافظين على استقلاليتهم فكان تحت سلطتها انكلترة وفرنسا واسبانيا والمانيا وجميع ولايات ايطاليا واليونان وتركيا في اوربا واسيا واكثر ممالك افريقية كمصر ومراكش والحبشة وغيرها وكان لهم في كل ولاية ومملكة من هذه الممالك المذكورة ولاية وحكام وعساكر رومانية لسياسة الاحكام وادارة الامور ومحافظه البلاد

ومن اعظم الاسباب التي استخدموها لتضعية العساكر نفوسها في سبيل هذه الفتوحات هونك العادة التي كانوا يجرونها مكافاة للقواد المنتصرة عند عودتها ورجوعها الى رومية اذ انهم كانوا يوقفون الفائذ قليلاً في ساحة يقال لها ميدان كيبوس مارتىوس خارج المدينة وهناك يلبسونه ثوباً ارجوانياً منسوجاً بالذهب ويضعون على راسه نسرًا من ذهب ثم يدخاونه الى المركبة الممدة له محاطة بأصحابه واقارب وهم في الملابس البيضاء ووراهم القناصل وارباب المجلس في ملابسهم الرسمية وكان الجيش المنصور يمشي من ورائهم لاساً

خوفًا مكللة بغصون الدقل وحاملوا البيارق فيؤ رافعون في ابادهم نسورًا من
 الفضة مطلية بالذهب عوضًا عن البيارق ثم ياتون بالثيران التي يكونون قد
 اعدوها للذبح فيطلبون قرونها بالذهب ويضعون على رؤوسها اكاليل مختلفة
 الاشكال وبعد ذلك ياتون بالغنيمة المأخوذة من العدو مع تاج او اسلحة الملك
 او الفائد المغلوب ويسيرونها امامهم كما حصل عند دخول نيطس ظافرًا الى
 رومية بعد غلبته على اورشليم فانه حُبلت امامه المنارة الذهبية وتابوت العهد
 وباقي الغنيمة التي اخذها من الهيكل وفي اثناء الحروب التي اُقيمت على
 انطيوخوس ومتريدانس وغيرها من الملوك الشرقيين كانوا يقودون في المواكب
 جمالًا وافيالًا ونمورًا واسودًا وغيرها من الوحوش الضارية وحياتنا كانوا ياتون
 بها الى المرايح حيث كانوا يتمنون احتفالات الفرح بانواع شتى من الملاعب
 ثم بعد الغنائم المذكورة كانت تمشي فرقة من الاسرى وبينهم الملوك والرجال
 المنسورون والنساء والاولاد وجميعهم مقيدون بالسلاسل الثقيلة وقد كانوا
 احيانًا يزدرون بهم وينقلونهم بلا رحمة وحيانًا يقوّمهم باقى ايام حياتهم في حالة
 العبودية ويسلمونهم لبعض الاشخاص ممن فقدوا اصحابهم في الحروب ليبتغوا منهم
 ويعذبوهم ثم خاف هذه الفرقة كانت تضرب آلات موسيقية بنغمات مرتفعة كيلا
 يُسمع تنهد وصراخ اولئك الاسرى المنكودي الحظ وامامهم جماعة من الرقاصين
 واصحاب المساخر ينطنطون ويهرولون وهكذا كانوا يتقدمون بالفائد المنتصر
 مارين في جميع اسواق رومية الى ان يصلوا الى الكايتول

وقد اجمع المؤرخون بان هذه الامة لم تخرج من حيز الخشونة الى التمدن الا
 منذ افتتحت بلاد اليونانيين وسادت عليها ولم يبارحها ظلام الجهل والغباوة
 الا بواسطة اختلاطها بهم ومع كل ذلك لم تبلغ الى درجتهم لكونها اولًا عندما
 كانت مشغولة بتلك الفتوحات العظيمة كانت نفوسها تاتي العلوم والمعارف
 ازعمها بانها لا يمكنها ان تحصل بواسطةها على ما توّمل ان تنالها بواسطة الاسلحة
 ولذلك لم يكن في زمان قدماء الملوك الرومانيين من حاز على شيء منها ثم بعد

هذا الاختلاط ايضا اعني في زمن الفناصل الذي ولئن وجد فيه قليلون ممن مارسوا العلوم كانت البعض من الرومانيين مثل سيللا وفلامينيوس وغيرها ينعون ترويض اخلاق الشعب نظرا لميلهم للحروب وحبهم لاهراق الدماء ويظهر ان اول شيء رغب الرومانيون فيه وقتئذ كان ادخال فن الالعاب التياترية الى رومية في سنة ٢٦٢ ق م ولم تكن في البداية الا الرقص على انغام الناي اما الروايات فلم تُعرف عندهم الا بعد ذلك بنحو قرن كامل عندما ادخلها بينهم رجل يسمى بلانوس وقبل ان اول مرشح بُني هذه المناظر كان بسع ٤ الف شخص من المتفرجين

ووجد فيه كذلك جماعة من المؤلفين ايضا اشتهر منهم ترنسيوس ويقال له ترنس بدقة تاليفه وفيبيوس وبكتور المورخ الذي هو اول من كتب تاريخ وطنه من الرومانيين وكان موجودا في سنة ٢١٦ ق م لكن في زمن التياصرة وجد فيهم كثير من ممن خدموا العلوم واستخدموا الانتماء اليها حيث ان رومية وقتئذ اقتدت في البلاد اليونانية وصارت ترسل شبانها لمكانب اتيينا لتكتسب علوم فلاسفتها

وكان اليونانيون وقتئذ معتبرين عند اكثر العلماء في الدرجة الاولى من العلوم والفلسفة وكان بينهم وخاصة في اتيينا اناس فصحاء وحاذقون بعلمون قواعد الفلسفة كما كانت عند الانوارين اعني التي اسسها افلاطون وزينون وابيقور او هو ابيكوريوس ويعلمون ايضا بمبادي الفصاحة والفنون الادبية ولذلك كان يقصد هذه البلاد كل طالبي العلم من اية جهة كانوا كما ان كثيرين منهم كانوا يرددون الى اسواق العالم في اسكندرية ومصر وروديس لوجود فلاسفة وعلماء منطلقين من اليونانيين المذكورين بكثرة فيها وحيثما التجأ العالم الشهير اتيين بعد نفيه من اتيكا .

فتهدب الرومانيون قبل دخول القرن الاول من التاريخ المسيحي في كل فرع من العلوم والفنون وكان ابناء العيال المعروفة منذ حداثتهم بدرسون

باعتماد علوم اليونانيين وفصاحتهم ثم بدرسون الفلسفة والشريعة المدنية ثم يذهبون الى بلاد اليونان ليكملوا علومهم ومع ذلك لم يكن الذين ساعدوا وقتئذ في توسيع دائرة المعارف في البلاد الرومانية المذكورة الاعيان فقط بل كان بينهم من عامة الشعب ايضاً وضم الى الجميع الفائد مريوس الذي كان عظيم الميل للحروب وسفك الدماء لانه لما نجح برأيه في الحكومة الجمهورية بالاشتراك بين الاعيان واجه الشعب اراد ان يتم مقصده بنشر المعارف بين العامة ليكونوا قادرين ان يتسوا وظائفهم الدولية ودام الحال على هذا المنوال الى نهاية القرن الاول من التاريخ المسيحي ايضاً

ثم في القرن الثاني وجد اشخاص من ذوي العقول الثاقبة في ما بين اليونانيين والرومانيين كتبوا كتابات جيدة في كل فن رائج سوقت في ذلك الوقت الذي اشتهر فيه بين اليونانيين بنوع خاص بلوتاركة الذي تقدم ذكره في ما بين مورخهم وكان ذا علوم كثيرة لكنها عديدة الترتيب وكان ايضاً ملطفاً بهادي الاكاديميين وكان يوجد في كل المدن الشهيرة من المملكة الرومانية مدارس للبعاء واليبابين والسفسطيين والنحاة يدعون بانهم يربون فيها الشبان ليكونوا اهلاً لترقي المعارف بواسطة الرياضات والنخبط المتنوعة غير ان الذين تعلموا فيها كانوا معجبين بانفسهم ومهاذير ومعارفهم انما هي للظاهر اكثر مما هي للبلاغة والنصاحة والحكمة والاهلية لانام ذلك العمل الذي زعموه ولذلك ازدرى العقلاء الرازون بتعليم هذه المدارس لكن كان هناك مدرستان كليتان للجمهور احدها في رومية اسمها ادريانوس فيصرت تدرس فيها كل العلوم ولاسيما الفقه والثانية في بيروت من بلاد فينيقية

وكذلك لم يكونوا متفقين في الاراء الفلسفية ايضاً اذ انهم اسسوا لها جمعيات مختلفة منذ اخذوها عن اليونانيين الذين كانوا قدوة لهم فيها اذ منهم من انقاد الى التعاليم الاكاديمية وهم مكسيوس بروطو الاول وكسيوس تارتسيوس وفارون ومايويوسو ومكسيس وتوليوس وشيشرون او هوفيفرون ومنهم من

انقسم الى الجماعة الفيثاغورية وهم كاد بنوس ونييد بوس وفيكولوس ومنهم من ذهب المذهب الاسطواني وهم شيببون الافريقي وموثيوس وتيسفولا وكانى الاوتيشاسي وتوايثوانه اوس وسينا كورد وفيينسي معلم نارون واييكباتوس الايرابولي المولود في فريجيا ومنهم من اتبع اراء المشائين وهم تيرانو واندرونيكوس اللذان في عصرها ظهرت كتب ارستطاليس صاحب هذه الطريق واستخرجت من المغارة التي كانت مدفونة فيها تحت الارض وكتب ثاوفراستو والكسندر الافروديتي الذي شرح كتب ازسطو وكان اول من علم في رومية تعاليم المشائين بواسيو الذي كتب كتبه الخمسة الشهيرة في شرف الفلاسفة

ومنهم من اتى الى تعاليم ابيقور وهم لوكراسيوس الذي نظم هذا التعليم باللغة اللاتينية وابلينوس واوكيانوس ولاراسيوس ومنهم من اتبع قواعد افلاطون وهم تراسيللوس والشينوس ونياروس بتريسيوس وابوايوس وانيكوس ونوسينيوس مكسيوس بتريسوس باوخرخس القرنتي الذي علم القيصريين تريانوس وادريانوس

ففي القرن الثاني الذي نحن بصدده بزغ كذلك فلاسفة كثيرون من كل الشيع الفلسفية المذكورة وقام بين الرواقيين عالمان ساهبان وهم مرقس انطونيوس (وقد تقدم ذكره) وابيكتيوس انما اكثر الذين مدحوا كانوا من جماعة الرواقيين فقط اذ انه لم يكن في هذا القرن اعتبار زائد لهذه الفرقة بل كان تلاميذ مدارس الافلاطونيين اكثر عددا لاسباب منها ان الافلاطونيين كانوا اقل صرامة من الرواقيين وتعاليمهم اكثر مطابفة للافكار الشائعة عن معبوداتهم ومع ذلك لم يكونوا في كثيرهم كالابيقوريين الذين كانت تبعهم وجوه الشعب لكي يتمتعوا بلذات المعيشة بدون خشية ولاخجل

وكانت بلاد مصر وخاصة مدينة الاسكندرية التي اشتهرت بتلك المدرسة التي اقامت زمانا طويلا مركز العلوم والفنون لازالت في حال زهوها وكان المعلم بوقامون قد وضع فيها اصول الفلسفة المنتخبة التي سبقت الاشارة اليها في

الكلام على المصريين وهي انه لا يجب ان يتوقف الطالب على تحصيل العلم من معلم مخصوص بل ينبغي تحصيل الحقائق من تعاليم جميع الفلاسفة وقبولها بعد البحث المستطيل والظاهر ان السبب في ذلك هو استنباح هذا المعلم ذلك النزاع الذي كان يقع في الفلسفة نظراً لان كل طالب علم كان ملتزماً بان يحلف على انه يكون اميناً في الحاماة عن قواعد معلمه ووافقه على ذلك محبو الحق اجمعين

وكان قد تخرج في هذه المدرسة جماعة من الذين قد اعتنقوا الديانة المسيحية فحوالت بهم الى ان صارت كاتبا مدرسة مسيحية فاستحسن هذه المبادي قوم من الذين كانوا يرغبون في ان يضموا الى مسيحتهم الترددي باثواب الفلسفة والتبع بالقباب اربابها ووراتهم ومنهم اثيناغورس (وفي بعض المولفات سي سيديتا الاثيني) وبنتينوس واكليمندوس الاسكندري وغيرهم واعتقدوا ان الفلسفة الكنتيقية هي هبة الله العظمى الشافية لكنها منتثرة فيما بين جميع شعبي الفلاسفة اذن يجب على كل عاقل ولا سيما المعلم المسيحي ان يجمع هذه الثمر من كل الجهات ليحامي بها عن الديانة دحضاً للفتور ومن ثم اخناروا الفلسفة الاسطوانية في قواعد الاداب والذمة وفلسفة ارستطاليس في الجدال والقياس والبراهين وفلسفة افلاطون في ما يخص بالله وبالارواح والفسس الناطقة وباقي الاشياء غير المادية وجعلوا هذا الفيلسوف في الرتبة الاولى دون غيره لانهم احنسوا قواعد تعاليمه لتتفق مع الديانة المسيحية وقواعدها الجوهريه اكثر مما تتفق معها تعاليم غيره من الفلاسفة فكان ذلك سبباً الى ظهور تلك الشيعة الفاسفية التي بنيت على هذا الاساس وظهرت في القرن الثالث بغتة وانتشرت في جزء عظيم من المملكة الرومانية وكادت تتلح كل ما عداها من الشعب الاخرى وليس ذلك فقط بل اضرت بالدين المسيحي ضرراً بليغاً ايضاً كما يتضح ذلك مما يأتي

وذلك ان في القرن الثالث المذكور تغيرت هيئة هذه الفلسفة الاكاستنيكية

منذ فتح امونوريوس سكّاس الذي تقدم ذكره في الكلام على المصريين مدرسة في الاسكندرية نحو سنة ٢٠٠ م بافتخارٍ عظيم وإسّس الشيعة التي نسبت بالافلاطونية الجديدة وهذا الانسان ولد من والدين مسيحيين وتمهذب مسيحيًا ويحتمل انه ادعى بالمسيحية كل ايام حياته وان كان في حقيقة الامر رجوع الى ديانة اجداده الوثنية وكان ذا عقلٍ ثاقبٍ وافكارٍ سامية كما انه كان فصيحًا ايضًا واخذ يوّلف بين الفلاسفة والدين او بتغيير العبارة اخذ يعلم فلسفة بها يتحدونها وألف كل الفلاسفة واصحاب الاديان معًا حتى الدين المسيحي وهنا بنوعٍ خاص تمتاز الشيعة الحديثة عن الفلاسفة الاكستزيكية التي ذكرناها قبلاً لان الاكثينيكين اعتمدوا ان في كل الاصول الفلسفية مزيجًا من الخير والشر والحق والبطل فاخفوا وامتدحوا كل ما ظهر لهم انه مطابق للعقل ورفضوا البقية اما امونوريوس المذكور فاعتمد بان كل الشيع اعترفوا ببداً واحد من الحق وانما يخالفونه قليلاً في التعبير وفي ادراكهم اياه فاذا توضّح كما ينبغي يمكنهم ان يتحدوا معه بسهولة واعتمد ايضًا ببداً اخر جديد غريب وهو ان كل الاديان الشائعة وكذلك المسيحية يجب ان تُفهم وتشرح بموجب هذه الفلسفة المشتركة بين كل الشيع وان خرافات عامة الوثنيين وكهنتهم وكذلك تناسير رسل المسيح يجب ان تفرز عن ديانة كل منها بفردتها

ان غاية امونوريوس العظيمة في ان يوّلف بين كل الشيع والاديان الجاثمة ان يحرف عبارات كل الاحزاب سواء كانوا فلاسفة او كهنة او مسيحيين وارههم وان يزيح كل العثرات الكثيرة التي اعترضته بواسطة التناسير الاستعمارية والتشبهية واعتمد ايضًا بان غاية المسح الوحيدة هي ان يضع حدًا لهذه الخرافات المنسطة ويصلح الاضاليل التي شابته الديانة وليس يبطل كل الاديان القديمة

وما زاد او هامة هذه تعاليم المصريين المشتركة وكان قد تربى وتعلم فيما بينهم على ما ذكرنا وهي ان الكون واللاهوت كلاهما جزآن من كل واحدٍ عظيم اي الكل هو الله وازلية العالم وطبيعة النفس والعناية وسياسة هذا العالم بالارواح

الى غير ذلك من التعاليم الجارية عندهم فاحسبها كلها حقيقة لا ينبغي ان يشك في صحتها

والى هذه الفلاسفة الافلاطونية المصرية اضاف هذا الانسان المخترع المتخيل نظاماً ادبيّ التهذيب يظهر انه سام في طهارته وصرامته لانه وان يكن سمح فيه للعامة ان يعيشوا حسب قوانين بلادهم وما تقتضيه الطبيعة لكنه طلب من الحكماء ان يرفعوا بتأملاتهم انفسهم التي هي نسل الله فوق كل الاشياء الارضية وان يضعفوا ويهزلوا اجسادهم التي تقاوم حرية انفسهم بالجوع والعطش والتعب وغير ذلك من المشقات لكي يحصلوا في هذه الحياة على معاشرة الاله الاعظم ويصعدوا بعد الموت متنشطين وغير منهكين الى الاب العارم ويتعدوا معه الى الابد وبما ان هذا الانسان ولد وتعلم فيما بين المسيحيين قد اعتاد ان يجعل لتعاليمه رونقاً وسماً باستعمال عبارات متبسة من الكتب المقدسة فصارت ابوعه يذكرونها ايضاً في كتاباتهم واطاف الى هذا التمرين الصارم صناعة تنقية القوة التصورية وتحسينها حتى يمكنها ان ترى الارواح وتصنع بمساعدتها اموراً كثيرة غريبة فسمى تابعوه هذه الصناعة ثيورجيا اي علم الآلهة وكيفية معايشة الارواح لكن لم يستعملها احد من فلاسفة مدرسة امونيوس المذكور الا اليراسخون كما يتضح ذلك مما ياتي

ولئلا ياتي اهل الاديان العامة ولا سيما المسيحيون مبادية هذه حوّل كل تاريخ المعبودات الوثنية الى تشابيه واستعارات ليثبت بان الذين يكرمهم العامة والكهنة بالقاب آلهة انما هم خدام الله الذين يابق بنا ويجب علينا ان نقدم لهم الوقار حتى لا يبعدوا عن الوقار الاعظم اللائق بالله عز وجل وان المسيح لم يكن الا انساناً خارق العادة وحيباً لله وعارفاً بعمل الله بنوع مدّش وانّه لم ياخذ في ان يلاشي بالكافية عبادة الارواح خدام العناية الالهية بل ان ارادته وطالبه ما زالت ما قد تلطخت به الاديان القديمة فقط انما تلاميذك قد افسدوا ودنسوا مبادي معلم على ما تقدم هذا ما كان من امر الفلاسفة عند الرومانيين

خاصةً لحد الزمان الذي تنصر فيه القياصرة وغلاظة ماجرياتها سوف تورد
في الفصول الآتية

أما الشعوب الباقية من ملحمات تلك المملكة وتوابعها فقال بعض المؤلفين
ان الجرمانيين والسلتينيين والبريطانيين لم يكونوا خالين من اناس مشهورين
بجذافتهم ونباهتهم ففي الغال اشتهر سكان مرسولينا بالانتباه الى العلم ولا ريب
بانهم وزعوا بعض المعرفة بين القبائل المجاورة لهم وبين السلتين اذ ان
الديوديون الذين كانوا كهنة وفلاسفة ومتشرعين اشتهروا بحكمتهم ولكن لم
يصل الى الافرنج الا اخبار غير كافية في معرفة حقيقة فلسفتهم واخيراً ادرج
الرومانيون العلوم والفلسفة في كل البلاد التي تغلبوا عليها بقصد ان يظفروا
اخلاق سكانها الوحشية ويدينوهم

واما باقي الفنون فقد قال بعض المؤلفين ايضاً ان معاناتها في مدة تسلط
اوغستوس قيصر كان في غاية الاعنبار كالنظم والتصوير والنقش والحفر ولكن
بعد موته انصب خلفاؤه على صناعة الخزوب اكثر مما على صنائع الصلح والامان
فاهملت هذه الدروس

ووصف اخرون ما كانت عليه هذه المملكة في الوقت الذي تملك فيه
هذا القيصر فقال ان في ايام سلطنته كانت تحسنت صنائع البنا والنقش
والتصوير وتوصلت الى درجة سامية من الكمال وامتدت في جميع اطراف
السلطنة وكانت المدن والبلدان مزينة بالهياكل المبهجة والنصور المرمرية
المزخرفة الملوثة من التماثيل الجميلة والصور الثمينة واقبم في جميع البلاد التي
افتتحها الرومانيون ابنية عامة كثيرة النفع كتحصين الطرق وقيام الجسور الثمينة
وبناء الاقنية لجلب المياه والى يومنا هذا يوجد في كثير من تلك المدن بقايا
من اثار تلك المشروعات العظيمة مع انها اقيمت منذ الف سنة تقريباً

واما مدينة رومية نفسها فكانت من اعظم مدن العالم وانهبها وكانت
دائرتها ٥٠ ميلاً وعدد سكانها ٤ ملايين وكانت محاطة باسوار عالية متينة

البناء نظير باقي المدن القديمة وكان لها ٢٠ باباً وكانت من عجائب الزمان
منظراً وبهجة حتى يكاد الواصف يعجز عن وصف زخارفها وحسن رونقها وزينتها
لان القواد الذين افتتحو الممالك الاجنبية كانوا يأتون بجميع الامتعة والتحف
النفيسة العجيبة التي يجوزون عليها في مغازرتهم ويضعونها في قصور هذه المدينة
وهياكلها زينة لما فكان فيها تماثيل جاءوا بها من بلاد اليونان واعمدة من
مصر وامتعة مجنسة غريبة عجيبة من اسيا وغير ذلك من الذهب والفضة
والحجارة الكريمة التي كانوا يجمعونها من اقطار المشكونة وكان فيها قصور جميلة
وهياكل ظريفة اكثرها من المرمر المنقوش نقشاً جميلاً ومراسم ومخيلات مدهشة
لمن يشاهدها وللإلهي العمومية وغير ذلك من الابنية العاخرة وكانت مشعونة
بغنائم الدنيا باسرها

وتنصرا سباب هذا الغنى العظيم في الفتوحات التي افتتحوها والغنائم التي
اكتسبوها من الممالك التي استولوا عليها بواسطة قساوتهم البربرية وقتل اعدائهم
وسلب اموالهم بدون ادنى رحمة ولا شفقة نعم لا ينكر انهم كانوا نظير الفرس
والمصريين واليونانيين وغيرهم من الامم القديمة يتصورون تصورات من جهة
الفضيلة ولذلك كانوا يعملون احياناً اعمالاً تستحق المدح ولكنهم كانوا نظيرهم
ايضاً فاقدون الاداب الحقيقية التي تستدعي معاملة الناس على احسن اسلوب
بل تفوقوا عليهم في غرور الكبرياء حيث زعموا بان لهم اصلاً سائياً وانهم سوف
يحكمون كل العالم وان كل ما يدخل بايديهم بواسطة السلب والنهب
والغارات هو ملك شرعي لهم وانهم هم واليونانيون فقط الناس المتعدنون
وما عداهم من سائر الامم برابرة ومتوحشون

وقد ذكرنا في ما سلف بانهم كانوا يقسمون الى قسمين اشرف وعوام ثم بعد
ذلك اضيف الى هذين القسمين قسم ثالث يعرف بعزب الاسياد وهو في درجة
وسطى بين الاشرف والعوام وكان يحدث بينهم من جرى ذلك منازعات
ومخاصات كثيرة

واما روساء ديانتهم فكانوا ينتخبون من اعيان الاهالي وكانت وظائف روساء الكهنة ذات اهمية سياسية عظيمة لانهم كانوا مولجين بتقديم الذبائح البشرية للالهة ثم ان اعنائهم بالطقوس الدينية والتنجيم^(١) وغير ذلك من الامور التي كانوا يستندون عليها في تفليكاتهم كتنفسير الاحلام وهيئة امعاء الحيوانات والطيور وحرق الموتى^(٢) والذبائح الحيوانية والبشرية التي كانوا يقدمونها على قبور الاموات فهي مدرجة مع اصول ديانتهم التي اتخذوها عن اليونانيين ايضا كعبادة جوبيتير وغيره من الالهة في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا حاجة لتكرار تفاصيل ذلك هنا وكانت ملاسهم الاعنيادية قيصا واسعا من صوف بغير اكمام وثوبا اخر ابيض ضيق يلبسونه تحت القميص وقت الخروج من البيت الى السوق وعند رجوعهم الى بيوتهم ينزعون القميص وكانت الرجال منهم غالبا مكشوف في الرووس يلبسون في ارجلهم تارة احذية مكشوفة مربوطة بالرجل بواسطة شرائط وتارة جزمة قصيرة

اما لغتهم الاصلية فهي اللسان اللاتيني وسوف يرد في مواطن عديدة من هذا الكتاب كلام يتعلق في هذه اللغة يعني عن تفاصيل كثيرة هنا واما الزواج فكان عددهم من الامور الضرورية وقد عاقبوا من امتنع عنه باشد الفصاصات الصارمة وفي بعض الاجيال فرض قضائهم وقتا مخصوصا لزواج الشبان يلتمز من بلغ السن المعين ان يتزوج فيو وجعلوا ذلك فريضة

(١) ذكر بعض المؤلفين بان كانتون وقيرون المعدودين من افراد رجال رومية في العلم وذكاة العقل كانا من جملة اولئك المنجمين مع انها لم يكونا يعتدان في تلك الحيل والخرافات الكاذبة اذ يقال بان كانتون المذكور قال يوما لاحد اصحابه كيف يمكن ان ينظر منجم الى وجه منجم اخر ولا يضحك

(٢) هذه العادة التي طالما شنع عليها اهل الذوق السليم وانكروها على اهل الاديان الوثنية من العالم القديم والجديد قد رجع اليها اهل اوربا الان واخذوا من مدية قريبة في بناء مواقد خصوصية في كثير من عواصم بلادهم لهذا العمل المكروه

شرعية وكان اوغسطوس قيصر يشدد الفصاحات على الذين يتوقنون عن
الزيجة ويخ كثيري النسل عطايا كثيرة وكانوا يخطبون البنات مدة طويلة
قبل عند الزواج الذي يجرونه باحتفال عظيم بحضور الكهنة والمنجمين
ويحجرون شروط الزيجة بحضور جمهور من الشهود وكان القرينان يثبتان تلك
الشروط بقشة يكسرانها امام الحاضرين وبعد ذلك يهدي العريس عروسة
خاتما تلبسه في الوسطى من يدها اليسرى لاعتمادهم انه يوجد عرق يمتد من
تلك الاصبع الى القلب ثم يختمون احتفالهم بضيافة يقيمها ابو العروس . وعند
تمشيط العروس وقت الزفاف كانوا يفرقون شعرها بسنان ربح اشارة بانها
ستكون عن قريب قرينة رجل مقاتل ثم يتوجونها باكليل من زهور ويضعون
على رأسها مندبلا يليق بها وعند نهاية لبسها يرافقها الى بيت العريس ٣ صبيان
من كان والدوهم احيا ويحمل امامها مشاعل ومردن ومغزل وعند وصولها
الى البيت تربط جوانب الباب بجبال من صوف مغمسة في شحم مذوب لاجل
منع قوة السحر وبعد ذلك يجاوبونها ويدخلون بها الى الغرفة اذ لم يكن يسع لها
ان قدوس العتبة برجليها ثم يتقدم العريس ويهديها مفاتيح البيت مع اناءين
فيهما ماء وناثر ثم يصنع ضيافة عظيمة لجميع اهل العرس مصحوبة بالآلات الطرب
والرقص وكان المدعوون ينشدون مدائح للعريسين

وكانت صنائع قدماء الرومانيين منحصرة في حراثة الارض وبعض من
بسيطة متعلقة بها وكانوا يعتبرون امهر الحراثين كافضل الناس وكان الحراثون
يميلون الى الخرافات فكانوا يمتنعون عن الاشغال كافة في خامس يوم من الهلال
وفي السابع والعاشر منه كانوا يزرعون الدوالي ويضعون البير على صغار البقر
لاجل التطيع وفي العاشر منه يباشرون في السفر وكانوا ياتون بحجبة حمار
ويعلقونها على حدود الحقول لاعتمادهم بان ذلك مما يحسن تربتها ويمنع عنها
الحل . وفي زمان المشيخة الاولى لم يكن في بساتين الرومانيين سوى قليل من
ازواع البقول واشجار الفاكهة واما التفاح والكرز وغيرها من الاثمار اللذيذة

والزهرة الجميلة فقد استجلبوها من بلاد العم واسيا الصغرى بعد مدة طويلة وكانت العادة عندهم ان يظلموا مصاطب جنائهم وماشيتها باغصان الدوالي ويعلمون فيها النائل ويحيطونها بسياجات مرتفعة من الشوك والعليق والمرج ان الرومانيين اكتسبوا معرفة زرع الكروم واستخراج الخمر من اليونانيين ايضا فكانوا وقت استخراجهم يتجهون وينرحون ويصبون من الخمر الجدد على الارض اكراما للمشتري والزهرة

وكانت لهم اليد الطولى في الابنية والنش على الحجر والمرور وفي اقامة الجناين المستظرفة ومن اشهر ابنتهم في تلك الاعصار قصر الفيلسوف بيليني صاحب الثروة العظيمة وكان له املاك عديدة من جملتها القصر المذكور الذي لشهرة هندسته ورونق بنائه تخلد ذكره في بطون التواريخ قال بعض المؤلفين ان الصنائع اللطيفة والرياضية لم تعرف عند الرومانيين الا بعد الجيل السادس من تاسيس رومية اي نحو ١٥٠ سنة قبل الميلاد حيث اكتسبها وقتئذ جنودهم من الامم الذين افتتحو بلادهم وادخلوها الى رومية وعندها ابتدا الاغنياء ان يتقنوا دورهم ويزينوها بانواع النساوير والنوش

وكان في مساكن الاشراف مخادع جميلة فيها مكاتب مباحة لمن يرغب في الاطلاع عليها من الادباء والعلماء وكانت الكتب نادرة الوجود لسبب كلفتها وصعوبة نسخها اذ كانوا يكتبونها على الرقوق وبعضها على الورق المصنوع من اوراق النبات المصري المعروف باسم بابيروس فكانوا يصلون اطراف الاوراق بعضها مع بعض ويلفونها درحاً ويحفظونها ضمن لفافة من الجلد او الحرير وكان جل انتباه اشهر رجال الرومانيين منصرفاً نحو الترتيبات العسكرية والاستعدادات الحربية وقد حكمت شريعتهم وقتئذ على كل رجل من احرارهم ان يخدم في العسكرية رغماً عنه في اي وقت كان من سن ١٧ سنة الى سن ٤٦ وكانت عساكرهم مقسومة الى فرق ومواكب كل فرقة تشتغل على ٢ الاف من المشاة و ٢٠٠ من الخيالة ثم زادوا عددها بعد ذلك فجعلوها ٧ الاف وكان

يبرق الفرقة نسرًا من فضة بجملته ضابط من ذوي الرتب على رمح اما الخيالة فكانوا يحملون علامات من شريط منقوش عليها باحرف ذهبية الاحرف الاولى من اسم الامبراطور وعدد الفرقة. ولم يكن عندهم من آلات الموسيقى العسكرية سوى النغير وكان البعض من العساكر يتسلحون بحربات خفيفة والبعض بحربات ثقيلة ويتقلدون الاتراس والباطات على اليمين ويتدرعون بدرع من نحاس او فولاذ وتحت الدرع ثوب احمر واصل الى الركبة وعلى رؤوسهم خوذ من نحاس بشراريب من شعر الخيل واما القواد فكانوا يلبسون قمصانًا مدرعة بخشفات من النحاس او الفولاذ مصفحة احيانًا بالذهب وتحتها اثواب ضيقة واصله الى اواسط الساقين وكانوا يركبون الخيل بدون ركابات وكانت سروجهم قطع قاش ملفوفة بحسب رغبة الراكب وكان تدير العساكر ونظامها متقنًا غاية الانقان وقوانينهم في غاية ما يكون من الصرامة

اما مراكبهم البحرية فكانت شبيهة بمراكب قرطاجنة غليظة وضعيفة البناء عالية الموخر والجوانب ومع انها كبيرة لم تكن تصلح لمصادمة الانواء والارياح العاصفة وكان لها صفان او ٢ صفوف من المجاذيف بحسب عدد طبقاتها واما مقدمها فكان مدرعًا بالحديد على هيئة راس حيوان وعلى ظهرها الاعلى برج غير ثابت تستخدمه العساكر كتراس لاطلاق الاسلحة وفيه جسر يستعملونه وقت العبور والهجوم على مراكب الاعداء وقبل اكتشاف الحك او هو بيت الابرّة التي بواسطتها استؤمن السير في وسط البحار كان سير المراكب منحصرًا في الشطوط. وبحسب المركب كبيرًا اذا كان محموله نحو ٢ الاف كيلة

وكان تجار الولايات البحرية التي على شواطئ البحر الرومي يجلبون الى رومية جميع انواع محاصيل الشرق غير ان تلك التجارة انحصرت فيما بعد باهل رومية بعد ان فتح اوغسطوس البلاد المصرية وصارت حينئذ مدينة الاسكندرية مركزًا لتلك التجارة

وكان للرومانيين مراسع كثيرة قد شيدوها لاجل الفرجة على الوحوش

الضاربة وعلى مصارعة الابطال وانواع اللعب بالسيف وكانوا يحفظون الوحوش البرية في اوجرة حول الفسحة الوسطى من المرايح ويصونون تلك الفسحة تصويبا متينا ويحيطونها بقناة من الماء لاجل صيانة المنفرجين وعند اجتماعهم في هذا المسرح يطلقون الوحوش بعضها على بعض فكانت تضر ببعضها ويقتل منها كثير يقال انه قتل منها ١١ الفاً في مشاهد الاشهر الاربعة التي اقيمت فيها الافراح لاجل انتصار الرومانيين على اهل داسيا وقتل ايضاً في حادثة اخرى نظيرها ٥٠٠ اسد في برهة وجيزة وكثيرون ايضاً من المسيحيين الاولين امامهم الرومانيون بطرحهم اياهم للوحوش في تلك المرايح التي لم يكن تشييدها مقصوداً على مدينة رومية بل وفي اية مدينة ارادوها من البلاد الكائنة تحت ساطنتهم ولم يزل حتى الان يوجد في جبلة من توابع لواء طرابلس الشام اثار ملعب من هذه المرايح يعرف بالتباترو وهو على شكل قوس دائرة مناعده صفوف حول الساحة المتوسطة كل صف منها مرتفع قليلاً عما تحته ونصف الدائرة نحو ١٥٠ قدماً والمحيط من خارج نحو ٤٥٠ قدماً ونحت المقاعد مريض لوضع الوحوش التي كانوا يستحضرونها لذلك الملاعب. وكان من ملاعبهم التي ينتخرون بها ايضاً المصارعة بالسيف اي لعب الحكم وهذا النوع من اللعب حدث في رومية على ما قيل في اواخر الجبل الخامس من تاسيسها اي نحو سنة ٢٥٠ ق م وكانوا قد استعملوه في اول الامراء امام جنازة بقصد الاحتفال والتعظيم ومن ثم صار استعماله في الجنائز عموماً وبعد ذلك حسبوه ضرورياً وواجباً للاحتفالات الرسمية التي كانت تقام في ايام المواسم والاعياد وكانت الاسلحة التي يستعملونها في تلك المصارعات مضررة وقاتلة وكثيراً ما كان يقع عدد وافر من اولئك المصارعين قتلى على الارض لاجل نزاهة المنفرجين وكانت في اول امرها مخصصة للجزيريين واللاسروس ثم للبيد فكانوا يتصارعون بالسلحة مخنفة تارة بالاسلحة الكاملة واخرى بحربة ذات ٢ شوكات وشبكة بواسطتها يجتهد احد الخصمين ان يعرقل خصمه ويشبكه بها فيتمكن من قتله وكان الامبراطور كومودوس

الذي تولى القصرية سنة ١٨٠ م وقد مر ذكره يشترك احياناً كثيرة في تلك
المصارعات متحفظاً على نفسه باعقالات الاسلحة الكثيرة واستمرت هذه المادة
دارجة ومستعملة عندهم الى الجيل الرابع حينما ابطها الملك قسطنطين الكبير
الآتي ذكره في الفصل التالي واقام عوضاً عنها ملاعب اخرى من شأنها ان
تنشط الجسد وتقوية لان تهذمه

الفصل الرابع

في ماجريات القياصرة الرومانيين المسيحيين منذ تنصر قسطنطين
الكبير المذكور الذي نقل كرسي الامبراطورية من رومية
الى القسطنطينية الى ان انقسمت المملكة الى
قيصريتين شرقية وغربية في
سنة ٢٩٥ م

كان الملك قسطنطين الكبير المقدم ذكره عظيم الهامة صحح البنية لايبالي
بالمشقات والاختار ولا يكل من الاتعاب والاسفار نودي باسمه قيصر سنة
٣٠٦ م وكان مشهوراً بالشفقة والرافة منفرداً بالأوصاف الحميدة والآراء السديدة
وقد امتازت ايامه عن ايام باقي القياصرة بامر من مهين عظيمين اولها اعناقته
في سنة ٣١٢ م الديانة المسيحية وثانيها نقل كرسي السلطنة من رومية الى مدينة
القسطنطينية التي بناها في سنة ٣٣٠ م

وقد تمسك هذا الملك بالديانة المسيحية اشد تمسكاً حتى انه لم يكن احد من
الملوك اشد حمية منه عليها فجعلها ديانة الولاة والحكام وهدم هياكل الاصنام
واذ لم يكن في ذلك الوقت اسقف غام على جميع الكنائس فكان هو في واقع

الامر صاحب القول عليهم وفي ايامه ظهر الاعتماد الاربوسي الذي قاومه
 اثناسيوس رئيس اساقفة الاسكندرية فامر قسطنطين بالتمام مجمع اكليزيكي في
 مدينة نيقية ويقال لها نيس في ايطاليا فتقرر به هرطقة اريوس وكان ذلك
 اول مجمع مسكوني ثم ان هذا القيصر افرز من خزائنه مبالغ جسيمة من الاموال
 لاجل انشاء الكنائس في مدينة اورشليم وسائر الاراضي المقدسة فانتخبت امه
 هيلانة على ذاتها العناية بذلك وسافرت من القسطنطينية في بعض شهور سنة
 ٣٢٦م الى اورشليم وكان سفرها هذا علة لسعادة سكان تلك البلاد الذين
 كانوا يلتجئون اليها من اغنياء وفقراء وارامل وايتام ومديون ومرضى ومحبوسين
 فانها كانت تعلم وتنقذهم وتوزع عليهم العطايا والاموال الكثيرة وعند وصولها
 الى اورشليم هدمت معبد الزهرة الذي كان شيدته الوثنيون على جبل الجبلجة
 ثم اعثت بكشف قبر المسيح ويقال انها وجدت بقايا من الصليب فجاءت بها
 الى القسطنطينية وكانت هذه الامبراطورة قبل اعتناقها الديانة المسيحية متزوجة
 بقسطنطينوس كلوروس ابي قسطنطين الذي لم يكن وقتئذ سوى قائد من
 القواد الرومانية فلما صار قيصرًا في سنة ٣٠٥ ب م طأقها بحسب عادة
 الرومانيين الوثنيين طعمًا بزواجه ثيودورة بنت الامبراطور مكسيميانوس الذي
 كان صار قيصرًا في سنة ٢٩٠ ب م فلما ارتقى ابنها قسطنطين الى كرسي
 القيصري بعد وفاة ابيه ارسل فاحضرها الى البلاط الملكي ولقبها بقلب اوغسطا
 اي ملكة ثم عرفها بحقيقة الدين المسيحي الذي كان قد اعتنقه فتصرت من
 يومها وانعكفت على العبادة وكانت غبورة على اقتناء النضائل الانجيلية
 ويقال بان السبب في تنصر قسطنطين المشار اليه هو انه ابصر حلمًا في
 اثناء محاربه مكسنتيوس بن مكسيميانوس المذكور الذي كان ينازعه على تاج
 الملك وهو صورة صليب في السماء من النجوم مكتوبًا تحته بخط من النجوم ايضًا
 وم بهذا تغلب ،، واما السبب في تولد سريبر السلطنة الى القسطنطينية فهو انه لما
 دخل الى مدينة رومية في اول امره مؤيدًا منصورًا على مكسنتيوس المذكور لم

يلقى من اهلها بشاشة ولا ترحيب لتمسكه بالدين المسيحي فغضب من ذلك
وانف ايضا من انعكاف الاهالي على العبادة الاصنامية وصم على ان يبني مدينة
غير رومية يجعلها مقر الحكومة ودار السلطنة فاختر قرية من قرى طراسه التي
تسمى الآن روم ابلي كانت تسمى في الزمن القديم ليفوس ثم صارت بعد نزول
قبائل اليونان هناك مدينة تسمى بيزنتيه نسبة الى بيزنس رئيس الماغريين
المؤسس الاصلي لها في سنة ١٢٠٦ ق م وذلك لنزاهتها وحسن موقعها بين
اوربا واسيا واكونها مشرفة على البحر فرسمها وبني اسوارها وقصورها على راس
مثلث الزاوية منسمة الى ٧ نلال وسماها روميتا الجديدة وبعد ان اتها على احسن
حال رغب الاهالي فيها لكثرة منافعها وفوائدها وقصدها الناس من جميع
الاقطار ثم تغلب عليها اسم القسطنطينية نسبة الى بانيتها المذكور وفي كتب
تواريخ المسكوب يسمونها زرغورود يعني المدينة الملكية والبلغار والاولاق يسمونها
زرغوراد واهل جزيرة اسلده والسكندناوية كانوا يسمونها في القرن العاشر من
الميلاد مكلاغرد يعني المدينة الكبيرة وبعد ان افتتحها آل عثمان سموها
استانبول او اسلامبول وكلنا اللفظتين مركبتان من كلمتين الثانية منها كلمة
يونانية وهي بول او بولي ومعناها بلد والاولى في الاولى فارسية ومعناها العتبة
فكأنهم يقولون مدينة العتبة يعني عتبة الملك وفي الثانية عربية والمعنى فيها
مدينة الاسلام

وبعد وفاة قسطنطين سنة ٣٢٧ م انقسمت المملكة بين اولاد الثلاثة
وثارت بينهم حروب ادت الى زعزعة اركان الدولة الرومانية فكانت برابرة
الشال تهجم عليها من جهة المغرب واكاسرة الفرس تهددها من جهة المشرق
ثم اعقب اولاد قسطنطين المذكورين ابن عمهم المسمى بوليايوس والافرنج نقول
بوليان ويلقبونه بالمجاهد لانه جمع الديانة المسيحية واعاد الديانة الوثنية سنة
٣٦٢ م واخذ يجمع اليهود في اورشليم وابتدا بعمار هيكلهم ليعيب بذلك فساد
الكتب المقدسة ويكذب نبوة المسيح بهذا الشأن قال بعض المؤلفين نفلاً عن

اميانوس احد المورخين الوثنيين الذي عاش في تلك الايام انهم اذ كانوا
 يحفرون الاساس خرجت نار من الارض واحرقت الفعلة وسمعوا رعداً وراوا
 شرارات نارية تخرج من الصخور فكفوا عن العمل وبعد موته تولى يوفيان
 امبراطوراً مكانه سنة ٢٦٢ م وفي ايامه تشيدت النصرانية ثانية ولم تطل مدته
 سوى سنة واحدة وبعده اشتغل خلفاؤه بحروب البربر وغيرهم ولا زال الحال
 في تأخر الى ان قام بالملكة ثيودوسيوس الاول وياقب بالاكبر واستقل بالحكومة
 بمفرده فقسم السلطنة الرومانية بين ولديه اركاديوس وهونوريوس في حال
 حيانه وتوفي سنة ٢٩٥ م وبعد وفاته تولى ابنة اركاديوس الملكة الشرقية وابنة
 هونوريوس الملكة الغربية ولكل من هاتين القيصرتين شان على حدته كما
 يتضح ذلك من التفاصيل الآتية ومن هذا الوقت يتبدى المورخون

بالفصل الاول من القسم الثاني من اقسام تاريخ العالم

العمومي حسبما يستبين ذلك مما اوردناه

في مقدمة هذا

الكتاب

الفسر الثاني

من اقسام التاريخ وهو المعروف بالقرون الوسطى

الفصل الخامس

في امبراطرة القيصريّة الرومانية الشرقية منذ انفصالها عن المملكة الغربية سنة ٣٩٥م الى ان افتتحها آل عثمان سنة ١٤٥٣م

ولما تولى اركاد بوس بن ثيودوسيوس المقدم ذكره على الامبراطورية الشرقية التي كرسها مدينة القسطنطينية كانت تخوي على بلاد فلسطين وفينيقية والشام وقبرص والعرب وكيلىكيا والجزيرة وبلاد مصر واسيا الصغرى وبلاد البحر الاسود والروم ايلي ومكدونيا وداقيا وبها تاسست اليونانيين امبراطورية جديدة استمرت مركزاً للعلوم والتقدم بعد هذا الانقسام باكثر من الف سنة

ثم بعد وفاة اركاد بوس تولى ابنته ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٠٨ وكان كايو في ضعف العقل وقلة الادراك الا انه في ايامه وضعت تلك القوانين الآتي ذكرها التي لم تنزل معتبرة من بعض الوجوه في نقايدات الكنيسة اليونانية ولما نبوا لاون الاول بعد انقراض العائلة الثيودوسية في سنة ٤٥٧م توجه البطريك القسطنطيني فكان اول امبراطور توجه بطريك

وفي ايام انسطاسيوس الذي تولى القيصريّة سنة ٤٩١ م ادخل راهبان من رهبان الافرنج الذين كانوا في بلاد الصين دود الفز الى القسطنطينية وكانا خباأه في عكازيها خوفاً من شرائع تلك البلاد التي كانت تمنع باشد صرامة اخراج شيء مثل ذلك من اقاليمها

وفي زمن جوستينيانوس ويقال له جوستينيانوس ايضاً الذي تولى السلطنة سنة ٥٢٧ م زهت المملكة الشرقية وعظمت سطوتها بسبب انتصاراته الحربية ووضع ديونيسيوس الانثوني التاريخ المسيحي المستعمل الآن وذلك في سنة ٥٢٢ م وكان المسيحيون لحد ذلك الوقت يورخون بالتاريخ الروماني الذي يتدي من تاسيس رومية سنة ٧٥٢ ق م^(١) واشتهر هذا القيصر باشتغاله مع تربيونيان الفقيه في تنقيح السنن والشرائع الرومانية الكثيرة المجموعة منذ اجيال عديدة وفي وضع قوانين وشرائع مدنية تُعرف بالقانون الجوستيناني فكان ذلك من اعظم اعمال عصره وهو الان قاعدة واساس الاحكام المدنية المحاضرة في اوروبا وفي ايام فوكاس ويقال له فوكا ايضاً الذي تولى القيصريّة سنة ٦٠٢ م اصدر امراً الى عامله بمصر بامره برفض جنس المصريين من الوظائف الميربة فحدث من ذلك اضطراب وفتنة في الاسكندرية وكان اكثر هذه الفتنة من

(١) غير ان محققي المتأخرين اثبتوا غلطه في هذا الحساب اذ انه جعل ميلاد المسيح في سنة ٧٥٢ من عمارة مدينة رومية مع ان المسيح ولد قبل موت هيرودوس ويوسيفوس المورخ اليهودي يقول ان هيرودوس مات في ربيع سنة ٧٥٠ من تاسيس رومية فاذا كان المسيح ولد في كانون الاول او في فصل المحريف الذي قل موت هيرودوس فيكون ميلاده في سنة ٧٤٩ من تاسيس رومية وهو قبل التاريخ الدارج بربع سنين وكذلك ذكر لوقا في انجيله ان يسوع كان ابن ٢٠ سنة في سنة ١٥ من سلطنة طيباريوس قيصر وطيباريوس هذا صار شريكاً في السلطنة مع اوغسطس قيصر سنة ٧٦٥ من تاسيس رومية واذا اضفنا الى هذا التاريخ ١٤ سنة تامة من ملكه بعد ذلك يكون المجموع ٧٧٩ وهي السنة التي شرع فيها المسيح في خدمته واذا طرحنا من هذا المجموع ٢٠ سنة التي هي عمره في ذلك الوقت فيكون الباقي ٧٤٩ سنة ايضاً ولذلك رجح اكثر العلماء بان ميلاد المسيح كان قبل التاريخ المستعمل الان بربع سنين على ما ذكرنا

طائفة اليهود هناك فحكم عليهم هذا الفيصران يتنصروا فتنصروا رغماً عنهم
 وخلفه بعد ان قتل هيراكليوس ويقال له هرقل ايضاً في سنة ٦١٠ م
 فاجرى حروباً كثيرة مع الفرس وغيرهم وبعد ان رجع الى القسطنطينية دار
 ملكته ظافراً مؤيداً على ابرويزخسرو ملك فارس اهل ادارة الاحكام وانهبك
 في مجادلات دينية من جهة لاهوت المسيح وفي اثناء ذلك افتتح المسلمون مدينتي
 القدس والشام واستولوا على جانب كبير من سوريا وكان وقتئذ نائبة على مصر
 رجل من القبط يقال له المقوقس المشهور بانه سلم البلاد المصرية مع وجود
 ١٠٠ الف عسكري من جنود الرومان فيها الى ٤ الاف فارس من العرب
 تحت راية عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب

ومنذ وفاة هذا الفيصر الى قيام جوستينيان الثاني سنة ٦٨٥ م لم يحدث
 شيء الا مهاجمات المسلمين القسطنطينية ولذلك اخترع رجل يقال له كاليستيكوس
 السوري النار المعروفة بالنار اليونانية وكانت تحرق في وسط الماء للدفاع عن
 هذه المدينة وذلك سنة ٦٧٣ م

ولما تبوأ سير الساطية ابو الثالث ويسى ايضاً لاون الايسوري او اللوزرياني
 سنة ٧١٦ افتتح في ايامه باب الجبال بين الكنيستين الشرقية والغربية بسبب
 وضع الصور في الكنائس وكانت الروم تريد ابطال هذه المادة حتى انهم كسروا
 كثيراً من الابقونات وداسوها في الشوارع والطرق حيث ان المسلمين كانوا
 يعيرونهم بسببها ويتهمونهم بعبادة الاوثان ووقع الفجور بين الكنيستين حتى آل
 الامر بها الى الانقسام فلما استولت على المملكة زوجته ابريني بعد موته بالنيابة
 عن ولدها قسطنطين الذي سميت عينيه اخيراً لتستبد بالملك اعادت الصور
 المذكورة الى الكنيسة الشرقية

ثم لما اتصلت ادارة القيصرية ببرداس في ايام ابن اخيه ميخائيل الثالث
 الذي تولى السلطنة سنة ٨٤٢ م وكان برداس المذكور معجباً للعلوم والفنون
 فاقام فونتيوس الشهير وكان من اعظم اهل العلم في وقتو بطريركاً على

القسطنطينية سنة ٨٥٨ م

ولما تولى الملكة باسيل المعروف بالماكديوني في سنة ٨٧٦ م وكان هذا الملك موصوفاً بالفراصة والذكاء ومحباً لانتشار المعارف فاصلىح نظامات البلاد وشرائعها وألف كتاباً لابنه ليو (لاون) في فن الاحكام طبع في باريس سنة ١٥٨٤ م وترجم الى اللغة الفرنسية سنة ١٥٩٠ م وله ايضاً مجموع شرائع تعرف بالباسيلية في ٦٠ مجلداً ابتداءً بها هو واكملها ابنة وهي مطبوعة ايضاً في باريس حديثاً

ثم بعد هذا القيصريين وجد لاليكسيوس كومنينوس الذي تولى القيصرية سنة ١٠٨١ م ابنة يقال لها حنة كومنينينا ذات عقلٍ وادبٍ وذكاءٍ منرطٍ وكانت من احسن نساء عصرها وانجبت واعظم من اشتهر من جنس النساء في فن التاريخ كما اشتهر ابوها المذكور بنجيانته للصايبيين ومقاومته لهم سرّاً مع انه كان يدعوهم في اول الامر من اوربا ويعدهم بالمساعدات قيل ان ذلك كان منه لتدبير سياسي به بقي سلطنته من مغازي طوائف الافرنج التي كانت طالما نشتاق الى فتح بلاده كما يتضح ذلك من الابحاث الآتية عند الكلام على الحروب الصليبية المذكورة

وبعد ذلك بنحو قرن ايضاً لما انزل اليكسيوس انجيلوس اخاه اسحق انجيلوس عن التخت بعد ان كان تولى السلطنة سنة ١١٨٥ م وسئل عينيه ثم سبته هرب ابنة اليكسيوس الى رومية واستغاث بالبابا اينوسنت الثالث ووعده بان يضم الكنيسة الشرقية مع الكنيسة الغربية ويجعل السلطنة الشرقية خاضعة لاحكام الباباوات وقوانينهم ولذلك امر البابا فواد التجريفة الصليبية الرابعة ان يساعده على استيلاء الملكة ويقذوه من تعدي عه وظلمه ففعلوا وحاصروا القسطنطينية وحرقوا عمارة الروم التي كانت تحافظها وحينئذ نادى اهلها باسم اليكسيوس ابن اسحق المذكور بعد ان هرب عمه خوفاً من القتل فاستولى على مملكة ابيه لكن لما عرفت الروم بما تعهد به البابا استعظوا الامر ولا سيما خدش استقلال كنيستهم فعزلوه وولوا مكانه اليكسيوس دو كاس الملقب

مازوفلوس واذا لم يف هذا ايضا ما وعد به سلفه للبابا نهض اللاتينيون
وحاصروا المدينة وتملكوها ونهبوا اموالها وهدموا قصورها وابنيها الظريفة
واقاموا عليها قبائدهم. بودوين امبراطورا فاستمر حكم اللاتينيين على هذه
السلطنة من سنة ١٢٠٦ الى سنة ١٢٦١ وهم في حروب دائمة مع الروم الذين
ما برحوا يريدون استخلاصها وكانوا قد أسسوا وقتئذ ممالكين روميتين احدها
في نيقية سنة ١٢٢٢ ومالكها ثيودورس لاسكاريس والثانية في طرابزون ومالكها
اليكسيوس كومنينوس ثم في سنة ١٢٦٠ م نهض ميخائيل باليولوغوس ملك
نيقية مع صاحبه يوحنا لاسكاريس وهاجما القسطنطينية واستخلصاها من يد
الملك بودوين الثاني واعادا اليها تخت السلطنة وجلس عليه ميخائيل
باليولوغوس المذكور ثم خالته بعدة عدة ملوك الى ان هم السلطان محمد الفاتح
العثماني في سنة ١٤٥٢ على هذه المدينة واستخلصها من يد قسطنطين الباليولوغوس
الذي هو اخر ملوك الروم فيها وجعلها دار سلطنته ومركز حكومته ولا زالت بيد
خلفائه الى هذا اليوم

الفصل السادس

في المبادي الفلسفية العمومية منذ تنصر الملك قسطنطين الكبير
باني مدينة القسطنطينية الى ظهور الدولة العباسية في المشرق
والامبراطورية الغربية يعني تملك كراوس الاكبر في
المغرب سنة ٨٠٠ م

يتضح من التفاصيل الآتية في البحث الثاني كيف ان العلوم والفنون وكل
انواع التمدن الذي اكتسبه الرومانيون من اليونانيين بظرف ٦ قرون مكثوا

بها متسلطين على اقاليمهم وكانوا ينشرونها في البلاد التي يفتحونها ويستولون عليها قد زال دفعة واحدة من جميع اقطار الامبراطورية الغربية منذ استولى البربر على اقاليمها فانعدم التمدن القديم من بلاد المغرب في القرن الخامس من الميلاد ولكنه بقي محفوظا في بلاد المشرق مدة القرون الوسطى وكان مرتبطا باحوال امبراطورية القسطنطينية قوة وضعفا وذلك ان ما صدر من القيصر قسطنطين الكبير من التدبير في حفظ السلطنة الرومانية بنقلها الى سواحل الخليج القسطنطيني كان وقاية لاصول التمدن اليوناني ولما خلت ايطاليا من كرسي القياصرة الغربية اغدق القياصرة الشرقيون بالانعام على اصحاب العلوم والمعارف وبنوا صنائعهم السلطانية فيها حول القسطنطينية التي هي دار اقامتهم فكانت الشوكة والثروة اللتان بهما احياء الفنون وامتدادها مع حضور القيصر الذي به تكون قوتها وشرفها وسائر ما تتحرك به العقول البشرية كل ذلك محرزا للشعوب الشرقيين ذوي البراعة والنشاط على ممارسة العلوم والفنون والاشتغال بها واصبحت جميع الاقاليم وسائر ذوي المعارف يجيئون الى القسطنطينية ما يجب عليهم تاديبه من العلم والنصاحة وصارت هذه المدينة نجز لنفسها من التحف والفناتس ما كانت تبعث به اسيا منذ قليل من الزمان الى الكرسي القديم (رومية) ولما دخل ارباب البراعة في الدين المسيحي اكتسبوا اذابا جديدة كسبهم حلة الرونق والبهجة ثم ما وقع بعد ذلك من تعارض الدين المسيحي والفلسفة الوثنية وتقاومها ترتب عليه ما لا يحصى من ملح الانشا النصيحة الادبية لان الفلاسفة الوثنيين اليونانيين لما ارادوا تنفج عبادة الاوثان وتهذيبها وشرع في ذلك امينوس سگاس الذي سبقته الاشارة اليه في الفصل الثالث ليعلموا شان تلك العبادة بذل كذلك امناء الدين المسيحي معارفهم وانفسهم لاطهار الحق فتولد عن ذلك علان جد بدان وهما فلسفة افلاطون الجديدة التي تقدمت تفاصيلها في الفصل المذكور والفلسفة السكولانسيكية التي تسلطت وقتئذ على المكاتب المسيحية كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية

ان المسيحيين منذ عهد القيصر قسطنطين اعتنوا اعتناءً زائداً في درس الفلسفة والفنون أكثر من قبل والملوك لم يغفلوا عن اية واسطة من الوسائط للبحث عن تقوية العلوم وتنشيطها واقاموا مدارس في كثير من المدن وجمعوا فيها مكاتب ايضاً ونشطوا العلماء بالمراتب والانعامات والالقباب السامية وهذا جميعه كان لازماً في ذلك الوقت لمقاومة مضادهم وابطال الوثنية شيئاً فشيئاً لان ديانة الوثنيين كانت تستمد كل اعانتها من علم اصحابها بل اذا كان الشبان المسيحيون لا يقدرّون على ايجاد معلمين من ابناء دينهم كانوا يلتزمون للذهاب الى المعلمين الوثنيين معلمي الفلسفة والبيان ويخشي من ذلك على عقيدتهم ومن ثم كل الذين من اليونانيين او الرومانيين ارادوا الانتظام في سلك العلماء مدة القرن الرابع اوقفوا ذواتهم خاصة لفنون الفصاحة والنظم والتاريخ والذين اشتهروا فيها من الامتين المذكورتين لم يكونوا قلائل ولأن كانوا مقصرين دون الدرجة المطلوبة في مثل هذا المطلب

اما الذين تعلموا الفلسفة في القرن المذكور فكانوا الا القليل جداً من الشيعة الافلاطونية الجديدة فاذن لا يستغرب وجود بعض آراء افلاطونية في كتب المسيحيين كما في كتب غيرهم لانه لما اتسعت في مكتب الاسكندرية دائرة هذه الفلسفة داخلها شيء مما يجرّض على التعمق في العبادة الوثنية واستعمال ما يستخدم به على زعمهم الجنّ الروحانيات على ما تقدم في ما سبق اذ ان اهل ذلك العصر كانوا يميلون لمثل تلك الاوهام الفاسدة (١)

(١) نخصيصنا هنا اهل ذلك العصر بتلك الاوهام الفاسدة انما هو تبعاً للاصل المنقول عنه والآفانه معلوم بان الاكثرين من شعوب المشرق لازالوا حتى الان يعتقدون باستخدام الجنّ وقطع ما انكروا على ذلك وقت من الاوقات بل لازالوا يتعاطونه الى يومنا هذا ويبرهنون على صحته ومن سوء الحظ ان اهالي اوربا الذين لم الفضل بكونهم كانوا علة تزيين والانكار عليه منذ قرون قليلة قد اخذوا الان في تجديدهم ومعاطاة فنّ العرافة واستحضار الارواح ويسمون اصحاب هذا العمل اسيرتيين اي روحيين فهل من لوم اذن على من يخشى بعد هذا ونظائره كتجديدهم حرق الموق الذي سبقت الاشارة اليه في الكلام

والفلاسفة الوثنيون منهم كانوا في المغرب اقل ما كانوا في المشرق فكان منهم في سوريا ببلنجس الكلسيسي من غير شرح افلاطون او بالمحري زور كتابات نسبتها الى ذلك الفيلسوف وما كتبه بدل على انه كان ذا خرافات عبوساً مدعائاً وقواه العقلية من الدرجة الوسطى وتبعه ايد بسيموس ومكسيوس الافسسي وخلافها وفي الاسكدرية قامت هيلانيا بنت تيون الشهيرة واولادورس وسينبوسوس الذي كان عبارة عن نصف مسيحي وغيرهم من الذين هم اقل شهرة منهم واخذوا ينشرون هذه الفلسفة

ولما كثرت معارضة المتعصبين منهم لهذا المذهب مع روساء عبادة الاوثان الى الديانة المسيحية بالمشرق وكان اشهرهم رجل يقال له قلوذيانوس دوايكربوس وببلنجوس المذكور فساروا الى مدينة رومية التي كان الدين المسيحي وقتئذ قد تسلطن على جميع اهلها على اختلاف درجاتهم واخذوا معها رجل يقال له بورفير او بورفير يوس الصوري كان رجلاً حاذقاً ذكياً عالماً كتب له كتاباً من جللتها كتاباً مطولاً ضد المسيحيين لانه كان عنده خرافات واوهام اكثر من الاستدلال بالبرهان كما يستدل على ذلك من كتبه الباقية الى يومنا هذا (لان الملكين ثيودوسيوس الثاني وقالتيانوس الثالث امرا اخيراً باحراق كتبه الخمسة عشر) فاشتهر بورفير هنا هناك بما ابداه من المعارضة للانجيل على وجه التعنت والعناد الذي لا يلائم الفلاسفة واخذ هو واصحابه في ان يشبهوا حياة المسيح وعجائبه واعماله بتاريخ حياة الفلاسفة القدماء واجتهدوا في ان يقنعوا السذج والنساء اولآ بان الفلاسفة لم يكونوا دون المسيح واظهروا لهم ارجيطس من تارتتم وفيثاغورس وابولونيوس نيانيوس الفيلسوف الفيثاغورسي (الذي ولد بعد بداية القرن الاول ومات قرب نهايته بعد ان سافر الى كل الممالك من

على العقائد الرومانية القديمة الماخوذة عن قدماء اليونان ايضاً من قهقرة الدهر بنا الى ان نصل الى عصر مستقبل نظير تلك الاجول تراهم اهله يلجئون فيه بالامور التي لازالوا الان يعتقدونها كاذبة كالتنجيم والسحر وتعبير الاحلام الى غير ذلك من الترهات

اسبانيا الى الهند واشتهر كثيرا بملاحظاته المحكمة وادعائه بالمعرفة والقوى
 المائة وكان مشعبًا مكارًا) متزيين بزى المسيح نفسه ولذلك صدر امر
 قسطنطين الملك، بغلق مكتبهم الذي فتحوه في رومية لمعارضة الديانة المسيحية
 على هذه الصورة وامر كذلك بغلق مكتب الاسكندرية وذلك في سنة ٢٢٤ م
 ومن ثم اندرست معالم هذا المذهب من رومية ومن الاسكندرية وبقي مركزه في
 اسيا الصغرى من ذلك الوقت الى سنة ٢٥٢ م عندما ظهر مكسيوس
 الافيسي الذي مر ذكره وصاحبه كريسنت الليداني واوريب المدوسي
 وحمل كريسنت المذكور الفيصر بوليانوس الجاحد على التمسك بالفلسفة التي
 تتعلق بما وراء الطبيعيات التي كان عليها هولاة السفسطائية وترك الديانة
 المسيحية كما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الثالث الذي مر فتقوى حينئذ
 مذهبهم تحت حماية هذا الفيصر ورجعوا فتحوا مكتب الاسكندرية وجددوا
 في اثينا مكتبًا اخر وصاروا يعلمون فيها المذاهب المضادة للدين المسيحي على
 رروس الاشهاد حتى انه لم يجسر احد من الملوك خلفاء بوليانوس على منع
 ذلك الى ان ظهر الفيصر ثاودوسيوس الاكبر وصدرت اوامره بتخريب
 هياكل الوثنيين فتغرب هبكل سرييس بالاسكندرية واحرقت المكتبة ايضا
 واما مكتب اثينا فاغضى عنه القياصرة وبقي يتعلم فيه تلك المذاهب المضادة
 بالكعبة للديانة المسيحية مدة ٥٠ سنة الى ان جاء بلوتاركة ويقال له بلوترخس
 بن نسطور احد اصحاب كريسنت الكاهن الاكبر الى تلك المدينة وعلم في ذلك
 المكتب هذا المذهب الافلاطوني الجديد وبعده تولى التعليم في تلميذ سريانوس
 ولم يزل كذلك الى سنة ٤٥٠ م وآنف سريانوس المذكور مولفات تصدى فيها
 الى التوفيق بين الآثار الدينية المنقولة عن ارفة وفلسفة فيثاغورس وافلاطون
 وحمل خلفاءه ان يجعلوا لهذا المذهب الجديد قواعد واصملاً يكون مبنياً عليها
 وكان له تلميذ يقال له بروكلوس لم يفته شيء من العلوم التي اشتمل عليها هذا
 المذهب فألف في العلوم الرياضية وفي الطبيعيات وعلم الاخلاق وما فوق

الطبيعيات والاداب والميثولوجيا واسرار السحر الوهمية وكان قد اخنار معارف افلاطون واصول ارستطاليس وعمل عليها وضم الى ذلك ما نتج عن قوة قريحته من المعارف غير انه لما الجمأة الضرورة الى التوفيق بيته وبين جاهلية اليونان لم يمكنه ما كان قائما بذهنه من تهذيب الشرك بجماعة طريقا قانونيا لا يعدل عنه فتمن فلسفته باوهام الشرقيين واثار ارفه والكهانة الادعائية والتخيلات التي نشأت عن التعمق في تلك العبادة ثم مات في سنة ٤٨٥ م وتعاقب بعده على مكتب اثينا ٢ من اهالي بر الشام وهم مارينوس الساليسي واسيدورس الغزي وداماسيوس الدمشقي وازداد اخرون رجلا يقال له امونيوس بن هرمياس وهم ايضا لم يمكنهم ان يرفضوا بالكلية ما كان متسلطنا في وطنهم من الاوهام الروحانية التي تستعمل لاستخدام الجن الآن داماسيوس المذكور اجتهد في ان يعيد تعليم العلوم المصبوطة الى ما كان عليه اذ بها يمكن اصلاح طرق هذا المذهب غير ان هذا الفيلسوف كان اخر مفسري مذهب افلاطون وخاتمة معلمي المكتب المذكور الذي تخرج فيه في مبادي القرن السادس هرمياس واوايينيدور وساطيوس وهيبيروقلز وكان اشهر من تخرج به رجل يقال له سيباسيوس فانه كان ماهرا في الطبيعيات بارعا في علم الاخلاق عالما بمذاهب افلاطون والاسطوانييين وارستطاليس شديد الكرامة للتعق والتدقيق في العبادة المعبر عنه بالطرق الباطنية وبيعض الرموز والاشارات كحكاية الاشياء على لسان الطيور والعجاوات ثم في سنة ٥٢٩ م صدر امر بوسنتيانوس الاول قيصر القسطنطينية بغلق مكتب اثينا المذكور فغلق ولم يبق في تلك المدينة الا مكاتب الفقه والنحو فالتجأ داماسيوس وغيره من الفلاسفة الوثنيين الى الاسكندرية ثم رحلوا منها الى العجم مؤمليين ان كسرى انوشروان باخذ بتأصرهم حيث انه كان عدوا لهذا الفيصر وللديانة المسيحية فلم يقدم شيئا غير انه تشفع فيهم الى الفيصر المذكور وكان من جملة المشاركة التي بها انتهى النزاع الذي كان حاصلًا بين هذين الملكين في سنة ٥٢٢ م ان يعود هؤلاء الفلاسفة الى

السلطنة الرومانية فتتبعهم الرومانيون لكن صاروا يراقبون مذهبهم ويضيفون عليه حتى اندرس بالكلية مع عبادة الاوثان وهكذا انتهت هذه الشيعة التي اقلقت العالم المسيحي في تلك الاوقات وخلفها مذهب ارستطاليس الذي تسلطن وقتئذ في المكاتب والكنايس البصرانية وكان اول ما برزت فلسفة هذا الفيلسوف من خدرها انارها يوحنا فيلوبونوس بشرحاته واضطر اليونانيون الى معرفتها لان ذوي الطبيعة الواحدة والنساطرة اخذوا بدحضون اراء مجيبي افسس وخلقيدونية ببراهين مسنودة على هذه الفلسفة وكانوا قد درسوا هذه الفلسفة وترجموا كتبه الاصلية من اليونانية الى لغتهم العامة حتى يمكنوا تابعيهم من قوة الجدل وترجم سرجيوس راساننسس الفيلسوف المعتقد بالطبيعة الواحدة مولفات ارستطاليس الى اللغة السريانية واورانيوس السوري نشر تعاليمه في بلاد فارس حتى طبعها في عقل كسرى ورجل اخر نسطوري ترجمها الى اللغة الفارسية واهداها الى هذا الملك غير انه كان البعض منهم رفض فلسفة افلاطون وارستطاليس وتفلسف حسبما بدله عقله ومن جعلتهم قزماس النسطوري المصري المشهور بجغرافيا الهند وكانت اراؤه خصوصية مطابقة لاراء الشرقيين اكثر من ان تطابق اراء اليونانيين والكاتب الذي ابني فوتيوس لهذه الازمنة بعض خلاصات من شرحه كتاب الاكيناك ولازال الحال على هذا المنوال الى ان عادت الفلسفة السكولاستيكية اي المدرسية التي سبقت الاشارة اليها

والاصل في هذه الفلسفة المسماة بالسكولاستيكية هو ان القيصر قسطنطين الكبير بعد ان بنى مدينة القسطنطينية كان احدث فيها مكتبا عموميا يسمى اوكتوغونيه وكانت تعارض فيه فلسفة افلاطون بفلسفة ارستطاليس لكن توغل فيه الفلاسفة في اراءهم وارخائهم العنان في احوالهم بالاحكام الشرعية والقوانين الالزامية ثم وسع القيصر ثاودوسيوس الثاني منذ تولى زمام المملكة في سنة ٣٩٤م دائرة التعليم في هذا المكتب المسيحي وزاده فخرا وشرقا غير انه لم يدم على رونقه

والهجوم حيث وقع خطب اعدم منه مكتبته في سنة ٤٧٦ لكن لما امر القيصر
يوستينيانوس الاول بغلاق مكتب اثينا على ما ذكر اعاد الى هذا المكتب رونقه
الى ان سطعت انواره على ظلمات الفقه الروماني حيث حل مشكلاته وكشف
الفنوع عن معضلاته

وكان في ذلك الوقت اقتنع اكثر المتعلمين بفائدة العلوم والفنون للجنس
البشري واقام مدارس عمومية في المدن الكبيرة كالقسطنطينية ورومية ومرسيليا
وادسسه ونسيس وقرطاجنة وايون وتريشس وتوظف على مصروف الملوك معلون
فيهم الاهلية لتعليم الشبان كما ان بعض الفلاسفة والرهبان ايضا في القرن
الخامس علومهم ما يعرفونه غير ان كلاً من حالة العجز السيئة وهجمات الام
البربرية على المملكة الغربية وشدة الافتقار الى العقول الذكية منع من اجتناء
ثمرات الاهتمام في امتداد العلوم حسب مرغوب المتوظفين له

وكان في الولايات الغربية واسبانيا في فرنسا اهل علم كان ينبغي ان يقندي
بهم منهم مكروبيوس وسالفيانوس وقيسنتيوس الميرينسي وانوديوس
وسيدونيوس ابولينارس وكلوديانوس مامرتس وديراكوتتيوس نعم انهم لم يصلوا
الى درجة المؤلفين اللاتينيين القدماء في كتاباتهم غير انه لا يجلو واحد منهم من
الطلاوة في حد ذاتها اذ انهم اشتغلوا في درس الاشياء القديمة وعلوم اخر لكن
البرابرة المهاجرين عطلوا الولايات الرومانية وامتلكوها وخنقوا هذا النبات
الذي كان يؤمل جني ثماره في اجيال مستقبله لان جميع دول الامم استخفوا
بالعلوم والفنون واعتبروا السلاح والفروسية الاصل الوحيد لكل المجد
والنضائل ولهذا كانوا اينا حلوا نبت البربرية وازدهت وترك طلب العلم بكليته
للكهنة والرهبان الذين لما اكتفتهم القدوة الرديئة والعيشة في وسط الحروب
والاخطار فقد اربوا رويداً رويداً كل لذة بالعلم الحقيقي والشهرة واستعاضوا برسم
العلم وظلهم فتعلم الطلبة في مدارسهم العلوم السبعة التي كانت تنعم الذاكرة اكثر
من ان تقوي الذكاء وتصلح القوى العقلية كما يتضح ذلك جميعه من التفاصيل

الآتية في البحث الثاني وبيننا السبب كادت العلوم ان تلتشى في ختام هذا القرن ولم يبق سوى ظلها .

اما الفيلسوفون الذين عرفوا دون غيرهم جودة درس الفلسفة ونفعه فلم يتبعوا في هذا القرن منهج ارسططاليس لاثم احسبوه معلما صارما ويرشد الناس في طريق شائك ولربما كانوا ياتذون به لو كانوا يقدرون على ان يقرأوه ويفهموه ولكن نظام افلاطون كان معروفا عندهم منذ اجيال متتابة اكثر من ذاك وكانوا يظنون انه ليس اقرب تناولا لافقظ بل اكثر مطابقة لمبادئ الديانة وكذلك وجدت عندهم كتب افلاطون الاصلية في ترجمات فكتورينوس اللاتينية ولذلك افتنع الذين كان عندهم ذوق الفلسفة بقضايا افلاطون على ما ذكرنا وكانت حالة العلم بين اليونانيين واهل الشرق نظرا لتثقيفهم والعلوم الصعبة احسن من ذلك قليلا حتى انه وجد بينهم عدد اعظم من الكتبة الذين اظهروا علامات الذكاء والدرس والذيق رغبوا في درس الفقه التجاوا الى بيروت حيث كانت مدرسة شهيرة للفقه والى الاسكدرية وتلاميذ الطب والكيمياء ذهبوا الى الاسكدرية ايضا ومعلو الصاحبة والظم والفلسفة فتحوا مدارس في كل مكان تقريبا غير ان المعلمين الموجودين في اسكدرية والقسطنطينية واديسا كانوا يحسبون انهم يفوقون غيرهم في العلم والتعليم .

وفي القرن السادس تمكن البربر في المملكة الرومانية الغربية فاضر ذلك جدا بكل انواع العلوم والفنون ولولم تجدد العلوم ملجأ بين الرهبان والاساقفة لتلاشت كلها واهل القرون الاخيرة المحاضرة يدبونون لهم في حفظ كل المؤلفات القديمة التي وصلت اليهم من بقايا تلك الازمنة دنية كانت او دنيوية بغض النظر عن كثيرين منهم وخاصة من المتسطين على الرهبان كانوا غير متتبيين لواجباتهم ومنهم من كانوا ضد العلوم والفنون لتوهم انها مملكة للتفوي حتى ان البعض ارادوا ان يحرقوا المؤلفات الاقدمين وشيدوا عمدا الجهل والبربرية واوغلوها بالبساطة المسيحية ولذلك كانت العلوم التي توخذ عن تلك المحاس

الرهباية محصورة في دائرة ضيقة جدًا كما يتضح ذلك جميعه من التفاصيل
الموردة في البحث الثاني

اما اليونانيون فكانوا يطالعون العلوم العقلية بأكثر غيرة وكان بعض
الملوك ينشطون طالبي العلم وخدماته من اي نوع كان بالنباشين والجواري
المعتبرة غير ان عدد الاذكياء منهم كان اقل مما في القرن السابق
ثم في القرن السابع بلغ الجهول النضيج درجة لا يصدقها الا الذين فحصوا
اعماله العلمية والتأثيل الباقي من العلم كان محصورا في قلايات الرهبان ولا سيما
رهبان الكنيسة الغربية على ما تقدم غير ان الذين عرفوا منهم قيمة ما عديم
كأما فيليني جدا اما الاكثرون فكانوا منصيين على درس كتب ومؤلفات
لا طائل تمتمها ولكن انكثرة كانت ارقى حالا من بقية بلاد اوربا لان ثيودورس
الكبليكي استنف كترسري ادخل في هذه البلاد حسب التراءة والعلم
اما اليونانيون الذين اخذوا في هذا القرن ان يكتبوا نظما ونثرا فقد
اغلغوا على النضابا البسيطة الواضحة بعبارة لهم المعقدة الوحشية وما كتبه الملائينيون
كان ركيكا وفسادا الا ما ندر وقلب اليونانيون والرومانيون التاريخ
وافسده لان موسكس وصفرونيوس وغيرها من اليونانيين وروايو وبوناس
المهيريني وادبنوس اودادو وادامنوس من الرومانيين ابقوا الى المتأخرين
ترجمات بعض القديسين عديدة الذوق وخالية من رائحة الاحتمال ومن طلاوة
التركيب وكان اليونانيون سببهم في كتابة ما شاع عن الاوقات القديمة بدون
نعمن ومن هنا اصل بعض الخزعبلات التي استلها بعد ذلك الملائينيون وتمسكوا
بها ومن ثم انتهت الفلسفة بينهم والذين ابقوا تركها بالكليية اكتفوا باستظهار
بعض كلمات من بوثينيوس (لعلة بويسه) وقسيودور وزير الملك ثيودورس
الاستروغوطي وسوف يأتي ذكرها في البحث الثاني لانهم لم يعباوا بفحص الامر
ولم يقدروا على استشارة اليونانيين لعدم معرفتهم لغتهم اما اليونانيون فانهم منذ
تركوا فلسفة افلاطون بقوا متمسكين بفلسفة ارستطاليس حيث لا يمكنهم ان

يستغنوا عنه في منازعتهم مع موحدي الطبيعة على ما تقدم
وفي القرن الثامن كان بين اليونانيين جماعة من اهل العلم قادرين على
ابقائهم لو كان الوقت مساعداً لهم لكن الفن الدائمة التي كانت تنهدد ليس
الحكومة فقط بل والديانة المسيحية ايضاً منعت من وجود من يقوم بناصرهم
ويسعفهم في ذلك ولهذا السبب يكاد ان لا يوجد بينهم في هذا القرن احد اشتهر
بجس انشاء والذكاء او بغنى الافكار والمعرفة ودقة البحث وما آلفه البعض
بقصد الاشتهار انما هو خطابات ركيكة وسير قد يسين لا طائل تحتها
ومفاوضات خالية من الفائدة وشنائم مغيظة للرومانين وانتصار الالابونات او
بالعكس وبعض توارخ بدون ترومي

غير ان الفلسفة الارسططالية نجت في هذا القرن كثيراً في كل مكان
وكانت تطلع في المدارس لان الفلسفة الافلاطونية الاكلستيقية كادت تنقئ
رأساً من المدارس الى خلوات الرهبان بعد ان شجبت عقائد اوريجانوس مراراً
عديدة وقامت المنازعات النسطورية والافتيجية واشتهر في الفلسفة الارسططالية
المذكورة القديس بوحنا الدمشقي وفاز في انتشارها بتاليف عدة نذات قصد
بها فائدة البسطا فصارت نذاته هذه سبباً لتسك كثيرين في هذه المبادي ببلاد
اليونان وسوريا وكذلك اليعقوبيون كانوا يجتهدون ايضاً في رواجها ليمكنوا
من المجادلة مع اليونانيين على ما تقدم ايضاحه قبلاً

اما تاريخ الغربيين في هذا القرن فانه مشحون بدلائل كثيرة على الجهل
الذي يحق التعجب منه اذ لم يبق في رومية وبعض مدن ايطاليا الا اثار طفيفة
من الاداب والفنون وكان العلم وقتئذ ترك القارة وهاجر الى جزائر البحار بين
البريطانيين والابرلنديين لان الذين نبغوا في هذا القرن من اللاتينيين
واشتهروا بالمؤلفات العقلية كانوا كلهم تقريباً من اهل هذه البلاد واشهرهم
القوين وبيدا واغبرت واكليمندوس ودنغال واكا وغيرهم والقوين المذكور هو
الذي حرك كراوس الاكبر الى تبديده ظلام الجهل من بلاد اوربا وكان ذلك

في اواخر هذا القرن وسوف تأتي تفاصيله في البحث الثاني

الفصل السابع

في حالة الاداب والفنون في القبطية الشرقية خاصة منذ توطيد
الديانة المسيحية واستراحتها الى نهاية القرن الثامن

انه من بعد ان هدم الدين المسيحي قواعد الشرك واندرست اثاره صارت
الامبراطورية الشرقية في امن وطمأنينة واستراح امناء هذا الدين وصاروا
لا يشغلون الا بمشاجرات واهية فترتب على ذلك انحطاط الاداب البشرية
عن درجتها حيث صارت غير ضرورية في المدافعة عن الدين غير انه حوفظ
على بعض فروع ضرورية كالنارنج والقفه ولا سيما بعد تلك النكبات التي
اصابت مكاتب انطاكية واسكدرية وبيروت وقيسارية بل ونفس مكتب
اوكتوغونه المذكور وهي مفصلة في كتابا زبدة الصحائف في اصول المعارف
فلا حاجة الى تسويد صحائف اخرى بها هنا

اما الانشاء والشعر وما شاكله من الفنون فقد طرحوا في زوايا الامل
لانه وان يكن القديس غريغوريوس النازبيري نظم وقتئذ قواعد الدين
المسيحي في سلك الاشعار بلطف اللسان اللاتيني حتي صار محرر بيانها باخذ
الالباب ويستلب العقول غير انه مع ذلك ظهر للناس ان الشعر مضاد لهذا
الدين حيث انه يرفض الخرافات والاكاذيب التي هي حلية الاشعار وكان
موضوع اغلب القصائد اليونانية التي نظمت بعد ظهور الديانة المسيحية وقابع
ميشواوجية هي من ذلك القبيل اذ ان نونوس الاخيمي (اخميم قرية من قرى
مصر) نظم في عهد القيصرا ركا ديبوس النبي الذي تولى القبطية الشرقية

عند انقسام المملكة الرومانية بينه وبين اخيه مجسبا تقدم قصيدة حماسية ضمنها
سطوات مجوس واحيي بها النظم من البحور المسدسة الاجزاء التي كانت مهجورة
مدة طويلة وايضا مصري اخر نظم قصيدة باللسان اللاتيني في اختلاف
بروزرينة ثم لما نصر نونوس المذكور ندم على ما فرط منه في ما نظمه من
الاكاذيب الميثولوجية وشرح انجيل القديس بوحنا الانجيلي وفي اخر القرن
الذي كان فيه هذا الرجل نظم موسى النحوي قصيدة يقال لها هيرولياندر
وزعم بعضهم انها لموسى عصري اورفه ضمنها جميع الخرافات مع تسلطن الدين
المسيحي وقتئذ وكذلك كتوس الازميربي نظم تكملة لقصيدة اوميروس المسماة
الباداة ذكر فيها ما فات اوميروس الى اخذ مدينة صور غير ان هذه التكملة لم
تلقى اصلا في البلاغة والظف والمحسنات البدعية وانما جاءت على وزنها في
البحر ومع ذلك فهي اعلى مما انشي في القرن الخامس ثم لاجل تنعيم التاريخ
الشعري المتعلق بحرب مدينة صور المذكورة نظم قلونوس الاليكوبولي قصيدة
خالية عن الحماسة وحسن الاختراع ضمنها اختلاف ميلانة وفي ذلك الوقت
ايضا كان تروفيدور المصري الخامل مشتغلا بنظم قصيدة في اخذ مدينة صور
وبعض وقائع اخرى حماسية في التاريخ اكثر منها في شعره
وقد ظهر للناس بالوقوف على التراكيب الشعرية وقتئذ اهل تلك الصناعة
ان دائرة الشعر في القسطنطينية كانت ضيقة ولم يظهر في القرن الذي ولد
فيه تريفونيان وبروكوبيوس من الشعراء الا بعض قصائد وصفية لشاعر يقال
له سولس السيلتيري وهي في البلاغة دون قصائده الهجائية مع انه كان يظن في
شعراء بليسيير قائد جيوش القيصر بوسنتيانوس ونرسييس ان يزيدوا في الشعر
على من تقدمهم في العصر الماضي ولكن من ذا الذي كان يمكنه في القسطنطينية
ان يمدح الخدم كبليسيير المذكور واضرابه بحضرة السيد الذي هو القيصر. واما
الشاعر جرجي البيزدي حيث شاهد وقائع حربية كان القيصر بوسنتيانوس
هو صاحب الصولة فيها دون بليسيير وغيره فنظم ١٢ قصيدة تاريخية خالية

عن الحماسة ذكر فيها غزوات هذا الفيصري مع العم والشمراخ في القسطنطينية
حين خلصت من اغارة الأواريين
وكانت اشعار الهجاء والندح البليغة في تلك المدّة هي الباقية الرائجة دون
غيرها من انواع الشعر

وقد اشتغل بهذه الصناعة واتخذها تسمية له غير القديس غريغور بوس
المذكور رجل يقال له سنسيوس وكان يليها في ذلك بلداس الشلسيمي الذي
كان رجلاً خاملًا في دولة ارگاد بوس المقدم ذكره ويوجد بعض شعراء اشتهروا
ايضًا في ايام بوسنياوس غير بولاس السيلتيري كالفنصل مكدونوس
والمورخ اغسياس الذي كان منشئًا شديد الحرص على حفظ الاشعار جمع منها
جملة عظيمة ومن الانشآت وسمى هذا المجموع سيكل يعني دائرة تشبيهاً له بها
في الاحاطة وقسمه الى ٧ مقالات لانه ينطوي تحت الانشآت المراسلات والسر
ووصف الاشياء والمرائي والمواعظ والهجاء والالعاب العسقية والتجربات وقد
اتخذ قسطنطين كينغلاس وبلاندوس هذا المجموع قدوة حيث نسجا على منواله
وكان احدهما في القرن التاسع والاخر في القرن الرابع عشر فجمع كل منها مجموعاً
ضمنه الاشعار اليونانية وهذا المجموعان لم يزل يبد الا فرغ الى الان

واما الحكايات الموضوعة فقد وضعها بعض الشعراء قبل عصر
ناودوسوس وهي حكايات اختراعية كحكايات المتأخرين وتسمى بهم جماعة من
المولدين وضعوها نثراً وبرع في ذلك عند اللاتينيين المؤلف ابوله الذي اخترع
حكاية حمار الذهب ونسج على منواله يونان السلطنة الشرقية . وكان اول من
وضع هذه الحكايات من اليونان المذكورين هو هابودور الايسمي مخترع حكاية
تاجيته وشارفلة قبل ان يتنصر وكان ذلك في سنة ٢٩٠ م وهو تاليف سيرف
مرتبة ترتيباً حسناً بعبارة واضحة وضوحاً غريباً لا يضاهيها شيء في ترفيق
القلوب وتبييضها ولا بعد له شيء مما بعزى الى لئفوس من الحكايات اليونانية
التي وضعها في شان دفينس وقلوبه وقد زاد هذا التاليف شهرة بترجمة المؤلف

امبووط حيث جعله نازراً بعبارات سهلة عذبة فكان ذلك بائناً الى وضع
 حكايات بولس وورجينيا التي هي اللطف وارق ما يوجد في الاعصر المحاضرة
 اي الاخيرة من المؤلفات في هذا المعنى ولا بدري في اي عصر كان لنفوس
 المذكور واما اشبل تيتوس الذي وضع الحكاية المتعلقة بعشق لوقيب وقلبتوفون
 فانه معروف بانه من الاسكدرية ويظن بانه مسيحي واستف ايضاً وانه وضع
 الحكاية المذكورة في منتصف القرن الخامس ولولائه شوه اختراعه بما ارتكبه
 من التكلف واغتنصاب الالفاظ والتلاعب بالكلمات لكان اعلى درجته من
 اختراع هليودور. وهناك موضوعات اخرى في هذا المعنى ولا يعلم زمن اختراعها
 وهي ٢ تعزى الى شرتيون الافرودسياسي واوستاسيوس المصري وارستينيت
 الازنيكي والنصد من ذكر هذه التآليف التي لاحقيقة لها هو يعلم ان الحكايات
 الموضوعة التي كانت مجهولة في القرون المتبعة صارت حين اضمحلال
 الامبراطورية منتظمة في سلك الاداب

واما التاريخ فانه من المعلوم ان تاريخ سلطنة القسطنطينية هو خال من
 المواد المرغوبة التي يستمد منها التاريخ كالحوادث التي ينبغي ان يتخذ ذكرها في
 بطون الاوراق والمآثر العظيمة التي يجب نشرها في الافاق ويضاف الى ذلك
 عدم وجود المؤرخين المستكمين لهما يلزم لهذا الفن مع وجود الاستعباد واقامة
 الرأي عند الحكم ووجود الاوهام المختلفة وسلامة الذوق مع فساد الاداب فن
 العجيب ان برى في مثل هذا التاريخ الواسع عدة من المؤلفين العظام والمؤلفات
 المتبعة وقد بنى اونيبيوس في القرن الخامس للميلاد على ما كان جمعه قبلة
 هرنسيوس واكسيوس من الوقائع السنوية ثم اتى بعده اوليودور المصري وبنى
 على ما كان جمعه اونيبيوس فكانت وقائع هولاء الثلاثة الوثنيين اصلاً استمد منه
 المواقف زوزيم الوثني تأليفه تاريخ القياصرة وكان قد التزم ان يبين اسباب
 اضمحلال الامبراطورية الرومانية فجعل سبب ذلك ظهور الدين المسيحي مع
 ان القياصرة الشرقيين كانوا وقتئذ مسيحيين والى الان يُحفظ عند الافرنج

بعض اثار مرغوة من الارسلينين اللتين ارسلها ديوان القسطنطينية في عهد القيصر ثاودوسوس الثاني وفي ايام بوستنيانوس فان احدهما بينت لهم كيفية معيشة انيلا^(١) المنزلية ويكاد انها هي التي بقيت عندهم من تاريخ القسطنطينية الذي الفه بروسقوس البينومي ولو وصلت اليهم قصة نوتوس^(٢) بتامها لعرفوا بواسطة الارسالية الثانية اخباراً صحيحة تتعلق ببلاد الحبشة والعرب الحميرية في اليمن بالنظر الى حالتها القديمة . ثم الف بروكويوس القيساري تاريخ حروب الامبراطورية الشرقية مع الفرس وسرعة اندراس مملكة الونداليين وفتح ايطاليا حين كان بها الاستروغوثيون وسيرة بليسير الطويلة لكنه كان كاتب سر بليسير ووزير بوستنيانوس ومحمي الملكة ثودورة فلذلك مال الى التماق في مواضع من هذا التاريخ الا انه الف تاريخاً اخر خفية ذكر فيه ما ابتدئته هذه الدولة من العيوب . ثم بنى اغسياس السكولاستيكي اي الفقيه على ما جمعه بروكويوس وبعد ذلك بنى ميناندر حارس القيصر على ما جمعه اغسياس وقد ذكر اغسياس في تاليفه تفاصيل عظيمة في شان الفرس والغوثيين والافرنج واما الذي بقي من تاليف ميناندر فانه يدل على بعض تفاصيل في شان الهونيين والاوريين وبعض اقوام اخر من اسيا ثم ظهر المؤلف ثيوفيلكت سبوكتة والف تاريخاً عمومياً جعل مبدأه نهاية تكملة ميناندر ومنتهاه موت القيصر موريس ويقال له ما فريكوس الذي خلفه فوقاس سنة ٦٠٢م وذكر فيه ما لحق هذا القيصر من ظلم خليفته فوقاس المذكور واما في القرن السابع ونصف الثامن فقد قل ان ظهر احد من المؤرخين لكن كان كتاب الوقائع

(١) انيلا هو احد الملوك الونداليين الخشنيين وهو الذي صدر منه الخراب العام والابادة المستاصلة في القيصرية العربية حتى انه لقب نفسه بلاه الله من سنة ٤٤٢ الى سنة ٤٥٢م وسوف ياتي ذكره تحت لقب ملك الهون في الكلام على القيصرية المذكورة

(٢) نوتوس المذكور كان ارسله القيصر بوستنيانوس الى الحبشة والعرب الحميرية وغيرهم ليدعومهم الى مساعدته في محاربتهم قباذ ملك الفرس وابنه كسرى انوشروان سنة

السنوية بملك السلطنة له مزية على كتاب الوقائع بسلطنة المغرب نظراً لانجم عباراته وسلاسة اقلام كتبه لكنهم ذكروا جميع عيوب الوقائع اللاتينية لتصد بهم بالمخرافات التي لا يقبلها العقل عدا ما سلكوه فيها من الاعراض والتلق والاهام الفاسدة

واما فن الجغرافيا فقد حصل له بعض تقدم عند اليونانيين ولكن الفضل في ذلك لمؤرخهم اكثر من جغرافيتهم لان جغرافيتهم القسطنطينية لم يزيدوا على المعارف القديمة شيئاً ومع ذلك فجغرافية مرقيانوس الهرقلي المسماة بربيل اعانت على فهم جغرافية اسرابون وبطليموس وكان استفانوس البرنطي نشر قاموساً في اواخر القرن الخامس او وصلت منه النسخة الاصلية الى المتأخرين لكان نفعه اعم وانما الموجود منه الآن ما لخصه هرمولابوس النحوي وهو لا يشتمل الا على قليل من اساء المدن وانما كان على عهد القيصر بوسنيانوس تاجر مصري يقال له قساس (لعلة قزما) طاف بلاد الهند يقصد التجارة ووضع كتاباً في القسغرافيا ذكر فيه ما اكتسبه من المعارف هناك وكان يلقب بهند قوبلوسيس اي خبير الهند لكن ما ذكره في علي الطبيعة والفلك دليل على جهالة ذلك العصر بل شهادته هو مجهاو في ذلك هي اقوى وانتم

واما اللغة فلا يخفى كثرة اللغويين والنحاة ببلاد المغرب لامر من احدهما فساد اللسان اللاتيني والاخر الاحتياج الى فهم المؤلفات القديمة لكن اليونان لم يتزلوا في الاضغلال الى هذه الدرجة ولذلك لم تبلغ نجاتهم مبلغ نجاته اللاتينيين فلم يكن يكتب القسطنطينية العمومي الا تعلم الكلمات التي تتركب منها اللغة وكان عمدة معلمي هذا المكتب كتاباً في النحو لمؤلفه يقال له ديبس (لعلة ديونيسيوس) فكانوا يقتصرون عليه في تعليمهم وكان ذلك سبباً في تعطيل العلوم اللغوية وحيث كان منشأ علم اللغة عند اليونانيين مكتب الاسكندرية كان اغلب طائفة النحاة القليلة المعروفة في ذلك العصر مصري الاصل فقد ألف هينبركيوس الاسكندراني في اواخر القرن الرابع قاموساً عظيم النفع في

اللغة اليونانية وكذلك هلدبوس عصري المواقف المذكور وضع قاموساً وكتاباً
 آخر نظمه من بحر من بحور الشعر اليونانية. وفيلادبوس فيلوكسينوس الفنصل
 ألف في سنة ٥٢٥ م قاموساً لاتينياً يونانياً بين فيه الكلمات اللاتينية باللسان
 اليوناني وهناك رجل آخر يقال له فيليومون ألف أيضاً قاموساً عظيماً بحق
 التأسف على ضياعه وكان بوحنا الستوي من اهل القرون الاولى من السلطنة
 اليونانية ألف مجموعاً يشتمل على نبد وحكم ومواظ بقصد تاديب ابناء جمع
 فيه بين النظم والنثر وجملة ٤ اجزا رتب فيه نبدأ تتعلق بالعلوم الطبيعية
 والفلسفة والحكمة والسياسة وقد لخص مجموعته مما ينوف على ٥٠٠ مؤلف
 ضاع اغلبها

واما الفقه فقد كان عند اليونانيين فيه عدة مجاميع مختلفة جمعها فيها وهم
 في عهد القيصريثاودوسيبوس الثاني ويوستينيانوس الاول لكنها كانت باللسان
 اللاتيني ما عدا القوانين المسماة بالجديدة واعظم مؤلفي هذه المجاميع العظيمة ٤
 اشخاص كانوا يعلمون الفقه بمكاتب القسطنطينية وبيروت وهم ثيوفيلوس
 وثودورس ودورطة واناطوليبوس وكانوا من امهر الفقهاء وكان تريونيان
 وزير الخزينة هو المتولي نظارة تأليفها لكونه كان فقيهاً واسع الاطلاع لكنه كان
 طامعاً يبيع علمه بالاموال ولذلك ما برى من التناقض في احكام كثيرة من
 هذه القوانين ينسب الى هذا العالم وكان اول كتاب جمعه يسمى كود. انتشر
 في سنة ٥٢٢ م وهو ١٢ مجلداً استنبطوه من ترتيبات القياصرة ثم كتب ثانية
 وانتشر سنة ٥٢٤ م وهو مجنوي على ١٥٠ مسألة والثاني كتاب القوانين المسي
 انستية وانتشر في سنة ٥٢٢ م وهو مجنوي على مبادئ الفقه التي استنبطت من
 الفقه الروماني وكان القصد من جمعه ان يستعمل في مكاتب القسطنطينية.
 والثالث كتاب القوانين المسي بنديكت اي الفتاوي وكان انتشاره في سنة
 ٥٢٢ م وهو يبلغ ٥٠ مجلداً استنبطوه من كتب قوانين غريغوريوس وهرموجين
 وثودوسيبوس ومن ٢٠٠٠ رسالة فقهية وقد وضع ثيوفيلوس عليه وعلى القوانين

المسماة السنينو شروحا لما شبه بالفصول التي في دستور القوانين الاصلية
الفرنساوي وكان على هذه الكتب الثلاثة ختم الفيصر بوسنيناوس المذكور ثم
ان هذا الفيصر امر بجمع القوانين الجديدة الصحيحة فجمعوها في كتاب انتشر
سنة ٥٢٤ م ثم انتشر ثانياً سنة ٥٦٥ م وكان القصد من جمع هذه القوانين المتنوعة
مصلحة المحاكم المطلقى التصرف وقد اذنت مولفوها بترك قوانين الامبراطورية
الرومانية التي تتولد عنها الفتن فكان من صفة قوانين بوسنيناوس المذكورة
انها جامعة بين حرية الاهالي والمحكم المطلق لكونها جعلت الاهالي مستوين
بالنسبة الى الاحكام الشرعية وقد اشتهرت هذه القوانين باسم هذا الفيصر
وصارت اصلاً بنى عليه المتأخرون احكامهم

وكا كان يهتم بالقوانين الاهلية كذلك كان يضع ختمه على احكام المجمع
الاكبروسية وامر وكالة بوحنا الانطاكي فالف مجموعاً وفقى فيه بين احكام
المجمع وقوانين القياصرة وكان ألف مجموعاً في القوانين الاكبروسية
ثم ظهر في عهد بوسنيناوس الثاني ابن اخي بوسنيناوس المذكور كتاب
في القوانين العسكرية لمولف يقال له روقوس وتكفل بعض الفقهاء ايضاً
بجمع قانون لامل الارياف (سكان القرى)

واما الطب فقد كانت علاقة من الماهرين لكنه لم يتقدم تقدماً بيناً من
عهد القياصرة الانطونيين الى زمن اول الخلفاء العباسيين ومع ذلك فقد نجح
بمكتب الاسكدرية وبرع فيه غاليناوس كما برع بوتامون في الفلسفة المنطقية
حسبما سبقت الاشارة الى ذلك في الكلام على المصريين ثم في اوائل القرن
الخامس ألف ثيودورس برسيمان كتاباً في الطب باللسان اليوناني وترجمه الى
اللغة اللاتينية وهو مجلدات الاول في الادوية العامة الممهلة والثاني في ما تعرف
بوالامراض والثالث في الامراض الخاصة بالنساء والرابع في الجربات الطبيعية
وبعد ذلك بنحو نصف قرن ألف المحكيم ابيوس الاميدي في هذا الفن كتاباً
اقتنى فيه اثر غاليناوس المذكور غير انه لم يكن اسير عباراته وكان ابيوس هذا

رئيس الشمامسة ورئيس حرس القيصري بوسنتيناوس لكن يشتم من هذا الكتاب
روائح مذهب افلاطون الجدد لان مولفه اقتبس منه ما نعلمه بمكتب الاسكندرية
من الاوهام الباطلة الخيالية فكان يقول بتاثير الطلاسم والسحر وبعض اسرار
اخرى . وقد ذهب بعض المؤلفين بان اعظم قدماء الاطباء بعد بقراط
وغاليناوس هو اسكندر الترابي صاحب المؤلفين الشهيرين احدهما في الادوية
والثاني رسالة تتعلق بدود الاحشام يتبع فيها من انواع الدلالات الانجليزية
والاخبار ثم ظهر في القرن السابع بولس الايجيني فلتخص مسائل الطب في
مختصر ضئيل ساثر الانواع وهو مقبول عند الناس لاسيما الجزء السابع منه الذي
تكلم فيه على التشريح وهذا الحكيم هو اول من اشتغل من قدماء الاطباء بفن
الولادة وفي ايامه ظهر اخر شروح كتاب بقراط

واما الرياضيات فكان اطائفة الافلاطونيين الجدد رغبة واجتهاد فيها
وكل ما وصل الى الافرنج من رياضيات القدماء فالفضل فيه لمكتب
الاسكندرية وكان لبنت تيون براءة في هذه العنون وكانت تقتفي اثر ابيها
فوضعت لتلك العلوم النظرية طريقة الهندسة المضبوطة وعلاقة حديثها
مدروجة في الفصل الثالث من المقالة الاولى من كتابنا زبدة الصحائف في
اصول المعارف وقد كان في ذلك الوقت ديوفنت ويقال انه ديوفانتوس
ايضا مشغلا بتعليم الكهيات اللامتناهية وهو اول معلم في ذلك وفيه كان هو
الواضع لعلم الجبر الذي تعلمه للعرب في ما بعد ونقلوه لاهل اوروبا كما هو موضح
في حوادث سنة ٨١٢م في الفصل الثامن من المقالة الاولى من كتابنا المذكور
هنا وكان منتهى حياة ديوفنت مبدأ وجود بروكلوس المؤلف الذي كان
يتنصر لمذهب افلاطون الجدد حسبما اوضحنا في ما تقدم عند الكلام على هذا
المذهب الذي كان سببا في نكبة المدارس الوثنية فبذل وسعة في قرن
الرياضيات بالفلسفة وله تأليف عديدة منها مختصر في علم الفلك ورسالة في
مبادئ وعدة شروح على كتاب افليدس وكتاب بطليموس لكنه لم يستكشف

في مولفاته هنا استكشافاً عظيماً تسع به دائرة الفن المذكور
 واما العلوم النظرية فكان كذلك لمكتب الاسكندرية المذكور بها اعناء
 عظيم ايضاً ومنها فن الكيمياء لكن لما كان هذا الفن فرعاً من فروع الطب سرت
 اليه الاوهام الفاسدة والشبهات وقد بقي من كتب هذا الفن كتاب للحكيم
 استفان الاسكندراني من اطباء القرن السابع يدعي فيه ان له قدرة على تعليم
 عمل الذهب فلا مانع اذا ان يقال بان مذهب افلاطون الجديد هو اصل
 اختراع علم الجبر وحجر الفلاسفة يعني الكيمياء الكاذبة

واما فن الميفانيقة فقد ألف فيه المعمار اتيوس التراقي كتاباً في ايام القيصر
 يوستينيانوس وهو الذي رسم لهذا القيصر الكنيسة التي بناها واهداهما للحكمة
 الالهية فاشتهرت باسم آيا صوفيا نسبة الى القديسة صوفيا غير ان كتابه هذا
 لا يدل على تقدم هذا الفن بمقدار ما تدل عليه تلك الكنيسة العظيمة التي كان
 بناؤها بحضوره ومباشرته وهناك دليل ثالث اكثر دلالة على ذلك وهي الصخرة
 الكبيرة التي هي كالناج لكيسة راونية^(١) المسماة روتونده وهي ساترة لقبور الملك
 ثيودوريق الاستروغوطي الذي تملك بلاد ايطاليا من مهاجمي اوربا
 المتبرين

واما الفنون المستظرفة فقد كانت مضحكة في تلك الاجصر ويكفي دليلاً
 على ذلك ان اهل القسطنطينية لما ارادوا مكافاة المؤسس الثاني لبلدهم وهو
 القيصر قسطنطين الذي سبق ذكره على صنع هذا الجميل العظيم معهم لم
 يجدوا احداً من مهرة الصناع يتخذ لهم من حجر المرمر تمثالاً كبيراً على صورته
 فاضطروا الى وضع تمثال قديم على عمود ووضعوا مكان رأس هذا التمثال
 صورة رأس القيصر ولما ارادوا ان ايزينوا قوس النصر الذي كانت رومية

(١) راونية مدينة من بلاد البانيا في ايطاليا كانت في زمن القياصرة المتأخرين كرمي
 وسط ايطاليا فانخذها ثيودوريق المذكور دار اقامته لما استولى على ايطاليا وترك رومية
 محلاً لمشورة السنن ودار اقامة للبانيا وذلك في سنة ٤٩٣ م

نصبتة تعظيماً لهذا القبط لما هزم مكسنس احوجتهم الضرورة ان مجرد واقوس
 ترايانوس ما كان عليه من التماثيل المنقوشة واخذوا بدلها اثاراً اخرى اقدم
 من تلك التماثيل . وكذلك كانت قباب كنيسة مباري بولس التي بناها هذا
 القبط موضوعاً على اعمدة مستعمارة رومياً مختلفة الاشكال بل كان يرى هذا
 الاضمحلال من مشاهدات اخرى غيرها .

ومنشأ ضعف الفنون بملك البلاد هو ان القبط اوريايانوس والقبط
 دقايطيانوس اللذين كانا في اواخر القرن الثالث من الميلاد رايا ان اهل
 اسيا يميلون الى النغالي في الرونق والزينة فاورثا ذلك لاهل ايطاليا ثم لما تمكن
 منهم هذا الميل اخذت فنونهم الاصلية في الضعف والاضمحلال لتغاليمهم في
 الزخرفة واختلاط التفاصيل عليهم واول ما اضمحل من تلك الفنون فن
 اتخاذ التماثيل من الاحجار ونحوها فاضطروا حينئذ الى تزيين عماراتهم بزخارف
 اجنبية فكانوا يتلفون المباني القديمة لاجل الابنية الجديدة ويجعلون ما كان
 ليعمل رجال رومية من المآثر الفاخرة لحكامها الموالين في الظهور والمعالي
 واما فن العمارة فقد انتقل في زمن دقايطيانوس دفعة واحدة من الغلوف في
 الزخرفة الى غايته من الثقل والخشونة في قواعد الاصلية والى كثرة الخراطات
 التي لا داع لها ولا تناسب فيها وصارت اصوله نسبياً منسياً وكذلك التناسب
 بين الاوضاع فكان اول زمن الاضمحلال هو زمن قسطنطين الاكبر يعني من
 سنة ٣٢٣م واما زمنه الثاني فهو زمن ثيودور بنق الاستروغوطي وسوف يأتي ذكره
 ومن علامات هذا الزمان ما كان في ابنتيه من الكثافة والمتانة وقلة الزخرفة
 او عدمها واما زمنه الثالث فهو زمن يوستينيانوس وهي نهاية الاضمحلال ثم
 رجعوا فيه الى النغالي في الزخرفة لكن من غير انتظام ولا روية ولا تمييز بين
 الحسن والقبح

وكانت ايام قسطنطين الاكبر مقدمة لضعف العلوم والفنون واضمحلالها
 لكن كانت ايام ثيودوسيوس الاول والثاني (اواخر القرن الرابع للميلاد)

أسوأ الأزمنة وأشأمها عليها فهي في الحقيقة مبدأ نلاشيها واندراسها ولا سيما فن
النصوبر والرسم لان كلاً من حمية المسيحيين وجهل الامم المنبريرة قد سببا
انعدامه فان الديانة المسيحية وان تكن احبت الفنون بعد اندراسها وبلغت بها
درجة كمال لكن خدشتها في مبدأ الامر بحيث كان لا يوصل جبراً ما لحق هذه
الفنون من الخلل الذي اوقعه بها هذا الدين عندما اباد عبادة الاوثان التي
حملت اليونانيين على اتخاذ التماثيل القديمة وتحسينها وزخرفتها والاستمرار على
ذلك بواسطة الفنون المذكورة التي كانت تقوم بها ابنة الهياكل ايضاً لان اخر ما
ظفريه الدين المسيحي على الموانع التي كانت تعترضه هو ابطال احترام الوثنيين
المخشنين لاوثانهم وما كان يصدر عن عقلاهم من العبادة لانه الالهة التي نص
عليها شعراؤهم كاوميروس وورجيل وايل وفدياس وغيرهم وكذلك ثباتهم
على التصديق بالتمويهات وغيرها من الاوهام الفاسدة واشغال قرائهم بذلك
فهذه الامور الاربعة هي اخر ما ظهر عليه هذا الدين من الموانع

ولما رأى المسيحيون ان زوال هذه الاعتنادات الفاسدة والعبادات
الباطلة بوقوف على اعيان الاوثان والهياكل فهدم بعض الاساقفة عدة هياكل
ليبنوا بدلاها كائس وكسروا التماثيل المتخذة من الحجارة والتوج (وهو نوع من
المعادن) لانها كانت شنيعة ومبغوضة بالكلية عند المسيحيين وكان ذلك قبل
ان يصدر امر الملك ثاودوسوس المقدم ذكره بهدم الهياكل وتكسير الاوثان
فكان القديس مرتين الطوري عندما نصر الغالين (قدماء الفرنسيين) يهدم
هياكلهم ويكسر اوثانهم ثم ظهر في القرن الذي بعده القديس هايرفرد ملعب
اريس من زخارفه وما فيه من انواع الزينة وجعل ذلك للكائس وكسر ما يو
من التماثيل والاصنام التي كان يستبشعها المسيحيون وتنفر منها نفوسهم لتجردها
وظهور اعضاءها المخلتة بالادب والحيا وكان القديس مرقيل (لعلة مركلوس)
بطوف مدن الشام والقرى ويفر قلوب الناس عن الاوثان التي كانوا قد
عبدوها منذ مدة قليلة وكان وقتئذ القديس ثيوفياوس بطربرك الاسكندرية

بشدّد بتنفيذ الامر السلطاني بهدم هياكل سربيس وتكسير الاوثان التي كان
يعبد ما اهل الاسكندرية وما اراد ان يبقی منها الا تمثال القرد ليكون سخرية
واضحوة للناس وقدم لیبنيوس السوفسطائي الى القيصر عريضة فصیحة العبارة
يستعطفه فيها وينرجاه ان يمسك عن هدم الهياكل فلم تقبل منه كما وقع نظير
ذلك للامير ساك حيث لم تقبل محاجته في مجلس مشورة السنّت برومية عن
محراب النصر وسوف تعلم كيفية ذلك من التفصيلات التي نورد في البحث الثاني
لكن كان هناك بعض الاساقفة جيّد الفريجة سليم الراي يكونه انفذ بعض
الهياكل العظيمة من الهدم وجعلها معابد مسيحية ومنهم البابا بونيفانيوس الرابع
فانه حول هيكل اجريا الذي يقال له نبطون الى القديسين وهيكل برفامس
المسي برطينون الى العذراء المباركة من غير ان يغير اسمه ايضاً

ولا يمكن التوضيح على وجه الصحة عما لحق اثار الفنون من التلف والاندراس
باغارات الجرمانيين والعرب والعم فان جميع بلاد الرومانيين قد كثر فيها
التهب والسلب في اثناء تلك الاغارات المتعاقبة وسائر مدن الامبراطورية
شرقاً وغرباً ما عدا القسطنطينية ذاقتم مرارة الحروب لا اقل من مرة واحدة.
اما الجرمانيون الخشنون الذين رقت طبيعتهم وحننت بعد الفتح على ما
سوف ناتي تفاصيله فانهم اتلفوا اشياء كثيرة من غير روية ولا تدبر واضروا
بالفنون الرومانية ضرراً فاحشاً اكثر مما ينشئ عن الحروب التي لا تسوغها
الحقوق الملية واما العم الساسانيون فانهم لما وصلوا الى اسيا ليحفظوا منها على
زعيم الدين المسيحي خربوا الهياكل التي كان جعلها هذا الدين تحت حمايته
ورعايته ثم لما اتى بهدم المسلمون محفوا ما تركته نقليات الزمان من الصور
والتماثيل التي سلمت من تلك الحروب لانهم كانوا يعتقدون ان الصور والتماثيل
سواء كانت للالهة او للبشر من شعار الكفر. واذا اضيف الى ذلك ما طرأ من
العوارض الخصوصية التي درست اثاراً شهيرة واعدمت مدناً كاملة كالحريق
والزلازل ونظرنا الى سلب قسطن الثاني قوصر القسطنطينية لا يظالمها لما اراد

ان يتفق من اليونانيين حيث كانوا يكرمونه لاعادته القيصرية الى رومية وجعلها
 تخت الملكة ثم لما ذهب اليها ونس من الاقامة بها جردها من الخنف العظيمة
 ونقلها الى سبستيا وبعد موتها ارادوا ان ينقلوها الى القسطنطينية لينخرقوها بها
 وانزلوها الى المراكب في البحر فوقعت في يد المسلمين ونقلوها الى الاسكندرية
 التي انعدم فيها مرتين الانار الباهرة التي نشأت عن البراعة وكان ذلك نحو
 سنة ٦٧٠ م وكذلك ما وقع من كساري الصور في سنة ٧٢٦ م وتخريبهم كثيرا
 من الكنائس والى امال القرون الوسطى فانه يتعجب كيف بقي بعد ذلك كثير
 من الآثار القديمة

اما مدينة القسطنطينية فلم يبق بها شيء من اثار قسطنطين الاكبر الذي
 احياها بخلاف مدينة رومية التي اخلاها القيصر المذكور من كرسي السلطنة
 فانه بقي فيها قوس النصر الذي نصب علامة على شرفه وفخره ولم يجدد
 تاودوسوس الاكبر في مدة اقامته باباطاليا شيئا يذكر به بعد حياته لكن ابني
 في القسطنطينية من اثاره باب الذهب الذي صنعه والعمود الذي نصبه ولده
 ارقادبوس محبة فيه ولا ينسب الى ثيودوريق الاستروغوطي من الاثار
 الغير الدينية الاسور بناء في سراية راوبنه ودار في مدينة تراسبنا ولم يبق للقيصر
 بوسنيانوس الا قنطرة سلارو التي على نهر اينو واصلمها برسيس وله ايضا كنيسة
 القديسة صوفيا التي بناها في القسطنطينية وسياتي ذكرها وحيث انه اكثر ما
 يمكن حفظه من التخريبات هو ما كان متعلنا في الدين فلذا كانت اغلب
 العمارات والاثار المخصصة به محفوظة الى الان لم يلحقها شيء من تخريبات
 المتبررين

واما قواعد الابنية التي خصصت اولاً لبياء معابد المسيحيين فكانت
 مغايرة بالكلية لقواعد فن الابنية التي كان عليها بناء مياكل الوثنيين لان
 المسيحيين لما حصلوا على حرية اشهاد بانتم واحفالاتهم ارادوا ان يجعلوا
 كنائسهم على شكل المعابد التي كانوا يتخذونها في الكهوف والمغارات في ايام

الاضطهاد ثم لما جرت عادتهم يجعل الكنائس تحت حماية القديسين صاروا
يجمعون لكل قديس هيكلًا مخصوصًا في الكنائس الى ان كثرت تلك الهياكل
وازدادت فيها المحاريب (المحنيات) بعد ان كان لا يوجد في كل كنيسة الا
محراب واحد ثم بعد ذلك اتخذوا الاضرحة (القبور) والمقامات العديدة في
الكنائس ايضا وصاروا يتباهون بذلك فانعدم ما كان يستحسن من الوحدة
في الهياكل القديمة وترتب الاخلال الكلي في اجزاء عمارات الكنائس بعد ان
كانت في غاية من المناسبات .

ولم يزل الى الان عدة هياكل من كنائس المسيحيين التي بناها قسطنطين
الملك ككنيسة القديس بطرس الرسول القديمة وكنيسة القديس يوحنا اللطواني
وكنيسة القديس اثنيس الكبيرة برومية غير ان كنيسة القديس بولس الرسول
احترقت عن قريب ومن اثار القديسة هيلانة ام القيصر المذكور دبر القديسة
كاثرينا في جبل سيبا وكنيسة بيت لحم ولم يذكر المؤلف الاصلية كنيسة القيامة
التي اشدتها على موضع قبر المسيح في اورشليم سنة ٢٢٨م ولعل علة ذلك هدمها
واعادة بنائها عدة مرات قبل الاسلام وبعدها اما ثاودوسيوس واولاده فلم تجر
عادتهم ان يكتبوا اسماهم على شيء من اثارهم

وقد قبض الله الامم المتبرزين ان يزيدوا في زينة ايطاليا ونيوروا ثانيا
بصايح المعارف والفنون كما تستبين كيفية ذلك في المقالات التالية لان
ثيودور بتي الاستروغوطي الذي مر ذكره كان دائما يحث على تعليم الفنون
وحاز الفغار باصلاحه المباني القديمة الشهيرة واحداثه مباني جديدة وعين
معافظين لحماية جميع الهياكل والنصور والتماثيل واصلح ملعب بومي وحياض
البيانو والسراية السلطانية التي بمدينة راوية والحمامات والفناوات واسوار
المدن الاخرى من ايطاليا وما يدل على ان فن نحت التماثيل في عصره كان
باقيا على بهجه الاولى هو التماثيل التي صنعت نعتيا له على هيئة الراكب في
رومية وراوية ونابلي وباويا وهذه التماثيل التي صنعت انعدمت بتداول الازمان

كتاثيل يوستينياوس وثيودورة وبانعدامها بطل الفن المذكور مدةً من الزمن ثم تغير فن الابنية تغيراً ثانياً حيث تغير ما كان فيها من التفاصيل الكثيرة المختلطة بأشكال كثيفة كبيرة وكانت المباني التي حدثت في عصر ثيودوريق المذكور محكمة عظيمة مجردة من انواع الزينة والزخرفة نظير ابنية الاطروسكية المستديرة ومنها كيسة راوية المستديرة المسماة روتوند وقبتها من حجر واحد متقطع من محاجر ايستريا لكن يرى في هذه الكيسة الكبيرة وفي كيسة القديسة ابولينيا عيب اختلال التناسب وخشونة الزخارف ومخالفة القواعد الاصلية من فن الابنية فان قواصرها موضوعة على الاعمدة التي عليها القباب من غير ان يكون بين تلك القواصر ورووس الاعمدة شيء تستند عليه وكان هذا العيب موجوداً في كيسة ماري بولس ايضاً

ويوجد نوع من الابنية يقال له العمارة الغوطية مكث في اوروبا مدة القرون الوسطى ويأبى العقل ان تكون العلامة المميزة لها حدثت في عهد ثيودوريق المذكور لان القواصر كانت معروفة قبالة في زمن قسطنطين وشوهدت في قناة يوستينياوس على شكل انصاف الدوائر وذكر قسطنطين ووزير الملك ثيودوريق انهم كانوا يستحسنون في عمارات هذا الملك طول الاعمدة ورقبتها وذلك من علامات العمارة الغوطية ويؤخذ من كلام ذنجنكورا احد مورخي فن الابنية ان استعمال ذلك كان بعد فتح اللنجيارديين لابطاليا بل عبارته تقتضي بان جميع العلامات المميزة للعمارة الغوطية كانت في ذلك العصر ونص عبارته على ما رواه بعضهم هو هذا كيفية الاوضاع الخارجة من المباني ووضع واجهة الباب على الشكل المخصوص ولا سيما شكل رووس الاعمدة وانتخاب زخارفها المشتملة على صور الادميين وغيرهم من الحيوانات وان كانت بعيدة الشبه بالخلقة الاصلية وكذلك الاعضاء والاعمدة المرتفعة من الارض الى السقف الاعلى وتر في داخل الجدران من طبقة الى اخرى من غير رف ولا فرنز كل هذه من الامور الفظيعة الغير المألوفة صارت على نوع من انواع العمارات حدثت في اخر القرن السادس

وصار عام الاستعمال في القرن السابع والثامن

وقد اعتبر مورخو فن الأبنية مدة بوسنتيانوس بأنها هي تميم لمدة ثيودور بق
ونهاية اضمحلال هذا الفن لأنه يظهر ان الفن المذكور اتمش من ضعفه في بناء
كيسة القديسة صوفيا (١) وكان ذلك اخر انتماشه وبهذه الكيسة العظيمة

(١) قال العلامة الفاضل حبر الله اندي المورخ العثماني ان هذه الكيسة كان امر
ببنائها القيصري بوسنتيانوس في محل كيسة كان بناها ثاودوسيوس الملك واحترقت فلما
اعاد بوسنتيانوس بناها جعل طولها ٢٦٩ قدما وعرضها ٢٤٢ قدما وقامها على ١٠٧ اعمدة
منها ٨ من السماقي الاحمر السقي (سمانا مدينة في اقليم لومارديا) لا يوجد لهم ناسع على
الارض على ما قيل ارسلتهم ماركية امپاطورة رومية هدية الى هذه الكيسة وقت بنائها
تذكارا لها ومنها بعض اعمدة من الحجر الاحمر اللاقوني (الاقونة مدينة في بلاد اليونانيين)
اخرجهم قسطنطين امير مدينة اياثلوغ من حرات هيكل قديم في تلك المدينة وارسلهم
هدية الى القيصري المشار اليه ومنها ٤ من المرمر الابيض احدهم من مدينة اثينا والثلاثة
الاقون من جرات البحر الابيض ومنها عدة اعمدة من ساقى تساليا بايالة مكدونيا ومنها
بعض اعمدة زرق وسود من ليبيا (ليبيا اسم قديم لاقليم في افريقية توجد فيه الان مدينة
طرابلس العرب) ومنها اعمدة جنوبية من بلاد مصر ومنها ٨ اعمدة كارمن السماقي
الاخصر استخرجت من خرات ايوان هيكل بعلبك من بلاد الشام ومنها ٨ احرايصا مثلهم
من هيكل اياثلوغ الذي مر ذكره وكانت حيطام مرصعة بحجارة مرصوفة رصما محكما
تنوافق بوجاهتها مع بعضها واما قبتها المعادلة لفة ذلك فكان محديها من خارج مغطى
بالخامس ومقرها من داخل مرصعا بقطع من الزجاج المطلي بالذهب والنفضة (كالسيفنة
الصغيرة النضج وفوق كل قطعة علاف بقدرها من الزجاج المنقر اصيانتها) وكانت
محرزات شاييكها من الذهب وابسطاسها مسوك من حليط الذهب والنفضة والخامس
والرصاص والمخيد وماثنتها وماحرها من الذهب وابوابها مغطاة بفضة والذهب والنفضة
وخارج هذه الابواب ٤ اسود من الحجر السماقي قطعة واحدة ومنذ تعبيرها الى ان صيرها
السلطان محمد الفاتح جامعاً كان تهدم منها بعض محلات في عدة ثقلات حصلت في
القسطنطينية وكانت القياصرة تجدد ما تهدم منها وكل من جدد بها شيئا من هذا القيل
رسم صورته في عمل مناسب بالقرب منه فلما ترم هذا الجامع في سنة ١٢٦٥ للهجرة سنة
١٢٤٨م شوهدت صورة القيصري بوسنتيانوس بالي هذه الكيسة مرسومة على الداب المدعو
ها معناه بالتركية باب السكري وبهذه صورة هذه الكيسة يقدمها الى السيد المسيح وكذلك
صورة القيصري بوجها البابلوغس الذي كان معاصرا لالسلطان ارخان وكان رسم ما تهدم

ضمت الآثار القديمة وهي من صنع انتيوس التراقي وايزيدور الملبطي وعلى شكلها بنيت الكنائس التي على شكل صايب يوناني وفي وسطها قباب مركبة على اعمدة ومرتفعة مع الاسنادارة وهي على هيئة قبة عظيمة واما قبة كنيسة القديسة صوفيا فانها كانت سبباً لاختراعات جديدة محكمة لما وقع في النفوس ومع ان هذه الكنيسة لا تخلو من العيوب بالنظر الى اجزائها ولم يُراعَ في بنائها اصول الفن وقواعده فانها مذكورة في تاريخ فن الأبنية ولم يبنَ مثلها في عدة قرون

ثم ومن العجب ان الدهر يفتي تماثيل المرمر والنحاس ويبقي تصاوير اخر واهية وذلك ان بعض تصاوير من الآثار القديمة حفظتها مواد جبل ويزوف وتراب القبور من ان يؤثر فيها الهواء والضوء ويهدمها ولا يمكن الوقوف على الدرجة التي رقي اليها فن الرسم عند القدماء إلا بواسطة التصاوير التي على جدران مدينة هرقولانوم ومدفن المازونية وقبور النصارى التي تحت الارض وتصاوير موميات المصريين الملوثة وقد انعدمت هذه الوساطة بعد قسطنطين ولم يبق في تاريخ فن الرسم إلا بعض آثاره من التزييق والتصاوير الرفيعة الرقيقة ولما كان فن التزييق كناية عن وضع مقدار كبير من الاحجار الملونة المناسبة لم يصل الى درجة الرسم في اللطامة والعمومة بل لم يعرض ذلك للرسم إلا بواسطة استعمال الزيت في الالوان غير ان لذلك الفن مزية وهي بقاء

منها اخر مرة مرسومة بجانب نصف القبة الكائس جهة الجنوب الغربي ثم لما استولى الافرنج الصليبيون على القسطنطينية سلبوا ما كان في هذه الكنيسة من الحلى والانسطاس والابواب واوا الى الذهب والنضة والاسود المذكورة وكل ما كان فيها من احسن الآثار القديمة وارسلوها الى مدينة السندقية ولما جعلها السلطان محمد المشاراليو جامعاً لم يوقع بها تغييراً إلا ما كان مغايراً لاصول الدين الاسلامي فامر باخفاء ما على جدرانها من النقوش الذهبية بالكلس ووضع بها منبراً ومحراباً وكرسیاً وبقي ما عدا ذلك على حاله الاصلية وذكر ابراهيم بك الطبيب في تاريخ الدولة العثمانية انه لما تولى السلطنة السلطان عبد الحميد الاول في سنة ١٢٥٥ للهجرة سنة (١٨٤٩م) امر بازالة الكلس عن تلك النقوش وتجديد ما انعدم منها لكي ترجع الى رونقها الاول

الصور التي اتخذها المصورون قدوة لهم في صناعتهم فهو يحكي صور الاشياء على اختلاف انواعها وينقلها بخواصها واشكالها من غير ان يلغنها زوال او يعثر بها اضمحلال وبذلك كان احق ان يُعتبر تاريخاً لما حكاه حيث تبقى اثاره ولا تفي حكايته والمحنة ما لمحق غيره من فنون التصوير لم يتولد عنه في القرن الخامس والسادس والسابع شيء من النتائج المهمة وانما نواتجها من نتائج اخرى متنوعة يوجد عند الافرنج منها مقدار متسلسل وسع دائرة الانوار القديمة بكثير من الخواص والكيفيات وبين لهم على وجه القسط كيفية مناسك قدماء المسيحيين وملابس القسوس

والفضل على الافرنج ايضا للتصاوير التي على حواشي الكتب لانها وضعت لهم الكتب القديمة المكتوبة باليد وزينتها ووارون المؤلف هو اول من صور صور الرجال الذين تكلم عليهم في تاليفه وعاقبها في مرة ليراها الخاص والعام وجميع الآثار تدل على ان كتب العالم التي قبلها والتي بعده كانت مصعوبة بالصور ثم لما باغ النساخون في الكتابة درجة كمال التفة والى فن الرسم لينزلوا به عناوين كتبهم وحواشيتها واحروف الكبيرة المسماة بالثلث ومن هاتين الصناعتين اللتين هما النسخ والرسم تركب علم الخط وهو فن يحتاج الى مزيد الاعناء والتأني ولم يترب على مارسته نجاح الا في الدبورة لاستمرار الهدوء فيها وكان سفر الخليفة الذي تكلم من ابتداء الدنيا الى اخر القرن السادس عشر مكتوباً باليد في رق غزال وهو اقدم ما يوجد من هذا النوع مزينا بتصاوير صغيرة لما وقع في النفوس سهولة العزل متناسبة ويوجد نظيرها في كتاب ورجيل الشاعر الروماني الذي تقدم ذكره في الكلام على اغسطوس قبصر وكتابة هذا محفوظ في الواتيكان (ديوان البابا) وهي ايضا مصنوعة في زين كان للذوق فيه بقية فلم تبلغ منتهى الرداءة بخلاف الصور التي رسمتها باولينية بنت القيصر اولبريوس على كتاب المؤلف ديوسفريد في وصف النباتات فانها تدل اكثر من غيرها على اضمحلال هذا الفن الذي كان له اعتبار عظيم

في ديواني القسطنطينية وراوية التي هي كرسي ايطاليا وكان القيصر
 ثاودوسيوس الثاني مستحقاً للقب الخطاط وكان تعلم هذه الصنعة لاجل تزيين
 السنكسار (يعني سير الفديسين)

الخاتمة

في حالة المعارف والآداب منذ القرن التاسع من الميلاد الى انقراض
 القيصرية الشرقية المذكورة بفتوح آل عثمان مدينة
 القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م

لا يخفى بان هجمات العرب وغيرها من الحروب والتكبات التي احاطت
 بالقيصرية المذكورة منذ القرن السابع الى اواسط القرن الخامس عشر كادت
 ان تذهب بالعلوم والمعارف وتلاشيها بالكلية من هذه المملكة التي اخذت في
 الهبوط والانحلال منذ ظهرت السطوات العربية المذكورة على ما يستبين من
 التفاصيل المتقدمة والتالية الى ان سقطت بالكلية نظراً لما حصل فيها من
 الاضطرابات الداخلية الموجبة لاهمال العلوم وعدم الاعناء بشايتها لكن مع كل
 ذلك لم يخلُ قرن واحد من تلك الاجيال المتتالية بدون ان يوجد فيه من
 حامى عن الفلسفة وقام بجذمتها حتى ان ما حافظت عليه القسطنطينية من
 الزخرفة والمعارف الى اخر دقيقة من وجودها كانت مدهناً الى الشعوب
 الافرنجية حين سطوا عليها في اثناء الحروب الصليبية وابعاداً منها ايضاً في احياء
 المدن والمعارف الحادثة في الممالك الاوربية لاسيما بواسطة اهل الفضل الذين
 هاجروا اليها من اليونان بعد سقوط قصبة ملكتهم المقدم ذكرها في يد آل
 عثمان كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية

وقد اشترنا في الفصل السادس المتقدم ما كان جرى على المذهب
الافلاطوني الجديد من الاندراس بسطوة الفيصر بوسستها نوس الأول وتعويضه
بالفلسفة الارسطوطالية وأنه لازال الحال على هذا المنوال إلى أن نجحت هذه
الفلسفة في القرن الثامن وكانت تدرس في كل المدارس الموجودة واشتهر فيها
وقتيئذ القديس يوحنا الدمشقي وكتب فيها نبذة عديدة قصد بها فائدة البسطاء
فكانت نبتة هذه سبباً لتمسك كثيرين في بلاد اليونان وسوريا في هذه المبادي
ثم في القرن التاسع ولئن كانت حصلت امور كثيرة تمنع اليونانيين عن
الاهتمام بالعلوم والمعارف لكن كرم الملوك الذين كان بعضهم من اهل العلم
واتباه البطارقة الذين منهم فوتيوس الشهير بمعارفه منعا تجافي العلم هذه الأمة
بالكلية خاصة في مدينة القسطنطينية فظهر منها في هذا القرن قوم اجادوا في
النظم والنثر والآلهة كذلك تواريخ عصرهم غير خالية من الفوائد ولا سيما منذ
ابتداء الشقاق بينهم وبين اللاتينيين واشتد الجدل فيه اظهر حينئذ المحذقة
كثيرون ممن كانوا تاركين كدور معارفهم همت ردوم الكسل واستعملوها للتجارة
بها مع براءة العبارات وطلاوة التآليف قال بعض المؤلفين نقلاً عن يوحنا
زونا راس ان درس الفلسفة ولئن كان اهل بين اليونانيين في هذا القرن إلا ان
الفيصرين ثيوفانس وابنة ميخائيل الثالث احببوا ما اندرس منها بواسطة ادارة
نسيبها برداس الذي وان لم يكن عالماً إلا أنه كان صاحب فوتيوس العالم
العلامة العظيم ولا ريب في أنه كان يستشير برأيه في هذا الامر ثم وضع برداس
المذكور لاون المحكيم الكلي المعارف الذي صار اخيراً اسفناً على تسالونيكية اول
معام بين العلماء للعلوم اما فوتيوس المقدم ذكره فإنه شرح كاتييكوري
ارسططاليس (اي الصفات المختصة بالجنس) وميخائيل باسلوس كتب شرحاً
مختصراً لكتب هذا الفيلسوف الاصلية

ان اشهر الذين كتبوا في القضايا الدينية والمنازعات الواقعة بين اليونانيين
والرومانيين في هذا القرن والمجادلات على الايقونات الى غير ذلك هم

فوثيوس بطريرك القسطنطينية ذو المواهب السامية والمعارف المتنوعة الواسعة ولا تزال مكتبته ورسائله وكتابه الاخر الثمينة جداً باقية ونيسيفورس بطريرك القسطنطينية ايضاً وثيودورس ستوديتس وثيودورس الاقريطشي ووثودورس المعروف وثيودورس ابوكازا ويطرس سكولس ونسطاس داود وغيرهم من الذين لم تكن اسماؤهم تصل الى هذا اليوم لولا ما حصل من المناقشات والمجادلات بين الروم والرومانيين

واشتهر كذلك موسى بارسفاس الذي كان ذا عقل ثاقب وبهارة في الكتابة اكثر من الاكثرين كما تشهد بذلك مولفاته وهو رجل من اهالي سوريا وهنا يتكلم المؤلف عن انصباب العرب ايضاً في هذا القرن على العلوم بعد ان كانوا مهملين ومنصبين غاية الانصباب على التتوحات الى ذلك الحين لكن لما كان صاحب الاصل يتكلم على ذلك كلاً ما مختصراً والوطنية او بالحري الجنسية فحوجني ان اتكلم بالتطويل على قدر ما تصل اليه يدي على تقدمات هذه الامة العربية واستدراجاتها مع ما كانت عابيه في حال بلاوتها وما آل اليه امرها اذ لا يخفى بان كلاً من مشروعات دولها في المشرق والمغرب هو حلقه تربط سريان العلوم والفنون اخيراً من هذه الاقطار الى البلاد الافريقية والموضوع لا يستدعي في مثل هذا المركز الا ما كان ضرورياً في هذا الباب على ان معرفة اصل هذه الامة ونسبتها وادابها وادابها وعوائدهما القديمة ضرورة في الاطلاع على اداب اللغة واطائفها وقائدها الحديثة كضرورة معرفة الميثولوجيا في فهم اداب اليونانيين القديمة بل الافريقية الحاضرة ايضاً واستيفاء ذلك هنا يكبر حجم الكتاب ويزيد في ضخامته وربما اخرجنا عن موضوعه الاصلي فقد املت ذلك وافرزت له كتاباً مخصوصاً سميتُه صناجة الطرب في تقدمات العرب وجماعته بمنزلة جزء ثان لهذا الكتاب حسب ما وعدت في مقدمة كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف

واما القرن العاشر الموصوف بشدة الجهل في الشرق والغرب نظراً لما

كان حاصلًا فيها من عظم الحروب والمصائب المكربة فظهر فيه لاون الحكيم الذي تملك القسطنطينية في افتتاح هذا القرن وياشر العلوم بنفسه وحرك لذلك حاسبات كثيرين وابنة قسطنطين بروفر وجينوس الذي كان أكثر اشتياقًا منه إلى احياء الاداب والصنائع وكان ملكة نحو ٤٠ سنة يظهر انه عال العلماء من انواع مختلفة بصاريف باهظة ليعتنوا له بجميع مواضع كل مكتوبات الاعصار الاولى وكان هو ايضا موليا وحرك اخرين للكتابة وطلب منهم ان يجمعوا له كل ما كان من احسن تاليف القدماء ورتبوه ابوابا كل موضوع على حدته قال بعض المؤلفين ان الخلاصات التاريخية والمدنية والادبية التي استخلصها كانت ٥٢ بابا مرتبة كل منها في موضوع غير انه لم يبق منها الا بابان وهما السابع والعشرون والخمسون فالسابع والعشرون يتضمن مداخلة الرومانيين المدنية مع الامم الغربية واما الخمسون فيتضمن النضيلة والرذيلة وقد طبع فاليسيوس في باريس جزأ منه سنة ١٦٢٤ م واحيي هذا الملك درس الفلسفة الذي كان قد تلاشى غير ان الذين اتبعوا انودجه من اليونانيين كانوا قليلا جدا كما انه لم يوجد احد من الملوك خلفائه احب العلم وثقافة العقل نظيره اكن يظن ايضا بان هذا الملك نفسه مع ان اليونانيين يدعون محيي كل انواع العلوم قد اضر بالعلم على غير قصد منه بل بشدة غيرته على تقديمه لانه يجعل العلماء يجمعون تلك الخلاصات والمختصرات عن كتبه الاجيال الاولى على ما تقدم لكي يوضح فروع المعرفة بانواعها ويجعلها مفيدة للناس ارتضى اليونانيون الكسالى بهذه المختصرات واهلوا اصل المؤلفات التي جمعت منها ولهذا فقد كثير من مؤلفات الاجيال الاولى بداعي تفاضهم عنها منذ ذلك الوقت فصاعداً

ولهذا السبب لا يمكن ذكر الا القليلين من مؤلفي الاجيال التالية يسوغ للعقل الثاقب ان يعتبرهم كثيراً اذ بظرف مدق وجيزة مات ذلك الزرع التعليمي الذي كان يعد مجسداً مستقبلاً والفلاسفة اذا كان وجد بينهم فلاسفة

لم ياتوا هولقاتٍ تُخَدُّ أو بشيءٍ له قيمة ثابتة بل ان جمهور العلماء اليونانيين كان مولفًا من بعض نحاة وبيانيين قلائل وكم شاعر لا يزيدري به وجملة مورخين وان لم يكونوا من الرتبة الاولى الا انهم يستحقون الثناء لان اليونانيين ولا نخطي اذا قلنا جميعا كانوا مولعين في تلك المعارف المتعلقة بنوع خاص بالخطبة والذاكرة والعمل

وكذلك ظهر في مصر التي كانت تن وفتن من نير الظلم علماء يزاحون اليونانيين على العظمة والتقدم وحسبنا في ذلك تيجيوس اسقف الاسكندرية بصرف النظر عن غيره لانه شرف علم الطب واللاهوت هولقاتٍ المتنوعة وهناك جمهور اخر من اطباء الماهرين والفلاسفة والعلماء بالعلوم التعليمية اشهرهم بوحنا لون الافريقي وغيره ممن اخذوا علومهم عن العرب

وفي القرن الحادي عشر كانت ظروف المملكة اليونانية لا تسمح لليونانيين ان يتقدموا في العلوم والاداب نظرا لكثرة مقاومهم الذين كانوا دائما يجردون المملكة من مجدها وسطوتها . وكان كل من الاختلافات المدنية والفن المتوارثة وتنزيل الملوك الاغنيصاي عن كراسيهم قد اوجب ايضا خراب وملاشاة ما فات العدو وسلم من يده الا انه مع كل ذلك لم يخل الامر من وجود افراد نشطوا اهل العلم فيه كالمملك الكسيس كنيستس والبعض من البطاركة والاساقفة لان مجادلات اليونانيين مع الرومانيين لم تكن تسمح لهم ان يهملوا ترويض العقل ومحبة العلوم ولذلك وجد بين هذه الامة بعض اشخاص معتبرين نظرا لمعارفهم وترويض عقولهم منهم شعراء وبيانيون ونحاة ولئن كانوا ليسوا من الرفع لكن لا بأس بهم غير ان البعض من المورخين كانوا يستحقون الذكر ومنهم لون النحوي وبوحنا سيلتند وسدرينس وغيرهم ولئن كانوا متمسكين بمجزعات اهالي بلادهم ولم يجاوا من الاغراض والاهواء . اما ميخائيل سلوس فقد كان رجلا شهيرا جدا وعالمة عصره في العلوم والاداب ولذلك سعى في ان ينهض الاهلين الى درس الفلسفة ولا سيما الفلسفة الارسطوطالية التي كان

بشرحها ومدحها بولفاتها المتنوعة

واحسن الذين كتبوا ضد الرومانيين وغير ذلك في هذا القرن ايضا
ثيوفانس سراميتوس صاحب المواقف التي لابزدري بهلمونيلس، دوكسوباتريوس
ونيسيئاس، يكتورانس اعظم المحاميين عن آراء اليونانيين ضد الرومانيين
ومينائيل سلوس العالم الشهير الذي مر ذكره ومينائيل سرولاريوس بطريك
القسطنطينية الذي جدد النزاع بين اليونانيين والرومانيين بعد ان كاد ينجح
وشبهه من الاصغر الذي لا زال يوجد بعض تأملاته على واجبات الحياة المسيحية
وثيوفولكتس البلغاري الذي اشتهر خاصة بتفسير الكتب المقدسة

ثم في القرن الثاني عشر كانت مطالعة العلوم والفنون مرغوبة جدا بين
اليونانيين مع ان الاوقات كانت مضطربة والحروب والفتن الداخلة غالبية
والسبب في ذلك غيرة الملوك ومحاماتهم عن العلوم ولا سيما الكيمياء مع اجتهاد
بطاركة القسطنطينية الذين كانوا يخشون من ان تفقد كنيسة الروم من مجامع
عنها ضد آراء الكنيسة الرومانية اذا تغافل كهنتهم عن ممارسة العلم فان حواشي
الشروحات التي عاينها يوستاثيوس اسقف نسالونيكى العلمية البينة البديعة على
اوهرس ودونيوسيوس بريجندتل على ان اصحاب العقول السامية افرغوا
جهدهم على درس علم المنطق والعلوم التعليمية والتواريخ القديمة والمورخين
الكثيرين الاعتبارين على تقييد حوادث عصرهم لان بوحنا سيناوص ومينائيل
غليكوس وبوحنا زونارس ونيميفورس برينيوس وغيرهم هم برهات على ان
كثيرين من اليونانيين في هذا القرن لم يفهم شي من المبل والرغبة في افادة
الاجيال المستقبلية ولا من الاقتدار على ان يكتبوا ما يكتبونه بمناقفة

وقبل انه ما من احد اجتهد في ان يضرم حب الفلسفة في قلوب الناس
اكثر من مينائيل انجيلالس بطريك القسطنطينية وكان مغرما على ما يُظن في
الفلسفة الارسطوطالية لان الفلاسفة كانوا مشغولين في هذا القرن بتوضيح هذه
الفلسفة وثقيفها والدليل على ذلك شرح بوستراتيوس اداب ارستطاليس

وتحاليه غير ان فلسفة افلاطون لم تهمل باللكاية بل يظهر ان كثيرين ولا سيما الذين اعتنقوا مبادي العتميين فضلوها على فلسفة ارسطو ازعمهم بانها تليق باصحاب التقوى والرزانة اما فلسفة ارسطو ليس فتايق بالمجادلين والمتعجرفين وهذا الاختلاف هج بعد ذلك منازعة اشتهرت بين اليونانيين حيث فضل بعضهم فلسفة افلاطون على فلسفة ارسطو ليس وفضل اخرون الثانية على

الاولى

وكان من كتبة اليونان في هذا القرن وموافقيهم فيلبس سوليتاريوس صاحب الجدل بين النفس والجسد وبوستراتيوس الذي حاشى عن اليونانيين ضد الرومانيين وشرح بعض كتب ارسطو ليس وبوثيبوس زيفابينس الذي استحق ان ينظم في سلك اوائل مولفي عصره لاجل سلاحه الكامل ضد جميع الهرطقة وشروحه على الكتب المقدسة وبوحنا زونارس الذي وقائمه وبعض مولفاته الاخرى محفوظة للان وميخائيل غليكاس الذي اوقف نفسه على التأليف في التاريخ وغيره وقسطنطين هرمينيوبولس المؤلف المعتبر في القوانين المدنية والكناسية واندرونيكس كما تيرس الغيور في قوة جداله مع الرومانيين والارمن الذين كانوا مقاومين لليونانيين وبوستاثيوس من سالونيكية اعلم يوناني عصره والشارح الشهير لاوريموس وثيودورس بلسا من الذي تعب كثيرا في تفسير القوانين اليونانية الكناسية والمدنية

وكذلك في القرن الثالث عشر الذي لم تسح فيه البلايا والويلات الشديدة التي اصابته اليونانيين بفرصة لهم او عزم على طلب العلوم قد وجد فتهم من المؤرخين انسطاس كونيانس وجرجس اكر وبولينا وغريغور بوس باكييرس وبوبل الذي لا تزال وقائمه موجودة ويظهر من بعض نبد نيسيفورس بليمبدا وغريغور بوس باكييرس المذكوران ان الفلسفة الارسطالية كانت مطلوبة عندهم غير ان الاكثرين كانوا يفضلون افلاطون وراغبين في مطالعة الفلسفة الجديدة المنسوبة اليه زاعمين ان نظامها يوافق نظام

ارستطاليس ولا حاجة الى ذكر كتاب المواظ وسير القديسين ومقاومي
اللاتينيين وشراح القوانين الكنائسيّة

وفي هذا القرن ظهر في بلاد سوريا غريغوريوس ابوالفرج ابن العبري
مغربيان البعقوبيين الكنايب المشهور وهو رجل ذكي العقل وكثير العلم ولاهوتي
ومؤرخ وفيلسوف يحقّ له الاعتبار روى عن نفسه في القسم الثاني من تاريخه
السرياني بانه تخرج بمدينة طرابلس ودرس فيها الفصاحة والطب على رجل
نسطوري يقال له يعقوب الى ان دعاه بطربركه ورسمه اسقفاً على كوبا في ١٤
ابول سنة ١٢٤٦ م ويضاف اليه جرجس الماسين مؤلف تاريخ العرب

وفي القرن الرابع عشر الذي كثرت فيه الاضطرابات العظيمة الداخلية
والخارجية في هذه القيصريّة والقرن الخامس عشر الذي فيه انتهت حياتها
وسقطت في حفرة الاضمحلال لم يهمل اليونانيون العلوم الفلسفية وحسبنا في
ذلك العلماء وذوو المعارف الذين هاجروا الى بلاد الافرنج بعد
ان افتتحت الدولة العليّة العثمانيّة مدينة القسطنطينيّة قصبة

هذه القيصريّة في سنة ١٤٥٢ م وكانوا سبباً مهماً عظيماً

في امتداد العلوم والمعارف في غربي اوروا

كما يتضح ذلك من التفاصيل

الواردة في البحث

• الآتي

البحث الثاني

المعارف في الامبراطورية الرومانية الغربية منذ انفصالها عن المملكة
الشرقية في سنة ٢٩٥ ب م الى نهاية القرون الوسطى
وفيه سبعة فصول وخاتمة

الفصل الاول

في ما حدث على المعارف في هذه الامبراطورية منذ انفصالها عن
القيصرية الشرقية الى ان استولى عليها البربر المهاجمون
الذين اغاروا عليها ومزقوها واستولوا
على اقاليمها في سنة ٤٩٥ ب م

قد ذكرنا في ما سبق كيف قسم القيصر ثاودوسيوس الاكبر المملكة
الرومانية في حال حياته بين ولديه اركاديوس وهونوريوس واضعنا ماجريات
القيصرية الشرقية التي تخصصت لولده اركاديوس الى ان افتتحها آل عثمان
في نهاية القرون الوسطى واما هونوريوس فانه تولى المملكة الغربية التي تخصصت
له وجلس على كرسيها بعد وفاة ابيه في سنة ٢٩٥ ب م وكانت عاصمتها مدينة
رومية وتحتوي على بلاد ايطاليا وابليريا الغربية وافريقية واسبانيا وبلاد الغالة

التي سميت اخيراً فرانساً وبريتانيا التي هي بلاد الانكايذ وعدة ولايات في باقاريا
والنمسا وغيرها لكن مع كل هذه الولايات المنسعة التي تدل على عظم السطوة
لم يعد الرومانيون قادرين على المدافعة عن انفسهم وحفظ بلادهم من غزوات
البربر الذين سببت الاشارة اليهم لان كلاً من انتقامهم وتخزيهم من الجهة
الواحدة وانعكاسهم على الملاهي والملاذات من الجهة الاخرى استأصل منهم تلك
الحماسة وجعلهم يرضون بمجالتهم الدينية ويسلمون انفسهم للقدر وكان هونوريوس
بعد محاربة قوية جرت بينه وبين الاريك قائد الغوث بايام يسيرة نقل سرير
السلطنة من مدينة ميلان الى رافينا ودامت المحروب بينه هو وعدة ملوك
خلفوه من بعده وبين قبائل الغوث والثندال والهون والهول وكان ملك
الهون وقتئذ يقال انه اتيلاله شان وقد مر ذكره في ما تقدم الى ان كان اخر
ملك من القياصرة الرومانيين يسي رومولوس وبه انقرضت دولة رومية ومن
غريب الاتفاق ان هذه الدولة ابتدأت برومولوس الاول وانتهت برومولوس
هذا وهو الثاني بعد ان دامت ١٢٢٩ سنة

ثم لما استولى هؤلاء البرابرة على اقاليم السلطنة المذكورة بالتدرج قسموها
بينهم الى دول صغيرة عديدة كل دولة منها قائمة بنفسها ومباينة لغيرها في
الاخلاق والعوائد واللغات ثم انتطع التواصل بعد ذلك بين هذه الدول
وانحلت من بينها روابط الالفة والمحبة وعلائق المخالطة والتجارة وصارت كلمة
اجنبي وكلمة عدو مترادفتين بمعنى واحد وصار ارباب الاسفار في سائر الجهات
عرضة للبراطيل والاختار بسبب عوائد تلك البلاد بل اصولها وقوانينها
وانقطعت ممارسة العلوم التي تبنى عليها الجغرافية والملاحة وتبدلت معرفة
البلاد القاصية بالجهل حيث نُسبت اوضاعها ومحصولاتها بل اغلب اسماها
كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية ومن ذلك الوقت صارت لفظه يوناني
ولفظه روم اسمين مترادفين يطلقان على شعوب المملكة الشرقية التي مر ذكرها
لكونهم حفظ فيها تاج التبصرة الرومانية مع عقائد الكنيسة وقتئذ غير انه

ينبغي قبل ان نشرع في تفاصيل هذه النتائج المختلفة المذكورة المسببة عن هذه
الاغارة العظيمة على سيدة ممالك الارض يقتضي ان نبين اولاً انواع ونسبة
واخلاق وعوائد اولئك القوم المتبريرين الذين اثاروها

الفصل الثاني

في بيان انواع ونسبة واخلاق وعوائد القبائل المتبريرة الهاجرة على
القيصرية الرومانية الغربية

لا ينبغي بان هذه القبائل هي من الشعوب الجرمانية ومركبة من طوائف
متعددة وحشية جاءت من شمالي اوربا وشرقها كمااتي ذكرنا اصحابها ووجود
غيرهم ما لا يحتاج الامر الى تعدد اسماهم لكثرتهم وعدم الفائدة المطلوبة في
ذلك بل نكتفي بالاشارة الى الذين يسكنون الآن في مواطنهم الاصلية وهم
الداينباركة والاسوجية واللاهية والروسية والتارثم آل امرهم اخيراً ان يكونوا
هم الورثة لعلوم اليونانيين ومعارف الرومانيين وصارت بلادهم او بالحري
الممالك التي سلبوها بسيف الخشونة والبربرية تعتبر الآن محط رجال انواع العلوم
والفنون وكعبة المدن والناس ويُطلق الآن عليهم جميعاً لقب افرنج
ولا ينبغي ان هذا اللقب ماخوذ عن اسم طائفة منهم يقال لها افرنك
بالكاف الفارسية بدلاً عن حرف موجود في لغتها ينطق بو في بعض ظروف
كتابوتوما ينطق بالكاف المذكورة ويسمونه شه فلما تعربت هذه اللفظة قيات
افرنج نظراً لعدم وجود ما يقابل ذلك الحرف في اللغة العربية ومعنى هذا
اللقب على ما قال بعضهم احرار سائبون وهذه الطائفة هي التي استولت من
بين تلك القبائل على بلاد الغالة التي هي احد الاقسام الامبراطورية الرومانية

المذكورة ومكثت بها الى الآن فسميت هذه البلاد اخيراً باسمها فقيل لها افرنسة او فرانساً ثم شمل هذا الاسم جميع اهالي اوربا سواء كانوا من السكان الاصليّة او القبائل الفاتحة بل ونزلاتهم الاخيرة في غيرها من اقسام الارض كما مبركا وامثالها ما عدا اليونانيين والأتراك لكونها لم يختلطت بتلك القبائل كما اختلطت غيرها من اهالي اوربا فاذا والحالة هذه لا يستثنى احد من سكان ذلك القسم من الدخول تحت هذا الاسم الا الطائفتان المذكورتان

لما قولهم لهذه الشعوب جرمانية على ما تقدم فمعناه رجال الحرب ويطلق على عامة الامة التوتونية التي تعتقد بانها اوكونية اي متولدة من الارض ولذلك كانت الارض اول اهتهم ويسمونهم بلغتهم هرثة وكانوا يعتقدون ان هرثة هذه ولداً يسي تويست فسما توتونيين نسبة له

وقد ذكرنا معبوداتهم في البحث الرابع من المقالة الثمانية من كتاب زينة الصحائف في اصول المعارف وخلاصة ذلك انها تدل على ان خرافات اليونانيين الكاذبة لم تكن مجهولة عند هؤلاء القوم غير انه لم يكن لهم هياكل ولا اصنام

ونظراً لانقسامهم الى طوائف عديدة كان الضعيف منها متعامداً مع بعضه قد كان لكل طائفة منهم حكومة تخصها ولكنها جميعها متشابهة غير ان السكسونيين كان لهم ملوك يتوارثون المملكة اما ما عداهم فكانت روساؤه من القبائل الشريفة ومن ذوي الحسب والانتخاب فيها كما ان رئاسة العساكر لا تكون الا للشجعان وكانت ملوكهم مقيدة بتصرف الاعيان وارباب مشورة الاهالي واما في الدعاوي المهمة فكان يتذاكر المجلس الجماع لجميع الرجال الاحرار الذي كان يجتمع اياماً في اول كل شهر او في نصفه وكانوا يذهبون اليه متسلحين ملبثين حريتهم في وقت الاجتماع وكان لجميع الاهالي حق التكلم لكن على حسب السن والشرف والنصاحة وكان سكوتهم او دوتهم في المجلس دليلاً على عدم رضاهم برأي المتكلم واما اذا استصوبوا رأياً فكانوا يرفعون اصواتهم بالاستحسان وتتصادم

اسلحتهم وتسمع قرقتها

وكانت هذه الجمعيات هي التي ترتب القوانين ونفاذ في الجنايات
وتعاقب على الموالسة مع الاعداء والهروب اليهم اما بجنتي المذنب او صلبه وكانوا
يعذبون الزانية المتزوجة ويقتلونها ويدفنونها في بركة مملوءة وحلاً وكانوا
يدفنون في هذه البركة ايضاً من هرب من العساكر ومن وقع منه فعل يوجب
الفضيحة والعار واما عقاب غير ذلك من الذنوب فكان بدفع الاموال من
الغرامات وغيرها

وكانت روساء العساكر تضبط الجيوش بالترغيب بما يجروته لامثالهم من
الرياسة وحسن المكافاة وكان لهم فرقة من العساكر يسهونها لودية تمتاز
بالانعامات لكونها واهية نفسها لحفظ ناموس روساء العساكر

وكان الحارب الجرمانى ينشد اشعار النصر والظفر من حين ذهابه الى
القتال قبل وقوعه بالاعداء وكانوا يحترمون شعراءهم احتراماً عظيماً وهكذا
الغالية حتى انهم كانوا يعتقدون ان لهم الهاماً الهياً

ومجرد خروج الشبان من الشبوية كانوا يحضرون في الجمعيات العمومية
ليأخذوا علامة انتظامهم في سلك الحريين وهي مبدا شرفهم وياتزمون حينئذ
بمحافظة الوطن ويسلمون انفسهم لمن يرشدهم الى الشجاعة وفي زمن الصلح يشغلون
بالصيد والقتص ولذلك كانوا لا يهتمون بشان اهلهم وعيالهم بل يفوضون ذلك
الى النساء والشيوخ

وكانوا يكرهون اشغال الفلاحة ويكتفون بالصيد فلا يصرفون تعجبهم
على الارض ولا يظهر منه الا في الحرب ولا يختص احد منهم بشي من الاطيان
بل كان الحكماء في كل سنة يعطون لكل قرية واكل عائلة مقداراً من الارض
للزراعة لكن في آخر القرن الرابع للميلاد عرفوا حق التملك ومنهم بعض قبائل
كالسكسونيين والبرغونيين رغبوا في صناعة الفلاحة والاستيطان
وكان يجنط محل اقامة كل قبيلة منهم صحاري خالية حتى ان مساكنهم في

ذات القبيلة تكون متفرقة عن بعضها على شاطئ نهر حوالي منابع الماء بحافة الغابات وكان فقراؤهم يسكنون مع حيواناتهم في جفر يجفونها في الارض وكانوا يضعون موناتهم في اماكن مكتومة وبعضهم يسكنون اخصاصاً مبنية بالطين الميبس في الشمس قبجة المظن وينقشون جذران مساكنهم بالوان مختلفة ثم لما دخلت عندهم الديانة المسيحية اخذوا يخططون قرى في جرمانيا وبعد ذلك بزمن طویل اخذوا في بناء المدائن

وكانوا يتخذون ملابسهم من جلود الوحوش ومن القماش الخشن ويخيطونها بالليف وبعض الاحيان يلبسون تياباً ضيقة عليها طراز متسع ردي وتنازل النساء بلبس برافع من الكتان وبهيئة قليلة التوحش

ولم يكن تعدد الزوجات مباحاً الا للوكم وكان الخطاب يقوم بما يرضي ابا خطيبته واما المخطوبة فكانت تعطي الى زوجها طقماً كاملاً من الاسلحة وهو يعطيها اثاث البيت ويعطيها ايضاً هدية يوم صباحية الزواج وكانت نساؤهم اصحاب عنة وحياء بخلاف نساء الرومانيين ولما كانوا يعاقبون على خيانة الفراش اشد العقاب كان وقوع ذلك عندهم نادراً

وكانوا يقرون الضيف لان اقراء الضيوف امر ضروري للامم الخشنة وزراعة عبد المتدني ثم استعمال ذلك الى المناخرة والمباهاة ومنشأً للفساد فكان الانسان منهم يبالس جيرانه وينادهم في الوايمة ويتجاوزون الحد في الماكل والمشرب لكثرتهم في المائدة مع الشره المفرط ومع ذلك كانوا يتذكرون في الوليمة بالامور المهمة الخاصة والعامية لكن من دون ان يبتولوا حكمهم فيها خوفاً من مخامرة السكر وما اسعد نديماً قدم لهم في وقت حظههم كاساً مصنوعة من ججيمة من انهزم من ملوك اعدائهم وكان كثيراً ما يقع بينهم القتال بالبربدة الناشئة من السكر وربما آل امر ذلك لذكورهم في عداوات قديمة كانت بينهم فينسون ما بينهم من المصافاة والصلح وتقع بينهم المحاربات الداخلية

وكانوا يظهرون قوتهم ونشاطهم في الملاعب الصهبانية كلعب البهلوان

والمصارعة ومهارة الديوك مع بعضها وغير ذلك من الشعبديات وكانت قلوبهم متعلقة بالاكثار في لعبة الصيب والصدفة (ضرب من القمار) وكان اذا فبت من احداهم الدراهم يلعب برقبته ويرضون بالامثال لذل العبودية وبيرونها شرقاً في اللعب وكان من يملك منهم انساناً في اللعب يستخدمه في فلاحه الاراضي مع بقائه على حالة يكاد يكون فيها مساوياً لسيدِه

وكانوا لا يعرفون المفاخرة في الجنائز وانما كانوا يكرمون المحربيين بدفنتهم في اراضٍ مخصصة ولا يكون اعز موتاهم دليلاً على انهم لا يهابون الموت وانما كانوا يتذكرونه مدةً طويلةً واما النساء فكانن يكنن عليهن

فهذه هي حالة هذه الامة التي وقع بينها وبين الرومانيين المقاتلات المستمرة الى ان ظفرت بهم وخربت الامبراطورية الرومانية وكان السبب في ذلك برد اقاليمهم وقحط اراضيهم ومحبتهم للسلب مع لطف قطر بلاد الرومانيين وكثرة اثمار اراضيهم الزائدة الزراعة واموالهم وفنونهم التي كانت تجذب اهالي الشمال الى البلاد الجنوبية

الفصل الثالث

في حالة المعارف منذ الفتح وتملك الملك ثيودوريق الاستروغوطي الى وقت اخنلاط الرومانيين بالجرمانيين

ولما تم هولاء المحربيون افتتاح البلاد الرومانية جلس منهم الملك ثيودوريق الاستروغوطي على تخت مملكة ايطاليا في سنة ٤٩٨ مسجبة ومنع الغوطيين من الاخنلاط مع الرومانيين في المكاتب ومن لبس ثيابهم خوفاً من ان يسري اليهم جن الرومانيين واخذ من الرومانيين الاسلحة وابتقى لهم جميع الوظائف الاهلية

وقال العلامة الشهير روبرتسون المورخ الانكليزي ان هذه الطوائف المتبريرة كانت مع جهلها تحقر الآداب لانهم كانوا يرون سكان الاقاليم الرومانية اهل رخاوة بها يون الحرب وحكى نقلاً عن لويتيرند انه قال اذا اردنا سب عدو ونسبته للصفات القبيحة المكروهة نقول له انت روماني فان هذا الاسم وحده يشتمل على جميع الرذائل كدناءة وجبن وبخل وفسق وفساد وكذب وغير ذلك من التناقص والعيوب ثم اوضح سبب ذلك بقوله وما ذلك الا لكون هولاء الامم المتبريرين كانوا مجهلم ينسبون فساد اخلاق الرومانيين لحبهم الآداب وتولعهم بها حتى انهم عند استيظانهم بالاقاليم الرومانية التي فتحوها لم ياذنوا لاولادهم ان يتعلموا شيئاً من انواع المعارف والعلوم لانهم كانوا يظنون ان ذلك يكسب الانسان الخمول والدناءة وضعف القوى لانه اذا كان الانسان يتعود من صغره على الفزع من عصا المؤدب والمعلم فكيف يتاقى له ان يثبت امام رخ او سنان

وذكر هذا الفاضل ايضاً انه مضت مدة طويلة وهولاء الامم غارقون في التبرير والخشونة يبغيضون العلوم والمعارف حتى انه لم يخرج منهم في تلك المدة مورخ فيو قابلية لتفبيد حوادثهم وتسطير اخلاقهم ورسوم قوانينهم ولذلك لم يبق لهم اثار يستفيد منها المولعون فائدة صحيحة حتى ان المؤلف بورننديس وبولس ورنغريد وغير يغوربوس دوطورس مع انهم اقدم الموانين الذين كتبوا تاريخ هذه الامم واكثرهم صيناً وشهرة لم يفيدوا فائدة كافية في شان اخلاق الغوطيين واللومباردين والفرنسيين ولا في شان قوانينهم وعوائدهم واما الشيء اليسير الغير الموفي في شان مبدأ هولاء الامم المتبريرين فلم يستفد الا من مورخي اليونانيين والرومانيين

وكان ترتيب القوانين منوطاً بنفس الملك وكانت مشورة الدولة تسمى كومينه وكانت هي التي تجت في الاوامر التي تصدر من الملك وكانت اولاً في مدينة راوية ثم اختلطت بديوان السنن في رومية ومن ثم صار هذا الديوان

يتلقى أوامر الملك من المدينة المذكورة التي جعلها الملك دار إقامته وأبقى مدينة رومية محلاً لمشورة السنت ودار إقامة البابا

ولم تدون الشرائع في الكتب إلا في زمن الملك روثاريس سنة ٦٤٢ م فهو أول من دونها إذ أنه حل الشعب في مدينة باويا على استحسان مجموع قوانين أعدته لإصلاح قوانين أسلافه وتكميلها وقصد بذلك الراحة الدائمة للناس وتمكين حريتهم وتأكيدهم ملكيتهم فانسعت هذه القوانين ووقع فيها الإصلاح في زمن خلفائه

وهذا الملك كان أربوسياً نظير ثيودوريق لكنه لم يظلم أهل الكنيسة في شيء وإنما جعل في كل أبرشية أسقفين الواحد من الكنيسة والثاني أربوسي وكذلك كان الملك ثيودوريق مع كونه أربوسي المذهب مثل قومه لم يتعرض لباقي المذاهب بل كان يميل في بعض الأحيان إلى مذهب الكنيسة واذن للقوطيين أن يتسككوا به وكان يعامل الباباوات بالاحترام وأبقى مزايا كنائسهم وأنعم عليهم بانعامات جديدة وفي بعض الأحيان كان هو نفسه ينتخب البابا لاجل أن يمنع بيع الوظائف الدينية وكان يدافع عن اليهود وعمر بيوتهم لكن عبدة الأوثان وإن كانوا لا يجبرون على تغيير عقيدتهم قد كانوا يعاقبون بالقتل على عباداتهم الوثنية ومناسكهم الدينية

وأظهر ثيودوريق الخضوع إلى استاسيوس قيصر القسطنطينية بكتوب حرره أنه يقول فيو أني عرفت الطريقة التي يمكن بها الحكم على الرومانيين مع العدل تحت رعايتكم وأنه لا يمكن أن يتولد بين الحكومتين أقل شقاق انتهى ثم أنه أبقى كذلك صورة القيصر المذكور على المعاملة فبايعه القيصر في نظير ذلك على ما تكتفئ إيطاليا غير أن هذا التتابع لم تطل مدته حيث لم تخف على هذا القيصر خديعة هذا الملك الخشني السياسة

وكذلك أبقى ما كان موجوداً وقتئذ من المناصب القيصرية القديمة وأعاد ما كان فقد منها وأبقى فصل دعاوي على ما كان عليه إلا أنه رخص

للناس ان يرفعوا دعاوتهم اليه ليكون ذلك حاملاً للقضاة على الاعتناء بروية
الدعاوي وفصلها

ورغب اهل مملكتهم في الزراعة واعان على تقديمها وتكثير محصولاتها ولما
كثرت الامالي بواسطة الصلح والاطمان صارت المحصولات المعتادة لا تكفي
في مؤونتهم فاضطروا الى احياء الموات من الاراضي وتشيف بطامخ المياه ومع
ذلك بقيت الاراضي لا تكفي للزراع بعد ان كانت الزراعة لا تكفي للاراضي

لهو ان فنون ايطاليا تقدمت كما تقدمت الزراعة لهما كانت تحتاج الى
غير ذلك من انواع العز والسعادة لكن لم تقدم لان الرومانيين كانوا يعتقدون
ان ممارسة عمل اليد من وظائف العبيد والاعتناء وانما مظارا قسطا طينية ورونتها
وفصاحة ارباب المعارف من اهلها حَبَّب الى الملك ثيودور ربيق الفنون والمعارف
فالتفت اليها ولم يخطر له ان يتعلم مبادئ الاداب بل اهتم بتعليم الناس وفتح
سراية راوية لارباب المعارف على اختلافهم وصار اصحابه ووزرائه ابرع اهل
عصرهم واجودهم قريحة ومنهم وزيره قسيودور والنصل بويسة والاسقف
اينوريوس والمولف بورنديس الغوطي الذي الف تاريخ الغوطيين لكنه لم
يعيد المدارس القديمة التي تلاشت وكان مكتب رومية لازال مضمحلاً

وكان هذا الملك يعتني كثيراً بالمباني العمومية حتى انه اُقْب محب البناء
ومعهم المدابن فرم الغوطيون الاثار الشهيرة في رومية لان الامم المتبربرة لم
تهد مهاورم واسوار المدينة وماعت بوميه واصلح هذا الملك مجاري المياه واحداث
قصوراً واسعة في مدينتي وبيرونة وباويا ووسع دار اقامة القياصرة وزخرفها
بزخارف جديدة على ما ذكرنا في الفصل الخامس من البحث الاول الذي مر
قال بعض المؤلفين يخاطب من قرأ كتابه فاعجب لسكن القياصرة حيث لم
يكفي سكن رئيس امة متبربرة

ونختم الكلام هنا بان هذا الملك لم يستفد اخيراً مراده من منع الغوطيين
عن الاختلاط مع الرومانيين على ما ذكرنا فيما مر حيث ابقي لهم الحرية في

الزواج الذي بواسطته اقدت كل امة منها بالاخري في عوائد ما وكانت احكامه تجعل الامتين متساويتين في الحقوق ايضاً

الفصل الرابع

في حالة العلوم والمعارف بعد اخنلاط الجرمانيين بالرومانيين الى ان تولى الامبراطورية الملك كركوس الاكبر

حرية الزواج التي ذكرناها والمساواة في الحقوق قد اوجبا اخنلاط الجرمانيين بالرومانيين اخنلاطاً تولد عنه تغيير في الاخلاق والقوانين العمومية في هذه الممالك المتسعة التي استولى عليها المتبربرون وحيث لم يكن من موضوع هذا المؤلف البحث في كيفية تفسيرهم الاراضي والاقطاعات ولا الكلام على الفرق الخشبية التي اخنلطت مع الرومانيين في الممالك الجديدة التي اسسها المتبربرون واتخذوا الى ان صاروا فرقتين احراراً وارقاء من كل من الفريجين ولا الايضاح عن كيفية الحكومات والادارة وجمعيات الملة والخدم العسكرية فان ذلك جميعه من متعلقات التواريخ العامة فلا نذكر منها هنا الا ما كان له دخل في القضايا الادبية

ومن ذلك كيفية فصل دعاوي الذي كان يجري على رؤوس الاشهاد وقتئذ وقد كان هذا الامر قبل ما افتتح المتبربرون تلك البلاد منوطاً بشورة العموم وقضاة الاخطاط الذين كانوا يتقلدون مناصبهم من طرق المشورة لكن بعد الفتح تغير ذلك منذ توطنت الطوائف الجرمانية في البلاد وتفرقت فيها فصاروا هم الذين يفصلون دعاوي الرومانيين المغلوبين فكانت الكونتات والويكونتات وحكام المئات والعشرات يعقدون في بعض الاحيان مجالس

يسمونها الجعومات السفلى لهذا الغرض وكانت الجنايات تخول رؤيتها الى المحاكم وتتوزع بحسب جرمها وكان في مبدأ الامر تحضره جميع الاجرار الى المحكمة لكي يبدوا رايهم بعد ان يسموا كلام المخصمين ثم صار الكوتة منهم لا بدعو الى محكمة الأ خمسة او سبعة او اثني عشر فكانوا يفتشون الدعوي ويقدمونها الى الكوتة لكي يثبت الحكم فيها وينفذ

وكان المدعي عليه هو الذي يكتب أولاً ما يثبت براهته ويقدم ذلك الى القاضي ثم يحضر البينة ثم يأتي بمن يجلف له انه بري ثم يمتحن بالامتحانات الشرعية وهي عدة انواع منها انهم يطعمون المدعي عليه شيئاً من شجرة سامة فان لم يضره ثبتت براهته ويسمون هذا العمل اورد بال ومنها امتحان النار والماء والصليب ويسمون هذا العمل قضاء الله ومنها المقابلة الشرعية وهي ان يتفائل الخصمان فمن غالب فهو الحق واما الفسوس والساه والصبيان فكان لهم امتياز بان يوكلوا من يقوم مقامهم في هذه المقابلة (وهذه المقابلة الشرعية هي التي نشأ عنها ما يستعمله الافرنج في هذه الايام ويسمونه دويل) وهذا الامر لم يكن يعرفه اليونانيون ولا الرومانيون

واما العقوبات فكانت اما بالفنل واما بالدنة او دفع غرامة ولكن العقاب بالنل كان نادراً والغرامة كانت غرامتين الواحدة لارباب المجلس وكان يؤخذ نصفها الى بيت المال والنصف الثاني الى الكوتة (اي الحاكم) وانما كان ياخذها الجني عليه او عائلته اذا كان فقيراً وقد بينت قوانين هولاء المتبربرين انواع الدنة ولا سيما القانون السالي والقانون الريووبري من النتل الى السب بالكلام او بالاشارة فكانت دنة الاسقف ٩٠٠ قطعة من الذهب ودنة العبد ٢٦ ودنة ما بينها على حسب انواع النتل وحال التفتيل شرقاً وخسة وقد نص القانون السالي ايضاً ان دنة المتبربر تكون ضعف دنة الروماني المائل له في الدرجة والرتبة ثم نسخ هذا الحكم وصارت النسوية بقانون الملك عند بود حيث ان الرومانيين كان لهم دخل في ترتيبه واما القوانين اللبردية فكان فيها دنة

القتل ١٠٠ قطعة من الذهب مطلقاً

وكان اقدم هن القوانين القانون السالي وهو اصعبها وافظعها رتبة اولاً ٤ من الوكلا باللسان الجرمانى واقرة الافرنك السالين فسى بانهم ثم لما اقتبل الملك فلوويس الفرنساوى الدبانة المسيحية في سنة ٩٦٦م خفف منه بعض احكام لطابقة مع الدين المسيحي ثم اصلحه بعد ذلك الملك تيبيري الاول وشلدبيرت الاول وقلوتير الاول وداغورت الاول وكراوس الاكبر وكان يقال ان القانون المذكور يمنع الالاث من ارض تخت مملكة فرانسوا والجمال ان هذا القانون لا يتعرض الى شيء من ذلك واما القانون الريبوييري فكان له شبهة بالنانون السالي غير انه لم يكن مالوقاً للرومانين وهناك قانون للبرغونيين وقانون للويسيفوطيين وقانون للاستروغوطيين وقانون للنبرديين وقانون للانكلسكون وكلاهما قرينة الشبه من بعضها فلم تكن بالمعنى المصطلح عليه الان عند الافرنج وانما كانت تتعاق بالاهالي وخصوصاً بعبوات الجنائيات وحفظ الحيوانات الاهلية واصلاح احوال الامم المتعددة على قطع الطريق وايقاع احترام الاهالي والاملاك في قلوب الساكرومع فساد اخلاق الناس وكان فيها اصول فتهية تيزقوانين الجرمانيين المتبريرين من قوانين الرومانيين المتدنين وهي ثلاثة

(١) ان القوانين ذاتية لارضية يعني ان الشخص محكم عليه بقوانين بلاده ايضاً وجد

(٢) هو ما ترتب على ترخيص المتبريرين للرومانيين ان يعملوا بقوانينهم القيصرية اذ انهم صاروا بذلك ممتازين بان يتقادوا للقانون الذي يختارونه وصار يمكنهم ان يرتقوا الى درجة الجرمانيين الغالين وان الجرمانيين الغالين يخطون الى درجة الرومانيين المغلوبين قال الامر الى ان الامم المتنوعة في كل دولة من دول الفاتحين صاروا امة واحدة بدون فرق واما قوانين القياصرة المذكورة اعني التي كانت يعمل بها الرومانيون المغلوبون فهي التي جمعها القيصر ثاودوسيوس الثاني وقيمت معمولاً بها مدة طويلة في بلاد الغالية وابطالها

واسبانيا حتى ان معظمها نُقل الى القوانين الكاثائية وامتزج بها
 (٢) هو انه كان من قواعد المتبريرين انه يجوز ابدال العنوبات
 الجسانية بالغرامات المالية سواء كان الجرم كبيراً او صغيراً ثم بطلت هذه الرخصة
 على التدرج

واما العلوم والفنون فقد كان الخطر عليهما عظيماً في هذه الاغارة البربرية
 اولان الدين المسيحي وحده هو الذي تكفل بحفظ التمدن والمدافعة عنه وكانت
 المنفعة كلها في مبدأ الامر للجرمانيين المنصورين وبنراى ان المغلوبين اي
 الرومانيين اضعفت معارفهم التي علوها المنصورين فتحل المنصورون بهذه
 المعارف ونحوا عن خشونتهم الاصلية من غير ان تزول عنهم فضائلهم الحربية
 وصار الرومانيون ارباب خشونة واستمر فيهم الجبن وفساد الاخلاق
 ولما نسك المنصورون بالديانة المسيحية صار هذا الدين يرشد هم الى ما فيه
 صلاحهم فترك المتبريرون لغاتهم الاصلية واستعملوا اللسان اللاتيني لكونه
 يستعمل في العبادة ثم استعمل في الشرائع والقوانين لكن لما كانت جابت هذه
 الامم المتبريرة في مبدأ امرها الى الرومانيين تصورات وآراء يجولونها تكلفوا
 التعبير عنها بالفاظ من لغاتهم الاصلية فاخثاروا بعض كلمات تونونية ونظموها
 في سلك لسانهم الا انها لم تنسبك في اعرابها مع اللسان اللاتيني فتولد من
 اختلاط هذه الالسنه باللسان اللاتيني المذكور اللسان العامي المسى باللسان
 الروماني ومنه نشعبت باقي اللغات الجديدة في اوروبا وبقي اللسان الجرمانى
 مستعملاً في بلاد اوستراسيا وهيبترشيا السكسونية وعند اللهبديين والعشائر
 الكبيرة واما اللسان اللاتيني فبقي عند القسوس ومحافلهم ومكاتبائهم وصار هذا
 اللسان من ذلك الوقت في اوروبا لساناً مقدساً يتكلم به القسوس ولا يمنع
 تعليقه عن العامة وكان ذلك من انفع وسائل التمدن
 وكان قد قل العار في هذه الامبراطورية الرومانية منذ نزول المتبريرين
 بها بعد وفاة القيصر ثاودوسيوس الاكبر على ما سبقت الاشارة اليه وخلت

الأراضي عن الزراعة وتكاثرت الحيوانات الوحشية بها نظراً لتناقص الناس
وتعدرت التجارة في الأماكن البعيدة فاقطعت علائق الاختلاط بين الأقاليم
والمدن والقرى وتعطلت الصنائع واضمحلت على التدرج الفنون الميكانيكية
أي فنون صناعة الآلات وتناست فنون الرفاهية والزينة وهجر أرباب الصنائع
والحرف مدتهم وطلبوا من أصحاب الأملاك الخلاقية أن يتعمروا عليهم بحفظ
نفوسهم بحيث يكونون بمنزلة عبيدهم في المعيشة والخدمة

وأما الفنون العقلية التي لا يعبأ بها عند مثل هذه الأمم الفاتحة ولا تنفع لها
عند المغلوبين فقد حفظها الدين المسيحي وفتنثرت تحت كنفه وثبتت محفوظة في
صدور النفوس في ذلك العصر وهم الذين جعلوا بواسطة وعظهم في الدين
وكثرة احتضانهم في الجامعات مجالاً واسعاً إلى الفصاحة وعلم المنطق وصار طلبة
العلم في الديورة التي تجددت في ذلك الوقت أميين محترمين وصارت العامة
على التدرج يحترمون العلم والديانة ومن ذلك الوقت صارت كتب الدين
المسيحي كتب التمدن والتأسي

وأما الآداب الرومانية في هذه البلاد فإنها كانت قد أخذت في
الاضمحلال منذ زمن القياصرة الأباطونيين إلى أن حصلت ٢ حوادث كبيرة
عجلت انقراضها بالكلية وهي

(١) انخاض القياصرة داراقامتهم في القسطنطينية فان ذلك جلب
إلى بلاد المشرق أرباب المعارف وحجزهم فيها لكي يحظوا عند القياصرة بالشرف
وعلو المنازل ويتيسر بعضهم من أنوار بعض

(٢) سقوط الإمبراطورية الغربية إلى الخوض

(٣) هجوم الأمم المتبربرة الذي تمزقت به مواد العلوم وأصولها فهذه
الأسباب أفضت بالآداب اللاتينية إلى العدم بخلاف الآداب عند اليونانيين
فإنها عادت يومئذ إلى مواطنها الأصلية وثقوت فيها بقوة جديدة

وكان الدين المسيحي قد أحدث لساناً جديداً لم يكن من ذي قبل وحل

ما كان بين الاداب والفنون واوهام الرومانيين الفاسدة من الارتباطات
والعلائق القوية ومع ذلك كان الشعر المشتمل على العبادة الوثنية في ايام
الدولة الثاودوسية مرتفع المنار عظيم البهجة وفي المدة التي كانت فيها الشعر في
بلاد اليونانيين محصوراً في قصائد هجومية بدلاً من التي ظهرت في الرومانيين جملة
من الشعراء البالغين والبلغاء الحماسيين مثل اوزون وبرودنس وبولين دونوله
وقلوديانوس وسدينيوس ابوليمار بوس وفورتونات وكان لم يبق من هؤلاء الشعراء
على قيد الحياة الوثنية الا قلوديانوس وهو كان اخر الشعراء الوثنيين وفي مدة ما
كان شعراء عصره مشتغلين بانشاء قصائد في مدح الدين المسيحي كان هو
يزاول بشعره احياء ما اندرس من الاوثان القديمة الى ان تعجب اهل ديوان
هنريوس وكانوا من المسيحيين الانتباه حيث سمعوا ذكر بروزرينة المختطفة
والاعوان الذين اصابوا بالصاعقة المذكور في اشعار اطيفة ونظم قصائد اخرى
في مدح هنريوس وسيليقون الذي انتقل الى ديوان هنريوس الذي كان
اهله من الادباء ارباب الانشاء والبيان وحى في رومية هذه الاشعار اللاتينية
الوثنية التي نظمها هذا الشاعر الذي جاء الى رومية من الاسكندرية لاجل
مضادة الانجيل

ثم ان رجلاً من الغليين يقال له روتابوس نوميديانوس له قصيدة نظمها في
شان العود الى وطنه ومن اطلع على حماستها يتأسف على كونها ناقصة
واما سدينيوس المار ذكره فهو مولود في بلاد الغاية ايضاً ونظم قصائد
ليعرض بها الناس على مجانبة التبرير الذي عم هذه الامبراطورية ومن اعظمها
قصائد التي مدح بها عدة من القياصرة تاتي فيها بمدحهم بحجة الوطن وضمنها
الحجاسة والحجبة والتغليلات المختزعة

وتوجدت قصائد حزنية تتعلق بما يترتب على الهرم والشيوخوخة من
المضرة كان يظن انها نظم كرنيليوس غالوس والواقع انها نظم مكسيميانوس
الشاعر الذي بظهراته كان في عهد الملك ثيودوريق

ومنهم برسبان النحوي الشاعر اللاتيني الذي اشتهر في عصر يوستينيانوس سنة ٥٢٧ م ويوستينوس الثاني سنة ٥٦٥ م بالانسطنطينية وله ثلاث قصائد ما بين انشا وترجمة كان غرضه منها التعليم وهي متعلقة بالجغرافية والموازن والمقاييس وعلم الهيئة .

ومنهم قوربيوس الاقريقي الذي اشتهر في عصر القياصرة المذكورين ايضاً له قصيدة مدح بها يوستينوس ولولا ما اشتملت عليه من الوقائع التاريخية وعوائد دولة القسطنطينية ومناصبها لما كانت تستحق ان يُحافظ عليها نظراً لدنائها

ومنهم وينانتبوس فرتونانوس وهو فرتونات المار ذكره ولد في بلاد البندقية وصار اسقفاً على مدينة يقال لها بوايتير نظم اشعاراً ذات محسنات بدعية وكلمات اغوية كان يتلقى بها كنوربيوس احد الملوك المرونجية وانشا ١٢ كتاباً ايضاً فاق فيها على شعراء عصره وهي في فنون متعددة وترجم بالشعر كتاب سوليبس سوير المتعلق بسيرة ماري مرتين وكان شاعراً بليغاً

وفي عصر شلبريق ملك فرانسا الذي تولى الملكة سنة ٥٦١ م ظهر سيزيوت الذي كان عالماً وشاعراً حاز جميع العلوم التي كانت في عصره حيث انه تخرج على ايزيدوردوسويلاه الآتي ذكره ونظم الحوادث الجوية والعجوبات اسبانيا

ثم وان يكن عصر الانطونيين الذين سبق ذكرهم يفخر بوجود المورخين مثل تاسيت وبلوناركة الآ انه مضى بعد ذلك نحو ٢ قرون قل ان وجد فيها مؤرخ لاتيني او حدث فيها شيء من الامور المهمة الا ان بعض المختصرين للتواريخ المتفاوتة في البراعة والتملق للقيصرة او التشنيع عليهم حكوا عيوب الديوان ومصائب الامبراطورية وبعض سطوات حرية الى ان ظهر في القرن الرابع المؤلف اميان مرساين وهو يستحق ان يكون في درجة تباوة وسلاوست وكان اخر المورخين الوثنيين بل خاتمة من يستحق اسم المورخ وبعده ظهر المورخون

الذين كانوا يجمعون الحوادث السنوية سنة بعد اخرى
 واول من سلك هذا المسلك السهل هو بروسبير داكينا فجعل تاريخ
 اوزيب وماري جبروم على شكل الفهرست واستمر يجمع فيه هذين التاريخين
 حتى تغلب الملك جنسريق على رومية سنة ٤٥٥ م وبعد ذلك بدة نسج على
 منوال ايد قديوس اسقف مايكا فجمع تواريخ سنوية ابتدا فيها بموت والان سنة
 ٣٧٨ م وانهاها سنة ٤٦٧ م ثم تم هذين المؤلفين ثلاثة اساقفة وهم فيكتور الافريقي
 ويوحنا البكلاري ومريوس الاونسي وهذه الوقائع السنوية ومختصر اوتروبها
 اصل تاريخ سيلا الذي جمعه المؤلف بولس ورنفريد المباردي في القرن الثامن
 من الميلاد

ومن زمرة كتاب الوقائع السنوية قسيودور وزير ثيودوريق الذي مر
 ذكره مع انه كان بارعا في كل شيء وسحبت نفسه بقاليف رسالة في علم الخط
 تنازل ايضا لجمع الحوادث السنوية وائف تاريخ الفوطيين لكنه ملو من
 المبالغات وقد اختصره جرناديس ثم اخذ هذا الكتاب ايزيدور دوسوبله
 واستر فيو حتى اكمله وتم ايضا كتابا عموميا جمعه من الوقائع السنوية
 وقد آلف راهب يقال له جلداس دودونبرتون كتابا محزنا يتعاقب بخراب
 بريطانيا وقد عيب عابو بعبوب ذكر بعضهم انهم لم ياروا على مثلها المعلم بيذا
 رئيس دبر ورموت الذي آلف في القرن الثامن الكتابين الاخرين وها تاريخ
 بريطانيا الكبرى ورسالة كبيرة في الاجيال الستة بل نسبوا ذلك لخالص
 باطيه وحسن طوبيه لكونه كان ياخذ الاخبار كفضية مسلمة من دون ان
 يبحث او يناقش فيها بل مدحوا عباراته بانها واضحة ووجيزة وانه مكث ٦٠ سنة
 لاجلها منقطعا عن ابناء جنسه من الادياء

ولما افتتح الجرمانيون بلاد الغالة (فرانسا) قبل بريطانيا (بلاد الانكليز)
 كان لها ايضا مورخ مثلها يقال له غريغور بوس دوطورس وقد مر ذكره
 مولودا في مدينة كليرمونت وكانت عشيرته من ارباب ديوان السنن وخرج

منها قبلة اساقفة عظام على كنيسة ليونيزة ثم صار هو ايضا اسقفاً على طورس سنة ٥٧٢ م وهناءً بذلك الشاعر فرنونات المقدم ذكره ووصفه بكونه بضاهي القديسين الشهيرين امبروسيوس واوغسطينوس وكانت دائرة معارفه واسعة بالنسبة الى عصره وكتب تاريخ الافرنك واعنذر فيو بعبارات اوضح فيها قلة معارفه في فن التاريخ وفي الحقيقة انه اثبت فيه كل ما سمعه واخذه من الاخبار من غير بحث ولا مناقشة وضمنه الامور الدينية والديوية من غير ان يكون على نسق واحد واعتمد فيه على اقوال فريجيريد وعلى ما كان يعرفه هو من وقائع عصره وبالجملة فان له الفضل على الافرنج بهذا التاريخ الذي لولاه لما عرفوا منشأ وطنهم فهو الذي ارشدهم الى السطوات الحربية التي ترتب عليها تأسيس المملكة في زمن الملك قلوديس المؤسس الحقيقي للملكة الفرنسية التي تولاها سنة ٤٨١ م وهو اول ملك نصر من ملوك فراسا وادخل بها الدين المسيحي على ما ذكرنا في ما تقدم واوقفهم على الاشفاق الذي افضى بها الى الانحطاط من ايام اولاد قلوثير الاول الى موت غنران سنة ٥٩٢ م وهذا المؤلف نعم انه دون تيتلوه الا انه اعلى من فريديغير الذي زاد في تاريخ الافرنك الى سنة ٦٤١ م وسلك في هذه الزيادة مسلك غريغوريوس دوطورس المذكور من ركافة الفاليف وزاد عليه فيها بيوسه الالفاظ ثم اشتغل بعده اخرون بتكميلها فوصلوا بها الى نولاية كراوس الاكبر سنة ٧٧١ م

ثم ان مركولف الافرنجي جمع من القوانين الفقهية ما يصلح لازالة جهل الكونتات وفتهاه المرونجيين فكان تاليف هذا الفقه تكملة وشرحاً لقوانين المتبررين

واما مهرة القرن الخامس ومشاهير احبار القرون التي بعده فكانوا من الادباء ارباب الانشا وقد كان في القرن المذكور ٣ من ارباب الدولة اقتصوا اثار قبقرن المورخ الروماني المشهور الذي سبق ذكره وباينوس الشاب بذلوا الجهد في المراسلات الانشائية واعنوا بنسجها على منوال الصناعة الادبية

لشاهد بعلو درجاتهم في الادب اقدم الوالي سيماك الذي مر ذكره في الكلام على خراب الهياكل الوثنية في الفصل السادس من البحث الاول وكان من كبار الفناء ومجاني عن عبادة الاوثان التي كانت اشرفت وقتئذ على الزوال ولم يبق من انشا آتو الا مكاتباته والثاني - سدنيوس ابوليناريوس الذي تقدم ذكره في هذا الفصل مع الشعراء وكان فاضلاً ووالياً كالاول وله رسائل مرغوبة بين فيها اخلاق بلاد الغاية حين اغبر عليها وحالة دولة الغوطيين بمدينة طوارفة والثالث قسيودور وزير الملك ثيودوريق وقد تقدم ذكره في جملة مواطن من هذا الكتاب ايضاً وله رسائل مشتملة على ١٢ مقالة ذكر فيها جميع احكام الملك ثيودوريق المذكور

وقد استنبط ايضاً من مراسلات امناة الدين امورا نافعة للتاريخ الاملي ومن ذلك مكاتيب القديس جبروم لمشاهير عصره فانه ترك بها ما يدل على سيرته وما صدر عنه من المشاجرات الدينية ورسائله هذه بامت ٢٧٠ رسالة وهي تذكر الافرنج برسائل سينييك (احد الفلاسفة الرومانيين وسوف يأتي ذكره) الادبية التي ارسلها الى لوسلبوس

وحيث كان املاء الدين اعناء بهذه الرسائل فحافظوا على انشا آت علماء القسوس والاحبار التي نورثهم الفخر والى الآن توجد عند الافرنج الرسائل المرغوبة التي انشاها اوتيوس اسقف قيانة وويديبراسقف مدينة كهورومع ذلك فلاشيء منها يضافي رسائل البابا غريغوريوس الذي كان ذا حافظة عجيبة

ثم انه يوجد من التاريخ ايضاً بيان منصب الامبراطوريتين الشرقية والغربية وجدول بوتيجير وهذان المؤلفان كانا في عصر واحد والاول له شبه بالثنويمات وكان ظهوره في عهد ثاودوسيوس الثاني ولم يتعرض لاسماء الاشخاص واماماني فقد سمي جدول بوتيجير باسم مالكه لكون مؤلفه مجهولاً وهو عبارة عن خريطة الامبراطورية الرومانية ويظن انها اُلفت في سنة ٤٢٢ م

وحين جاءت الفلسفة من بلاد اليونانيين الى ايطاليا على ما اشرنا في الفصل الثالث من البحث الاول كانت علما مستكبرا بحيث اكتفى التلامذة الذين تعلموها في رومية بمجرد نشرها من دون ان يزيدوا عليها شيئا فلم يكن لوقريس وقيرون وسنيك (اللذان مر ذكرهما) ومرك اوريل (فلاسفة رومانيون) الا مفسرين لفلسفة ابيكوروس وافلاطون وارستطاليس وزونون (فلاسفة يونانيون)

ثم لما دخلت فلسفة افلاطون الجديدة وضل منها الى الرومانيين بعض معارف واول من نقل هذه الفلسفة الاسكندرانية اليهم باللسان اللاتيني هو ابوايا الافريقي غير انها كانت قليلة الرغبة في تلك البلاد وسائر بلاد المغرب فلم يحصل لها تقدم بل استقل بها قدوس الكيسة الرومانية فبنوا منها ما لا يوافق الديانة المسيحية فالتامت به وصار لها بذلك قانون وحد لا تعداه وقبل العقل احكامها

وكان اكثر هؤلاء القديس اعطنا بالتوفيق بين الفلسفة والدين المسيحي القديس اوغستينوس وكان توقف مدة طويلة بين مذهب ارستطاليس وافلاطون ثم ترك مذهب اللاادرية وتبع فلسفة اسكندرية المنتخبة الا انه مع براعته وجودة ذهنه لم يقدر على التباعد بالكلية عن رأي القديس يوستينوس والقديس اكليمندوس حيث قال ان تلك الفلسفة الشرقية هي مما اوحى به الى موسى النبي

ثم من عهد ثاودوسوس الاكبر الى زمن ثيودوريق الاستروغوط لم يوجد من استحق لقب فيلسوف عند الرومانيين الا رجل واحد وهو الشاعر قلوديانوس مايرتوس الوثني وقد مر ذكره وكان خصما لفوستوس احد الفلاسفة الذي كان لا يقول الا بالمادة فحجبه قلوديانوس وظفر به وكان اعظم الفلاسفة في قداماء اللاتينيين واخرهم احد الرومانيين الذين ايدوا حكومة فاتحي ايطاليا الثيريزين وجعلوها عظيمة المنقار رفيعة المناروهي

رجل يقال له انقيوس منليوس طوركانوس بوليسيوس ويقال له ايضاً بويس اوبويسة وقد سبق ذكره تخرج في الفلسفة الافلاطونية بكتيب اثينا ثم اخذ في تأييد فلسفة ارسططاليس وكانت مقبولة منذ مدة عند حارة الدين المسيحي وترجم علم حساب نوقاقوس وهندسة اقليدس وعدة رسائل لارشيبيدس (١) وافلاطون ولايسيا رسائل ارسطو وله عدة شروح على فلسفة اسفاغبرس استعمالها الناس وتداولوها في مكاتب الاجيال المتوسطة من وقت تأليفها وهذه الشروح الفها وهو في السجن ومن طالها في اية جيفة من الجهات حماته على الهدء والاستقامة والعيشة الطيبة وهي على منوال المخاطبات وكان هذا الفيلسوف من ارباب المشورة وتولى الفنصلية مرتين وكان صاحب سر الملك ثيودور بنق الاكبر ثم قتله هذا الملك لامر انهم به

ومن النخاة علماء اللغة اللاتينية مزروب اليوناني كان صاحباً عند ثاودوسيوس وهنريوس وله ثلاثة مولفات احدها يقال له سانرنال وهو في تركيبه واسلوبه كتايف اولوجيل المستى نوي انيك يشتمل على مخاطبات يتحدث بها العلماء على المائدة في مسائل شتى ادبية وتاريخية وطبيعية وهو ان كان عظيم الموضوع الآن عباراته ليست متناسقة على غطر واحد بل هي خالية من الطلاقة والانجسام والثاني لتعبير روية راما اسفيون واعظم هذا الكتاب الذي هو من ملح اداب الفلسفة بقي محفوظاً اللان والثالث الذي في الفرق بين لغتي اليونانيين واللاتينيين وما بينها من المناسبة ولم يبق منه الى الآن الا قطعة

ومن النخاة ايضاً سروبيوس وهو اشهر الذين شرحوا كتاب ورجيل من القدماء وهو كفروب المذكور من رجال القرن الخامس وله رسائل عديدة في

(١) ارشيبيدس المذكور مهندس شهير من مدينة سيراقوسه احدى بلاد نابلي قتله احد الجنود الذين كانوا محاصرين هذه المدينة في سنة ١٢٨م لكونه لم يجاوبه على خطا يواذ كان مدمم الاشتغال باختراع الآلات الحربية وصنعها للذبح عن تلك المدينة

النحو ورسالة في العروض

ومنهم أيضاً قسيودور وزير ثيودور ريق وقد تقدم ذكره له كتاب في علم
الخط على ما سبقت الإشارة إليه نفعه لا يساوي رغبة الناس فيه وكتاب في علم
النحو لوجوده الآن عند الافرنج ورسالة تتعلق بالفنون السبعة العقلية وهي
النحو والبيان والمنطق والحساب والهندسة والهيئة والموسيقى فأكثر من استنساخ
هذه الرسالة العالم النوبن وسوف يأتي ذكره لنتعمل في المكاتب التي انشأها
كرلوس الأكبر كما يعلم ذلك من الفصل الثاني وهي لم تزل باقية الى الآن
ومنهم أيضاً برسقيان النيساري ألف رسالة في اجزاء الكلام الثانية وهي في
الحقيقة اكل ما ادركه الافرنج من كتب النحو القديمة واعظم مولفاته
ومنهم الاسقف ايزيد ورد وسويله الذي ذكر في ما سلف أيضاً وله كتاب
يسمى كتاب الاصول شحن الجزئين الاولين منه بعلي النحو والبيان وهو اخر
المشاهير من قدماء النعويين

وفي عصر هذا الاسقف كانت العلوم آخذة في الاضمحلال وكان اهل
البراعة يرون ان فخرهم في احيائها وتجديدها ما اندرس منها ولكن كان هذا
الاضمحلال يتزايد بالتدرج حتى عم معظم المعارف البشرية ومضت الامم
الساكنون ومجيت اثارهم التي كانوا ابقوها الى خلفائهم وذهبت بدهاب التمدن
غير انه بقي بعض بنايا لم يلحقها ذلك مع بعض قواعد تمدنية ليبنى عليها ثانياً
فكانت هذه البقايا الواهية واسطة للقرون المستقبلية في احياء التمدن كما يتضح ما
يأتي كيف انهم اهتموا في انقاذ ذواتهم من الخشونة والتبربر

وذلك انه كان لم يزل في بلاد الرومانيين وقت الانقراض الكبرى فنون
ومكاتب وكتب ومباني شهيرة من الآثار القديمة فلما تخربت بلاد المغرب لم
يبقى من هذه الفنائس الا بعض بقايا قليلة حتى ان القسطنطينية كرسى القيصرية
الشرقية التي كانت تفخر بان سلطنة رومية تبقى فيها الى الابد لم يمكنها ان تحفظ
هذا الميراث العظيم لان المكاتب العمومية التي زادها قسطنطين وخرطيانوس

واغريثيانوس ووقفنا عليها اوقافاً ضعفت حمايتها في ايام الملوك المتبربرين وقل
الطلبة بها حيث كان الفقر وتبدد الثمل واخطار الاهتار الطويلة كل ذلك
منع الطلبة عن الذهاب اليها فانهطت حينئذ الدروس من بعض تلك المكاتب
وفي بعضها ضعفت حتى كادت تُنسى

واما مكاتب اسبانيا وبريتانيا فانيها لم تنجح اصلاً وكذلك قرطاجنة بعد
ان كانت منبع الاداب الافريقية تسيطر فيها الفاسفة السكولاستيكية اي
المدارسية كما تغاب عليها الونداليون وفي سنة ٢٩٨ م منع بعض الجامعات الدينية
ان يقرأ الاكبروس فيها كتب الاداب البشرية ومن المحقق ان هذه المدينة لما
خربها المسلمون لم يلحق الاداب ضرر من ذلك

اما بلاد الغالية (اي فرانسا) التي قاست افريقية في فجار الاداب التي
نشأت بها من اضلال الاداب اللاتينية كان فيها عدد وافر من المكاتب
الشهيرة لكن لم يبق منها بعد الا ابراطورية الرومانية الأماكتب ديانة والظاهر
ان نهاية مدته كانت يوم الذي منع الجميع المذكور تعلم الاداب البشرية في
مكتب رومية الذي استمر الى ايامه ولم يصل الى القرن الثامن من الميلاد

وقد ذكرنا في الفصل السادس من البحث الاول المتقدم ما اصاب
المكاتب في القيصريّة الشرقية فان مكتب اثينا الجديد امر بغلقه يوستينيانوس
الاول ولم يبق هناك الا مكاتب الفقه والنحو واما مكتب اوكتوغونه الذي كان
احد ثلث القيصريين في القسطنطينية لم يمكنه ان يقوم بجبر الخلل الذي
لحق بالعلوم من ابطال مكتب اثينا المذكور وكذلك مكاتب اسكندرية
وانطاكية وبيروت وقيسارية فان ابوابها أغلقت منذ رؤيتها ليارق الاسلام ولم
يبق هناك الا بعض معارف انتفع بها المسلمون من العلوم اليونانية التي هضبت
بعد ذلك بالقبول عندهم

واما نقل العلوم بطريق المشافهة والرواية فانه اضحل ايضاً وكاد ينعدم
بالكلية في كل الجهات ولو بقيت كتب القدماء ربما كان يعود لها كان عليه

ولكن دهم الشرق والغرب خطب لم يسبق نظيره وذلك ان نفائس الآداب
 اكلتها النيران وكان ذلك في مدة الاغارة الشديدة وتحريق المداين الذي انعدم
 به كثير من نسخ المؤلفات اليونانية واللاتينية لانه كما فجا بالقسطنطينية خطب
 اعدم منها مكتبة اوكتوغونة المذكورة واكمل ذلك اذوف اللوزياني بايقاده
 الحريقة التي اكلت ما بقي من الكتب في سنة ٧٢٠م واصاب مكتب الاسكدرية
 الذي كان اسوأ حالا من اوكتوغونة حيث احرقه اولاً (على ما قاله بعض المؤلفين
 وانكره البعض الاخر) بولبوس قيصر الذي تولي المملكة الرومانية سنة ٤٧٠م
 ثم نال ثانياً نصيبه لما امر ثاودوسيوس بتخريب الهياكل الوثنية ثم اباد العرب
 ما بقي فيه ايضاً وما دهم مكاتب الشام من يزيد بن عبد الملك الاموي بهد
 الذي كان اصاها قبلاً من ملوك العم وما فعله العرب ببلاد القيروان بافريقية
 من الخراب الواسع الذي بقيت العاوم النفيسة مدفونة بسببه تحت ردم
 قرطاجنة وبونة وتغازة كذلك وقع ببلاد المغرب ايضاً فان الاقطار التي تغلب
 عليها الجرمانيون نعم ان مكاتب مدنها لم تنعدم دفعة واحدة وانما تشمت ما فيها
 من الكتب وازيادة الجهل في تلك الاعصار لم يقدر احد على اعادتها كما
 كانت وكان في هيكل ابولون بلاتين بمدينة رومية كتب اداب نفيسة لم تزل
 من عهد اوغسطوس فيصر الى ان احترقت في اخر القرن السادس واتهم
 البابا غريغوريوس بذلك فقيل انه هو الذي اضاع هذه الوديعة التي جعلها
 العالم وارون وقد مر ذكره في اخر الفصل السادس من البحث الاول المتقدم
 في حرزاه الشعر عندهم واستودعه اياها

ولكن كان هناك بعض محلات لم يلحقها التلف وهي مكاتب الرهبان
 فقامت من مبدأ الامر بواسطة الاداب الدينية مقام المكاتب القديمة حيث
 انها ورثت عنها ما كان يقرأ فيها ومع ان القانون يومئذ لم يلزم الرهبان بقراءة
 الكتب المقدسة وكتب اباء الكنيسة لكن بطالتهم في الدبورة عادت بالنتع
 على الاداب فكان يتعلم في كثير منها الفنون السبعة التي كانت تشمل جميع اصول

العلوم وكان جميعها لا يخلو عن مولفات اباء الكنيسة ليقرأها الرهبان وصاروا يقرأون ايضاً مولفات الاداب البشرية التي كثيراً ما ذكرها الآباء المذكورون وكان امهر الرهبان الملقب بعالم الآثار القديمة يتكفل بحفظ الكتب ونسخها ولم يكن علم الخط وقتئذ مقصوراً على تحسين الكتابة وانقاذها بل يتضمن ايضاً ما يوضع على حواشي النسخ المكتوبة باليد من النش والنصوير على ما سبقت الإشارة الى ذلك وكانوا في تلك الاعصر يرونه اعظم معارف الراسب الادب وكان كثير الاستعمال

وذكر بعضهم ان البعض من الساخين الجهلة كانوا يسمعون من رق الغزال اشعار ورجيل وخطب فيفرون بخلاصهم ان يشتروا رقاً جديداً يكتبوا فيه بعض الصلوات وغيرها كما ان البعض من الرهبان كان يفعل عكس ذلك فلما يأمره الرئيس بنسخ اشياء يعينها له من الامور الدينية كالوعظ وغيرها كان يغش رئيسه كونه لا معرفة له بالاداب وينقل من الكتب القديمة ما يستحسنه من الاشعار والاداب النصيحة

وكانت هذه الكتب جميعها دينية وديوية مختلطة ببعضها من غير تمييز بينها في مكانب الدبورة وهي تحت رعاية الدين وحمايته الى ان اخرجت عند احياء العلوم والمعارف لكن قد اندرس منها عدة عظيمة بتوالي الازمنة وما بقي كذلك اشرف على التلف فلم يبق منها على رونق الاول الا القليل قال بعض المؤلفين ما اعظم هذه الخسارة لولائه بقي هناك ما يجبرها كاهرام مصر وهيكل البرشينون وزهرة ميدسيس ونحو ذلك

فمنه هي حالة العلوم والفنون والاداب الى سنة ٧٧١م عندما تولى فرانسوا كراوس مانوس ابي الاكبر الآتي ذكره وهو اول من لبس التاج الامبراطوري ايضاً بعد القياصرة الرومانيين القدماء

الفصل الخامس

في حالة العلوم والمعارف منذ تولية شرلمانيا يعني كرلوس الاكبر
الامبراطورية الرومانية الى حين وفاته وبهذه التولية
يتندي المورخون بالفصل الثاني من القسم
الثاني من التاريخ العمومي المسي
بالقرون الوسطى

هذا الفيصر الروماني الجديد هو ابن بيبين لبريف اي الفيصر اول
ملوك الدولة الكراونجية على فرانسوا وتعتبره الكنيسة الرومانية قد يساً وبراءة
الفرانسوايون اعظم ملوكهم وبعده الاملانيون ابن وطنهم والابطالايون امبراطورهم
لان البابا لاون ساه امبراطور الرومانيين عندما كان في رومية وهو في الكنيسة
يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م وقد كان مشغولاً في الصلاة فاخذ البابا المذكور
تاجاً من الذهب ووضعه على راسه وقال اللهم ادم وانصر شرلمانيا فيصير
الرومانيين (١)

(١) هذا التاج اول تاج لسنة ملوك اوروبا بعد الفياصرة الرومانيين وتلاه تاج المملكة
الانكليزية في سنة ٨٢٧ ثم تاج المانيا وفرانسوا سنة ٨٤٢ ثم التاج اللومبردي سنة ٨٥٢ ثم
التاج الديرغوندي سنة ٨٨٨ ثم العرسي والاسبانيولي والبولوني سنة ١٠٠٠ ثم الدانيماركي
والاسوجي سنة ١٠١٥ ثم الموروجي سنة ١٠٢٢ ثم السبيلي سنة ١١٢٠ ثم البوهيمي وتاج قبرس
وورشليم والتاج البورتغالي سنة ١١٢٩ ثم البروسيايي سنة ١٧٠١ والهامونتي سنة ١٧٢٠
والروسي سنة ١٧٢١ والتاج السبيلي الجديد سنة ١٧٢٩ والنمساوي والبافاروي سنة ١٨٠٤
والورتمبرجي سنة ١٨٠٥ والسكسوني سنة ١٨٠٦ ثم المانوفري سنة ١٨١٤ والهولاندي سنة ١٨١٥
والبيجيكي سنة ١٨٢١ واليوناني سنة ١٨٢٢ والابطالايالي سنة ١٨٦١ والاملائي سنة ١٨٧١ م

وكان كراوس المشار اليه اعظم الملوك الذين ظهوروا لجد ذلك الوقت من سائر ملوك فاتحي هذه البلاد من الجرمانيين ويوارنقت فرانسوا الى اعلا درجات الفخر والعز والكمال الذي لم تنله مرة اخرى بعد ذلك الا في مدة حكم نابوليون الاول مدة قليلة من الزمن وشهرته العظيمة اوجبت الملوك المهابة البعيدة عن ملكوتهم ان تود معاهدته حتى ان ائيج الخلفاء الاسلاميين الذي هو هرون الرشيد العباسي احب ان يبقى معه على المعاهدة فهاداه بفتح القبر المقدس وكتب اليه ان يعتبر هذا النهر من جملة حكومتهم وكان من جملة الهدية فيل تعجب منه الافرنج وساعة كبيرة دقاقة مصنوعة مع غاية الاتقان تعرف منها الاوقات بواسطة زرين كرات تتساقط على التعاقب في اناء من النحاس وفيها ١٢ تمثالا على هيئة فرسان لكل واحد باب يفتح وبغلقه عند تمام الرنة وهي اول ما دخل فرانسوا من هذا النوع ومع الهدية ايضا فرود من بلاد بنغالة وانواع عطريات من بلاد العرب حكى بعض المؤرخين ان عظام الفرنساوية تعجوا من انواع الاقمشة التي كانت بجملة الهدية وظنوها من صناعة السحر والى وافق الملك ارادتهم لكانوا خربوا الساعة ايضا لكي يفصلوا عن الحركة الشيطانية التي زعموا بانها هي التي تدبرها

ومنذ تولى هذا الملك نضحت المملكة الفرنسية شرع في ترتيب قوانينها الاهلية والاكاديمية والادبية فانشا كثيرا من القوانين والاحكام المشهورة عندهم باسم كيتولير وكان ناليفها بمحضه ورجهيات الملة وكان يدبر آراء هذه الجمعيات بنفسه وشمس رياسته ويدعو الاحرار المسعنين اريمانيين للجلوس بجانب الاشراف والقنوس وكان اغلب قوانينه في الاحكام الدينية وتعيين الجرائم والمخارج والمخدم العسكرية وعقوبات مرتكبي الجرائم والذنوب

وكان اغلب القصاص في مادة العقوبات ربما عوض بالدرهم واما طريقة فحص الدعاوي بالامتحانات الشرعية والمحكم المسمى قضاء الله فبقيا في هذه القوانين على ما كانا عليه اولاً ولم يتعرض هذا الامبراطور لتسغفها من احكام

الجنايات بل حكم بالسجن والنفي على من امتنع ان يكفر جنائيه ببذل مقدار معين من الاموال ثم صادت الدنة من الامور الواجبة ايضاً لكنه جدد نوعاً اخر من المحكام ساهم الرسل البسطينية فكانوا يرون بالاقاليم في كل ٢ اشهر ليقبوا العدل عوضاً عنه والقصد من ترتيب هؤلاء المفتشين كان لكي يتحقق بواسطتهم ان كانت نوابه مستمرين على القيام بواجباتهم ام لا

وكان من جملة تلك الامتحنات المذكورة الحكم الذي ينال له حكم الصليب . وكيفية تعرف من صورة دعوى عملت بمحضرة هذا الامبراطور منها يتبين كيف كان تدبير القضايا والاحكام الشرعية في تلك الاعصر بل وفي زمن هذا الملك العظيم وذلك انه في سنة ٧٧٥ م حصلت منازعة بين اسقف مدينة باريس وبين القديس ديبس في شأن دير صغير يدعي كل منها انه ملكه ومع ان كلا من الخصمين اتى بوثايفه التي تشهد له وثبت دعواه فلم يلتفت الى ذلك بل احيلت دعواهما الى حكم الصليب فقدم كل من المتخاصمين نائباً لوقف هذان اللائبان امام الصليب الذي في محراب الكنيسة واذرعتها ممدودة فكل من تعب منها اولاً وترك الهيئة التي هو عاينها ضاع حق موكله وقد اتفق ان نائب الاسقف كان ضعيفاً عن نائب القديس ديبس فثبت الحق للقديس المذكور

وكذلك لما كانت من الامور المشككة عندهم وقتئذ معرفة ارث اولاد الرجل الذي يموت في حياة ابيه من مخلفات جدهم المذكور هل يكون كأولاد الصلب يعني يرثون مثل اعمامهم سواء ام لا فقد وقع لهذا الامبراطور انه عندما انحط رأي الجمهور في المشورة على تفويض هذا الامر للقاضي استحسن هو ان يحكم في هذه القضية بالمحاربة بين شخصين نائبين عن كل من التريقين فانفق ان شخصاً كان يحارب عن اولاد رجل ميت من هذا القبيل اتصر على الثاني فتحكم من ذلك الوقت ان الحفدة يناسبون اعمامهم في تركه جدهم غير ان هذا الامبراطور قد بذل جهده في حماية الاداب وقد ارشده

الدين المسيحي الى الطريق التي ينبغي ان يسلكها عظماء الرجال وكذلك جميع الرجال الذين اشتهروا في ذلك العصر بولفاتهم ابتداء في تلك المؤلفات وانهموا في الكنائس والديورة ثم جمع الملك ما كان منتزقا من بقايا التمدن القديم ليوفق بينه وبين التمدن الجديد وكما حى الادب مارسها بنفسه واراد ان اولاده ذكورا واناثا ينشأون على تعلم الآداب من غير ان يهمل في تربية الذكور التربية العسكرية وفي تربية الاناث التربية المنزلية المختصة بالنساء فاولاهذا الامبراطور لم يخرج اوروبا من ظلام الجهل

ولما ذهب الى ما وراء جبال الالب ورأى باطلا لها اثارا عظيمة من بقايا التمدن الروماني جلب منها الى فرانس عدة من معلمي النحو والحساب فعلموا الاهالي مبادي العلوم وجعلوهم مستعدين الى ما هو اعظم وكان من جملة هؤلاء المعلمين رجلان يقال لاحدهما بطرس دوبينه والثاني القويث دويورك الحبر الراهب الانكليزي الذي مر ذكره في الفصل المتقدم ولذان المعلمان الفضل بكونها علما هذا الملك مبادي العلوم مع انه كان وقتئذ ابن ٢٢ سنة ولا يعرف القراءة كما كان كذلك ثيودور بنى الاكبر الاسترغوطي اول ملوك ايطاليا من الجرمانيين الذي مر ذكره وقد مكث مدة عمره لا يعرف يكتب اسمه اما هذا الملك الافرنجي فكانت اكثر تجلدا وصبرا من ذلك الغوطي فانه قد بذل همه لكي يعود صوته النودسكي المزعج في الهباء على قراءة المقاطع اللاتينية واراد ان يتعلم الكتابة ايضا لكنه لم ينجح في ذلك لان يده كانت يابسة من كثرة استعمال السلاح وتعلم الاجرومية على بطرس دوبينه المذكور معلم مكنب باديا وتعلم اللسان اللاتيني كلسانه الاصلي وقال اخرون انه لم يكن يعرف الا اللسان اليوناني وتعلم مبادي البيان والمنطق واللاهوت وقواعد دوران الافلاك وكل ما يتعلق بالاجرام السماوية من القديس القويث دويورك المتقدم ذكره الذي بعد ان كان شماسا من الانكلسكسون صار مشيرا في المقاصد العظيمة عند هذا الامبراطور

وكان هذا القديس متعلماً في مكتب بورك الذي قاسم مكتب كنتربري في المعارف التي نقلها الى انكلترة تلاميذ القديس اوغستينوس وتخرج على ايغير الذي كان مطراناً وملكاً وورث بواسطة ذلك معارف بيديا المحترم واقامه ايغير المذكور على مكتبه وكان يأتي للاستفادة من دروس اهل فرانسوا وجرمانيا فضلاً عن اهل جزائر بريطانيا وكان يعتقد في نفسه انه وجد على الارض ابوسع بعلمه دائرة الديانة المسيحية وكان اجتماعه مع بطرس دوبيزه في مدينة بارما او بادبا في سنة ٧٨٠ م فلما ذهب شرمانيا الى رومية لاجل بعض مقاصد ترجاه ان يصحبه ولما جاء من بلاد بريطانيا الكبرى الى بلاد الغالية (فرانسوا) لم يات وحده بل نزل معه على سواحل فرانسوا عدة تلامذة من مكتب بورك ويمكن ان يعد من جاء معه دونغال الخلوئي الذي اُتبط بعد القويين ببيان الحوادث الساوية الكبيرة والخبار باوقاتها في ديوان الملك وورجيل الارلندي لانه كان يفوق اهل عصره في علم الفلك (التنجيم) واكليمندوس الارلندي الذي اعاد الى ايطاليا المعارف التي كانت اخذتها منها فرانسوا ولدرادة الذي اخذ كرسي اسقفية مدينة ليون واشتغل فيها بنشر الآداب وتودلف الذي انعم عليه كراوس الاكبر باسقفية اورليان وورجيل الذي اتخذه ايضاً باسقفية ساربروخ فزال ما اشرث ثانياً في بلاد كرثيا من ظلمة عبادة الاوثان

وكان كراوس الاكبر يكافئ الذين جاءوا الى فرانسوا بالعلوم والمعارف بما يلقى من التشريفات والاموال بل كان ينعم على كثيرين من علماء انكلترة وايطاليا وعلى بولس ورنفريد المورخ الذي كان خارجاً عن اطاعته وحكم عليه القضاة بقطع عينيه وقطع يديه فقال الملك اذا فعلنا ذلك من اين نوجد يداً مثل يده اكبته في كتابة التاريخ ثم انعم عليه . فاذا كان هذا فعلة مع ورنفريد الذي كان بعصاه فبالك بالاجانب الذين تركوا اوطانهم رغبة في مصاحبهه فلا عجب بكونه كافوا القويين دو بورك على معارفه باعظم اقطاعات المملكة وولاه

رياسة عدة من الدبورة اما دويورك المذكور فانما اوصى قبل موته بثروته كلها
لاعلم تلامذته

فهذه النشريات التي حظي بها هؤلاء الاجانب من هذا الملك كانت
موثرة في ايقاظ الفريك الى التولع بالاداب وترغيبهم فيها اكثر من تعليمهم
دروسهم ولا سيما الذين كانت رتبهم تقضي مصاحبة الملك كزوج برته وعاشق
ايما (وامل احدهما يقال له انجليبرت والثاني يقال له ايجنهارد وهو المورخ الذي
كتبه مناقب كرلوس وتاريخه وسوف ياتي ذكرهما) اللذين حتمها معارفهما من
المواذنة على خرافاتها المتعلقة بامور الشقى اخيراً آل امر زوج برته بان ذهب
الى دير القديس وندربيل وعاشق ايما الى دير القديس ركبير وكانت معرفة
احدهما في الامور السياسية اكثر من معرفته بصناعة الانشا واذلك اظهر في
بعض اشياء آتت محبته للشعر فوق قوته فيه واما الاخر فكان افصح اهل عصره
ولا يدري هل كرلوس الاكبر او غيره الذي خطر بباله ان يجمع فروع
العلوم على اختلاف انواعها في دائرة واحدة ليحل فيها الانتعاش والنشاط وانما
هذه المعركة التي كان بها فخراول الدولة اللاجردية يظهرانها كانت قائمة ايضاً
بجموعية العلماء التي حدثت تحت حياية مالك الفرنج وكان اربابها جميع المشاهير
من ادباء ذلك العصر كما بوخذ من الاسماء الرمزية التي كانت بطلانها ادباء
السراية على بعضهم ففي مراسلاتهم واشعارهم غير هذا الملك اسمه المنبر بر الذي
هو كرل وسمى نفسه داود لانه كان شهيراً بالسلطوات المحرمة والاعاني الشعرية
وكنى عن الاميرة روترودة باسم دليلة وعن احبار الرهبان مثل القويين
وانجليبرت وتيودلف وركواف وارنون وويزون وفريدنجير . بالبينوس
واوميروس وبندارود متياس واكيلا وكنديد وثنتييل وقد كتب القويين في
سنة ٧٩٦م الى اركواف انا كالأب المحروم من اولاده فان دمتياس في سكس
واوميروس في ايطاليا وكنديد في بريطانيا ومرتين في دير القديس جوس
وايس عندي خبر محقق عن ميروس الذي مرض في دير ماري مرتين . قال

بعض المؤلفين يقال ان كرلوس الاكبر هو الذي احدث مجمع العلماء او
مكتب باريس والحال ان هذا المجمع هو اول اختراعات الملوك تشرف
بدخوله تحت حماية هذا الملك الذي لعلو وديانتو اراد ان يجعل في كل كنيسة
وكل دير مكتبة لان مواضع التعليم القديمة كان قد تلاشى اغلبها بالكآبة وكان
السبب في هذه الملائشة هو ان كرلوس مرتيل الذي حكم فرانس بعد موت
تيري الرابع من ملوك الدولة المرونجية سنة ٧٢٧ م (ومعنى مرتيل المطرقة)
جرد الديورة دون غيرها من الاملاك وقرعها على العساكر فتلاشى بذلك التعليم
واضحات العلوم وفضلاً عن انقطاع التعليم بالمكاتب ضاع مقدار عظيم من
ودائع المعارف في تلك الغارة التي كانت مشومة على التمدن حيث تخربت
المكاتب وبقلة الكتب تعطل احباء الاداب حتى انه في بعض الديورة كدبر
القدس وندربل صار محل التعليم ماوى لكلاب الصيد المدة لمحظوظ المحريبين
الذين تغابوا على الديورة وبعد ان كان التبرير يتقي ابواب الديورة ويحشى
منازل الفسوس كسرتلك الابواب وظهر منه انه يتغلب على جميع الصعوبات
ولذلك بعد ان نظم القوين التعليم الذي كان في الديورة ببلاد فرانس
وانشا كثيراً من المكاتب العمومية التي كان اعظمها مكتب السراية الذي علم
في القوين ذاته اولاد الملوك واولاد الاعيان الافسام السبعة من الفنون العقلية
ثم قام مكانه اكليندوس الارلندي وكان في ذلك الوقت هيرياني اخر مشتغلاً
بهذه الوظيفة في سراية باديا والظاهر ان الترتيب الاصلي كان مختصراً في هذين
المكتبين اللذين كانا معدين لتعليم العموم وضع حينئذ شرمانيا القانون المشهور
الذي يُعتبر بانه الاساس لاصلاح اداب القرن الثامن وهذه صورته
قد وقعت المفاوضة بيننا وبين اصحابنا فرأينا ان المصلحة تقتضي بان
الكنائس الاسقفية والديورة التي هي تحت نظارتنا تبذل الجهد في تعليم الاداب
ليتعلم فيها كل من وفقه الله تعالى للتعليم على حسب طاقته فيجب على كل من
اراد ان يكسب رضا مولاهُ بساوكه سبل الاستقامة مدة حياته وان يرضيه ايضاً

بكونه لا مهمل في شيء مما تكون به استقامة لسانه وقد اطلعنا على مراسلات عدة
 دبورة فوجدناها مستقيمة المعنى لكنها باسنة العبارة فخشينا ان يترتب على قلة
 المعرفة بصناعة الكتابة ان لا يكون في الناس معرفة كافية في فهم الكتب
 المقدسة فكان ذلك موجبا لان نشير عليكم بانكم زيادة على عدم الاهمال في
 تعلم الاداب تجتهدون في طلبها غاية الاجتهاد حتى يتيسر لكم التبحر في فهم معاني
 الكتب المقدسة المذكورة فعليكم ان تتخبروا ذلك من كان جامعاً بين الرغبة
 والفتنة في التعلم وتوابعها بان يعلم غيره اذا تعلم اذ بذلك تستحقون عندنا
 المحظوة والقبول

ثم بعد ان ارسلت من الجمعية العمومية هذه الخلاصة الى المطارنة وروساء
 الدبورة الكبار بامر يتضمن انهم يرسلون منها نسخاً الى جميع الاساقفة والدبورة
 بنحوسنتين ظهر قانون اخر باحداث مكاتب في جميع الجهات لكي يتعلم فيها
 المبتدئون القراءة والترتيل في الكنائس والحساب والنحو وامر فيه الملك امراً
 قطعياً وكان ترتيبه في مدينة اكسبلاشيبلا وامر ايضاً ان يعطى للصبيان كتب
 دينية صحيحة مضبوطة محررة ولهذا الغرض امر بناليف مجموع في المواظبات الدينية
 ولما اطلع عليه ورأى ما فيه من العبارات السلسة الرائقة والمعاني المستقيمة فرح
 فرحاً عظيماً حيث زال من مملكته ما كان من اختلال المعاني وبيس العبارات
 ومخالفة صناعة النحو وكان موافق هذا المجموع رجل يقال له بولس دياكر ثم
 ارسل الى جميع الكنائس

وكذلك ابن شلمان الذي كان ملكاً على اقليمنا بذل في مساعدة ابيو
 المهمة الزائفة على مقاصده وجلب الى الاقاليم الجنوبية عدة ممن يعلم القراءة
 والترتيل وعلماء لتعليم العلوم الدينية والديبوية وحصل له السرور فيما بعد بتعليم
 اولاده نحت ملاحظة الفنون العقلية والقوانين الاهلية

وقد وافقه ايضاً على مقاصده كثير من الاساقفة منهم ليدراة مطران
 مدينة ليون الذي تقدم ذكره فانه انشا في هذه المدينة مكاتب لتعليم الترتيل

ورغب الناس في علم الخط ومنهم تيودلف اسقف اورليان فانه بذل جهده في
 نجاح المكاتب الاربعة الكبيرة التي في اسقفيتيه احدها سورلوار في مدينة فلوري
 والثاني في دير القديس اتيان والاشان الاخران بقرب كيسي القديس كروا
 باوربان والقديس ليغرد دومون وارسل قانونا الى نصارى ابرشيتيه في
 سنة ٧٩٧م و نصه مما يجب على النفوس ان يتخذوا مكاتب في جميع القصبات
 والقرى واذا جاء اليهم احد من المسيحيين ايا ما كان يريد تعليم ولده القراءة
 فلا يردونه بل يبادرون لقبول ولده وتعليمه حسبما تقتضيه المحبة الاخوية وينبغي
 لهم ان لا ينسوا ما هو مقرر من ان المتعلم يحصل له نور كدور النجوم في السماء
 واما نور من يعلم الناس العدل والانصاف فهو كدور الكواكب في العالم فيجب
 عليهم حينئذ ان يعلموا الاولاد ولا يطلبوا منهم مكافاة على التعليم ولا يقبلوا منهم
 شيئا الا اذا كان على سبيل الهدية من اهلهم بالطوع والاختيار شكرا لهم على
 صنعهم انتهى

وكذلك اعنى باقي الاساقفة في شبان استغياتهم ومجمع اساقفة بوانسة
 فانه بين للنفوس واجباتهم واوصاهم من جملة ذلك على الصلاة والتعليم ليهلكهم
 ان يكتسبوا معارف كافية ينشرونها بين الناس وان يدعو الاهالي الى ارسال
 اولادهم الى مكتب الدير او مكتب كيسة الخوري ليتعلموا فيه الدين والعقائد
 بلغتهم الاصالية اذا لم يرسلهم اهلهم من تلقاء انفسهم وكذلك كان احبار بلاد
 سلتيكه واكتينا مهتمين بهذا الاهتمام في تعليم الدين للاهالي حيث امروا الاساقفة
 ان يترجموا باللسان الروماني والتوتوني اي الجرمانى كتباً تشتل على العقائد
 الدينية والاداب الاشجيلية

وينسب من ذلك ان رعايا كرلوس كانوا يتكلمون بلسانين احدهما
 الجرمانى وهو لسان الامة الحاكمة والثاني اللسان الروماني وهو لسان الامة
 المتمدنة وكان قصد كرلوس المذكور ان ينشر اللسان التوتوني في اقاليمه لكنه
 تحقق ان ذلك يؤخر التمدن ولذلك لم تكمل الجرومية التودسكية اي الجرمانية

التي كان مشرع فيها بنفسه وكان يقوي اللسان الروماني اللسان اللاتيني الذي هو لسان القديس وكان سبب دوامه واسطنتين عظيمتين وهما التعليم والبشير ولما شرع كراوس في احياء الاداب كانت ديبورة الانكلسكسون قد شرعت في رد ما اخذته من الارض القارة من الاغانيات على تحصيل التمدن ويمكن ان يعتبر القديس بونيفاسيوس الآتي ذكره كانه مبشر بقدم القويين الذي مر ذكره لانه اعاد الى مدينة اوترخت كرسيتها الاسقفية ومكتبها الذي جلس اليه تلميذك اغرغوار (غريغوريوس) كثيراً من الفرنج والافريزيون والوارين والسوابيين والانكازيل ومن متبرسي سائر الملل ليأخذوا عنه العلوم والمعارف

وبونيفاسيوس المذكور هو الذي اسس في سنة ٧٤٤ م دير فواية الذي انتشرت منه العقائد الدينية والاداب في جرمانيا وباقي البلاد التي في شمال اوربا ثم ان كراوس اعطى بونيفاسيوس هذا دبرماري مرتين بمدينة طورس في سنة ٧٩٦ م حيث ان بلاد الغالية القديمة وبلاد جرمانيا كانت بحاجة لتعاليم الدينية ومن ثم علم هذا القديس رهبان الدبر المذكور على الاخلاق المحيطة ومحبة الانتظام والشغف بالعلم بعد ان كانوا موصوفين بالشره والنهم والسكر مثل رهبان مدينة فلوري الذين وصفهم البابا وبنه ان في القرن الثامن مثل ذلك واكثره اموال هذا الدبر جعله اهله بيئاً للضمافة باوي اليه المسافرون ومكتباً للرهبان

ثم تخرج على القويين وتلميذك سيجواف الآتي ذكره جماعة من المتفاهير وعلماء الرهبان ومن اعظم الذين تخرجوا عليه في مدينة طورس رويان مور الذي جعل معلماً في مكتب فولد فانسعت دائرة المعارف في هذا المكتب بما اكتسبه من معارف الانكلسكسون وخرج منه كثير من المكاتب علماء ذهبوا الى ديبورة جرمانيا وهي رشينو وهرسوچه واوستبروي وتخصص مكتب اوستبروي هذا منذ انشائه بتعليم اللسان اليوناني في سنة ٨٠٤ م لكنه لم يصل الى درجة

المكتب السكسوني الذي انشأه دير كوريبا وسماه باسمه في عهد خليفة بوملانيا
وكان الغرض منه تمدن بلاد سكس ومن جملة مؤسسيه القديس انشير الذي
تلقب رسول الشمال ومنهم ايضاً بشار زدير الذي بذل جهده في اثبات
الاستحالة وقيل في القرن السادس ان هذه العقيدة من مخترعاته
وكما ان الرومانيين قد جعلوا في الاقاليم التي كانوا يفتحونها قبائل ومكاتب
عوضاً عن المحافظين والزموا بذلك المغلوبين ان يتعلموا قوانينهم واخلاقهم
واغتهم بلا اكراه ولا اجبار هكذا شرمانيا كان يجمل في فتوحاته دبورة صارت
مدناً في ما بعد ومكاتب نشرت بين الناس الدين المسيحي والمعارف
ثم ان الاقاليم القديمة من حكومة الفرنج وكذلك البلاد المفتوحة طلبت
ان تستنير بانوار المعارف المصاحبة دائماً للدين المسيحي فانتشرت تلك
المعارف بين اهل المملكة والفسوس فقط وكانت دبورة منبع ظهورها
وانتشارها فلزم حينئذ ان تعود عقول الناس الى نشاطها الاول الذي كان
قد انعدم في بعض دبورة ولم ينتشر الى ذلك الوقت في اغلبها فانعشها القويين
في دير القديس مرتين ودير فرير وماري اوب وتيريس وغيرها من دبورة
التي دخل بعضها تحت نظارتهم تدريجاً والبعض دفعة واحدة
ثم نقل الاحبار وروساء دبورة الذين تخرجوا في مكتب السراية الى
ابرشياتهم ودبورتهم المعارف التي بها تهذيب الاخلاق واصلاح العقول ما
تلقوه عن معلم القويين ومنهم ادرادة اسقف ليون الذي مر ذكره فانه حث
على التعليم الذي كان مهلاً منذ مدة طويلة عند رهبان جزيرة بربة ومنهم
تيودلف اسقف اورليان فانه اسس ثلاثة مكاتب كبيرة في ابرشيته التي باورليان
واكتسب شهرة عظيمة في مكتب فلوري حيث كانت تلامذته في قليل من
الزمان تبلغ في العدد الوقاً واما دير ماري وديريل الذي كان متروكاً للعامه
وصار محلاً للصيد والقتص انقذه اولاً من هذا الابتذال جرولد رئيس الرهبان
ثم بعد ذلك شحنة ايجنهارد وقد سبق ذكره بالمكتب الثمينة لما اعتزل به وانه

على حظوظ الديوان ودويو وعجيو وكذلك انجيزا الذي هو اول من جمع في ديره قوائم شرمانيا واما دبر ماري كبير الذي تربى فيه اواخر الامراء المروغيين استمر على حاله حيث تربى فيه اولاد الكونتات والدوقات بل واولاد الملوك وصار من اعظم المكاتب في المعارف لما جلب اليه انجليبرت وقد سبق ذكره ٢٠٠ مجد اشراها بمبلغ جسيم في سفره الى ايطاليا وقد اقتدى باهل الديورة المذكورة جمعيات اخرى حيث تجدد في القرن الذي بعد قرن شرمانيا مكاتب مدينة لوكسوايه وسنت غان وسيتو وپروم وستويان وغيرها وكان القصد بها مدافعة التبرير الذي كان يومئذ ينتشر في كل الجهات

وكانت اغارات العرب سبباً في انعدام اصول التعليمات الادبية من جنوب فرانس كما اعدمت منها ايضاً فنون الصنائع والزراعة فمن ثم لم يوجد في ما وراء نهر لوار شيء من الاثار التاريخية العظيمة ولا من وقائع مواسك ما يتعلق بالقرن (٨ و ٩ و ١٠)

وحيث ان التسوس هم الذين يحفظون ودائع العلوم وينشرونها بين الناس كان اعظم مقاصدهم بذلك تفسير الكتب المقدسة تفسيراً واضحاً بيناً وحفظ الاحاديث الدينية ولاجل تحصيل هذا الغرض كانت مبادي اغاب العلوم البشرية لا بد من اعانتها في ذلك فارتسوها حينئذ في جميع المكاتب على طريقة واحدة دائماً حيث ان المقصود في كل الجهات كان شيئاً واحداً ولذلك كانوا يريدون انهم لا يصلون اليه بطرق مختلفة لان ذلك العصر لم يكن قابلاً للتقدم في العلوم وكان لا بد للتعليم من محاماة الحكم

ثم ان فلسفة ارسطو ليس التي تزينت وقتئذ باشكال نصرانية واقراها مشاهير الاحبار المسيحية صار فيها نوع من الصحة المعتبرة شرعاً وتسلطنت في المكاتب مدة طويلة وكان في منتصف القرن السادس اودع قشيودور وزير ثيودوريق الاستروغوطي في رسالته عنها علومه التي هي الفنون السبعة العقلية

على ما سبق ابصاحه في الفصل السابق وهذه العلوم المعدة للتدريس بانقسمت في ما بعد الى قسمين يقال لاحدهما تروبووم يعني الثلاثي لانه مجنوي على الثلاث فروع الاولية التي هي النحو والبيان والمنطق واللاخر كدروبووم يعني الرباعي لاشتماله على الفروع الاربعة الباقية وهي الحساب والموسيقى والهندسة والملك وبادرت دبورة ايطاليا لاستعمالها من سالف الزمان ونقلها رسل ماري اوغسطين الى انكلترة في نفس الزمن الذي اشرف فيه ايزيدوردوسويلاه الذي سبق ذكره مرارا لمكتاب اسانبا رسائل متنوعة منية على الفنون المذكورة والظاهر ان بيدالمحترم رئيس دبوروت الذي مر ذكره ايضا لم يخرج عن الدائرة التي اودع فيها اسلافه جميع العلوم ولما نقل القوين الى فرانسما كان نشره في انكلترة من المعارف والتواضع على ما تقدم ابصاحه وضع ايضا ما كان التزم به قسيودور المذكور رهباة من الاصول على نسق الخطابات ليهتمها تلمذك شرلمانيا وحاشيته ومكاتبه

وقد ذكرنا في ما سبق ايضا ان قسيودور هذا مع انه كان وزيرا كما تقدم قد اعني اعناء بظهور الان انه من داب الاطفال وهو تاليف رسالة في علم الخط على انه في الواقع كان الوقت معنجا لذلك لاجل ازالة عيوب الخط لانه كان يشي منها تغيير اللسان اللاتيني وربما كان ينشأ عنها افساد معاني الكتب المقدسة لانه لما كان لاوجود المطبعة في ذلك العصر كانت مولفات المؤلفين التي حازوا بها الشرف والفخار تحت قبضة النساخ الذين لثمة ضبط ابادهم في الكتابة كان يمكن ان تنسوه تلك التاليف بالنقص والزيادة فنم كانت صناعة الكتابة من المصالح العامة المهمة التي تستدعي التفات الحكام اليها فلذا رأى شرلمانيا انه لا بد له من ان يجمل الكونتات والاساقفة وروساء دبورة على الالتفات الى النوطيراي المنوطين بكتابة السجلات وتقييد الحجج والى القسوس الذين من وظيفتهم تقييد الامور الكنائسية والى الرهبان المنوطين بحفظ الموفات الدينية والبشرية لمن بعدهم لكن لما كان لايكفي لذلك مجرد الضبط

في كتابة الكلمات بل كان يلزم له ايضاً ان تصير الكتب سهلة على القارئ
بان يرجعوا الى كتابة المتون اللاتينية بالحروف الرومانية التي كانت مهجورة
مذمة طويلة في فرانسبا باستعمال حروف الهجاء التوتونية بالمر ونجبة كما كانت
مهجورة ايضاً في انكلترة واطاليا باستعمال الحروف السكسونية والديبردية
اوصى شلمان القسوس من غير ان يجعل لنفسه مندخلة في ما كان واقعاً من
المشاجرات في شان الحروف التوتونية والرومانية ان يبذلوا وسعهم في الخط
الذي جعله القوين واعلم روشاء الديورة بانه امر واجب على رهبانهم وكان
مبدأ اصلاح الحروف الهجائية في دير وندريل باهتمام الراهب اوون والراهب
هردوين وقد ترك رهبان كوريبا ورمس كتباً ظريفة بخط اليد تدل على اصلاح
تلك الحروف وبناء على ذلك لم يكن فن الاملا والخط حسبها شوهد في ذلك
العصر اقل ثمرات التعليقات الاولية كما في ايامنا هذه بل كان اهم جزء في علم النحو
الذي هو مقدمة لسائر العلوم وكان هذا العلم اذ ذاك مقصوراً على اللغة اللاتينية
وان كان اهلها العامة وصارت لا تستعمل الا في العبادات والشرائع
ولم يبق شيء من اثار الرسالة التي كانت الغرض من تاليفها تعلم اللغة
الغونانية التي كانت شرطة اوسانبروك قد الزمت رهبان هذه القبيلة بتعلمها
وتعليمها ولكنهم لم ينجحوا فيها الا قليلاً وقد تكلم القوين في بعض مواعيد على متن
الكتب المقدسة المكتوب باللغة اليونانية واطهر معرفته بهذه اللغة في مکتوب
كتبه الى انجليبرت ولا ريب انه هو الذي علم شلمانيا ما كان يتكلم به منها وكان
لبواس ورنفريد المورخ المتقدم ذكره امام جبال الالب شهرة بانقائه هذه اللغة
لكن لما طلبوا منه ان يجوز فخر تعليم هذا اللسان للقسوس الذين كانوا معدين
للذهاب مع الاميرة روترودة وقد سبق ذكرها الى القسطنطينية اعتذر لهم بما
كتبه في جواب رسالة بطرس بيزان الشعرية حيث قال اذا كان قسوس
هذا القطر (اي فرانسبا) لا يتكلمون الا باللسان اليوناني فانهم يكتنون بكما
كالاصنام ويكونون سخرية بين العالم فتعين ان يبعثوا من القسطنطينية قسوساً

لتعليم هذا اللسان لتلك الاميرة التي كانت مخطوبة للقيصر قسطنطين الخامس الذي تولى المملكة سنة ٧٤٤ م فتعلمت من هؤلاء الاجانب اللسان اليوناني ولا مانع ايضاً من ان معلمي هذه الاميرة علموا بعض تلامذة غيرها لانه من المحقق ان اللغة اليونانية لم تنقطع اثارها في القرون التي بعد هذا القرن فهي ان لم تكن في فرانساً كانت ببلاد المغرب

ومن اطلع على توارخ تلك الاعصر ووقائعها العامة عرف من ببوسة عباراتها وتراكيبها ان قواعد النحو والبيان كانت مهمة فيها فلم تكن اذ ذاك مستعملة في المكاتب ومن قرأ الكتب الادبية التي تركها بعض المولدين ذهب مذهب اخر لان ما فيها من اختلاط الكلمات اليونانية بالعبارات اللاتينية وسلوك طرق التكلف في العبارات باللاتين بالفاظ غريبة وعبارات فخيمة تجبها الاسماع لغرابة اساليبها والنسائل في تراكيبها واستعاراتها الغريبة وتاليف كلماتها على نسق وضع الاطفال تدل على ان مولفي الكتب المذكورة كانوا يدعون معرفة علم البيان مع ان بيان ارسطو ليس لا يتوخذ منه هذه الامور كلها غير ان قواعد التي ترجمت ترجمة خشنية ضاعت منها قوة اصلها ولم يترك ابا الكيسة اللاتينية من القواعد ما يُنسخ على منواله في ما يخص الذوق السليم فكانت الناس يتعلمون النصاحة من مواعظ القديس اوغسطينوس وماري سيزير وكانت سير القديسين تكسب من بقراها من الرهبان ذوقاً وادباً

واما صناعة الشعر فكانت قد انحطت عن درجتها بعد ابوليناريوس وببوسة حمياً سبقت الاشارة الى ذلك وبقيت على اضعف حالها وكان الشعر يتميز عن النثر بعبارة عامية او ثقيلة موزونة باوزان غير مضبوطة في الغالب كالانشآت التي كانت قبل عصر الفونين ولا سيما انشآت ارمادوس وقلاوار وكذلك القصائد الثلاث الطويلة التي ظهرت في القرن العاشر من غير ان تعلم اسماء ناظميها وكان موضوعها سطوات شرمانيا وبرانجير ومحاصرة النورتمان لمدينة باريس والاشعار الخفيفة ما عدا بعض قصائد لم يظهر منها الا بعض

نقوش ناشئة عن النفوس وعنوانات على قبور الموتى والغاز وتطريزات مفردة ومزدوجة وهذا يدل على ان سكان الدبورة كان عندهم نشاط وكان اعظم فضيلة في الشاعر ان يظفر في شعره بالامور العويضة والمشكلة ولا سيما ان القوين المذكور نظراً لتفواه وتدينه به عن قراءة ما ظهر في الاعصار المعتبرة من القواعد العظيمة خوفاً من تاثيرها في الشبان حتى انه لام على سيجولف حيث سجع لقسوس مكتب طورس بقراءة كتاب ورجيل (شاعر وثني مر ذكره في الفصل الثاني من البحث الاول) وليس ذلك لكونه مثل القديس غريغوريوس يرى ان اسم جويبتير يدنس افواه امناء الدين المسيحي بل كان يخشى ان يتاثر واما في ذلك الكتاب من وصف عشق ديدون ونشغل به قلوبهم فلذلك لم تتقدم صناعة الشعر بل انحطت الى الدرجة التي ذكرناها وحيث ان اباء الكنيسة تمسكوا بذهب ارسططا ليس لفورهم من مذهب افلاطون الجدد فكانت فلسفة سناغير هي المتسلطنة على سائر المذاهب التي في ما فوق الطبيعيات وعلى اشكال الاقيسة وقد اعتد البابا بولس الاول الذي نصب في سنة ٧٥٧م انه انحرف الملك بيبين لبريف ابا كراوس الأكبر بعتة عظيمة حيث ارسل له من جملة مؤلفات بعث بها اليه في مدة جلوسه على تخت فرانساً متناً يونانياً يتعلق بنطق ارسطو وكان موضوع علم المنطق لم يزل الى ذلك الوقت منحصراً في بيان المقدمات والمقولات العشر والاقيسة ومواد الاستنتاج فاذا تعلم هذا العلم شاب من القسوس وزاد عليه معرفة الكتب المقدسة والموسيقى الكنائسية صار هذا الشاب جامعاً لجميع العلوم التي يحتاج اليها القسوس ولكن كان يستغنى عنها في الغالب ولم يجز جميع العلوم التي كانت في المكاتب الاقليل من الطلبة

وكانت المعارف العالية تشتمل على اعظم فروع العلوم الرياضية التي كانت وقتئذ لا تستحق هذا الاسم كل الاستحقاق وكان علم الحساب مقدمة لما وكان هذا العلم لم يزل الى ذلك الوقت غير واضح لما ان الارقام الرومانية

كانت تعوقه عن التقدم والانتشار فمن ثم لم تكن فيه صلاحية لان يتقدم وتوسع دائرته بل كان يشوش الذهن ويضعف العقل بمشكلاته التي لانفع لها وما كان لا طائل تحته ما كانوا يستعملونه لمعاونة هذا العلم من حساب الاصابع الذي كان مختلطاً اختلاطاً غريباً لانه كان لا يمكن ان تجرى به عملية الاعداد الصحيحة الا بطرق صعبة وكان دائماً لا يؤثر شيئاً في حساب الكسور ومع ذلك فقد ظفروا مع الهمة والقوة بالعوائق التي كانت تعوق علم الحساب عن التقدم لانهم كانوا مضطرين الى تعيين ايام الاعداد المنتهية في كل سنة فخوفهم من نسيان طريقة الحساب الكنائسي كان حاملاً لهم على الظفر بتلك العوائق اكثر من تولعهم في الامور العالية

وفي ذلك الوقت كان علماء الهندسة والهيئة بشيلان الاقسام الفائقة من الفلاسفة وكانوا يتعلمونها في رسالات عديدة علمية تُعزى الى المعلم بيدار رئيس دير ورموت الذي سبق ذكره وهو الذي نقل في مولفاته قضايا افليدس التي ترجمها بويصة الى اللغة اللاتينية ومذاهب بلينوس وارسططاليس واطليموس في القسطنطينية (اي علم هيئة الدنيا) والحوادث الجوية وقد قال النوبن في ترجمته ليونا المذكوران هذا المعلم الشهير بين ائلامذته ائلاف الكواكب السماوية وكسوف الشمس والقمر والمناطق الكروية الخمسة والكواكب السبعة السهارة والقوانين التي بها سير الافلاك والحركات الهوائية التي تثير امواج البحر والزلازل الارضية انتهى ولم يكن المعلم بيدار المذكور اجنبياً من معارف القدماء الطبيعية التي ازم قسيودور رهبان وباربا ان يتعلموها وعلمها المطران ثيودور في مدينة كتربري وبالاختصار ايضاً على قضيتين من المعارف الطبيعية التي كانوا يتعلمونها في الديورة نقول ان المعلم بيدار عرف سبب المد والجزر بطريق الهندس والتجريب وبرهن عليه بعدة المعلم اسحق نيوطون الفيلسوف وكان ورجيل استيف ساربورغ من تخرج ايضاً في مكاتب برتانيا فيبين للناس وجود المناظرين

وجميع ما ذكر من العلوم البشرية كانت تعتبر كالاتٍ ضرورية للتعاليم
 القسوسية كما ذكرنا في ما سلف فكانت مستعملة فيها طوعاً وكرهاً وكان لعلم
 اللاهوت السلطنة على جميع المعارف البشرية وكان أولاً يشتمل على العقائد
 الدينية واصول الاداب والمحكمة ثم دخل فيه التاريخ والفلسفة وكانوا
 لا يتعرضون للبحث عن الحقيقة في الكتب المقدسة الا نادراً خوفاً من ان يضلوا
 فيها من غير مرشدين يهديهم الى الحق فكانت الشروح التي انزلها اباء الكنيسة
 قاعة لجميع العقائد وكان الناس لا يناقشون في احكامها وقد اكتسب كل
 من بيدهم والتوبين المقدم ذكرهما شهرةً وبهجةً بتفسيرها الكتب المقدسة ومع
 ذلك لم يتبأسوا ان يقولوا براءتها الا في مواضع قليلة جداً بل كانت تاليفها في
 اكثر المواضع عبارة عن نقل اقوال سلفها من المولاهين وكان كل منها ينسب في
 كتابه على ما يدوله من الاستنهادات الناجمة عن حدة ذهنه او ملكه الميزة
 بين الغث والسمين حذراً من الخطاء في ما لم يتقننه

وكان لا بد لعلماء اللاهوت في ذلك العصر من واسطتين للتبحر في
 العلم الدينية المتسعة الدائرة وهاتان الواسطتان كانتا لغة ودين اذ ذاك وهما
 معرفة اللغات الاصلية والمباحثات التاريخية فاذا كيف يتأتى لهم ان يناقشوا
 في اوجدهم وقع فيها النزاع في آراء مهمة تتعلق بالعبارات المترجمة التي اقل
 ما يقال فيها انها مشكوك في صحتها كالتوانين الكنائسية اليونانية التي ترجمها
 ديبس الصغير الا اني ذكره الى اللغة اللاتينية او كيف يمكنهم ان يقولوا على
 بطلان قضية منكرة من غير ان يستعينوا على ذلك بالمولاهات الموجودة في
 عصرهم وتحقيقات التواريخ البشرية

ثم لما ظهر مذهب الفلكسية والمشاجرة في شان كسر الصور التماثيل استيقظ
 علماء اللاهوت الذين كانوا في ذلك العصر الى المناظرة والمجادلة التي كانت
 من اشد المجادلات فاشتهر كل من القوين وبولين واكيليا باظهار الكتب المسماة
 كارولين التي جمعها فيها تحت حياية شربانيا رسائل متنوعة الفاها في المحاماة

عن الصور وعارض في ذلك الپیندو وقيل كس الذي تُنسب اليه هذا المذهب
وكما ان العلوم البشرية في ذلك العصر لم تكن بالنسبة الى علم اللاهوت
منصودة لذاتها بل تابعة لث ضعیفة عن حقوقه كذلك الفنون المستظرفة وان
كان هذا الاسم غريباً في تلك الازمنة المتبريرة لم يكن الغرض منها الا الاعانة
في ما يكون به رونق العبادة المسيحية وبهجتها وقد حصل للموسيقى تغيير كان
يبين لبريف ابوكارلوس قد عزم عليه قبل ذلك ولم تظهر له ثمرة الا في كنيسة
متر بهمة ماري كرو دغغ ذي المعارف المنيرة وقد شدد قسوس فرانسوا في منع
خدم القديس الرومانية وكذلك اللحن الغريغوري الذي هو اكل وانقن من
الحنان ماري امبرواز (امبروسوس) وقد شتّع اهل ذلك العصر على مصلي
الغالبين حيث وصفهم بالجهل وعدم المعرفة وهو كما ذكرنا فان مخارج الحروف
التي كانت فيهم تتزايد دائماً خشونةً وقبحاً كان يسمع منها اصوات وحشية خشنة
شبيهة بدكدة المركبات الخنثاة الاصوات وقد اثبت راهب انغوليم على سبيل
التفصيل صحة هذا الوصف المضحك وكان هذا الراهب ممن الف سيرة في
شان شرلمانيا وذكر ايضا انه بعد المشاجرة التي حصلت في رومية بين مصلي
تلك المدينة ومصلي الكايبلا الملوكية (اي معبد الملك) عزم شرلمانيا على ان
ينشر الايمان الرومانية في جميع سلطنته وطالب من البابا ادریان الاول الذي
نصب سنة ٧٧٢ م ان يبعث اليه معلمين ماهرين ليعلموا الترنيم المذكور للمعلمين
اخرين في مكاتب متر وسواسون فتعلم مصالحو الفرنج توقيع الايمان على الآلات
وابدلوا الحانهم التي افسدوها باهوائهم وجهلهم بالاحنان التي نقلها من رومية
ثودور وبنوات ومع ذلك كان هذا الاصلاح في بعض اقاليم من المملكة غير
تام حيث لم تظهر شوكة شرلمانيا القوية بتغيير الحان لوترين

ولم يكتف هذا الملك بفخر كونه وسع دائرة سلطنته فقط بل اراد ان
يلامها بالاثار لتكون لها زينة فامر بانشاء عمارات ومباني عظيمة ورغب
الدوكات والكوتقات والاساقفة وروساء الرهبان في الفنون وحملهم على الكرم

والسقاء لأرباب الصنائع الذين جابههم من الاقطار البعيدة وكانوا ينزلون امهرم في السراية الملوكية ويحسنون قراه ويكون تحت ملاحظة ايجنهارد وحماية السنشال الأكبر ومن تلك العمارات قنطرة ميانسة التي قوامها المنفردة اعجبت مورخ سنغال بعد مئة سنة من الحريقة التي احترقت فيها اقواسها التي كانت من الخشب

وقد شرع شرلمانيا في بناء سراية انجايهم بقرب هذه المدينة وقد تكلم عليها ايجنهارد وجعلها في درجة سرايا نبيغة لكن ليس شيء من تلك العمارات بضاهي في الحسن سراية اكسيلا شيبلا التي بناها على ربوة لم يزل يجري في اسفلها ماء المنبع السلطاني الحار وكان لهذه السراية مجاز من خشب يوصل الى الكنيسة السلطانية الكبيرة التي يستبين ان هذا الملك لم يأمر ببناء غيرها فان المباني المعدة للعبادة لم تكن اذ ذاك تبنى من اموال الخزينة الملكية بل كان الملك كالتزمين لم يبين في التزاماتو الا كابيولات (كنائس صغيرة) خالية عن الزينة والزخرفة واما كنائس الاسقفية وكنائس الديورة فكانت تبنيتها الاساقفة وروساء الرهبان لان القسوس كان لهم اوقاف عظيمة تعينهم على ذلك وقد اهتم بعض الاساقفة بتشيد مباني جديدة بالمدح والتعجب الا انه لم يبق منها شيء على عهده بل تخرست كلها في عصر الدمار الذي اعقب موت لويس ديونير ابن شرلمانيا المذكور بهجوم النورمنديين على مملكة فرانساف في اخر حكم كرلوس الثاني الاصلح سنة ٨٤٥ م وما بعدها

لكن المؤرخون قد بالغوا في عظم ورويق تلك المباني اكثر مما تستحقه لان الفرنسيين قد بحثوا عن اثار الابنية المذكورة فوجدوا في اكسيلا شيبلا اثاراً تدل دلالة قطعية على ضعف الفنون في القرن التاسع وثبتت ان شرلمانيا اضطر في بناء تلك الكنيسة الفاخرة الى ان نقل من مدينة راوية اعمدة الرخام ومواد الترموق التي كانت مزينة مسكن او اخر القباصرة الرومانيين حتى ان راهب سنغال قال ان شرلمانيا امر بهدم اسوار مدينتي فرنكفوت وراتسبون

ليأخذ من انقاضها ما يحتاج اليه من مواد البناء للزاويتين اللتين اهر بينائهما على غاية من الاتقان وجودة الصناعة في المدينتين المذكورتين فاذا لا عجب من كون النورمنته بين المذكورين حين تزولم بسواحل فرانسوا وجدوا بها من الدبورة والرهبان اكثر من الحصون والعاكر

الفصل السادس

في حالة العلوم والمعارف منذ وفاة كراوس الاكبر الى بداية وقوع الحروب الصليبية اعني من سنة ١١٢٢ الى نهاية القرن الحادي عشر

وبعد موت شرلمانيا اخذت العلوم في الانحطاط حتى ان اغلب الجامعات الاكبروسية التي انعقدت بعد موته طلبت من الملوك ان يكون لهم دخل في اعانة المكاتب التي صارت متروكة ومهيلة وامر مجمع اكسيلا شيبيلان الرهبان القانونيين يتعلمون كل انواع العلوم وان اكثرهم علما وفضلا يكون منوطا بملاحظة الصبيان الذين يترددون الى مكتب كنيسة الاسقفية وكان لويس الثاني بن شرلمانيا هو الذي اشار على المجمع بذلك وعلى والده لوتير بالقانون الذي وضعه ونشره سنة ١٢٢٢م قاصدا نشر التعليم في ايطاليا لان هذا الملك كان قسم مملكته بين اولاده الثلاثة وهم لوتير وببين ولويس فكانت ايطاليا نصيب والده لوتير

وكان القانون المذكور يامر باحداث مكاتب جديدة وحث المعلمين على الاجتهاد وبذل الهمة في التعليم فامر لوتير بفتح مكاتب في اعظم مدن المملكة اللبردية لاجل قطع معذرة الشبان اما لغتهم اولبعده ديارهم وكذلك البابا

اوجانيبوس الثاني قد اوصى في سنة ٨٢٦م الاساقفة والقسوس في جمعية انعقدت وقتئذ بان يحددوا مكاتب يسهل على كل انسان الذهاب اليها لتعلم العلوم الناسوتية واللاهوتية ومع هذا جميعه لم يترتب على ذلك الاثرات واهية ان يكن في ايطاليا او في فرانسوا وامر هذا الملك وكلاه ان يفتحوا في جميع الاماكن اللاتفة للتعليم مكاتب لتربية الصبيان وامناء الدين وتعليمهم لكن لم يدرك ما كان يأمله من هذا الامر فنشكى القسوس ثانياً وترجى مجمع باريس الملك المذكور بان يقفوا اثر والده ويفتح مكاتب عامة ولو في المدن الثلاثة التي هي البق بالتعليم من غيرها من مدن السلطنة وكانت هنك الطريقة من اعظم طرق التعليم نظراً لقلة المعلمين في ذلك الوقت لان ترغيب شرلمانيا في التعليم لم يكن ترتب عليه كبير فائدة حتى ان رومية نفسها كان يتشكى فيها من قلة المعلمين كما يستبين من كلام المجمع الذي كان رئيسه البابا ليون الرابع الذي نصب في سنة ٨٤٧م وزاد البابا عليه بقوله اذا لم يوجد في اخضاط الخوارنة اناس لهم قدرة على تعليم الفنون العقلية كما هو العادة فلا اقل ان يكون في كل محل منها معلم يعلم الناس الكتب المقدسة والقداس

ثم ان مجمع اساقفة ونسب الجهل بالدين واضمحلال العلوم اللذين كانا متسلطين في اغراب المحال الدينية الى انقطاع التعليم مدة طويلة ومجمع الاساقفة المنعقد في سنة ٨٥٨م في مدينة كيرسي سوروازه التي على نهر وازه اشار على كرلوس الاصلع الذي تولى مملكة فرانسوا سنة ٨٤٠م ان يعيد في سرايتو زهرة تعلم الاداب وبهجتها وكذلك الاحبار الذين اجتمعوا في ساوينير سنة ٨٥٩م طلبوا احياء الاداب البشرية التي ترتب على امتزاجها بالعلوم الدينية اللاهوتية الذي كان يقويه انقياء الفياصرة في سابق الزمان اتشار معارف كثيرة في الكنائس حيث دعا هؤلاء الاحبار جميع الامراء والاساقفة الى اعانة هذا العلم الذي كان قد اشرف على الانعدام وذكروا ان الكتب المقدسة قليل من الناس من يفهم منها معنى صحيحاً وعمماً قليل لا يكون لمن يفهمها وجود

بالكافية وهذا التشكي لا يدل على اهل كرلوس الاصاع وعدم اعتناؤهم بتعلم
الاداب وانما يدل على عجزه حيث لم تكن له شوكة الا في مجرد صدور الاوامر
لا في اجرائها وانما اعنى في دائرته الضيقة التي كانت تنفذ فيها كلته كديوانه
مثلاً بتعليم الاداب اعتناء كلياً حتى انه كان يودان يقاسم المعلمين في مزية
التعليم وهو الذي ألف كتاباً في عجائب القديس ديمس المار ذكره
وكان موجوداً راهب يقال له ابريك منوطاً بادارة مكتب سان جرمان
(القديس جرمانس) الشهير بمدينة او كسيرة اعلن بالشهادة لكرلوس هذا
حفيد شربانيا بانه كان له رغبة عظيمة في العلوم والمعارف حيث كتب له
ما معناه

قد تهيات لك اسباب السودد والغار الدائم باقتنائك امر جدك الجليل
فانك زيادة عن احيائك لهتمت في العلوم والمعارف فقد عابو بالهمة التي
لا تضاهي وابطلت اعتذارنا بقلة المعلمين عما نحن عليه من الجهالة لاهالنا
وتكاسلنا بكونك اعتنيت اعتناءً عجيباً حيث دعوت من جميع اقسام الدنيا
عظماء مشاهير المعلمين ليعلموا رعاياك حتى ضجت بلاد اليونانيين حيث هاجر
منها ابناؤها وبكت على اختصاصها بالعلوم حيث انتقلت منها الى قطرنا وعمرى
ماذا اقول في شان بلاد ارلنده حيث لم يخش اهلها اخطار البحر المحيط بل
تغرب معظمهم ونزلوا بسواحلنا مع فلاسفتهم على كثيرتهم ليجوزوا فخر خدمتهم
لسليمان الثاني وقد سلبت من اغلب المال معارفهم ومعلمهم ومكانتهم لتعطل انت
ورعيتك بزينة العلوم والمعارف حتى ان الفنون العقلية بجميع انواعها ناضت
كالبحار في ارضك وانتشرت في اقطار سلطنتك احقناراً الفيرها من الاقطار
فتسمية سرايتك بالمكتب العلمي لها وجه صحيح انتهى

اكن متى قرن الفاري عبارة هذا الراهب بما سلف ذكره من كثرة
نشكيات مجامع الاساقفة في هذا المعنى عرف ما انطوت عليه من الاطراء
والافراط في التماق ولا سيما متى عرف ان هؤلاء المعلمين الذين جاءوا الى فرانسنا

من بلاده اليونانيين وجزيرة أرنلدة انتقلوا منها إلى إنكلترة وذلك لأن الفريد الأكبر متولي إنكلترة سنة ٨٧١ م كان إذ ذاك مجتهداً في رفع منار العلوم والمعارف بتلك المملكة ونيلها من أحوال الضعف والأضمحلال التي وقعت فيها منذ فارق الفويث جزيرة وتغلب عليها الدانياركيون قال بعض المؤلفين إن هذا الملك أحياناً في ملكته العلوم والفنون والآداب والحرف والصنائع ومارس العلوم بنفسه وألف عدة كتب وزهت في أيامه للتجارة والملاحة وعظمت القوى العسكرية البحرية وصارت إنكلترة مأوى للعدل والراحة وله عدة قوانين عظيمة أسسها على الحكمة والحزم

وبعد انتضاء حكومة كرلوس الأصغر صار لا يطع أحدان يجد في فرانساً أثار مكتبته من مكانها لأن النورتمان كانوا أحرقوا جميع ديرة المملكة غير أن انقياء الرهبان الذين كان يتبعهم هولاء السكدين وأيون أرباب الصيال حتى كانوا يفرون من دير إلى آخر كانوا يأخذون معهم أثار علوم الأقدمين ويخفونها خشيةً عليها من احتقارها وإتلافها ونظراً لقلتها كان يسهل خاوصها وحفظها ثم لما خربوا ضواحي باريس في سنة ٨٤٤ م فتح أهل هذه المدينة ديراً لحفظ جسد القديس جرمان وكتبه وأمواله فكث مكتب هذا الدبر مدة طويلة بدافع أكثر من غيره غاية التبهر وسلطته نظراً لجوارته إلى باريس التي كانت له حصناً حصيناً تمنع عنه كيد الأعداء وكذلك مكتب ماري جرمان دو كسيرة فإنه دافع أيضاً مدة طويلة لبعده عن العدو وكان هذا المكتب في القرن العاشر لم يزل يتردد إليه عظماء الطلبة ليستعدوا فيو إلى درجة الاستغنية وفي هذا الزمن كان دير جرمان ديبيره لم تنزل له الرياسة على كثير من المكاتب تحت ملاحظة الشاعر ابوان

ومع أن علمي الفلسفة والمنطق اللذين كانا يدرسان في هذه المدارس مدة القرن التاسع لا يستحقان الذكر فقد وجد في أماكن مختلفة ولاسيما بين الأيرلنديين أناس ماهرون أذكاء يلبق بهم إن يسموا فلاسفة أولهم يوحنا البريجينا

الاسكوتشي اي الايرلندي صاحب كراوس الاصاح وكان ذا فهم ثاقب وسام عالمًا بالعلوم اليونانية والرومانية شرح فلسفة ارسططاليس لتلاميذ وكان يتفلسف بدقة عظيمة بدون مرشد وكتبه الخمسة في تقسيم الطبيعة لانتزال موجودة وهي كتاب غويض يذكر فيه عال كل الاشياء واصولها ونحو هذا الوقت قام انسان اسمه مكاربوس من ايرلندا وعلم في فرانسوا بان لكل الناس نفساً مشتركة فدحضه رترام ومن مشاهير هذا القرن ايضاً رابانوس مورس حصل على اول رتبة في جرمانيا وفرانسوا وكان يزدحم على خطبه الطلبة ومن المورخين ايجنهارد وفرينكفيس وثيفانس وانسطاسيوس وهيو وغيرهم ومن الذين مهروا في اللغات وثقفوها رابانوس الذي كتب بيان اسباب اللغات واصلها وسارغندس وبرثاربوس وغيرهم ومن الذين عرفوا العلوم العبرانية واليونانية وليم ويوحنا سكونوس وسرفانس ليس الذي كان ماهراً في الخطابة والبلاغة والانشا ايضاً وايجنهارد واغوربد وهينكر وغيرهم

ثم في القرن العاشر اعدمت الآثار الشهيرة من جميع الجهات حتى لم يبق اثر للمكاتب وصار العلم غريباً لا يجد له ماوى الا الحاربي لان التبربر كان قد تغلب على جميع الاشياء كما ان اختلال الحكم كان ايضاً قد عم سائر الجهات فعند ذلك نأسف اخر الشعراء وضع ما كان عليه اهل عصره من الجهالة وتكلم على اسانهم مخاطباً شعره

يا شعر حسبك لا تؤمل حظوة

قد بار سوقك بعد طول نفاق

واكثر المورخين يسمون هذا القرن بالقرن الحديدي نظراً الى العلوم والفنون والشعوب الافرنجية لم تر قبلة جيلاً القس وانكد منه ولو ارناب في ذلك بعض اكابر العلماء فانه مثبت ببراين قوية لا يمكن دحضها بكليتها نعم انه كان يوجد مدارس اما في الدبورة واما في المدن في اكثر بلاد اوروبا التي كانت مراكز الاساقفة غير ان قلة عددهم وكتابة احسن الرهبان الذين

اشتغلو في الامور المفيدة اخباراً وتواريخ بطريقة دنية يبينان عن شدة تعاسة ذلك العصر

وكان التعليم في هذه المدارس مختصراً في العلوم النسيبة ومعلومها هم الرهبان المذكورون الذين اعتبروا قيمة الاداب والعلوم من استعمالها في الامور الدينية فقط ومنهم كأبو ولويتبرند ووتيكيند وفلكون ويوحنا كوبا وراثيروس وفلودورد وتيكيرس وايشلبرت وغيرهم وكلمهم متفاوتون في الفضل الا انهم يشردون عن حقيقة كيفية كتابة التاريخ وكان البعض من شعرائهم كذلك لا يخلون من التباهة غير انهم جميعاً خشنون وهكنا النخاة والبيانون منهم لا يستحقون الذكر لانهم لم يذكروا الا ما لا معنى له ولم يعلموا الا تعاليم ناشئة جنونية ولا حاجة لان نذكر شيئاً من هندستهم وحسابهم وحساب الاعياد والفلك والموسيقى التي كانت تُعلم في مدارسهم

وكانت الفلسفة عندهم محصورة في المنطق الذي كانوا يزعمونه رأس كل حكمة وهذا المنطق المطنّب في مدحه كانوا يعلمونه بغير رونق ولا وضوح بموجب كتاب الكاتيفوريا المنسوب زوراً الى القديس اوغسطينوس وكتابات بورفري نعم ان تيموس كتاب افلاطون ونبيذة ارستطاليس في التفسير ومقالات ومقالات شيشرون وبعض تاليف اليونانيين واللاتينيين كانت موجودة في ايدي البعض غير ان المؤرخين يقولون انه لم يكن هناك من يفهم هذه الكتب

ومن المستغرب كيف في وسط هذه الظلمة تظهر تلك المسألة المحادة عن الكليات (او التصورات العامة) كما كانوا يسمونها بين الطائفة المسماة ربالست اي الحقيقية وبين الطائفة المسماة نوميواي الاسميين وهي ان طائفة الربالست ذهبت الى ان الاشياء كلها جواهر فعلى مذهبهم تكون الاعراض والمخصائص كالاستدارة والصلابة مثلاً قائمة بنفسها موجودة لاني موضوع بهني ان الاستدارة مستقلة بالوجود عن المستدبر وكذلك الصلابة مستقلة عن الصاب وذهبت

الثانية المسماة نومينو الى ان الاستدارة والصلابة وغيرها من الاعراض لا تقوم الا
بوصوفائها وباختلاف هاتين الطائفتين اختلف اهل المدارس اخيراً وتوآد بينهم
التفاهم والشحناء من هذا الجدال قروناً عديدة بل ان اثارها المعقدة المستطيلة
يطلع عليها في كتابات العلماء حتى هذا القرن

وفي ختام هذا القرن وجد للعلم في اوربا محام ذوهمة واقدام وهو جربرت
الراهب الفرنسي الذي كان مودباً لاولاد الملك هوغس كابييت مؤسس
الدولة الكابينية بفرانسا سنة ٩٨٨ م واخيراً ارتقى الى كرسي الباباوية في سنة
٩٩٩ م ونسبى سليبسترس الثاني وهو الذي اخترع اول ساعة ذات رصاص
ويقال ايضاً بانه ادخل ارقام الحساب الهندية الى اوروبا في سنة ٩٩٠ م قال
بعض المؤلفين ان هذا الشهم ذا العقل الثاقب انصب بنجاح على كل فروع
العلم ولا سيما التعليمات والميكانيكات والهندسة والفاك والحساب والعلوم
المقارنة لها وكتب هو فيها ونبه غيره بان يشيدوها ويقروها بكل استطاعتهم
وتنتائج انعامهم بين الفرنسيين والجرمانيين والاطالينيين ظاهرة في هذا القرن
والذي بعده لان اناساً كثيرين تحركوا من كتابات هذا المحبر الفاضل وسيرته
ونصائحهم الى طلب الفلسفة والتعليمات والطب وغير ذلك من العلوم البشرية
نعم انه لا يقاس بعلماء الهندسة والتعليمات في ايامنا هذه لكن معرفته كانت
عالية على ادراك ذلك الجيل البربري لان جهلة الرهبان اعتبروا اشكالة
الهندسية صوراً سحرية ولهذا وضعوا هذا العالم مع السحرة ونظموه في صف
الاشرار

وهذا الرجل العظيم كان اخذ بعض معارفه ولا سيما الفلسفة والطب
والتعليمات عن كتب عرب اسبانيا ومدارسهم لانه ذهب الى تلك البلاد في
طلب العلم وكان تلميذاً لعلماء العرب في قرطبة واشبيلية وربما اثرت سيرته في
اهالي اوروبا اذ ان المحققين بقولون بان الاوربيين المتشوقين للعلم وخاصة الطب
والحساب والهندسة والفلسفة كان لهم من ذلك الوقت فصاعداً رغبة عظيمة

في ان يقرأوا هذه العلوم على علماء العرب المتوطنين في اسبانيا وبعض نواحي ايطاليا وترجم كثير من كتبهم ومولفاتهم الى اللاتينية ونقدم كثير من مضاهايتها الى مدارس أوروبا وذهب كثيرون من الطلبة الى اسبانيا ليتعلموا رأساً من خُطب علماء العرب ولذلك حق القول بان العرب ولا سيما عرب اسبانيا المذكورين هم اصل وينوع كل ما عرفه الافرنج من الطب والفلسفة والذلك والتعليمات منذ القرن العاشر فصاعداً

• وفي القرن الحادي عشر احييت العلوم في أوروبا نوعاً بين المتوحدين من الكهنة والرهبان اما بقية الناس ولا سيما الاشراف والاكابر ازدروا بالعلوم والاداب ما عدا الذين اعدوا ذواتهم لخدمة الكنيسة او ارتنوا الى وظيفة دينية ثم انشئت المدارس في ايطاليا بعد اواسط هذا القرن وقام البعض من العلماء المشهورين بالناليف والتعليم وانتقل جماعة منهم بعد ذلك الى فرانساً وخاصة الى نورمندا ليتعلموا الشبان المعدين هناك الى الوظائف الدينية المذكورة وقد مولوا جداً ولا يحنوي اساء بعض اهلهم الذين رغبوا في العلم وسعوا في تقديمه في هذا القرن وبه يذكرون ايضاً عدة مدارس اشتهرت بصفت معلها وكثرة تلاميذها ولا ريب ان الفرنسيين اعثوا كثيراً بالعلوم والصنائع وكثرت العلماء في بلادهم حين كان معظم ايطاليا غرقان في بحار الجهل لان روبرت ملك فرانساً بن هوغس كاييت الذي كان تلميذ الفاضل جربرت المقدم ذكره كان عالماً ومحباً للعلم والعلماء وقد انتهى ملكه في سنة ١٠٢١ م الا ان رغبته العظيمة في تقدم الصنائع والعلوم من كل نوع لم تكن عديمة النجاح والنورمنديون من فرانساً بعد استولوا على ولايات ايطاليا السنلى وهي ابوليا وكالابريا وسيسوليا اذاعوا نور العلم والآداب في تلك البلاد ولم تنسب مزينة اعادة العلم الى انكلترا لان وليم الظافر دوك نورمندا كان ذا ذكاء وحكمة تفرد بها في عصره فشرع بمشروعات حميدة حينما استظهر على انكلترا في سنة ١٠٦٦ م اذ دعى العلماء من نورمندا وغيرها لينفوا من البلاد التوحش

والجهل اللذين كانا مستويان عليها مع ان النور مند بين المذكورين كانوا ابطالا متوحشين واعدا لكل علم قبل ان يعتنقوا الدين المسيحي لكن بعد ان تنصروا احترموا الديانة والعلوم احتراماً عظيماً

وقد نتج عن الرغبة في العلم التي انتشرت بين شعوب اوروبا الاكثر تقدناً على التدرج ازدياد المدارس وتحسين معلمها في اماكن متعددة حيثما كانت منحصرة عند افتتاح هذا القرن في ديرة اوروبا وكناستها وكانت الرهبان البند يكتبون هم المعلمين الوحيدين في المعارف الدينية والديوية انما منذ بداية هذا القرن اخذ غيرهم من الكهنة والعلمانيين في ان يعلموا العلوم في عدة من مدن فرانسوا واطاليا باكثر مما كانوا يعلمونها هم بل تبعوا نسفاً افضل منهم في تعليم بعض العلوم التي كانوا يعلمونها وكان اشهر هؤلاء المعلمين المحدثين هم الذين طلبوا العلوم في مدارس العرب باسبانيا على ما تقدم وتلقنوا فيها الفلسفة والرياضيات والطب والفلك وغير ذلك من هذا القبيل على اسلوب اصح واوضح من الاسلوب الذي كان يعلم به اولئك الرهبان في مدارسهم لان مدرسة سالرنو في مملكة نابلي اشتهرت بنوع مخصوص في علم الطب بهذا القرن وكان ياتيها الطلبة من اكثر اقاليم اوروبا وكان معلمو هذه المدرسة اخذوا هذا العلم من مدارس اسبانيا وافريقية ومن مؤلفات العرب في غير ان من هذه المدارس والمؤلفات ايضاً اخذت كذلك شعوب اوروبا صناعة التفاؤل الباطلة في معرفة مستقبل حظوظ البشر من النظر الى النجوم ويقال له علم التنجيم والهيئة وظاهر الايادي ويقال له علم الفراسة وفشى ذلك بينهم كثيراً واعتبروه اعتباراً زائداً مع تمادي الاوقات

وكانت العلوم السبعة التي سبق ذكرها تطالع في اكثر المدارس الاعتيادية فكان الطالب يتعلم اولاً النحو ثم البيان ثم المنطق ومن طلب الارتقاء الى اكثر من العلوم الثلاثة المذكورة تقدم بعد تعلمها رويداً رويداً الى العلوم الاربعة وهي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك ليحصل على شرف العلماء الكاملين غير

ان هذا الاسلوب تغير بعد نصف هذا القرن لان المنطق بما انه يتضمن على نوع ما شيئاً من الفلسفة العقلية تحسن بعناية البعض من ذوي الافكار الثاقبة وصاروا يعلمونه مع زيادة الدقة والحماس ومن ثم أُعْتَبِرُ عند الاكثرين اعتباراً كلياً حتى انهم اهلوا النحو وغيره من العلوم المعقدة الطلبة وصرفوا كل حياتهم في الدقائق المنطقية والفلسفية لان من كان يعرف علم القياس عندهم وهي المسماة في ايامنا هذه بالمنطق او الفلسفة العقلية كان بعد بانه حصل على مقدار كافٍ من العلم ولم ينته شيء به بعد تخصيصه شيئاً اخر من كل العلوم الباقية ومن هنا نشأ الازدرا بعلم اللغات والفصاحة وبقية العلوم الادبية واستمر ذلك التوحش الفظيع الآتي توضيحه قروناً عديدة في المدارس الاوروبية وافسد اللاهوت والفلسفة

ومن هنا يتضح بان فلسفة الافرنج في تلك القرون كانت محصورة في علم القياس المذكور ويقال له ايضاً الاستدلال اما باقي فروع الفلسفة فلم تعرف حتى ولا بالاسم ومع كل ذلك كان هذا العلم عندهم ناشئاً عقياً وكانوا اخذوه من كتاب المقولات العشر المنسوبة زوراً الى اوغسطينوس او من مقدمات ارستطاليس تاليف بورفري واقروز وهما الجوهر والكم والكيف والاضافة والابن والتمني والوضع والملك والفعل والانفعال وقد جمعها بعضهم في هذين البيتين

زيد الطويل الازرق بن برمك في داره بالامس كان متكي
في يده سيف لواه فالتوى فهذه العشر المقولات سوى

مع انه لم يكن في بداية هذا القرن للمدارس مرشد اخر في هذا الفن ولم يكن المعلمين جراءة ولا مهارة في توسيع التعاليم المتضمنة في هذه الكتب وتحسينها الا انه بعد نصف القرن الحادي عشر المذكور اخذ علم الميزان في فرانسا متجهماً جديداً

منذ دخلت بعض مؤلفات ارسطو ليس في فرنسا من مدارس العرب الاسبانيولية لان بعض اصحاب العقول السامية كبرنغار بوس وروسان وهلدبرت ثم غلبت من بورنا وابلرذ وغيرهم اجتهدا في توسيعه وتكميله بواسطة ما استفادوه من مؤلفات هذا الفيلسوف واشهرهم في تحسينه وتصديره نافعاً هولنغريك الايطالياني الذي صار اسقف كنتربري حتى انه لشهرته في سمي المنطقي واستعمل مباديه بحجاسة ودقة في انهاء النزاع مع خصمه برنغار بوس على الانفجارستيا وثانيه انسلم في حيازته العقوبة مع مشروعات اخرى في اشارة هذا العلم وقتئذ ولاسيا بمجته المنصوص عن المادة وصفاتها او ما ينسب اليها والثالث اودو الذي علم المنطق واشتهر بذلك شهرة عظيمة وشرحه في ٢ مؤلفات في السفسطة وفي المركبات وفي المادة والكون ولاوجود لهلك الكتب الان واما انسلم المذكور فانه اجتهد في تحسين هذا العلم وكان رجلاً وازناً وشهيراً متفرداً بين الافرنج ابرز الطبيعيات واللاهوت الالهي من الخفاء الى حين الوجود لكونه شرح مع الشاسة ماذا يعلمنا العقل عن الله في كتابين احدهما ساه منولوجيون يعبرو عن انسان يتناطب نفسه والثاني بروسارجيون يعبرو عن هذا الانسان يتناطب مع الله وهو الذي اخترع القياس الفرنسي الذي يبرهن على وجود الله سبحانه من مجرد تصور النفس الالهي بطبيعة كامنة للغاية ولما قعد هذا القياس غورنياو الراهب الفرنسي رد عليه انسلم المذكور في نبذة كتبها بهذا الشأن

هذا ولم يبلغ علم الميزان المذكور حده الا وقام النزاع بين علماء على ما تقدم وهذا النزاع وان لم يكن في حد ذاته شيئاً لكه لما كان يضطرم منذ زمان طويل في المدارس صارت نتائجها في هذا القرن من الامور الدقيقة العظيمة لان الاحزاب استعملوا قضاياهم المتنوعة حسب تفاسير التعاليم الدينية وكل فريق قذف خصمه باغرب النتائج المكروهة اذ انهم انتقوا جميعاً على ان هذا العلم يبحث عن الكليات ومفاهيمها لان الجزئيات والافراد من كونها قابلة للتغير فلا يمكن ان

تكون موضوع علم ثابت غير متغير ولكن اختلفوا في انه هل هذه الكلمات التي هي موضوع علم المنطقي موجودة حقيقة اوهي مجرد كلمات واسماء لموهومات فالبعض اعتمدوا بوجودها حقيقة وسندوا اراءهم على أفلاطون وبوثينيوس وغيرهم من الاولين والبعض جزموا بانها لا شيء سواء اسما لغبر مسميات واستشهدوا بارسططاليس وبورفري وغيرهم وسبي الحزب الاول منهم حنفيين والثاني اسميين ثم كل من هذين الحزبين انقسم مع تمادي الزمان الى شيع متنوعة حسب اختلافهم في تفسير تعليمهم فامتلات كل مدارس أوروبا من هذه المنازعة قرونا عديدة وتبع منها احياانا كثيرة مقانلات دموية بين اللاهوتيين والفلاسفة

والمفسر العلماء يسمون اصل هذه المنازعات الى ما وقع من برنغاروس الذي مر ذكره على انه فياريتيا لان رأي الاسمين يصح استعماله في الخمامة عنها اما رأس هذه الشيعة فهو رجل فرنساري يقال انه يوحنا المنسطي ولا يعلم الآن عنه شيء الا الاسم وتلاميذ الاصليون هم روبرت من باريس ورسان من كيبين وارنلف من لون ومنهم تعلم كثيرين هذا المذهب ورعا يحسب بين تلاميذ يوحنا المذكور روبرت الذي علم في مدرسة ليل في فلاندرس حيث قيل بانه قرأ المصنف لكارلوس ولطفا واودر الذي تقدم ذكره بقرائه لتلاميذ فعلا غير انه لم يشتهر احد من اسمي هذا المذهب اكثر من رسان ولهذا اعتبر ولا يزال يعتبره كثيرون مرسسا هذه الشيعة (هذا ما كان من اخبار الذين تكلموا عن مجرد امتداد المعارف وترقيتها ولم يتعرض للنفاذيل احوال الجهول الذي كان متسلطنا على الاكثرين في تلك الاعصر التي نحن بصدد الكلام عليها)

نبذة

في تفاصيل احوال جهالة الاعصار المذكورة

اما ما قاله بعض المؤلفين بشأن احوال تلك الجهالة المنوع عنها فهو انه كان الملك كرلوس الاكبر في فرانسوا والفريدوس الاكبر في انكلترا يجثا عن تشبث ظلام الجهل وتوصلا ان يدخل بين الرعايا بعضا من المعارف ولكن منع من تلك القوة وذلك الترتيب موانع عظيمة بسبب اهل ذلك العصر ثم ان وفاة هذين الملكين كان سببا في انغاس شعوب اوروبا في بجمار الجهالة اكثر مما كانت عليه فكانت سكان اوروبا في هذه الاعصار المشومة تجهل ما كانت تحسن به الاعصار المتقدمة من الفنون بل كان لا وجود عندهم للفضيلة اصلا وقد كشف القناع بالتام عن وجه هذه الجهالة واوضحها جليا العلامة الفاضل روبرتسون المورخ الانكليزي بما ملخصه نعم انه وقع من كرلوس مانوس انه جمع اوفور عقلا تلك الجمعيات المشتتة في جمعية واحدة (يعني التي اشرنا اليها في الفصل الخامس من هذا البحث) وصاروا على قلب رجل واحد كما هم عضو واحد واعاد في المملكة النشاط والقوة التي ميزت مملكته على غيرها وصيرت تلك الوقائع اهلا لتعجب اهل القرون المستنبرة بالمعارف والعلوم لكن هذه الحالة لم تمكث الا مدة قليلة وعند وفاة هذا الملك صار مذهبه الواسع المؤسس على الجراحة الذي كان رتبة منروكا لم يعضد بالحجاسة والمحبة التي كانت قوية في اتباعه ثم اضعفت وتزقت مملكته الى عدة ممالك حتى صارت

عرضة للمصائب والفتن ولا زالت تتزايد من هذا الزمن الى القرن الحادي عشر
ومن حيث ان جميع الامم ما دامت لم تنتع بمملكة منتظمة بأمن الانسان فيها
على نفسه فانه لا يمكن لها ان تشتغل بالعلوم والفنون وتظهر ذوقها وتحسن
اخلاقها لان زمن الفتن والظلم والنهب لا يمكن ان يكون معيناً على تنعيم العوام
والتأنس والتعيش والاجتماع البشري وحسبك انه لم يمض قرن من فتوح الامم
الخشنية المتبريرة للبلاد الرومانية الا واصبحت رسوم المعارف والاداب دارسة
منسية لا ذكر لها عدهم فاهملوا وفقدوا علوم الفصاحة التي هي آلة للزينة وهجروا
عدة فنون تكون سبباً في انتظام المعيشة وصلاحها فكانوا في هذه الازمنة المشومة
لا يعرفون اساء علوم الادب والفلسفة واذا كانوا يشتغلون ببعض هذه الاداب
فانما كانوا يستعملونها في الاشياء الخفية لا في ما ينبغي ان تستعمل فيه
وكان الاعيان المتقلدون في الوظائف المهمة لا يعرفون القراءة ولا الكتابة
فكانوا يعملون صورة صليب بدلاً عن امضاهم على الوثائق الصادرة عنهم وقد
بقي عدة وثائق الى زمننا هذا صادرة عن بعض الملوك وبعض الاعيان عليها
صورة صليب بدلاً عن الامضا وكان الكونتة هر بود رئيس المحكمة واعظم قضاة
الدولة في القرن التاسع وكذلك دوغسقاين رئيس الجيوش الفرنسية واول
اكابر عصره في القرن الرابع عشر لا يعرفان الكتابة ولا القراءة
وهكذا كان كثير من القسوس لا يفهمون الخطابات التي كانوا ملزومين
بتلاوتها عن ظهر القلب دائماً بل كان بعضهم لا يحسن القراءة واغلب ارباب
المناصب منهم لا يمكنهم ان يكتبوا اسماهم على القوانين التي كانت تنفر في الجماع
التي كانوا يحضرونها ولذلك كان من جملة القوانين انه يلزم كل من طلب ان
يتقلد منصباً او وظيفة يسأل هل يعرف ان يقرأ الانجيل والرسائل ويفسر
معناها ولو كلمة بكلمة من غير نظر الى تفسير الجملة وكان الملك الفرديوس
الاكبر ملك برنانيا وانكلترة (الذي تقدم ذكره) يتشكى من عدم وجود احد
من القسوس في البلاد التي بين نهري هومبير والنيس يفهم الصلوات باللغة

اللاتينية ويمكنه ان يترجم من اللغة المذكورة ولو العبارات السهلة
وكانت روايات الوقائع الماضية منسية عندهم ضائعة لا وجود لها الا في
النوارخ المملوءة من الوقائع والمحادثات الباطلة
وصارت القوانين التي ألفتها الملل التي نزلت باقاليم اوروبا المختلفة متروكة
لا يُعمل بها ولا يعتمد عليها واستعاضوا عنها بعبادات فاسدة مخالفة للعبادات
القديمة

ولما تجردت هذه الامم عن الحرية والحجية والغيرة وتعذرت عنهم دراسة
العلوم وقعوا في ظلمات الجهل ومكثت اوروبا مدة ٤٠٠ سنة من القرن الثامن
الى القرن الحادي عشر لا يظهر منها احد من المصنفين يكون اهلاً لان ينتفع
بقراءة كتابه وحرراً بان يشهر بفصاحة العبارات وغرابة المعاني فلم يخترعوا في
مدة هذا التاريخ اختراعاً يكون نافعاً مفيداً للجمعية تشرف به تلك الاعصر
وفسدت الديانة المسيحية المعينة قوانينها وترتيباتها في الكتب المقدسة
بالتدقيق الذي لا يقبل التغيير ولا التبدل وانقلب في هذه القرون المجنونة
الحمال الى بدع خشنية لانه لما دخلت الشعوب المنبربرة في الديانة المسيحية لم
تغير مشربها في العبادة وانما غيرت معبودها فكانت تجت عن ان ترضي الاله
الحق سبحانه تعالى بوسائل قليلة الاختلاف عما كانت تستعمله سابقاً لتسكين
غضب الهتها الباطلة التي كانت تعبدها

وحسبك في اثبات ذلك حكاية مضحكة ما كان التسوس يفعلونه وقتئذ
من الامور الهزلية التي كانت تُعمل في الكنائس لاعلى سبيل الاستهزاء واللعب
بل على سبيل انه امر تعبدى نعله التسوس ونقره الكنيسة وهو انه كان يُعمل
مخفل في عدة كنائس في فرانساً تذكارة لفرار مريم العذراء المباركة الى مصر
وكانوا يسبون هذا المخفل موسم الحمار وذلك بان يزینوا بتنا شابة بافخر الملابس
حاملة فوق ذراعها طفلاً وراكبة على حمار مسرج بسرج فاخر والناس يقودونه
الى المهراب مع الزفاف والاحتفال ثم يصلون وهم في مخفل وازدهام عظيم وقد

عودوا الحجاران يجثو على ركبتيه في اوقات معلومة اثناء الصلاة وبعد الصلاة
 ينشدون اشعاراً مضحكة ككلام الصغار ثم يصرف القسيس الناس بكونه ينهق
 كالحمار ٣ مرات وكذلك الحاضرون يردون عليه الجواب بان ينهقوا مثله ٣
 مرات وقد ذكر المورخون كثيراً من مثل هذه المواسم الموجبة للازدراء والسخرية
 كوسم المجانين وغيره.

وفي بعض الموفات انه كان في الاعتصر الوسطى جماعة تسمى التوابين
 بالسوط لان الانسان منهم اذا تاب كان يضرب نفسه بالسوط ليكفر بذلك
 عما ارتكبه من الذنوب وكانوا يعذبون اليهودي اذا تنصّر ولم يأكل لحم الخنزير
 اوصام يوم السبت لانه يكون بزعمهم منافقاً وانه باق على دين اليهود وذكر
 بعضهم بانه كان من الامثال المضروبة بينهم انه من مشى ٦ خطوات في بلاد
 فلسطين لا يمكن ان يخسر نفسه

وقد بلغ بهم الجهل ان يخدروا الإجراء الخفيفة في الدين بالمحاربة الشرعية
 كما حصل في مملكة اسبانيا في القرن الحادي عشر عند ما حصل نزاع بين
 اصحاب الطقس الموزرايكي الذي كان مستعملاً في كاتس اسبانيا وبين اصحاب
 الطقس الروماني فاستحسن الملك وقتئذ رأي الاشراف بانتهاء هذا النزاع الواقع
 بينهما بالمحاربة الشرعية وقد اتفق ان الذي كان يحارب عن الطقس الموزرايكي
 ظفر بن كان يحارب عن طقس الكنيسة لكن كانت الملكة ومطران مدينة
 توليدت بيلان الى الطقس الروماني فاشار بان يصير امتحان اخر بطريقة
 لا مدخلة لاحد فيها سوى الله تعالى ولا يمكن مراجعتها وهي طريقة قضاء الله
 فاشعلوا نارا كبيرة ورموا فيها كتاباً من كل طقس واتفقوا على ان الكتاب
 الذي يحترمه اللهب ولا تاكله النار يصير معمولاً به في كل كاتس اسبانيا فاتفق
 ان الكتاب الموزرايكي لم يحترق واما الكتاب الروماني فصار رماداً (١)

(١) ان طقس العبادة الجمهورية المستعمل في رومية لم يكن قد ادرج في كل بلدان
 أوروبا حتى الجيل الحادي عشر فلما ألح البابا غريغوريوس السابع في هذا الامر لم يوجد في

وقد اعتمد الفاضل روبرتسون عن هذه الحالة المحزنة التي كانت عليها أوروبا في القرن الثامن الى نهاية القرن الحادي عشر بقلة الكتب وندرتها وقتئذٍ وعدم انتشارها بين الناس لان الرومانيين كانوا يكتبون كتبهم على جلود مصقولة او على ورق قشر البايروس المسى عندهم بردي وفيلكون ويقال له ايضاً ورق النيل لانه كان يأتي من مصر وكان ارخص ثمناً من الجلود ولذلك كان اكثر استعمالاً عندهم لكن لما افتتح المسلمون بلاد بر مصر في القرن السابع انقطعت المخالطات بين اهالي مصر وشعوب أوروبا وبطل استعمال ورق النيل فاضطروا الى الكتابة على الجلود وكانت غالية الثمن فلذلك صارت الكتب غالية ايضاً ونادرة جداً وكان يصعب تحصيل مواد يكتب عليها حتى انه يوجد الى الآن بعض كتب من مولفات القرن الثامن والتاسع كلها منسوخة في جلود ازيلت منها الكتابة القديمة وعوضت بكتابة اخرى جديدة وكان ذلك سبباً في ضياع عدبة مولفات قديمة ولذلك قلت بل ندرت الكتب القديمة السابقة على القرن الحادي عشر وقل ان وجد في ذلك الوقت اناس يملكون بعض كتب بل بعض الدبورة والكنائس كان لا يوجد فيها سوى نسخة واحدة من الفنداق لخدمة القداس

وكتب راهب يقال له لوب وكان رئيس دير فيريس مكتوباً الى البابا في سنة ٨٥٥م يستخلفه بان يعيره نسخة من كتاب شيشرون ومن قانون كاتليان قائلاً انه لا يوجد نسخة كاملة من هذه الكتب في مملكة فرانساً جميعها واشترت كوتية انجو نسخة من كتاب مواعظ هيون استيف هابستادة فدفعت فيها ٢٠٠ من الضان وه مفادير من الارض مزروعة قعماً وه اخرى مزروعة من الحياودار وه مزروعة من الذرة البيضاء كما في تاريخ اداب فرانساً ولما استعمار الملك لويس الحادي عشر من جمعية الطب البشري بمدينة باريس مولفات

شعوب أوروبا من ضاد هذا المشروع اكثر من اهالي اسبانيا ولما اراد الملك الفونسوان يمثل ارادة هذا البابا اعترضه الاشراف ومن ثم جرى هذا الامتحان في سنة ١٠٨٠م

الفخر الرزقي رهن هذا الملك في نظيرها مقداراً جسيماً من امتعتو الثمينة بل طلب منه كفيل يكفله حتى يردّ هذه الكتب فعين لذلك بعض الملتزمين مع ان هذه الاستعارة كانت بالقرب من اواخر القرن الخامس عشر وكان اذا وقف احد كتاباً على كنيسة اود برعد ذلك امراً عظيماً فكان يدنو بنفسه الى الحراب ويضع الكتاب فيه لكن لما اخترع فن اصطناع الورق المعتاد اوانه وصل الى اوروبا بواسطة العرب الاسبانويين في القرن الحادي عشر تعددت بذلك الكتب وسهلت ممارسة العلوم سهولة غريبة بالنسبة لما كانت عليه قبلاً

الحروب الصليبية

من سنة ١٠٩٦ م الى سنة ١٢٧٠ م

كأن العلوم والمعارف كانت وقتئذ ذات هيولى اي جسم مادي متغير لا يمكنه ان يوجد في قطرين متخالفين من اقطار الارض لانه منذ القرن الذي نقلت فيه صناعة الورق الى اوروبا على ما ذكرنا استبان من قرائن الاحوال بان العلوم والمعارف اخذت في اهبة الرحيل والانتقال من الاقطار الشرقية الى الاقطار الغربية قال العلامة الفاضل خير الله افندي المورخ العثماني بمعرض المشكي من حالة البلاد الاسلامية انه من القرن الخامس الى القرن السابع من الهجرة سنة ١١٠٠ - سنة ١٢٠٠ م لم يبق بين الناس اعتبار ولا حرمة للعلوم والمعارف بل تلاشى ذلك من افكار العالم بالكلية واعتدى العلماء والمورخين الفتنور والكسل حتى ان علماء السنة من المسلمين وهم كبار الامة اصحاب المناهب الاربعة مع كونوا اقتدى بهم الوف من العالم انصل بهم الضرر وكابدوا من

انواع البلايا والمصائب هم وغيرهم من العلماء ما لا مزيد عليه والاماكن العامرة التي كانت زاهرة بالعلوم والفنون استولى عليها المسلمون الذين كانت احوالهم مضطربة في تلك الاعصر نظراً لهجوم التتار عليهم من كل الجهات وما بقي من اهالي اوروبا كانوا في حالة التوحش والبربرية مشتغلين في الحروب الصليبية والانقسامات الكنايسية الشرقية والغربية فلم تبقى فيهم وسائل ترغيبهم في تحصيل العلوم والمعارف حتى ان الاكاديميات التي كانوا ينشونها ويؤسسونها نظير المدارس التي كانت في البلاد الاسلامية كانت تعيقها المداخلات والتعصبات التي كانت تصدر من المحكام لكن مع كل ذلك حصل نوع تقدم في الحرف والصناعات بفرانسا (ما ذكره هنا من هذا القبيل سوف نوردّه في محله عند الكلام على الحرف والصناعات في اخر الفصل التالي)

اما العلامة المعلم روبرتسون المورخ الانكليزي المقدم ذكره فانه يقول بعد ما حكاه وقد سبق تلخيصه عن فضائح جهالة تلك الاعصر التي مر ذكرها ان ذلك كان مصداقاً لما قاله المعلم هووم (مورخ انكليزي اخر) وهو ان الانسان اذا وصل الى حضيض الانحطاط وارتفع الى اوج الارتفاع فانه يرجع الى الضد لانه لما وصلت تلك العيوب الى اقصى درجة في الزيادة عند ذلك اخذ سير الحكومة واخلاقها في التنازل الى ان زال خال الترتيب والمخشونة وترتب بدله الادب وانتظام القوانين وكان السبب الاصلي في ذلك تلك الحروب الصليبية المشهورة (التي ابتدأت في زمن فيلبس الاول بن هنري الاول ملك فرانسا من سنة ١٠٩٦ م) بقصد استخلاص الاراضي المقدسة من تسلط المسلمين

وذلك انه كان ظهر على حين غفلة في اوروبا رأي عظيم اتشرب بين الناس جميعاً وهو انهم تخيلوا ان الالف سنة المذكورة في رؤيا القديس يوحنا الانجيلي ص ١:٢٠-٤ قاربت الابداء وان المسيح سيظهر في اورشليم ليملك على الارض فترك كثير من الناس اموالهم واملاكهم وعيالاتهم واحباءهم وذهبوا بسرعة الى

الأراضي المقدسة غير أن كثيرين من الزوار الذين رجعوا إلى بلادهم أخبروا عما وقع لهم من معاملة الأتراك الرديئة (اتباعاً إلى الأصل) بعد أن كان الخلفاء المنورون بأنوار المعارف الذين كانوا يحكمون هذه البلاد قبل الأتراك المذكورين يعاملون زوار القدس أحسن المعاملة ويعينونهم على زيارتهم لما إن ذلك كان لهم من قبيل التجارة التي تعود عليهم بالربح العظيم إلى أن أخذ الأتراك منهم هذه البلاد في أثناء القرن الحادي عشر المذكور

وقولنا هنا اتباعاً للأصل هو لكون أن حكام مصر وبر الشام في القرن الحادي عشر والثاني عشر أيضاً لم يكونوا من الأتراك وإنما كانت الخلفاء العبيديون الفواطم هم الذين يحكمون هذه البلاد وأما الأتراك الأيوبيّة الكرديّة فلم تملكها إلا منذ ظهور السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٦٧ للهجرة سنة ١١٧١م وأول تجريدة من هذه الحروب كانت في سنة ١٠٩٦م على ما قد ذكرنا فيكون ذلك في أيام خلافة المستعلي بالله أبي القاسم أحمد ولد المستنصر العلوي العبيدي فلامدخل للأتراك في أسباب هذه الحروب وينبغي أن تكون الشكوى من العلويين لأم الأتراك

وقال العلامة خير الله أفندي المقدم ذكره ما ملخصه مترجماً أن سبب هذه الحروب هو عدم امتلاك المسيحيين في ذلك الوقت الحرية الكاملة حسب مرغوبهم عندما كانوا يتوجهون إلى زيارة الأماكن المباركة المخصصة بهم في الأراضي المقدسة وزاد عليهم أيضاً الأعمال الغير لائقة التي جرت بأمر الخلفاء الناطقين كهدم كنيسة القيامة وغيرها من باقي الأماكن الشهيرة المعهورة وقال ابن خلكان أن الذي أمر بهدم كنيسة القيامة وكنايس النصارى بمصر هو الحاكم بأمر الله العبيدي وكان ذلك في سنة ٤٠٨ للهجرة سنة (١٠١٧م)

وعلى رواية أخرى ذكرها أيضاً خير الله أفندي المشار إليه أن سبب تلك الحروب كان الانفصال الذي وقع بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية فكان قصد أهالي أوروبا بفتحهم للأراضي المقدسة أن يبطلوا حقوق

أكليروس الكنيسة الشرقية في ميزات تلك الامكنة المباركة ويتداخلوا هم بها ولذلك لم تكن تساعد نصارى الشرق هؤلاء الحربيين الصليبيين عندما هجموا على الاراضي المذكورة فصار ذلك داعياً الى النور العظيم بين الكنيستين فان هذه الاراضي طالما هي في يد المسلمين تبقى حقوق ميراثها محفوظة الى الكنيسة الشرقية اعترافاً الى العمة المعطاة منهم الى صفرونيوس بطريرك اورشليم ولذلك توجه هؤلاء الحربيون الى القسطنطينية واستولوا عليها مع انها كانت وقتئذ تحت امبراطورية مسيحية ولم يكن يقصد نهب الحارة التي كانت مخصوصة بمسكن المسلمين فيها كما زعموا بل يقصد الانتقام من الكنيسة الشرقية ومن ثم استولى عليها عدة قياصرة لاتينيين نحو نصف قرن من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٥٧ م تحت سلطنة بودواين كوتنة اقليم فلاندره وذريرته ونهبوا كنيسة القديسة صوفيا (آيا صوفيا) ونقلوا زينتها وكل ما وجدوه من الآثار والتحف القديمة الى مدينة البندقية

ولترك البحث في الاسباب اذ انها على اية صورة كانت نتج شيئاً واحداً وهو اغارة اهالي اوربا على هذه البلاد وقد ابتدأت هذه الحركة براهب يقال له بطرس اريطة ومعنى اريطة العابد الزاهد فكان يطوف اقاليم بلاد اوربا ويده صورة المسيح مصلوباً ليهيج الملوك والرعايا على الشروع في حرب مقدسة حتى ان مجمع بايزنسة الذي كان يحضره اكثر من ٣٠٠ الف شخص قضى ان مقصد هذا الراهب كان الهاماً الهياً

ثم ان كلام موافق ذلك العصر يقضي ان عدد من حل علامة الصليب واستعد له الغزوة كان ٦ ملايين من المحاربيين وبسبب هذه العلامة سميت هذه الحرب بحرب الصليبيين ومن بعد ما حدث عند اهالي اوربا العلامات التي يتخذونها الآن للرتب والشرف ولما رأيت اميرة يقال لها كومينية هذا الاستعداد العظيم قالت يظهر ان اوربا انتزعت من مواطنها لكي تنزل بثقلها على اسيا

واستمرت هذه الحروب زماناً طويلاً من سنة ١٠٩٦ الى سنة ١٢٧٠م حتى
سئم منها وصارت ذميمة ورجعت بقايا هذه الجيوش الى مواطنها الاصلية بلا
طائل بعد ان سفكت فيها دماء لا تحصى ابادت عدة لملايين من الرجال
وكانت تعزية الذين رجعوا وقتئذٍ سالمين الى اوطانهم هي ما استنصحوه
برجعتهم الى اوربوا من الآثار العتيبة التي اخذوها من اورشليم مثل قطع اخشاب
زعموا انها من صليب المسيح بعينه وثياب زعموا انها ثيابه والآلات التي تالم بها
وذرة من الخبث الذي رآه المجوس في المشرق ومقدار من صوت الاجراس التي في
اورشليم وقطعة من السلم السماوية التي رآها يعقوب في حلمه وعين المنخس الذي
أعطى الى بولس الرسول في جسده وآمن العامة هولاء الخداعين وطفقوا بزورون
الهايكل التي وضعوا فيها هذه الذخائر كما كانوا بزورون بيت مريم العذراء الذي
بزعمون انه انتقل بعينه بعد استيلاء المسلمين على اورشليم في الفتح الاول طائراً
في الجوّ من مدينة الناصرة الى مدينة لورنو في ايطاليا وكذلك الحمار المقدس
الذي ركبهُ المسيح وهو نازل الى اورشليم فانه ابي بعد ذلك ان يقيم في اورشليم
فقام وقطع البحر على وجه الماء بعد ان زار قبرص وكريد ومالطة وسبيليا
وحلّ اخيراً في فيرونا وبقي جسده محفوظاً في تلك المدينة على نوعٍ عجيب
وفيرونا اسم مدينة من اقليم لومبارديا في ايطاليا ايضاً

ولكنكف الآن بما ذكرناه ما استنصحه هولاء الكرييون من مثل هذه الذخائر
الهلزية ونشرع في البحث عما اكتسبوه من الفوائد الحقيقية بهذه الغزوات التي هم
انفسهم الآن يعدونها من الجنون البشري وبها ينتهي الفصل الثاني من القسم
الثاني من اقسام التاريخ ويتدي بالفصل الثالث الذي هو نهاية القرون
الوسطى

الفصل السابع

في حالة العلوم والمعارف منذ اشهر الحروب الصليبية اعني من سنة
١١٠٠م الى نهاية القرن الرابع عشر

لا يخفى بان الغزوات الصليبية المذكورة كانت اول حادثة اخرجت
اوروبا من بجمار الغفلة التي كانت غارقة فيها مدة احقاب طويلة لانها حملت
اهاليها على بعض تغييرات في حكوماتهم واخلاقهم وذلك عندما مروا في جهة
بلاد القدس باراض نضرة اكثر من اراضهم وبدول متمدنة اكثر من تمدن
دولهم وكانوا يجتمعون في مبدأ امرهم في ايطاليا وكانت مدينة بيزا والبندقية
وجنوبزة ومدن اخرى منها شرعت تجتهد في التجارة واشتغلت بالتأديب
ثم لما توجه هولاء المحربيون الى مدينة القسطنطينية كانت الدولة اليونانية
الشرقية بتامها خالية من الميل الى الحرب والجهاد مدة احقاب طويلة وكان
جور المحكام قد سحق من تلك الدولة جميع الفضائل العمومية ولكن مدينة
القسطنطينية التي هي دار ملكتها لم تغربها الممل الخشنية كما خربت غيرها
فكانت اعظم مدن اوروبا وباقي فيها بعض اشيا من التمدن وحسن التربية
القديمة وكانت قوتها البحرية عظيمة وكانت مزينة بالمعامل المعتبرة وهي
وحدها مخزن بضائع بلاد اوروبا الآتية من بلاد الهند وكانت فيها منابع الغنى
التي كانت سبباً في ميل اهلبا الى الرينة والعلوم والاشياء الفاخرة ولذلك
تعجب المورخون اللاتينيون غاية العجب عندما نظروا امبراطورية المشرق
وشرورها وظرفها وبجرد ما نظر احدهم الذي هو المعلم فولكود وشرتروس الى

تلك العاصمة صاح إذ تعجب من منظرها قائلاً بالها من مدينةٍ ظريفة واسعة وما أكثر ديورتها وقصورها البديعة البناء وما أكثر ما يرى فيها من الورش (المعامل) العجيبة وما كنت أتوهم بأنه يكثر بها بكل أنواع الألبان والنفائس من ذهب وفضة واقشة متنوعة كيف لا وقد شاهدت ميناها يأتي إليها في كل ساعة سفن موسوقة من جميع الأشياء اللازمة لاستعمال الناس وكذلك غلبوم مطران مدينة صور وصف في عدة مواطن بهاء ديوان القسطنطينية وعظمة وذكر ان ما كان يراه أهل المغرب في تلك المدينة كان يحل عن ان تحيط به عقولهم وبنيامين العبراني رجل من مدينة تودلة باقليم نوار وكان مبدأ رحلته في سنة ١١٧٢م وصف هذه المدينة بعبارات تدل على غاية التعجب ومثله المؤلف برجرون في رحلته في القرن الثاني عشر والثالث عشر وما بعدها وتكلم الراهب غونثير الفرنساوي في تاريخ الله في فتح هذه المدينة بالجيوش الصليبية في القرن الثالث عشر على عظم تلك المدينة وبالغ فيها كغيره وهكذا جرفروا دوويل هردوان من الاشراف الممتازين المترفين وقتئذ في بلاد المغرب ذكر عبارة في هذا المعنى وبالغ في التعجب الذي ادهش بعض عساكره الذين لم يروا مدينة القسطنطينية الا تلك المرة معه فقال يعسر على هؤلاء العساكر ان يصدقوا بأنه يوجد في الدنيا بتمامها مدينة ظريفة غنية مثل هذه المدينة حتى نظروا الى اسوارها الكبيرة وحصونها المشيدة العالية وقصورها البهية اللطيفة وكناستها النفيسة المنيفة فكبر ذلك في اعينهم بحيث لو لم يروها حسياً لم يتأت لهم ان يتصوروها بمجرد وصف الواصف

وكانوا قبل ذلك وجدوا في اسيا ايضاً اثار العلوم والفنون التي كان اعان على تحصيلها في بلاد الاسلام الخلفاء العباسيون واكتسبوا من اخلاق الملك صلاح الدين الايوبي وغيره من امراء المسلمين ما اكتسبوه فلم يمكنهم ان يجوبوا كل هذه البلاد من غير ان يكتسبوا من علومها ومعارفها فلذا اتسعت اطاعتهم وضعفت اوهاهم وتصورت اذهانهم تصورات نافعة وتؤكدوا ان ما كانوا عليه

من الاخلاق هو خشني بالنسبة لاخلاق الشرقيين وكانت هذه التأثيرات قوية جداً لم تخرج من حافظتهم حين رجوعهم الى اوطانهم وكان بين اهل المشرق والمغرب تجارة دائمة وكانت اخلاط العساكر المجموعة من الجهات المختلفة ترجع الى محلاتها مستصعبة للعارات التي اكتسبتها في مدة طويلة من الاراضي الغربية فبعد زمن قليل من الشروع في المحاربات الصليبية ظهرت تحسينات كثيرة في دواوين اوروبا وزينات جميلة في المحافل العامة والجامع المدنية وترفهات جليلة في الاعياد والمواسم وصارت حكاية الحوادث محبوبة لديهم واتسعت دائرتها وانتشرت في جميع بلاد اوروبا شيئاً فشيئاً

وحسبنا ان نورد قياساً لذلك من تلك التحسينات ما جرى في فرانسوا وحدها فانها منذ اكتسبت الحرية^(١) على ما يأتي اسس فيها الملك لويس السابع الذي تولى حكومتها في سنة ١١٣٧م المدارس الجديدة الآتية تفاصيلها وظهرت الشعراء في الاقاليم الجنوبية منها وفي زمن فيليب الثاني الذي تولى المملكة سنة ١١٨٠م بنيت اسوار باريس وتباطت اسواقها وبني فيها اسواق جديدة وعدة كنائس ودفترخانه لاجل وضع دفاتر المملكة وكان هذا الملك براعي دواوين العلوم وينعم عليها بزايا عظيمة وبني مينا باريس وصير بذلك تجارتها ذات مزية مستمرة واحداث عساكر الورديان المسمى بلغتهم ريبود وهو اول خفي احاط بملك فرانسوا ليخفره

(١) ان لفظة الحرية يُطلق في عرف اهالي اوروبا بازاء معينين احدها بسمى الحرية الشخصية وهو اطلاق تصرف الانسان في ذاته وكسبه مع امنه على نفسه واله وعرضه ومساواته لابناء جنسه لدى الحاكم بحيث ان الانسان هضيمة (يعني مسوداً) في ذاته ولا في سائر حقوقه ولا يحكم عليه بشي لا تقتضيه قوانين البلاد المتفرقة لدى المجالس وبالمجمل فان القوانين تفيد الرعاة كما تفيد الرعية والحرية بهذا المعنى موجودة الآن في جميع الدول الاوربية الا في البلاد التي كان يحكمها سابقا الباباوات والدولة المسكووية لانها مستبدتان وهما وان كانتا ذاتي احكام مفررة الا انها غير كافية لحفظ حقوق الامة لان نفوذها موقوف على ارادة الملك اما المعنى الثاني فهو الحرية السياسية وهي طلب الرعايا التداخل في السياسات الملكية والمباينات في ما هو الاصلح للمملكة

وفي القرن الثالث عشر اوقف الملك لويس الثامن المتولي عليها في سنة ١٢٢٢م اوقافاً على ٢٠٠٠ مرستان معدة للمصايين بداء الجذام الذي كان معتريه ومات به وألف الملك سنت لويس الذي تولى سنة ١٢٢٦م قوانين نهى فيها عن الحروب الداخلية الخصوصية وعن فمثل الدعاوي بالمقاتلات الشرعية إلا في بعض صور استثنائها وفرق بين الوظائف السياسية والقضائية واحداث للمحاكم الملكية عدة ترتيبات حسنة وشرع للتجارة قوانين نجلها وأسس المرسان المسمى كاتزوت ماوي للبحريين

وفي القرن الرابع عشر حرمت النساء من لبس التاج الملوكي بفرانسا في زمن الملك فيليس الخامس الذي تولى المملكة سنة ١٢١٦ استناداً على القانون السالي مع ان هذا القانون لم ينفوه بشي من ذلك على ما تقدم في الفصل الرابع من هذا البحث الذي نحن بصدده وإنما سبب ذلك على ما قاله بعض المؤلفين هو سلطة النساء على قلوب الرجال فاذا تولين المناصب لعين بالرجال كما يجيبن وفي زمن الملك كرلوس لوبيل اي الظريف الذي جلس على التخت في سنة ١٢٢٢م كانت مملكة فرانسا اجنبية عن العلوم والمعارف والفنون التي كانت ابتدأت وقتئذ ان تزهر وتزهو ببلاد ايطاليا لكن مع ذلك استدلوا على ان الاداب والفنون شرعت تزهر بجنوب فرانسا بواسطة المدرسة المخترعة التي ترتبت للالعباب بمدينة طولوزة وفي زمن الملك كرلوس الخامس الذي تولى سنة ١٢٦٤م ترتب علم الجبرية وبذلك انتصر على الانكليز وتوسعت التجارة وترتبت قوانين عظيمة وحى هذا الملك العلوم والفنون والاداب حيث أسس بدار حكومة المدينة مكتبة جلب اليها بعض مجلدات كان جمعها ابوه وزاد فيها حتى بلغت ٢٠٠ مجلد واسس مدرسة ومرصد للكواكب للعالم المسمى جبرويس وسوف يأتي ذكره الذي كانت انشط علماء الفلك في العلم الكاذب الذي كان يعتقد هذا الملك كغيره من الملوك في ذلك العصر وكان يقول لا اري ان الملوك اسعد من غيرهم إلا بما عندهم من القوة والمفخرة على فعل الخيرات

ويتضح ما تقدم بان الحرية التي ذكرناها كانت هي اول تاثير هذه الحرية
في الامن على الاملاك وابطلت المشاجرات والشور الخصوصية وشرعت ادارة
العدل في ان تاخذ ظورة مستحسنة ليس في فرانس فقط بل في جميع مالك
اوروبا الآتي ذكرها .

وما ذاك الا لان الحكومة السيادة الاتزامية كانت قد استخالت الى الظلم
والجور فان الاشراف استعبدوا الرعايا فكان لا يمكنهم ان يتصرفوا في منافع
صنائعهم لا بالوصية ولا بغيرها مدة حياتهم ولا ان يعينوا اوصياء لصغار اولادهم
ولا يتزوجوا الا بعد شراء الاذن من ملزمهم ولا يمكنهم ان يتعموا صلحا في فصل
الدعاوي ما لم يعطوا الحاكم محمول الدعوى وكان هناك جملة قوانين تمنع
تقدم الصنائع عندهم لكن لما شرعت مدن ايطاليا في الاثبات الى التجارة
وفهمت بعض صناعات نافعة خطر بياها ان تخرج من تحت ذل المتزمين
وان ترتب لنفسها حكومة مؤسسة على الحرية والامن على الاملاك ومنوية للفنون
والصنائع ثم بمجرد وقوع ذلك في ايطاليا شرع هذا الامر بالدخول الى فرانس
واجتهد ملكها لويس اوغروس (ابي السمين) الذي تولى المملكة سنة ١٠٨٠ م
في عنق الاهالي من ظلم المتزمين وابطال جميع علامات الاسترقاق وفي دون
قرنين بطل الرق في اغلب قرى فرانس التي كانت محرومة الى ذلك الوقت
من الحرية والحكومة الشرعية والخصائص وهكذا ايضا شرعت وقتئذ مدن
المانيا العظيمة في كونها تنسج على منوال فرانس فانتشرت هذه الطريقة حالا في
اوروبا ودخلت جميع بلاد النمسا واسبانيا والانكلترا وايوسيا وسائر الدول
التي كانت حكومتها الاتزامية وصارت المدن منقسمة الى عدة جمهوريات صغيرة
محكومة بالفوانين المعروفة عند الناس والمسوية بينهم ونشأ من ذلك ضعف
شوكة المتزمين ولا سيما بواسطة ذب الملوكة عن خصوصيات الاهالي ضد
المتزمين فتوت شوكة الملوكة بيل الاهالي لهم واعانتهم لهم في الاموال ايضا ومن
ثم اخذ ضبط وربط الحكومة في التكامل كلما ازداد عمران المدن بالاهالي

وكثرت بينهم المعاشرات والمخالطات حتى آل الامر الى ترتيب قوانين جديدة جرى العمل بها مع التدقيق والمواظبة

وكانت جزيرة انكلترا اول مملكة جاء من قراها وكلا رعايا الامم الذين دخلوا في المشورة العمومية الاهلية سنة ١٢٦٥م وكذلك فيليبس الظريف ملك فرانسوا الذي تولى المملكة سنة ١٢٨٥ ادخل في الذبوان المسي مشورة العموم الاهلية وكلاء المدن التي كانت قد ترتيبت جمعيات مدن حرّة وكذلك المانيا جمعيات وكلاء المدن مساوين لعضاء ارباب ديبوان الجرمانيين ولما عظم اعتبار وكلاء المدن ونفذت كلمتهم صارت المساواة وحسن الترتيب والتمنع العمومي وابطال الظلم مقاصد عمومية ومطعمًا لانظار جميع الناس ودخل ذلك في اقرب وقت في قوانين الشعب الافرنجية واحكامها

ولما كثرا الاعتناق في سنة ١٢١٥م وامند في فرانسوا وايطاليا ومانيا وازدادت الرغبة في الحرية ببلاد الانكليز حتى صار اسم الاسترناق الشخصي نسياً منسياً كثرت الزروعات بما ان الزارع صار يزرعها لفسه وليس لمنفعة غيره

ثم جعلوا وسائط الانظام والمساواة والقوة في تدبير فصل الخصومات واسسوا لاجل توفية هذا الامر قوانين ترجع الى ٢ وسائط اصالية وهي

(١) ابطال المحقوق الخشنية التي كانت الاحاد تزعم استحقاقها وهي محاربة بعضهم بعضاً

(٢) ابطال القتال الشرعي لفصل الخصومات والامتحانات التي يسهونها قضاء الله

(٣) اقامة الدعاوي في محاكم الملوك بعد فصلها في محاكم المتزعمين لكن مع كل ذلك كانت طريقة المقاتلة الشرعية وان اخذت في التناقص على التدرج وصارت قليلة الاستعمال في اغلب البلاد يوجد منها بقايا الى القرن السادس عشر حسبما ذكر ذلك في توارنج فرانسوا انكلترا فان المؤلف موريس

ذكر محاربة شرعية وقعت بمحضرة دوك بريمانيا سنة ١٢٨٥ م بين روبرند وبومنوار وبين بطرس دوتور نومين وكان بومنوار اتهم تورنومين بانه قتل اخاه فبارزا بعضهما وهزم بومنوار خصمه تورنومين فثبت على تورنومين القتل وحكم عليه شرعاً بالشنق في النيدان ولم يعف عنه من ذلك الا كرم خصمه بومنوار لكونه اسقط حقه وعفا عنه وكذلك في سنة ٥٢٢ م اذن الامبراطور شارلمان بمحاربة شرعية في اسبانيا ثم ان اخر واقعة حصلت في فرانس من المحاربات الشرعية هي المحاربة الشهيرة التي حصلت في سنة ٥٤٧ م بين جرناك وكستنبيرة وفي سنة ٥٧١ م اذن في انكلترة بمحاربة شرعية ووكل بملاحظتها قضاة محكمة الخاصات العمومية وكذلك في سنة ١٦٢١ م اذن في انكلترة ايضاً بمحاربة شرعية توكل بملاحظتها قائد جيوش انكلترة ومارشالها الاكبر وبعد ذلك بسبع سنين حصل فيها محاربة شرعية ايضاً

وكان لما افتتح الملك لوئار بوس الثاني آملني من بلاد ايطاليا في سنة ١١٢٧ م عشر اتفاقاً فيها على نسخة من مجموع كتب قوانين بوسننيانوس التي سبقت الاشارة اليها في الفصل الخامس من البحث الاول وكانت هذه القوانين مجهولة منذ اجيال كثيرة فاتي بها الملك الى مدينة بيزا فتقدمت حيث ندر حالة الجمعية السياسية بعض تقدمات عظيمة جداً والتجارب التي حصلت في القرون العديدة وسعت عقول الناس في شان هذه التقدمات فصاروا يتعجبون جداً حيث اطاعوا على هذا المذهب القانوني الذي عجزت اسلافهم عن ترتيب مثله ومع انه لم يكن لهم طاقة على ادراك حلوة تاليف الاداب وبلاغتها ومعرفة معانيها كانت لهم معرفة كافية في ان يحكموا بفضل هذا المذهب القانوني الذي كان ممنوياً على جميع الاحكام اللازمة لوقائع الناس على اختلاف احوالهم واعمارهم مع العدل والاصابة والتدقيق ثم بعد ظهور هذا الكتاب القانوني بسنوات قلائل ترتب في اغلب ممالك اوربا مدرعون للقانون التمدني وامروا بقراءته في المحافل العامة

وقبلي ان ينتهي القرن الثاني عشر صار القانون الالتزامي مذهباً منتظماً وصار كتاب دستور القوانين متسعاً ذا شكل حسن الترتيب لتسهل مراجعته وقد تلقى بعض بلاد أوروبا تلك الشرائع الرومانية بالقبول ليستعملوها بدلاً عن الشرائع المدنية وجميع الاحوال التي لم يقض فيها بهذه الشرائع كان يحكم فيها على موجب اصول تلك القوانين الرومانية وكان بعض الامم يزجون الفقه الروماني والقوانين السياسية بقوانين البلاد وكان كل منها مساعداً ايضاً لقوانين البلاد على تكميل تشريع الشرائع وترتيب القوانين والاحكام

وفي سنة ١١٤٧ م اخذ المعلم داكريوس في تدريس الشرائع المدنية بمدينة اوكسفورد وفي سنة ١١٥٠ م ظهر فقيهان بمدينة ميلان كتباً قوانين الزامية على نسق الشرائع الرومانية وفي هذه السنة صحح المؤلف كراتيان او هو غراتيانوس قانون الشرائع الاكثروسية الذي كان ترتب في اورشليم سنة ١٠٢٩ م واضاف اليه زيادات كثيرة وذلك لان الاحبار الرومانيين لما رأوا الشرائع المدنية صارت بين العلوم التي تدرس في المدارس احسنها كذلك ادراج القوانين الاكثروسية بينها ضرورياً وكان غراتيانوس المذكور من الرهبان البندكتيين فجمع من كتابات العلماء الاولين ورسائل بعض الباباوات وتحديدات بعض الجامع ما اضافة الى ذلك القانون الى ان صار ملخص ناموس قانوني يليق بتعليم شبان المدارس فصر بوجداً بوجينس الثالث بابا رومية وقبلة علماء بولونيا وادرجوه حالاً في التعليم وتبعهم في ذلك اولاً مدرسة باريس الكلية ثم باقي المدارس الاخر ولما كانت هذه القوانين تقوي سلطان الباباوات وتسنده حازت اعتباراً زائداً الى يومنا هذا مع ما فيها من السقطات العديدة والغلط البين

وفي سنة ١١٨١ م شرع المعلم غالنويل رئيس المحاكم في انكثرة بتأليف قانونه وهو اول من شرع بترتيب شرائع معينة في بلاد أوروبا وبذلك ظهر في بلاد ايقوسيا قانون جديد ينسب الى داود الاول وهو على نسق تأليف غالنويل ذكر فيه ان بطرس دوفوتين الذي هو اول من شرع بعمل قانون

من هذا القبيل ألف قانوناً جامعاً لعوائد بلاد ورمندواس في أيام حكم الملك لويس التاسع المعروف بسنت لويس وأوله من سنة ١٢٢٦ م وفي هذا الزمن ظهر بومنونار الذي ضمن كتابه عوائد لويس ثم نشرت قوانين الملك وكانت مبينة للعوائد التي كانت في بلاد الحفالك (الحقول) الملكية

وبجرد ما عرف الناس أهمية تسطير الشرائع وتقييدها بالكتابة صارت عادة جميع الناس تحرير كل عادة حدثت وتسطير كل شريعة ظهرت وفي سنة ١٤٥٢ م أمر الملك كراوس السابع ملك فرنسا بجمع هذه الشرائع التي أوجبتها العادة في كل إقليم من أقاليم فرنسا ثم جدد هذا الأمر لويس الحادي عشر الذي تولى المملكة سنة ١٤٦١ م

وكانوا منذ تحرروا من عبودية الملتزمين تركوا ما كانوا عليه من الكسل والبطالة وازدادت رغبتهم في طلب العلوم والصنائع واهتموا بشان التجارة واخذوا في اظهار رونقها وبالجحمة ظهر في تلك البلاد التي مكثت مدة طويلة محالاً للفقر والظلم الغنى والاستقلال وجرت ثروتهم الى التجمل والرفاهة اللذين يتبعهما الزينة عادة ومع ان هذه الزينة كانت غير ما لوفد للذوق تقع منها كثير من الاداب والظرف في اخلاقهم واحوالهم كما يستبين ذلك من الابحاث الآتية

العلوم

لا يخفى بانه لما كانت الافرنج في القرن الحادي عشر لازالوا يتشدقون بالشعر ونباحثون في ما فوق الطبيعيات وبعض الامور النظرية الصعبة المسائل ما كان لازال باقياً عندهم من اثار المعارف التي كانوا تعاطوها قبلاً

وهي وان كانت غير نافعة في شيء ولا مصيبة كما يستبين ما يأتي في الكلام على كل منها بفردده الا انها كانت تحث العقول على الاجتهاد وتزيد رغبة لكونها جديدة وبسبب غزارتها وجراتها ولذلك كانت للناس تعني كثيرا بزاولتها فلم يتفق اصلاً في العصر المنورة بمصايح العلوم ان الفلسفة الصحيحة المقبولة اعني بزاولتها ومارسيتها اكثر من هذا وذلك انه فتح حينئذ في جميع امهات الكنائس واغلب الديورة مكاتب على نسق المكاتب التي كان انشاها كرلوس الاكبر على ما سميت الاشارة اليه ثم منذ القرن الثاني عشر تجددت ايضاً مدارس عظيمة وبجاس لكليات العلوم فتخرج منها جمعيات علماء رخص لها في انه لا يجري عليها من الاحكام الا ما شرعته بنفسها ورخص لها ايضاً ان تحكم اربابها بافتاء مخصوص بهم متسع جداً وانعم على المدرسين والطلبة بحقوق ومزايا مهمة ولاجل انخاف كل على حسب ما ياتي به ومكافئته واخترعوا القاباً تليق بطائفة ارباب العلوم والفنون والمعارف والحرف وحيث كان العلم سلماً لعلو الدرجات والغنى ذهب الى مجامع العلم وهذه المدارس عموماً لا يخصص من الطلبة كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية

المدارس

قال بعض المؤلفين انه في جانب عظيم من العالم الغربي صار اتباعه بغيره خارقة العادة لطلب العلم وثقيف كل فرع منه منذ القرن الثاني عشر فامده بسلطانهم وسخائهم بعض الاحبار الاعظمين والملوك والامراء الذين رأوا منفعة العلم في تحسين حال الجمهور وتوطيده فانتظم جمعيات من العلماء في اماكن كثيرة لتعليم العلوم المتنوعة من العلوم البشرية وبما ان الشبان الثماليهم

افواجا افواجا يطلبون العلم نشأت شيئا فشيئا المدارس العليا التي سميت في
الجيل الثاني مدارس كلية وفاقت باريس كل مدن اوروبا في عدد علمائها
وفي مدارسها المتنوعة كما في كثرة تلاميذها ففي نحو نصف القرن الثاني عشر
المذكور انشئت مدرسة عليية تشبه اعظم مدارسنا (يعني مدارس القرن التاسع
عشر) غير انها كانت حينئذ غير كاملة وبلا ترتيب الا ان الوقت حسنها
ونظما شيئا فشيئا وكلها وبالقرب من هذا الوقت ايضا تأسست مدرسة للعلوم
في انجبرهمة واعلنا الاسقف اولجير وكان لعلم النقه في هذه المدرسة الرتبة الاولى
وكانت مدرسة شهيرة في مُنتدائر لتعليم الشريعة المدنية والطب ومدرسة بولونيا
في ايطاليا التي انشئت قبل هذا القرن قد حصلت الان على شهرة عظيمة
فالنجا اليها على الاخص طلبة الشريعة الرومانية والمدنية والكناسية ولا سيما
بعد ان جدد تشيبتها ومنحها امتيازات جديدة الملك لوثراريوس الثاني وكذلك
مدرسة سالرنو الطيبة التي كانت قبل الآن مشهورة جدا في هذه البلاد دخلها
في هذا القرن عدد وافر من الطلبة وبينما كانت تشاد المدارس العديدة في اوروبا
سن البابا اسكندر الثالث قانونا خصوصا بجمع عتده في سنة ١١٧٩ م على
ان تقام المدارس في كل مكان ويتجدد بناء ما كان موجودا من ذي قبل في
الاديرة والكنائس اذ ان البعض منها كان اما اندرس او انحط بتغافل الاساقفة
والرهبان غير ان ازدياد المدارس العالية التي كانت تتجدد وشهرتها لم يتركها
مزية لهذا القانون حيث ان الاكثرين كانوا يتزاحمون في الدخول اليها حتى
آل الامر اخيرا الى ان سقطت مدارس الرهبان والكنائس شيئا فشيئا وتلاشت
ومن الفوائد التي نتجت عن هذه الجمعيات الكثيرة براعتها لوس امتداد
العلوم وانتشارها فقط بل وتقسيم فروعها نفسيا جديدا ايضا لان كل العلم كان
مختصا الى ذلك الوقت في ما يدعونه بالعلوم السبعة التي سبق تفصيلها في
الفصل الرابع من هذا البحث وكان ثلاثة منها وهي النحو والبيان والمنطق تسمى
بالثلاثية واغلب الطلبة يكتفون بتحصيلها واما الاربعة الاخر المسماة بالرباعية

وهي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك فلا يرتقي اليها الا من اراد ان يحسب
 اول عالمٍ قاضيف اليها في هذه المدارس علم اللغات التي لم يرغب فيها الا القليلون
 وعلم اللاهوت (مغير العلم القديم البسيط العديم النظام والقوانين المثبت فقط
 من الكتب المقدسة واقوال الابرار) الفلسفي او البكولاتسيكي اعني المدرسي
 والفقه او الشريعة المدنية الرسمية واخيراً الطب الذي كان يسمى وقتئذ علم
 الدوا وحيث اقيم مدارس خصوصية لهذه العلوم وضعت في جريدة الدروس
 المستحقة لانتباه ذوي العلم فتغير بذلك ترتيب العلوم المألوف ومن ثم دخلت
 العلوم السبعة المذكورة بالترتيب تحت حد الفلسفة واضيف اليها اللاهوت
 والفقه والطب وهكذا هذه العمد الاربعة حسب تسميتهم اياها انتظمت في القرن
 التالي في المدارس الكلية

وقد ذكر المورخون هذه الكوليجيات (اي المدارس الكبرى) والابنورسات
 (وهي الجمعيات) التي فيها مدارس العلوم التي هي من اهم حوادث توارخ
 العلوم الادبية فقال انه كان في مكاتب الدبورة والكاتدرالات يعلمون النحو
 وكان كل مكتب فيه معلم واحد او اثنان لتعليم هذا الفن واما الكوليجيات
 فكانت تشتمل على عدة مدرسين معدين لتعليم كل علم وفن وكان فيها زمن
 كل علم مبيّناً وكانت تعمل بها امتحانات لمعرفة تقدمات الطلبة وكان كل
 من ظهرت نجابته كوفي بالقباب ومراتب وتشرفيات اكدمية اي عليه وفي سنة
 1٢1٥م ابتدأت اوينورسات بلاد اوروبا ان تاخذ اغلب عوائدها وقوانينها
 من اوينورسة باريس وكل ترتوب هذه الاوينورسات في سنة 1٢٢1م واعطي
 اذ ذاك للمدرسين والمعلمين والعلماء مزايا عديدة حتى انه كانت تحصل
 منافسات بين العلماء وبين امراء الكفئالي (١) في شان التصدر وكان يتم الامر

(١) معنى هذه اللفظة فرسان والاصل فيها ان في الحروب الصليبية قام ثلث رتب شهيرة
 حربية كان شغلهم ان يخلو الطرق من اللصوص ويساعدوا الفقراء والمرضى من زوار
 الاماكن المقدسة ويقدموا الخدمة التي تقتضيها مطالب الجمهور فالرتبة الاولى فرسان

غالبًا بترجيع العلماء وترقيتهم الى هذه المرتبة مع انها امانة عظيمة وحكم بان العالم له حق بان يُلقب بامير الكفار لكتور (اي العلمية) ومن كان في درجتها من العلماء يُسمى الكفطليير كترك اي الامير العالم

اما الذين نالوا اعظم الجهد والشهرة بتحزيمهم للعلم في القرن الثالث عشر ودعوا العلماء الى اراضيتهم ونشطوهم بالجوائز والاکرام ونهجو السبيل الى اقامة المدارس العالية المذكورة في سائر الاممكة وانعموا بما ذكر من الامتيازات للشبان طالبي العلم فيها ومنعوا هذه الجمعيات مزايها الجها مبر المدنية وانعموا عليها بتلك الشرائع الخصوصية فهم الملك فر يدريك الثاني الذي كان اشتهاؤه بالعلوم ليس باقل من شهرته في الحمامة بغيره عنها وهو الذي اسس مدرسة نابلي وامر بترجمة مولفات ارستطاليس الى اللغة اللاتينية وجمع كل العلماء الى ديوانه وبرهن بذلك وبغيره ايضا على عظم محبته للعلوم والفونسوس العاشر ملك كسنيل وايون حيث خاد ذكره بجميع الجداول الفلكية ومولفات اخرى غيرها ثم ان هذه العلوم المعروفة وقتئذ لم تكن تحصل باجمعها في تلك المدارس سواء كانت جمهورية او كلية ما اسس في بادوا ومودينا ونابلي وكابو وتولوزة وسالامنكا وليون وكولونيا وغيرها بل يحصل البعض منها فقط او بعض علوم خصوصية انما مدرسة باريس التي فاقت غيرها بعدة امور كما تفوقت ايضا بكثرة الطلبة والمعلمين هي التي كانت اول مدرسة درس فيها كل العلوم والفنون ولذلك صارت اول مدرسة كلية او جامعة كما كانوا يدعونها وقتئذ ثم بعدها

ماري يوحنا الاورشليمي نسبة الى بيت صحة كان في اورشليم على اسم ماري يوحنا المهدان وهم الذين نرحوا اخيرا الى قبرس ثم رودس ثم مالطة والثانية الهيكلية نسبة الى بيت بالقرب من هيكل سليمان في اورشليم واخيرا اغنتت جدا وظهر منها شرور واعمال اوجبت بغضتها فابطلها البابا وجمع فيها بسعي فيليس الرابع ملك فرانس في مبادي القرن الرابع عشر والثالثة الفرسان التوتونيكين لمريم العذراء المباركة في اورشليم ايضا نشأت في سنة ١١٩٠ في حصار عدكا وقيل في اورشليم ثم لما نرحت اخيرا من الاراضي المقدسة سكنت في بروسيا وليفونيا وكورلند وسبها ليا الى ان تلاشت نظير غيرها

نسخ على منوالها مدارس باقي البلاد وكذلك في هذه التي هي ام كل مدارس أوروبا توزع أولاً المعلومون الى اربع مدارس بحسب العلوم التي يعرفونها ومن ثم تسمت هذه المدارس فاكلتز وتعين لكل مدرسة منها رئيس عن رضى من الباقيين لمدة معلومة وكان اسقف باريس هو الرئيس العام لكل المدرسة لكن حيث لم تكن به الكفاية للقيام بكل واجباته أُقيم معه اخيراً رئيس ثان فاسس مدرسة اللاهوت وكان هناك رجل نقي من الاغنياء ذو مكانة عند اويس التاسع ملك فرانسا المعروف بسانت لويس يسمى روبرت سربتي وقف لها اوقافاً في سنة ١٢٥٠م فنسبت هذه المدرسة له وسميت صربونا الى هذا اليوم

وكان لا يستطيع احد من الطلبة ان يدخل احدي المدارس قبل ان يتبرن مدة طويلة تمريناً يسمى التمرين المدرسي ويفحص فحصاً مدققاً عدة سنوات والقصد من هذا الترتيب منع كثرة المعلمين الزائدة وصدّ عديبي المعرفة والاختبار من ان يسطوا على واجباته تقتضي اعظم المواهب وادقها اما الذين يهتمون ما توجبه القوانين ويتقنونها فيدخلون رسمياً في رتبة الاساتيد ويقامون للتعليم ببعض احتفالات جهارية تماثل الاحتفالات المستعملة عند جمعيات الصنائع والحرف غير العلمية وكان الذين ادخلوا هذه العادة اولاً في القرن الماضي فقهاء بولونيا ثم امتدت في هذا القرن وانصلت بلاهوتي باريس اولاً ثم الى اساتيد الطب والعلوم وهذا هو الاصل في ما يسمونه بالدرجات المدرسية التي شذت كثيراً عن وضعها الاصيل كسائر الرسوم البشرية وهي دائماً تاخذ في الاختلاف شيئاً فشيئاً

ومع كل ذلك قد كانت اونيورسة مدينة بولونيا في سنة ١٢٦٢م مشتملة على ١٠ الاف تلميذ مع انه لم يكن في هذه المدرسة الا علم الحقوق بمفرده وفي سنة ١٢٤٠م كان في اونيورسة او كسفورد ٢٠ الفاً من الطلبة ولما اضطربت الآراء في ذلك القرن بمسئلة في اونيورسة باريس اجتمع ١٠ الاف من العلماء في تلك الاونيورسة لاجل حل تلك المسئلة وما ذاك الا لكونه لم يبق في القرن

الرابع عشر المذكور مكان عند الافرنج خالٍ من وسائط تقدم العلوم وثقيف العقل واقبعت مدارس كلية وجامعة في عدة من المدن الباقية ككولونيا واورلانس وكاهور وبيروسيا وفلورنسا وبيزا لتعليم العلوم والفنون وتفرعت كما في ايامنا هذه الى عمد تعليم خصوصية عديدة

اللغات

ومع كل هذا الاجتهاد العظيم والنشاط الكامل لم تنتج التقدّمات المهمة التي كانت تومل منها لكون ان جميع لغات اوربا كانت مدة هذا القرن خشنة مجردة عن النصاحة والبلاغة خالية من اللطف والظرافة وما كان احد تصدى وتقتدر لتكلمها ولا لتعسيبها

وكانت القسوس اعدت اللغة اللاتينية للشرائع والاصول الدينية كلها على ما سبق في الاشارة اليه في الفصل الرابع من هذا البحث وقد قضت المادة التي يوازي حكمها الاحكام الشرعية بان الاداب تكتب وتدرس بهذه اللغة ايضا فترتب على ذلك ان جميع العلوم التي كانت تقرأ في القرن الثاني عشر والثالث عشر صار تعلمها وتعليمها بهذه اللغة وجميع ما الف من الكتب في هذه العلوم كان كذلك بها ظلنا ان الامور الشريفة ان رُقيت او قرئت باللغة الدارجة على السن العامة حصل لها امانة وتلك الاوهام ضاقت دائرة المعارف والعلوم جدا على عوام الناس نظرا لانغلاق ابواب العلم والحكمة عنهم ونحو غارقين في مجور ظلمات الجهل وزد على ذلك ان احسن ما كان يوجد بين نحاة هذه اللغة في تلك المدة يكون فارغا موحشا وما يؤكد هذا الامر هو ان اشهرهم اسكندر دي

فلأدبى احد الرهبان الفرنسي سكانيين الذي كانت تاليفه هي المعتبرة للتعليم في جميع المدارس من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر قد كانت قواعد النحو في كتابه بالابيات المدعوة السبعية الذي الفه في سنة ١٢٤٠ م معقدة بغياوة أكثر من ان يظنها من لم يطلع على ذلك الكتاب

ثم اعنى قليلاً بالعلوم اليونانية رجل فريد في ذكائه يقال له روجرباكن ويوحنا بليس وروبرت كاييتو وقليلون غيرهم اما طلبة اللغة العبرانية واللاهوت فكانوا اقل من ذلك غير ان الماهر ريمند مرتيني مؤلف الكتاب المسي بيوجوفيدي وباكن المذكور وقليلون من سواهم لم يكونوا قاصرين في هذه العلوم وكثيرون من اهالي اسبانيا تعلموا اللغة العربية وادابها ولا سيما الرهبان الدومنيكيون الذين قلدهم ملوك اسبانيا تعليم اليهود والعرب المتوطنين هناك ثم في القرن الرابع عشر امر البابا اكليمندوس الخامس بتعليم اللغة العبرانية وغيرها من اللغات الشرقية في المدارس العامة لكي يوجد اناس فيهم الاهلية للبحث مع اليهود والعرب في رسالهم رعاة الى بلاد المشرق

وكان الذين انتفعوا من هذه المدارس لم ينتفعوا من الاداب النثرية والنظمية بمقدار ما انتفعوا من فروع العلوم الاخرى لان أكثر الشباب كانوا قد اعدوا انفسهم اما للشرائع الدينية واما للشرائع المدنية اللتين فتحنا منهنجا للتقدم والغنى او درسا للفسفة فقط لكونها تعدهم بشهرة الدقة والحذاقة ولذلك اشتكى الباباوات الرومانيون والاساقفة تشكياً بليغاً من اهل العلوم والاداب وحاولوا عيماً ان يحولوا الشباب عن مطالعة الشريعة والفلسفة الى درس العلوم والفنون الدينية غير انه وجد من كتبه القرن الثالث عشر جماعة لا يمكن لعامل ان يستغف بهم

وقد اشرنا في ما تقدم الى ما كان باقياً عند الافرنج من اثار المعارف التي كانت ادخلت في ما بينهم من ذي قبل وان من جعلتها كان نظم الشعر غير انه كان بطريقة رديئة جداً لكونهم منذ تفرغوا للعلوم الادبية والفلسفة تمكنت

منهم من مبدأ الامر القوي التخيلية قبل ان تتمرن قواهم العقلية وتدريب على قواعد العلوم النظرية فكانوا يشغلون بالشيء قبل الفاسفة وكان أسنشاءهم شديداً وتأثيرهم قويا بحيث كانوا يحسنون وصف الاشياء وتخطيطها على وجه بليغ وان لم يكن عندهم من علم الميزان الاشياء يسير فكانوا ينسجون على منوال اوميروس وهربودوس قبل ان يتشبثوا بحكمة تاليس وسقراط ولذلك وان تكن هذه المدارس والمشروعات لم تنفع الاداب الثرية والنظمية على ما تقدم فان هذه الملكة مع انضمامها الى غيرها مما ذكر وعلى الخصوص في ايطاليا التي كانت ملكة الشعر متمكنة بها جدا اوجدت في القرن الرابع عشر رجال من ذوي النهي أسسوا الاداب فيها وهم دنته وبوكسه وبتاركة فان دنته تحرر اللسان الايطالياني وقرره في شبه اراجيز يتغلد ذكرها وبوكسه (وفي بعض المؤلفات بكانشو) وبتاركة سلكا ايضا طريقة في النظم والثر

الفلسفة

اما الذين اجتهدوا في درس الفلسفة رغبة في الانتظام بسلك العلماء على ما تقدم فقد قسموا في منتصف القرن الثاني عشر الفلسفة الى نظرية وعماية وميكانيكية ومنطقية وفهوا بالفاسفة النظرية اللاهوت في الصورة التي يبحث عنها بارشاد العقل اي اللاهوت الطبيعي وايضا العلوم الطبيعية والطب وبالفلسفة العمالية الادبيات والسياسة المالية ونظام المالك نظرا للامور الداخلية والخارجية وبالفلسفة الميكانيكية الصنائع السبعة داخلا فيها سلك الجمار والفلاحة والفنص وقسمها المنطق الى نحو وقياس وقسموا الفياس الى بيان

وبرهان وسفسطة وارادوا بالبرهان العلم الذي يبحث عن النضابا العقلية فقبل هذا التقسيم قبولاً عاماً غير ان البعض ارادوا ان يميزوا الميكانيكيات والنحو عن الفلسفة فقاومهم الاخرون لانهم ارادوا ان يحدوا كل العلم في الفلسفة ومن ثم انشق علماء هذه الفروع العديدة من الفلسفة الى احزاب متنوعة وقع بينهم مخاصمات شديدة فاولاً كانوا يعلمون الفلسفة على ثلاثة انواع وهي (١) الطريقة القديمة البسيطة التي لم تتجاوز تاليف بورفيرى واقيسة ماري او غسطينوس التي اشارت بان داري الحكمة يجب ان يكونوا قلابين لئلا تنفسد الحكمة الالهية بحيل البشر

(٢) الطريقة الارسططالية التي بينت وشرحت كتب ارستطاليس لان ترجمات بعض كتب هذا الفيلسوف الى اللغة اللاتينية كانت وقتئذ في ابادي العلماء غير انها كانت سقيمة وغامضة وملتبسة حتى ان الذين استعملوها في التعليم تهوروا غالباً في مناقضات ومحالات غريبة

(٣) الاسلوب الحر الذي بدأه الناس ان يبحثوا عن الحقائق الغامضة بذكاء عن قولهم مستند بن علي قواعد ارستطاليس المذكور وافلاطون غير ان تابعي هذا الاسلوب مها كان ممدوحاً في حد ذاته اساء استعمال حقائقهم وانعزلوا نفوسهم وتلاميذهم بمسائل وتمييزات باطلة فاختلف اراء الفلاسفة ونازعتهم ونقائضهم جعلت الكثيرين يزدرون بكل نوع من الفلسفة ويودون لو ينفونها من المدارس

ولم يجادل احد باكثر حدة من ذوي البرهان الذين اشغلوا انفسهم في مجرد الكليات وحصرها كل العلم في هذه القضية وشرحوه بطرق متنوعة وكان بينهم في ذلك الوقت حزبان اصليان وهما الحقيقيون والاسميون اللذان سبق الكلام عليهما وكانا كلاهما قد انقسموا الى اقسام مختلفة غير ان الاسميون في هذا القرن كانوا اقل عدداً وسطوة من الحقيقيين ومع ذلك لم يخلوا من المرديدين وأضيف الى هذين الحزبين حزب ثالث وهو حزب الرسميين الذين توسطوا

بين الحزبين المذكورين على انهم لم ينفعوا بشي ولكنهم لم يوضعوا الفضية بل كانوا كأنهم احدثوا امراً للتراخ فقط اما الذين واظبوا على درس الطب والملك والتعليقات وما اشبه ذلك فكانوا يذهبون الى مدارس العرب في اسبانيا وترجموا كتباً كثيرة من العربية الى اللاتينية لان شهرة وصيت العلم العربي مع الغيرة الدينية على دعوة عرب اسبانيا الى المسيحية الجأت كثيرين ان ينصبوا على درس اللغة العربية وعلومها

وكان من جملة الذين ذهبوا الى مدارس العرب المذكورة غرهرد من كريونا الطبيب الفلكي الايطالياني الشهير الذي ذهب الى طوليدو باسبانيا وترجم فيها كتباً كثيرة من العربية الى اللاتينية وبطرس مرمت الراهب الفرنسي الذي ذهب الى اسبانيا وافريقية ليتعلم الجغرافيا ودانيال مرلي اومورلاك الانكليزي الذي كان مغرمًا بالتعليقات وذهب الى طوليدو المذكورة واتى منها بكتب عربية كثيرة الى بلاده وبطرس الموقر رئيس دير كلوني الذي ذهب الى اسبانيا وبعد ان تعلم العربية ترجم القرآن وحياة صاحب الشريعة الاسلامية الى اللاتينية واخبرني كتابه الكلونباني انه وجد على نهر الاير في تلك البلاد روبرت ريتينس الانكليزي وهران من دلمانيا وخالقها يدرسون علم التنجيم هناك

ثم في القرن الثالث عشر خضع كل الذين كانوا يتفلسفون باساليب شتى على ما تقدم من الافرنج لسلطة الفلسفة السكولاستيكية اي فلسفة ارستطاليس ومبادئه وكان البعض من كتب هذا الفيلسوف ولا سيما طبيعياته نقرأ باللاتينية على ما تقدم وتشرح عالمًا للطلبة في باريس لكن لما ظهر بان الميرك ضل في امور كثيرة وخاصة بالذات الالهية بواسطة هذه الكتب امر مجمع سنس بابطالها في سنة ١٢٠٩م ثم في سنة ١٢١٥ أعيد المنطق الارستطاليسي الى باريس ورفضت طبيعياته ومعقلاته فقط واخيرًا امر الملك فريدريك الثاني الذي كان محبًا عظيمًا للعلوم بان يترجم بعض كتب ارسطو وغيره من الفلاسفة

الفدما من اللغة العربية وبعضها من اليونانية الى اللغة اللاتينية اناس ماهرون في هذه اللغات ينتخبون لهذا العمل واستصوب احالة هذا المشروع لمدرسة بولونيا وربما الى غيرها ايضا ومن ثم ازدادت كثيرا سطوة هذا الفيلسوف في جميع مدارس اوروبا وامتدت بواسطة متأخري الافرنج الذين ترجوا بعض كتب كميخائيل سكط وويليس الطرابلسي ووليم فلان وغيرهم انما جميعهم كانوا ناقصين في العلم وجاهلين في هذه اللغات

ولما اعتنى هذه الفلسفة الرهبان المندكيين والدومنيكيين والفرنسيسكانيين وعلموها في المدارس وشرحوها باقلامهم وصل ارستطاليس الى ذرى المجد والمدح لان الرهبان المذكورين هم الذين كانوا منذ ذلك القرن وما بعده في الرتبة الاولى من العلوم الدينية والديوية وتبعهم نحو جميع الذين كانوا يفوقون غيرهم بمعارفهم وكان اول من علق شروحا على مقالات هذا الفيلسوف اسكندر هالسر الانكليزي الفرنسي الملقب بالعلامة السديد في باريس والبرت الكبير الدومنيكي الجرماني استنف رانسون وكان رجلا شديدا الذكا وامام عصره ثم بعدها قام احد تلاميذ البرت المذكور يقال له نوما اكويناس الدومنيكي وزاد مجد ارستطاليس حيث كان يشرح كتبه مشافهة وكتابة وكلف احد اصحابه ان يترجم تلك الكتب ترجمة لاتينية جديدة اصح واضبط من الاولى ونظرا لسطوة هؤلاء الاشخاص وقلبيات غيرهم صار ارستطاليس هو المنشى للفلسفة في اوروبا بالرغم عن مقاومات اللاهوتيين وانكار الباباوات الرومانيين

لكن كان هناك بعض اشخاص في اوروبا من ذوي الحذافة واصحاب العقول السامية يرغبون في توسيع نطاق المعارف وقد ضجروا من طريقة هذه الفلسفة الماخوذة من كتب ارسطو لكونها عنيفة فارغة ومن ثم استحقوا اعظم المدح وهم روجر باكن الراهب الفرنسي الكاني الانكليزي المدعو العلامة الساحر لكونه فاق اهل عصره في الفلسفة والتعليمات والكيميا والميكانيكا وغير ذلك

من انواع العلوم واشتهر باكتشافاته الباهرة وارنلد من فلانورفا الذي يعتقد
الاكثرون بانه فرنساوي والبعض يزعمونه من اسبانيا وقد اشتهر كثيراً في فن
الطب والفلسفة والكيمياء والنظم واللغات وغير ذلك وپطرس دي اينو او
دي ايونو من ايطاليا طبيب بودا الشهير بالموفق لكونه ألف كتاباً ساءً بموفق
الاختلافات بين الفلاسفة والاطباء وكان ذا دقة وتعق في قراءة الفلسفة
والطب والتعليقات والفلك لكن لسوء الحظ كان السدج من القوم بضعونهم
جميعاً في مصاف السخرة والهرطقة جزاء على معارفهم واجتهاداتهم وكاد بان
المذكوران لا يتخلص من الحريق الا بصرفه سنيناً كثيرة في السجن واما الاثنان
الاخران فقد حكم عليهما ارباب التفتيش (السانتوفيش) بعد ان كانا قد توفيا
بانها يستوجبان الحريق

وفي القرن الرابع عشر تعاضم اعتبار الفلسفة الارستطالية المذكورة وافتق
جمهور الفلاسفة العظيم المتكاثرون هذا القرن اكثر من ان بزينة وامرت الملوك
والامراء بترجمة مؤلفات هذا الفيلسوف الى لغات شعوبهم لكي يزداد عدد
طلبة الحكمة وكذلك المنازعات القديمة الكائنة بين الاسميين والمحقيين اضرها
في المدارس وليم اكوم الراهب الفرنسي الكاني الانكليزي تلميذ سكوتوس الكبير
واستاذ جمعية باريس بعد ان كانت خمدت زماناً طويلاً حتى انه لم يعد بعد
ممكناً انهاء هذه المنازعات وكثيرون من الفلاسفة المذكورين قرنوا صناعة
التنجيم والفال بمحوظ الناس ومستقبلهم اذ ان هذين العلمين الكاذبين واعر
بها وقتئذ كل من القوم على اختلاف طبقاتهم

اللاهوت

« ولما كان علم اللاهوت في الكنيسة شرقاً وغرباً تابعاً للفلسفة الارستطالية المذكورة في شرح القضايا الدينية وتعاليمها فكان مدرسوه هذا العلم عند اللاتينيين كثيرين جداً واشهرهم في النباهة يوحنا دوتسكوتوس ودورند من ماري بورسان ووليم اكام ونفر قلائل غيرهم ووجد هناك قوم اخرون عولوا في هذا الموضوع على مجرد الكتاب المقدس والتقليد لكن جمهور المنطقيين العرمرم عليهم وكاد يفهمهم ولأن كانوا يظفرون في بعض تلك المنازعات التي جرت بينهم وبين الحزب الفاسفي وخاصة في المدارس الاعظم شهرة كمدارس باريس واكسفورد ومن ثم انقسمت المدارس اللاهوتية بواسطة نزاع جرى بين يوحنا دوتسكوتوس المذكور وبين الدومنيكيين بسبب طعنه على تعاليم توما اكويناس بدعواه انها غير صحيحة ومن ثم نشأت الشيعتان المشهورتان وهما السكوتوية والثوماوية اللتان لا تزالان الى الآن نشأتان مدارس اللاهوت اللاتينية المذكورة وفي القرن الرابع عشر المذكور ظهرت تعاليم يوحنا وكلف الانكليزي الذي كان استاذ العلوم اللاهوتية في اكسفورد واخيراً سيم كاهناً على اطروث ضاداً بها الفائلين بالفقر الاختياري ففرقه الرهبان باربعة وعشرين اعتراضاً تعين لاجلها مجمعات احدها في لندن والثاني في اكسفورد فكما على ؟ منها بالمرطقة و١٤ بالفلط

وحيث كان انقسم الفقه منذ القرن الثالث عشر الى قسمين احدهما الناموس الكنائسي والثاني المدني وطالبها جم غفير غير انهم شوهوها كليها بما

علقوه عليها من تلك الشروح المعادة التي لا طائل تحتها وكثيرون اخذوا في جمع رسائل الباباوات التحدية المتضمنة جزءاً عظيماً من الناموس الكنائسي وكان اشهرهم في هذا العمل ريمند من بنافورث رئيس الرهبنة الدومنيكية الذي جمع مولفه تحت نظر البابا غريغوريوس التاسع وقسمه الى ٥ كتب ثم امر البابا المشار اليه بان يُضمَّ هذا الى التحديدات الفرانجية وبشرح في كل المدارس ونحو ختام القرن الثالث عشر المذكور امر البابا بونيفاس يوس الثامن بعمل مجموع جديد أُضيف الى الكتب الخمسة المذكورة وسمي كتاب التحديدات السادس قال العلامة روبرتسون المورخ الانكليزي بهرض البحث في احوال اوروبا قبل اشهار المحروب الصليبية ما ملخصه ولما نوطن البربر في البلاد التي افتتحوها انتقلوا الى الدين المسيحي لكن لم يتلقوه كما هو ولم يتسجوا على منوال قواعده بحيث يفتونها على حالها واصلها بل ان عدة من الواثين بانفسهم مزجوا هذا الدين السهل الكثير الفوائد بتدقيقات فلسفية تبيين في زعمهم اسرار هذا الدين وغوامضه وتخلَّ مشكلاتٍ خارجة عن طوق العقل البشري فصارت هذه التدقيقات الفلسفية جزءاً من الدين المسيحي بل صارت كأنها الجزء الاهم ثم بمجرد ما تشوقت النفوس المترفي الى درجة التفكير والتعقل كان اول اطلاعهم على هذه الاشياء فاشتغلوا بها وصارت مطمح نظرهم

و اول ثمرة نتجت عن تدقيق العقول حين اخذها في التقوية ثانياً ببلاد اوروبا هي علم اللاهوت الذي كان يقرأ في المدارس وكان مشحوناً بالاطناب في المناقشات وبذكر الفروق بين امورٍ دقيقة لا طاقة للعقول البشرية على الجولان فيها وليست هذه الحالة وحدها هي السبب في اخلال عقول هؤلاء الناس وسلوكهم سبيل التي حيث اخذوا ثانياً في ممارستها وتمرنهم على هذه الامور التي كانوا قد تركوها مدة احقاب بل هناك اسباب اخر ياتي ذكرها وهي ان اغلب الذين اعانوا على احياء العلوم الادبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر واهتموا به عادة معالمها كانوا قد اكتسبوا المعارف والاصول

الفلسفة إما من اليونانيين الذين كانوا بمملكة الروم في القسطنطينية وإما من
عرب اسبانيا وافريقية ومن المعلوم ان علوم هاتين الامتين اي اليونانيين والعرب
كانت قد فسدت بسبب افراطهم في التدقيقات لان العرب كانوا قد افسدوا
علوم الفلسفة بتدقيقات فاسدة احاطوها بها وإما اليونانيون فكانوا قد جعلوا
علم الالهيات مذهباً مشتقاً على قواعد نظرية تحتاج لغاية الفكر والتدقيق وعلى
مباحث خلافية لا يقف الانسان لها على حد ولا على حقيقة لانه لما كانت العلوم
كاشفة بالكافية في غربي اوروبا ومضيئة بدنة القسطنطينية وغيرها من مدن
الامبراطورية اليونانية تفرغ اليونانيون بسبب دقة عقولهم تفرغاً كلياً الى
المناقشات في الامور الالهية وحذا حذوهم اللاتينيون في ذلك وسائر اهل اوروبا
اكتسبوا من اليونانيين معظم معارفهم وعلومهم وكان اليونانيون وقتئذ منشأ اعداء
مباحث مشكلة اختلف فيها العلماء والفلاسفة ولم تنزل الى الان اشاعة بالهم
ومطحا لا نظارهم وافكارهم

الجغرافية

وكان جهل اعم القرون الوسطى بالجغرافيا ووضع البلدان كبيراً جداً
فكانوا لا يعرفون شيئاً من الممالك والمسالك واقدم خارطة جغرافية توجد في
نسخة من تاريخ القديس دينيس منها يستدل على حالة العلوم الجغرافية في بلاد
اوروبا مدة تلك الاعصر فتري في هذه الخارطة اقسام الارض الثابتة التي كانت
معروفة وقتئذ موضوعة بحيث ان مدينة اورشليم توجد في وسط الكرة واسكندرية
قريبة منها كمدينة الناصرة

وكان لا يوجد في البلاد خانات ولا منازل علمية للمسافرين نظراً

لانتطاع المخالطات والاختذ والعطا بين الامم المختلفة عدة قرون منذ اهلطان
الامم المتبريرة بالملكة الرومانية فقد ذكر بعض المورخين في وصف ما كان
عليه الحال الى ذلك الوقت من انتطاع المخالطات بانه لما اراد بوشارد ان يبني
ديرًا في قرية موديفوس بقرب مدينة باريس ذهب الى احد رؤساء الديورة
الكبار في بورغونيا وترجاه ان يأتي الى ديره هذا برهبان يسكنوه ثم وصف
له ما قاساه بعجيبه اليه من طولة السفر ومشاق الطريق ليستعطفه باجابة
سواله فاعذره الرئيس متعللاً بانه يشق عليه السفر الى اقطار غربية لا يعرفها
من يذهب اليها وكذلك في ابتداء القرن الثاني عشر كان رهبان دير قرية
فريبر في ابرشية سنس لا يعرفون انه يوجد ببلاد الفلانك مدينة تسمى تورفي
وكذلك رهبان المدينة المذكورة يجهلون ايضاً في اي الجهات تكون قرية فريبر
ثم لما احتاج هذان الديران الى معرفة بعضها بعضاً اخذ يبحث كل منهما عن
الاخر حتى انه بعد بحث طويل عرف كل منهما صاحبه واكن بطريق الصدفة
ايضاً

ومع كل ذلك كان ما ذكرناه من التقدّمات باهي عليه سبباً في تغيير
اخلاق الاهالي في أوروبا ورغبة الناس في البحث عن كل شيء وحثهم على
الاشتغال بالحرف والصناعات ايضاً

فوائد التجارة

منه اشهر الحروب الصليبية الى نهاية القرن الخامس عشر

وقد اعانهم على ذلك التجارات التي كانت آخذة وقتها في اسباب التقدم

وهذا بحكم اخلاق اوروبا وادخلت بها الاحكام العظيمة المشتمة على الرافة
بالناس بحسبها تقدم ايضاحه ووجدت بعض مغالطات واخذ وعطا بين تلك
الامم بعد ذلك الانقطاع الذي تقدم ذكره انه ان الرغبة في الفنون ونفيس
محصولات بلاد المشرق كانت لم تنزل باقية الاثر في قلوب الايطاليانيين بسبب
العلاقات والمعاشرات التي كانت بينهم وبين مدينة القسطنطينية وغيرها من
سائر مدن اليونانيين وازدادت بسبب الحروب الصليبية التي لم يترتب عليها
نفع لغير التجارة وان لم يكن هو المقصود لانهم كانوا يمدون هولاء الحربيين
الصليبيين بسفن من سفن النقل وموونات وذخائر حربية واكتسبوا زيادة عما
اخذوه من الاموال الجسيمة مزايا ومواضع تجارية في بلاد الشام فكان لهم في
عكا وصور وطرابلس وغيرها حارات ممتازة لها حكام من اهلها يحكمون فيها
بمقتضى قوانينهم واصولهم وكذلك في القسطنطينية والى الآن يوجد كتب من
القوانين التي اعطيت بها البنادقة واهل بيزن والجنوب الخصائص التجارية في
تلك المحلات الافرنجية المتخذة للتجارة والاقامة في اسيا فيحكمون بموجبها وكانت جميع
بضائعهم سالمة من المكوس ثم لما استولوا على مدينة القسطنطينية نقلوا عدة
فروع مهمة جدا من التجارة مخصوصة بها الى بلاد الطوائف المذكورة ايضا
وزادت رغبتهم هذه لما كشفت عندهم بيت الابرّة بعد الحروب المذكورة بقليل
كما ينضح ذلك مما سوف نذكره حيث صارت بها الملاحة امينة نامية وسهلت
المخالطة بين الامم المتباعدة ففي القرن الثاني عشر والثالث عشر كادت تجارة
اوروبا ان تكون في ايدي الايطاليانيين وكانوا معروفين حينئذ باسم اللبردية
اكثر من اسم الايطاليانيين وصار تجار اللبردية في اقرب زمن هم اهل القوافل
والصنائع والصباف في جميع البر فكان اهل ايطاليا يجلبون من بلاد المشرق
محصولات الهند ورتبوا في بلادهم ما ينبت ثورات وورشاً بدعة الصنع وحصل لهم
تقدم كبير فيها ولا سيما في ورش الحرابراتي كانت مكثت زماناً طويلاً خاصة
بالاقاليم الشرقية في اسيا

وكانت اقمشة الحرير في مدينة رومية غالية جداً ولم يكن هناك إلا اناس قليلون لهم قدرة على شرائها وفي زمن اوريليان او هو افريليانوس القيصر الروماني الذي تولى المملكة سنة ٢٧٠ م كان يُباع رطل الحرير برطل من الذهب ففي سنة ٥٢٢ م حضر الى القسطنطينية راهبان من بلاد الصين واحضرا معها شيئاً من بزر الفزخبا آه في عكازتيها خوفاً من شريرة الصين المانعة من خروج كل شيء مثل هذا من بلادهم على ما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الخامس من البحث الاول فمن انشا الملك بوسنيانوس في بلاد اليونانيين فن تربية دود الفز ومن القسطنطينية نفرق في بلاد كثيرة كغربي اسيا وجنوبي اوروبا وشالي افريقية ثم امريكا ايضاً ومع انه وقتئذ كان يستعمل اكثر مما كان عليه الا انه كان لم ينزل غالباً ففي سنة ١١٣٠ م ارسل روجير الاول ملك جزيرة سيسيليا الى مدينة اثينا واحضر منها عدة صنائعية من صناع الحرير واسكنهم بمدينة بالرمة وقوى هذا الملك صناعة الحرير في مملكته ومنها انتقلت الى اجزاء ايطاليا الاخرى على ما ذكره العلامة روبرتسون نقلاً عن بعض المؤرخين في تاريخ نابلي فانتشرت اقمشة الحرير من ذلك الوقت حتى انه في اثناء القرن الرابع عشر كان يربى في محفل من محافل مدينة جنويزة نحو ١٠٠٠ من اهلها لابسين ثياب الحرير

وفي اثناء القرن الثاني عشر جلب الصليبيون من مدينة طرابلس اسيا بعض اعواد من قصب السكر وزرعت في جزيرة سيسيليا ثم بعد ذلك زرع في الاقاليم الجنوبية من اسبانيا ثم نقل الى الجزائر الخالدات والى جزيرة مادرة ثم الى بلاد امريكا ولم تكن زراعة هذا النوع من النبات معلومة في بلاد الهند الغربية او انها كانت قليلة في القرون الوسطى

وتقدمت شوكة جمهورية البنادقة (اللبردية التي مر ذكرها) بواسطة تجارها ومهارتها البحرية وتفرغ الاشراف بكليتهم الى التجارة والمخدمة في السفن الحربية حتى دخلوا في زمن التجار والقبابدين وزادت ثروة وطنهم بهارتهم في

التجارة والصناعات وصارت جميع شعوب أوروبا تحتاج اليها وتأخذ منها بضائع البلاد الشرقية ومحصلات ما أحدثته من الورش وانفتحة على وجه لم يوجد له نظير في باقي بلاد أوروبا وجمعت مقادير جسيمة من الاموال

وصارت النفود بين ايديهم نوع تجارة يكسبون منها كسباً عظيماً حيث كانوا يرتبون بها بانكاث وصبارف عظيمة الربح واحل لم ذلك رأي معمول به عندهم وهوان التجارة لا تروج الا اذا اعطى المقرض لمقرضه بعض ربح في نظير استعمال دراهم التي اقترضها منه وترتب هذا الامر الآن شرعاً في جميع البلاد التجارية ويسمونه ربح الاموال الشرعي ولما شرعت الفسوس بتحريم الربا استناداً الى عبارات من الكتاب المقدس وسلم في ذلك علماء الكلام السكولاستيكي لانهم كانوا يتبعون اراء ارستطاليس على ما هي عليه بدون فحص صارت تجارة التبردين ممنوعة شرعاً واذا غر على احد عقدًا بمثل الشروط الاولى عوقب فمن ثم صاروا لا يكتفون بالمقدار الذي كانوا ياخذونه وقت ما كان اخذ الهائض ماذوناً به شرعاً بل صاروا اذا قرضوا احداً مقداراً من الاموال يطلبون منه مبلغاً في نظير استعمال المال ومبلغاً اخر في نظير عقوبة الربا لانه ربما غر عليه فلا يسلم من العقوبة

وفي القرن الثالث عشر كان الربح المعتاد ٢٠ في المائة وربما بلغ ٢٠ ايضاً وفي سنة ١٢١١ امر فيليس الرابع ملك فرانسوا ان لا يزيد الربح الشرعي عن ٢٠ على كل مائة وفي ارغوبينا كان اقل من ذلك وفي سنة ١٢٤٢ ام رتب ملكها ياكوس الاول قانوناً جعل فيه على كل مائة ١٨ فقط ومن سنة ١٤٩٠ صار الربح في بايزنسة ٤٠ على كل مائة ولكن الملك شريكان (كرلوس الخامس) جعل ربح المال في جنالكه التي يملكها البلاد الواطية لا يزيد على ١٢ في كل مائة وفي اثناء القرن الثالث عشر اشتغلت عقول ام الشمال ايضاً في شان التجارة والحرف والصناعات فتعاهدت مدينتا هبورغ ولوبيك لدفع صيال الجريين وهم اللصوص في بحر بلطيق لاجل حفظ تجارتها مع سكان البلاد

المجاورة لهذا البحر وحيث حصل على ثمرة جزيلة من ذلك اجتمع عام ١٨٠٠ مدينة من اعظم المدن تحت لواء هذه المعاهدة وفي سنة ١٢٥٩ م تكونت من ذلك المعاهدة الانسيباتيقية العظيمة حتى صار اعظم الملوك يبعثون عن استمالتها والمداومة على المحبة معها والظاهر ان اول منابع غنى المداين الموضوعه على بحر بلطيق هو صيد سمك الهارنك الذي كان يكثر حينئذ على شواطئ اسوج والدانماركة كما يكثر الآن على شواطئ بريتانيا الكبرى

ثم اخذت الغيرة اهل البلاد الواطية ايضاً واشتغلوا مع الجهد والاعتناء التام بتكميل فروع معلمي الصوف والقطن العظمين اللذين اشتهرت بهما هذه البلاد منذ عصر الملك كرلوس الاكبر الذي سبق ذكره في القرن الثامن وانبعت التجارة وتقدمت للغاية حتى صار بها اقليم الفلمنك وما اتصل به من الاقاليم المجاورة له في الغنى اعظم بلاد أوروبا واعمرها واحسنها زراعة

واما في انكلترة فكان تقدم التجارة على غايه من التراخي لانه وقت ما كانت منقسمة بين ٧ ملاوك كانت بريتانيا الكبرى منقسمة الى ممالك كثيرة لا تنقطع الحروب بينها وكانت عرضة لنهب الدانماركيين وغيرهم ولذلك كانت منقسمة في الجهالة والبربر ولا قدرة لها على الاشتغال بالتجارة ولا على غيرها ولما اجتمعت هذه الممالك وصارت واحدة واخذت انكلترة في اصلاح حالها جاءها النور مندبون وافتتحوها وهدموا جميع ما كان أسس فيها وبقيت في حالة الاغناء الى ان صار النور مندبون المتغلبون عليها مع الانكليز كأمة واحدة فسعت حينئذ في اثبات دعوى ملوكها ان لهم حق الملوكية في ملكة فرانسايضاً فعاند هم الدهر وخسروا في حروب مستطيلة بسبب هذا الامر اعقبها حروب اخرى مهولة بين عائلة يورقة الملوكية وعائلة لنكسترة فكانت هذه الامور بانضمامها الى ما كان في القرون الوسطى من الحكومة الانترامية والاخلاق البربرية كافية في تعطيها بالكلية وتراخيها وبطئها ولذلك كان الانكليز من بين شعوب أوروبا هم الذين تاخروا عن اغتنام الفرص وفوائدها التي ابدتها لهم الطبيعة في شان التجارة

وقبل حكومة الملك ايدوارد الثالث الذي تولى المملكة سنة ١٢٢٧م كان صوف انكلترة كله ما عدا شيئاً يسيراً يشتغله الاهاالي جوخاً غليظاً خشبياً يلبسونه يباع لاهل الفلمنك واللونبرديين لانهم كانوا ينسجونه لكن لما رأى هذا الملك حالة الاقاليم اليانعة بثمار التجارة اخذ من ذلك الوقت في تحصيل الوسائط التي بها تقوى الصنائع بين رعاياه الذين كانوا يجهلون وقتئذ ملاية بلادهم لذلك اكثر من غيرها ولا يعرفون منابع الغنى ولا يبحثون عن تقايد الورش التي ترتبت بالبلاد الاجنبية مع ان موادها وآلاتها كانت تخرج من عندهم فاحضر هذا الملك عدة شغالين وصنائعية من اقليم الفلمنك لاجل الاستيطان بمملكته وانشأ قوانين صالحة لتقوية التجارة وضبطها فتجددت في انكلترة بهمة ورش الصوف وتفرغت عقول الرعايا الانكليزية الى ممارسة هذه الفنون التي ارتفقا بها اعلى درجة بين الملل ذات التجارات والصنائع ولكن مضى بعد ان احضر هذا الملك الشغالين المذكورين مدة طويلة قبل ان يصير للانكليز قدرة على اصطناع بعض الجوخ ايباع للغربا وكان الصوف الذي يُنقل من عندهم بجائته الاصلية الى البلاد الاجنبية هو اعظم تجارتهم ولم تجاسر انكلترة على ان تهاجر بنفسها وتشر اعلام سفنها في بحر بلطيق الا في ابتداء القرن الرابع عشر ولم يصرها بعض سفن في البحر المتوسط الا في نصف القرن الخامس عشر وكانت قبل هذا الزمن مدة يسيرة ارسلت بعض سفن الى مين اسبانيا والبورتغال

وبهذه التقدمات التجارية والمخالطات في القرن الثاني عشر والثالث عشر كان مبدأ اضعلال الاوهام والاعتقادات الفاسدة التي كانت سبباً لانفصال الشعوب عن بعضها وحسنت اخلاق الناس فاستعدوا للصلح وتحصيل الاطمان وكان كلما ازداد الميل الى التجارة في مملكة اتعمشت حكومتها وساعدت على ذلك بعقد المعاهدات مع الدول الاخر واشهرت الحروب وعقدت المشارطات وبالجملة والنفصيل كانت التجارة متى دخلت عندهم من امم اوروبا على

اختلفها حملتها الى الالتفات مع غاية الجهد الى الاشياء التي يهتم بها الامم
المتدنة والتخلي بالاخلاق المختلفة التي تقتبسها من اربابها
قال خير الدين باشا التونسي في كتابه المسمى اقوم المسائل ان ابتداء
التدين عند الاوربيين كان في القرن الثالث عشر فان تلك الحروب الصليبية
وان كانت هلكت فيها نفوس عديدة واموال غزيرة بدون الحصول على المنصود
بالذات فانها اعقبت نتائج نافعة لم منها انهم شرعوا في ذلك الوقت بترتيب
العساكر وتعلموا بمواصاتهم لاهل المشرق صناعة التجارة والزراعة ونحو ذلك
وتخلفوا باخلاق الحضرة وتعودوا بالاسفار لاستكشاف احوال الاقطار فاطلعوا
على احوال اسيا المتوسطة واحوال الصين كما مبين ذلك في تاليف ماركوبولو
وبالجملة فبالسبب المذكور وهو مخالطة الاوربيين للامة الاسلامية المتقدمة
عليهم في التمدن والحضارة كان ابتداء التمدن عندهم ثم تهذب حتى وصل الى
ما هو مشاهد اليوم وانتهت اذ ذاك رياسة العلوم والآداب والفلسفة الى
سان برنار بفرانسا وسان توماس بايطاليا والبرت الكبير بالمانيا وريموند ولولو
باسبانيا وجان دوتسكوت بانكثرة^(١) وظهرت الشعراء والمهندسون والكنايس
الاصولية والهياكل الفخيمة المنسوبة للقرون الوسطى

الصنائع والمهن

منذ القرن العاشر الى نهاية القرن الخامس عشر

اصطنع البابا سايبسترس الثاني اول ساعة ذات رصاص في سنة ١٢٠٠

(١) اصحاب هذه الاسماء ذكروا بجملة الفلاسفة في ما تقدم غير انه يوجد اشتباه في

وبعدُ عملت ساعات البكر تودي لبعيد في سنة ١٠٦٥ وعملت الزجاجات
العدسية للعينات والنظارات ومخترع العينات راهب من مدينة بينا يقال
له اسبيننا سنة ١٢٢٠ واصطنعت قساطل لجر الماء من الرصاص في سنة ١٢٥٢
وعملت النظارات الطويلة والشمع الكافوري من الشم سنة ١٢٩٠ والساعات
الدقائق سنة ١٢٩٥ وادخلت طواحين الهواء الى اوروبا في سنة ١٢٩٩
واصطنعت المراي الزجاجية في بلاد البندقية سنة ١٣٠٠ وانشئت مدرسة
للالطب في طولوزة سنة ١٣٢٨ واخترع الباروت راهب نمساوي يقال له
شوارنس سنة ١٣٣٥ (١) وابتدأ الفرنسيون بالحروب النارية سنة ١٣٤٥ م
وكان ابتداءها قبلهم الانكليز اذ ان الامراء الفرنسيين كانوا يزعمون بان
استعمال الاسلحة التي تقتل من بعيد مخجل بالشجاعة . وعمل الورق من الخرق
سنة ١٣٤٦ وكان ادخل الى اوروبا بواسطة عرب اسبانيا في القرن الحادي عشر
واصطنعت المدافع والقنابل في اوروبا سنة ١٣٥٠ ويقال بانها كانت مستعملة
في بلاد الصين في سنة ٦١٨ ق م . وصار سحب القصب والتي سنة ١٣٦٦

بعض الاسماء نظراً لاختلاف الترجمات كما هي العادة في اغلب الكتب المترجمة الى العربية
ومن اراد فليطلبها ايضاً في الفصل السادس والسابع من المقالة الاولى من كتابنا زبدة
الصناعات في اصول المعارف

(١) قال العلامة خير الله افندي المورخ العثماني في كلامه على احوال المعارف
البشرية من القرن الخامس الى القرن السابع من الهجرة ويظن انه في هذا العصر اخترع
الباروت في اوروبا والحال انه في القرن الاول من الهجرة (السابع من الميلاد) عند محاصرة
مدينة القسطنطينية (من العرب) اخترع وقتئذ احد القسوس الذين كانوا طاقوا بلاد
المشرق مادة سريعة الاشتعال (ذكرت في الفصل الخامس من البحث الاول) وكذلك في
اواسط القرن السابع للهجرة (الثالث عشر من الميلاد) وكان موجوداً في معسكره ملاكوخان
ملك التتار عندما حاصر مدينة بغداد وافتتحها آلة نارية اذ يقال انه اطلق على قلعة
المدينة المذكورة بنادق كثيرة واخرها وهكذا العرب في اسبانيا كانوا يستعملون آلة
نارية نظير هذه غير انه لما اخترع الباروت في اوروبا اصطنعت المدافع المتنوعة وبها
اكتسبت الحروب شدة شديدة وعدة عديدة

واستخرج العرق للشروب سنة ١٢٨٠ ونحو هذا الزمن اصطنع الالمطرب لاب
 والحك ويقال له بيت الابرة وسوف يأتي الكلام بانته كان للدوك اينبريكوس
 ثالث اولاد يوحنا الكبير ملك البورنغال مداخلة في ذلك ثم عملت دبايس
 الابر في سنة ١٢٩٠ واخترع ورق لعب الفار في فرانساجل نسليته بملكها
 كرلوس بيانيه ابي المحبوب لما اعتراه داء الجنون في سنة ١٢٩٢ ويقال بل
 نقل اليها ذلك من بلاد اسيا وقال اخرون ان العرب واليهود وغيرها من
 الاجناس الشرقية ادخلوه الى اوروبا في سنة ١٢٨٥ وشاع استعماله في ايطاليا
 سنة ١٢٩٩ وعمل معمل النرياق والمعناير الطبية في مدينة ايسياسنة ١٤٠٠
 وفي القرن الرابع عشر المذكور احييت صناعة الدهن والنتش ويقال لما بلغتهم
 البوزار عن يد جيوتو وتشيبابوي في بلاد ايطاليا وفي هذا القرن عينوا ايضا اخذ
 الروسيون في اظهار صلاحيتهم لان يكونوا من ارباب الحرف والصنائع اذ
 سبكوا بمدينة موسكا اكبر ناقوس ظهر في بلاد اوروبا وهو اعظم اجراس الدنيا
 محيطه ٦٤ قدماً وعلوه ١٩ قدماً مع ان هذه المدينة لم تكن وقتئذ مستحقة ان
 توضع في صف المدن حثيقة الا من بداءة هذا القرن كما يتضح ذلك مما يورد في
 الكلام على القرن الخامس عشر قال بعض المؤلفين لم تكن بلادها ولا غيرها
 مما يجاور بلاد المسكوب اعلام المسكوب ولم تكن الصنائع اليدوية اعظم من
 ذلك في شمال المانيا وكذلك لم تكن الفنون المستظرفة متقدمة في ذلك
 الوقت في بلاد المانيا اكثر من بلاد روسيا المذكورة ويظن بان اصطناع هذا
 الجرس كان في عهد الملك بوريسغودون الذي تولى المملكة في سنة ١٢١٧ م
 وفي القرن الخامس عشر اخترع عمل البرانبط رجل سويسري بفرانساسنة
 ١٤٠٤ واستعمل التصوير بالوان ممزوجة بالزيت في سنة ١٤١٠ ودخلت
 صناعة الخبز الشبيه بالصيني الى اوروبا في سنة ١٤١٦ وانشي مرستان
 للطاعون بالهندية في سنة ١٢٤٠ وعملت المركبات المسماة بالكاروسه في سنة
 ١٤٢٦ وفي هذه السنة عنها اخذ الالمانيون في ان يتصفوا بكونهم اصحاب مهنة

وحرصاً وإمانة وثبات في الأعمال واستنارة في التصرف وبشهورون بمودة
الابداع والاختراع حيث اخترعوا صناعة الطبع التي طالما قد تنازعت مدن
ميانسة وهرلم واستراسبورغ في أدعا شرف ايجادها والى الآن يوجد في مدينة هرلم
المذكور قهوي من بلاد الفلمنك تمثال موضوع في إحدى ساحات المدينة لرجل
يقال له لورانت كستر يعتقد الفلمنكيون بأنه هو أول من اخترع طباعة الكتب
لكن المحقق الآن ان اختراع هذه الصناعة بما هي عليه اعني بالحروف المتحركة
يُنسب الى بوخنا غوتبرغ الميانشي نسبة الى ميانسة يحكى بأنه كان خطر في
بالوان يعمل حروفاً من الخشب الصلب ثم صبها من الرصاص واشترك معه
في الشغل رجل من الاغنياء قدم له ما احتاج اليه من المصاريف حتى نجح في
العمل وابتدأ في طبع الكتب وكان أول ما طبعه منها الكتاب المقدس
باللغة اللاتينية وذلك في سنة ١٤٣٦ المذكورة قال بعض المؤلفين يحتمل ان
لورانت كستر المذكور طبع أولاً في هرلم بالاشباب المحفورة على اسلوب الصينيين
في سنة ١٤٣٠ او قبل ذلك وبوخنا غوتبرغ اخترع حروفاً معدنية مدقوقة
في ستراسبورغ سنة ١٤٣٦ او بعد ذلك ثم بعد ان تشارك مع بوخنا فوسط
وغيره من يدعون شرف هذا الاختراع اخترع فوسط المذكور حروف الصب
وانسان اخر اسمه بطرس شوفر عمل الابهات والامهات ليسهل صب الحروف
وشرعت الشراكة تطبع في سنة ١٤٥٠ ثم في سنة ١٤٥٩ ام طبعت كتاب دورانتس
في ميانسه (وبذلك يكون حصل التوفيق بين جميع المدعين) ولا يخفى بان
اصطناع الورق واختراع الطبع هما حادثان مهتان من حوادث تاريخ الاداب
لان اصطناع الورق من القطن في اوربا كان مقدمة لتطور الاداب والفروع
الفلسفية على ما تقدم في اخر الفصل السادس من هذا البحث ولا سيما منذ
رخصت اسعاره باكثر مما كانت عند ما عول من الخرق في سنة ١٢٤٦ على ما
تقدم اما صناعة الطباعة المذكورة فانها اخرجت اوربا من ظلمات الجهالة
ونشرت فيها سواطع الانوار كما يتضح ذلك من الاجمال الآتية

ثم في سنة ١٤٤١ ابتدأت الكوميديات ببلاد ايطاليا وفي سنة ١٤٥٢
 اخترع رجل يقال له تومازو فينجير وهو صانع من فلورنسا فن حفر الصور
 على القوالب وهو النقش على النحاس والخشب وقيل ان ذلك كان في سنة
 ١٤٦٠ ثم في سنة ١٤٥٢ صنع لورنزودولابا من بلاد ايطاليا ساعة جديدة
 يُعرف بها زيادة عن معرفة الساعات حركات الشمس والكواكب السيارة
 والكسوف والبروج وجميع التقلبات السماوية وفي سنة ١٤٥٢ اخترع رجل من
 الملاحين يقال له هنري فن تخطيط الجور والبحيرات والانهر وسائر المياه بحيث
 يظهر رسم وشكل شطوط الجور والخجان والثغور والجزائر والرووس والاقنية
 والبواغيز والمجاري والاجوان والاماكن التي يصل الى عمقها مقياس الاعماق في
 البحار وفي سنة ١٤٦٦ عمل معمل نسج الحرير في ابون احدى مدن فرانسا
 وفي ختام هذا القرن اي سنة ١٥٠٠ م اصطنع ساعات العبّ رجل يقال له
 بطرس هاه من نورمبرغ ببلاد المانيا ولذلك كانت تسمت قبلاً بيض نورمبرغ

الخاتمة

في امتيازات القرن الخامس عشر

لا يخفى بان القرن الخامس عشر المذكور حربيّ بان يكون مقدمة تاريخ
 جديد للعالم لان فيه حصلت تقلبات ناجمة عن تغيير صورة الدنيا في المشرق
 والمغرب من عدة وجوه اولها انقراض التيصرية الرومانية الشرقية واستيلاء
 الدولة العلية على مدينة القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م كما سبقت الاشارة الى
 ذلك في خاتمة البحث الاول ولذلك يقول بعض المؤلفين كادت وقائع الشرق
 تذهب بالعلوم اليونانية للشرقية اما اللاتينيون (الافرنج) فان العلوم والفنون

عندهم عازيت بمتضيات حسنة الى رونقها ومجدها المفقودين منذ القديم فان الاحبار (باباوات رومية) نشطوا اليها الطلبة واشتهر منهم بذلك البابا نيفولوس الخامس وكثيرون من الملاك والامراء ساعدوا لهل العلم بمجاينهم وعظمايهم الوافرة ومنهم عائلة الميديشي العاملة بايطاليا والفونسوس السادس ملك نابلي وحكام نابلي الاخرون من بيت اراغون فهؤلاء فازوا بالصيت المخد على سخائهم وحبهم للعلوم فاقم مدارس كلية في جرمانيا وفرنسا وايطاليا وجهت مكاتب بمصاريف باهظة واغوي الشبان على الدرس بواسطة تقديم الجوائز والكرامات واضيف الى كل هذه الوسائط تلك المنفعة التي ليس لها شبيهه الناتجة من صناعة الطبع (وقد تقدم ذكرها) لان كتب اليونانيين واللاتينيين التي كانت مخفية في مكاتب الرهبان صارت بهذه الوسطة في ايادي الناس وفيها هم يرغبون كثيرين في ماثلتهم والافتداه بهم في هذا الامر الحسن حسنوا ذوق كثيرين من الطلبة وكذا سقوط المملكة اليونانية كان من اعظم الاسباب لامتداد العلم في غربي اوروبا لان اعلم رجال تلك الأمة بعد افتتاح عاصمة مملكتهم هاجروا الى ايطاليا ومن هناك انتشر بعضهم الى بلاد اوروبا فعلموا بمخلص اللغة اليونانية وعلومها في كل مكان لاعالتهم وبشوا الرغبة في العلوم والفنون في كل العالم اللاتيني تقريبا ولم يوجد مدينة تعتبر او مدرسة كلية الا وكان فيها في ذلك العصر يوناني او اكثر يعلم العلوم والفنون لكنهم لم يوجدوا في كل مكان بكثرة كما كانوا موجودين في ايطاليا حيث نشطتهم وكرمهم العائلة الميديشية المذكورة والمدن الاخرى الايطالية بسخائهم وغيرتهم الحارة للعلوم المفيدة ولهذا جميع الراغبين في العلم في سائر البلدان اعنادوا ان ياتوا ليدرسوا في هذه البلاد وكان في ايطاليا واسبانيا كثيرين من المشهورين في معرفة العلوم واللغات الشرقية وسوف نتضح تقدمات باقي فروع العلوم من الابحاث الآتية . اما الفلسفة فكانت كما لا يخفى ويعلم من التفاصيل السابقة قبل ان اتي اليونانيون الى ايطاليا على مذهب ارسططاليس لان هذا الفيلسوف كان مدوحا عند الجميع

مرفوعاً فوق الحد حتى ان كثيرين منهم لم يستحووا من ان يشبهوه بيوحنا المعمدان
سابق المسيح.

ثانياً بتأسيس الاصلاحات والتقدمات العظيمة السياسية التي فاز بها
اغلب الشعوب الافرنجية باسباب ما نشأ بينها من المخالطات المعتبرة
والمداروات الاكيدة في شان مصالحها الخارجية الى ان آل امرها ان تعتمد
بالندرج على ان لاتفعل دولها شيئاً الا بشورة بعضها وادأها ذلك الى ان رقت
مذهباً بولينيكيًا اي سياسياً به تثبت ميزان تعديل بين تلك الدول بدوم به
الامن العام وحفظ الممالك من المتغلبين وكان هذا المذهب في مبدأ الامر زمام
المالك الصغرى الابطالمانية ثم انتقل منها الى غيرها من الممالك العظيمة وهذا
الاصل العظيم المبتدع في السياسة لادخل لبسط اسبابه هنا اذ انها خارجة
عن موضوع هذا الكتاب ولذلك نكتفي بالاشارة الى كونه كناية عن توزيع
القوة بين اعضاء جسم واحد مؤلف من دول اوروبا حفظاً تاماً موسساً على
الانصاف

ثالثاً بظهور الاكتشافات العظيمة للاراضي المجهولة وخاصة نصف كرة
الارض الذي هو الدنيا الجديدة المسماة بامريكا ولذلك نجعل كلامنا هنا
على هذا القرن الذي هو خاتمة القرون الوسطى منحصراً في قضيتين ادبيتين
وهما

القضية الاولى

في خلاصة ما تقدمت تفاصيله عن كيفية استدرجات الافرنج
الادبية عموماً لحد القرن الخامس عشر ثم ما زاد على
ذلك من ترقياتهم في القرن المذكور بوجه
التفصيل وفيه مطلبان

المطلب الاول

في خلاصة ما تقدمت تفاصيله لحد القرن الخامس عشر

قد اشرنا في الفصل الثاني من هذا البحث الى انواع ونسبة واخلاق وعوائد
الام المتبريرة المهاجرة على الفيصرية الرومانية الغربية وبيننا ان اسباب اطلاق
تسمية افرنج على عامة شعوب اوروبا والحالة هذه ما عدا العثمانيين واليونانيين
هي لكونها لم يخلطوا وقتئذ بتلك القبائل التي عنها اخذت هذه التسمية ثم ان
ما ذكرناه هناك من اخلاق اولئك المهاجرين وعوائدهم انما هو بالنسبة لما كانوا
عليه وقتئذ من درجة المعارف التي اتصلوا اليها وهم بعد في مالكم الاصلية
بعد ان كانت دخلت بلادهم قبل ان يخرجوا منها في حوزة الاحكام الرومانية
التي كانت تبك علومها والمعارف التي كانت اكتسبتها من اليونانيين في جميع

البلاد التي كانت تستفتحها وتستولي عليها سواء كانت من شمالي اوربا و مشارقها كالامان والدانيماركة والبروسيان والفلمنك واسوج ونروج وغيرها من القبائل والشعوب المثوطنة الآن في تلك البلاد التي خرج منها اولئك البربر المقدم ذكرهم الذين استولوا اخيراً على جميع الممالك التي كانت خاضعة للبروسانيين المذكورين او الايطاليان والغالة اعني قدماء الفرنساويين والانكليز وغيرهم من سكان سائر الممالك الرومانية التي بعد ان توزعها البربر المذكورون فيما بينهم واخططوا باهاليها اخذوا في ان يتدرجوا في ارتفاع المعارف واشركوا معهم بذلك ايضاً في زمن كرلوس الاكبر المقدم ذكره كل الذين كانوا لازالوا باقين في مواطنهم ولم يهجرها معهم في تلك الغزوة من سكان بلادهم الاصلية كما يتضح ذلك من مراجعة الفصل الخامس من هذا البحث الذي نحن فيه وغيره ايضاً من الفصول السابقة في البحث الاول

واضف الى ذلك المعارف التي كان ورثها الاسبانيول وهم فرقة من الممالك الرومانية الاصلية عن العرب ايضاً اذ لا يخفى بان العرب المذكورين كانوا قد افتحوا هذه البلاد وطردوا منها الغوثيين احدي القبائل المتبربرة المذكورة وكان ذلك على عهد روريك اخر ملوكهم سنة ٧١٢م ثم بعد ان اقتسموها بينهم الى عدة ممالك صغيرة اضاعوا اكثرها في حروبهم المتتالية مع اهل البلاد الاصيلين ثم انضمت ممالكها مع بعضها عندما تم افتتاحها فرديند وايزابيلة في سنة ١٤٩٢م وهي نفس السنة التي اكتشف فيها لادن الملكين خرسة وفوروس كولوس اميركا كما يتضح ذلك من الكلام على القضية الثانية

وكانت العرب قد ادخلت الى هذه البلاد معامل وورشاً عديدة عظيمة ونمت بين سكانها العلوم والمعارف وازهرت وانت باثمار لم يات بها غيرهم من اهالي تلك الاعصار اذ انهم اتقنوا علم البحر والتجارة وفن الزراعة ونقلوا الى تلك البلاد زراعة النخل والخرنوب والقطن وقصب السكر وصناعة الورق من القطن في القرن الحادي عشر من الميلاد وعلوا اهاليها صناعة رفع المياه الى

الاعلى بواسطة النواير وافادهم ايضا انواعا من الطرف كالفرسية واللعب
 بالرماح وتعاطي المعاني الغربية من الاشعار وكان عبد الرحمن الإخرا الأموي
 الملقب بالناصر اهمل اليها العلوم الفلسفية القديمة لما عزم ان يجعل مدينة
 قرطبة عاصمة مملكته شبيهة بمدينة بغداد دارا للخلافة والعلوم ثم لما ترجم افرس
 بن رشد الكردوثي كتاب ارسططاليس وقرىء في مدينة كروفا قري كذلك
 في افريقية بين المراكشيين وانصبوا على درسه ومن ثم زها في مدارس المسلمين
 بتلك البلاد علم الجبر والحساب وانصبت الطلبة على العلم من كل ناد
 وتنافسوا به فيما كان الافرنج لا يعرفون شيئا من العلوم والفنون غائصين في
 بحور الجهالة وقل من يعرف فيهم ما هي الحروف الهجائية حتى اشرافهم ايضا وانما
 لما اخناط اهالي تلك البلاد بهم تعلموا منهم ما كان عندهم من المعارف على ما
 تقدم واستمروا على ممارستها والاشتغال بها وخالصة الامران اهالي اسبانيا كانوا
 في القرن الخامس عشر اخذوا جانبا كبيرا من معارفهم عن العرب مدة اقامتهم
 في الاندلس التي كانت اول وسيلة الى دخول العلوم ثانيا في بلاد اوروبا بعد
 كرلوس الاكبر وثانيها المحروب الصليبية حسبا يتضح ذلك من التفاصيل
 المتقدمة ويقال بانها لم يزل حتى الآن موجودا في المكتبة الملكية باسبانيا نحو
 ٢٠٠٠ مجلد من الكتب العربية التي كانت موجودة بها في زمن الخلفاء فبانضمام
 هذه الامور الى استمرار التجارة في عدة من المدن الاسبانية المعتبرة في ذلك
 الزمان كان السبب في بقاء الاهالي فيها بكثرة ايضا واحتمائها على مدن كثيرة
 اعمر من باقي مدن اوروبا ما عدا ملكتي ايطاليا والبلاد الواطية (دانيارك)
 وهناك قضية اخرى ذات اهمية وقتئذ في سطوة البلاد الاسبانية
 المذكورة وهي كما لا يخفى ان الرومانيين القدماء كانوا ينحون في حروبهم ويتصرفون
 بواسطة صفوف العساكر المشاة لكن في زمن الملوك القياصرة الذين غلبوا
 وتحكموا على كل البلاد غيروا طريقهم وصارت الخيالة مطمح انظارهم ولذلك
 صاروا لا يقدرون ان يقاوموا صدمات المتبرزين لما هجموا على بلادهم وقد

كان يلزم هؤلاء المتبرزين الذين خلفوهم في الساطة ان يتعضوا بذلك ويحافظوا على تعليم العساكر المشاة التي كانت سبباً في انتصارهم لكنهم هم ايضاً بعد ان استولوا على البلاد ابدلوا عساكرهم المذكورة بجيوش خيالة كالرومانيين اسلافهم وكان منشأ ذلك كبر الاشراف وتعاظمهم وبقيت العساكر المشاة عندهم مهله التعليم رديّة الاسلحة الى ان تولى على مملكة فرانس في القرن الخامس عشر الذي نحن بصدده كرلوس السابع واشتهر بنصراته على الانكليز فاحدث جيوش العساكر المشاة على ما يأتي ايضاحه في الكلام على فرانس ورتب المكوس الخدائمه لها ثم لما صيرت حروب ايطاليا ترتيب العساكر المنتظمة عموماً وعرف اهل اوروبا فضل العساكر المشاة في الحروب ترتيب حينئذ عساكر المشاة المليية الالمانية وكذلك تنازل الاشراف في فرانس عن دعاوهم القديمة ودخلوا في الخدمة العسكرية منذ حكومة لويس الثاني عشر الذي تولى المملكة الفرنسية في سنة ١٤٩٨ م ومن ثم ترتيب ذلك في اسبانيا ايضاً حيث نظمت عساكرها الجديدة متسلحة بنوع ثقيل من اسلحة النار يقال له الزنبك ويضرب بواسطة الفتل فصار لعساكرها هذه المشاة شهرة عظيمة مكث سائر الافرنج يخشون بأسها مدة ١٥٠ سنة ثم نسجت ايطاليا كذلك على منوال من جاورها من الممالك فحصرت قواها في العساكر المشاة

وكانت البورتغال حصّة من مملكة اسبانيا المذكورة لكنها انفصلت عنها قبل مدة اعني في سنة ١٢٨٢ م وصارت دولة جديدة مستقلة أسسها يوحنا الاول الكبير الملقب لويبار (اي النغول) ومن ثم اخذت هي ايضاً في التقدم والنجاح وبواسطة اسفارها البحرية وتعرضها للاهوال والمخاطر في المحيط الشاسع كما يتضح ذلك في ما يأتي عند الكلام على الاكتشافات الارضية اصيحت ذات سطوة وغنى ثم بانضمام ذلك الى ما كانت ادخلته العرب فيها من التقدّمات الادبيّة التي هي المبدأ الاصلي في ذلك كله منذ كانوا استولوا عليها في سنة ٧١٢ م وضموها الى بلادهم التي تقدم الكلام عليها بالاندلس الى ان طردهم منها بالتام

الفونس الأول ابن هنري البرعوني في سنة ١١٢٩ م استمرت على زمامها ولا زالت الى ان اكتشفت طريق الهند من جهة رأس الرجاء الصالح في اخر هذا القرن كما يعلم ذلك من الفضية الثانية الآتية بعده

منه خلاصة ما تقدمت تفاصيله من وسائل تقدمات الافرنج الادبية لحد القرن الخامس عشر ثم بانضمامها الى اجتهاداتهم القالية صاروا باجمعهم والحالة هذه هم الوارثين لعلوم اليونانيين ومعارف الرومانيين والآفان الفريقيين اعني الهاجمين الغالبين او المهجوم عليهم المغلوبين لم يكونوا الا وحوشا قبل ان يتدرجا في المعارف بالوسائط المذكورة اذ انهما كانا على حالة الفطرة الاصلية يلبسون غالبا جلود الوحوش الضارية وياكلون المأككل الخشنة ومنهم من يتزينون بطلي اجسادهم بعصير بعض النباتات ويوشونونها بصور بعض الحيوانات ومن الرجال من يطوقون اعناقهم بسلاسل من ذهب وكذلك نساؤهم يلبسن اساور ذهبية واكثرهم مولعين بشن الغارات في كل جهات اوروبا كالالمان والديمارك التي خرج منها الطوائف القمبرية التي اهلكت اوروبا سنة ١٠٠٠م والنورمان او النورمند الذين خرجوا من اسوج ونروج وصاروا قطاعا للبحر وافسدوا البلاد الغربية وسكنوا في اقليم من اقاليم فرانسلا زال حتى الآن يسمى نورمندو نحو سنة ٨٤٥م وفي ذلك الوقت عينه اسست طائفة منهم اعني من النورمان المذكورين يُقال لها الوريغية دولة عظيمة شهيرة الآن بالسلطنة المسكوبية التي لما لم تصل الى بلادها سطوة الاسلحة الرومانية القديمة في زمن القياصرة السالفين ولا ذاقتم لذة طعم الاداب الحادثة في زمن كرلوس الاكبر المقدم ذكره بقيت على حالة الوحش التام طول هذه المدة ولم تظهر للوجود الا في القرن الخامس عشر كما يتضح ذلك ما يأتي

المطلب الثاني

في نقدمات المعارف والآداب عند بعض الممالك المذكورة في
القرن الخامس عشر

روسيا

كانت هذه البلاد التي لم يُعَدَّ على سكانها شيء من الفوائد التي نالها
أولئك البربر مع أنه كان اشترك معهم بعض قبائلها في مكابدة مشقات تلك
الغارة المنقوه عنها على الملكة الرومانية نسي قديماً روكسلان ثم تسمت بالمسكوب
نسبة إلى مدينة موسكو التي كانت تختأ لها أوداراً لاقامة كبار دوكاتها وإما
تسميتها روسيا فهو نظراً لتعدد قبائلها فان معنى هذا الاسم القبائل المشتتة
فكان من أقاليها ما يقال له الروسية البيضاء والروسية السوداء والروسية
الحمراء وقد اختار لها المتأخرون اسم الروس دفعاً للالتباس بين روسيا
ويروسيا وكان البعض من سكانها يسكنون المغارات والاختصاص ومنهم من
هو قاصر العقل خالي البال ولذلك كان لا يعترتهم مرض ويعمرون طويلاً
ويقال انهم كانوا يترجون الغرباء ان يدخلوا على نسايتهم وبناتهم لاعتقادهم ان
الغرباء احسن منهم شكلاً وجنساً وبنيةً ويرون في ذلك اصلاحاً لعيوب تركيب
نسلهم كما كان يقال عن اهل لقدمونيا ببلاد اليونان مع انهم معدودون من
الامم اولي النضائل ومنهم من كان معتاداً على السلب والنهب وقطع الطريق
والصيال في البحر ولا يطيقون سكنى النساء في نجوعهم بل نسكن نساؤهم في

جزائر مخصوصة وسط النهر ولا يعرفون الزواج ولا العائلة بل ينظمون الذكور من اولادهم في سلك عساكرهم غير المنتظمة ويتركون الاناث عند امهاتهن وكثيراً ما يفحش الاخ باخوته والاب ببنته وولدون منهم الاولاد ولم يكن لهم شرائع ولا قوانين اصلاً ومنهم من كان لا معرفة له بتقويم السنة وانما يعدون اعوامهم بالثاوج ولا يعدونها بسير الشمس الظاهري فكان اذا سئل احدهم عن عمره مثلاً يجيب بقوله انا لي كذا وكذا من الثاوج كما يقال كذا وكذا من السنين

• لكن كما ان الشعوب المذكورة في ما تقدم كاملها ما عدا روسيا كان تحسين احوالها نوعاً بواسطة سبق دخول الرومانيين الى بلادها على ما تقدم حيث اقتبست عنهم بعض صنائع وعوائد مفيدة جعلتها متمدنة نصف تمدن اعني متبربرة سواء كان ذلك في المعيشة والرفاهية او في الامور السياسية والحربية واصطناع الاسلحة كما حصل ذلك في المانيا وغيرها من الاقاليم الشمالية او تقدمت في امور الزراعة كما حصل في فرانسوا اذا دخل اليها الرومانيون غراسات لم تكن موجودة فيها قبل استيلائهم عليها فانه يقال انهم ادخلوا اليها الكرز والكرم من بلاد المشرق والزيتون والتوت الاسود واللوز والجوز والبطيخ من اسيا والبورنقال والليمون والتوت الابيض من الهند والمشش من ارمينية والنخوخ من بلاد فارس والرومان من افريقية او كما وقع لانكثرة حيث تقدمت بواسطتهم اهلها تقدموا نشيطاً في بناء المدائن وانقان الصنائع كذلك ايضاً روسيا اخذت قبائلها الجنوبية منذ القرن الخامس من التاريخ المسيحي في اكتساب الهيئة الاجتماعية من اليونانيين وبنيت مدينة يقال لها نوغروود واخرى يقال لها كوف اما القبائل الشمالية فاتحدت تحت سلطة رجل يقال له روريق في سنة ٨٦٢م وهو من الوريغيين الذين تقدم ذكرهم وما زال نسله يتولى الساطنة الى القرن السادس عشر

وكانت ديانتهم وثنية نظير ديانات سائر الامم والشعوب المتبربرة التي مر ذكرها وحيث قد تكلمنا عليها جميعها بقدر ما وصل اليها في البحث الرابع من

المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا نكرر ذلك هنا غير انه كما ادخلت كولونيد وهي بنت اخي امبرارياني الديانة المسيحية الى بلاد فرانسفا في سنة ٤٧٦ وادخلتها برثا ابنة تشربرت زوجة انابرت ملك كنت اشهر ملوك الانكلسكسون الى انكلترة في ٥٩٦ ودمبروكا ابنة بولاصيس زوجة ميسيسلس دوك بولونيا الى بلاد له في سنة ٩٦٥ وزوجة غيصا رئيس الشعب الهنكاري الى بلاد الجبار في اواخر القرن العاشر المذكور كذلك ادخلت اميرة مسكوبية يقال لها اولغا هذه الديانة الى روسيا في سنة ٩٧٥ م مع انها لم تدخل الى بلاد بروسيا الا في اواسط القرن الثالث عشر بطريقة اغنصائية لا توافق قواعد هذا الدين الاصلية

ونحو القرن الخامس الذي فيه استولى البربر المذكورون على الاقاليم الرومانية كان فن القراءة والكتابة غير معروف في بلاد روسيا كما انه مكث زماناً طويلاً مجهولاً في جميع اوروبا الشمالية لكن لما كانت اول بطريك تولي بلاد المسكوب رومياً استعمل المسكوبيون في لغتهم حروفاً هجائية اخذوا بعضها من اللغة اليونانية

ثم لما تولي الملكة اباروسلاف في سنة ١٠١٦ م وضع لبلاد روسيا قوانين محكمة ومن ذلك الوقت اخذت في مبادي التمدن وال عمران لكنها لم تخرج من غوائل الخلل الذي كان اوقعه فيها النورمند اوهم النورتمان الا في وسط القرن الخامس عشر من التاريخ المسيحي في ايام تملك ابوان الثالث سنة ١٤٦٢ الذي اعنتها من نير التتار وبذل جهده في جلب التمدن الى بلاده اذ انه كان قائماً بحماية العلوم والمعارف وفي سنة ١٤٨٢ م جلب من بلاد الدانيمارك جماعة من صناعات المدافع والطوبجية والمهندسين واللغجية والبنائين والصاغة وجلب ايضاً من الاروام والايطاليانيين ارباب حرف وصناعات وحدث في جميع مواضع ادارته نظاماً جديداً وجعل عساكره على حالة منتظمة حسنة وزاد ايراد الملكة بما غنمه من الفتوحات وبما جددته من الطرق في ضرب المقارم

واستخراج المعادن وتوسيع دائرة التجارة وترتب في مدائنه الضبط والربط والثرية السياسية ووضع في الطرقات البوستة والبريد فكان ارباب السواحات يرون بها خيولاً بعلافاتها وكانوا لا يدفعون لها اجرة إذا كانت أوراق الطريق التي معهم متضمنة لذلك وقد اطلع على الترتيبات القديمة المتعلقة باقضية البلاد المسكوية واحكامها وجمعها كلها في دستور قوانين امر بنشره في سنة ١٤٩٧ م وانشا حصن ابوان غرود في سنة ١٤٩٢ م في المحال التي بنيت فيها اخيراً مدينة بطرسبرغ وبذلك تمت المشابهة بينه وبين الامبراطور بطرس الاكبر الذي سوف يأتي ذكره في محله

وكانت مدينة موسكو قصبة هذه المملكة الى القرن الثالث عشر من الميلاذ ليست الا عبارة عن مجمع اخصاص يسكنها اناس مساكين يحكمهم جماعة من ذرية جنكيزخان حكومة ظلمية حتى ان خط كريلينا لم يحدث بهذه المدينة الا في القرن الرابع عشر بناء مهندسون من ايطاليا فانشأ فيها الملك المشار اليه مباني وعدة عمارات لطيفة منها الكيسة المسماة اسومبيسيون وحصن كريلين الذي هو قصر عظيم وقال بعض المؤرخين ان هذه العمارات بناها له الايطاليون كما بنوا قبلاً خط كريلين المذكور ويقال ايضاً انهم بنوا عدة كنائس على الرسم القديم الغوطي الذي كان عليه العمل وقتئذ في جميع بلاد اوروبا ومن هذه الكنائس كنيسة بنائها مهندس شهير في بلاد له يسمى ارستو كان له صيت في القرن الخامس عشر

فرانسا

وكانت البلاد الفرنسية قد اخذت ان تتقدم بهذا القرن في العلوم والاداب منذ انقذها كرلوس السابع الذي جلس على كرسي مملكته في سنة ١٤٢٢ م من ايادي الانكليز فان هذا الملك شرع في تنويم اودها واصلاح

شأنها حيث جدد بها كتيبة من العساكر المستمرة ونشر اوامر تتضمنت عدم التطويل في فصل الدعاوي وامر بتدوين العوائد التجارية في اقليم فرانساً لتكون للحكام قاعدة يعملون بمقتضاها واشهر قوانينه هو القانون الاكبريكي الذي مكث مدة طويلة ما اوقفاً ومحبوباً للكنيسة الغالية وصنع ترتيب وقوانين جديدة لجمعية مدرسة باريس دار العلوم التي كان يوجد بها في ذلك العصر ٢٥ الف تلميذ وفي سنة ١٤٥٨ م شرع في هذه المدرسة بتعليم اللسان اليوناني الذي اتى به اليهم اليونانيون الذين هاجروا من القسطنطينية وفي ذلك العصر اخذت التجارة في الانساع والعظم

وكان نحو هذا الوقت اخترع يوحنا غوتنبرغ الميانيسي بالمانيا وقد تقدم ذكره صناعة الطبع فادخل الى باريس بعض نسخ من الكتاب المقدس مطبوعة باللغة اللاتينية وباع الواحدة منها بعشرين ايرات حالة كونها كانت تباع بنحو ١٠٠ ليرا فصارت حركة عظيمة بين الناس اذ ظنوا انها مكتوبة بخط اليد ولم تعمل بهكذا سرعة ورخص الا بقوة شيطانية ولا سيما ان كل الذين اشتروا منها كانوا يجدون نسخهم مطابقة بعضها بعضاً بالتام وبما انه كان يوجد بها سطور مكتوبة بمداد احمر فبرهنوا على ما زعموه بان تلك السطور لم تكتب الا بدم الشياطين وبعضهم قالوا كيف يمكن للشياطين ان تكتب كتاب الله واخيراً اشتكوا عليه للحكومة مدعين بانه ساحر فامسكته الحكومة هو وشريكه ايضاً ولم تطلقها مشورة باريس الا بعد ان افشيا لها سر تلك الصناعة ليتخلصا مما احاق بها من الخطر^(١) لكن لما تولي الملك لويس الحادي عشر المنقول عنه

(١) هذه النصية تشبه ما نسمعه في ايامنا هذه عن سودان افريقية مع انها واقعة في بلاد اوروبا بل وفي المدينة التي تعتبر الان مركز العلوم والمعارف ومنبع التمدن وكان وقوعها من نحو ٤٠٠ سنة مضت فهل من مانع يمنع العقل بعد ذلك عن الامل بان تصير اكواخ افريقية المحالية ماوى لئيل هذه المزاياء المذكورة بعد ٤٠٠ سنة مستقبلة او اهل من ذلك طالما دعاه نور العلم في هذا العصر على ما هم عليه من الهمة

فاسد القلب نظراً لاهوائه والباطلة وما كان له من العوائد الغربية الأانية كان يمارس العلوم والمعارف وانشأ مجامع علوم في والنسه وبرجس وكان له معرفة باللسان اللاتيني ومجاعي عن العلوم والاداب وبكرم العلماء نقل صناعة الطباعة المذكورة من قشتالة الى باريس سنة ١٤٧٠م وجعلوا دار طباعتهم بـ مدرسة لاسر بوننة فانتسعت بذلك دائرة العلوم وتقدمت في اقرب وقت بنشر الكتب مع السرعة والسهولة بعد ان كانت الى ذلك الوقت قليلة الوجود غالبية الثمن حتى ان المتشبهين بطالعة الكتب لا يمكنهم تحصيلها الا بشق النفس

وكان علم الطب يدرس اولاً في مجامع باريس الا ان هذا العلم الذي كان قليل التقدم وكان مخلوطاً بالاضلالات والاعمال السحرية لم يكن له مدرسة خصوصية فتجددت له في عهد هذا الملك مدرسة مخصوصة في سنة ١٤٧٢م وبعد ذلك بسنتين انتشر هذا الفن باستكشاف نافع على ما ذكره بعض المولدين وهو عمارة الحجر التي جربت وظهر نجاحها في بعض الرماة من اهالي مودون وكان قد حكم عليه بالقتل لجناية ارتكبها فنجأ من الهلاك مرتين بواسطة هذه التجربة الناجحة

وكان لهذا الملك مزيد النفقات الى التجارة وكان يتاثر من كون ملكه بحاجة لمحصولات الدول الاجنبية فاراد ان يجبر هذا الخلل فاحضر من بلاد اليونانيين ومن بلاد ايطاليا كثيراً من ارباب الصنائع ليجددوا في ملكه معامل وورش للاقتة المزركشة بالذهب والنضة واقمشة الحرير وامر بمعافاتهم من جميع التكاليف والمغارم بسائر انواعها وكذلك زوجاتهم واراملهم واولادهم وحرر اشعاراً يتضمن الاذن بالتجارة براً وبحراً للفسوس والاشراف وغيرهم بشرط ان من تاجر منهم في البحر لا يأتي بالبضائع الا في سفن فرانسوية

وفي سنة ١٤٧٠م وضع قانوناً في شأن استخراج الامادن ولم يكن قبل ذلك قانون معين لها وصدر امره بمعافة كل من اتى لهذا الغرض من الشغالة

الاجانب من جميع المغارم مدة ۲۰ سنة وخيرهم اما ان يتنظروا في سلك الفرنسيين
وان يعودوا الى بلادهم

ومن اعظم ترتيبات هذا الملك واتمها نفعاً هو ترتيب البريد وبسوته
بلغتهم البوستة وكانت البوستة في مبدأ الامر معدة لمصالح الملك والبلد خاصة
ثم اتسعت دائرتها في سنة ۱۴۸۱م حتى صارت تستعمل في مصالح الامالي
ومراسلاتهم

ورتب ايضاً مجلس البرلمان في غرنوبل ثم رتبته في برودوس سنة ۱۴۶۲م وفي
ديجون سنة ۱۴۷۷م ورتب قانوناً انه لا يجوز توظيف احد في وظيفة الا اذا
كانت خالية بموت صاحبها او نزوله عنها او عدم قيامه بادائها

وكان عازماً على ان يجمع القوانين والعوائد ويؤلف منها كتاب قوانين
المملكة لا يكون العمل على خلافه ويختصر طرق فصل الدعاوي ومن كلامه
من لم يعرف المداراة لم يعرف الادارة ومتى سار التكبر وتقدم الى مكان سار
خلفه الخزي والخسران

ومع كون هذا الملك كان في العلم على درجة لا يصل اليها غيره عادة
كانت انوار معارفه مشوة بظلام الارهاق كما بقضي بذلك ما صدر عنه من
الحكم المنكر الذي انتهى به المشاجرة الهزئية الشهيرة التي كانت واقعة بين طائفة
الريالست اي الحقيقين وبين طائفة النوبينو اي الاسمين ويشهد بذلك ايضاً
عقيدته الفاسدة في العرافة والكهانة حيث كان عدده ۶ رجال من ارباب
التنجيم موظفين بمعاشرات على طرفه ليخبروه بما يظهر لهم من مستقبل الاحوال

وهنا المشاجرات الهزئية المذكورة هنا قد سبقنا تفصيلها في عدة مواضع
وعلى الخصوص في الفصل السادس من هذا البحث بجملة احوال القرن العاشر
فاراد الملك المشار اليه ان ينظر في هذه القضية ويحكم فيها بما يراه فراى ان
الاسمين هم المخطئون ومن ثم امر في سنة ۱۴۷۵م بالتحجز على كتبهم وحكم بالنفي
على كل من تعرض لتأييد هذا المذهب او تصدى للانتصار له ثم بعد ذلك

فك الحجز الكتب والمولفين

وفي زمن الملك لويس الثاني عشر الذي تولى المملكة سنة ١٤٩٨م تعضدت شوكة التجارة والزراعة والفنون والآداب ولذلك كان يُلقب بحامي العلوم والمصنوع وكان كلما اختلس وقتاً من أوقات اشتغاله بالمصالح العمومية يشغله بمحادثة العلماء ومطالعة آثار الأقدمين وجلب إلى فرانساً مشاهير علماء إيطاليا واستمالهم بالأنعامات وإقامتهم جماعة يعلمون اللسان اليوناني في مدرسة العلوم الجامعة بباريس وحصل نجاح عظيم حتى صار المتعلمون يفسرون مخاطبات أفلاطون ثم جمع من مؤلفات الأقدمين العظيمة مجموعاً كان أعظم المجموع التي اشتهرت إذ ذاك في أوروبا وطالها هذا الملك مع التأمل وجمع منها أصولاً وحكمياً نافعة وكان يجتهد أن يطبعها في ذهن الشاب كوتة انغوليم الذي كان ولي عهده على المملكة (فرنسيس الأول)

واشتهر بفرانساً في ذلك الوقت كل من الموانب جرسون ديلي وكليمنجيس وغايوم ويوحنا والآن شريتر شهرة حميدة

ومن آثار هذا العصر الأدبية التي فاقت على آداب العصر الذي قبله أشعار أوكتاويان دوسنت جليس الذي ترجم قصيدتي أوميروس وهما أدوية وإلياذة ورسائل أدوية ومنها أيضاً أشعار ديلون الذي هو أول من حرر فن اختراع الحكايات الموضوعة القديمة وكذلك أشعار كراوس دوك دورليان إلى لويس الثاني عشر وتاريخ مارتيسال دوويريه المظومة وأشعار الرعاة التي نظمها الملك رينه الطيب لفرط تولعه ورغبته بالرعي حيث زهد في الفتوحات والمناصب العالية ورعى مواشيه في مروج بروونسة مع زوجته الملكة حنة دي لوال

وما تجدد في هذا العصر من التأليف المعتبرة المفيدة وتاريخ روبرت جاجين ومونسترليت ورسائل أوليوبير دولامرش وقد ألف فيلبس دو كومينه رسائل تتعلق بالملك لويس الحادي عشر كاد أن يعدّها من نظراء تاسبت

المؤرخ الروماني الذي مرَّ ذكره في الفصل الثاني من البحث الأول في الكلام
على السلطنة الرومانية

وكذلك لا رافع من ان يقال بان غلبوم فينشبت رئيس مدرسة العلوم
الجامعة في عهد هذا الملك هو الذي احب فن البلاغة وحسن اللغة اللاتينية في
المكاتب والمدارس الفرنسية

انكلترة

وفي القرن الخامس عشر المذكور ايضاً ظهر في انكلترة الشاعر المشهور
شكسبير قال بعض المؤلفين انه وان لم يخلُ كلامة عن الهفوات فله النفيس من
جوهره ويتوصل بفصاحته الى الكشف عن كنه ما يروم وصفه والاحاطة بكيفيته
الحسية والمعنوية ولا سيما في وصف الحروب بحيث ان سامع كلامه يكون كالمشاهد
لما يصفه

ووليم جليبرت من كولشستر كان طبيباً للملكة اليبابات في انكلترة
الذي يبحث عن الكهر بائية وذلك قبل موت باربعين سنة و اشار الى نوعها
الموجبين دائماً للاجتماع وقال انها بخلاف المتماثلين في الطبع فانها دائماً تتفران
وفي ذلك الوقت كان لموت تاليس الفيلسوف اليوناني الذي سبق ذكره في
الكلام على اليونانيين نحو ٣٠ قرناً لم تقدم فيها المعارف الكهر بائية بل ولم
يسمع كلام عنها الا من بليينوس احد فلاسفة الرومانيين حيث يقول ان الكهر باء
متى اكتسبت الحرارة والحياة بواسطة الفرك تجذب قطع الفس كما ان المغناطيس
يجذب الحديد انتهى كلامه ولا يخفى ان الكهر باء لفظه فارسية معناها جاذبة
الفس قال بعض الكتبة ان اليونانيين كانوا يشبهون هذه الخاصية بالتنفس
فقالوا ان في الكهر باء حياض تنفس الاجسام الخفيفة واندره هذه المادة شردوا
في حقيقتها ومن خرافاتهم ما زعموه وهو انها تأتي من دموع عصفور هندي

حزين على موت الملك مالياكروس اه ثم من بعد ظهور چايبيرت المذكور اخذ
فحول العلماء من الانكليز والفرنساويين وغيرهم في البحث عنها الى ان اكتشفوا
منها فوائد عظيمة كما ياتي ذكر ذلك في محاور

ايطاليا

لا يخفى بان هذه البلاد وان تكن قد اضرت بها الحروب الصليبية لكنها
كانت في القرن الخامس عشر والسادس عشر هي القطر الذي ابعث فيه
دون غيره من اقطار اوروبا اثمار الاداب والفنون مع مزيد الرونق والبهجة
فانها اجنتت معظم ثمرات الغزوات المذكورة على ما سبقت تفاصيله في الفصل
السابع من هذا البحث وبالمجمل فان الامة الايطالية كانت هي المستعدة اكثر
من غيرها من شعوب اوروبا لتلقي وتبني المعارف والاداب التي ساقتها الى
العقول المحوثة العظيمة التي حصلت في اواخر القرن الخامس عشر

وقد اشرنا في ما تقدم الى تاسيس الاداب فيها منذ القرن الرابع عشر
اما الذي أسسها فهم ٣ رجال من اولي النهي والقرايح الجيدة واساؤهم دنته
وبوكلسه وبناركة وهم الذين تركوا لمن بعدهم من ابناء ذلك العصر لساناً
جديداً انشأوه واحكوه من ملهم وامثالهم واورثوهم ايضاً التولع بمطالعة كتب
الاقدمين واستحسانهم اباها فكان ذلك منشأ لجميع الاداب المستحسنة

وقد كانت الآثار القديمة قبل هولاء الثلاثة خيمت عليها عناكب النسيان
فلم يكن في خزائن كتب المدارس والديورة التي كانت قد تجددت في عدة
اقاليم الا بعض كتب في اللاهوت وعلم الاحكام والطب والفلك والفلسفة التي
كانوا يقرأونها في المدارس على طبق الالهيات

فحل هولاء الثلاثة ولاسيا بناركة اهل عصرهم على معرفة كتب الاقدمين

ومطالعتها فاخرجوا بذلك الكتب التي كانت مدفونة في تراب الديورة
البعيدة في الانظار الشاسعة من حيز الخفاء الى حيز الظهور وحشوا الناس على
التسابق الى العلوم واستفراغ الجهد في العلم والمعرفة وتورث ذلك عنهم جيلاً
بعد جيل

وفي اثناء ما كانت اهل هذه البلاد قد تمكن منها هذا التولع بالعلوم
والفنون واذ ظهر فن الطباعة فزاد به تولعها وانتشر حب المعارف واتسعت
دائرتها وهذا الفن المخترع الذي لا تخفى فوائده كان له تاثير عظيم في تغيير
احوال البشر وكان ظهوره في ذلك الوقت الملايم لا تشاره وقبوله حيث كان
الناس يرغبون في البحث عن الكتب ومطالعتها بالجد والاجتهاد على ما ذكرنا
وقد كان انتقال هذا الفن من المانيا محل اختراعه على ما سبقت الاشارة
اليه الى ايطاليا قبل ان ينتشر في محل آخر وكان اول ما طبع فيها كتاب في
اشعار اللغة اللاتينية التي عاد الى استعمالها اهل ايطاليا فتكاثرت بها اشعارهم
بعد ان كانوا قد تناسوها وهي وان لم تأخذ مأخذها في التوصل بها الى المعاني
الدقيقة واللطائف البديعة الا انها قد رجعت لما كانت عليه من الطلاوة
وحسن السبك

قال بعض المؤلفين لا مانع ان يُطلق على هذا العصر بالنسبة الى ايطاليا
عصر ذهب الشعراء والعلماء والمخترعين فان الجمهوريات التي كانت وقتئذ
موجودة في ايطاليا والامراء الذين علا شأنهم وارتقوا الى الرياسة كانوا
يتفاخرون ويتنافسون في المباني والرفاهية والزينة في مواكبهم ويسعون في ما
يكون به فلاح دولهم وسعادتها وما ذاك الا الاداب والعلوم والفنون وكانوا
يتسابقون الى حيازة ارباب المعارف مع الاستمرار والدوام والبذل والعطاء
وكانوا متى ظفروا بعالم جديد تنازعوا عليه حتى كانه من الفتوحات العظيمة
الفاخرة وبعثة الظافر به على ملازمة ديوانه مع التشريفات والالقاء الرفيعة
ويتفاخروا الاجانب ويقلده بالسفارات والمحكمات حتى كانه يريد بذلك

ان يريه لجميع اهل الارض كما سوف يفهم اجتهاد كل منهم في هذه الامور من
التفاصيل الآتية وهي

لما كانت مدينة نابلي على عهد الملوك الاراغونية متولعة بممارسة العلوم
ومطالعة كتبها انشأ بها الملك الفونس الاول الذي حكمها في سنة ١٤٤٢م
أكاديمية (مجمع علماء) اشتهرت في بداية امرها بالمؤلف بونتانوس وسوف ياتي
ذكره والشاعران كارتيو وسنازار ولاسيما هذا الاخير فان اشعاره اللاتينية تشبه
احسن ما يجانسها من اشعار المتأخرين وله قصيدة تسمى اركاديا وصف بها
اخلاق الرعاة واتي في وصفهم باخلاق حماسية تبسط في وصفها النفوس وكان
من جلة رجالها ايضاً دوك دواتري ودوك دوسروي

وكان الملك المشار اليه نفسه يحب العلوم ويمارسها فضلاً عن بذله وعطائه
لاجلها وكان يحضر مجلسه العلماء ويقراون عنده كل يوم شيئاً من المؤلفات
القديمة وكان لا يترك عادة من مطالعة الكتب حتى ولا في اوقات الحروب
وكان اذا تغلبت عساكره على مدينة ووجدوا فيها كتباً اغتنموا انوا بها اليه
كأنها اعظم شيء في تلك الغنيمة

وقد اشتهرت ايضاً امراء عائلة ايبسته حكام فراره في مبداء الامر شهرة
عظيمة لمحبتهم الاداب والعلوم وكرامهم لاهلها ومن جلتهم المركي نيقولاوس
الثالث فانه جلب الى المدرسة الجامعة في المدينة المذكورة مدرسين ماهرين
وقيدهم بقيود احسانه وانعامه ولما تولى بعده والده ليونيل سنة ١٤٤١م لم يترك
شيئاً مما تكون به هذه المدرسة مضاهية في الشهرة لاشهر مدارس ايطاليا وكان
هذا الامير معدوداً من مشاهير رجال عصره ويؤثر عنه بعض اشعار رقيقة
رائقة وقد زاد هر قول ديسته في كتب الخزانة التي انشأها عائليته

وهر قول المذكور هو اول امير من امراء ايطاليا جدد في ديوانه ملاعب
فاخرة يلعبون بها كوميديات يونانية ولاينية بعد ترجمتها الى اللغة الدارجة
لبنفسها العامة وكانوا يلعبونها في تلك الملاعب من غير ان يترك فيها شيء من

مظهر تباثرات الاقدمين وابيئها ورونتها وكانت ثقاف ومارس فيها اشعار
 الحماسة واشعار ابطال الرجال مع الطلاوة والحسن ومن شعراء الحماسة بها
 بوبار واربوست رئاسة الذين اساوهم مخاذا كما ان ملح اشعارهم باقية موبدة
 قال بعض المؤلفين ان في القرن الخامس عشر ظهر الشاعران اربوست
 وناسه (المذكوران) اللذان اشهرا اللسان الايطالياني المستعمل الان وهما في
 الطبقة الاولى من مشاهير تلك اللغة فاولما خلد ذكره باختراع معان لم يسبق
 اليها في الفاظ مهذبة مستعذبة والثاني نال شهرة كشهرة اوبيروس الشاعر
 اليوناني وورجيل الشاعر اللاتيني وبالجملة فان اللسان الايطالياني اخذ في
 ذلك الوقت ماخذه من السلاسة وحسن السبك وألفت فيه تأليف عديدة
 في فنون شتى

وكان المونتغليترية في اوربين والغونزاغية في ماتوه والوسكونتية ثم
 السفورسية في ميلان والباتووغالية في بولونيا حكاما يحمون الاداب ولم تكن
 كوتبات ميرندولادون الامراء العظام في محبة الاداب ولا اقل من مشاهير
 العلماء في الشهرة بالادب كيف لا وتاليف بوحنابك^(١) الادبية تكاد ان تكون
 جامعة لجميع انواع الانشاء وصناعة الكتابة وهو من اول من عارض في علم
 التنجيم وقال ببطلانه وكان هذا العلم مع كونه من الاباطيل والاهام يوجد
 لخصوص تدريس مفاعد ومدرسون في مدرسة العلوم الجامعة ببولونيا ومدرسة
 العلوم الجامعة في باد وهانان المدرستان كانتا اشهر مدارس ايطاليا وقدوة
 لغيرها من المدارس

وكان للبعض من الباباوات الرومانيين ايضا التفات الى توسيع دائرة
 العلوم والمعارف اذ يقال بانة كان للبابا اينوكنتيوس السادس الذي ارتقى
 الى الكرسي سنة ١٢٥٢م وخليفته اوربانوس الخامس الذي تولى سنة ١٢٦٢م

(١) وهو بيكوس كوتتة كونكورديا احد المهامين عن الفلسفة الافلاطونية المذكور
 في النصل السادس من المقالة الاولى من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف

وغريغور بوس الحادي عشر الذي خلفه في سنة ١٢٧١م كاتب انشا من العلماء خدمهم بهذه الوظيفة على التعاقب يسمى كولكسيوسا لوتانو ثم اعتقبة بهذه الوظيفة ايضاً عند البابا اينوكند بوس السابع الذي تولى الكرسي سنة ١٤٠٤م كل من بوشينير كسيولتي وليونارد وواريز وغيرها ممن امتياز في هذه الصناعة بالفضل والشهرة

ولما ارتقى البابا الفجانيوس الرابع الى الكرسي في سنة ١٤٢١م احب العلوم فقرهب اليه مشاهير العلماء وجعلهم ملازمين له بالوظائف التي قلدهم بها واعاد مدرسة العلوم الجامعة برومية وكان قد سعى قبالة في ذلك البابا اينوكند بوس السابع المتقدم ذكره بدون طائل

ثم لما ارتقى الى الكرسي البابا نيكولاوس الخامس في سنة ١٤٤٧م وكان ابن طبيب فقير من مدينة سرزانه ونال ذلك المرتبة بواسطة حرصه على التعلم ومطالعة الكتب فاحضر الى ديوانه عددا لا يحصى كثرة من النساخين والمترجمين الذين يترجمون الكتب من اليوناني الى اللاتيني وبعث عدة من العلماء ليبحثوا له عن الكتب المكتوبة بخط اليد في جميع اجزاء ايطاليا والمانيا وانكلترة وبلاد اليونانيين وبلاد المشرق ويشتروها له ومن ثم ترجم له المترجمون ما لا يحصى من الكتب اليونانية كمولفات هيرودوتوس وتوسيديد واغزنيفون وبوليب وثيودور دوسييليا وقصيدة اوميروس المسماة الياذة وجغرافية اسطرابونيس واييان الاسكندراني وفيلون اليهودي وكان ذلك اول مرة ترجمت فيها هذه الكتب واضيف الى ما كان يوجد هناك من التأليف عدة مولفات لافلاطون وارستطاليس وثيوفراست

وكان من هذا القبيل ايضاً تأليف ابا الكيسة ومعلمي اللاهوت الذين كانوا في القرون الاولى من ظهور الديانة المسيحية فترجموا من اليوناني الى اللاتيني كتاب اوزيبه (اعلمه اوسايبوس احد الفلاسفة المسيحيين الاسكندرانيين وقد مر ذكره في ما تقدم) ودونيوسوس الذي كان من اعضاء محكمة اريوس

باغوس وقد تقدم ذكره أيضاً في الكلام على اليونانيين وباسيليوس
وغريغوريوس النازينزي ويوحنا فم الذهب وغيرهم وحصل اذ ذاك اجتهاد
في تعلم اللغات الشرقية مع الرغبة وشرعوا في ترجمة الكتب المقدسة على الاسلوب
العبراني وأسّس هذا البابا مكتبة الواتيكان (السراية الباباوية) وجمع فيها من
الكتب نحو ٥٠٠٠ مجلد وكان هذا المقدار منها في ذلك الوقت بعد من العجائب
ثم انه من حين وفاة البابا نيقولاوس المشار اليه في سنة ١٤٥٥ م الى ظهور
البابا لاون العاشر اندي ارتقى الى الكرسي سنة ١٥١٢ م لم تجد لها العلوم في
رومية محامياً ذا غير الا البابا بيوس الثاني الذي جالس على الكرسي سنة ١٤٥٨
وتوفي سنة ١٤٦٤ م

ولما كانت العلوم مهتلة في رومية بعد وفاة البابا نيقولاوس الى ظهور البابا
لاون العاشر على ما ذكرنا كانت دولة العلوم اذ ذاك بفلورنسا عاصمة بلاد
التوسكانا لانه في اواخر القرن الرابع عشر كان يوحنا دو ميديشي قد حاز
اموالاً جسيمة اكتسبها من التجارة وكان محامياً للعلوم والاداب والفنون المستظرفة
وكان يحث عليها ويرغب فيها حتى في مدة نفيه فانه امر المعماري الشهير المسمى
ميشيلود ميشيلوزي وكان قد صعبه في النفي ان ياخذ بالرسم صورة اطرف
المباني الموجودة بمدينة البندقية وامره ايضاً ان يبني وبزيت على طرفه خزانه
كتب في دير القديس جاورجيوس ببلاد البندقية ثم شتمها بالكتب النفوسه
المكتوبة بخط اليد واراد بذلك ان يترك للبنادقة اثرًا من اثاره علاوة على
شكره لصنيعهم معه حيث انهم احسنوا قراه واكرموا نزله في مدة نفيه

ثم لما عاد لوطنه وتمكنت شوكنه تفرغ بالكلية لمرغوباته العظيمة وكان من
تلك المرغوبات استكشاف كتب الاقدمين وحياتهما فجمع مقداراً عظيماً من
الكتب المعتبرة التي لا تدرك لها قيمة في اللسان اليوناني والعبراني والكلداني
والعربي والسرياني والهندي وصنع منها خزانه كتب شهيرة زادت فيها ايضاً
ذريته من بعده زيادة بالغة لاسيما حفيدته لورانت الاتي ذكره حتى صار لها

شهرة عظيمة في بلاد اوروبا ذات العلوم والمعارف وصارت تسمى فيها بالملكتبة
 الميديشولورانتية ومعناه المنسوبة الى لورانت الميديشي
 وكانت اذ ذاك بمدينة فلورنسا رجل اخر يقال له نيقولونيغولي استعمل
 امراله في مثل ذلك فقد بلغ عدد الكتب التي جمعها ٨٠٠ مجلد ما بين يوناني
 ولايني وشرقي وهو مقدار جسيم بالنسبة الى ذلك العصر واوصى عند موته بان
 يجعل هذه الكتب مكتبة عامة ينتفع بها عموم الناس وتكون تحت نظارة ١٦
 ناظرًا وكان من جملةهم كوسم (قزما) دوميديشي لكن لما مات نيقولو المذكور
 كان عليه ديون كثيرة فالنزم كوسم هذا بقضاءها على ان يكون له التصرف في
 تلك الكتب وحده ثم نقلها الى دير كان بناه وزخرفة بالبحر الزخارف وسماه
 دير دوميكاني سنت مرق (ماري مرقص) لينتفع بها اهل وطنه
 وكان ممن امتاز بين العلماء الذين بذلوا وسعهم باعانة كوسم المذكور في
 البحث عن الكتب المكتوبة بخط اليد ثلاثة رجال وهم بونجيوبروكسيولتي
 وقد مر ذكره وغوارينو دووبرونه وبوحنا اورسيا فاما بونجيوفانه عشر في
 ديرة فرانسوا والمانيا على مولفات كتليان وبلوته بتامها ولم يكن عندهم قبل
 ذلك منها الا البعض وعشر ايضا على الكتب الثلاثة الاولى من تاليف
 والربوس فلاكوس وعلى عدة خطب من خطب قيرون وعلى تاليف كلرهيل
 وعلى قصيدة لوكريس وقصائد ايستاس وسايوس ايتاليكوس ثم ارتحل من
 المانيا الى انكلترة وارسل منها الى ايطاليا قصائد في شان الرعاة نظم كنفورينوس
 وبعض مولفات بترونه واما غوارينو وبوحنا اورسيا فانها طافا مدينة
 القسطنطينية وغيرها من مدن المشرق وجمعا مقدارًا عظيمًا من الكتب النفيسة
 غير ان غوارينو انكسرت به السفينة وهو راجع الى ايطاليا ففرق ما كان معه
 من الكوز الادبية واما اورسيا فانه وصل الى مدينة البندقية ومعه ٢٢٨ كتابًا
 من جملةها مولفات افلاطون وبيروكلوس وبلوتين ولوسيان واغزيغون وتوارنج
 اريان وديون وثيودوردو سپيليا وجغرافية اسطرابونيس وقصائد كليماك

ويندار واپيان والفصائد المنسوبة الى ارفة
ولما فتحت القسطنطينية بآل عثمان وماجر منها عدة علماء الى ايطاليا
قصدا وملبياً في وطن العائلة الميديشية لما بلغهم اذ ذاك ما كان حاصلًا في
فلورنسا من اكرام معالي اللغة اليونانية وما كان مشهوراً من اعثناء كوسم
الميديشي المذكور بشأن العلوم والآداب وسعيه في تقدمها وتوسيع دائرتها فوجدوا
بفلورنسا اكرم نزل واحسن قري وكان اشهر هولاء العلماء دينزيوس
شلكونديل ويوحنا ارچيرويل واندرونيكوس كالستوس وقسطنطين ويوحنا
لاسكاريس وكانوا كلهم متقدمين في الفلسفة بذهب افلاطون وكان قد احيى
هذا المذهب في ايطاليا مرسيل فيسين حيث ترجم مؤلفات افلاطون وكان
مرسيل هذا راهباً قانونياً بفلورنسا فتقوى بهولاء العلماء ذلك المذهب بهذه
المدينة بحيث صار يمكنه ان ينازع مذهب ارسططاليس في الظهور والسلطة
وكان لكوسم المتقدم ذكره المظهر العظيم في المباني العامة العديدة التي
زين بها فلورنسا وقد استعمل في بنائها اصالة كلاً من ميشلوز وميشلوزي
وفيلبس بروناسكي وكانا من انجب المعماريين وامهرهم حتى ان الثاني غير وبدل
في فنه وصنعه بل الاولى ان يقال انه اعاد ذلك الى اصول الظرافة الحقيقية
حيث ابدل صورة العمارة القوطية باشكال العمارة القديمة اليونانية ويكفي ان
يقال في مدحه انه هو الذي شيد القبة الفاخرة التي على كنيسة فلورنسا الكبرى
وفي هذا الوقت سبك غيرني من معدن الشبة او الشهبان (وهو بالتحريك
النحاس الاصفر) ابواب كنيسة ماري يوحنا التي قال فيها ميخائيل انجلوانها
جديرة ان تكون ابواب الجنان وكان هناك رجل ماهر في فن النقر والنحاتة
فكان يصنع بازيماء من الرخام اشكالاً ظريفة كانت قد تركت من عهد
القدماء وكان كل من مساكسيو وفيلبس ليبي يمكن من فن الرسم فكانا
يكسبان القماش باقلام رسهما بهجة ظاهرة وحسناً بينما لا يوجد نظيره في نموذجات
غيدودوسيانا وسجايو وچيونو

ثم مات كوسم في سنة ١٤٦٤م وخلفه ابنة بطرس في محبة العلماء واصحاب المعارف ولكن لما ظهر لورانت (اولورينصوص) لوما نيفيك اي الظريف حفيد كوسم المذكور سنة ١٤٧٢م فاق على فخار جده فكانت اسعد اوفاته هي التي يصير فيها مجالسة مشاهير العلماء الذين كانوا يجتمعون في سرايتو بمدينة فلورنسا او بصحبونه في بيوت منتزهاته التي كانت له في فيزولة وكارفي وكنجبولو وهو الذي احيا اكدمة بيزة منذ تولى المملكة وكانت قد طرحت في زوايا الهسيان بعد ان كانت حازت من الشهرة ما تستحقه مدة قرنين

ولما كان من صغره قد نشأ على التمسك باصول فلسفة افلاطون عزم على ان يجدد الموسم الذي كان يعمل لافلاطون في كل سنة وصم على ان يعيده على وجه اتم في الفخار وكان هذا الموسم لم يزل يعمل بعد موت هذا الفيلسوف العظيم الى ان ظهر بلوتين وبورفير وكابا من اتباع مذهبه فتعطل من ذلك الوقت (راجع الفصل السادس من البحث الاول في الكلام على السلطنة الرومانية) مدة تبلغ ١٢٠٠ سنة وبترتيب هذا الموسم الذي مكث عدة سنين بقي اعتبار فلسفة افلاطون واشتهرت شهرة عظيمة حتى ان اصحاب دراستها كانوا عند الناس اعظم احتراماً واكثر معرفة من ابناء عصرهم

وكان التعليم في مدرسة بيزة التي مر ذكرها يكاد ان يكون منصوراً على اللسان اللاتيني بخلاف فلورنسا فان اللغة اليونانية انتشرت فيها بهمة لورانت المقدم ذكره وصار يتعلمها عموم الناس وكان معلوماً اما يونانيين اصليين او علماء ايطاليين يضا هونهم في المعارف حتى تخرج في هذه المدرسة كثير من الافاضل الذين نشروا اللسان اليوناني في ايطاليا وفرنسا والمانيا واسبانيا وانكلترا واول من علم في هذه المدرسة من المدرسين هو الشهير بوحنا ارچيرويل الذي مر ذكره ثم خلفه جماعة افاضل وهم ثيودور الغزي وديمتر بوس شلكوند بل وانجلوولتيان وغيرهم

وبواسطة هؤلاء المدرسين قطع كل من علي الفلك والطبيعة علة الاوهام

التي كانا عليها من قبل ورفع المعلم بولس توسكانلي لاجل تعيين الانقلابين
مئة الذي هو في الواقع ونفس الامر اعظم آفة فلكية وجدت في الدنيا وهذا
العالم هو الذي حرر الأزياج الألفونسية (وهي تقاويم فلكية جمعها ألفونس العاشر)
وحرر أيضاً تقاويم العرب وعمل ارساداً عجيبة تتعلق بحركة الشمس والقمر
واستصوب مقاصد كرسنف كلب حين عرضها هذا الملاح عليه .

وفي هذا العصر صنع لورنزودو ولبابا للورانت الميديشي الساعة البدعية
التركيب التي مرّ ذكرها في الكلام على التقدّمات الصناعية الى نهاية القرن
الخامس عشر

وسعى فرنسيسكو برنجيري في تسهيل مطالعة الجغرافيا فألف فيها كتاباً
منظوماً

وفي العصر المذكور ظهرت عدّة رسائل في ما فوق الطبيعيات اهدى
مولفوها البعض منها للورانت الميديشي

وقد شهد مدرسو الطب الميرة وقتئذ بان علم الطب تقدم واتسعت
دائرته في عصرهم بهمة اورانت المذكور واعنائو بشانه وانه لم يتساهل قط في ما
به يبلغ هذا العلم درجات الكمال في اقرب وقت وانه لم يهمل ايضاً في ما به
تهذيبه وتخليصه من الاوهام الباطلة التي كان مشحوناً بها

وفي ذلك العصر ايضاً فاق انطونيو اسكرسيا لايس جميع اسلافه في علم
الموسيقى علماً وعملاً حتى قيل ان اورانت مدحه على ذلك بقصيدة

وقد جمع دونائيلو باجتهاده ومهارته مقدراً عظيماً من الاثار القديمة واعانه
على ذلك كوسم الميديشي الذي تقدم ذكره بجوده وجزيل انعامه ثم ورث
بعد موته هذه الاثار ابنة بطرس الاول وزاد فيها زيادة عظيمة ولما مات بطرس
ورثها ابنة لورانت وهي الآن تُعرف باسم موزوم فلورانتينوم وقد خصص لورانت
مبالغ جسيمة من الاموال اعدّها لتوسيع هذه الاثار والزيادة فيها كما صنع
ابوه قبله بما يعز وجوده من القطع النفيسة وجعل تلك الاثار واسطة في ترغيب

ابناء وطنهم وحثهم على التشبث بالفنون والصنائع وانشأ في بساتين المتصلة بدير
القديس مرقس مدرسة واكمه لاجل مشاهدة الاتيكات (الاثار القديمة)
ومعرفتها ووضع فيها تماثيل وجعل بها صوراً على هيئة الانصاف العلياء من
الابدان وماشياء اخرى من الاثار القديمة المذكورة .

ورتب لكل من امتاز من الشبان في حرفته بين الاقران مكافأة على
اشغاله فكان ذلك هو السبب الاصلي في سرعة تقدم الفنون والصنائع بفلورنسا
على وجه عجيب في اخر القرن الخامس عشر من الميلاد ثم انتشرت من فلورنسا
بالتوالي في سائر بلاد اوروبا

وقد تخرج بمدرسة بساتينه اغلب اصحاب البراعة والفراخ الجيدة من
رجال ذلك العصر وبالفرض لو لم يتخرج بها الا ميخائيل انجلو وماروني لكان
ذلك كافياً في الوفا بغرض مؤسسها فان هذا الرجل الماهر كان جامعاً بين
فنون الرسم والنقارة والعمارة تعلم اصول هذه الفنون في تلك المدرسة ثم زاداها
حسناً وبهجة باعماله الباقية على مر الازمان

وقد زين لورانت فلورنسا بالمباني العديدة الخصوصية والعمومية وهو
الذي احب فن النقش على الاحجار النفيسة وفن الرسم والتصوير بقطع الاحجار
الدقيقة المناسبة المتخالفة الالوان بتوفيقها مع بعضها حتى يتركب من مجموعها
صورة من الصور وقد كان هذا الفن قبله مهجوراً مدة القرون الوسطى وحاول
احياءه بعض الرسامين من المتأخرين فلم يخرج من ذلك على طائل

القضية الثانية

في الاكتشافات الارضية

كان الدوك اينيريكوس دوك ديزو الذي هو ثالث اولاد يوحنا الكبير ملك البورتغال المقدم ذكره له ميل شديد الى السياحة والاسفار وكان من اعلم اهل عصره بالجغرافيا والرياضيات فعمل دار اقامته مدينة يقال لها سجرس بالقرب من رأس سنوسان باقليم الجرف وامر بانشاء مدرسة بحرية يتعلم فيها الشبان من اولاد الامراء اعضاء ديوانه وكان له مدخلة في اختراع الاصطراب وهو اول من عرف منفعة البوصلة اي بيت الابرة التي يقال بانها كانت معروفة عند الصينيين قبل ذلك بزمن طويل لكن لم تعرفها اهالي اوروبا الا بعد ان اخترعوا الزجاجات العدسية فكان هو ودولة اسبانيا التي مر ذكرها سبباً في تينك المحادثتين العظيمين جداً بالنسبة للنوع الانساني على العموم ولاهل اوروبا على الخصوص اللتين ظهرنا بينما كانت التجارة وغيرها من احوال اوروبا الادبية على الصورة التي سبقت تفاصيلها في ما مر فغيرنا في الشوكة والاخلاق والحرف والصنائع والحكومات عند جميع الشعوب والطوائف وها اولاً السلوك الى بلاد الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح الكائن في جنوب افريقية وثانياً استكشاف الدنيا الجديدة المسماة امريكا وكان يمكن هنا الاكراه بوضع تاريخ واسمي مكتشفي هذين الاكتشافين كل منهما على حدته طلباً للاختصار وتجنباً للتفاصيل التي تزيد في حجم هذا

المؤلف بل ربما اخرجنا عن موضوعه لكن الرغبة في ان يقف من يتنازل الى مطالعتهم من بني الوطن على مثابة ارباب المعارف واصحاب المقاصد العظيمة على تحمل المشاق وتضحياتهم صوالحهم الخصوصية. للحصول على المنافع العامة وصبرهم على مصادمة الموانع التي تعترضهم اوجبت الى تلخيص ذلك بقدر الامكان بعد ان نحذف ايضاً كل ما كان من تعلقات الامور السياسية والاجتات الدينية وغيرها مما هو خارج عن المقصود وفي ذلك مطلبان وهما

المطلب الاول

في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح

والاصل في ذلك ان هذا الدوك المشار اليه سير سفينتين من سفن في سنة ١٤١٢م فجازنا رأس نون بستين فرسخاً ثم لم يتجاسر من كان فيها من الملاحين على اجتياز رأس بيادور الواقع على البعد من دائرة الانقلاب بدرجنين وفي سنة ١٤١٨م بعث حنا غونزالس وزقسود ترستان وازتكسيرة لاجتياز هذا الراس فالتقيا العاصفة على جزيرة صغيرة سميها بورد نوسانتو ثم توغلا في الحج البحر وتوصلا الى جزيرة مادرة في سنة ١٤١٩م وقد اشهر ان هذه الجزيرة اوقدت فيها النار لتحرق ما كان يسورها من الغابات والاشجار الكثيرة وتكون صالحة بعد ذلك للزراعة فكثت النار بها ٧ سنين حتى صارت ارضها من اخصب الاراضي واصلحها للزراعة فنقل اليها الامير المذكور قصب السكر من سيسيليا وفسول الكروم من مالوازية فنتج فيها هذان الغرسان نجاحاً عظيماً حتى انه بعد سنوات قلائل صار سكر مادرة ونبيذها من اعظم بضائع البورتغال التجارية

ولما لم يتيسر للبورتغال الاتصال مع اهالي اسيا بواسطة طريق في البر
مستقيمة سهلة عزم هذا الامير على سلوك طريق في البحر توصل الى بلاد الهند
بالطواف حول افريقية وفي سنة ١٤٢٢ م اجناز البورتغالون رأس بيادوروفي
سنة ١٤٤٠ م سافر انطوان غوانزليز ونوجنو ترستان ووصلا الى الرأس الأبيض
ولما قدم اهل تلك البلاد الى البورتغال بعد ذلك بستين مقدارا من التبر
لكي يطلقوا لهم بعضا ممن كانوا قد اسروهم سوا هذا المثل سر بودورد وازداد
تولعهم بالاستكشافات رغبة في هذا المعدن فتجددت في مدينة لاغوس سنة
١٤٤٤ م كيبانية افريقية وجهزت ١٠ سفائن بالاهبة الحربية واستولت على
جزيرة لاس جزراس ونااروبندر وفي سنة ١٤٤٥ م وصل غنزالودوسنترة احد
روساء عساكر الكيبانية المذكورة الى جزائر جين التي اشتغل فيها البورتغال
بعد ذلك بقال في التجارة بالذهب واجناز دينيس فرد ننديز مصعب نهر
سنغال ووصل الى الرأس الاخضر الذي استكشف جزائره انطونيو دونولي
سنة ١٤٦٢ م وطاف جزائر اسورة التي كشفها قبله غوانزليز ولهود وكبرال
وكان جميع من لاقاه البورتغال من الامم في استكشافاتهم الى نهر سنغال سود
البشرة ككون الابنوس فزعموا ان ذلك ناشي من حرارة اراضيهم لقربها من خط
الاستواء ثم توفي الدون ابنيريكوس المذكور في سنة ١٤٦٣ م واتخذ من شماره
هذه الكلمات وهي الرغبة في الخير خير

وكان ابن اخيه الفونسوس الخامس مستوليا على سرير المملكة من سنة
١٤٢٨ م فسافر في ايامه يوحنا دوسنتريم وبطرس دسكالوته حتى وصلا الى
ما وراء رأس سير اليونة واحداثا في شواطئ غينا مينا تجارة ذهب وكذلك وصل
رجل اخر يقال له فرننديو الى الجزيرة المسماة باسمه ثم استكشف ايضا غير
هولاه من ارباب الملاحة جزيرتي مارنوما وانوبون سنة ١٤٧١ م ولما تجاوز
البورتغال خط الاستواء اعجبوا من تلك الاراضي التي هي جزء من المنطقة المحترقة
حيث وجدوها عامرة كثيرة الخصوبة

ثم ازديت رغبتهم في عهد الملك يوحنا الثاني الذي خلف الفونس الخامس المذكور في سنة ١٤٨١م وجعلوا عمارة قوية في سنة ١٤٨٤م واستكشفوا مملكة بنين ثم تجاوزت هذه العمارة خط الاستواء بأكثر من ١٥٠٠ ميل ووصلت الى مملكة كونغو ثم اقلع رجل يسمى ديفوكام في نهر كونغو الذي يسميه اهل تلك البلاد زهيرة وبنى يوحنا الثاني المشار اليه على سواحل غينا حصوناً ليتمكن من استكشافاته هذه الكائنة على شواطئ افريقية الغربية وبايعة عدة من صغار امراء البلاد المذكورة بالطوع والاختيار على ان يدفعوا له الجزية والخراج وجبر غيرهم على ذلك بقوة الاسلحة

ثم لما توغل البورتغال جهة الجنوب وجدوا ارض افريقية القارة تضيق وتعني بالتدريج الى جهة المشرق لانها تمتد بالانساع كما زعمه بطليموس قديماً (وهو صاحب الجغرافية الذي سبق ذكره في الكلام على المصريين) فقوي املهم بالوصول الى بلاد الهند الشرقية من البحر ووثقوا باخبار الاسفار التي وقعت قديماً من الصوريين حول افريقية (على ما سبقت الاشارة اليه في الكلام على الفينيقيةين وعلى نخوس ملك مصر في الكلام على المصريين) بعد ان كانت تعد من الخرافات

وبينا كانوا يجهزون ارسالية جديدة اذ بلغهم من سفير ملك بنين انه يوجد في شرقي افريقية مملكة ذات شوكة وملكها مسيحي فاستنج ملك البورتغال من ذلك ان هذا الملك ينبغي ان يكون هو الامبراطور (نجاشي الحبشة) الذي كان يزعم اهالي اوروبا بانه هو القسيس يوحنا^(١) لاغترارهم بخطاء روبروقيس

(١) في اواخر القرن الحادي عشر هجم كاهن من النساطرة الساكنين في بلاد التتار باسيا بالقرب من كفاي اسمه يوحنا على تلك المملكة التي كانت حينئذ بدون رئيس اذ مات ملكها المسي كوارخان او كخان وملكها وصار ملكاً على مملكة عظيمة بعد ان كان قسيساً وتسمى عنخان وكان النساطرة يفاخرون به ملوك ذلك العصر الى ان ظهر جنكيز خان وقتل ابنه او اخاه الذي كان خليفة له نحو ختام القرن الثاني عشر غير ان

ومقبول من السواح المخططين (مقبول هو مركوبولو الذي تقدم ذكره في الكلام على التقدّمات التجارية في الفصل السابع من البحث الثاني من الكلام على السلطنة الرومانية) فشرع في اجراء الوصلة بينه وبين هذا الملك موملان بصلة منه اخبار واعانات تساعده على نجاح مشروعه ثم انتخب اثنين من اولاد الامراء يقال لاحدهما بيتروود وكوديلام والثاني الفونس دويو وكانا يعرفان اللغة العربية وارسالها ليكونا سفيرين له عند ملك الحبشة وامرهما ان يجععا من البلاد التي يطلعان عليها ما يصل اليها من الاخبار في شان تجارة الهند

وفي مدة ما كان يسعى هذا الملك هذا السعي براً كان برتلي د باز قد اجناز الراس المرتفع الذي هو حد افريقية من جهة الجنوب لكنه لما قاسى في هذا الهل من الشدائد وعواصف الرياح ما لا مزيد عليه سماه رأس الشدائد لكن الملك بوحننا الثاني حيث صار لا يشك في انه عثر على الطريق التي برغبها غير هذا الاسم وسماه رأس الرجاء الصالح وكان ذلك في سنة ١٤٨٦ م

ثم تحقق املة اخيراً بالاخبار التي وصلت اليه من سفيريو اللذين ارسالها الى بلاد الحبشة لانها ذهبا اولاً الى الاسكندرية ثم الى القاهرة ثم خرجا منها الى مدينة عدن وافترقا من هناك فاقبل بيوا الى جهة بلاد الحبشة وقتل فيها واما كويلام فانه اقلع الى بلاد الهند الشرقية واطلع على مدينتي كانوروغوا في ساحل ملبار وعلى جزيرة هرموز في الخليج الفارسي ومنها رجع الى سفالة الواقعة على الساحل الشرقي من افريقية ورجع الى القاهرة ثم دخل بلاد الحبشة واقام في ديوان النجاشي عدة سنوات وبعث النجاشي سفيراً من طرفه الى بلاد البورتغال ايضاً وكذلك كويلام المذكور ارسل الى لشبونة كرسي البورتغال اخباره اليومية فاستنبط الملك المذكور حينئذ من ملحوظاتوه ومن الاخبار التي جمعها ان الانسان اذا طاف حول افريقية من البحر عثر على طريق توصل الى بلاد الهند

اهالي اوروبا كانوا لازلوا يظنّون بان بلاده هي مركز الراحة والغنى وانها هي بلاد الحبشة على ما تقدم

ثم بعد وفاة هذا الملك تولى خليفته ايمويل لوفورتوني (اي السعيد) فسافر في عهده رجل يقال له وسكودوغاما سنة ١٤٩٧ م ومعه ٢ سفن و ١٦ رجلاً وكابد اهل الأشد يدة حتى جاوز راس الرجاء الصالح ومرّ بساحل سغالية ووصل الى جزيرة موزمبيق فوجد بها اماً يتكلمون باللغة العربية وظهر له ان الادميين والحيوانات والنباتات قد تغيرت اشكالها من درجة عرض الجزائر المخالدة الى موزمبيق ورأى هناك انساناً يشبهون اهل الارض القارة المعروفة وهم مسلمون ووجد ان المسلمين الذين يسافرون من المشرق الى المغرب يتلاقون مع النصارى الذين يسافرون من المغرب الى المشرق في احد اطراف تلك الارض

وكانت جزيرة موزمبيق المذكورة احد مراكز تجارة سغالة والهند وكانت العرب المقيمون بها كالافرنج تقريباً في فن الملاحة اذ يقال بانهم كانوا يعرفون استعمال البرجل البحري وعندهم بوصلات وخرائط بحرية وآلات فلكتية لكن وسكودوغاما المقدم ذكره هرب منها خوفاً لحقته من اهلها وسافر الى جزيرة مونياسة ومنها ايضاً الى مملكة ميلندة فتلقاه ملكها بالترحيب واعطاه واحداً من الربانيين (اي روساء الجريين) ليوصله الى كالكتة الواقعة في ساحل ملبار فوصل اليها بعد ٢ شهور من خروجه من لشبونة وهناك ايضاً استقر راي راموزين كالكتة على قتله بواسطة سعاية عرب افريقية وغيرها من الذين كانوا يتاجرون وقتئذ في بلاد الهند لكنه تخاض من هذا الخطر بشيان وشبان ورجع الى اوروبا ووصل الى ميناء بيليم سنة ١٤٩٩ م وكان ذلك بعد رحلته بستين شهرين ودخل الى مدينة لشبونة بموكب واحفال عظيم فجملة الملك اميرال الهند واغلق عليه بالاموال مكافاة له ولقب الملك نفسه بلقب جديد وهو رئيس الملاحة والفتوح والتجارة في بلاد الحبشة والعرب والعم والهند

المطلب الثاني

في اكتشاف الدنيا الجديدة المسماة امريكا

وفي ذلك الوقت حصل مشروع اخر غريب عجيب وكان قد قارب النجاز تحت رعاية الملك يوحنا الثاني ملك البورتغال المقدم ذكره ايضاً وذلك ان ملاحاً جنوبياً يقال له كرسنف كلب تولع من صغر سنه بفن الملاحة اذ كان عمره ١٤ سنة فarse حتى فاق فيو اقرانه ووصل فيو الى اعلى درجة في الفخار وكان مقيماً في مدينة لشبونة كرسي البورتغال وتزوج بينت برتلي برستريلو احد ربابي البورتغال ونظراً لما اكتسبه من المعارف عزم على استكشاف طريق اخرى الى بلاد الهند غير الطريق التي كانت السفن البورتغالية اذ ذاك قد سعت في فتحها الى تلك البلاد فعرض على الملك يوحنا الثاني المذكور ان يجر له ما هو عازم عليه تحت الراية البورتغالية من المقاصد العظيمة لكن وقع بجهة من الغدر والخيانة الناشئة عن الجبن ما الجاه الى مفارقة البورتغال فارتحل الى اسبانيا وعرض على ملكها ايزابيلا وفردينند ما اعرضه على ملك البورتغال فاطلاه مدة طويلة ثم سمع انه بثلاث سفن عبر بها المحيط الاثنتينيكي وذلك سنة ١٤٩٢م ووصل بها الى الدنيا الجديدة

ويقال ان السبب في مشروع كلب المذكور هو امعانه النظر وكثرة تأمله بانه يمكن استكشاف طريق مستقيمة الى بلاد الهند الشرقية اقصر من الطريق التي ارتكب البورتغال فيها المشاق باجتيازهم من الراس الاخضر ووصولهم الى خط الاستواء وان من سمر من جهة الغرب في البحر المحيط الاثنتينيكي فلا بد انه يجد بلاداً جديدة هي على رايه تكون جزءاً من اراضي الهند القارة ونشأ له هذا

الراي الفاسد الذي بُني عليه أخيراً الأمر الصحيح اعني استكشاف امر بكا من اسبابه هي أولاً لكون الارض كروية الشكل وان مقدار جرمها محدود مع التدقيق والضبط فيستنتج من ذلك عقلاً ان اوروبا واسينا وافريقية ليست الا جزءاً من الكرة الارضية وان الارض الفارة الواقعة في النصف المعروف من الكرة يلزم أن يوازها ارض قارة اخرى في النصف المقابل ثانياً قد عَصَدَ هذا الاستنتاج العقلي بما ابداه بعض ارباب الملاحظة من المحفوظات والتجربات ومن ذلك ان ربانا بورتغالياً كان توغل جهة الغرب اكثر من غيره من اهل ذلك العصر فوجد قطعة خشب منقوشة عائمة على الماء تدفعها نحو ريج غربية فاستنتج من ذلك انها آتية من بعض اراض مجهولة واقعة في تلك الجهة ومنها ايضاً ان بعض اصهار كلب المذكور وجد في غربي جزيرة مادرة قطعة خشب ايضاً ترى فيها صنعة النوع الانساني والريج المذكورة تدفعها اليه وكثيراً ما شوهد على جزائر اسورة بعد هبوب رياح غربية مكثت مدة من الزمن اشجار مقاوعة وشوهد مرة جثتا رجاين متبين لانتشبه سنة وجوهها سنة اهل اوروبا وافريقية ثالثاً استند ايضاً على تخطيطات بعض مولفي اليونان كقنارياس ونياركة واونيز قربطة وبعده المولف بالينوس الطبيعي الذين ظهر منهم التنافس الباطل في توسيع الاقطار الواقعة خلف نهر الكيك وكذلك الشهير مرق بول الذي خطط في القرن الثالث عشر تخطيطات بدعية العبارة للملكي قاناي وسينغو وعدة ولايات اخرى فانه اورد بذلك ما يدل على اثبات مبالغات الاقدمين بالنسبة لامتداد بلاد الهند وبالجملة والنفصيل انه استنتج بان اقصر الطرق واعظمها استقامة من اوروبا الى الاجزاء المتوغلة في الشرق من بلاد الهند هي ان يركب المسافر البحر ويسير فيه جهة الغرب وفي كلام بعض قدماء المولفين كافلاطون وارسططاليس وسنيكة ما يصلح لتقوية رأي من يقول بقرب بلاد الهند الى الاجزاء الغربية من الارض الفارة المعروفة

ثم حيث كان لا بد لكلمب المذكور في تجيز غرضه من حماية دولة من الدول
 تقوم بصاريفه خطر انه ان يجعل فخار ذلك لوطنه لكن مشورة السنك الجنوبية
 لم تجبه الى مطلوبه حيث ردت عريضة وعدها من الهوس والهذيان فقصد
 دولة البورتغال واخذ ارضها وطناً له ومن ثم فوض بوحنا الثاني ملك
 البورتغال المقدم ذكره قضيته هذه الى ديفورا اورينز اسقف مدينة سبته واثنين
 من اطباء اليهود كانوا يعرفان علم القسغرافيا (اي علم هيئة الدنيا) ورسم
 العالم فغدر هولاء القضاة بكلمب بعد ان اقلعوه مدة طويلة وعيل صبره من
 مطلم وارادوا ان يسلبوا منه فخر هذا المشروع الذي تصدى اليه ووافقهم على
 ذلك نفس الملك ايضاً ضد ما كان يُعهد فيه من مكارم الاخلاق وبعضها
 سفينة امروا ملاحها ان يسيروا في الطريق التي عينها كلمب لكن لما كان
 رئيسها جباناً وخاف من اختلاف الرياح عاد الى لشبونة مشنعاً على هذا المشروع
 العظيم فاغناظ كلمب من ذلك وترك البورتغال وتوجه في اواخر سنة ١٤٨٤م
 الى اسبانيا وعرض مقصده على ملكيها فردينند وايزابيلة وارسل اخاه ايضاً
 بعد ذلك بقليل الى هنري السابع ملك الانكليز وبقي كلمب ٥ سنوات وهو
 مشتغل برد المناقشات والاعتراضات التي كان يوردها عليه المنوطون بالنظر
 في تلك القضية ويبين لهم من المعارف ما تزول به جهالتهم وتستدير عقولهم لكنه
 لم يخرج من ذلك على طائل لان فردينند وايزابيلة كانا وقتئذ مشغولين في
 الحرب مع العرب فقصد حينئذ دوكي مدينة مدونية ومدينة سيليب بسبب
 كثرة غنائمها لكنها لم يجيباه الى امر لم يبيح اليه ملكاها فردينند وايزابيلة
 المذكوران فقصد ان يتوجه الى انكادرة لان اخاه كان قد وقع في ايدي ارباب
 الصيال الجريين فاستأسروه عدة سنوات لكن ترجاه بوحنا بيريس رئيس
 الدبر الذي تربي فيه اولاده ان يؤخر سفره وكتب الى الملكة ايزابيلة ان
 تلفت الى مقصد كلمب العظيم الذي لم يخطر لاحد قبلة فائر فيها قوله واذعنت
 لما ابداه من الأدلة والبراهين واستدعت كلمب الا انه بقي مهلاً الى ان فطحت

مدينة غرناطة سنة ١٤٩٢م وحينئذ نجح سعي اصحابه واعوانه وهم كنييلة وستجبل عند الملكة ايزابيلا في تميم مفاصله فاستدعت الملكة ثانياً وكان قد خرج من اسبانيا مصمماً على عدم العودة اليها فلما ان رجع ارهنت هذه الملكة ما في حوزتها من الماس والجواهر النفيسة لان خزائن اموالها كانت قد صارت وقتئذ على حالة ردية من جرى الحروب التي اثارها هي وزوجها على العرب حسبما سبقت الاشارة الى ذلك وبعد مذاكرات قليلة وضع الملكان فرديند وايزابيلا امضاهما في ٧ نيسان سنة ١٤٩٢م على معاهدة تتضمن انهما بوصف كونها ملكي المحيط قد قلدا كلب، منصب الاميرال الاعظم على جميع البحار والجزائر والاراضي الفارة التي تصدده لكشفها وان هذا المنصب يكون وراثياً له ولعائلته من بعده وقلاه أيضاً بمنصب نائب ملك في جميع ما يكشفه من الاراضي وهذا المنصب يكون ايضاً له ولعقبه من بعده وان ما يتحصل من الاموال التجارية في الاراضي التي يكشفها يكون له العشر من ارباحها وانه مطلق التصرف في فصل الدعاوي والخصومات مع ان فرديند الذي امضى هذه المعاهدة مع ايزابيلا لم يكن للملكة التي هي ارغون دخل في هذا المشروع اصلاً بل كان فتح امريكا من خصوصيات زوجته ايزابيلا المذكورة ملكة قسطنطينة لانها هي التي قامت بجميع المصاريف اللازمة على ما ذكرنا واعدت ثلاث سفن لتعد في هذا العصر الا من الزوارق الكبيرة ركب كلب منها واحدة سماها القديسة مريم ورافقه في الاثنتين الاخرين المساتين لابنتا ولانجنا ثلاثة اخوة من عيلة يقال لها بنسون كانوا من اغنياء التجار وخطاروا مع كلب باموالهم وانفسهم وبلغ مصروف هذه السفن الثلاث نحو ١٠٠ الف فرنك

وفي ٢ آب سنة ١٤٩٢م سافروا جميعاً نحو الغرب على طريق الجزائر المخاللات وبعد ثلاثة اسابيع توسطوا في ليج المحيط وانقطعت عنهم رؤية الطيور وغيرها من علامات القرب الى البر ووقعوا في اليأس والقنوط واخذوا يلومون انفسهم ويفكرون انهم سلكوا في هذا الامر مسلك المجانين وارادوا الرجوع بل

افضى بهم الهوس والوقاحة الى طلب الفناء هذا الاميرال في البحر اكن كلب
سلك مسلكاً سكين به غضبهم ولا سيما لما ظهرت لهم الطيور بعد قليل جهة
الجنوب الغربي فتصد كلب هذه الجهة لكنه سافر اياماً ولم يصادف براً فيؤسس
الملاحون ثانياً وقصدوا العود الى اوروبا فالتزم لهم كلب انه ان لم يجد براً بعد
٣ ايام يجيبهم الى مطلوبهم

ثم في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الاول اقبل الاسبانبول على
جزيرة مخضرة ذات اشجار وغابات وجد اول تروي ارضها فعند ذلك اقاموا
الصلاة شكرًا لله وبكى من شدة فرحهم بهذا الاكتشاف السعيد وخرقوا على اقدام
الاميرال كلب بطليون الصفيح عما فرط منهم بحبه ووصفوه بأنه ملهم من الله
وانه يفوق البشر بعد ان كانوا جعلوه من اوباش الناس واساؤه بالسب والشتم
فخرج كلب عند طلوع الشمس الى هذه الجزيرة شاهراً سيفه واصحابه خلفه على
نغم الموسيقى العسكرية وكان اهل الجزيرة ينظرون الى هذا الامر الجديد وتملك
كلب الارض ادولة قسطية وليون ودعى اسم الجزيرة سان ساوادور وكان
اهاليها يسونها غواناهاني ووجد اهلهما يعلقون في انوفهم صفايح من الذهب
فسألهم كلب من اين يستخرجون هذا المعدن فاشاروا له من جهة الجنوب
ثم استكشف بلاداً اخر ساها له من كان معه في السفينة من اهالي الجزيرة باسم
كوبا ثم دأبوا ايضاً على جزيرة يكثر فيها الذهب في جهة الشرق وسماها
باسم هايتي فوصل اليها في اليوم السادس من كانون الاول وسماها اسبانبول
فيادله اهلهما على ذهبهم باجراس وخرز من زجاج ودبابيس ثم دأبوا ايضاً على
ان الذهب يأتي اليهم من بلاد سبا ووجهة الشرق فسار اليها فوراً فاذا هي
اقليم بحكمة كاسيك (اي امير) يسمى غواكتهاري وهو واحد من خمسة حكام
مفتسين الجزيرة فبعث اليه الكاسيك المذكور بهدايا وطلب منه اجتماعاً خاصاً
في محلٍ مخصوص فتصد كلب ذلك الملح لكن صدمت سفينته صخرة في البحر
ففرقت وفر ملاحوها في زوارق السفينة الثانية المدعوة لانجنا وبادر الكاسيك

واهل الجزيرة لاسعافهم واكرامهم
 وكان لم يبق من سفن كلب الا اصغرها واشدها تلقا لان سفينة غرقت كما
 ذكرنا والثانية المسماة لابنتا كانت انفصل عنه بها احد الاخوة البنسونية وكان
 كلب يخشى ان يكون هذا الرجل رجوع الى اوروبا ليكون اول مخبر بنجاح هذا
 المشروع ويحظى عند الملكة من الفخر والمكافاة بها هو حتى مقترح هذا الغرض
 العظيم الذي هو ذاته ولذلك بادر بالرجوع الى اوروبا وحيث ان سفينة التي
 قد هاء حالها لا تسع كل الملاحين التزم ان يترك منهم جماعة في الجزيرة لكي
 يتعلموا لغة اهل البلاد ويعرفوا طبائعهم واسترضى على ذلك اهل الجزيرة
 بكونهم التزم لهم بالاعانة من طرف الاسبانيول على الكرايب وهي طائفة ذات
 شباة ويميل الى المحروب تاكل لحوم الادميين كانت في الغالب تسطو على جزيرة
 هايتي وتخربها فبنى الاسبانيول هناك حصنا لكي يتيموا فيه وساعد اهل الجزيرة
 في بنائه وكان هو اول نذير باستعباد اولئك الالهالي المساكين ثم وضع الاسبانيول
 فيه المدافع الكبيرة التي بقيت بعد غرق سفينة الاميرال كلب ثم بين كلب
 لاهالي الجزيرة قوة الاسلحة الافرنجية التي يقوي فيهم هيبة الاسبانيول ببعض
 تجارب غير مضرة من رماح وسيوف وبنادق ولما رأى دهشتهم من ذلك امر
 باطلاق مدافع الحصن فانكبوا على وجوههم خوفا واعتمدوا من ذلك الوقت
 بانه لا يمكن قهر هذه الامة المسلحة بالبرق والصواعق وترمي بها متى شاءت
 ثم اوصى كلب من ابقاه في الجزيرة من اصحابه ان يداوموا في غيبته على الاتحاد
 والالتيام ووعدهم ان يعود اليهم سريعا وسافر في اليوم الرابع من كانون الثاني
 سنة ١٤٩٢م راجعا الى اوروبا واخذ معه جماعة من اهل الجزيرة وواحدًا من
 اقارب الكاسيك المذكور

وبعد ان كانت انفصلت عنه السفينة المسماة لابنتا كما ذكرنا في ما تقدم مدة
 ٦ اسابيع اجتمع بها بعد سفره بايام ولا زال سائرا مع السهولة واللين الى اليوم
 الرابع عشر من اشباط وكان قد قطع ٥٠٠ فرسخ من البحر الاثنتيكي اذ خرجت

عليه ريح عاصف مهولة خاف منها انقطاع حياته وضواع فخره بالفرق فكاتب وهو في وجل من خوف هذه العواصف قصة سباحته واخبار سفرته بكل ايجاز وانها في قطعة مشمع ووضعها في برميل ثم الفاه في البحر وجاء بان تذف الريح هذه الوديعه النفيسه الى شاطئ من الشواطئ فينتفع بها الناس تكن عين العناية الالهية لاحظت هذا الرجل العظيم فسكنت الريح شبتا فشيئا وفي اليوم الخامس عشر من شهر اشباط رسا على جزيرة القديسة مريم من جزائر اسورة ومنها وصل الى لشبونة فقبول فيها بالترحيب والاكرام وقص على الملك البورتغال قصته فتعجب هذا الملك من حكايته وتاسف على ما وقع له وانشرح صدر كلب ببيان نجاح مقاصده لئن كانوا ينكرونها

ثم توجه الى اسبانيا ووصل الى ميناء بالوس في اليوم الخامس عشر من شهر اذار وكان له منذ فارقتها سبعة اشهر واحد عشر يوما ومن هذه الميناء مضى الى برساونة وكان بها بوهنتر فردينند وايزابيلة فامرا ان يكون دخوله المدينة بموكب عظيم يلازم هذه الحادثة التي يكون بها لاياهما بهجة ورونق لانظير له وكان في اوائل الموكب الهنود الذين اتى بهم معه من امريكا وخلافهم انواع الحلى والزينة الذهبية المصنوعة بصياغتهم الخشنية وحبوب الذهب التي وجدوها في الجبال وتبر الذهب الذي من النهرات وجملة من انواع معصولات هذه البلاد الجديدة وكان كلب في اخر الموكب وجميع الابصار منجذبة اليه فتلقاه فردينند وايزابيلة وها على سرير ملكها وعليها جميع الشعائر المملوكية وفوقها مظلة فاخرة ولما دنا منها قاما له ومنعاه من الجثو على ركبته واجلساه على كرسي كان اعد له فقص عليها اخبار سفره مع التواضع مجتنباً فيها التفتيق والتحسين ولما اتم كلامه جثيا على ركبها شكر الله تعالى ومنها كلب ما دل دلالة بيته على استحسنها فعلة حيث اقراه هو وذريته على المزايا المقررة لهم في معاقد سننافة وانتظمت عيلته في سلك الاشراف

ولما انتشرت اخبار نجاح كلب المذكور في جميع بلاد اوروبا صاروا يتعجبون

من ذلك ويسألون ترى ابي قسم من اقسام الارض تُنسب اليه هذه البلاد
فاضطربت في ذلك اراء العلماء وكان كلب لم ينزل على رايه الاول فمضد ان
هذه البلاد جزء من ارض الهند القارة ونظراً لمشابهات بين محصولات هذين
التطرين وطبيعتها انفتحت الآراء بان بلاد امريكا جزئياً من بلاد الهند ولما تبين
بعد ذلك خظام في هذا الامر لم ينزل عنها الاسم الاول بل ما زالت تسمى
بالهند الغربي واهلها بالهنود الى هذا اليوم

ثم سافر كلب ثانية في اليوم الخامس والعشرين من شهر ايلول سنة ١٤٩٢ م
وبعد ٢٦ يوماً اكتشف جزيرة الكرايب وجزائر الريح وسماهها بزرادة ثم اكتشف
بعدها جزائر دومينيكية وماريا غلنتة وغوادلوب وسانت جان ودورتوريكو
وغيرها ولما وصل الى جزائر اسبانيولا لم يجد احداً من الاسبانيول الذين كان
تركهم فيها بل ان الحصن ذاته قد اندثر بالكافية وكان سبب ذلك ظلم
الاسبانيول المذكورين وجورهم الذي اعمى الكاسيك كوانابوكاسيك سيبادو
ان يجمع رعاباه ويحيط بالحصن ويضرم فيه النار ولذلك اضطركلب ان
لا ينتصر على بناء حصن كما صنع اولاً بل بنى مدينة وسماها ابزابولة باسم الملكة
معاميتة واخذ في اظهار الغرابة على همل تلك البلاد باستعمال الزينة العسكرية
ونشر الرايات وضرب الموسيقى ولجهلهم الخبول التي لم يروها قبل وصول
الاسبانيول اليهم فكانوا يخافونها ويظنون ان الحصان مع راكبه قطعة واحدة
وانها حيوان ناطق غير الانسان ثم استكشف كلب بعد ذلك جزيرة مايبكة
وجزيرة القديسة مرثا ولما كان معاذياً للشاطي الجنوبي من كوبا وجد نفسه في
تيم متكون ما لا يحصى من الجزائر الصغيرة فسماه بستان الملكة ثم مرض في
هذه الطريق حتى صار يخشى عليه الموت فعاد الى ابزابولة فوجد بها اخاه
برنلي وكان ماسوراً منذ ١٢ سنة ففرح بلقائه فرحاً عجلاً شفاه ولاسماً بالثلاث
سفن التي احضرها معه لاسعافه من طرف فرديند وابزابولة
ثم اضطران يرجع الى اوروبا ليظهر براءته للملك والملكة المذكورين مما

أثمهم به حساده بقصد انلافه فترك اخاه المذكور وكيلاً على القبيلة وسافر الى اسبانيا وحضر الديوان وهو ثابت الجنان مطمئن القلب فافاض عليه الملكان سجال الاعتراف والامتياز واذا ناله بأسطول آخر صغير وسائر ما يلزم لترتيب قبيلة اسبانيولية وانزلا في السفن المذكورة جماعة مهاجرين فيهم من جميع الدرجات والصنائع ما يقوم بمجاورة تلك القبيلة فكان فيهم طائفة كبيرة من اهل الزراعة وفرقة من الصناع الماهرين في فن استخراج المعادن فسافر بهم كلب في شهر ايار سنة ١٤٩٢م ووصل في اول شهر ابريل الى جزيرة عظيمة سماها ترينته (اي جزيرة الثالوث) ثم قصد جهة الغرب محاذياً للاقاليم المعروفة باسم بارينا وكومانا حتى وصل الى ارض الدنيا الجديدة التي كان ما اكتشفه قبل ذلك ليس الا من جزائرها فقط وكان اخوه برتلي في مدة غيبته اسس مدينة سنت دومنغ

وفي سنة ١٥٠٠ دفعت الرياح اسطول البورتغال الذي كان رئيسه بيدرو الواريس كبرال الى جهة الغرب فرسا على ارض واقعة في الدرجة العاشرة خلف خط الاستواء وكانت تلك الارض جزاً من اميركا فاستولى عليها الاميرال المذكور باسم ملكه ودعا اسمها ابرزيل وبعده اكتشف كذلك لورانزو جزيرة سيلان التي كان يسميها القدماء بترومانه

ثم تكررت التشكيات بحق كرسيف كلب من بعض الاسبانيول الذين وجدوا معه وخرجوا عن طاعته في اسبانيولة فارسلت الملكة وكيلاً يسمي فرنسيس دويواد بلا لينظر في احوال كلب ورخصت له في عزله ان يثبت عنده صحة التهمة فعزم هذا الوكيل في نفسه ان يجعل كلب مذنباً على أية صورة كانت ومن ثم امر بالقبض عليه وقيدته بالسلاسل والاعلال وبعثه الى اسبانيا ومعه اخواه مكباين بالحد يد ايضاً فلما وصل الى اسبانيا غضب الملك والملكة ما لحق هذا الاميرال من المنقصة وامر بانفكته من الاعلال وطلبه الى المحضور في الديوان فاثبت لديها براءته ولكنها لم يعيداه الى منصبه بل ابقياه وارسلوا

رجلاً يقال له نيقولاوس دوونديو بدلاً عنه وكان ذلك في سنة ١٥٠١م فاغناظ الاميرال كلب وصار يجمل قيوده الى ابي محل ذهب اليه ليظهر مكافاة الاسبانيول على صنيعه وكان دائماً يعلق تلك القيود في حجره وارضى ان تجعل في تابوت يتدفن معه بعد موته

ومع كل ذلك لم تضعف رغبة هذا الرجل العظيم في الاكتشافات بل شرع في سنة ١٥٠٢م برحلة رابعة اكتشف فيها على غواينا وهي جزيرة مجاورة لساحل يقال له هندوراس ثم توجه صوب خليج دربان جهة الشرق وعرف في سيره بجزاء الشاطي الاراضي النارة من راس غراسياس ادبوس الى ميناء بورتوبيلو

ثم رجع بعد ذلك الى اسبانيا في سفينة اشتراها له رجلان من البكرادات (اولاد الامراء) يقال لاحدهما مندبز الاسبانيولي وللثاني وفييسشي الجنوبيري كان لها ارتباط به ولما وصل اليها بلغه وفاة الملكة ايزابيلا سنة ١٥٠٤م فانتقل الى ولادوليدة وانقطع بها الى ان توفي سنة ١٥٠٦م وعمره ٥٩ سنة ونقلت جثته الى اشبيلية ودفنت مع الاحتفال في الكنيسة الكبرى ونقش على قبره ما معناه قد اعطى كلب للملكني قسطيلة ولبون دنيا جديدة وفي سنة ١٥٢٦م نقل ما بقي من اثاره واثار ابنه ديبغو الى اسبانيولا ودفنا في الكنيسة الكبرى بمدينة سندومينغ التي مر ذكرها ثم نقلت اخيراً الى خوانا بجزيرة كوبا في ١٥ كانون الثاني سنة ١٧٩٦م

وحيث ان استكشاف امريكا اورث الاسبانيول الميل والرغبة في المشروعات البحرية سافر اينرودوبيد بمصروف ذاته وهو احد الضباط الذين كانوا مع كلب في سفرته الثانية ووصل الى سواحل باريا ثم عاد الى اسبانيا في سنة ١٤٩٩م بعد ان اطلع على امتداد عظيم من السواحل وكان معه في سفرته هذه رجل يقال له امريق وسبوس احد امراء افلورنسة وكان من اصحاب المعارف بعلم الفلاحة وصار له بذلك نفوذ كلفه على اصحابه ثم لما عاد الى اوروبا

الف رحلة ضمنتها ما وقع له من الحوادث وتجاسر فيها على انه نسب لنفسه فخر
 اول مستكشف لارض الدنيا الجديدة القارة وسلك فيها مسلك العاقل الفطن
 وافرح عباراتها في قالب حسن وكان اول تخطيطه اشهر في وصف تلك البلاد
 فاخذ الناس يتعودون شيئاً فشيئاً على تسمية البلاد المذكورة باسم اميركا نسبة
 له ظلاً لا يمكن جبر خلكه حيث كان يجب ان تسمى كلبيبا نسبة انى مكتشفها
 الحقيقي الذي لم تتسم باسمه الا احدى الولايات منها فقط

ولازال الاسبانيول يستكشفون اجزاء هذه الارض الواسعة شيئاً فشيئاً
 ويستعبدون اهلها الاصليين وينزلون بهم انواع المصائب والتكبات ويعاملونهم
 بالظلم والجبر والفساوة الى ان تمولى افتتاحها في ايام الامبراطور شارلكان
 (كارلوس الخامس) سنة ١٥٥٠ م

يحكى ان الكاسيك هانوي احد حكام البلاد القدماء كان قر من اسانيولة
 واستولى على الطرف الشمالي من كوبا فخاربه الاسبانيول هناك ايضاً واسروه
 وحكوا عليهم بالحرق حياً واذ جاء اليه احد الرهبان الفرنسيين واخذ
 يرغبه في التنصر قبل الحرق لكي يرث فردوس النعيم اذا مات مسيحياً فاجابه
 الكاسيك المذكور هل يوجد في محل النعيم الذي ذكرته لي اسبانيول فقال
 الراهب نعم ولكن الصالحون الاخيار فاجابه الكاسيك وهل يوجد بينهم
 صالحون واخيار. حاشا. وانا لا اريد اذهب الى محل يجمعني بهم ثم خرجت
 روحه وهو في لهيب النار

ويعتبر الجغرافيون اميركا نصف الكرة الارضية بقامها ومن حين اكتشافها
 اخذت اهلها اوروبا ترحل اليها وصار فيها للمالك اوروبا املاك واسعة وهؤلاء
 الدخلاء حاربوا الالهالي الاصليين وطردهم الى داخل البلاد حيث لم يزل
 البعض منهم الى يومنا هذا ثم استقلت بعض تلك الاملاك وقامت بذاتها وبقي
 البعض الاخر تحت تسلط المالك الاصلي
 والقسم الاعظم والاهم من البلاد التي تمت لها السعادة بواسطة استقلالها

ونوال حريتها ويستحق ان نخصه بالذكر هنا هو المعروف بالبلاد المتحدة قال صاحب المرآة الوضعية ومن سنة ١٦٠٧ للمسيح فصاعداً رحل اناس كثيرون من بلاد اوروبا ولاسيا من الاملاك الانكليزية الى بعض الاماكن في البلاد المتحدة ولما كثرت الاهالي هناك واخذوا املاكاً واسعة من الهنود تارة بالحرب وتارة بالشره اخذ المحكم الانكليزي في اجراء المظالم عليهم فقسم البلاد المعورة اقساماً شتى وارسل اليها عمالاً فاحتمل الاهالي ما احتلوه من الاثقال واهرحوا في طلب التخفيف عنهم فاذن لهم في اقامة اولئك المحكام بانتخابهم ولكن لم تنزل الدولة الانكليزية نجور عليهم في اشياء كثيرة حتى عقدت الاقسام المذكورة ديواناً في مدينة فيلدفيا وحضرت اليه الوكلاء من كل قسم منها وفي سنة ١٧٧٦ طرحوا عنهم نير الانكليز ونادوا بالحرية وتعاهدوا على المعاضدة من عموم الجمهور في انمام ذلك فانتشبت الحروب بينهم وبين الدولة الانكليزية الى سنة ١٧٨١ ثم سلمت لهم الدولة المشار اليها بالحرية في سنة ١٧٨٢ ومن ثم جددوا المعاهدة بموجب دستور ترتب في ديوان عن يد وكلاء البلاد جميعاً في مدينة فيلدفيا المذكورة سنة ١٧٨٩

وتخوي هن المعاهدة على عدة اقسام مستقلة كل قسم له احكام وشرائع بنفسها ولكنها كلها متحدة تحت حكم واحد عمومي يلاحظ الامور التي تتعلق بالاقسام المذكورة كافة وهذا الحكم هو من نوع الاحكام الجمهورية والمحكام ينتخبون من قبل الشعب على مدة معينة لهم الا انقضاء فانهم ينتخبون على مدة حياتهم ما لم يثبت عليهم ذنب يوجب العزل ولكل عمل من اعمالها حكم خاص به ايضاً غير ان الجميع يشتركون في انتخاب المحكام العمومية ويرسلون وكلاء الى الديوانين الفاتمة في مدينة وشيبتون وهناك يلاحظ ما يلزم للخير العمومي وما يتعلق بالدول الاجنبية والحكم ايراد واف من الكمارك وغيرها وله من العساكر القانونية والرديف والمراكب الحربية قوة كافية تجعل من الدولة معدودة في صف الدول الاولى

وكانت العبودية متسلطة على امريكا منذ دخول المهاجرين اليها فان
الاسبانول كانوا ابادوا نحو مليونين من الهنود الاصليين في حروبهم معهم عند ما
افتتحوها لحد سنة ١٥٥٠ ولذلك طلب لسكاساس استرقاق العبيد لاجل
القيام بخدمة الاراضي ومن ثم تقدم الاسترقاق شيئاً فشيئاً الى ان صار عيد العبيد
في سنة ١٨٦٠ اربعة ملايين في البلاد المتحدة دون غيرها وذلك بصدرا امر
ابرهيم لينكون رئيس جمهورية امريكا بابطال العبودية من الولايات الجنوبية
بامريكا وكان ذلك في اول كانون ثاني سنة ١٨٦٣

واما لي البلاد يحسبون من اعلا طبقة بين الشعوب المتقدمة والعلوم
والمعارف على اختلاف ضروبها وانواعها مخدومة فيها مع الجهد والاجتهاد
ويوجد فيها من المدارس الجامعة ومدارس العلوم العالية ما هو
فوق الكفاية ومن المدارس المتوسطة في كل بلدة وضبعة عدد
كثير والكتب رخيصة وقلما توجد بلدة ايس فيها
طبعة لكازنات الاخبار فتكون

وسائط المعرفة متيسرة

للجميع

الفهر الثالث

من اقسام التاريخ وهو المعروف بالقرون الاخيرة وفيه فصلان

الفصل الاول

في الكلام على المعارف في مالک اورویا الافرنجیة

القرن السادس عشر

يمتاز هذا القرن بمزيتين متضاربتين الاولى حدوث الانقسام الديني في اورویا بواسطة ظهور المذهب الانجيلي ووقوع المنازعات العظيمة بين الكنيسة الكاثوليكية والشعوب البروتستانتية من جهة وبين ائمة البروتسانت انفسهم من اخرى والثانية الاتحاد العام فيها على طلب العلوم والمعارف مع الجهد والاجتهاد وكانت المزبة في الامر بن كليها للعائلة الميديشية التي منها كان البابا لاون العاشر في رومية وروساء الدولة الجمهورية بفلورنسا من اعمال ابطالها ثم صاروا امراءها قال العلامة خير الدين باشا التونسي في كتابه المسي باقوم المسالك في معرفة الممالك انهم هم الذين مهدوا سبلها للناس وكان اشتهارهم في هذا القرن المعبر عنه بالقرن الكبير الذي كانت ايامه تضاهي باولئك الروساء في ايام اغسطوس اول قياصرة الرومان في الاشعار وحسن هندسة البناء وبديع اشكاله اقتداء

بالرومانيين الذين اقتدوا في ذلك باليونان وقد بحثوا في الخزانة مع البابا لاون العاشر الذي هو منهم عن الكتب القديمة وطبعوها لاستكثار نسخها وجعلوا عليها تعليقات نافعة وملاحظات غريبة وبذلك ارتفع عن وجه محاسن الاقدمين القناع الذي تكاثف بتطاول السنين

وقال بعض الافرنج انه لا يبجل احد بان العلوم والفنون في هذا العصر اوصاتها حنافة وغيره الناس الافاضل الى درجة سامية من الكمال لان جميع سكان اوروبا اخذوا من احياء العلوم والفنون فوائد جمة الى اقاصي العالم والذين كانوا في الدرجة الاولى بين علماء ذلك العصر هم الذين اتجهوا الى طبع كتب موافى اليونانيين واللاتينيين والى تصليحها وشرحها والى درس الاشياء القديمة والى تهذيب هاتين اللغتين والى تنسيق التأليف نظماً ونثراً وان الاجتهاد والمسابقة بين الفضلاء والنبلاء في القرون السابقة نعم انها كانا نافعين جداً في امور كثيرة واصلاحها ماكن عديدة انما لم يظفهاها بالكلية من الطريقة الردية الوحشية السافرة في الكلام على القضايا الكلامية التي كانت غالباً بين الافرنج في تلك القرون فالكتب المقدسة التي كانت اما متروكة بالكلية او مشروحة بسفامة اخذت حينئذ مكاناً فسيحاً في محاررات اللاهوتيين وكتاباتهم وكانت الكلمات والاشياء تُتَمَحَنُ باكثر تدقيق والمواضيع تُفَصَّلُ باكثر عدالة ووضوح والانشا الركيك الذي كانت تستعسسه المدارس القديمة نسخته جميع الذين تفوقوا على غيرهم في المعرفة

(الفاسفة) وكانت الفاسفة السكولانية سكية هي المتسلطنة في اغلب المدارس والمكاتب الرومانية وعليها كان يُعَوَّلُ في المناقشات والمحاورات الدينية بين لاهوتيي الكنيسة الرومانية وبين موسي الكنيسة الانجيلية الذين ظهروا في هذا القرن كلوثيروس وكلفينيوس والذين حذوا حذوها واقتفوا اثارها منذ حرم البابا لاون العاشر كلوثيروس المذكور سنة ١٠٢٠م لاسباب سوف يأتي ذكرها

استدراجات مدنية

(إيطاليا) وأما العلوم فكانت قد انكسفت شمسها بفلورنسا منذ وفاة لورانت الميديشي سنة ١٤٩٢ وذلك لان الفلورنسيين لما طردوا ابنة بطرس الثاني نهبت العامة سرابة الميديشيين ومكاتيبهم ومحقوا وفرقوا في يوم واحد جميع ما جمعه لورانت واسلافه باموالهم ومجهوداتهم في ظرف خمسين سنة لكنها رجعت لما كانت عليه عندما عادت هذه الطائفة الى منصبها ولاسيما لما ارتقى في السنة التي بعدها يوحنا الميديشي الى كرسي الباباوية وسَيَّ لاون العاشر وازداد بذلك رونقها على ما سوف تأتي تفاصيله في محلهما

ان هذا البابا المشار اليه منذ كان كروينا لا قبل ان يجلس على الكرسي الباباوي كان اخذا في ان يعيد الى مدينة رومية الرغبة في الاداب والفنون التي كانت اضمحلت منها منذ عهد البابا يوس الثاني ولاسيما في ايام البابا اسكندر السادس وبولس الثاني وقد استحسن رأيه في ذلك اصحاب الصنائع كالرسامين والنقارين والمعمارية الماهرين الذين كانوا وقتئذ في تلك المدينة ورغبوا في الفنون مثله وصار يجتمع كذلك حوله العلماء والادباء والشعراء وينسخ لهم سرايتهم وخزانة كتبهم

ثم لما تولى الكرسي الباباوي اراد ان مكاتيبه ومناشيرهُ لانكتب باللسان اللاتيني الذي كان يستعمل في ديوان الفنجيلير (رئيس الكتاب) وإنما تكتب باللاتيني الذي كان يستعمله قيصرون فعين لكتابة الانشا عنده رجلين يقال لاحدهما سادوليت والثاني ببولكونها كانا يفوقان اهل عصرهما في الكتابة بهما اللسان من حيث البلاغة وتنقيح العبارة

وكان لم يبق في رومية من الاحداث التي تجددت بها لاجل تعليم العلوم

الأخمينياز (اي مدرسة رومية الجامعة) التي كان احديها البابا الفجانيوس الرابع وكانت قد اضعفت بالتدرج فاعنتى بشانها ايضا وشهر لذلك ساعد الجهد والاجتهاد واعاد للطلبة ما كان لهم من المزايا وجعل فيها نحو ١٠٠ معلم حتى تكون حاوية لجميع انواع المعارف

واهتم كثيرا بتعليم اللسان اليوناني الذي كان يستعمله دستين واصحابه وكان قد اتى قبل مدة الى بلاد اوروبا بجملته الذين هاجروا اليها من بلاد اليونانيين عندما افتتح العثمانيون مدينة القسطنطينية ونقلوا معهم كنوز لغتهم ومعارفهم رجل يقال له يوحنا لاسكاريس ادخله لورانت الميديشي بجملته من ادخلهم تحت كنفه ورعايته وبعثه الى بلاد المشرق ليجمع له منها الكتب النادرة وبعد ان مات لورانت المذكور صعبه الملك كراوس الثامن الى فرانسوا وكان من تلامذته فيها بوده الآتي ذكره ثم انتقل منها الى مدينة البندقية فلما تولى لاون المباشر المشار اليه دعاه الى رومية لانه كان لم يزل حيا الى ذلك الوقت وجعله فيها مدبرا على الاكاديمية التي انشأها لتعليم الاداب اليونانية وبالأخص على المطبعة التي خصصها لطبع ملح هذا الفن

ثم اخذ هذا البابا في ان يزيد خزانه كتب اليونانيكان التي كان انشاها البابا نيقولاوس على ما سبقته الاشارة اليه فاشترى لها البقايا المشتقة التي بقيت من خزانه الكتب التي كان أسسها اباؤه في فلورنسا ونقلها الى رومية لكنها أعيدت بالثاني الى فلورنسا في ايام خليفته البابا اكليندوس السابع الذي ارتقى الى الكرسي في سنة ١٥٢٣م وقد نحا البابا لاون المشار اليه نحو كوسم الاول المقدم ذكره في الترغيب والبحث عن كتب اسيا فكان تعليم اللسان الكلداني والعبراني والسرياني مصاحبا لتعليم اللسان اليوناني واللسان اللاتيني

ومن كان في ايطاليا من مشاهير الادباء والشعراء والخطباء وانحاء علماء الكتاب كانوا جميعا في ديوان هذا البابا فكانت تشرق في هذا الديوان شمس اداب كل من الشاعر تيبالدو والشاعر برناردو كوليبي الذي كان

يُلقب بفريد عصره واريوست الذي كان لا نظير له وقد مر ذكره في الكلام على فرارة في القرن الخامس عشر وبرني ومورو وهم الذين اخترعوا الاهاجي الايطاليانية وغيرها

وفي ذلك الديوان شرح كل من توموس وبوتوناس ويوحنا بيك او هو بيكوس دلاميرند وله كوتنة كونكورديا فلسفة الاقدمين بعد ان صححها مهاجرو القسطنطينية على ما قد سبقت تفصيله في الفصل السادس من المقالة الاولى مع كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف

وفيه ايضا كان كل من بوتانوس الذي مر ذكره وسابو كالكيثيني ومايتول يطالع العلوم الطبيعية وفيه كذلك ابرز الكوتنة بلنزار كستجايوني وماتوريوس رسائل في الحكم والاداب

وفيه ألف فيلبس دونرلي وياكس نردي وميشاويل او هو مكيافلي وغيشارد بن او هو غوتيشرديني وواس يوده تاريخ بلادهم وفي كتاب اقوم المسالك ان مكيافلي هو اول من بين القواعد السياسية بعد سيطرة الدولة الرومانية وغوتيشرديني قد بلغ مجودة الفكر وحسن التعبير الى انقضاء التصنيف في التاريخ وفرايا واراشتهر بالرافعة عن حرية وطنه بقلمه غيور منصف ضد سياسة الباباوات (والظاهر ان هذا الاخير لم يكن بمهالة الموظفين في ذلك الديوان حتى استطاع ان يكتب ما قد ذكر)

وكان للبابا لاون نفسه تولع بالموسيقى ايضا فكان يمارسها بذاته الا انه كان يوشرفنون الرسم والنقارة والعمارة على غيرها ويرغب فيها بالعطاء الجزيل الذي ربما صحح عده من الاسراف والتبذير وكان الايطاليانيون كما انهم اشتهروا منذ القرن الخامس عشر بالاداب وحصول ما امكنهم تحصيله من العلوم والفلسفة اشتهروا كذلك بهن الصناعات المستظرفة المسماة عندهم بالبوزار وهي الدهن والنقش (الذي يقال بانه من اختراع اليونانيين استنبطوه من

الهندسة من تطبيقات قسم المخروطيات) ومهندسة البناء والموسيقى وامتماز بينهم
 بهن الصناعات في هذا القرن الذي نحن بصدده كل من روفائيل وميكلائنج
 وليونارد وونيشي وغيرهم الذين هم ويتلامذتهم تجدد البوزار المذكور في سائر
 نواحي اوروبا على ما تقدم ايضاحه في ما مرّ فاراد البابا المشار اليه ان يتم بناء
 كنيسة الرسولين بطرس وبولس^(١) التي كان شرع بناؤها سائمه وكان الذي

(١) ذكر صاحب النحلة هذه الكنيسة التي جلت عن ان تُشفع بمثل على وجه الارض
 فقال ان اول من وضع اساسها هو البابا بولايوس الثاني وذلك في اليوم الثامن عشر من
 نيسان سنة ١٥٠٦م وعنى هو وخلفاؤه من الاحبار الرومانيين في انتخاب مهندسين ماهرين
 ليصرفوا مهمتهم الى اتقان بنائها وبعد ان تولى امرها عدة مهندسين وماتوا فوض البابا
 بولس الثالث امر بنائها الى ميخائيل انجلوا شهر مهندي عصره فسعى هذا المهندس في عقد
 القبة على الهيئة التي استحسنها ولكنه توفي قبل ان ينجز البناء بماتوا فتولى العمل بعده المهندس
 يعقوب ديلا بورنا في عهد البابا غريغوريوس الثالث عشر وكان هذا البابا شديدا لاهتمام
 في انجازها على حياتها ولذلك امر بتشغيل ٦٠٠ فاعل ليلا ونهارا وكان ينفق على بنائها ١٠٠ الف
 دينار من الذهب سنويا وغيب ان توفي المهندس يعقوب المذكور خلفه المهندس كارل
 مادرنوفكامل بناء هذا المصد الجميل وكان تجارته بكالو بطرف ١٧٠ سنة وقد اقتضى
 لتزيينها على ما هو عليه الان ٢٠٠ سنة وتنصب ٤٢ بابا وماتوا من يوم تاسيسها الى يوم كماله
 وان بعض المدققين عدل معدل مصروف بنائها فبلغ احد عشر مليوناً وستماية وخمسة
 وعشرين الف ليرة انكليزية هذا ما عدا قيمة ٤٥٢ و ٤٠٥ ليرة من الخماس خلعت عن معبد
 قديم) واستعملت لصب كرمي بطرس الرسول ولعمل القبة التي على ضريحه ووصف
 صاحب النحلة هذه الكنيسة وكان زارها مرات عديدة فقال ان واجهتها تبلغ ١٦٠ قدماً
 وعرضها ٢٩٦ قدماً وارضها مرصوفة بالرخام الثمين الملون بالوان زهية ومقطع بتقاطع
 جميلة ومرقوم عليها قياس اعظم المعابد الموجودة في الدنيا مع قياسها هي ذاتها ايضاً
 وتفاصيل ذلك هي هكذا طول هذه الكنيسة ٦٠٩ اقدام. طول كنيسة ماري بولس بلندن
 ٥٢١ قدماً طول الكنيسة الكبرى ببلان ٤٢٩ قدماً. طول كنيسة ماري بولس برومية ٤١٥
 قدماً طول كنيسة ايا صوفيا بالتسطنطينية ٢٥٦ قدماً وقد اجمع رأي المهندسين اطراً على
 ان رواق كنيسة ماري بطرس الوسطاني يحسب من عظام البناء في الدنيا عرضة ٨٩ قدماً
 وارتفاعه ١٥٢ قدماً الى ان قال ان بناء هذا المعبد العظيم الجميل بكل محاسن الصنائع
 البشرية مما يعجز النلم عن وصفه وكان هو يعتقد من اعظم اعمال الطبيعة لكونه لم يستطع

اخترها مهندس شهير يقال له برامنت الآن الموت منعه عن مباشرة انشائها

ان يقنع افكاره ان بناء هذه صفة قد تمكنت العقول البشرية من الاتيان بثلو فان من دخل هذا المعبد ورفع نظره الى سقوفه العالي اعترى نظره غشيان وراسه دوران قبل ان يتمكن من مشاهدة ما فيه كان قبة الفلك معقودة على هاميه وان جال في عطفات المعبد ضل في خيالاته وان تمشى في رواقه اعتراه التعب قبل ان يتمكن من اتمام الفرجة على ما فيه من التحف وما على جدرانها من النقوش وان كانت الصلاة قائمة في احدى جهاتيه وهو في جهة اخرى منه لا يدري بما هناك من آلات الموسيقى والانغام الى غير ذلك من روائف قبة هذا المعبد يصير تنويرها مرتين في السنة ليلة عيد النصح وليلة عيد ماري بطرس ويكون ذلك من اغرب الماظر واجملها في العالم فان انبثاق اشعة المصابيح من معدب القبة بغنة وتناثر الشرارات واللهيب على هيئة نجوم متلونة فوق القبة كاسهم نارية وانعكس اشعتها الى مياه المحوضات العظيمة في الساحة بشده البصر وبعضم في اهين الناظر جمال القبة وبهاها الداخ ويتولى تنوير القبة ٣٠٠ نفر من الناس يصعدون الى ظهرها بسلاسل ومنهم من يتسلق بحبال الى قمته العليا تحت خطر حياتيه وقد اعتادوا على هذا العمل الشديد الخطر حتى انهم يتمكنون من تنوير القبة باسرها وما يليها من الابنية في نحو اثنان في ربع دقيقة من الزمان مع ان فيها من المصابيح ما يفوق المليون عددا ومن المفروض على الذين يتولون تنوير القبة ان لا يشربوا خمر ولا مسكرا ذلك النهار بطوليه وان يستعدوا للموت ويرتبوا امورا عائلاتهم كمن قد دنا اجله وهو على اهبة فرار الدنيا وما فيها اه وكانت روت بعض الجرائد ان هذه القبة سقطت عليها ساعة اثناء اجتماع المجمع الفاتيكانى المنعقد في سنة ١٨٦٩م فترزله بناؤها. قال صاحب النخلة في جريدة تشرين الثاني سنة ١٨٧٧ قد تجدد الخطر على قبة ماري بطرس التي تحسب من عجائب الدنيا ويخشى عليها كثيرا من السقوط لان الشقوق التي كانت حصلت قديما في اعالي القبة قد اتسعت الان وقد عني بتفقد احوالها بعض من جمعية المعارف الروسية فوجدوا اغلب اطراف البناء مشققة قد اعترها الخلل وكان المهندسون عنيوا قديما بوضع نطاق من حديد حول القبة لصيانتها من السقوط وعشقوها بالواح من رخام والان قد تكسر كثير من هذه الالواح بزاحة اتساع الشقوق انتهى

وبالقرب من هذه الكنيسة قصر الفاتيكان الذي يسكنه البابا ذكر في احدى النشرات المعتبرة انه يحوي على ١١ الف قاعة من ارحب قاعات الدنيا وافخرها ومحاط بثروة لم يحور مثلها مكان قط وفيه من الجواهر والتحف ما لا يحصى ولا يقوم بوصفه قلم من مخفر مصنوعات الدنيا وانقها مرصعة باثمن الجواهر من الماس والياقوت والزمرد وكل حجر كريم وعدد رجال دائرة البابا وخاصته يبلغون بحسب وظائفهم الى ٢٤٥٢ رجلا

فواظب هذا البابا على ذلك مع المحمية والمصاريف وكان قد تلقى بالقبول
والاکرام ميخائيل انجلو وانا طه ببناء كبسة اخرى في فلورنسا سماها سانت لورانت
واستخدم عنده اندريا ديل سرتو وامونارد دوونيسي الذي مر ذكره وكذلك في
ايامه ايضا نقش روفائيل المذكور جدران الوايتيكان وقد نشر هذه النقوش
الظريفة مرق انطونيور ووندي باخذ صورتها على النحاس وكان روفائيل
المذكور قد اتقن هذه الصناعة المخترعة في القرن الماضي الى ان بلغت درجة كمال
فن ثم اقتضى الامر لان يستعين البابا المشار اليه على هذه المصاريف الباهظة
ببيع اوراق الغفرانات فكان ذلك سبباً الى معارضة لوثيروس التي تقابلت من
كبريا رومية بعدم الحكمة واوجبت خروجه بالكليّة وظهور الديانة الانجيلية
المسماة بالبروتستانتية

ثم بعد ان توفي البابا لاون المشار اليه وجلس على كرسيه البابا ادريانوس
السادس في سنة ١٥٢٢ حصل للاداب والفنون ازعاج وقتي برومية لكنه لم
يمكث الا اشهر قلائل اذ انه لما تولى بعده اكليمنديوس السابع وقد مر ذكره
وكان من اقارب لاون العاشر ازال ذلك الازعاج واعاد في اوائل باباوتو
لاكدمية رومية ما كان لها من البهجة والرونق القديم غير انه لما انتهت رومية
في سنة ١٥٢٧ ام اندر جميع ما رتبته الباباوات في هذه المدينة من الاشياء النافعة
بالنسبة للاداب ومكثت على ذلك مدة طويلة

لكن في هذه المدة الطويلة المذكورة التي اندثرت فيها الآداب والفنون من
رومية كانت تشرق انوارها في فلورنسا على عهد المديشية الذين رجعوا
لمنصب الامارة على هذه الجمهورية بعد ان كانوا طردوا منها على ما تقدم اذ في
هذا الزمان صار كل من الدوك كوسم (قزما) الثاني الذي تولى سنة ١٥٢٧ م
وخليفته فرنسيس الذي تولى سنة ١٥٢٤ م وفرديند الذي تولى سنة ١٥٨٧ م
معادلاً في البذل والسخا للورانت لومانينيك وكوسم الاكبر (الاول) حتى انهم
في ظرف ٨٠ سنة تقريباً جعلوا مدينة فلورنسا تعادل مدينة اثينا في زمن زهايمها

أما باقي دول إيطاليا فقد لحنت في تقلبات الدهر وصروفه الآداب والعلوم مدة القرن السادس عشر من الميلاد وذلك أنه بعد اجلاء الدولة الأوغوانية وانقراض العائلة السفورسية أصبحت الآداب في نابلي ودوقية ميلان وإن كان بعض العمال الأسبانيوليين قصدوا حمايتها فيها وجبروا بذلك خلل ما كان من غيرهم من كرامتها أو عدم الاعتراف بشانها لكن كان جبرهم لهذا الخلل على وجه ضعيف هين وإنما بقيت على زخائنها في فرارة على عهد هرقل الثاني وازداد رونقها في زمن الفونس الثاني الذي أحسن ملاقاته الشاعر تاسه وأكرم نزله في ديوانه وعظمت بهجتها أكثر من ذلك في مانتوه على عهد المرابي فريديريك وحماها دوقات أوربين وكذلك دوقات سابوه فأنتهم مع ما حل بهم من النكبات والمصائب كان لهم نصيب وحظ في ما أدخله الميد يشية في إيطاليا واستغرق فيها مدة القرن السادس عشر من تقديم الآداب والعلوم والاعتراف بشانها وتوسيع دائرتها على وجه عظيم ومنهج قوم

(فرانسا) وكانت ملوك فرانسا قد اقتفت آثار العائلة الميد يشية المذكورة فجدت كذلك في طلب الآداب والعلوم في هذا القرن أيضاً منذ تولى تختها في سنة ١٥١٥ الملك فرنسيس الأول خليفة لويس الثاني عشر فأنه تأهب بأبي العلوم والمعارف لكونه كان يعظم العلماء تعظيماً ليس له حد ويرى أنه مادام العلم معظماً في المملكة دام عزها وفلاحها وإذا هين سقطت إلى حضيض الاضمحلال وهو الذي شرع في تأسيس خزنة الكتب الملكية وإنشاء مدرسة العلوم ودار الطباعة أيضاً وكان صاحب معارف ومحامياً لها ومشجعاً لآربائها مثل ماروط وربليس وغلوم بوريه أو بورا وغيرهم من العلماء والآدبا وأرباب الفنون والصنائع واغدى على العلماء بالانعامات ورغبتهم بالعطايا الجزيلة حتى بذلوا في تحصيل المعارف بعض مجهودات نافعة فترجموا كتب الأقدمين وترتب على مطالعتها ثمرة عظيمة عادت بالنفع على مولفات الأزمنة المتأخرة. وأكمل

التشريعات وفصل الدعاوي بامور حسنة وانتشرت اللغة الفرنسية ببلاد
فرانسا بدلاً عن اللسان اللاتيني ورتب غرامة على لعب القمار ابطالها الفرنسية
عن قريب بدعواهم انما مباينة لمكارم الاخلاق وفي ايامها استغنت التجار بسبب
تقدم التجارة واحداث البانكة في مدينة ليون واول معامل الحرير (وفي بعض
المولفات ان اول معمل ظهر في ليون لتسج الحرير كان في سنة ١٤٦٦م) وكثرت
في ايامها ممارسة صناعة الساعات والميكانيكا والعلوم الرياضية واحداث
العساكر البحرية الملكية وحفر ميناء هورة ولما ذهب لمخاربة بلاد ايطاليا اعجبه
حسنها ورونقها فجلب منها نقاشين ومعمارية ارباب نشاط شديدوا له هياكل
وسرايات جديدة بالانتساب الى اسم في اماكن متعددة ومنها قصر فوتنبلو
وقصر سان جرمان وقصر شنبور ولوره ونقشوها هم انفسهم وتلاميذهم الذين
علومهم بهنك الممارسة واحداث المصانع والمعامل واحكامها وانقنها ودعا ارباب
الحرف والصنایع الى فرانسا فشرع معمل جوبلين في نسج انواع التوريقات
المستحسنة عند جميع اهل بلاد اوروبا وبالجملة يقال بانها من عصر هذا الملك
تورخ التقدمات العظيمة السريعة للعلوم والاداب وجميع الفنون العقلية في
مملكة فرانسا حتى جعلتها في اعلى درجات تمدن المتأخرين غير انه مع ذلك
جميعه كان لازال المنجمون الذين يزعمون معرفة حظ الانسان من النظر الى
السما والكياويون الباحثون عن حجر الفلاسفة وهو ما يزعمونه من استحالة
المعادن ذهباً لا تخلو دروسهم من الغاغا ولذلك كانت مدرسة العلوم الجامعة
ميداناً للمناظرة والجدال بين هؤلاء المدرسين الذين لا ينبغي نظهم في سلك
اهل الادب

وبما ان هذا الملك قد نشأ من صغر سنه على ممارسة العلوم والاداب باجتهاد
الملك لويس الثاني عشر على ما تقدم بيانه كان مجرد جلوسه على السرير لأبرى
الآ والعلماء حوله فكانوا بصاحبونه في كل مكان ولا يفارقونه لاني الصيد
والقنص ولا في اسفاره ولا في منزهاته وكان يقادهم المناصب ويجزل لهم العطا

ويرغبهم في اشغالهم بجوده وكرم وبكونه يشتغل هو نفسه بحيث يكون اسوة لم
 في ذلك وأشهر هؤلاء الناس المجتهد بن الذين جالهم بانعامو حتى ملأهم ديوانه
 هو بوربه الذي هي اعجوبة فرانسوا وقد مر ذكره فانه هو الذي حمل الملك على
 احداث المدرسة الملوكية وكان الغرض من هذه المدرسة التي جعل لمدرسيها
 مرتبات جسيمة هو تعلم اللغة اللاتينية واليونانية والعبرانية فلما سميت بمدرسة
 اللغات الثلاثة ولكن جدد الملك فيها دروساً اخرى اذ قد استنبط من
 المعانيب المورخة في سنة ١٥٤٥ م انه زيادة على مدرس اللاتيني ومدرسي
 العبراني الثلاثة ومدرسي اليوناني الثلاثة كان يوجد اذ ذاك معلم لتعليم الطب
 واخر للفلسفة واثنان للرياضيات وكذلك خلفاؤه من الملوك جددوا فيها
 بالتماقب فروعا اخرى افتضاها اتساع دائرة المعارف في عصرهم ثم لما توفي
 البابا لاون العاشر الذي مكّن الفنون في ايطاليا واهلها خلفاؤه جلب هذا
 الملك العظيم اهلبا من ايطاليا وزين بهم ديوانه غير انه لم يتمكن من ان يحرم
 مكتب رومية بولس رومان وانما احرم مكتب فلورنسا من ليوناردو ونيسي
 الرسام الشهير واحضر المعلم روكس أمير البنائين وجعله ناظر عموم عمارات
 فونتنبلو وكان جاوعاً لجميع انواع الفنون وكان له معاصر خطير اوسع دائرة
 منه وهو بنوانوتوساني واحضر ايضاً لوبرمانيس من ايطاليا لاجل اشغال فونتنبلو
 بعد وفاة روكس وهو الذي رسم قبر هذا الملك نفسه وابتدأ في رسم قبر هنري
 الثاني الذي تولى الملكة بعد ان مات ابوه المذكور في سنة ١٥٤٧ م ورسم ايضاً
 صورة قصر مودون وكان لما حضر هذان المعلمان روكس ولوبرمانيس الى
 فرانسوا وجلبا بها بعض رسامين من الفرنساوية فعلمنا ذلك الفن لجماعة اخرين
 ومن ذلك الوقت اشتهرت المدرسة الفرنساوية بتلامذتها
 وكانت اذواق القرون السالفة سقيمة وادراكاتهم وتصويراتهم غير صحيحة
 فافسدوا الشعر اليوناني واللاتيني حيث اخترعوا طريقة الاشعار اللبونية
 المفردة والمزدوجة والمثلثة وطريقة النظر بنز والتزموا في فصائدهم الكلمات

المبدوءة بحرف واحد وكانت لم طرق أخرى من هذا القبيل فلما ظهر أهل الذوق الصحيح في زمن الملك فرنسيس الأول المشار إليه وأوا هذه الطريقة المتعبة من قبيل الألعاب الصبيانية فعادوا بالتدرج إلى ما يسهل على الطبع وبالفئة الذوق غير أنهم مع كثرة ممارستهم للشعر اللاتيني لم يصلوا في أيام هذا الملك درجة الكمال التي وصل إليها في عهد الملك لويس الرابع عشر الذي تولى المملكة في سنة ١٦٤٢م كل من راين وكومبره ولايرونديزه وكذلك كان في أيام الملك فرنسيس المشار إليه وما قبله أيضاً لا تعرف الأجزاء التي تتركب منها مجبور الشعر الفرنسية كما أن أصول تجنيس التوافي وإيقاع التمازج بينها كانت مجهولة ومهيلة وكان ثقل اللفظ (وهو عندهم عبارة عن ثلاثي حركتين أحدهما في آخر الكلمة والثانية في أول كلمة أخرى بدون حذف لأحدهما) سائغاً مستعملاً ومع هذه العيوب لم تنزل قصائد ما روط الذي مر ذكره وسنت جليس وبعض أبيات لفرنسيس الأول المذكور يستأذ انشادها ويستطاب سماعها إلى الآن لما امتازت به عن غيرها من اللطف والسهولة وعدم التكلف وأما من ظهر بعدهم من الشعراء إلى زمن الشاعر ما هرب فلا يكاد يعرف إلا أساؤهم وقل أن عرف لهم شعر

وأما كتاب الانشا فمنهم من يربس الما ذكره أيضاً فان كتابه وإن صار بتداول الأزمان مغلقاً يصعب فهمه لكثرة ما فيه من الكنايات والرموز والإشارات إلا أن ما أمكن فهمه منه يشهد بذكاء مولفه وجودة معرفته وينضي له ببعض الشهرة التي حازها بين أبناء عصره

ومن آثار الكتب الأدبية الفرنسية كتاب تاريخ الشواهي بيارفانه من الكتب التي إذا طلع عليها الإنسان تحسر على لغة الأقدمين وإخلاقهم ومنها أيضاً رسائل المارشال دوفلورنجه فانها يمكن من اللطف حتى أن القاري لا يملها ولا يسأم من مطالعتها ورسائل الأخوان مرتين وغليوم دوبلاي هي بالنسبة لتاريخ فرنسيس الأول كرسائل سولي بالنسبة لتاريخ هنري الرابع الذي تولى

المملكة سنة ١٥٨٩م ومع ذلك يجب الاعتراف بان هناك بونا بعيدا وفرقا كبيرا بين كتاب هذا العصر وشعرائه من الفرنسيين وكتاب العصر المذكور وشعرائه من الايطاليين فان فرانسوا اذ ذاك لم يكن فيها من بضاهي من رجال ايطاليا غيشاردين ولا ميشاويل ولا دانتلي ولا بتاركو ولا اربوست الذين تقدم ذكرهم في الكلام عليها

ثم بعد وفاة هذا الملك لم يحدث في زمن ابنه هنري الثاني الذي مر ذكره الاغا فاعة واحدة من وقائع فصل دعاوي بالقتال الشرعي فابطل هذه العادة الرديئة الفاسدة وانما في اواخر هذا القرن تقدمت الصنائع في فرانسوا على عهد الملك هنري الرابع وقد مر ذكره ايضا وذلك ان معامل الحرير والتوريق والمرائي والزجاج منها ما احدث في زمنه ومنها ما حصل له فيه تقدم عظيم وانشا هذا الملك خليج ايريا ففتحت بذلك طريق جديدة للتجارة وزين المدينة بهارات جديدة وكل عمل القنطرة المسماة بونوف ابي القنطرة الجديدة وصار الشروع في انشاء الجواز الطويل الذي يوصل الى قصر لورة وهو سراية الملوك القديمة بقصر التواربي وهو السراية الملكية الجديدة التي احدثتها كاترينا دوميستي وتزيدت فلاح المملكة ووضع فيها مدافع عظيمة مخوفة وازدادت مخازن الاسلحة واصلحت جميع الطرق السلطانية وغرست بها الاشجار وبالحمة كان هذا الملك يجلب الى باريس العلماء الاجانب وينشي مدارس جديدة ونقل خزانة الكتب الملكية من قصر فونتنبيلوا الى باريس وزاد فيها من المؤلفات العظيمة المطبوعة والكتب النفيسة التي بخط اليد

وتد لخص صاحب كتاب اقوم المسالك ما اشتهرت به رجال فرانسوا من الفنون والاداب في هذا القرن فقال دد ومنهم كوجا ودوملان وميشال دولينيال الذين عمروا مكاتب الاحكام والماهر الفصح فرزل المتسلطن في علم الطب وامبروازيري اعرف اهل وقته باصول الجراحات . وفيات الذي اخصر كتب الجبر بوضع حروف نائبة عن الاعداد وصبره لعلم المساحة

كالمنطق لسائر العلوم وبيارلسكو الذي هندس بناء اللوفر. وقلبار ولورم الذي هندس قصر مودون وقصر التويلري^(١). لكن وان كانت فرانس قد بلغت في هذا الوقت ما بلغته من التمدن والتهديب وفاقته اما كثيرة ممن تقدمها الا انها لم تضاه نظائرها حيث لم يكن لسانها في ذلك الوقت خالصا من الشوائب وانما كان من مشاهيرها في تلك المدة رجلا يقال لاحدها اميو ولاناني مارو (لعلمه ماروط) فالاول في الانشاء والثاني في النظم تمييزا بسلامة السليقة وقلة التعقيد ومنهم ريليس ويقال ريلي متفنن صياغة مثالب الهجو وموتان الفيلسوف الذي سهل طرق المعاني واذاها بالفاظ راشقة وشرح ماهية الانسان غير محمول بعين الرضى على تحسين معاييه ولا بعين السخط على تقبيح محاسمه.

(روسيا) وكذلك لما تولى تخت السلطنة المسكوبية ابوان الرابع بعد وفاة ابيه باسيل في سنة ١٥٣٤ رأى ان الشرائع القديمة التي للملكة غير كافية فحرر كتاب شرائع وهو وان كان لا يتخلو من العيوب الا انه اوقع تغييرات عظيمة فيها وسعى ايضا وان كان بلا طائل في ابطال المقاتلات الشرعية وجعل التجارة زاهية زاهرة وجلب ارباب حرف وصنائع من انكلترة وطلب من الامبراطور شركان (كرلوس الخامس) مثلهم. واحداث الطباعة في مدينة موسكو ورتب جيشا من العساكر المستمرة

وفي ايامه كشفت بلاد سيبيريا وذلك ان تاجرا غنيا يقال له انيكاستروغونوف اخبر اولاً بوجود هذا القطر ثم تم استكشافاته رئيس من روساء القزاق يُسَمَّى بريك كان مولعا بالحوادث ويوقع الذهب والساب في سواحل نهر وولغا وفي اكناف بحر الخزر فطردته فرقة من الروس فتوجه الى سيبيريا وبعثه ٧ الاف قوزاقي واكتسب عدة نصرات على تار تلك البلاد وعلى

(١) قصر اللوفر وقصر التويلري هما بباريس يسكن بهما الملوك اما قصر مودون

فهو بالقرب من باريس

خانهم كوتشوم وتغلب على مدينة سير التي هي اعظم حصونهم في سنة ١٥٨١ م بعد ان فقد اكثر اصحابه ولما رأى نفسه انه لا يستطيع الاقامة فيها بما بقي معه من الرجال الفلافل اشترى من التجار ابوان الرابع المشار اليه الساج والصغ عن ذنوب القديمة بالتنازل له عن فتوحه هذا فتملكت العساكر الروسية هذه البلاد في سنة ١٥٨٣ م ومع ذلك لم يتم لها اخضاعها الا في ايام ابنه التجار ثيودورس الاول (فيدورا يوانيتش) الذي تولى المملكة في سنة ١٥٨٤ م وهو الذي بنى فيها مدينة توبولاسك في سنة ١٥٨٧ م وصبرها من ذلك الوقت تخننا لتلك البلاد

(اسبانيا) اما اسبانيا فكثرت فيها الفنون اللغوية في هذا القرن الذي نحن بصدده وظهر فيها مولفون كثيرون اشتهر منهم الشاعران الجيدان لويس دفيغا وكالدرون اللذان اظهرا من التراكيب الشعرية الطرف المستعملة التي ألفوها في الجامع المعدة لتهديب الاخلاق المسماة ادهم بالتيارات

(انكلترة) وأدخلت الى انكلترة صناعة عمل الابر بواسطة رجل جرمانى كان هو اول من اصطنعها في لندن ويقال بانها نقلها اليها من اسبانيا او جرمانيا وكان ذلك في سنة ١٥٤٥ وقيل سنة ١٥٦٥ م وأستعمل كذلك في هذه المدينة التدخين وعمل السيكرات في سنة ١٥٦٠ م وأبتدي في طبع الجرائد ونشرها فيها سنة ١٥٨١ م واصطنع رجل يقال يقال له اراكريت اول دولاب لغزل القطن الهندي في سنة ١٥٢٠

(دانباركه) وفي سنة ١٥٥٢ م وهب فريدريك الثاني ملك دانباركه الى الفلكي الشهير نخبوراهي الذي افنى عمره وماله في طلب العلم واقتناص شوارده حتى سمي بالمحسن الى العلم جزيرة يقال لها هوينى لاجل بناء مرصد

سلطاني لرصد الاجرام السماوية قال بعض المؤلفين ان تيغوراهي المذكور ولد في سنة ١٥٤٦ م في مدينة كنودسترب في اسوج وكانت حينئذ تحت حكم الدانبارك واشتهر في غضون اشتهار راي كوبرنيكوس (الآتي بيانه بعد) وبلغ من الدقة في الرصد ما لم يبلغه غيره فرقاه الملك وجعل له جزيرة هوبني مقاماً وقطع له مبلغاً سنوياً فانشأ هناك مرصداً سماه اورنبرج اي المدينة السماوية ليك فيه ٢٥ سنة برصد السيارات ومن ارضاده كشف الفيلسوف كبلر النواميس التي رتبها الله لتجري السيارات عليها ولم يتقد الى رأي كوبرنيكوس المذكور لزعيمه انه يخالف الكتب المقدسة ولذلك ابدى رأيه بخلاف رأي كوبرنيكوس فحط ذلك من سمومه درجة توفي سنة ١٦٠١ م في براك بعد ان نزح اليها من اورنبرج المذكورة

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

(دورة الارض وثبوت الشمس) وكان كوبرنيكوس المنقوه عنه هنا رجلاً فلكياً من اهالي ترن او هي طرن ببلاد بروسيا ظهر في سنة ١٥٢٠ الميلاد فحرر القول بان الشمس في مركز العالم وان الارض والكواكب تدور حولها قال بعض المؤلفين بانه ليس هو اول قائل بذلك وانما الاول هو فيلولاوس احد تلامذة فيثاغورس وذلك قبل وجود كوبرنيكوس هذا بالفي عام لكن وقع الانفصال على ان كوبرنيكوس المذكور هو الذي ينبغي ان تنسب اليه مزية الابتكار لهذا القول وان انتفع في الاهتداء اليه بقول فيلولاوس المذكور. وفي كتاب اصول الهيئة للفاضل العلامة الدكتور كرنهيبوس فاند يك الامر بكافي ما نصه ان الآراء من جهة النظام الشمسي اربعة وهي اولاً الرأي البطليموسي نسبة الى بطليموس من مدرسة الاسكندرية صاحب كتاب المجسطي عاش نحو سنة ١٣٠ ق م فانه علم بان الارض في المركز وكل السيارات تدور حولها واولاً القمر ثم عطارد

ثم الزهرة ثم الشمس ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل اما ارسترخس من جزيرة صاموس فكان في سنة ٢٨٠ ق م فعلم حسب رأي ارخميدس وفلوطرخس ان الارض تدور حول الشمس فشكوا عليه بالكفر وبعد ذلك بنحو ٢٠ سنة علل كلياتوس من اسوس عن ظواهر الاجرام السماوية بثبوت الشمس ودوران الارض على محورها وهو ايضا شكى عليه امام المحكام لاجل الكفر بسبب مضادة هذا الرأي الآراء الشائعة . ثانياً الرأي المصري واختلف عن بطليموس بانه جعل عطارد والزهرة قمرين للشمس بدوران حولها وفي الرأي البطليموسي غالباً عدة قرون الى القرن الخامس عشر من التاريخ المسيحي لما قام كوپرنيكوس صاحب الرأي الثالث في سنة ١٥٢٠ م وعلم بثبوت الشمس ودوران السيارات حولها اولاً عطارد ثم الزهرة ثم الارض ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل واشهر رايه في كتابه المعنون بحركات الاجرام السماوية فحكم مجمع الفحص الروماني عليه بالهرطقة ونهى عن اشهار كتابه وعن قراءته . اما الرأي الرابع المستحق الذكر فهو رأي نيغوبراهي (المار ذكره) وقد اشهره نحو سنة ١٥٨٢ م فانه جعل الارض في المركز ثابتة ثم القمر يدور حول الارض ثم الشمس تدور حول الارض وعطارد والزهرة وسائر السيارات تدور حول الشمس اقراراً لها . ثم قام غليلي في ايطاليا سنة ١٦٤٩ م (وسوف يأتي ذكره) وبين صحة الرأي الكوپرنيكي (فحسب ايضا بامرد بيان الفحص لاعتمادهم ان ذلك يخالف ما جاء في التوراة من ايقاف يشوع بن نون الشمس في محاربة اريحا قال بعض المؤلفين انه في اثناء حبهو كان يرسم الحساب على جدران الحبس ويتأمل ثم يضرب الارض برجله ويقول ومع ذلك فان الشمس هي التي تدور) ثم تبعه في اثبات هذا الرأي وتبيينه كبلر (وهو رجل من جرمانيا صرف مدته في علم الفلك حتى قيل له صاحب الاحكام) في سنة ١٦٥٤ م واسحق نيوتون (وسوف يأتي ذكره) نحو القرن الثامن عشر ومن ثم صار المعول على الرأي الكوپرنيكي واندرت بنية الآراء كلها

تقويم السنة

ثم في سنة ١٥٨٢ م اصاح البابا غريغوريوس الثالث عشر حساب السنة الشمسية على وجه الضبط يجعلها ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و٤٨ دقيقة و٤٩ ثانية ولا يخفى ما في ذلك من الفائدة بالنظر الى التفاوت والزيج وغيرها من تعلقات الامور الفلكية ويفهم مما تقدم بان اصل التقويم كان من رومولوس باني مدينة رومية سنة ٧٥٣ ق م الا انه جعل السنة ٣٠٠ يوم مقسومة الى ١٠ اشهر ثم اضاف خليفة توما بيلبوس اوقفه بيلبوس لها شهرين آخرين فجعلها ٣٦٠ يوماً وذلك في سنة ٧١٥ ق م وبعد ظهور تالميس الميطي اول فلاسفة اليونان المولود سنة ٦٤٠ ق م وعلم بان السنة ٣٦٥ يوماً ورتب الفصول وحدد الشهور اخذاً عن المصريين ثم لما تولى سلطنة رومية يوايوس قيصر اصالح كذلك هذا التعليم بجعله السنة ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات ورتب نظير هذه الست ساعات التي خصها الى السنة يوماً يضم الى كل سنة رابعة ساها كبيساً ولا زال الحال جارياً على هذا المنوال الى ان قام البابا غريغوريوس المشار اليه واصحح الحساب اليولياني بتقويم المنسوب اليه والحالة هذه على ما تقدم (راجع الكلام على العلوم الطبيعية في كتابنا زبد الصحائف في اصول المعارف صحيفة ٢٢٥)

(المغناطيس) وفي تلك الاثناء اعني في سنة ١٥٧٦ اكتشف رجل يقال

له روبرت نورمان حجر المغناطيس

(الصناعات) وكان في سنة ١٥٢٠ عمل الزناد للطبقات وفي سنة

١٥٦٣ عملت السكاكين والمدى من الحديد وكانت قبل ذلك تعمل من

الصوان والصدف وفي سنة ١٥٧٠ اصطنعت الطبقات المضاعفة وفي سنة

١٥٧٩ اصطنعت آلة تقسيم الموازين وفي سنة ١٥٩٠ اُنقنت المراني وتلبست ورق

المنك الزينبي

القرن السابع عشر

يمتاز هذا القرن أولاً بإتمام معاهدة وستفاليا التي أبرمت في سنة ١٦٤٨ بانعقاد الصلح بين الكاثوليك والبروتستانت وإعطاء القرار بين الفريقين على ان كلاً منها يبقى على دينه في استقلاله وراحته وان يعيش احدهما مع الآخر على المحب والسلامة مع اختلاف مذاهبها ووضعت كذلك بين الدول النظمات والقوانين الجديدة في اصول الادارات الدولية المُعبر عنها باصول الموازنة البولنيكية . ويعتبر المورخون هذه الاصول نهايةً للقسم الاول وبدايةً للقسم الثاني من القرون الاخيرة كما سبقت الاشارة الى ذلك في مقدمة هذا الكتاب ثانياً معظم مقدار تقدم العلوم بين الافرنج فيه سواء كان ذلك في الفهم والادراك او بدائرة الاختراع والذاكرة والتصور لانه منذ استيقظت عقولهم وزاد انتباههم الى ذلك دلم على الطريق المستقيم التي يجب ان يقتفوها الفاضل العلامة فرنسيس باكون السيد فيرولم ابولون الانكليزي وخاصة في ما كتبه على شرف العلم وتقدمه ومن ثم لاريب اذا قيل بان جزءاً عظيماً من التقدم الذي تقدمه الاوروبيون في كل نوع من المعارف في هذا القرن ينسب الى آراء هذا العلامة ونصائحه ولا سيما الذين كتبوا في القضايا الفلسفية والطبيعية اذ ان اغلب الناس في الزمن السابق كانوا يظنون ان المعرفة البشرية تصل الى درجة كمال مجرد درس افصح مولدات اللغة اليونانية واللاتينية وبمعرفة العلوم العقلية والنظرية فلما ظهر هذا الفيلسوف ذو الفكر الوقاد والجد والاجتهاد وكان مولعاً بتجديد العلوم الف مجموعاً واشهره في سنة ١٦٣٠ ضمن آراء تخالف الفلسفة التي كان عليها المعول في ذلك العصر كل الخلاف وعاكس بها منطق

المشائين مستنداً في دعاويهم الى التجارب المفرغة في قالب الاسلوب الفلسفي
 اظهر بها طريقة الاستخراج وهي طريقة للكشف عن الحق لم تستعمل قبل عصره
 تستخرج بها حقائق عمومية من امور خصوصية لهم فيها شهادات الحواس او شهادة
 اخرى صادقة (راجع البصل السابع من المقالة الاولى والبحث الاول من القسم
 الاول من كتابنا المسمى بزبدة الصحائف في اصول المعارف صحيفة ٥١ و ٩٥)
 ومن ثم اخذت مهابة ارسططاليس تتدنى في المدارس واكتسبت الفلسفة صورتها
 المحاضرة حيث عدل الناس بسطوته عن تلك الاراء وعرفوا انه يوجد غذاء
 اصح منها لعقل الانسان الحكيم فوصلت بذلك العلوم التعليمية والطبيعية الى
 درجة عظي بين شعوب اوربا حتى ان الذين عاشوا قبل هذه المدة كانوا بالنسبة
 اليهم كانوا اطفال في العلوم

وكان الذي ابتدا بسلوك هذه الطريق غاليلي الذي مر ذكره في ابطالها
 وسنده في ذلك امراء التوسكانا ثم تبعه من الفرنسيين رينادي كارت
 وبطرس كاسندي وكثيرون غيرها ومن الدنياركيين نيجو براهي الذي تقدم
 ذكره ايضاً ومن الانكليز روبرت بويل واسحق نيوتون واخرون اقل شهرة منها
 ومن الالمانيين يوحنا كبلر ويوحنا هفيباوس وكدفري وليم ليبنتز ومن
 الاسويجيين البرنولي ثم التصق بهؤلاء العلماء الذين هم من الرتبة الاولى اخرون
 كثيرون حتى انه لم تبق امة في اوربا الا وتفخر ببعض علماء افاضل شهيدين
 بالهندسة او بالفلسفة الطبيعية او بالعلوم الفلكية (ما عدا الذين لم يتدنوا)
 ونهجت رغبتهم افتداءً بامراء التوسكانا اعني العائلة الميديشية السابق ذكرها
 التي كانت حامية كل العلوم خلفاً عن سلف ولا سيما هذه الفروع وبالملكين
 العظيمين لويس الرابع عشر ملك فرنسا وكراس الثاني ملك الانكليز ايضاً
 اذ ان الاول انشأ في باريس والثاني في لندن جمعية مركبة من جماعة من
 العلماء المحققين الذين منحاهم من الكرامات ما يحفظهم من ازدياد البسطاء وبذلا
 لهم من الهبات ما يقمهم من عوائق الضرورات وكان عمل هاتين الجمعيتين

مختصراً في البحث المدقق عن النواميس وتقوية العلوم التي تنفق العقل البشري
في معرفة الحقائق وازدياد الرفاهية والراحة
وكان من جملة ما فجع من فوائد هاتين المدرستين انه لما ازلت معرفة
حقيقة التاريخ كثافة الظلام عن العقول بواسطة البحث والتفتيش المدقق فيها
ظهر حينئذ الناس ايضاً بان المجادلات الدينية المتنوعة التي ازعجت العالم المسيحي
في ما سلف لم تكن ناتجة الا عن اسباب واهية جداً نظير التباس بعض
العبارات او من الجهل والتخريفات والحسد والتفاخر والرغبة في التراس
وحب الذات وهكذا الذين درسوا العلوم اليونانية والعبرائية وتعلموا لغات
الشرقيين واصطلاحاتهم القديمة افلحوا كثيراً في دروسهم وانجلمت لهم معاني
آيات كثيرة من الكتاب المقدس

(الفلاسفة) وكانت الفلسفة قد انقسمت في بداءة هذا القرن الى قسمين
ارسطويين اي اصحاب الفلسفة السكولاستيكية المار ذكرهما وناربيين او كيبويين
وهم القائلون بالامتحان التخيلي واخذنا كلتاها في الخصام على التراس وتفسير
بعض المولفات لكن تبوأ الارسطويون منها كراسي جميع المعلمين في المدارس
الكلية والاعنيادية وكانوا ينفرون من جميع الذين يظنون بانه يجب اصلاح
فلسفة ارسططاليس او رفضها وبجنسبونهم خائبين وطنهم واعداً جهاريين للجنس
البشري واما الكيبويون الذين كانوا يزعمون ان لا سبيل الى المعرفة الحقيقية
والمبادي الاصلية لجميع الاشياء الا بواسطة حل الاجسام في النار وتصوروا
جميعاً وجود اقتران واتفاق بين الديانة والطبيعة واعتقدوا ان الله يجري
مقاصد في ملكة النعمة حسب الشرائع التي يجريها في ملكة الطبيعة ولهذا
عبروا عن تعاليمهم الدينية بعبارة كيبوية فاعتقدوا كافة انه يوجد نوع من
فعل الهي او نفس منتشرة في نظام الكون يسمى البعض اركيوس والبعض الروح
العمومي واخرون غير ذلك وتكلموا بمخرفات عما يدعونه علامات الاشياء وعن
قوة الكواكب وتسلطها على جميع المواد حتى الناس وعن السحر الى غير ذلك

ثم لما ظهر كارته سيوس ويقال له ديكارت ايضا تفلسف بمخلاف ما ذكر
اذائه رفض التعليمات التي كان اعتمد عليها قبلاً واخذ يبحث عن الامتكار العامة
او العقليات لكي يصل الى الحقيقة التي كان يطالبها وكان يستمد المساعدة من
بعض مبادي بسيطة جداً يعرفها الناس طبعاً على الفور ومن ثم اخذ اولاً في
ان يتصور تصورات بيّنة عن النفوس والاجساد والله والمادة والكون والفضاء
وعن الاشياء الاصلية التي يتألف منها الكون ولما جمع افكاره هذه ولخصها في
نظام علي وجهها الى اصلاح الاجزاء من الفلاسفة وتحسينها وتوطيد ما مجتمداً
دائماً في ان يجعل ما ياتي مطابقاً لما سبق ويظهر انه صادر عنه على الفور وعندما
طرح تأملاته هذه لدى الجمهور استحسن افكاره واعتنقها جم غفير من الناس
المحاذقين في اكثر اوروبا حيث كانوا قد ضجروا منذ زمان طويل من عجز
المدارس وظلمتها ورغبوا كل الرغبة في ان يستحسن الطلبة هذه الفلاسفة الديكارتية
ويرفضوا فلسفة ارسطو ولذلك مدح اغاب مشاهير ذلك العصر اسلوبه في
التفلسف بدون ان يخضع لمرشد او معلم ولا سيما بتقدمه مع الثاني الى الاشياء
المعقدة الصعبة مع المحاذرة بحسبها لتتضيق الطبيعة او العقل السليم من التسليم
بشيء قبل ان ينظر فيه ويفهمه حتى انه لم يبق احد الا واعترف بان هذا الرجل
اخترع اختراعات واوليات كثيرة لماعة وجزيلة المائة

ومن ثم انقسمت مالک اوروبا الى قسمين مشهورين من الفلاسفة يختلفان
قليلاً في القضايا الاكثر نفعاً الى الحياة الانسانية وكثيراً في مبادي كل الحاجات
الدنياوية او بالحري في اساسات كل المعارف البشرية فالقسم الاول تسمى بعدل
الشيعة النظرية والتسم الاخر تسمى بالشيعة التعليمية ولم ترفض روساء المدارس
هذه التسمية والاول سلك في خطوات ديكارت والاخر فضل اسلوب رجل
اخر يقال له كسندي اذ ان الاول اعتمد ان الحق يتوصل اليه بالاستدلال
والثاني قال لا بل بالامتحان والملاحظة الاول قل اعتماده على الحواس وانكل
بالاكثر على التذكر والتفطن والثاني قل اعتماده على الاستدلال وانكل بالاكثر

على الحواس وملاحظة المواد بالفعل الاول استخلص من مبادي نظرية قليلة جريئة مستطيلة من العقائد التي اوضح بانها انفتح له بواسطة طريق للمحصل على معرفة حقيقية عن الطبع الالهي والنفوس والاجساد والعالم بأسره والثاني لم يرفض المبادي النظرية غير انه انكر كفاءتها لاثبات نظام كامل من الفلسفة محتجاً بان الاختبار المستطيل وملاحظة الامور باعتمادها والامتحان المكررهم غالباً احسن مساعداً للمحصل على المعرفة الراهنة المفيدة . الاول يرتفع الى الجوّ بكلّ جسارة ليبحث العلة الاولى والمصدر للحق وحقائق كل الاشياء واسبابها وعند ما يرجع بما اكتشف يندرج الى ان يشرح به التغييرات الطبيعية ومقاصد الله وصفاته وسيرة الناس واجباتهم وتركيب الكون ونسبته والثاني باشدّ جنانة واوفر حياءً يلاحظ اولاً باصغاء كلي الاشياء التي يقع عليها النظر والتي كانت موضوعاً عند اقدام البشر ثم يصعد الى البحث في حقائق الاشياء واسبابها . الاول يفرض اشياء كثيرة مفهومة غاية الفهم فيستعد ان يحول معرفته الى هيئة نظام مرتب ونظام والاخر يفرض اشياء كثيرة بعيدة عن الادراك ويعلم تابعها ان يؤخرها كل حكم على قضايها لا ينحصر الى ان يوضحها الزمان والاختبار بنوع اسطع وابين واخيراً يفرض ان تركيب النظم الكاملة اما انه يفوق طاقة البشر واما انه يجب ان يترك لاهل القرون المستقبلية الذين يكونون قد تعلموا من الاختبار اكثر من اهل عصره وخلاصة الامر ان النظري يزعم بانها لا يعرف المعالوات الا بعد الحصول على معرفة العال واما التعلي فيرى بانها لا يدرك العلة الا بعد البحث في المعالوات . فهذا الاختلاف على المبادي الاولى لكل المعارف والعلوم البشرية احدث انشفاقاً عظيماً على القضايا الاكثراهمية مثل صفات الله وحقيقة المادة وعناصر الاجساد وشرائع الحركة وكيفية السياسة الالهية والعناية وتركيب الكون وحقيقة النسبة المتبادلة بين الاجساد والانس

وكان قد كثرت في هذا القرن الكفرة مضاداً وادبان ايضاً ويقول الانكليز بانها من عهد كرلوس الثاني الذي مر ذكره فسدت امنهم بافطع النواحيش

والرذائل فادّت هذه الحالة الى الافراط الزائد في الآراء والمجدال في الامور الدينية وكثيرون اخذوا في محاربة الاديان وزعموا بانه يجب اتباع ديانة الطبيعة والعقل فقط وكان قائد هذه الجمعية الكفرية بينهم رجل يقال له توما هبص من ملسبري موصوف بالجساسة والخداع اكثر من العلم والمعرفة وبزعم البعض بانه قد تجاسر على انكار الخالق ايضاً لكن يقال بانه اقلع اخيراً عن كفره في زمن شيخوخته ورفض ما كان نشره قبلاً من معتقداته . وكذلك يوحنا وامت من روتشستر فانه قاوم الله والديانة اكثر من هبص المذكور لكنه ارتد اخيراً بواسطة انذار كلبرت برنت وتوفي نائباً ونادماً في سنة ١٦٨٠ م وانطوني اشلي كوبرامير شفتسبري الذي مات بالسّل في سنة ١٧٠٢ كان من اكبر اعداء الدين ونظراً لطلاوة عباراته وسحر بيانه قد طبعت مولفاته مراراً . ويوحنا طلند الايرلندي كتب ايضاً عدة نيات احقر بها الديانة المسيحية فاعتبرها كثيرون من البسطاء

اما في فرانسافقام رجل يقال له يوليوس قيصر فانيني أحرق جهاراً في تولوس (اوهي تولوزة) في سنة ١٦٢٩ م لكونه انكر واجب الوجود غير ان البعض يجامون عنه مدعين بانه اتهم بذلك زوراً وحسداً ورجل اخر يقال له كسمور كبري الفلورنتيني مات في باريس سنة ١٦١٥ اصرّ على كفره حتى ساعة الموت وقال وهو في اخر نسمة من حياته انه يعتبر كلّ تعاليم الناس عن الله والارواح ما هي الا خزعبلات باطلة

ثم قام في البورنغال بناديكتوس سبه نوسا الذي مات في هاكوسنة ١٦٧٧ وهو يحسب اول جميع الذين في هذا القرن حولوا خالق جميع الكائنات الى مادة قيدتها شرائع الضرورة الازلية على ان هذا الرجل كان يهودياً وتنصر وعاش عيشة مدوحة اكثر من كثيرين من المسيحيين وغيرهم الذين لم يشكوا ولا ارتابوا في وجود واجب الوجود وما حقّ على الناس له ولم يجتهد في ان يقود الذير الى الازدراء بالالوهية او الى الاداب الفاسدة لكن كتبه ولا سيما التي طبعت

بعد موتها تظهر جلياً بان قصده كان البرهنة على ان جميع العالم بل والله سبحانه
 ايضاً شيء واحد وان كل ما يحدث يحدث من شرائع الطبيعة الازلية غير المتغيرة
 الواجبة الوجود الفعالة منذ الازل وعلى هذا يتبع ان كل شخص هو الله جل وعلا
 ولا ريب بان الذي قاده لذلك هو الفلاسفة الكارثسيانية التي مر ذكرها لكونه
 اتبع مبدأ جميع الفلاسفة وهو ان كل الاشياء الموجودة حقيقة اي كل الحقائق
 انما توجد في الله جل شأنه واذ حسب راي كارته سيوس رأياً سديداً لاريب
 فيه وهو وجود حقيقتين هما الفكر والامتداد الواحدة تخص بالعقل والثانية
 بالمادة اقتضى له بالطبع والضرورة ان ينسب الى الله هاتين الحقيقتين اي
 الامتداد والفكر على الاطلاق ولذلك كان لا بد من ان يلبس الباري سبحانه
 بالمادة كأنها شيء واحد والاعتقاد بانه لا يوجد الامادة حقيقة واحدة تصدر
 منها كل المواد الاخرى واليه يرجع الجميع ويعترف احباء هذا الرجل بان
 نظام تعليمه لم يكن ذا براهين جلية وليس له طلاوة تسحر الالباب انما لما كان
 يدرك بنوع حسّي اكثر من ان يدرك بالعقل كان اعظم العقول في خطر من
 عدم فهمه وكان يُحسَبُ في الدرجة الاولى من تلامذته الذين يسمون بنا دكتيين
 لويس مير الطيب و لو كاس والامير بونفيلير وغيرهم وقد اخنار تلاميذ هذا
 الاتساع لالي معلم لكون اسمه بنا ديكوس بل الى التعليم الاصلي الذي
 يعتقدونه لان معناه كل شيء الله

وهنا لاريب اذا قيل بان الفلاسفة التعليمية التي مرت تفاصيلها قبلاً هي
 مدبونة كثيراً بتقديمها لرجال قد تخلد ذكرهم ومنهم اسحق بارو وبوحننا والس
 وبوحننا لوك وروبرت بويل النبي الذي كان يجب ان يذكر اولاً لاشتهاره بمولفاته
 العلمية السامية وكذلك لاهوتيون تلك البلاد من الذين يستنكف الفلاسفة ان
 ينهههم بمقاومة اعمالهم اغنصائياً لم يحسبوا صحيحة وغير مضرّة فقط بل نافعة
 جداً ايضاً لتنبه حاسيات القوارل واجب الوجود جل ذكره وتقويتها وتعهد
 الديانة وتحامي عنها مع المطابقة التامة لتعاليم الكتب المقدسة ولهذا كل الذين

فقدوا جهاراً اعداء الله والديانة في الخطابات البولية نزلوا الى ساحة المناظرة
لا يسي دروع هذه الفلسفة وشاكي اسلحتها ولكن لم يساعدهما قط احد باجتها
وحذافته ونجح في نقويتها مثل اسحق نيوتون وسوف يأتي ذكره في محله وهو انسان
في غاية السمو والوقار حتى وفي نظر اخصامه فضلاً عن غيرهم لكونه صرف كل
حياته الطويلة في تثقيف هذه الفلسفة واصلاحها وتوسيعها وتوضيحها بالامتحانات
والحسابات ايضاً ونجح نجاحاً غريباً حتى كانه حولها بيده من الفضة الى الذهب
الصافي ويقول الانكليز بانهم عارفون فضل هذه الفلسفة وقيمتها السامية من
حقيقة واحدة وهي ان جميع الذين اعكفوا على درسها تركوا لمن بعدهم اثاراً
حسنة للطهارة والتقوى الراهنة مع ان كثيرين من الفلاسفة النظريين كانوا
بعيد بن عن الله سبحانه وعن عبادته ومعلمي اعظم النفاق وناشري اشر الفجور

استدراجات مدنية

(فرانسا) وكان في سنة ١٦١٠ تولى تخت المملكة الفرنسية الملك
لويس الثالث عشر واستوزر كردينا الأشميرياً يقال له ريشيليو فاعان هذا الوزير
العلوم والفنون واسس الاكاديمية الفرنسية ابي مجمع العلماء وانشأ بستان
النباتات في باريس ورسم مدينة سوربونة واحداث كنيسة اعدّها لدفنه واسس
السراية الكرديناالية التي سميت اخيراً بالسراية المملوكية حيث اوصى الملك فيها
بعد وفاته وفي زمن الملك المشار اليه وضع التمثال على القنطرة الجديدة تعظيماً
لهنري الرابع واحداث القديس وانصان بطرس المرستان لبنات الصدقة
ثم في زمن الملك لويس الرابع عشر الذي تولى المملكة في سنة ١٦٤٣
احداث القديس المذكور المرستان المعد الى اللقطا وكان موجوداً وقتئذ مهندس
يُسمى دوبان لم يكن له نظير في المهندسين فشيّد لهذا الملك الحصون والقلاع

المعنية التي شعن بها ثغور فرانساً جهة الشرق والغرب وكان للملك المشار اليه
 وزير يقال له لوواس بن يوطيلة فرتب في فرانساً الجيوش المهابة التي ارهبت
 مالكة اوروبا واحدت لما مخازن المآكل والملبوسات والمهات الحربية وصنع
 المذافع العظيمة التي شتمت بها جميع اسوار المملكة وفي هذا الوقت بنيت سراية
 ورسالية النفيسة وغيرها من العمارات والاثار العظيمة التي تزيد في رونق فرانساً
 الآن ومن اهمها مرستان المنفعة بن فانه مأوى مفتوح لكل من بذل روحه
 في حب وطنه اذا طعن في السن والحمة الهرم ومنها خليج لغدوق الذي يجمع
 بين المحيط الغربي والمحيط الابيض وفتحته فتحت طريق جديدة للتجارة ولما كان
 هذا الملك مشرعاً صدرت عنه احكام عظيمة في المعاملات الشرعية والجنايات
 والتجارات والقوانين البحرية العسكرية وفي شان الاسترقاق فاتبعها اغلب مالكة
 اوروبا لما فيها من الحكمة والعدالة واحداث ايضاً عدة ترتيبات في توسيع التجارة
 فرتب قوافل مالكة الهند الشرقية والغربية وزاد في قبائل فرانساً واعطى
 الحرية لمينا مرسيليا ومينادونيكيرك بحيث يتيسر فيها التجارة لجميع الناس وانشأ
 في المملكة عدة معامل مهمة من ذلك دوالب غزل القطن التي استعملت في
 بلاد الانكليز منذ القرن الماضي ومعامل نسج البسط الرفيعة التي حدثت في
 فرانساً سنة ١٦٦٧ وساعد على تقدم الصنائع كالدهن والنقش وغيره واعان
 في تقدم العلوم والفنون والاداب ورتب لذلك جمعية علماء يتباحثون في كل
 فرع من فروعها فظهر في عصره عدة مولفات نفيسة ومصنفات غريبة
 وقد جمع الكردينال موري اساء مشاهير العلماء العظام الذين كانوا في
 هذا العصر بخدمة الملك المذكور فقال ان منهم قواد جيوش البحرية الاميرتورين
 وكوندة ولوكسنبورغ وكاتينا وايبكريكي وبوفابريس ومونتسكيو ووندوم ووليارس
 ومنهم قواد عساكره البحرية شاتورينو ودوكستة وتورويلا ودوغطروان ومنهم
 ارباب مشورتهم الوزير كولاير ولوواس ونورسي ومنهم واعاظه ومرشده الى ما فيه
 صلاحه وهم بوسوه وبوردالو وميسيليون وكان رئيس ديوانه الاول المسمى

دیوان السنک هر موله ولونیون وكان اربابہ طالبون واغاصو وكان المهندس
دیوان یشیدله القلاع والمهندس ریکه یحفره الخجانات والمهندس بیرواط
ومنصار بینیان له القصور وكان بوجه وجیراردون ولوبوسان ولوسیور ولوبرون
بزرخرفون له تلك القصور ویزینوتها وكان لونیوتر برسم له البساتین وكان له
من الادباء کورنیلیه ورسین ومولیر وکینون ولاقوتین ولابرویر وبوالوفکانا
هم الذین بضیتون عقله بانوار الملح الادبیة . وكان الذین یباشرون تریة
اولاده موتزیه وبوسوه وبولیرس وفنیلون وهو ویط وفیاشیه وایفلوری فكان
هذا الملك فی اعلى درجات الفخر وعلو الشان بهذا الموکب العظیم من رجال
عظام عرف ما یلیق بكل منهم من الوظائف فاقامه فیہ ولاکثرهم من الشهرة
العلمیة والادبیة ما یتضح مما یأتی

قال صاحب اقوم المسالك ما ملخصه ان بورد الووماسیلیون قد اظہرا
فصاحة لم تكن لاحد قبلها من خطباء الدیانة المسیحیة وبوسوه هو رجل عریف
الحسب والنسب مولود فی مدینة دیمون وتوفی فی باریس سنة ۱۷۰۴ وله
مولفات عظیمة بالغ فیها فی حسن التایین (یعنی الفطانة ودقة النظر فی الامور)
وفی خطبته علی التاريخ العام السائرة مسیر المثل عند اهالی اورویا درجة لم
یبغها احد بعده وبوالوبین قواعد الشعر ولابروار معدود من السابقین فی
علم التهذیب وفنلون كان ادیباً شهیراً واذ كان لم یبلغ من العمر ۱۹ سنة صار
من الخطابة والوعظ بمكان عظیم وشهد له الناس بالفضل حیث استمال
قلوبهم بحسن فصاحتهم ویدیع بلاغته وله تألیف عظیمة فی الفلسفة وفوق
الطبیعیات وهو صاحب التألیف المشهور المسی تلماک الجامع لاسباب التهذیب
البشری (وقد سبق الکلام علیہ فی ما تقدم بمجمله خرافات اليونانین فی الذین
یعتقدونهم انصاف آلهة نوفي فنلون سنة ۱۷۱۵) اما کورنیلیه ورسین فكانا
لا یقاسان فی التراجمیدا (وهي محاكاة الحروب والوقائع) الا بمشاهیر اليونان
وكذلك مولیر فی الكومیدیات (وهي محاكاة امور فی قالب الهزل) ومثله

لا قوتين في الامثال وهذان الاخيران قد قدما من كان قبلها (و ذكر ايضا رجالا اخرين لم يذكروا بجملة من ذكر قبلاً) كبا سكال الشهير بفن الحساب والطبيعات والانشا والف كتاباً سماه بما ترجمته مكاتيب اهل القرى وهو من اشهر ما ألف في الارسال تعرض فيه للقدح في سيرة الرهبان اليسوعيين الذين كانوا يدافعون عن السياسة الباباوية . وديكارت المعدود في الطبقة الاولى من مخترعي العلوم الرياضية وانقان التصرف في علم الفلسفة وهو من اشهر العلماء الذين هذبوا اخلاق البشر (راجع الفلسفة في الكلام على امتيازات هذا القرن)

(روسيا) اما روسيا فكان قد اعترها تغييرات و انقلابات منعت من اصلاح حالها وتهذيب اخلاقها و ادخال العلوم والفنون فيها منذ قتل ديمتريوس اخر الملوك الروميقية في سنة ١٥٩٧ الى ان تولى الملكة اليبصر بطرس الاكبر في سنة ١٦٨٢ وهو من العائلة الرومانية التي ظهر منها اخيراً انها ترغب في تهذيب اخلاق الدولة وتمدنها على انه كان في خلال هذه المدة اجتهد البعض من ملوك هذه العائلة في ادخال اصلاحات كثيرة لكنهم لم تات بطائل فان الكسيس والد بطرس الاكبر المشار اليه كان منذ تولى الملكة في سنة ١٦٤٥ وضع دستوراً للقوانين والشرائع الا انه غير واف في جميع الاحكام وادخل في ممالكه صنائع الاقمشة والحديد لكنهم لم تمكن زماناً طويلاً وجعل الاسرى الذين اسرهم من قبائل لسيانية ولاهية وثنارية لزراعة الاراضي لان العادة كانت في ذلك الزمان ان الاسارى يكونون ارقاء لمن وقعوا في اسره وبذل جهده في ادخال التربية العسكرية في جيوشه وفي تعليم الامالي الفنون والصنائع وجلب معلمين وعمارة من بلاد الفلمنك متدربين على صناعة السفن فاصداً ان يعمل اساطيل في الانهر الكبيرة التي تصب في بحر الخزر والبحر الاسود لكن لم يكن في عمره فسحة كافية لتتيم مشروعاته بل توفي في سنة ١٦٧٧ وبوتة

اختل نظام هذه الاشياء

وكذلك لما تولى عوضه ابنة فيودور (ثيودورس) شرع في ترميم مدينة
موسكا وحسن ترتيبها فبنى فيها عدة بيوت عظيمة بالاحجار الكهها لم تكن منتظمة
البنيان ورغب اكابر ديوانه في البناء واقترضهم ما يلزم لذلك من الاموال
واعطاهم ايضا المهات اللازمة وهو اول من اهتم بانشاء اصطبلات للخيول
الجياد وبعض تحسينات نافعة وبعض قوانين تتعلق بالضبط والربط والسياسة
العمومية غير ان مثل هذه المساعي الهينة لم تكن ذات تاثير في تقدم بلاد مثل
بلاد روسيا انما المعول عليها بالاجماع هو ان هذه المملكة لم تخرج من مجور الجهالة
الى سواحل الانوار حنيفة الا منذ تولى عليها الامبراطور بطرس الاكبر المتقدم
ذكرة لانه عرف كيف يدنها ولذلك قد دعي بحق اب سلطنة روسيا واحد
العقول في العالم اما اعماله العظيمة ومشروعاته الجسيمة فلا يسع هذا المواقف
تفاصيلها بالتام وانما ملخصها هو انه اول ملك مسكوي ارسلت في ايامه سفراء
الى بلاد فرانسابل الى سنة ٦٨٧ م التي فيها ارسل الامير بازيل غالتزين
الذي كان رئيس عساكر الدولة ومديرها وامين الختام هذه الارسالية لم يكن
وقع تعارف بين دولة فرانسابل ودولة روسيا فاشهرت جمعية الانوار القديمة بالديار
الفرنساوية تلك الارساليات حين قدمها بنيشان فخار على صورة النقود مكافاة
لها وكان الامبراطور بطرس المشار اليه متوسط القامة علبه سمة الاكابر يمشي
الخيلاويه نشاط وفتاة مهابة ذا حاسة في كلامه وفصاحة منطوق وخطابة بين
جنده واهل مشورته فكان ساطانا وخطيبا معا وهاتان الصفتان صيرناه مهابة
في بلاده وكان لا يجب الزينة والزخرفة في اموره ولا في ديوانه ويشغل كثيرا
ويشرع في مهات عظيمة ومقاصد جسيمة لا يكمل عزمه ولا تمل هنته بحسب زمنه
بالدقيقة ولا يضيع وقتا من الاوقات الا في اشغاله لا تفزعه المشاق ولا تزعبه
الاضطار وكان مع حسن شكوه حاد البصر صحيح المزاج قوي البنية وموصوفا
باصابة الراي التي بواسطتها يكون الانسان متجرا في جميع المعارف الحقيقية

وكانت فكرته دائماً شغالة وبخيار الوسائط الغربية السريعة التوصل الى المطلوب ليظفر به مثلاً اذا اراد احداث شيء مثل تعليم العساكر على طريقة الافرنج برأ او هجرأ ابتدا التعليم بنفسه ودخل في ادنى المراتب ولما امر باقامة جامعة لاثلاثة الخريق واطفاء النيران التي كانت متواترة في بلاد المسكوب كان يذهب هو ذاته بعض الأحيان معهم للاطفاء ويباشر وسائط ذلك بيده واذا اضطر الى السفر في بعض اقاليم ما كتبه سافر حالاً من غير اتباع واسرع في سفره ولو كانت المسافة بعيدة وكان من صغر سنه مصاباً بداء النفور من الماء وبغض البحر حتى كان يتصبب عرقاً بارداً ويعتريه من شدة الفزع تشنج الاعصاب حين يركب نهراً فمالج هذا الداء بقذفه نفسه في الماء الى ان صار من عطاء الملاحين ومهرة التجارة ببلاد الشمال وركوب الجراحات الاشياء اليه ولكنه كان مطيعاً للكثير من شهوراته التي اعناد عليها في صغره فكان اذا ابغض اهلك وانتقم واتبع حظوظ نفسه وكان كثير السكر فهدم ذلك بنبته وهج دمه واعتراه شدة الغضب والحمية حتى انه كان اذا غضب لا يعرف احداً غير زوجته الثانية وهي الامبراطورة كاترينا الاولى فهي التي كانت تسكن غضبه وتدعوه الى المروة والفضيلة فاذا افاق استمى من هذا الغضب الجبري ويصبح متأسفاً نادماً على افعاله قائلاً اني اقدر ان اصالح امة بتامها ولا اقدر على اصلاح نفسي وكان تزوج بامرأته المذكورة بعد ان طلق زوجته الاولى المسماة اودكسيا ثيودورة بنت مبرالاي يقال له لابوشين في شهر حزيران سنة ٦٨٩ م لكونها كانت غير موافقة الى مشرته وتعارضه في كثير من مشروعاته والزمها ان تهرب في دير وابدل اسمها بهيلانة وكان له منها ولد يسمى الكسيس امر ايضاً بقتله بسبب انه تعدى او امره وجاوز حدود القوانين مع انه لم يكن له وارث سواه وقد انتهى امر هذا القيصر ان صار اعلم اهل مملكته فتعلم عدة لغات وبرع في العلوم الرياضية والجغرافية وربما تعلم شيئاً في الجراحة والعلاج بنفسه وكانت امة المسكوب قبل سلطته من اصحاب الخشونة والجهل فقلبها الى حالة التقدم والمعارف بواسطة مجاذفة

عقله وجسارته وشدة ميله الى الامور الغربية حتى انه لم يكتفِ برسالة ٦٠ نفرًا بعثهم الى مملكة ايطاليا لتعليم العلوم البحرية وانشاء السفن في مدينة البندقية ومدينة ليغورنا و ٤ اخريين الى بلاد الفلنك ليتعلم بعضهم معاملها واشغالها والبعض الاخر التعليمات العسكرية في السفن الكبيرة الحربية وطائفة ثالثة ايضا الى بلاد النمسا لتعلم حركات الجيوش البرية ويتمرنوا على التعليمات العسكرية التساوية وكان اتقنهم جميعاً من ٥ الابات عساكر نظامية جديدة ابتداءً في تعليمها واعدها لابطال عساكر الاسترليج الذي كان اشبه في عساكر اليكجيرية في بلاد الدولة العلية العثمانية وجعلها تحت ادارة رجل يقال لوفورت من اهل ايطاليا كان استامنه هذا الفيصر لجودة عقله ووفرة ذكائه بل نزل هو نفسه عن كرسيه وذهب الى البلاد الغربية ليشغل في معاملها مثل احاد الشغالين المستاجرين متخفياً حتى لا يعرفه احد ولا يتبين من الصناتعية لاجل ان يتعلم مبادي العلوم والفنون والصنائع ويدخلها الى بلاده فذهب الى مملكة الدانمارك واقليم برندبرغ وبلاد الفلنك ومدينة ويانه ومدينة البندقية ومدينة رومية ولم يعزم على الذهاب الى اسبانيا لان ما كان يطلبه اذ ذاك من الفنون كان مهلاً فيها ولا الى فرانس لان الفنون التي كانت فيها وقتئذ كانت مؤسسة على الانساع والزينة وكان سلوك ملكها لويس الرابع عشر منافياً الى سلوكه وكان بينه وبينه منافاة حيث انه لم يقم بمحقوق السفارة التي كان ارسلها اليه الحجار المذكور في سنة ١٦٨٧ م على ما تقدم كما ينبغي

ثم بعد ان سافر من بلاده في سنة ١٦٩٨ م دخل الى بلاد الفلنك ولما وصل الى امستردام سكن في بيت صغير اتخذه لنفسه في الترسانة (وهي المحل الذي بينون فيه المراكب على شاطي البحر) وسلك في معيشته مسلك الشغالين واصلح بنفسه صاري مركب مكسور واشتغل معهم في ورش الحديد والحبال والطواحين الكثيرة التي كانت محيطة بقرية سردام وهي معدة لنشر الاخشاب ولعصر الزيت وصناعة الورق وعمل السلوك من المعادن المتطرفة وتفيد في

دفتر الترسانه مع جملة الشغاله مسيماً ذاته بطرس ميخائيل وكانوا يدعونهُ
بالاوسته بطرس وتعلم عدّة فنون في قرية سردام المذكورة كالاستحكامات
والملاحة ورسم المنظر وتخطيط البلاد وكان يدخل دكاكين الشغالين ويبحث
في جميع المعامل والورش من غير ان يفوته شيء لا ثم تعلم فن التشریح في امستردام
وعمل بها عمليات جراحية متتلهذا الى رجل يقال له رويش وكان من مشاهير
علماء هذا الفن وكان يتعلم الجغرافيا وعلم الطبيعة والمواليد الثلاثة في منزل
برهستروستان وهو رجل مشهور بين الاهالي ثم ذهب الى بلاد الانكليز قاصداً
روية غليوم ملكها بعية لوفورت المار ذكره وكان ارساله اليه سفيراً فشاهد
بطرس كيفية دخول السفراء الى الديوان ورسوم تلقيهم وما يصنع لهم من
التشريفات والاحنقات وكيفية معاملة الملك اياهم ورجع الى امستردام وعاد
الى ما كان عليه من الاشغال وتم سفينة ذات ٦٠ مدفعاً وكان اتقن في انكازة
فن مد السفن لانهم كانوا يمدونها على مقتضى القياسات الهندسية وشرع هناك
في مد سفينة على منوال سفن الانكليز فجاءت من اعظم السفن السريعة السير
وتعلم قواعد صناعة الساعات واصولها لانها كانت قد تكاملت بمدينة لوندرة
ولم يترك شيئاً من الصنائع البحرية عظيمها وحقيرها من سبك المدافع الى قتل
الحبال الا باشره بيده وكان في اثناء اشتغاله في امستردام يدخل في خدمة
الهاربين من الفرنسية والسويسية والنسايوية وارسل الى موسكو قصبه ماكنو
كثيراً من ارباب الصنائع المختلفة الذين كان يعاين شغلهم بنفسه وقلما فاته
شيء من دقائق الصنائع والحرف التجريبية وكان يشتغل بجميع الاشياء لاسيما
اصلاح خارطات علماء الجغرافية الذين كانوا يرسمون اوضاع مدن دولهم
وانهارها بمجرد الحدس والتخمين لانها لم تكن معروفة لهم وقتئذ حتى المعرفة
وادخل كذلك في خدمة ارباب صنائع وحرف من بلاد الانكليز وخاصة
ارباب العلوم الرياضية ومنهم المهندس الماهر فرغسون الايقوسي الذي رتب
العمليات الحسابية ودواوين المالية في بلاد روسيا وكانوا قبل ذلك لا يعرفون

في هذا المعنى الأ طريقة التتار وهي العدّ محبوب مستدبرة ينظرونها في سلك من
النحاس وهي وان كانت تسد مسدّ الكتابة إلا انها تشوش الذهب وتوقع في
الحيرة وربما تطرق اليها الخطا لان العدّ بها لا يمكن للانسان ان يعلم هل
اخطأ في عدّه ام لا وكان الفرنسيون تعلموا من العرب الرقوم الهندية في القرن
التاسع واما دولة روسيا فلم تتعلمها إلا بعد نحو ٨٠٠ سنة . وكان بطرس الأكبر
يرصد الكواكب ويحسب كسوف الشمس والقمر مع فرغسون الذي مر ذكره
ويعرف حتى المعرفة حركات الاجرام السماوية وقوانين تناقلها وتجاذبها وسببها
واحدث رسداً عظيماً للعلوم الفلكية بعد رجوعه الى بلاده وقد كانت هذه
القوانين والنواميس التي بها تتقارب النجوم السيارة وتجاذب وتبقى على تناسبها
في افلاكها مجهولة قبل ظهور المعلم نروطون الآتي ذكره فخرجت من حيز
الجهالة والخفاء الى حيز الظهور واليقين الا وصارت من المؤلفات لهذا التبصر
مع ان البعض ممن يدعي العلم في وطن غاليلي كان لازال يامر العامة
باعتماد ان الارض ثابتة . ولما كان في بلاد الانكليز دفع له بعض تجارها
١٥ الف لبرا استرلين ليعطى لهم رخصة بيع الدخان في بلاده فرخص لهم
في ذلك مع ان الاكليروس الروسي كان يحرم ادخاله ولما اراد الرجوع منها
الى امستردام اهدى له غليون ملك الانكليز هدية تليق بمقام المهدي والمهدي
اليوم وهي سفينة ذات ٢٥ مدفعا من اعظم السيارات البحرية فبيع اهل هذه
السفينة عرضوا للملك ان ياذن لهم في الذهاب الى بلاد المسكوب وكانت هذه
السفينة محكمة الصناعة ظريفة الشكل فركبها القيصرو عاد الى بلاد الملك
في شهر ايار سنة ١٦٩٨ م واخذ معه ٢ من قباطين السفن الحربية و ٢٥ من
روساء السفن و ٤ ضابطاً من الملازمين و ٢٠ جراحاً و ٢٥٠ من الطوبجية
واكثر من ٢٠٠ نفر من ارباب الحرف والصنائع وكان في مدة اقامته بهذه
البلاد ونقا العلوم والفنون منها الى بلاده دخل في خدمته وكثيرون من ارباب
الصنائع من مدينة رومية ومملكة ايطاليا بواسطة الضباط الذين كان ارسلهم

الى تلك النجدة فجميع هؤلاء الرجال الماهرين في صنائعهم بعد ان وصلوا الى بلاد روسيا توزعوا الى محال ازومهم ثم سار القيصرا الى بلاد النمسا ووصل الى مدينة وينا مع من بقي من اتباعه وكان مراده مشاهدة ما عند النمساوية من الضبط والربط العسكريين لانه كما كان غرضه من الاسفار تعلم العلوم والفنون كان مرامه ايضا معرفة الامور السياسية وتقابل مع ليوبولد وامبراطور النمسا لابي المموك بل كالاتحاد فتعادتا قائمين اجنبيا للتكليف وبمدة اقامته هناك لم يشاهد بهل من الامور الغربية والالعاب العجيبة الا الموسم المسمى موسم المضيف والمضيضة اي صاحب المنزل وصاحبة المنزل وهو موسم قديم يقع عندهم من نوع التياترو الا انه لم يقع في ايام ليوبولد وفجده تعظيما لبطرس

وبينا كان هذا القيصرا متاهبا للسفر الى بلاد البندقية ليتم التعلم واذ بلغة وقوع فتنة في بلاده اضطربت منها مالكة كان السبب فيها بعض امراء البلاد الطاعنين في السن الذين كانوا لا يميلون الا الى العوائد القديمة وبعض القسوس الذين كانوا يعدون العوائد الجديدة من قبيل الكفر والاتحاد فهاجت بذلك عساكر الاسترليج الذين كانوا منتشرين في بعض الاقاليم تعصبين لاختيار الاميرة صوفيا وقصدوا مدينة موسكا بقصد اجلاسها على كرسي المملكة ومنع بطرس من الرجوع الى بلاده حيث تجاسر على هتك حرمة العوائد القديمة بذهايو الى البلاد الاجنبية ليتعلم علومها فسافر حينئذ القيصر سرا من وينا في شهر ايلول سنة 1718م ودخل مدينة موسكا وكانت عساكره الجديدة التي سبقت الاشارة اليها قد طردت قبل دخوله اليها عساكر الاسترليج الهاجمة عليها وهزمتها بعيدا بنحوه فرسغا فتعجب جميع اهله من وجوده بين اظهرهم وكافا العساكر الذين كانت لهم النصرة على الاسترليج وعاقب هؤلاء العصاة بقدر جسامه ذنوبهم عقابا مهولا واقام اعمدة من الحجر يقرب الدبر الذي كانت مقبلة فيه الاميرة صوفيا ونش عليها جناياتهم وعقوباتهم وبدد شمل من كان معهم بمدينة موسكا من اولادهم ونسائهم فانتشروا ببلاد سيبيريا ومملكة

ازدهان وازاق وترتب على معاقبتهم وتفهم لتلك الجهات انتفاع الدولة
بتعمير الاراضي الخالية من الامل والعمران وبعد ان دمر هذا الوجاق رتب
الايات العساكر المنتظمة شبيهة في الهيئة بالعساكر النساءية حيث البسهم جميعاً
ملابس قصيرة على نسوة واحد بدلاً عن الملابس الطويلة التي كانوا يلبسونها
قبل ذلك ورتب لهم طرق تعليم الحركات العسكرية وجعلها في غاية الاحكام
والانتظام وادخل فيها اولاد امراء دولته وحكمداريتها واخذ بعد ذلك في تنظيم
المشورة الملكية والخزائن المالية وتحرير القوانين الدينية وشرع في ما يكون به
نظام الاهالي وبكسبهم التمدن والتأنس والترقية وشوهدت اول مرة السفن
المسكوية بالبحر الاسود وبهر بلطق والمحيط ونظرت ابنية مرتفعة عظيمة
الترتيب شيدت بين الاخصاص المسكوية قد ترتب فيها مدارس ومعجم علماء
ومطابع وخزانات كتب وبستاناً جامعاً مشتهراً على جميع النباتات للدراسة عليها
وصارت المدن متمدنة وحسنة وتغيرت الملابس والعوائد على التدرج وان كان
ذلك بصعوبة وعرف المسكويون مع التقدم حثيقة التأنس وبطلت الاوامر
العاسدة ثم نقلت بنفسه رياسة الدين وابطل الرتبة البطريركية مع انه لو فعل
ذلك غير هذا الملك ممن كان اقل تصرفاً منه لكان ينحس عليه لان البطاركة
كانوا ينازعون بعض الاحيان الحكومة ويريدون ان يكون بايديهم ما هو
مختص بالتاج الملوكي من الحبل والربط وكان الاساقفة يزعمون ان لهم حق
السيف اعني حتى الحكم في الحدود والجنابات فمنعهم هذا القيصر في اخر القرن
السابع عشر منذ توفي البطريرك ادريانوس وابطل هذا المنصب اية رتبة
البطريركية على ما ذكرنا وضبط عائلته للجانب الميري ورتب مجعماً من الاساقفة
لاجل اجراء ما رتبة من القوانين الاكبروسية واملاها عليهم وامرانه من الآن
فصاعداً لا يدخل احد ديراً لاجل التهرب الا اذا بلغ عمره ٥٠ سنة ثم عدل
عن ذلك الى سن ٢٠ سنة وان لا يقبل في الديورة من كان مستخدماً في الخدم
الميرية ولو بلغ من العمر ما بلغ وان كل راهب يجب ان يباشر بنفسه عملاً من

الاعمال الصناعية وان الراهبات لايسوغ لهن الخروج من الديورة اصلاً ولا يترهين الا في سن ٥٠ سنة واذا طلبن الزواج قبل ذلك اجبن اليه وامرهن ان يشغلن جميعاً باشغال يدية تناسبهن والتزمت زوجته كاترينا ان تحضر هن من بلاد الفلمنك نساء صناعية لاجل تعليمهن ولما حضرن وزعنهن على تلك الديورة وبعد ذلك بقليل تزينت هذه الفيصرة المشار اليها وغيرها من خواتين دائرتها باشياء ما صنع في تلك الديورة وكان من جملة ما ترتب ايضاً ان اقوياهن يتعين لخدمة البساتين ولخدمة المرضى من النساء والبنات اللاتي يوتى بهن الى الديورة من المحلات المجاورة لها كما ان العساكر السفط يوزعون على الاديار ويعين لهم من الرهبان من يتعهدهم ويقوم بخدمتهم وان الاقويا من الرهبان يزرعون اراضي الديورة ثم عين عدة من ديورة الرهبان والراهبات لدخول الايتام وتربيتهم فيها ومنع ايضاً ان يشرك احد من الخوارنة اكثر من واحد من اولاده في خدمة الكنيسة خوفاً من ان كثرة عائلته تنجف باهل محله مما لم يطلب ذلك اهل المحلة انفسهم لكن في بعض النشرات المطبوعة في سنة ١٨٦٩ ذكر بان هذا الجار جعل الكهنوت وراثه حتى صار كل اولاد الخوارنة خوارنة وبهذه الوسطة كثر عدد الكهنة حتى صار اعظم اشغال الاساقفة الاعناء باحتياجات اجواق الاكبيروس وصارت اوقاف الكنائس متجهة الى اعالة عيالهم ولهذا السبب لم بعد يدخل في زمرة القسوس احد من ارباب العلياء الا نادراً فلذلك امر المحكم في هذه السنة اي ١٨٦٩ المذكورة بابطال وراثه وظيفة الكهنوت من الاب الى الابن وان لا يرثم خوري الا بعد بلوغه سن ٢٠ وبهذه الوسطة قل عدد الاكبيروس وزادت معاشاتهم

وكان الفيصر المذكور قد رتب لطخمة الاكبيروس اموراً نافعة اكثر مما سلبه منها جعلها بواسطة ذلك الترتيب على غاية من الانتظام والمهارة والمعارف حيث انشأ في مدينة موسكا ٢ مدارس لتعليم اللغات والزم كل من كان معداً للفلسفة ان يتعلم فيها وامران يتعلم في الديورة الباقية ايضاً الفلسفة وعلم

اللاهوت^(١) وإنما رخص لروساء السفن والجيوش بترك الصيامات
وكان لکمال عقاو وجوده قريبنو قد تباعد عن اوهام اهل بلاده وبدعمهم
واخلاقهم واحکامهم اذ انه بعد ان كان لا يوجد في اقطار مملکتهم الواسعة التي
كان يبلغ امتدادها في عصره نحو ٢٠٠٠ فرسخ كنيسة لاتينية اباح التعبد في
بلادهم بالمذهب اللاتيني والبرونستياتي وسمح لكل انسان ان يعبد الله عز
وجل على ما تطهّن اليه نفسه ويخناره لها من تلك المذاهب بشرط ان بوّدي
ما يجب عليه للدولة حتى التنادية لكن لما اراد الرهبان اليسوعيون المداخلة في
دولتهم صدرت اوامره بطردهم من بلادهم في سنة ١٧١٨ بعد ان كانوا استوطنوا
فيها من سنة ١٦٨٥ م

(انكثرة) اما انكثرة فانها كانت في هذا القرن ذات يد طولى في
العلوم الرياضية والحكمية والكلامية وافتخرت باسم ودرجة علماءها ولا سيما فلاسفتها
العظام الذين منهم فرنسيسكو باكوس السيد فيرولم ابولون الذي اسس
الفلسفة الجديدة ورفع منارها بما وضعه لها من القواعد الراسخة الصحيحة على ما
سبقت الاشارة اليه عند الكلام على امتيازات هذا القرن في ما تقدم. فليراجع.
قال العلامة خير الدين باشا الترنسي في كتابه المسي باقوم المسالك قد صحت
تسمية ناليف هذا الفيلسوف بحالة العلوم الجديدة حيث ان فن الطبيعيات
قد صار بما اخترعه من القواعد كما ينبغي ان يكون

ومنهم المعلم اسحق نيوطون المعاند القوي للفلسفة الكارتسيانية على ما سبقت
الاشارة اليه في الكلام على الافاضل الذين قدموا الفلسفة التعليمية في هذا القرن
وقاوموا الكفار الذين ظهروا فيو ولد هذا الفيلسوف في انكثرة سنة ١٦٤٢

(١) يقول بعض الكتبه في ايامنا هذه ان اكثر الترتيبات المخصصة بالديورة لم تستمر
بل نسخت بعد الفيصر بطرس الاكبر المشار اليه وانما بقي منها ابطال رتبة البطريركية واسنيلا
الدولة على ايراداتها

ورغب في الفلسفة وبرع فيها وألف تاليفاً كبيراً اشتهر به اشتهار انسي ذكر من
 مقدمة اذ انه احدث في الفلسفة تغييراً غريباً وبرهن على انه يجب الترفي الى
 معرفة العلل من المعلومات والمفعولات الطبيعية وانه لا يجوز للفيلسوف على وجه
 الاطلاق ان يعين العلة ما لم يقدر ان يبرهن عن حقيقتها اما بالبرهان العقلي
 واما بالاخبار الحسي ومن ثم سقطت تخيلات كارته سيوس المذكور بالكلية اذ
 قبل ذلك جميع العلماء الافاضل كما قبلوا تعاليم فرنسيسكو باكوس المقدم
 ذكره ولهذا الفيلسوف اثر جليل سوف يذكر في الكلام على الاكتشافات العلمية
 واشتهر كذلك من الذين برعوا في علم الفلك والهيئة بينهم المعلم هالي
 الذي شرح خواص الهوا واسرار مدا البحر وجزره واسرار المغناطيس وحركات
 النجوم ذوات الاذنان وارتركب المشاق والاططار في ظلم العلم من نواحي
 الاقطار حتى بلغ جزيرة سانتة اليته في البحر المحيط ورسم على صغورها خريطة
 نجم النسم الجنوبي من الهيئة وبذلك ارتفع شان رصد غرينتش في انكلترة
 ومنهم فلامستيد الذي بين ملاحظات عديدة في علم الفلك تلقاها ارباب
 بالقبول

ومن برعوا كذلك في الطب وابقوا لهم ذكراً جميلاً بما اكتشفوه من الاثار
 الجميلة التي سوف نذكرها في محلهما المعلم وليم هارفي الفيلسوف والمعلم بريستلي
 والمعلم ساوري

وظهر من شعراء الانكليز البارعين درايدن وبوب ومن كتاب الانشاء
 الماهرين ادسون

ولعل البعض من الافاضل المذكورين او امثالهم كانوا اعضاء في تلك
 الجمعية العلمية التي رتبها الملك كرلوس الثاني الذي تولى المملكة في سنة ١٦٦٠
 كما فعل لويس الرابع عشر ملك فرانسوا ايضاً لاجل البحث في النواميس
 الطبيعية وتقوية جميع العلوم المثقفة للعقل البشري على ما سبقت الاشارة اليه في
 الكلام على امتيازات هذا القرن

(المانيا) وبينما كانت انكلترة تفخر بعلمائها المذكورين افتخرت كذلك المانيا بكونتوفيردوس غوليلموس ليبنيسوس العالم الشهير المولود في له بيسيا سنة ١٦٤٦ وكان من المتقدمين في علم التاريخ والطبيعات ولاسيما الرياضيات والفلسفة وهو ايضا طرح بجانه مبادي من الفلسفة السكولاستيكية واصلح في كثير من قواعدها ووضح بذلك ما كان مغلفا عليه من تلك الصور المختلطة ومبزه جليا وازال ما كان فيها من الالفاظ اللاغية التي لامعنى لها واستعان على ذلك بالاسلوب الهندسي ووضح ما اخترعه من هذه القواعد في مؤلفاته التي منها كتابه المسمى ثاودكسيا ومؤلف اخر في الطبيعات الجديدة التي انار بها هذه الفلسفة وخاصة في ما يتعلق بالمنطق الا انه قد سمح في القياسات المجردة باكثر من اللازم ولذلك لم يخل من السقوط في اراء مخالفة للقياس وفاسدة (راجع الفصل السابع من المقالة الاولى من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف)

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

(النظارات) وكان في القرن السابع عشر المذكور قد شرع في اختراع النظارات الفلكية وهي على نوعين الاول يسمونه التيلوسكوب وهو الذي تنظر به الاجسام التي في غاية البعد والثاني هو النظارة المعظمة التي بها يظهر للناس ما خفي عن ابصارهم حتى انه في نقطة واحدة من الماء يرون الوقا من النباتات والحجوانات الدقيقة وغيرها ويسمونها الميكروسكوب فالنوع الاول الذي هو التيلوسكوب هو على انواع ايضا واول نوع منه اخترعه رجل يقال له غريغوري وقيل بوحنابيرسمي من مدينة ميدلبورغ في هولندا وكان ذلك في سنة ١٥٩٢ وقيل في سنة ١٦٠٨ ثم شرع في انقائه

واستعماله غليلي الذي مر ذكره وبواسطته اطلع على كواكب غير معهودة ومن جملتها ٤ أقمار او توابع للمشتري وكان ذلك في سنة ١٦١٠ وبعده أيضاً انقنه حتى الانقاف وجل يقال له هيفوليوس ثم زاد في انقافه رجل اخر يقال له زويبرهوك واخيراً هرشل الفلكي الانكليزي الشهير الذي جعل طول نظارته ١٨ ذراعاً وقطرها نحو ذراعين واكتشف بها اورانوس احد الكواكب السيارة في سنة ١٧٨١ واما نظارة الامير هوراس فكانت طولها ٢٢ ذراعاً وقطرها ٣ اذرع وهي اكبر نظارات العالم استطاع ان ينظر بها في القمر الجسم الذي يكون قياسه ١٥٠ ذراعاً على كل جانب وكشف بها اكثر من ٢٠٠ مليون من النجوم هالة كونه لا يرى منها بمجرد النظر اكثر من ٥ الاف نجمة

واما النوع الثاني المسمى بالميكروسكوب فقد اخترعه رجل يقال له زخريا جانسن وقيل بل هو كرنيلوس درييل وكلاهما من هولاندا ايضاً وسماه بعضهم مسيوس ولم يذكر بلده وكان ذلك في سنة ١٦٠٨ وقيل بل في سنة ١٦٢٤ وكانت آلة هذه تكبير الشيء ١٦٠ مرة زيادة على مقدار جرمه ثم تهذبت حتى صارت تكبير من ٢٠٠٠ - ٢٠٠٠٠ مرة ثم في سنة ١٧٤٠ ابتداء المعلم سيلنج بتوقيع الزجاجات الاكرومانية على هذه الآلة وهي نفس السنة عينها التي فيها اخترع المعلم ليبركهن في برلين عاصمة بروسيا الميكروسكوب الشمسي وسمي بذلك لان استنارة الجسم المراد رؤيته فيه لا تكون الا بضرورة الشمس الذاتي لا الذي في الظل

وفي سنة ١٦٧٤ اخترع المعلم شارل الميناسكوب اي نظارة الاجسام التي يراد رسمها وهي نظارة مهيئة لتحصيل صور الاجسام القليلة الامتداد (التيرموميتر) وكان درييل المار ذكره هنا قد اصطنع ايضاً ميزان الحرارة المسمى باقنهم تيرموميتر وذلك في سنة ١٦٢٨ ثم صنع بعده ايضاً ريمور اوريمير الدانماركي تيرموميتره بفرانسا كما صنع فرنهيت تيرموميتره في ازلانده (الكهربائية) وهناك رجل اخر من هولاندا ايضاً يقال له اوئون دغريفه

او اوتود يغيرك اصطع في سنة ١٦٥٠ اول آلة كهر بائية ميز بواسطتها دوفاي الطبيعي الفرنسي الكهر بائية المذكورة الى نوعين زجاجية ورائجية ولما كانت هذه الكهر بائية توجد في بعض الاجسام مفرطة وفي بعضها قليلة سموا الاولى موجبة والثانية سالبة .

(طلبية الهوا) ثم اخترع اوتود يغيرك المذكور ايضا الآلة المفرغة للهوا اصطنمها في مغدبرج من بلاد بروسيا في سنة ١٦٥٢ وتسمى بلغتهم انبومانيقية يعني طلبية الهوا ثم اتقن هذه الآلة باين الطبيب الفرنسي وسوف ياتي ذكره اثقانا زائدا بحيث لم يحصل بعده في تركيبها الا تغيير قليل

(ساعات البندول) وكان غليلي الايطالياني الذي يقال له جابليو ايضا وقد مر ذكره اخترع البندول فجعله المعلم هوجينس احد المشتغلين في العلم الطبيعي والميخانيكي مقياسا للزمان وصنع به اول ساعة منتظمة السير وكان ذلك في سنة ١٦٥٦ وبعد ذلك يسير وصلت الساعات الى درجة عالية من الاتقان مع ان الفكر في انقائها كان قبل ذلك بزمن طويل

(الباروميتر) وغليلي المذكور وتلميذه تروشالي هما اول من عرف وزن الهوا وان طلوع الماء في الطلونية مسبب عن ضغط الهوا لسطح الماء وان نهاية صعوده ٢٣ قدما حيث ان هوة عمود الهوا النازل على سطح الماء لا يتجاوز القدر المذكور فلا يجذب اليها الماء الى اكثر من ذلك وهو يعادل ايضا عمودا من الزبيق ارتفاعه ٢٨ قيراطا فكان ذلك اساسا لوضع الباروميتر اعني الآلة التي بها يعرف ثقل الهوا على حسب حالة الجو ومن ذلك الوقت اخذت العلوم الطبيعية في التقدم والنجاح واشتغل ديوان علماء فيرينسا عاصمة بلاد التوسكانا الذي كان اسسه ليوبولدو والدوك الاعظم في سنة ١١٤٦ بعلم السماع وخواص الضوء والحرارة او ما يحصل في الانابيب الشعرية وقبول الماء للانضغاط ونحو سنة ١٦٥٠ اظهر ريمبير الذي مر ذكره سرعة سير الضوء ووضح ما مربوط في فرانسوا الفرق الحاصل بين سرعة سير الاجسام حال سقوطها على حسب مقاومة

المول و حجم الجسم وفي سنة ١٦٥٥ عملت زجاجة يُعلم منها حصول المطر وفي سنة ١٦٧٥ عملت زجاجة اخرى جلابة للضوء وفي سنة ١٦٨٢ تكلم رجل يقال له كسيني على الضياء المنطقي وفي سنة ١٦٨٧ عملت مرآتي المحرق

(المساحة) وكانت عملت طاولة المساحة في سنة ١٦٢٠ فادخل بعد ذلك ديكارت الفيلسوف الفرنسي وقد مر ذكره مراراً قواعد الجبر في فن المساحة المذكورة ايضاً

(دورة الدم) ولما تحقق المعلم وليم هارفي الفيلسوف الانكليزي حركة دوران الدم في الاجسام اشهرها في سنة ١٦٢٨ قيل عنه انه افكر بها من سنة ١٥٩٨ لكه كتبها الى ان ردها في فكره ٣٠ سنة ووثق بها غاية الوثوق (الاوكسيجين) ثم بعد ذلك اكتشف المعلم بريستلي الطبيب الانكليزي ايضاً الاوكسيجين وذلك في سنة ١٦٧٤

(المغناطيس الصناعي) واخترع المعلم ساوري الطبيب الانكليزي المغناطيس الصناعي في سنة ١٦٩٠

(الجاذبة والدافعة) ولما رأى المعلم اسحق نيوتون الفيلسوف الانكليزي الشهير وقد مر ذكره وهو جالس ذات يوم بالقرب من شجرة تفاح سقطت تفاحة من تلك الشجرة كان ذلك كافيًا له في اظهار القوة الجاذبة اعني الناموس الضابط لانتظام العالم بأسره واطاف الى ذلك القوة الدافعة وهي قوة مضادة للاولى ليحصل التبادل وكان ذلك نحو اخر هذا القرن

(البخار) ولما عرف باين الطبيب الفرنسي الذي مر ذكره ايضاً قوة البخار وادرك منافعة شرع بعمل الآلات البخارية في سنة ١٦٩٠

(الصنائع) اخترع دولاب تسهيلًا لضرب العملة في سنة ١٦١٧ م واكتشف تاجر يهودي من مدينة ليون يقال له اوكتافيو طريقة لصقل المنسوجات الحريرية في سنة ١٦٦٢ وأدخلت صناعة الشبت والمام من الهند الى اوروبا في سنة ١٦٧٦ وعملت الغن للمراكب في سنة ١٦٩٠

القرن الثامن عشر

يمتاز هذا القرن بالاكتشافات النافعة العظيمة اذ ان الفواعل الاساسية التي وضعها في القرن الماضي العلامة باكوس الانكليزي واقتدى بها المدقون من الفلاسفة على ما سبقت الاشارة اليه قد انارت العقول واحكمتها في جميع اجنات العلوم الطبيعية التي ازهرت في هذا القرن

(الفلسفة) وقد كان الكفر قل في اوروبا حتى ان شيعة ناكري الالهية تكاد بان لا توجد في معظم هذا القرن اما شيعة ناكري الوحي والذين يذفون في حق جميع الاديان الكتابية فقد وقع فيها الشقاق والانقسام الى احزاب متنوعة لان مورالت الذي الف الكتاب الفرنساوي الحديث الفصح وسماه جوهر الدين قد زعم فيه بان كل الدين ينحصر في ثلاث قضايا وهي

(١) وجود الاله

(٢) هذا الاله معتن بالبشر

(٣) خلود النفس وان غاية المسع في مجيئه تقرير هذه الحقائق بسيرة ونعاليم وكذلك الحرية المطلقة التي يتمتع بها الانكليز في طبع افكارهم ونشرها بدون حاجز وفي عبادة الله حسبما يستحسن كل احد من الناس قد انتجت انقسامات ومنازعات دينية مستمرة لا يمكن لاحد ان يستوفي تفاصيلها بدون ان يسكن في انكلترة ويعاشر اصحاب تلك الآراء ونظيره ايضا اطلاق عمومية حرية الفحص للعقل البشري في فرانس قد عم كل الامور فيها كالدين والسياسة والفلسفة المحضة والهيئة الاجتماعية والطبيعة الادية والمادية وصار ذلك موضوعا للدرس والشك ومجالا للرأي الى ان افسد مبادئ العالم القديمة وعوض عنها

بمبادي علوم جديدة فعاد ظلام الكفر وغشى مصابيح انوار الدين في فرانسوا
وانصببت الكثرة الى التغافل عنه وجرم انبيا الى التجيلات العقلية ومن ثم امتدت
الآراء الكفرية بواعظة مولفات وولتير وروسو بين علماء اوروبا الى ان اشرفت
ممالكها على ثورة عامة تهدد الدين والسياسة بالخراب العمومي كما يتضح ذلك
مما يأتي

استدراجات امكانية

(اوستريا) في النصف الثاني من هذا القرن قد تعاقب على تخت
ملكة النمسا امبراطوران وهما يوسف الثاني الذي تولى سنة ١٧٦٥ وبعده اخوه
ليوبولد والذي جلس عوذة سنة ١٧٩٠ وكانا كلاهما من ارباب العقول الثاقبة
قال بعض المؤلفين انها لم يسبقا بمثلها في هذه الامبراطورية الواسعة حيث لم
يتركها شيئاً عرفنا منفعته لاهالي المملكة الاواد خلاه اليها حتى انها ساحا في البلاد
زمانا طويلاً لهن الغاية وكانت امها ماريا تريزا شرعت في عمل قانون لعنق
الفلاحين من ظلم الامراء وتعدبهم لكنها ماتت قبل ان اكتمت فتمت ولدها
الامبراطور يوسف المشار اليه ولازال يتبع هذا الامر تدريجاً الى ان رفع مظالم
عن الفلاحين بالكلية وامر المحاكم بان ترى الدعاوي على وجه الحق والمساواة
بدون فرق بين الكبير والصغير والغني والفقير وانشأ في بلاده المستشفيات
للرضى والمدارس للتعليم وكان يهتم خاصة بتعليم اولاد الفقرا ومن جملة ذلك
مدرسة باويه التي لا يوجد لها نظير في سائر ممالك اوروبا وقد اشتهرت مدة
حياته اشتهاراً عظيماً لكونه شجعها بافاضل العلماء البارعين في كل انواع العلوم
والفنون ورتب لهم المعاشات الوافية ليكفيهم مأونة الاهتمام لذواتهم فيتفرغوا الى
التعليم كما رتب ايضاً يوميات الى البارعين في فن الزراعة ومهد كذلك الطرق

الى الاساكل البحرية والمدن البرية لتسهيل نقل البضائع التجارية ورفع الكمارك
الداخلية وابطلها وكان يكرم العلماء الايطاليين اكراماً لم يسبق لهم نظيره في
التواريخ حتى انه ارسل وزيره الكونت ديغرميان وكيلاً من طرفه الى بلاد
ايطاليا ليقوم بمقابلة رعاية علماءها واحترامهم وملاطفة اهاليها وترفيه احوالهم
مع تهيئة الاسباب الموجبة لعمار البلاد وراحة العباد وبنى بعض ديورة وكنائس
واطلق الحرية الدينية للاهالي الغير كاثوليكين وامر اساقفة بلاده بان
لا يخضعوا لامر ما يأتي اليهم من طرف البابا ما لم يتناولوه من ايادي حكام
البلاد وكان قد سعى قبلة اسلافه في هذا الامر بدون طائل وكانت جرت
العادة منذ القديم بان قسوس الرعية في بلاد النمسا تكون خاضعة راساً
لاوامر الاحبار الرومانيين فابطل هذه العادة لضررها وامر بان يكونوا خاضعين
الى نفس اساقفتهم الموجودين داخل المملكة فقط وابطل الديورة المختصة في
الراهبات ولم يبق منها الا ما كان معداً لتهديب البنات وتربيتهم ورتب
ايرادات الكنائس والديورة وما يلزم من المعاشات الى القسوس بوجه المساواة
بجيت لا يكون بينهم غني وفقير وامر بانفاذ ذلك جميعه حتماً الى ان اضطر
البابا ان يحضر بذاته الى مدينة فيانا ويخاطب الامبراطور المشار اليه شفاهاً
ليمنعه بفصاحته وبراعته وحرمة مقامه عن هذه الامور المضادة لقواعده والضارة
بزيابا وظيفته لكنه عاد الى رومية راجعاً بدون ادنى فائدة

(ايطاليا) لاريب في ان المناقشات والمحاورات الدينية التي جرت بين
اهالي اقسام ايطاليا في اواخر هذا القرن قد مهدت سبيلاً موافقاً الى مستقبلهم
الذي حصلوا عليه في القرن التالي بواسطة اتحاد كلمتهم الى ان صاروا جميعاً
مملكة واحدة كرسياها هونفس مدينة رومية وانتظمو بذلك في سالک المالك
العظيمة لانه في نفس السنة التي جلس فيها الامبراطور يوسف الثاني المشار اليه
في ما مر على تخت الامبراطورية النمساوية ارتقى كذلك الامير ليوبولد وعلی تخت
افليم التوسكانا وقد اطرب بعض مورخي ايطاليا في مدح هذا الامير الى ان

فضاوة على افاضل الفلاسفة السالفين من ارباب السياسة حيث قالوا نعم ان اصول الاختتام التي كان رتبها سولون الفيلسوف في بلاده كانت حرة الا انها لم تكن خالية من الاخلال وهكذا الحرية التي كان أسسها ليكورغ الفيلسوف فانها كانت ثقيلة كما وان رومولوس الملك ما افاد اهالي بلاده شيئاً غير جملة اياهم كلهم حريين لكن ليوبولد والمشار اليه قد ساس بلاده كلها مع الامن والراحة ولم يكن ينظر لما فيه منفعة الخصوصية بل لما فيه النفع لرعاياه الذين مع كونهم اطلق لهم العنان قد اُصلح القوانين القديمة التي كانت جارية في بلاده خالية من العدل والانصاف لكونها مبنية على التمييز وعدم التساوي بين الناس في المواد المحفوقة وناقصة في كل احوالها حتى ان فقراء الاهالي كانوا يتركون حقوقهم كيلا يدخلوا تلك المحاكم التي اذا أصيب احدهم بصيبة الدخول اليها كان لابد له من بيع املاكه ليصرفها في المحاكمة واخيراً يخرج منها بدون الحصول على شيء من حقه وكانت القوانين السياسية شديدة للغاية ايضاً وحرفة الزراعة مهتلة بدون ادنى التفات وامور التجارة بغاية الاخلال ولم يكن احد آمناً على امواله واملاكه ولذلك كانت الاهالي بجالة يرثي اليها من العاقبة وتراكم الديون وخاصة من التكاليف الاميرية الخارجة عن طوق الاحتمال فاعتنى هذا الامير بازالة هذه الامور جميعها وكان اول ما شرع به ان عزل المحاكم المشهورين بعدم الاستقامة ونصب عوضهم رجالاً من اهل العدل والانصاف ورفع كذلك عن الاهالي ساطة الظالمين الذين كانوا يجرون عليهم بتوزيع الاموال والضرائب وسحق للمديونين بالديون التي كانت تطلبها منهم الخزينة وباع الاراضي الاميرية الكائنة في الجبال واملاكه هو ذاته وما كان اعطاه صداقاً لزوجته ووفى بما تحصل من اثمان ذلك جميعه الديون التي كانت تطلبها الناس من الدوائر الاميرية ثم بعد ان تم مشروعه هذا انشأ محكمة عادلة لرؤية دعاوي بوجه المساواة بين الامير والمحقير والغني والفقير واحترم النفوس الناطقة بحيث لا يسفك دم احدٍ منها كان مرتكباً من الجرائم ولو كان قاتلاً

وابدل ذلك بالاعمال الشاقة في السجن المؤبد ما دام ذلك القاتل حياً والغنى
 النصاص بضبط الاملاك ومصادرة الاموال وابطل البين الذي جرت العادة
 بان تحلفه وجوه البلاد على الطاعة وعدم الخيانة عند جلوس الملوك في أوروبا
 على كرسي مالكتها وامر بان تحفظ المبالغ التي تؤخذ خرج اقلام او جزاء نقدياً
 من كل من ارباب الجرائم بقدر ذنبه في صندوق مخصوص لتصرف حين
 الحاجة على الايتام واولاد الفقراء ومن يلجئ الى الدولة من الضعفاء والمحتاجين
 وامر رجلين من ذوي المعارف يقال لاحدها ورتاجيني وللآخر جاني وكانا من
 المتبحرين في القوانين بان يرتوا قوانين صالحة لاضايا المذكورة فناما بما امرها
 به مع الدقة التامة وعند ذلك جرت الاحكام على الوجه الذي رغب فيه هذا
 الامير من العدل والانصاف وتبدل ما كان بين الاهالي والحكام من الوحشة
 بالاستئناس وراجت امور التجارة والزراعة وامر الفلاحين اصحاب الاراضي بان
 يحوطوا مزارعهم بمحاصيل تناسبها لاجل حفظ محصولاتهم وابطل تلزيم الاعشار
 وغيرها كالدخان والعرق والحديد لتحقيق ما يفعله الملتزمون من الاضرار
 ورخص للناس باخراج المعادن والغنى الرسم الذي كان يؤخذ على بعض امور
 تتعلق بالبيع والشراء وخفف اثمان الاوراق الصحية وغير ذلك من الامور التي
 كان يُظن بان ابطالها يوجب نقصاً كبيراً في واردات الخزينة لكنها جاءت
 بعكس ذلك اذ ان الفوائد التي نجت من عمار البلاد ورواج التجارة وكثرة
 المحاصيل قد سدّت ذلك النقص ولا سيما منذ ابطال هذا الامير الكبارك الداخلية
 واهتم بتهدد الطرق وفتح الترغ وتمهيد الاساكن ومحلات الكورنتينا ورخص
 للناس في التعبد بأي مذهب اخناروه زادت محصولات الحرير واشغاله حيث
 صار ما يرد منه من الخارج لا يتكلف لازيد ما بتكلفه الحرير الناتج في نفس
 البلاد الى ان بلغ ما ورد منه في سنة ١٧٨٣ م ٢٠٠ الف رطل بعد ان كان
 الوارد منه في سنة ١٧٨٠ م ١٦٢١٧٨ رطلاً وكثرت الزراعة حتى لم يبق في
 اقاليمه ارض موات وفتح منافذ الى الجبيلات والرامات التي كانت تجمع فيها

مياه السهول والأمطار ونفى على بعضها القناطر والجسور ولاسيما بحيرة مارمة سانسى التي يبلغ طولها ٧٠ ميلاً وعرضها من ٥-١٨ ميلاً فانه امرامهر المهندسين وهم كيمس وقروني وفانطوني بتنشيتها وعمل جسور بينها وبين نهري اومبرونه وبرونه اللذين كانا يصبان وقت فيضاتها فيها وحيث كان يعلم بان الاماكن القليلة السكان متى كثرت سكانها يتحسن هواها ما امر بان كل من برحل من بلاده ويسكن في اقليم بارمه يُعطى له ربيع ثمن ومصاريف البيت الذي يعمره لسكنه وتعطى له الاراضي والمزارع التي يريد ما بارخص ثمن واذا احتاج الى الاستقراض تقرضه خزينة الدولة ولما اعلن ذلك الى الاهالي كثرت السكان بهذه الوساطة في الاقليم المذكور وعمرت اراضيها بالكروم والحبات والبساتين والمزارع فصالح مناخه ثم صرف بعد ذلك جل اهتمامه على انشاء المستشفيات للمرضى والمدارس للتعليم وانقاذها بحيث اكتسبت مدارس مدبنتي بيسا وسنيا شهرة بالغة بما وضعت لها من النظائمات وبنى قصوراً جديدة وشيئها واصلح ما كان منها عتيقاً وزينة واصلح الطرق العامة وخاصة ما كان للمتزهات وزاد في خزائن الكتب واعنى بتقديم الطب وغرس بساتين نباتات مقابل المستشفيات بحسب العوائد الجارية في اوروا وزرع فيها من جميع انواع النباتات وبالجملة والتفصيل قد عمل اعمالاً خارجة عن طوق البشر ثم نشر اعلاناً في سنة ١٧٨٩ بين فيه للاهالي مقدار ابرادات اقليم التوسكانا ومصاريفه وما سمح بتتريده من المرتبات المبرية وما صرفه مع الادارة العامة على اصلاحات بلاده الداخلية ومع ذلك لم يهمل الاعشاء بتجديد بعض كنائس ودبورة للعبادة مع اصلاح بعض الامور الكنائسية ايضاً اذ انه اولاً ابطل ما كانت تعطيه قسوس بلاده من العوائد الى القسوس الاجانب ثانياً امر القسوس الذين لم يداخيل وليس لهم كنائس ان يعاونوا قسوس الرعية في القيام بواجبات وظيفتهم الدينية ثالثاً امر بان تُعال القسوس المرضى والمعاجزون من ابرادات اوقاف الكنائس رابعاً حول ابرادات ما كان لالزوم له من دبورة الموجودة داخل

المدن وخارجها الى الكنائس لكونها اكثر لزوماً للشعب منها خامساً احدث
بدل رهبان تلك الديورة الممغاة الجمعية المُعبر عنها بلغتهم قومبانيه د يقرينا
وهي جمعية مولفة من ارباب الصنائع للقيام باعالة الذين يمرضون او تصادفهم
بأية من فقراء المملكة التاجزين عن التعيش لذواتهم سادساً امر القسوس
المفوضين بمخدمة الرعية بان يكونوا خاضعين رأساً الى اساقفة ابرشياتهم سابعاً
منع دخول احد من الذكور في الرهبنة ما لم يبلغ سن ١٨ سنة وان لا يرتسم قسيساً
الآ بعد ان يبلغ سن ٢٤ سنة وكذلك النساء لا يدخلن الرهبنة الا متى بلغن
سن ٢٠ ولا يرتسمن الا بعد ان يبلغن سن ٣٠ ايضاً ثامناً ابطل المحكمة المسماة
سانت اوفيجيو وامثالها من الامور الغير اللائقة تاسعاً امر بان يجتمع القسوس
الموجودون في بلاده ويعقدون مجعماً مرة في كل سنتين للنظر في ما يحدث من
الامور المضادة لاداب الدين والسعي في منعه... وكان اجراء هذه الاصلاحات
الكنائسية التي احدثها هذا الامير في بلاده بموازة ريجي رئيس اساقفة التوسكانا
لان هذا الاسقف كان مخالفاً في بعض ارائه لاراء الاحبار الرومانيين فاستقبلها
الاهالي بكل ترحاب لكونهم كانوا قد ألفوا مطالعة كتب ارنولد ونيقول
ودوكت وغورلان وكززل فتجراً حينئذ الاسقف ريجي المذكور بان اضاف الى هذه
التعاليم عنق الاساقفة من نير السلطة الرومانية واثمهم لا يجناجون في تنفيذ
ما برنأوته من النضايا المذهبية الى اجازة من الباباوات لكونهم مساوين لهم في
السلطة الروحية وابطل عقيدة المطهر واتخاذ اكثر من محراب واحد في
الكنائس والصلوات باللغة اللاتينية ووجب بان تكون باللغة الدارجة المفهومة
وان تلى بصوت مسبوع وانكر استخفافات القديسين واستحسن الاربع قضايا
التي كان صرح بها مجمع الاساقفة المجمع في باريس سنة ١٦٨٢ بشأن تحديد
سلطان الباباوات ومزاياهم وان احكام الجامع تعلو على احكامهم وحيث ان
ذلك جميعه هو من النضايا المضادة لمعتقدات رومية نشر البابا اعلاناً يخالف
هذه التعاليم الجديدة اجتهد فيه كل الجهد بابطالها فلم يلتفت الى اعلانه هذا في

ذلك الوقت ولم يحصل على مرغوبه الا بعد مدة ولذلك شاعت بسرعة في باقي اقاليم ايطاليا ووجب اضطرابات وقلقل ليست بقليلة بين الاهالي وشرع علماء الدين في تأليف بضاد بها بعضهم بعضاً بشأنها ولكن لما كان اكثرهم من حزب ريجي المار ذكره فتغلبت اراؤهم على اراء المتعصبين للباباوات ومن ثم شرع في نابولي ايضاً بتأليف مذهب يقرب من مذهب ريجي لان اهاليها كانوا راغبين وقتئذ في التملص من صرامة السلاطة الباباوية وكانت ملوكهم مساعدة لهم في ذلك ايضاً وكان للملك فرديناند الرابع الذي تولى المملكة بدل ابيه الذي صار وقتئذ ملكاً على اسبانيا في سنة ١٧٥٠ مستشار من الافاضل يقال له تانوجي فشرع باشارته بعمل قانون ابطل به سطوة الامراء ورفع مظالمهم وتعدياتهم عن الاهالي وصان به الاموال الاميرية التي كانوا يخصصونها لذواتهم من رسوم الكمارك والاعشار وابطل الصرائب التي كانوا ياخذونها باسم اجرة قدم واذ في ذلك الوقت نفسه ظهرت ايضاً مولفات الفيلسوف فلانجيري وانكبت الناس على مطالعتها مع الرغبة الزائدة فكان ذلك سبباً في تقوية المذهب التوسكاني المار ذكره وتأسيسه في بلاد نابولي والنفات علمائها الى اصلاح تلك القوانين المختلطة التي كانت عندهم ماخوذة عن النورمانديين واللونبارديين وعمما كان ترتب في ايام ملوكهم السالفين والاجانب الذين حكموهم من ملوك اراغون واسبانيا والنمسا وكان يستعمل احقاق المحقوق بواسطة فلما توجه ملك نابولي المشار اليه الى اقليم لونبارديا بقصد الفرجة على المقترجات الكاثنة في صحاري بارمه واودي ورجع الى بلاده وامر بانشاء نظيرها في سانلوشيو طلب عند ذلك الاهالي منه بان يصلح لهم القوانين التي هي اهم ما عداها فاجاب طلبهم وامر بتنظيم قوانين للزراعة جعل بها اهالي هذه المحرفة تحت حمايته الخصوصية فلا يتسلط عليهم احد غيره ثم لما رأى بان قوته تضاعفت وزادت عما كانت عليه بواسطة هذه الحماية امال بسهم واصغى الى نصائح عقلاء رجال الدولة وابطل محكمة النونسانور وهي محكمة تكون عند

سفير البابا الموجود في عاصمة آية مملكة كانت لترفع اليها الدعاوي المختلطة اعني التي تقع بين الفسوس وغيرهم من احاد الناس بحيث لا تسمع في المحاكم البلدية وكذلك الغى سلطة الباباوات على اكليروس بلاده وجعل تفويض الاساقفة الذين ينتخبون عوضاً عن يتوفون منوطاً بالملوك لاحاجة الى الترخيص لهم من طرف الباباوات المذكورين وامر بان الخراج الذي جرت العادة بتقديمه عن يد معتمد مخصوص من طرف ملوك نابولي الى الباباوات في كل سنة يوم عيد ماري بطرس وهو ذهب واحد قيمته خمس ريات لا يستى بعد الآن خراجاً ولكن صدقة وان تبطل عادة حضور المعتمد المخصوص من طرف الباباوات لاجل وضع التاج على راس الملك حين جلوسه على التخت وان نُقل منها امكن طغمة الرهبان الشحاذين وابطل الرهبنة اليسوعية راساً وباع جانباً من اواني الكنائس واملاكها وجهز به عمارة بحرية ولذلك قام النزاع على قدم وساق بين البابا وبينه واخذ كثيرون من الموانين في تأليفات يتصرون بها الى الملك حتى ان وزيره كارلوس دي ماركو اهتم بان يلغي سلطة الباباوات بالكلية ومن ثم صارت مملكة نابولي مثل قسي التوسكانا ولومبارديا محلاً للمناكفات والمخاصات مع كرسي رومية

وامتدت هذه الحالة الى اقليتي بارمه وبياجنسا حيث اقتفنا اثار خطوات نابولي بالتام ورتبنا لها قانوناً مطابقاً لقانونها ثم جمع دونابو وزير الدون فيليب الذي كان يحكم الاقليتين المذكورين وقتئذ افاضل علماء ايطاليا وكان من جيلتهم قوتيني المشهور بالمعارف الدينية واخر من اذكياء الفسوس يقال له توركي كان من مضادي الباباوات (لكنه لما صار اخيراً بابا كف عن ذلك) وزين هذا الوزير بهم بلاده حتى صار لا يوجد نظير العلماء الموجودين فيها في باقي اقاليم ايطاليا بل ولا في غيرها واحضر من رومية رجلاً يقال له باشا ودي ليرنب له المدارس فاحسن ترتيبها وانشأ عدة كتبغانات ولم يكتف بكثرة العلماء المذكورين بل جلب اليها من المدرسين ايضاً ونيني ودروسي وبوروني

وقوندليق ومليوت وبازول وعينهم للتدريس فيها ثم اهتم الملك المشار اليه ايضاً
 بانشاء الورش والمعامل اللازمة الى ارباب الصنائع ونسوية الطرق والمنترحات
 وهكذا تم كل اعماله بواسطة وزيره دوتايو المار ذكره مع الراحة والسكون الى
 ان توفي وتولي عوضه الدون فردينند وكان صغير السن فتأمل البابا برجوع
 سلاطنه على هذه البلاد لكن لما كان الوزير الموما اليو لازل باقياً في وظيفته
 وامتنع من اعطاء العوائد والمخراج المرتب عليها الى البابا فحرم البابا هذا الاقليم
 ومن ثم اعترض كثيرون من الموالفين على هذا الحرم ومن جانبهم قوتيني المار
 ذكره فانه ألف كتاباً مخصوصاً في هذا المعنى سماه حافظ اقليم بارمه من حرم
 البابا ولذلك حنق على الوزير المذكور كثيرون من اهل الاكليسوس المتعصبين
 الى الباباوية وانتظروا الى ان بلغ هذا الدوق سن ١٨ سنة وقبض على زمام
 الحكومة بنفسه فاستأله بما اخلاصهم الى ان عزله من وزارته بل انه هو ذاته صار
 نظير واحد منهم لا يفرق عن الاكليسريكين في ملازمة الكنائس والقيام
 بفروض العبادة والترتيل مع المصلين حتى ان اكثر اشغاله كان يتسبها وهو في
 الكنيسة

اما بلاد الكنيسة فكان البابا فيها وقتئذ بيوس السادس الذي جلس
 على الكرسي في سنة ١٧٧٥ وكان ذا طالع سعيد بخلاف سالفه اكليميندوس
 الرابع عشر الذي كان صار بابا في سنة ١٧٦٩ وهو من احاد الرهبان وفقرائهم
 عاش كل ايام حياته كما كان يتعيش في زمان رهبنته ولا يميل الى شيء من الفخفة
 والعظمة ولذلك انتخبت جمعية الكردينالية البابا بيوس المشار اليه بعد وفاته
 لكونه كان من امرائهم واسمه براسكي وهو مغاير في كل صفاته الى البابا اكليميندوس
 المار ذكره بالتعام بحسب الابهة والافتخار فصيحاً بليغاً بشوشاً جميل الصورة غير انه
 كان حاد الطبع يتكدر من ادنى شيء يقع على غير رضاه ويسعى كل السعي
 في ما يؤول الى اتساع سلطة الكنيسة وفي ايامه ارتأى مجمع الكردينالية وباقي
 امراء الكنيسة براهي احدهم المسي اورسيني على ان يعقد ملوك اقاليم ايطاليا

وحكامها اتفانق مع بعضهم ويكون هذا البابا رئيساً على هذا الاتفاق غير ان اورسيني
 المذكور كان من ارباب المعارف ولاحظ اخيراً بدقة عقله بان الاوقات المحاضرة
 لا تساعد على هذا المشروع فعدل عنه لما بوجب الشهرة والافتخار والسخا فاقنع
 البابا بان يسعى قبل ذلك في تشييف القديس المسمى بونتينا وكان طوله نحو ٢٧
 ميلاً وعرضه من ٥-١٠ اميال فامر المهندس بيواريني بهذا المشروع وصرف
 على ذلك اموالاً غزيرة ومع انه لم يتم له ما قصد بالتمام فقد نشفت منه محلات
 كثيرة صارت قابلة للزراعة وحسن مناخها وفتح فيها عدة طرق لابناء السبيل
 وانشا كنيسة صغيرة ظريفة للغاية بالقرب من كنيسة ماري بطرس غير انه لما
 كانت هذه الكنيسة على غير رضى الشيوخ لكونه هدم هيكلها عنيقاً للزهرة من اثار
 الرومانيين وعمرها في محله سعى في ان يستعملهم ويرضيمهم بانشاء حجرة داخلها
 للاثار القديمة وجمع فيها من ذلك مقداراً عظيماً جداً وسمى هذه الحجرة بيوقليمنتيني
 وامر لودود بومري وانبوكو وبريني وويستفوني بان ينظروا صفوف هذه الاثار في
 محلات تناسبها من هذه الحجرة ويجرروا على كل قطعة منها من اثار كرم بيوس
 السادس وحاصل الامرانة زاد في تزيين مدينة رومية وتحسينها حتى صارت
 تقصدها الملوك الاجانب للفرجة وروية ما فيها من التحف الغربية
 واما اقليم ساردينيا الذي فاز اخيراً بضم جميع اقسام ايطاليا تحت سلطة
 ملكه فيكتور عمانوئيل كما ياتي الكلام على ذلك في القرن التالي قد كان في
 اثناء هذه المقالات والاختلافات المذهبية الثائرة في سائر اقاليم ايطاليا خالياً
 من الاضطرابات واهاليه على غابة ما يكون من السكون والراحة وكانت ملوكه
 قادرة على تنفيذ احكامها كما تريد مع اللطف والليونة وعلى قيادة عساكرها
 بنفسها حسب العادة القديمة ونظراً الى لطف احكامها وكثرة قواها العسكرية
 وادواتها الحربية كان لا يمكن لاحد من الاجانب ان يطمع في التساط على كرسي
 ملكتها ومع ذلك ما خلا الامر من شروع البعض من هؤلاء الملوك ببعض
 اصلاحات مهمة فان ويكتور اميدي الثاني الذي تولى سنة ١٦٧٥م كان اخذ

تشبيه المستبد في احكامه بمن يتوصل الى اجتناء الثمرة بقطع الشجرة من اصلها وله غير ذلك عدة تأليف تلقاها الناس بالقبول من جعلتها المراسلات الفارسية وهي اشبه بميزان يشنع فيه على عوائد الشرقيين والغربيين ليظهر مذام كل منهم ومحامد وكان ساح في بلاد اوربا ليلاحظ في سياحته ما يلائم كل مملكة من الممالك فقال ان بلاد المانيا تليق للسياحة وبلاد ايطاليا للاقامة وبلاد فرانس للمسرة وطيب العيش. ثم ان رابع هولاء الخمسة اشخاص الذين نحن بضد الكلام عليهم هو دابير صاحب التأليف المحلى بقلائد القواعد المحاوي باوضح بيان ما كاد يأتي على سائر الفوائد وخامسهم كديك الذي بسط اشعة التحقيق على تأليف اوك الانكليزي في علم الفاسفة وبلي هولاء الخمسة جان باتيست روسو صاحب الاشعار ذات المعاني الرائقة والمعلم ساج صاحب التأليف البارع المعروف بجبل بلاس المحتوي على المقالة الفلسفية وهو احسن ما ألف في باب

ومن مشاهير هذا القرن ايضا ولطير قال بعض المؤلفين ان هذا الرجل هو ممن اخذ راية الكتابة باليمين وبالشمال واشتهر في فنونها شهرة بالغة ولولم بجمله انحلال العقيدة على عدم احترام الشرائع والديانات لكانت شهرته اتم والنفع بواعث وقال اخرون ان الشيء اذا تجاوز الحد رجع الى الضد وكان الجهل مضر فكذلك مقابلة اذا صاحبة اساءة الغير وذلك ان هذا العالم افضت به غزارة علمه الى القدح في الاديان وفي كثير من ملوك عصره فعوقب بالطرده عن وطنه وعن كل موضع اراد النزول به مات في سنة ١٧٧٨ وله مولفات عديدة ترجم منها مولفان الى العربية وطبعما في مصر الاول يسمى مطالع شمس السبر في وقائع كراوس الثاني عشر وهذا الملك هو ملك اسوج المشهور بالمحاربات الشديدة بينه وبين بطرس الاكبر امپراطور روسيا والثاني يسمى الروض الازهر في تاريخ بطرس الاكبر وهو الامپراطور المشار اليه ولكن قل من يثق بتأليف هذا الرجل غير ان لسوء الحظ نجد كثيرين من الذين تعلموا

اللغات الاجنبية في بلادنا برون بان ما من فائدة ما تعلموه الآن يطالعو
كتبه وامثالها بلكم ويقتنوا خطوطه برغبة لينا اول حتى التصدر بين صفوف
المتدنين

ومنهم جانجاك روسو وهو نظير وولبير المذكور في الشهرة وله من حسن
التعبير ما لا تستقر معه الاوامم وهذا الرجل مع وولبير المذكور قبله هما اللذان
انشأ الثورة التي انت بالمصائب الآتي ذكرها الى فرانساهيما اسبابها واستجلا
وقوعها

وهذه الثورة هي ما وقع في سنة ١٧٩٢ من الاضطرابات بين الاهاالي وقتلهم
ملكهم لويس السادس عشر الذي كان تولى المملكة في سنة ١٧٧٤ وامرأته
وشقيقتة وتسليمهم ولدك الى رجل اسكاف ليربية وتلوينهم فخار تمدنهم العظيم بهذه
القساوة الوحشية وبما اشتهروا به من الفواحش والرذائل والفتن العظيمة التي
لا يمكن استيفائها هنا وانما نذكر من تاثيرها الردي بعض الامور الآتية وهي
اولا انهم ابطوا في تلك المدة كثيرا من القضايا والاحكام القديمة

ثانيا ابدلوا التاريخ الميلادي واسماء الشهور بغيرها مما اخترعوه فيها
ثالثا ابطوا الديانة المسيحية واقاموا لهم ديانة اخرى لكنهم لم يتفقوا عليها
اذ انهم في اثناء الثورة اتوا بفتاة بدعة الجبال وهي من فتيات الرقص والتشخيص
والغنا وكانت من اللواتي يتجاوزن حدود الحشمة في ملابسها واقاموها على
مذبح كنيسة نوتردام الكاتدرائية في باريس وقالوا للجمهور الغفير المجمع انها
المعبودة المسماة بمعبودة التمييز واصابة الحكم وعند ذلك قال لهم رجل يقال
له شومت وهو احد مقدمي رجال الثورة يا ايها البشر السائرون الى الفناء
لا تترجفوا بعد الآن عند سماع رعود غير مضرّة نسبتوها الى اله خلقتة مخاوفكم
فانه ما من اله فلا تعبدوا بعد الان غير التمييز وهذا هو (مشيرا الى تلك الفتاة)
رمزها الاتي والاشرف فلا تعبدوا غير معبودات مثلها وكان لما سمع الجمهور منه
هذا الكلام سجدوا لتلك الفتاة وخرجوا اليغوصوا في ما يخجل القلم ان يقرر وصفه

ثم رجعوا عنها واقاموا عوضها ديانة اخترعها لم بعض الاكابر والعلماء وهي ان يعبدوا الله عز وجل حسب اصول الديانة او بالحربة الاحساسات الطبيعية واستعملوا الكنائس اماكن لعبادتهم وكان دستور ايمانهم بسيطاً حاوياً قضيتين كبيرتين وهما وجود الله وخلود النفس وكانت شريعتهم الادبية حاوية كذلك مبدئين كبيرين وهما محبة الله ومحبة الناس وكانت مناسكهم تحوي على صلوات وتسابيح مكتوبة لارشاد العابدين في العبادة . ثم في اجتماعاتهم كان يخاطب بعض الاعضاء ولكن لا يُسمع بتقديم خطاب الجمهور الا بعد فحوص من المناظرين وقد اُضيف الى هذا بعض طفوس بسيطة كوضع طبق اثمار وزهور على المذبح وكانوا يستعملون الموسيقى بالاصوات والآلات في اجتماعاتهم وجدوا كل الجذ في ادخال هذه العبادة الى كل مدن فرانس المشهورة واتشرت مقاصد جمعيتهم الى بلاد اخرى وتوجه كتابهم الى جميع الاقطار الفرنسية بامر وزير الامور الداخلية وكان قد اشار البعض منهم باقامة الديانة على طريقة ديانة قدماء الفرس (الجوس) وهي ان يُشار الى الجواهر الالهية بناير دائمة وان يُقرب له قرابين من الاثمار والزيت والملح وان تُسكب سكائب من الخمر الى العناصر الاربعة ورسم ان تُمارس العبادة يومياً في الهياكل وان كل يوم تاسع يكون سبتاً للراحة وان يشترك الجميع بالرقص والملاهي في اعياد معلومة وكان أتبع هذه الديانة بعض انفار في باريس وغيرها ولكن لم يلتفت اليهم ثم بعد برهة يسيرة انقرضوا وطُفي خبرهم

وقد اتفق المورخون بان هذه النائرة الفرنسية تكون نهاية للقسم الثاني من القرون الاخيرة على ما قد سبقت الاشارة اليه في المقدمة

(روسيا) وكانت عادة المسكوب وقتئذ ان يجعلوا اول السنة شهرا بلول اقتداءً بالاكليروس عندهم اذ لا يخفى بان التقاويم السنوية معدودة من الامور المهمة وكان المنوط بهام روساء الاديان دون غيرهم من قديم الزمان مجيع

الاقطار وليس ذلك لمجرد المواسم والاعباد الدينية فقط بل واقدرة معرفة غيرهم
 بعلم الميقات فابطل ذلك بطرس الاكبر وجعله كانون الثاني كما هي العادة عند
 مالک اوروبا المتمدنة وكان هذا التغيير من ابتداء القرن الثامن عشر الذي نحن
 بصدد الكلام عليه فتعجيب العامة من هذا التغيير كيف امکن فيه لبطرس
 ان يغير كيفية مسير الشمس وانتقالها . وانما لم يرض هذا القيصر بالتقويم
 الغوريفورياني الذي سبقت الاشارة اليه في الكلام على الاكتشافات العلمية في
 القرن السادس عشر بل ابقى حساب السنة على الزيج القديم (ولعل ذلك
 ناشي اما اقتداء بعلماء الرياضة من الانكليز لانهم كانوا اهلوه في ذلك الوقت
 واما رعاية الى الاكبروس حيث ان الكيكلس الارثوذكسي لا يسمح بوقوع عيد
 الفصح المسيحي الا قبل عيد الفصح عند اليهود كما سبقت الاشارة الى ذلك في
 صحيفة ٢٢٦ من كتابنا زينة الصنائف في اصول المعارف)

وكانوا منذ تعلموا طريقة المكاتبات والمراسلات في اوائل القرن الخامس
 من الميلاذ كما سبقت الاشارة الى ذلك يكتبون في بطاقات من ورق الاشجار
 اوراق الغزال ثم بعد ذلك طويلا كتبوا في الورق فوضع لهم بطرس الاكبر قانونا
 يامرهم فيه ان لا يسلكوا في الكتابة الا على نسق الفرنسية وابطل ما كانوا
 يستعملونه في مخاطبات ملوكهم وعرض محالاتهم من تعبيرهم عن انفسهم بلفظ عبدكم
 وابدله بلفظ رعيتكم ليذيق رعيتة حلاوة ما ابدعه من التحسينات

وكان الزواج في الدولة المسكوبية على سوال ما هو جار في بلاد الترك
 والعجم فكان الرجل لا ينظر مخطوبته الا بعد الزواج ويرسل اليها من جملة
 هدايا العرس مقدارا من العصي بقدر قبضة اليد ايضا لها بانة عند اول
 فرصة توجب عقابها بناها منه ناديب خفيف وكان من قانون الملكة اذا
 قتل الرجل امراته لا يقتل فيها واما الزوجات اللاتي يقتلن ازواجهن فانهن
 يدفنن احياء فاراد بطرس الاكبر ان يعود رعيتة على عوائد الامم الذين ارتحل
 الى بلادهم واتى منهم باناس يعلمون اهل مملكتهم على ما تقدم فشرع اولاً في تغيير

ملابس اهل بلادهم وجعلها مثل ملابس سائر الافرنج لان الانسان بطبعه ينفر من الاجانب لاسيما اذا كانوا يخالفونه في الملابس وكانت ملابسهم في المحافل والمواسم شبيهة بملابس التتار وقد ماه الالهيين والمجار وكانت على ما يقال مقبولة ومعترسة واما ملابس الاهالي ورعاع الناس فكانت شبيهة بالدلوق والثياب ذات الانكاشات والطيات ما يجاذي الوسط وبالجملة فقد كانت الثياب الطويلة سابقا لباسا لجميع الملل لانها لا تحتاج لكثير مصرف ولا صناعة وكان المسكوبيون لا يجلبون لحاهم بل يتركونها تسترسل هذه العلة بعينها ولم يشق على بطرس الاكبر تعويد اهل ديوانه ودائرته على الملابس الافرنجية وحلق اللحى بخلاف تعويد الاهالي على ذلك فكان من اصعب الامور عليه حتي انه اضطر ان يضرب غرامة على كل من لبس ثيابا طويلة ولم يجلق لحيته وعلق على ابواب المدينة انموذج الملابس الضيقة التي يلزم الاهالي لبسها وكل من امتنع من دفع هذه الغرامة حكم عليه بقطع ثيابه وحلق لحيته لكن كان اجراء هذه الامور وتنفيذها مع الملاطفة واين الجانب فكان ذلك سببا في الانقياد وعدم التعصب ثم ادخل بعد ذلك في بلاد الجمعيات التأسيسية وامران يحضرن تلك الجمعيات النساء مع بناتهن متزيينات بزى اهالي جنوب اوربا وجعل هذه الجمعيات التي هي اشبه بمواسم صغيرة قوانين واصولا تتبع وبالجملة فكل شيء حدث في دولة بطرس الاكبر حتى اداب الخالطة والاجتماع

فمن حلت الظرافة والرقعة في كل الامور ببلاد المسكوب محل الخشونة والتبرير وحدثت مجالس المسامرة عندهم بعد ان كانوا لا يعرفونها اصلا وتجددت الالعاب التياترية حتى ان الاميرة تنالها احدي اخوات هذا القيصر اتقت باللسان الروسي مقامات تياترية تتعلق بذكر الحوادث المحزنة وكانت اقرب شيها بما ألفه الشهير شكسبير الانكليزي الذي مر ذكره في الكلام على

القرن الخامس عشر

وقد أدت بطرس الاكبر همة الى تحديد المسافات السفرية بوضع اعمدة

صلبة من الخشب في طريق مدينة موسكا الى مدينة ويريونيز من كل عمود لثقله
 مسافة فرسخ مسكوبي ٧٥٠ قدماً وانشأ في كل ٣٠ فرسخاً منزلاً للسافرين
 وحدث في ديوانه نوعاً من الزينة والزخرفة وهو ان كان طبعه لا يالف
 ذلك الا انه رآه ما لا يترمنه وحدث ايضاً نيشان درجة ماري اندراوس وفي
 من رتب الافتخار الشريفة التجارية في دواوين اوروبا وكان قبل ذلك جميعه
 احدث نيشان افتخار كان اول نيشان صنع في بلاد المسكوب وكتب على
 احدى دائريه ما معناه بطرس الاول امبراطور المسكوب العظيم دائماً وعلى
 الاخرى ازاق مع هذه الكلمات منصور بالمياه والنيان وكان ذلك عندما دخل
 مدينة موسكا مع الآبهة والاحفال ومر بجيشه الذي كان يحارب في بحر ازاق
 ورجع منصوراً تحت اقواس النصر التي صنعت له قبل ان ساح في بلاد اوروبا
 وقد استحسن ارباب العقول الراجحة من اهل دوائه كثيراً من هذه
 التغييرات والابداعات النافعة وتلقوا ذلك بالقبول بعد ان كان وقع اللفظ
 بين الناس في مبدأ هذا التغيير وكتب بعض الفسوس في رسائل طبعها ان
 بطرس هو المسيح الدجال لانه كان يأمر بتف لحاء الاحياء وتشریح اجساد
 الموتى وابطل الرتبة البطريركية فصار بذلك فن الطباعة الذي كان هذا القيصر
 يسعى في تقويته معيناً على ما كان يقال فيه من القدح والذم لكن رد على هذا
 القسيس قسيس اخر قائلاً ان بطرس ليس هو الدجال اذ ليس في حروف
 اسمه ما في اسم الدجال من عدد ٦٦٦ وكذلك لفق علامات الوحش المذكور
 في سفر الرويا

ولما كان هذا القيصر مشتغلاً بحروبه مع كرلوس الثاني عشر ملك اسوج
 لم تقدر هتة في اثناء تلك الحاربات من جانب المنافع الى بلاده اذ انه بعد ما
 لحقته من المصائب بانهمزام عسكره امام مدينة نروا اشتغل بوصول كل من بحر
 بالطق وبحر الخزر والبحر الاسود ببعضها بواسطة خلمان واخذ في حفر خليج عميق
 واصل من نهر طنائس الى نهر الاثل وبينما كان كرلوس المشار اليه يخرب مملكة

له كان بطرس يجلب منها رعاةً واغناماً ليحزأصوافها ويصنع منها الجوخ الجيد
وانشا انوالاً للآتشة ومعامل للورق وامر باحضار الحدادين وصانعي السالك
الاصفر والقوندقجية والسباكين واشتغل باستخراج معادن سيبريا
وبعد ان اخذ هذا الامبراطور في تجديد القوانين وتحسين الامور الملكية
والعسكرية عمل عرساً لاحد ممتلكيه دعا اليه جميع امراء دولته رجالاً ونساءً
واجرى هذا العرس على مقتضى العوائد والاهام القديمة ليعين فيه شناعتها
فحضر المدعوون اليه بالملابس القديمة ووضعت لهم الموائد على منوال ما كان
جاريًا في القرن السادس عشر ولم توفد مدة ذلك العرس نارحسبها كانت
العادة عندهم ولو في زمن شدة البرد وشربوا فيه شراب العسل والعرقى لانهم
كانوا لا يشربون النبيذ ايضاً فتشكوا اليه من هذا الامر فاجابهم متمكماً اليه
هكذا كانت تفعل اسلافكم

واحدث دار طباعة جعل حروفها مسكوبية ولاينية جلب آلتها
من بلاد الفلمنك وكان اول ما طبع فيها بعض كتب ترجمت الى اللغة المسكوبية
تشتمل على اداب وفنون وجدد المعلم فرغسون الذي مر ذكره مدارس لتعليم
العلوم الهندسية والفلكية والبحرية

وجدد القيصر المشار اليه مرستماناً كبيراً يشتغل فيه العاجزون من الشيوخ
والشبان بحيث لا يخافوا من مكث به عن العمل ائلاً يعتمد على الكسل والبطالة
ولما ظهر بفتح قلعة نياتزاوينا بالقرب من بحيرة لادوغا كان برتبة ملازم
اول في الخميرة جيه وترقى الى رتبة بوزباشي تحت رياسة رئيس عساكره المسى
شرمتوف فكافاه قيودان باشي بنيشان افتخار لقبه به بلقب شوالية ماري
اندر اوس

ثم بعد استيلائه على القلعة المذكورة عزم على بناء مدينة المساة بطرسبرغ
على مصب نهر نوى الذي على خليج فنلندة فوضع اساس هذه المدينة في فضاء
تلك الارض السبخة التي لا تتصل بالبر الا من طريق واحدة واحضر من مدينة

موسكا وازدرهان وقزان واوقرينه ارباب حرف وصنائع ليستغلوا فيها فلم يمض من تاسيسها ٥ اشهر الا وحضر اليها سفن فلنكية بقصد التجارة وبنى بالقرب منها مدينة اكرستادت على فم نهر نوى المذكور وهي المينا الاصلية التي الان بها عمارات السفائن المنسكوية وتم صب المدافع وانشأ سفن الامارة البحرية وتم اصلاح الطرق الكبيرة ونحسينها وجدد سفنا اخرى وحفر خلجانا وتم ايضا جمع التجارة والمخازن واخذت تجارة بطرسبرغ تتقوى وتوسع ومن ثم امر بنقل مشورة السنن من مدينة موسكا اليها فانتقلت في شهر نيسان سنة ١٧١٢م وصارت هذه المدينة الجديدة تحت مملكة روسيا بعد ان جلب اليها ١٢ الف عائلة تسكنها ثم احدث من الرتب التشريفية رتبة القديسة كاترينا تعظيما لزوجته كاترينا ونال هو نفسه رتبة قبودان باشي ثاني مكافاة له على ما ابداه من الخدمات لوطنه

ثم شرع بتنظيمات جديدة بحرية وترتيبات عسكرية وتجارية وقوانين سياسية واصول مربوطة مرعية والى بنفسه قوانين عسكرية تخص العساكر المشاة وفي سنة ١٧١٥م اسس مدينة بطرسبرغ اكدمة بحرية اي جمعية علماء بحرية وكان في مملكته مهندسون يرسمون الخارطيات في سائر اجزاء الدولة

وبعد ان تم ذلك عزم على رحلة ثانية الى بلاد اوروبا ولكن ايست كالاولى التي كانت رحلة متعلم للفنون بل رحلة ملك يبحث عن اسرار جميع الدواوين ليعرفها حتى المعرفة فاستصحب معه زوجته كاترينا ولازال ينتقل من مدينة الى اخرى الى ان وصل الى فرانسوا وقوبل فيها بما يليق من الرسوم التشريفية اللائقة بمقامه ولما رجع الى روسيا جاء معه بعدة من الفرنسيين اصحاب الحرف والصنائع كما اتى بهل ذلك من انكلترة لان جميع الممالك التي كان يسافر اليها كانت ترى انها تشرف باعاته على تمييز غرضه من نقل جميع الفنون الى وطنه الجديد ومساعدته على الابداع والاحداث وبعد وصوله اليها طبع قانون الجهادية الذي فنه بنفسه ورتب مجلس حقانية لينظر سلوك مدبري دواوينه

ويلاحظ أحوالهم ولينظم أمور المالية

وفي سنة ١٧١٨م حرم هذا الملك ابنه البكري الكسيس من ولاية العهد وحق وراثته الملك وحكم عليه بالقتل بموجب قرار المجالس وإفتاء القسوس الذين عيّنهم لمحاكمتهم للأسباب التي ذكرت في ما سبق فإصاب هذا الأمير السيء الحظ داء الشنخ عندما تليت عليه صورة هذا الحكم لشدة ما اعتراه من الخوف والوجل وأظهر الندم بحضرة أبيه الذي كانت دموعه تدرف على خديه عندما شاهدته وهو في تلك الحالة المحزنة وأظهر له الصغ والعفو الذي كان يلتمسه منه ثم مات في اليوم الثاني وحيث أنه ظهر للناس أن بطرس ليس الأباً وطنياً وأنه كان يعتبر رعاياه مثل عائلته لكونه لم بكل ولم يتر عن جلب المنافع لهم لاسيما لما رآوه جدّد في هذه السنة عيّن أيضاً من الفنون والصنائع على اختلاف أنواعها والمعامل والورش ما لم يروه قبلاً وأحدث في دولته فروعاً من التجارة التي أخذت في الراج وحفر خجماً وصلت بين الأنهار والبحار وأوقعت الوصلة والمخالطة بين الأهالي بعد أن كانوا منفصلين بمقتضى أوضاع بلادهم وجعل للدولة أميراً كبيراً ضابطاً عليها في ما يخص الضبطية الداخلية وعين إقامته بمدينة بطرسبرغ رئيساً على محكمة مأمورة ببقاء الانتظام والضبط والربط بدولة المسكوب من أولها إلى آخرها ومنع مع التشديد استعمال الزينة في الملابس وكذا لعب الفار الذي هو أشدّ خطراً من الزينة وأنجز تأسيس مدارس حساب بجميع مدن الدولة كان قد أمر باحداثها في سنة ١٧١٦م وكذا المرستانات المخصصة للايتام واللفظة وعنق جميع المدن الكبيرة من الحجم الغنير الذي كان فيها من الشحاذين المبعوضين الذين لا يريدون أن يتخذوا لهم صنعة أخرى بل يرغبون في المعيشة على طرف غيرهم وجبر الأغنياء على بناء بيوت منتظمة في مدينة بطرسبرغ وسهّل عليهم ذلك بكونه أمر أن تنقل مهات البنائين إليها بدون أجر بواسطة السفن والعربات التي كانت تعود قبل ذلك إلى المدينة المذكورة فارغة من الأقاليم المجاورة إليها وعيّن مقادير الأوزان والمقاييس والمكاييل

وجعلها منتظمة مستوية في جميع الاماكن وسعرا ثمان البضائع اللازمة للاكل
ورتب بمدينة بطرسبرغ الفوانيس التي كان لويس الرابع عشر اول من اخترعها
لمدينة باريس فصارت تنير حاراتها مدة الليل وترتب كذلك فيها الطلعات
لاطفاء الحريق وشيد ابواب المدينة وامر بتبليط اسواقها ومسالكتها مع المائة
وجميع الاشياء التي تخص الامن والنظافة والانتظام والضبط وتسهيل التجارة
الداخلية والمزايا للاجانب والاعراب والفنانين التي تمنع ارباب هذه المزايا من
تجاوز الحدود كل ذلك حصل بمدينة موسكا ومدينة بطرسبرغ على نسق
جديد حديث وحسن معامل الاسلحة تحسباً زائداً وكان يلاحظها بنفسه كما
انه يذهب بذاته لاجل ان يامر جميع متهدي طواحين الحبوب والسحق ونشر
الاخشاب ونظار معامل الحبال والفروع ودق الطوب وحجر الأردواز ونظار
انوال الاقمشة بما يلزم. واحداث مجلس تجارة جعل نصف اعضائه من اهل
دولته والنصف الاخر من الاعراب

ومن ثم احداث احد الفرنسيات بمدينة بطرسبرغ معمل المرآتي واحداث
فرنساوي اخر شغل السجادات والبسط القائمة السداء حسبما يشتغل بورشة
غوبلان الشهيرة بباريس لكن لما احداث فرنساوي ثالث معالاً شغل القصب
المتخذ من الذهب والفضة امر القيصر ان لا يشتغل بهذا المعمل في السنة الا ٤
آلاف مرك (والمرك مقدار من الذهب والفضة يساوي ٨ اواق يعني ٦٤
درهماً وذلك لئلا تنقص الفضة او الذهب من مالكة واعطى ايضاً ١٥٠ الف
فرنك وجميع الادوات والآلات اللازمة للذين شرعوا في احداث انوال الجوخ
وغيره من اقمشة الصوف فترتب على ذلك انه صار يمكن ان يلبس عساكر من
الجوخ المصنوع في بلاده وخلاصة الامر انه صار يصطنع في بلاد المسكوب
اقمشة نفيسة تضاهي اقمشة بلاد الفلمنك وعند وفاة هذا القيصر وجد في مدينتي
موسكا وجارسلان ١٤ معالاً من معامل الثيل والكتان ونجحت صناعة اقمشة
الحريير وضاهت ما يصنع بمدينة اصفهان من بلاد العجم وكانت معادن الحديد

تستخرج استخراجاً جيداً ولما حصل استكشاف بعض معادن الذهب والفضة
أحدث هذا القيصري مجلساً مخصوصاً لينتدكر باثبات وتحقيق ما يستخرج منها هل
يفيض عن المصاريف اللازمة لاخرجه ام لا

وبنى في السنة المذكورة مدينة جديدة سماها لادوغا الجديدة وعين جماعة
من المهندسين الذين كانوا بدرستهم البحرية التي أحدثها في سنة ١٧١٥م ليسيروا
بجميع اقاليم دولته ويرسموا خرائطها مع الضبط والصحة لكي يطلع سائر الناس
على اراضي بلاده المتسعة التي اكسبها بجهده واتعايه التربية والرفاهية والغنى
والثروة

ثم ابطل هذا القيصري المجلس الذي كانت اعضاؤه من زمرة البويار داعي
الاشراف تنصل فيه الحكومات وتحكم فيها الحكم الاخير الذي لا ينفذ وكان
لا يدخل في زمرة اربابها الا من كان له درجة اعتبار يكون صاحب حسب
ونسب بدون التفات الى العلم والمعرفة وضم الى الوكيل العمومي الذي نصبه في
المملكة نواب في كل حكومة من الحكومات الاربع التي بدولته وناطهم بملاحظة
سلوك القضاة الذين هم فرع من فروع مشورة السنت التي أحدثها وكان بيد
كل من هولاء القضاة نسخة من كتاب الشرائع والقوانين ومنع القضاة من اخذ
المحصل على الدعاوي وكل من اخذ شيئاً من ذلك كان عقابه الموت واهتم
بجعل مصاريف الدعاوي هينة جداً وباجراء العدل على وجه السرعة ورتب
للقضاة والكتاب معاشات من خزينة الدولة ومنعهم بذلك من شراء مناصبهم
وكان تكميته مجموع قوانينه الذي رتبته وصار العمل بموجبه في سنة ١٧٢٢م
فكان من جملة ما فيه ان كل عسكري ارتقى الى رتبة ضابط ينتظم في سلك
ارباب الشرف وكل بويار ارتكب ما اوجبت بسببه القوانين ترذيلة يصير بذلك
من رعاة الناس وعامتهم

واخيراً تمت الامبراطورة اليصابات ابنة هذا القيصري بمجموع الاصول
والقوانين المذكورة الذي ابتداه ابوها من قبلها وسرى لطف حكومتها اليه

ايضاً اذ ازلت منه وصمة الثقل والتشديد حيث اخذت على نفسها عهداً وميثاقاً بانه لا يعاقب احد بالموت في مدة حكمها ووفت بذلك فهي اول ملكة احترمت النفوس البشرية وحقت دماها فكان كل من اقرت ذنباً عظيماً يحكم عليه بالشغل في المعادن ونحوها من الاشغال الشاقة ولا يخفى ما في ذلك من الزجر للناس الاشرار بتوارد هذه الاشغال عليهم كل يوم بخلاف الموت الذي فيه راحة لهم

اما ابوها الامبراطور بطرس المشار اليه فبقي متعادياً في الاشغال التي كان ابتداها بالكوورتب بمدينة بطرسبرغ جمعية علوم على انموذج ما في باريس ولوندره وصرف كثيراً من الاموال لاجل جلب العلماء والحكماء الذين منهم دليله وبولنجر والهريمان والبرنولية وواف المشهور الماهر في انواع الفلسفة ولا زالت هذه الجمعية موجودة حتى الآن واهلها هم فلاسفة المسكوبيين فزهت بها الفنون وازهرت في كل جهة من بلاده وقويت الصنائع وصارت مرغوبة وزادت القوة البحرية وكذا الاعضاء بشأن الجيوش ولو حظت القوانين والشرايع فكانت تتمتع مع الهدوء والصلح بفخاره الى ان توفي في اليوم الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٧٢٥ م

ومن غريب ما اتفق ولم يسبق بمثله انه جلس بعد هذا الامبراطور على تخت السلطنة المسكوبية ٤ نساء على التوالي حافظن على العمل في جميع ما ابدعهن وكما ان وحسن جميع ما شرع في فعله وهن زوجته كاترينا الاولى التي تولت التخت بعد وفاته وابنة اخيه حنه ارملة دوك فورلانديا التي استولت على المملكة بعد وفاة بطرس الثاني بن الكسيس في سنة ١٧٢٠ م واليصابات ابنته من كاترينا المذكورة التي جلست امبراطورة في سنة ١٧٤٠ م وكاترينا الثانية زوجة بطرس الثالث التي خلعت زوجها وتملكت في سنة ١٧٦٢ م

وفي ايام كاترينا الثانية المذكورة زهت العلوم وابتعت ببلاد روسيا فقد قال كستر الذي كان سفيراً لدولة فرانس في بطرسبرغ والى كتاباً في تاريخ

هذه الامبراطورة باللغة الفرنسية ثم ترجم الى اللغة التركية ما معناه وكانت
 كاترينا فضلاً عما هي عليه من فرط الجمال وحسن الطباع والحصل متزينة
 بجلي الذكاء والفراصة ذات عقل وافرو علم متكاثرة نشأت في جوار مجمع ارباب
 معارف وعاروم مثل دار ملكة الفيلسوف الشهير فريدريك الاكبر ملك بروسيا
 وكانت تتكلم بعدة لغات بحيث تقدر تفيد عن مقاصدها بكل سهولة الى ان
 قال في موضع اخر من كتابه وكانت تعلم بان تفوق الشعوب والممل الموجدوة
 في اقطار الربع المسكون على بعضهم بعض لا يتحصل من مجرد الارحمية في
 الحروب بل ان وسائل الشهرة القوية هي المهارة في العلوم والفنون ولذلك
 انتخبت جماعة من ارباب المعارف وارسلتهم الى الجهات الجديرة بالاعناء من
 بلادها ليتحروا اوضاعها ومواقعها الجغرافية بكل ضبط وتدقيق ويختبروا
 طبيعة اقاليمها ويعرفوا انواع محاصيلها وامزجة سكانها واخلاق اهلها ويحروا
 ذلك على وجه الصحة وبذلك مساعيتها ايضاً في تحسين احوال المدارس القديمة
 التي كانت موجودة من زمن اسلافها وجددت مدارس ومكاتب ومؤسسات
 اخرى وغير ذلك من الامور النافعة في كل المجالات ووضعت رأس مال معلوم
 المقدار مخصصاً لمعاش اشخاص عينتهم لترجمة الكتب اللازمة التي اعنت
 بجلبها من جميع اللغات الى اللسان المسكوبي وعفت عما كانت احداثه من
 الضائم على رسوم معامل الحديد والنحاس وانوال الاقشة المستعملة في المعامل
 الكبيرة وعند افراد الناس والفت ايضاً الرسومات القديمة التي كانت تؤخذ
 على الجلود المدبوغ ومعامل الشمع والزيت المستخرج من الزيتون واذنت المحاكم
 الموجودة في جميع بلادها ان تعطي اعلامات في فصل الحكومات كيلا تتجمل
 اصحاب الدعاوي مشقة السفر من المجالات البعيدة لاجل رؤية دعاويها في
 بطرسبرغ او موسكا ولكنها وضعت قانوناً ايضاً بانها اذا كان احد الخصمين
 لا يقبل ما حكمت به هن المحاكم فله حق ان يرفع دعاواه الى بطرسبرغ او موسكا
 لاجل الاستئناف بشرط ان تؤخذ جريمة بقدر معلوم من التمرد وجعلت ذلك

ذيلاً للقوانين القديمة وسجلته في قيود مجلس السنن بمدينة موسكا
وكانت طائفة التجار في هذه المملكة تنقسم الى خمس اقسام باعتبار رسالاتها
اولها من كان راس ماله لا اقل من ١٠٠ الف روبله والثاني من كان رساله ٥٠
الفاً والثالث ٣٠ الفاً والرابع ١٠ الاف والخامس هم اصحاب ٥٠٠ روبلة فقط
وكان كل واحد من اصحاب هذه الاقسام يدفع الى خزينة الدولة قدراً معلوماً
مرتباً في كل سنة بحسب رساله فارادت الامبراطورة المذكورة ان تضاعف
رغبة الاهالي في التجارة وتزيد في نفوية هذه الصناعة التي كانت تصرف ذهنها
على ايجاد الوسائل والوسائط الموجبة لنموها وتكثيرها فامرت بان التجار
يكونون معافين من الجزية ومن الخدمة العسكرية وان كل من اراد من الاهالي
ما لم يكن من زمرة العبيد ان يكتب نفسه في اي قسم اراده من هذه الاقسام
المذكورة بشرط ان يعطي عن رساله (١) في المئة فله ذلك وبناء على هذا
النظام صار كل من الاهالي يتقدم الى الاكتاب في المرتبة التي يختارها ويقرر عن
المقدار الذي يدعي امتلاكه ويعطي الرسم المقرر عليه سنوياً رغبة في الحصول
على تلك الامتيازات فتزايد امر التجارة وخاصة بفتح الطريق الموصلة الى البحر
الايض على منتهى المعاهدات الجديدة التي عقدتها مع الدولة العثمانية ثم اعتنت
في امر الزراعة وتكثيرها وبذلت جهدها في استحصال اسباب تنشيطها وفي
احداث المعامل والوزش واستعمال انواع الصنائع والحرف وتسهيل وسائط
الاخذ والعطا . واحداث بانكة في اقليم سيبريا رساله مليون وخمسمائة الف
روبله لاجل تسهيل المعاملات التجارية التي كانت قد انقطعت منه منذ مدة
بسبب طغيان بوهاجف وهو احد المتمردين وسعت في تعمير القنصبات والنرى
التي كان خربها العاصي المذكور وكانت جلبت قبل ذلك من بلاد الالمان
١٠٠ الف نفس لاجل تعميرها . وانشأت في سنة ١٧٧٠ مستشفى شهير للايتام
بمدينة موسكا . وبنيت مدينة كرسون على نهر اوزى في البحر الاسود وكان وضع
اساسها في سنة ١٧٧٨ فلم تمض برهة بسيرة حتى صارت محنوبة على ٤٠ الف نفس

بفن الحروب واشتهر فيها من سنة ١٧٠٠ الى سنة ١٧١٨ بما ابداه من الشجاعة العظيمة في الوقائع الممولة التي كانت قائمة ساق على قدم بينه وبين امبراطورها بطرس الاكبر الذي سبق ذكره في الكلام على ملكة روسيا وكان ازيادة هوسه فيها امر بترجمة كتاب كونت كرس لكونه اعجبه بالظن الى موضوعه اكثر من حسن عباراته وهو تاريخ الفه هذا الرجل في اسكندر المكدوني الملقب بالاكبر الذي مر ذكره ثم الف هو نفسه نبذة في فن الحروب وفي غزواته من سنة ١٧٠٠ الى سنة ١٧٠٩ عندما كان متبياً في بلاد الدولة العلية مهزوماً من امام بطرس الاكبر المشار اليه وملتجئاً الى حمايتها منه ويقال بانه اراد ان يغير طريقة العد بالعثرات ويجعل بدلها (٦٤) لان هذا العد يشتمل على مكعب ومربع واذا نصف تناقص حتى يرجع الى الاحاد وهذا يدل على انه كان مولعاً بالاشياء الغريبة الصعبة ايضاً ثم توفي اخيراً قتيلاً تحت اسوار مدينة فريدريكهاال عندما كان مشغلاً بفتح بلاد نروج في سنة ١٧١٨م

وعند ذلك رتب الملكة الاسوجية قانوناً جديداً جعل للحكومة الملكية حداً نفق عنده واثبت الحرية للاهالي فكان من احكامه ان لا يكون للملك مداخله في ترتيب القوانين ولا في التصرف في شان الحرب والصلح ولا في تغيير النفود ولا في فصل الدعاوي ولا في جمع عساكر من الملكة ولا في احداث سفن او حصون ولا في ترتيب الاموال ولا في تقليد المناصب اياً كانت بل كان ذلك جميعه منوطاً بتلك المشورة التي كانت تعقد في اوقات الاقتضا وكان قصدها بذلك منع تلك المظالم والجور من الملكة لانه صار سبباً لايقناع الفشل فيها وانقسام اهالي المشورة المذكورة الى فرقتين فرقة تميل الى الفرنسيين ويقال لها فرقة البرانيط لان الفرنسيات يلبسونها وفرقة تميل الى المسكوبيين ويقال لها فرقة الفلنسات لان المسكوبيين كان من عادتهم لبسها ولا زال الامر في اخنباط وارتيك منذ وفاة كرلوس المشار اليه الى ان تولى الملكة غسطاوة الثالث في سنة ١٧٧١م

ومن ثم رتب هذا الملك قانوناً جديداً اكره اعضاء المشورة الاهلية المذكورة على قبوله وهذا القانون الجديد لم يبطل هذه المشورة بل كان لا يقدم الملك على تشريع قانون او نسخه الا برضاها ولكن كان من خصائصه بمقتضى هذا القانون تعيين وقت عندها ومبها من تزيد على الثلاثة اشهر المعينة لمكثها وانه هو الذي ينصب اعضاء مشورة السنت ولا تكون اراؤها نافذة الا بعد ان يسمها الملك ويثبت الامر فيها بنفسه وانه هو الذي يعقد الصلح والهدنة والمعاهدة سواء كانت للدفاع او للهجوم واما عمل الحرب فلم يكن مخصصاً به بل كان منوطاً برأي الجمعية وكانت قيادة العساكر البحرية والبرية منوطة به كما ان سائر الوظائف الملكية والعسكرية كذلك وقد خصه القانون ايضاً بان تدفع له جميع الضرائب لكن لا يحق له ان يجدد غير ما هو موجود منها الا اذا كان هناك حرب للدفاع عن المملكة او اذا اقتضى الحال لجلب الامن الداخلي ثم تلغى متى انتقضت الاسباب وتبقى القديمة على حالها

ومنع هذا الملك ان يتفوه احد من الناس باسمي البرانيط والقلنسوات وابطل ما كان مرتباً في المملكة من انواع العذاب وازال جميع المحلات والآلات التي كانت معدة لذلك واحداث بمدينة استوكهلم قصبة ملكية داراً للاشغال مختلفة ليستغل فيها من لاصناعة له ولاجهة يتعيش منها وكان انشاؤها في سنة ١٧٧٣م ولا يخفى ما في ذلك من المنفعة لم والدولة وبعث الى سائر الجهات اطباء وكان يقوي همهم بانحافهم بالرتب والانعامات وتبرع على الاهالي بالادوية من غير مقابل وعاقب من فردة الرؤوس جميع الفلاحين والعملة وارباب الحرف والصنائع والعساكر البرية والبحرية الذين يكون اقل ما للرجل منهم ٤ اولاد طلباً لازدياد عدد اهالي المملكة وكان يعني بادارة مواضع الايتام وسائر المستشفيات وكان يحافظ على العدل وحسن الادارة ولما رأى ان حرية الطباعة واطلاقها اعظم الوسائط في محافظة وكلاء الدولة على واجباتهم وفي اطلاعهم على مرغوبات الاهالي وضروراتهم اعان على توسيع دائرة هذه الحرية النفيسة

واجتهد ايضاً اجتماعاً تاماً في توسيع دائرة التجارة والصنائع وتقدم صناعة استخراج المعادن وتضاعف محصولاتها وحرّض اهل مملكته على شغل المادة المالية الخامية وكان الى ذلك العصر لا يشتغل بها الا في الممالك الاجنبية وجلب من بلاد اوروبا الى مملكته من مهرة الصنائع والمخترفين من كمل معادن الحديد والبولاد ورتب بحسب ادارته الامانة بين الناس بحيث يأمن بعضهم بعضاً في القرض وبهذا حصل لهم النجاح التام في امر التجارة وانعم بالحرية والاطلاق على ميناء مارشند فصارت تأتي اليها السفن من سائر الجهات وقوى الملاحة الاهلية باوامر صدرها في سنة ١٧٧٧م عافى بها جميع ملاحب السفن التجارية من فردة الرووس ورتب جمعية تجارية في بلاد اغرونلند بامريكا فصارت تقسم مع غيرها من الطوائف الاخرى الارباح الجسيمة التي تحصل من صيد الحيتان وصارت ايضاً كاتباء مدرسة لشبان البحرين

ولم يهمل هذا الملك امر الزراعة ايضاً بل اهتم بشائها حيث وسع في اجال اجارة الحيفالك الملكية العديدة ترغيباً للملاحين في الاعثناء باراضي الزراعة والنصح في خدمتها بطول انتفاعهم بها وعقد مع البعض منهم ان زراعة اراضيهم تكون لاولادهم البكرين من بعدهم وصدرت اوامره بابطال عادة موسم لانفع لها فترتب على ذلك توفير ٢٢ يوماً للشغل في كل سنة ورتب لتحسين الزراعة جمعية من ارباب الخبرة لتبحث عن طرق تحسينها وزيادتها بحيث تكون اقوات بلاده من ذات اراضيها ولا تحتاج للبلاد الاجنبية وانعم بالحرية في تجارة الحبوب

وكان يتريض في اشغال الدولة بممارسة العلوم والاداب وكانت له مخاطبات علمية مع كثيرين من علماء اوروبا واعاد بهتمو لجمع العلماء بمدينة اوبسال ما كان له سابقاً من الشهرة والرونق وكان قد زال منه ذلك بفقد الحكيم لنيه ورتب مشورة لتربية صبيان الاهالي وامرها بتجديد صورته بها بكل نظام التعليم في المدارس الصغيرة والكبيرة ورتب ايضاً جمعية لطبع الكتب الاولى

وغيرها من الكتب النافعة فظهر في جمعية العلماء بمدينة استوكهولم مهارة ونشاط جديد وتركت ما كانت عليه من دعوى العلم التي لا طائل تحتها وعرضت على علماء اوروبا مسائل عديدة نفعا بين عام وقد حصلت من هذا الملك الاعانة للفنون المستظرفة ايضا فجعل لأكدمه النقش والتصوير رونقا جديدا ورتب للمعارف جمعية للحفاظ على ان جميع المعارف الجديدة ولا سيما المعارف السلطانية تُبنى مع المتانة واللفظ . ومن ثم ظهر من مهرة المؤلفين ببلاد اسوج من اشتغل بالعلوم الادبية مع الاعناء اليام وزينوها بعدة مولفات نفيسة سطعت بها انوار اللغة الاسوجية وصار لها من الرونق والبهجة ما لم يُعهد فيها من قبل ومنهم لناوس الشهير في العلوم الطبيعية

واصلح هذا الملك ايضا الجيوش والسفن وكانت اذ ذاك على اشنع حالة وكان يذهب من اقليم الى اخر لاجل تعليم العساكر وزاد في المدافع زيادة عظيمة وصنع اسلحة وباروت وزاد في عدد العساكر البحرية وانشأ مرفاء واسعا في ميناء قولوقرون لتدخل اليه السفن الحربية حفظا لها من عواصف الرياح وبعد ان قمع طائفة الاشراف في سنة ١٧٨٩ اشهر قانونا جديدا كان قد رتبته مع وكلاء الطوائف الثلاثة ما عدا الاشراف ومنه ان الملك بمفرده هو الذي له الحق في ادارة المملكة والذب عنها بمتضى رايه من غير ان يراجع احدا في ذلك وهو الذي يعمل الحرب والصلح ويعقد المعاهدات ويفصل الدعاوي ويجري العدل ويوزع الوظائف السلطانية وان ديوان السنن لا يكون له دخل في شيء من امور الدولة وانما يكون ديوان المحاكمات الاعلى وبما ان الاهالي الاسوجيين كلهم مستوون في الاهلية والحرية في مملكة واحدة ازم ان يكونوا جميعا على حد سواء في التمتع بالحقوق والمزايا تحت رعاية القوانين الشرعية وان الوظائف على اختلافها جليلة كانت او حقيرة لانتباط الأبا المعارف والتجربة وحب الوطن فلا يُنظر الى عظم المنام وشرف النسب الا في ما لا بد له من ذلك بموجب القوانين وان جميع الاسوجيين يتمتعون تنعما تاما بالحرية الشخصية

الكامالة وانهم جميعاً لم حق في تلك الاراضي وغيرها من الاملاك اياً كانت

(المانيا) . وفي هذا القرن ظهر ببلاد المانيا الشاعران المجدان غوني وشلر فالاول فاق اقرانه في محاسن الاداب والثاني استحق ان يسمى مجدد لغيات الالمان فانه ركب الغابا معتبرة ينشد فيها مستظرفات الاشعار وله تأليف في التاريخ شاهد بتقدمه في ميادين الافكار

(انكلترة) اما انكلترة فكانت تقدمها فيو بالاعمال اليدوية والزراعية والتجارية وكل ما يجلب ثروة البلاد ويوجب سعادتها منذ اصطنعت فيها معامل صب الحديد في سنة ١٧٢٠ وغير ذلك من الوسائط التي تسهل الاشغال وتسبب الاقتصاد في تكاليف الاعمال وتوسع دائرة التجارة ولا سيما منذ اخترع جامس وات في سنة ١٧٨٢ آلة بخارية لدولاب غزل القطن الذي كان اخترعه اراكريت (في اواخر القرن السادس عشر) تعد من العجائب قال بعض المؤلفين ان هذا الرجل اخترع الكيفية العجيبة في الانتفاع بالآلة البخارية التي كان اخترعها اولاً ينوكن (ولعله باين) في اواخر القرن السابع عشر كما ظهرت كذلك الخدومات العجيبة الهائلة على يد المهندس برادلي وتضاعفت بواسطتها طرق المواصلة بانكلترة وفتحت الخيطان العديدة في الاماكن التي كانت معطلة وبذلك تمت نتائج الابدعي واتسعت دوائر المتجر والثروة في بلاد الانكلترة وارتفع شان السياسة وكثر استخراج معادن الارض بسهولة المناولة والمواصلة وكذا جلب القطن والكتان وغيرها واصطناع الاقمشة منها في اقرب وقت وكل ذلك بمعاونة الآلات البخارية المذكورة فكبرت بلدان انكلترة الصغيرة لاتساع نطاق المتجر فيها حتى صارت من اعمر البلدان المعتبرة وحسبنا مثال جزئي منه نعلم درجة التبدلات العظيمة الواقعة في احوال تجارتها وهوان همة ما كان يخرج من القطن المصنوع فيها لم تكن في اوائل القرن الثامن عشر تتجاوز ٥٠٠ الف

فرنك في السنة وفي اواسط هذا القرن (يريد صاحب الاصل القرن التاسع عشر) بلغت قيمة ما يخرج من ذلك ٥٠٠ مليون فرنك انتهى كلامه وكان افتتاح هذه النقدمات الصناعية فيها بهذا القرن ظهور معدن الصخون الانكليزية الابيض في سنة ١٧٠٧ وبعده بسنة واحدة ظهر المعدن الاسمانجوني ايضا .

ومن اثار اهتمامات هذه الامة في امر الزراعة ادخالها زراعة الرز الى بلاد امريكا قبل ان خرجت من تحت سلطتها بيضع سنين اعني في سنة ١٧٦٩ م

ثم عداء عن رجالها العظام الذين جعلوا لهم ذكرا محمدا في صفحات التاريخ بما اظهروه من الاكتشافات العلمية النافعة للجنس البشري وسوف نذكر اباؤهم مع ما اكتشفوه في ما ياتي ظهر ايضا فيها المؤرخون الثلاثة الشهيرون الذين زاد

بهم مجد وطنهم وهم غايوم وهوم وروبرتسون اما هوم فانه ولد سنة ١٧١١ من عيلة فقيرة واشتغل بالفن والاحكام ثم تعانى بالاداب والفلسفة وصرف همه في السياسة حتى انه استخدم في ما بعد بوظيفة كاتب سر سفارة الامير سنت كلير وغير

ثم تخلى بالكلية عن المصالح وتوفي سنة ١٧٧٦ وله مولفات عظيمة في الفلسفة والاداب والسياسة والتاريخ بل وفوق الطبيعيات وترجمت كتبه من لغته الانكليزية الى غيرها لكونها كثيرة الفوائد نفيسة الثرائد واما روبرتسون فهو

صاحب كتاب تحاف الملوك الالبا في تقدم الجمعيات باوروبا الذي جمعه مقدمة لتاريخ الامبراطور شرلكان الذي ألفه هو ايضا وقد ذكر في هذه المقدمة مع الايضاح جميع الوقائع والحوادث التي كانت سببا في التغييرات المتوالية التي اعترت حالة اوروبا السياسية منذ انقراض الدولة الرومانية الى ابتداء

القرن السادس عشر ومولفاته هذه ترجمت الى العربية وطُبعت في مصر سنة ١٢٥٨ للهجرة سنة ١٨٤٢ م

ومن ينبغي ان لا يهمل ذكرهم ايضا المعلم آدم سميث الذي فاق اقرانه في علم الرياضيات والاقتصاد السياسي المعبر عنه بعلم توفير المصاريف والجراحان الشهيران هنتر واخوه

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

(الطبيعة) ثم في هذا القرن الذي نحن بصدد الكلام عليه وجد رجل يقال له المعلم سوسور واعلمه فرانسواي فكان هو اول من تجر في علم كائنات الجو وأخترع الآلات الايغرومترية اي آلات مقياس الرطوبة . وبين كذلك الآراء الصحيحة الباحثة عن النداء والمطر والتلج وتوفي في سنة ١٨٠٠

وكان في سنة ١٧٥٠ ابتداء الجغرافيون بتقسيم انواع اراضي الكره الارضية الى اراضي اولية وثانوية وثالثية الى غير ذلك ما هو شائع في عرفهم الآن

(مانه الصاعنة) وفي سنة ١٧٥٢ اوجد بنجمن فرانكلن الامريكاني الذي خلد اسمه ببيان الامور المتعلقة بالاجاذب المغناطيسي الآلة التي تجذب الصاعنة من السحاب وتدخل بها في جوف الارض وكان اول من تجار وقال لها هل انت الاشياء كهربائية ثم وضعت الآلة المذكورة اولاً فوق البيوت بمدينة فيادلفيا من البلاد المتحدة الامريكانية في سنة ١٧٦٠ وينسب المورخون هذه الماثرة للانكليزي لان الشعب الامريكاني كان وقتئذ لم ينزل تحت احكامهم

(آلة الخياطة) وفي سنة ١٧٥٥ اخترعت آلة الخياطة في بلاد الانكليز

(الهيدروجين) وفي سنة ١٧٦٦ اكتشف المعلم كاوندش الطبيب الانكليزي الهيدروجين ويقال الايدروجين ايضاً ثم بعد ذلك اعني في سنة ١٧٧٦ اكتشف المعلم ماكير تركيب الماء من الاوكسجين الذي سبق ذكره

اكتشافه في القرن السابع عشر ومن هذا الهيدروجين وصنعه منها وبعده ظهر الشهير اليوزيه الذي كمال كياوي فرانسوا بتاج الشرف والفضل حيث ابدى المعارف الصحيحة المتعمقة بالتجليل والتركيب الثانوي للماء وكان ذلك سبباً لتولد الكيمياء الغازية

(انبوبة حمل الماء) وفي سنة ١٧٧٢ اخترع المعلم جون هوبنهرست انبوبة الحمل المائي لرفع الماء من الانهر ثم حسنّها موتيكولانيه الفرنسي ساوي (التروجين) وفي السنة المذكورة عرف الطبيب روثغور الانكليزي التروجين اي مواد النظرون ويسمونه ازوت ايضاً .
(فن النوم) وفي سنة ١٧٧٦ اخترع الطبيب مسر الالماني فن النوم وفي هذه السنة ايضاً وقيل بل في غيرها اخترع الطبيب ادوارد جنر الانكليزي تطعيم الجدري من البقر فانتجت عليه الدولة الانكليزية بمبلغ ٢٠٠ الف ليرة استراين

(سيارات جديدة) وفي سنة ١٧٨١ اكتشف المعلم هرشل الفلكي الشهير الانكليزي كوكباً سياراً سماه اورانوس وهو اول الكواكب المكتشفة حديثاً وقد مر ذكر هذا الرجل الفاضل في الكلام على النظارات في القرن الماضي قال بعض المؤلفين ان هذا المعلم كان قد اتقن النيلوسكوب اتقاناً عجبياً تمكنت بواسطته الابصار من الرؤية من مسافات لا تكاد تدرك من اقصى السماوات بحيث لو وجد انسان اخر امكنه ان يتقن هذه الآلة كاتقنوا لجوز العنل ادراك اقرب الكواكب اليها ادراكاً كلياً حتى يعلم ان كان فيها سكان او نبات او غير ذلك ثم بعده اي في سنة ١٨٠١ اكتشف رجل اخر يقال له بياضي كوكباً آخر سماه سريس وبعد ذلك بسنة اكتشف رجل يقال له اولبرس كوكباً ثالثاً سماه بلاس ثم بعده بستين اكتشف فلكي اخر يقال له هاردنق كوكباً رابعاً سماه وستة وبالاجمال لزال الفلكيون يكتشفون نجماً بعد نجم الى ان صار والحالة هذه عدد ما اكتشفوه الى وقتنا هذا يتجاوز ١٠٠ نجماً غير المعروف قديماً

(اجنحة الطيران) وهي اجنحة صناعية يتكف الانسان بواسطتها من الطيران والمسير في الهواء واول من اخترعها كان حنّاداً فرانسوياً يقال له باسنيه ثم اشتغل بانفانها بالانشار وهو رجل فرانسوي ايضاً ولا زالت تتداول عليها افكار المجتهدين الى ان تمهوها في سنة ١٨٧٨ على ما روتة بعض الجرائد

(البالون) وفي سنة ١٧٨٣ تخفق الاخوان مونتيفولفبه الفرانسوايان خفة الهوا بهدده من حرارة النار فخطر لها عمل القباب الطيارة المسماة بالبالون وصعدا فيها الى الجوّ في تلك السنة وبعد زمن تجاسر بعض الناس على الارتفاع فيها وكان ذلك اولاً بواسطة النار ثم لما ظهر الهيدروجين المار ذكره خطر بالبال استعماله بدل النار فاستنبط الماهر شارل المشهور بمسافر الهوا قبة من الحرير مصنوعة بكيفية لا ينفذ الغاز من مسامها وملاً القبة بتلك المادة التي هي الخفيف من الهوا وارتفع فيها الى الجوّ هو ورجل اخر من اصحابه يُسمى روبيل جالسين في زورق معلق فيها ومن ذلك الوقت اشتغل الناس بانقاذها الى ان صعد فيها الماهر غالويساك في سنة ١٨١٤ صعوداً عجيّباً لم يفعلها احد قبالة فيبلغ في الجوّ اكثر من ٧ الاف ميتر ورأى في هذا البعد ان السماء التي نشاهد ما زرقاء سوداء مظلمة وعسر عايد التنفس جداً وكان يتكلم بصوت عالٍ فلا يسمع من كلام نفسه الا يسيراً

(المطابع) وفي سنة ١٧٩٠ اخترع رجل يقال له نيكولسون من انكلترة المطبعة الميكانيكية وهي تطبع من ذاتها بدون مساعدة الابدادي . ثم في سنة ١٧٩٦ اخترع رجل يقال له لويس سنفلدر من مدينة براغ بالمانيا المطبعة الحجرية المسماة بلغتهم ليطوغرافيا

(الكهربائية) وفي السنة المذكورة ايضاً اظهر طبيب من بولونيا يقال له غلواني او كلفني الكهربائية الحيوانية فنسبت اليه وقبل لها الغلوانية وهذه الكهربائية تحصل باللمس ثم وضعها المعلم فولطه ووضع العمود الكهربائي الذي ادى كرويكس هانكس الانكليزي لعل الحياض الكهربائية على ما يذكر ذلك في القرن التالي وكان قبل ذلك اصطنع المعلم كوينوس الحجر الكهربائية ويقال لها زجاجة ليد نسبة الى القرية التي عملت فيها

(البيل) وفي سنة ١٧٩٤ اصطنع رجل يقال له ولتا من فرانسوا البيل الذي يستعمل للتدوير والتلفراف الكهربائي

القرن التاسع عشر

يمتاز هذا القرن بتقدم العلوم والفنون والمولفات العمومية والمباحث التاريخية تقدماً يفوق جميع الأعصر السابقة ثم وباتفاق جميع الدول المتقدمة في أوروبا على ابطال الاسترقاق والغاء استعباد النوع البشري على وجه الاطلاق وعقدت لذلك بينها معاهدات قوية اشتركت فيها الدولة العلية العثمانية والمخدوية المصرية وبالجملة حكومة زنجبار الكائنة على شطوط افريقية الشرقية ايضاً

(الفلسفة) غير ان الفلسفة الجرمانية العقلية التي ابتدأت في القرن الماضي قد كانت في بداءة هذا القرن اضرت بالديانة في أوروبا وتسلط الكفر بوقاحة على اشهر مولفات المالك المتقدمة حتى ان الفلسفة والسياسة كادت ان تتوما مقام الدين لولا ظهور بعض العلماء الكبار مثل شلير مكر و جان ودبني وهنكستبرغ وتولوك الذين حاموا عن روح الديانة بجرارة وفي الحال على هذا المنوال الى اواسطه ومن ثم تغير نوعاً وظهر شي من النشاط في فروع الديانة المسيحية الثلاثة اعني الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنيسة الارثوذكسية اليونانية والكنيسة الانجيلية البروتستانتية واخذت جميعاً في بث التعاليم الدينية ونشرها في اقطار الارض على ما يذكر ذلك في ما يأتي

وقد كان شرع كثيرين من كفرة الفلاسفة في ايجاد مبدأ فلسفي لتاريخ العالم العمومي اي ايجاد الغاية التي لاجلها وجد الجنس البشري وبوجبهما تحدث جميع حوادث التاريخ لكن حبطت مساعيهم وفشلت اروهم اذ انهم لم يتدروا

ان يحصلوا على مبدأ كلي نظير الموجود ضمن دائرة الدين قال صاحب الاصل انه لا نظام هردر الذي جعل تقدم الجنس البشري هو الغاية العظمى ولا نظام شليغل الذي جعل الاتحاد المقدس في اثبات المحكم المطلق في السياسة والديانة هو المبدأ الكلي . ولا راي هيغل البروسيانى الذي وجد هذا المبدأ في نواحرية الموافقة للعقل محتجاً بان هذه الحرية قد تمت في الحكومة البروسيانية . ولا نظام كومتى الفرنساوي الذي انكر الفاسفة العنلية واللاهوت وجميع العمل الاصلية العمالة ونسب الى العلم الايجابي المطلق قرة تجديد الجنس البشري ولا تعاليم السوشياالين اي الكومون الذين يجعون كل شي مشتركاً ويجسسون موازنة الحقوق والوظائف الطبيعية الغاية الوحيدة للتاريخ البشري . ولا نظام اخر من النظمات العالمية امكنة ان يفسر الحوادث التاريخية باسرها كما يفسرها كتاب الله وحده . ونقسم الفلسفة الشائعة في هذا القرن الى عدة اقسام وهي

(١) الفلسفة الفرنساوية التي تقدم ذكرها عند الكلام على فرانساف

القرن الماضي كان ظهورها في سنة ١٧٩٦م وهي فلسفة مادية تنكر وجود الله وتعلم الناس العبادة على اساس الديانة الطبيعية ورفض كل اعلان الهى وكان انعقد لها في باريس عشر جمعيات تحمت ادارة رجل يسمى لبيونسمت جمعيات المحبة الالهية والانسانية واستمرت الى سنة ١٨٠٢ عندما نهض شاتوبريان احد رجال الفرنساوية للحماماة عن الايمان ولأن كان الكافر الشهير فولني لا يزال ينادي بان كل عقل وكل فكر انما هو مشتق من المادّة

(٢) الفلسفة الاكلينيكية وهي ان فيكتور كوسان في خطاباته سنة ١٨٢٨

حول مجرى التفلسف الفرنساوي حيث علم بساطان الحق المجرّد وقاوم الفلسفة المادية المذكورة حتى خرقت فلسفته وان كانت غير منتظمة عقول الفرنساويين اجمع ونسبة هذه الفلسفة الى الدين هي سلبية لا ايجابية اذ انها ترفع شان العقل المطلق واما الشهير اوغسط كومتى الذي مرّ ذكره فاختلف مبداه عن مبدأ هذا المذهب العقلي حيث انه ذهب بان الطريقة الوحيدة للتفلسف هي استنتاج

المبادي من مجموع الحوادث والاختبارات وانكر جميع الملل الاصلية وجميع
النفاعيل الفعالة وكل اللاهوت والعلوم العقلية على ما ذكرنا انها حتى انتهى الى
انكار وجود الله سبحانه بكل وقاحة.

(٢) فلسفة فرانسوا الك. ثوليكية وهي فلسفة تقليدية واصحابها يقاومون
الفلسف العنلي واشهرهم ديونال ووتين وديستير وكراتري واما ديلامني
فرفض في نظامه الفلسفي مدا التقليد الذي كان قد حامى عنه بنصاحة.

(٤) الفلسفة في سكوثلاندا وانكلترا وهي ان علماء الانكليز اشتهروا في
الفلسفة العقلية جدا في هذا العصر واظهر وربرد في سنة ١٧٩٦ اراء سديتة احييت
فلسفة افضل في فرانسوا وابطالباثم حامى دو كمال سفرتت عن هذا النظام
بخطابات فصيحة في سنة ١٨٢٨ وكان توما برون قد ضاده قبل ذلك اعني
في سنة ١٨٢٠ بدون نجاح واما السيد وليم هاملتون فقد حدد الفلسفة
السكوثلاندية بدقة عجيبة وعلم نام اذ انكر كل معرفة ايجابية ومجردة من جهة
ما هو غير محدود ومطلق وجعل الايمان اساسا للفلسفة والمدبانه معا واما
نشالهرس فدافع عن المسيحية مهاجمات العلوم الطبيعية

(٥) المذهب المحسي في انكلترا اشتهر فيو بوحناس تورد ميل الذي تبع
كومبي وكولريج واحيي روح التخيلات العقلية غير انه لم يؤسس مذهبيا فلسفيا
والكنيسة العريضة في انكلترا (وهي غير العالية والواطية) تنسب بداءها لفلسفة
(٦) الفلسفة الجرمانية وهي الانتقادية والتخيالية المنكرة للوحي التي ظهرت
في القرن الماضي وقد تجددت قواها في هذا القرن من ادبيات كنت اذ انه
جعل العقل الحاكم الاعلى من جهة الحق بانكاره على امكانية معرفة الامور في
حد ذاتها معرفة موكنة وجعله طبيعة الانسان الادبية اساسا لكل برهان على
وجود الله والحربة وخلود النفس واما بوحنافشتي الذي ولد في سنة ١٧٦٢
ومات سنة ١٨١٤ فجعل ذاتية الانسان هي المقدمة المسلم بها في الفلسفة ثم شرح
تعليم التصور الداخلي وفي بداءة تعليمه جعل النظام الادبي في العالم الها ولكن

سلم أخيراً بوجود الله حقيقي وفريدريك يعقوبي الذي مات سنة ١٨١٩ حاجاً في المحاسبات الدينية واعتقد ان لكل انسان تصوراً داخلياً بقدر على ان يتصور به الاله وضاد التعليم التخيلي والبايتيستي . وشأن ذهب الى ان الارادة مطلقة والله حر لكن فيه تعالى سبب واساس يستلزمان وجود الطبيعة التي تخرج منها ضرورة . ثم قام هيكل سنة ١٨١٨ وعلم بان الله لم يشعر بشيء قبل وجود الانسان وان اصل كل فلسفة وكل وجود هو مجرد التصور وقام البراهين على وجود الله والحرية والخلود التي بناها كت المار ذكره على العقل العملي وانصبت فلسفته الى كفر مبين . واما ستروس وهو من تلاميذ هيكل فشرع في انتقاد الكتب المقدسة وحول الانجيل الى حكايات وامثال اذ اعتقد انه لا يمكن تصديق وجود محجة اوثوبة او رمز ثم ظهر فريدريك بورورف في التاريخ الانجيلي وركب تاريخاً جديداً يوافق فلسفته ورفض بعض ما ورد في الانجيل والرسائل وتصرف في الكتب المقدسة تصرفاً قحاً مضاداً لكل المبادي التاريخية والعقالية

(٧) الفسفة الايطالية وهي ان كالوي الذي ولد سنة ١٧٧٣ وتوفي سنة ١٨٤٦ علم في نابولي فلسفة ريد والاب فنتورا فسر كل نوع من الفلسفة اياً كان بحسب ما تقتضيه قوانين المجمع التريديتي . واما الفيلسوفان الايطاليان وهما جيورني الذي توفي سنة ١٨٥٣ وسرباني الذي توفي سنة ١٨٥٥ فانهما حاميا عن الديانة ضد الفلسفة العقلية والباشيائية وما قاله جيورني ان علة كل وجود وجود وان تصور وجود اسي اخر تصور العقل

(٨) الفلسفة السوشياستية اي الكومون وهي اشترك الكل في كل شيء فالكونت سانسيمون الذي مات سنة ١٨٢٥ شرع في انشاء مسيحية جديدة بواسطة رفع حقوق اصحاب الاشغال وتجديد حقوق الجسد فنظم نظاماً سياسياً حاج به قومة تحت رياسة بازارد وانفانتين على حكومة فرانسوا وعصوها فاخضعتهم الحكومة سنة ١٨٢٢ ثم ظهر روبرت اوبن ونظم جمعية لاجل تحديد نظام

الاشغال والمهنة الاجتماعية وتبعه نحو نصف مليون من الناس في انكثرة . وفي سنة ١٨٥٤ علم بمجاورة ارواح الموتى . واما نظامه الادبي فليس هو الا خراب وفساد . وهناك رجل اخر يقال له كارلوس فورير جمع جمهوراً في رامبولي سنة ١٨٢٥ قدره ١٨٠٠ شخص لاجل امتحان مبادئ العيشة المشتركة فعملوا كل شيء مشتركاً ولكن هذه التجربة ذهبت سدى . ثم ان لويس بلانك شرع في الثورة الفرنسية التي وقعت في سنة ١٨٤٨ بان يتم بالفعل هذه المبادئ وبذلك جعل الانقلاب ونادي برودون بان كل ملك سرقة وليس لاحد حق ان يقتني راس مال ثم ظهر الكومون الذي انتشر حديثاً بجمعية الانترناشنال التي جلبت على ذاتها العار وبغضة الجنس البشري لها بما ارتكبتها من الفواحش البربرية في احراق مدينة باريس سنة ١٨٧١ كما يتضح ذلك مما ياتي

وهنا نذكر في مقابلة ذلك توضيح ما اشرنا اليه في ما مر من النشاط الذي اظهرته فروع الديانة المسيحية في بك التعاليم الدينية وذلك بواسطة جمعيات خيرية تربت في اوربا لهذه الغاية وكما انه لا يوجد في عصر من الاتصار السالفة امتداد للكفر بهذا المقدار يحاول اربابه نشره في العالم كذلك لا توجد جمعيات هذا مقدارها لتأيد الديانة ونشرها في الربع المسكون عند كل البشر اذ انه يوجد نحو ٣٠٠٠ كاهن معينين لهذا العمل من الكنيسة الرومانية و ١٥ جمعية لها ١٥٨١ مبشراً و ١٢١١ مساعداً لهم بصرف عليهم نحو مليون ونصف ليرا استرلين من الكنائس الانجيلية . اما الكنيسة اليونانية فلها في روسيا جمعية لانتشار الكتب المقدسة ومبشرون لاجل تبشير الامم في الصين واليابان وبلاد الفرس والقوقاس وسيبيريا وكشتكا وهم جميعاً سائرون على قدم النجاح بين الوثنيين هناك

اصول شعوب الدول الافرنجية الحاضرة. ومراكز تقدماتها
الحالية في القرن التاسع عشر وفيه مطلبان

المطلب الاول

في الكلام على دول اوروبا القديمة التي تأسست من الشعوب المتبربرة
الهاجمة على الامبراطورية الغربية

(ابطاليا) وكانت ايطاليا لحد اواسط القرن التاسع عشر منقسمة الى
سبعة اقسام كما يستبين ذلك ما تقدم من الكلام عليها الى نهاية القرن الثامن
عشر وهي اولاً ساردينيا اوساردو ثانياً لومبارديا ثالثاً بارما رابعاً مودينا
خامساً توسكانا سادساً بلاد الكنيسة الرومانية سابعاً نابولي وسكانها جميعاً
تعرف اصولهم ما ورد في الفصول السابقة ايضاً وجهه ١٢٩ و ٢١٦
وكان من اشهر هذه الاقسام قسم نابولي الذي من مدنيو كستل امارة
المشتمرة بموت بليناس القديم فيها بالهرم واغريجان التي بجزيرة سيسيليا المسماة
بجزيرة صقلية وقد خرج منها امفيدوكل الفيلسوف الذي تكلم على الجواهر الفرد
بعد فيثاغورس ومدينة سبراقوسة وطن ارشيدس المهندس الذي قتله احد
الجنود الذين كانوا محاصرين هذه المدينة اكونو لم يجاوبه على خطابه اذ كان
مدغم الاشتغال باختراع الآلات الحربية وصنعها للذبح عن تلك المدينة في

سنة ١٢٨٠م ومن مدنو ايضاً ترنتة التي بالقرب منها توجد عناكب تسمى ترنتولة كانت سبباً لكثير من الحكايات الممتعة ثم تبين الآن ان سم هذه العناكب ليس خطراً الا على بعض هوام تنغذي به

وكان هذا القسم بعد اجلاء الدولة الارغوانية محكوماً بملك من عيلة بربون ملوك فرانسوا وكريسيه مدينة نابلي التي ينسب اليها وهي من مدن اوروبا الظريفة واكبر مدينة في ايطاليا وبها كثير من المباني العظيمة وبيوتها وقصورها من اطراف البيوت والتصوير لكنها لا تصل الى درجة رومية وبها برابي ظريفة واهرام حسنة وحفريات تأتي اليها الماء من عيون بالجبل وجاراتها نظيفة مباحة بحجر اسود تقذفه جبال النار وبها ديوان علوم جامع ومدارس علوم وعدة مجالس مشورة للعلماء وكنبجانات ملكية ورواق فيه اثار القدماء المستغربة وقايرينات للحريز والكتان والقطن والجوخ والورق والآلات الحديدية وصاغة للذهب والنضة ومعامل للشعيرية المسماة مقرونه وهي كثيرة التجارات واهلها ٣٥٠ الف نفس وفي مدينة اخرى من توابعها يقال لها سلرنة مكتب طب شهير من القرن الخامس للميلاد وفي مدينة غيرها تسمى كوزنتة اكدمية (اي مجمع علماء) من اشهر اكدميات اوروبا

وقسم ساردينيا الذي من مدنو جنوينة التي خرج منها كرسيف كلب الذي اكتشف بلاد امريكا في القرن الخامس عشر وكريسي هذا القسم كان مدينة تورين الظريفة تحنوي على ٢٠ الف نفس ويوجد فيه من المدارس الجامعة ثنتان واحدة في تورين المذكورة والاخرى في مدينة يقال لها كغلياري واخبرنا جمع هذا القسم كل ممالك ايطاليا وجعلها ملكة واحدة كما ينضح ذلك في ما ياتي

وقسم لومبارديا ويقال له لنبرد البنادقة او ملكة وتديق الداخلة تحت حكم النمسا خرج منه عدة مشاهير في الزمن القديم كالحكيم بليناس الذي مر ذكره في الكلام على نابولي وهو من مدينة يقال لها ورونة لازال يوجد بها ميدان

عظيم كان الرومانيون القدماء ينصبون فيه القتال بين الوحوش وخرج منها ايضاً المورخ تينلوه الذي مر ذكره في الكلام على المعارف عند الرومانيين والمعاربلديو الذي تعلم الهندسة من المباني القديمة الموجودة في مدينة ويسنسة التي هي وطنه والشاعر ورجيل وقد مر ذكره مع تينلوه المذكور

وكان كرسي هذا القسم مدينة ميلان وتحتوي على ١٤٠ الف نفس خرج منها عدة باباوات وغيرهم من اكابر الافرنج وقد اصبحت منها الاداب منذ انقراض العائلة السفسورية في القرن السادس عشر كما اصبحت فيها ايضاً من نابلي بعد اجلاء الدولة الارغوانية غير انها لازالت الى الآن من اطرف مدن ايطاليا وفيها عدة كنائس جميلة كانت سلاطين النمسا تلبس تاج مملكة ايطاليا في واحدة منها تسمى سنت امبروازة وبها تياترو عظيمة ومن توابعها مدينة البندقية التي اليها ينسب القسم بتمامه مبنية على ٧٢ جزيرة فيمكن للانسان ان يسلك في جميع جهاتها بزوارق صغيرة وفي هذا القسم يوجد مدرستان جامعتان واحدة في قسم مملكة بادوه والثانية في مدينة بادية ومعامل للبرائي والبلور في مدينة موراني

اما بلاد الكنيسة الرومانية فكان كرسي مملكتها مدينة رومية التي بعد ان كانت فيما سلف قصة لا عظم مالك الارض كما يعلم ذلك من الابحاث التي مرت في كثير من محلات هذا الكتاب وخرج منها عدة من مشاهير الرجال العظام لم تكن لحد سنة ١٨٦٩ الا قصة لهذا القسم فقط على ما ذكر ومركزاً للاخبار الرومانيين روساء الديانة الكاثوليكية وكان من توابعها مدينة فينزا التي حدث فيها الخنزف المطلي الذي يسمونه الفينس نسبة اليها وتيبولي ذات الوضع العجيب حتى ان هوراس الذي مر ذكره في الكلام على المعارف عند الرومانيين اتخذ له فيها بيتاً في الخلا ومدينتا بولونيا وأوربين اللتان كانتا وطناً لكثير من مشاهير الافرنج على ما تقدم

واما شهرة رومية نفسها قديماً وحديثاً فهي غنية عن الاسهاب وهي لازالت

احدى مدن الارض الغربية بكثرة مبانيها العجيبة وجمال مياكلها الفاخرة وقصورها العظيمة وما فيها من اثار القدماء وحوزها للتحف المستظرفة التي هي ثمرة الصناعة حتى ان الفنون التي يجري فيها الماء اليها عدّها بعضهم من عجائب الدنيا السبع على ما سبق ذكر ذلك في محله قال بعضهم ان عدتها ٢٤ واطولها يبلغ نحو ٦٠ ميلاً فانه في بعض المواضع جبال شاهقة مثقوبة لاجلها وفي مواضع اخرى تقطع اودية عميقة على قناطر عظيمة يبلغ ارتفاعها ١٩٠ قدماً وفي هذه المدينة ايضاً كنيسة الرسولين بطرس وبولس التي تم بناؤها البابا لاون العاشر كما ذكرنا ذلك في ما مرّ وهي اطرف كنائس الدنيا واجملها واكبرها

ويوجد في هذه المدينة مدارس كبيرة للطائفة اللاتينية وكانت دولة فرانسوا انشأت فيها مدرسة لتعليم الفنون المستظرفة ايضاً وكذلك يوجد في بولونيا التي مرّ ذكرها مدرسة جامعة من اقدم مدارس ايطاليا واكدمه علوم ومع كل ذلك قد ذكر في بعض النشرات بانّه في سنة ١٨٦٤ كان يوجد في الايلات المختصة بهذا القسم من كل ١٠٠٠ نفس ٩١٢ نفساً لا يعرفون القراءة والكتابة بمقتضى دفاتر الحكومة بعد احصاء كل الشعب والباقي القليل يُحسب بجملته اهل الاكايروس ما بين اساقفة وقسوس ورهبان وراهبات يوجد منهم نحو ٦٠٠٠ نفس في ذات مدينة رومية وحدها

واما قسم التوسكانا فكانت قاعة دوقيتو لحد سنة ١٨٥٩ مدينة فلورنسا وهي موضوعة في وادي نهر ظريف وفيها عدة اكميات وكتبجانات وقصور منيفة وبساتين انيقة ظريفة ومن مبانيها كنيسة الاصايبه وكنيسة سنت لورانت التي بناها البابا لاون العاشر وقد ذكر ذلك في محله ما مرّ وسراية الدوق الاكبر المشتملة على مجمع التصاوير والتماثيل العظيمة واثار القدماء وبها كثير من احوال الحرب وقاشه بسى افلورنس وتجاريتها عظيمة وهي وطن امريق الذي دخل بلاد الدنيا الجديدة وعرفها وألف فيها رحلة فاشتهرت باسمه على ما تقدم ايضاحه في الكلام على اكتشاف امريكا ويوجد في البلاد التابعة لهذا القسم من

المدارس الجامعة واحدة في سيانة واخرى في بيزة التي يوجد فيها ايضا قلعة عجيبة مبنية من ثمان طبقات مائة على احدى جانبيها كأنها آخذة في السقوط فيخاف الغريب ان يمر بجانبها ذكرها بعض المؤلفين فقال هي كنيسة عظيمة ذات ضومعة تسمى المائلة وهي بروج النواقيس وبها مقابر تسمى كمبوستونتل اهل بيزة تراهها من بلاد القدس في ٥٠ غليوناً ومن بيزة هذه خرج جالينوس الطبيب ايضاً

• وكان قد طرأ على سكان اغلب هذه الاقسام المذكورة الرق والاستعباد مما عرض على حكامها من التغيير والانقلاب حتى صاروا في حالة شتان ما بينها وبين ما كانوا عليه من قبل نعم ان بعض العلوم والفنون كان لازال مخدوماً في بعض اقسام منها لكن بهجة ليست في رونقها الاول قال بعض المؤلفين ان سبب عدم نمو العلوم في هذه المملكة (بهنك الازمنة الاخيرة) هو فقد الحرية ولذلك ترى اكثر اهلها الان مع ما هم عليه من المحدة والفكامة في حالة الجهل والغباوة وترى رهبانها الكثيرة من الذكور والاناث وهم على ما قيل واحد في كل مائة رجل يتمتعون بخيرات تلك الاراضي المروية بالترع العديدة وغيرها من الوسائط الاخر المنسوب استنباطها الى الرومانيين القدماء لاجراء الماء من مكان الى اخر ويخطرون في طرقها الشهيرة التي اصطنعها اولئك الرجال العظام فهي تخرق الجبال بسراديب طول بعضها ٢٦ ميلاً وعلو بعضها ٨٠٠٠ قدم وتقطع الودية مجسور معتبرة ويسكنون في تلك الابنية الفاخرة البهية والنصور الواسعة السلطانية التي لا يوجد مثلها في العالم

غير انه لا بد ان يرجع اليها شيء من رونقها القديم اذ انه بعد ان انضمت اقسام توسكانا ونابلي وسبيليا الى ساردينيا في سنة ١٨٥٩ وصاروا جميعاً مملكة واحدة تحت سلطنة الملك ويكتور عمانوئيل ملك ساردينيا بسعي ونشاط الجنرال يوسف جاريبالدي انضمت اليها كذلك رومية وسائر البلاد التابعة لها بعد خروج العساكر الفرنسية الذين كانوا يحافظونها منها هتيب سقوط

نابوليون الثالث عن عرش المملكة الفرنسية في سنة ١٨٧٠ وصارت جميع اقاليم ايطاليا مملكة واحدة تحت تملك الملك ويكتور المشار اليه وقد كانت حسب الدبورة الموجودة في قسي ساردينيا ونابلي فقط عداً عن باقي الاقسام فوجدت ٢١١٩ ديراً للذكور و٢٧٢ ديراً للاناث وكان عدد الرهبان الساكنين فيها من الذكور والاناث نحو ٢١٠٠٠ وابراد هذه الدبورة جميعاً نحو ٥٢٢ الف ليرا فامر هذا الملك بضبطها وبترجيع الرهبان والراهبات الى عيالم وعين هذا الابراد المذكور لانشاء مدارس كبرى وصغرى لتعليم الشعب في الاماكن التي كانت تسكنها الرهبان واقام لها وزيراً خصوصياً لمناظرة احوالها فجلب هذا الوزير اليها من بلاد بروسيا وامريكا احسن نظام واحسن الكتب وبوجد الان فيها على ما ذكر في بعض النشرات المطبوعة في سنة ١٨٧١ ٢٥ الف مدرسة تحوي على ٢٢٠ الف تلميذ وابعاً هذا الملك في بلاده التعبد في جميع الاديان وكان قبل ذلك لا يباح فيها الا التعبد بالذهب الكاثوليكي ومن ثم اخذت اهالي المملكة الذين يبلغون والحالة هذه نحو ٢٧ مليوناً من النفوس في التمدن والتهديب

(فرانسا) واما فرانسا فهي البلاد التي كانت تسمى سابقاً غالة ودخلت تحت حكم الرومانيين منذ افتتاحها يوليوس قيصر الروماني ومكثت تحت حكمهم ٥٠٠ سنة فادخلوا بها غراسات كثيرة لم تكن موجودة فيها جلبوها اليها من عدة اقاليم مختلفة كما هو دأبهم في البلاد التي كانوا يفتخونها على ما ساقه الحديث فسبقت الاشارة اليه عند الكلام على حالة روسيا في القرن الخامس عشر ثم في القرن الخامس بعد الميلاد غلبت عليها قبائل جرمانيا المتبريرة وامتلكتها طائفة منهم تسمى افرنك فتسمت حينئذ فرانسا ومن ذلك الوقت الى الان لم تدخل في يد دولة من الدول الغربية وقد سبقت تفاصيل تقدماتها الى نهاية القرن الماضي ثم بعد الثورة التي جرت في هذه المملكة عند ختام القرن المذكور على ما تقدم ايضاحه قام فيها

نابوليون الأول من عائلة بونا بارتة بصورة رئيس او هو قنصل أول على الجمهورية الفرنسية وبعدهم بالنالي تولى امبراطوراً في سنة ١٨٠٤ وكان في مدة قنصلته واعداد الى فرانساً مهاجرى الفرنسية الذين كانوا تزحوا منها في زمن الثورة وردهم الى اوطانهم واعداد كذلك الدبانه ورتب المدارس والمواد التعليمية ترتيباً جديداً ونظم المدرسة التي كانت احداثها مشورة السنن الاهلية وهي مدرسة كليات العلوم ورتب عمارة الانسنيوت وهو مجمع العلماء الذي انشأته الحكومة الادارية وجمعت فيه مشاهير العلماء العظام واكابر الادباء الاعلام واحداث رتبة الشرف المسماة ليجيوند بنور وجعل لها علامة تشريفية تعطى لمن نصح في خدمته للوطن واصلح الطرق والمواني والقلاع في المملكة وشرع في انشاء مجموع شرائع وقوانين (وهو الكوتيشي) اخذته اغلب الممالك الافرنجية انموذجاً وعملت به

ثم في سنة ١٨١٤ سقط هذا الامبراطور عن عرش الامبراطورية وتولى عوضه كرلوس العاشر من عائلة بوربون وصار حكم فرانساً من نوع الملكي المنبذ ولكن لم تطل المدة حتى تعدى هذا الملك شروط المملكة وابتدأ في المظالم فقام عليه الشعب وخلعوه من الملك في سنة ١٨٣٠ واقاموا مكانه لويس فيليب من عائلة اورليان وهي فرع من العائلة الملكية المذكورة ثم في سنة ١٨٤٨ طردوه من الملك فهرب الى بلاد الانكليز واعد الحكم الى النوع الجمهوري تحت رئاسة لويس نابوليون الذي صار اخيراً امبراطور الفرنسية وتسمى نابوليون الثالث وفي ايام هذا الامبراطور ارتقت فرانساً الى اوج الفخار مادياً وادبياً وزهت زهاء لم يسبق له نظير حتى صارت باريس في ايامه عبارة عن محكمة تُنصل فيها منازعات قوات الارض

وهذه المملكة التي كانت تحضري على ٢٨ مليوناً و٢٨٣ الفاً من النفوس يتحكم فيها المذهب الكاثوليكي وبها كثير من البروتستانت والحرية مباحة فيها لسائر الاديان واهلها لطفاً بالطبع واصحاب نخوة وشجاعة في الحروب وهم من المروءة وشدة البأس على جانب عظيم ولم يرغب في الملاهي والملاعب والغنا والرقص

ولا يرغبون في السفر ولذلك كانت الطرق في بلادهم غير جيدة الى أن اخذوا منذ أكثر من ٢٠ سنة في اصطناع طرق الحديد المنتشرة الآن في اغلب جهاتها وقصبة هذه المملكة مدينة باريس وهي الثانية من مدن أوروبا بالنسبة الى الانساع والسكان فيها أكثر من مليون من النفوس ومحيطها ٢٠ ميلاً وفي مركز تمدن الافرنج وعلومهم وادابهم المستظرفة خرج منها مشاهير كثيرون من عظمائهم وهي جميلة البناء مشحونة بالنصور والجنائز ومرايح اللهب والطرب ومواضع التمتع وبها قصر اللوفر الذي كان يحموي على تحف جميلة ثمينة وكنائس واديرة عظيمة ولشدة اعتناء اهلهما بكثرة في العلوم والفنون توجد بهامدارس عديدة ومكاتب مشهورة في كل مكان يوجد فيه العلم ومن هذه المدارس مدرسة كآية كانت تحموي على ١٠ الاف تلميذ ومكتبة يقال بأنه كان فيها مليون من المجلدات لحد سنة ١٨٦٧ ما عدا المكاتب الاخرى التي تحموي كتباً كثيرة حتى يبلغ عدد الجميع نحو خمسة ملايين وهي مشهورة ايضاً بكثرة المطابع وسهولة اكتساب العلوم لان أكثر المدارس والفاعات الخطائية تكون مفتوحة لافادة الجمهور والدخول اليها مباح لكل من اراد استماع الخطاب من غير مانع وكان انشائها الامبراطور نابوليون الثالث المار ذكره المعرض العمومي وهو قصر عظيم من البلور معد للفرجة على جميع محصولات العالم واعماله وصناعاته كما يتضح ذلك من الكلام على الصنائع في ما ياتي وكان شرع بعمل هذا المعرض في لندن قصة مملكة الانكليز قبل باريس لكن لما زاحتها عليه فرانسوا واعنتت به الدولة اعنتاه زائداً وانقضت حق الاتقان وكانت بلادها اقرب من غيرها لوجود اساكلها على بحر الروم فازت به وبمنافعه أكثر من غيرها

وما ذكرناه هنا جميعه هو بالنظر لما كانت عليه هذه المدينة قبل ما فعاه فيها الكومون بعد انتهاء محاربتهما مع المانيا في سنة ١٨٧٠ من الخراب والفظائع البربرية بمقتو منها أكثر ما تزينت به من الابنية الجميلة والاثار الجميلة التي تقدرت قيمتها بنحو ٢٠٠ مليون من الفرنكات مع ان الالمانيين لم يريدوا ان

يجوروا في اطلاق كرات المدافع عليها كيلا يخذشوا جمالها بخراب او تلف شيء من محاسنها اما الكومون المذكور فانه عمل فيها اعمالاً احزنت نفس اعدائها بحرقه قصر التويلرهي ومحل نظارة المالية وبالي روابال اي السراية الملوكية وسراية المحكمة ومكان ادارة البوليس ودار القضا وقصر اللجييونديورومجلس المحاكمات ومحلة الحسابات وقصر اللوفر المار ذكره الذي كان يشتمل على غالب التحف والاثار النفيسة كالتماثيل المسمى ابا الهول وهو من الصوان مستجاب من الديار المصرية والصور والتماثيل البديعة الصناعة التي اشتغلها المعلمان انكرو ودولاكروا والنفوس الحجرية التي وجدت في خرابات نينوى وبدايع اخرى من اشغال الرومانيين واليونانيين وجواهر واحجار كريمة منقوشة نقوشاً عجيبة في القرون الوسطى واواني فخارية من صنع المعلم برنردوس الشهير وكسروا عامود قانديم المقام تذكارة لنا بولايون الاول وهدموا الكنيسة المقامة تذكارة للويس السادس عشر وغير ذلك من حريق جملة تباثرات شهيرة وقشل عسكرية وطرق حديدية وحارات بجانتها فضلاء عن البيوت المنفردة التي اخنصوها بالحريق كبيت موسيو تيرس وغيره

لكن روساء الجمهورية الفرنسية الذين تولوا تنفيذ الاحكام في هذه المملكة بعد انتهاء الحرب بسقوط نابوليون الثالث اسيراً في يد الالمانيين واوهم موسيو تيرس المار ذكره فانه اجتهد في ابقاء الضريبة التي ضربتها المانيا على فرنسا في نظير مصاريف الحرب وقدرها خمس مايارات فرنك لاجل ان تقوم العساكر الالمانية من بلاد فرنسا قبل حلول الاجل المعين لدفعها وثانيم المرشال ماكاهون الذي تولي بعك ولا زال حتى الان فانه اخذ على نفسه اصلاح احوال هذه المملكة وترميم شعنها واعادة ما اندثر من مفاخر مدينة باريس وزينتها وبذلك اظهرت الامة الفرنسية صبرها وعظم اقتدارها لانها مع ما قامت به من ابقاء هذه الضريبة الفاحشة وخسارتها مقاطعتي الازاس واللورين اللتين تخنويان على ١٤١٦٨٠ من النفوس بضمها الى ملكة المانيا

على منتضى شروط المصالحة التي ابرمتها المانيا عليها قد ظهر منها الآن من الجهد والاجتهاد في اتمام هذه المشروعات العظيمة وغيرها ما يعدُّ من خوارى العادات والمكنة البشرية كأنها لم تعبأ قط بشيء من هذه النوائب بل قد روت بعض الجرائد ايضاً انها بنت جديثاً قبة جرس في كاتيدرال رواف علوها ٤٩٢ قدماً من الحديد المصبوب مع ما هي فيه من الحالة التي اشرنا اليها

ومن مدن فرانسايضاً مدينة ليون التي هي من امهات مدن هذه المملكة وثاني مدينة من مدنها نظراً لعارتها وبراعتها في الصنائع والتجارات ويوجد بها من المعامل ٢٤ الف عدّة اودولاب وكذلك في مدينة مرسيليا ذات الميناء العظيمة على بحر الروم تسع الفاً وما بين سفينة وهي اقدم مدن فرانساي بناها مهاجرو اليونان سنة ٦٠٠ ق م توجد معامل كثيرة ايضاً ومحل للكرتينا بعد من منتزهات اوروبا ومنها خرج عدّة من مشاهير الفرنسيين وبلي هذه المدينة مدينة بردو وهي ايضاً ذات ميناء تسع الف سفينة ويمكن السفر منها الى بحر الروم بواسطة ترعة لبغدوك وفيها يصطنع الخمر المشهور وهي ذات تجارة عظيمة واغني مدن المملكة ومن مدن فرانسايضاً مدينة طولوزة ذات المدرسة العظيمة التي هي اقدم مدارس اوروبا وتسمى مدرسة الالعب انشاها اكلنيس بزورة فكانت اول اساس وضع في فرانساي للفنون وللاداب ومن هذه المدينة خرج كذلك عدّة من اكابر الافرنج ومنها مدينة متس او متز وفيها مكاتب للعساكر الطوبجية والمهندسة الحربية ومدرسة سلطانية ومجمع علماء عظام وخزانة كتب تحوي على ٦٠ الف مجلد ورواق للطبيعيات ومراتبها الثلاث وبها ابنية مشيد منها كنيسة عظيمة مبنية بالبناء القديم ومنها مدينة اجاشيا بجزيرة كورسيكا التي ولد فيها نابوليون الاول ومنها مدينة استراسبورغ ذات الميناء في العظيمة وفيها احدث يوحنا غوتفريد المينسي الطباعة. وهذه المدينة ومدينة متز المار ذكرها ليستمان من المدن الفرنسية وانما الحقتا الى فرانساي في القرن السادس عشر وقد خربتا خراباً مريعاً في حراية سنة ١٨٧٠ حتى ان استراسبورغ هذه خصص لها امبراطور

المانيا ٥٠ مليون فرنك من اصل التضمينات التي اخذها من فرنسا نظير ما اصابها من الاضرار بعد ان سلخها عن فرنسا وضمها الى بلادها. وفي هذه المملكة توجد ابراج وقصور وحصون وابنية حسنة جداً ليس لها نظير في الدنيا وكثير من الآثار القديمة مثل قبور وسراديب وهياكل ومجاري للماء وحمامات من بناء الغالة والرومانيين القدماء و ٢٤ نبعاً معدنياً اكثرها تحت مناظر اطباء مفاين من طرف الحكم لاجل صحة المرضى الذين ياتون اليها

وذكر في احدي الجرائد المنتشرة في سنة ١٨٧٠ بان دولة فرنسا كانت صرفت في سنة ١٨٦٥ (١٢) مليوناً من الفرنكات في سبيل التعليم وكان عدد المدارس العمومية والخصوصية في سنة ١٨٦٦ (٧٠٦٧١) مدرسة يوجد بها من التلامذة ٤٥١٥٦٧٦ وعدد المدارس الرشدية فيها ٢٢٥٨٢ وعدد تلامذتها ٨٢٩٥٣٥ وقامت الدولة بمصروف ١٧٦٧٢٥١ تلميذاً اما المدارس العالية جداً فقد اُقيم منها جديداً مدرستان لتعليم القوانين (الشرائع الفرنسية) في دوي وفي نانسي وثلاث مدارس لعلم المعاني والبيانات والمنطق في كلرمون ودوي ونانسي وخمس مدارس للفنون والعلوم التعليمية في كلرمون وليل ومرسيليا ونانسي ولوبير وعدد تلامذتها جميعاً في سنة ١٨٦٧ كان ٧١١٥ تلميذاً

واكثر اهالي البلاد يعنونون في الفلاحة والزراعة وقد بلغوا درجة عالية في هذه الصناعة ومع انهم لا يرغبون في التجارة فقد تقدموا فيها كثيراً من برهته ليست اكثر من نصف قرن حتى صاروا من اشهر اهالي اوروبا في الامور المنجارية ولم انوال وورش ومعامل عديدة لاربابها اليد الطولى في الصنائع الدقيقة ولكن اكثر معمولاتها يُقصد به الظرافة اكثر من المنفعة والمناحة اللتين تعتمدهما الانكابتز واصول هذه المعامل هي معامل السبك والحديد وورش الاسلحة والقناديل الافرنجية وقبريقات الساعات والطونج والصاغة والقزاز والفخار والصيني والبلور والتلجيات والصيدلانيات وورش الصباغة والورق والطباعة

والحرير والكتان والشبيكة (التول) والجوخ وقاش القطن والصوف
والسجادات والبسط والعرق والزيت والصابون وتكرير السكر والملح ومعامل
النشادر والديغ والنخل والطواقي الافرنجية وبرانيط النساء وحروف الطباعة
والكتب والحلي وامتعة البيوت التي تُعمل من اخشاب غاباتها مثل الصناديق
والطاولات الافرنجية والكراسي والاسيرة وغير ذلك ومن اشجار هذه الغابات
ايضاً نوع من شجر البلوط قشره هو النمل

(اسبانيا) واما اسبانيا فكانت في الزمن القديم جزءاً من المملكة
الرومانية ايضاً استمرت خاضعة لها مدة ٤٠٠ سنة ثم استقلت بذاتها الى ان
استفتحها العرب في الجيل الثامن لما دخلها طارق بن زيد في خلافة الوليد
بن عبد الملك بن مروان سادس الخلفاء الامويين لكنهم لم يملكوا على البلاد
كلها بل بقيت الاهالي الاصلية في شمال المملكة وفي الجبال والاماكن المستوعرة
وكانت الخلفاء من بني امية يرسلون اليها عمالاً من دمشق الى ان انقرضت
دولتهم وخلفتهم الدولة العباسية فقام عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن
عبد الملك الأموي ونقل الملك اليها وعصى الخلفاء بني العباس فصارت الخلافة
الاموية في المغرب والعباسية في المشرق وسموا تلك البلاد بلاد الاندلس وكان
تخضع في مدينة قرطبة واستمرروا على ذلك الى اوائل الجيل الثالث عشر حينما
نقوى عليهم اهل البلاد الاصليون وطردوهم منها ومن ثم اخذت اسبانيا في الارتفاع
والنقدم وقويت شوكتها جداً وامتلكت املاكاً واسعة في امريكا عند ما اكتشفها
كرستف كولمب بمساعدة الملكة ايسابلا على ما تقدمت تفاصيل ذلك في الكلام
على القرن الخامس عشر

ثم بعد ذلك اخذت هذه المملكة في الانحطاط حتى صارت الان لا تحسب
بين الاقربان المعتبرة واهلها في حالة برئى لها وذلك من جراء الحروب الداخلية
وكبرياء الاهالي والتعصب الواقع بينهم واغتهم منزجة من اللاتيني وبعض لغات

قبائل شمالية كانت تغلبت على هذه البلاد وسكنت بها وإنما لازال عندهم كثير من الأشعار والفنون الغوية وكان ظهر بينهم خلق كثير من المؤلفين المشهورين أخذوا جانباً كبيراً من علومهم عن العرب وبواسطتهم دخلت العلوم الى بلاد أوروبا على ما سبق ابصاحه في المطلب الاول من امتيازات القرن الخامس عشر

وكرسى هذه المملكة الآن مدينة مادريد وهي مدينة حسنة اهلها نحو ١٧٠ الف نفس وبها ابنية فاخرة من الدور والكنائس والمدارس والمكاتب والقصور وفيها كنجانة سلطانية لازال يوجد بها ٢٠٠٠ مجلد من خزانه كتب الخلفاء وعلى مسافة ٢٢ ميلاً منها دار من دور الملك تحسب من افخر ابنية الدنيا ومن توابع هذه المملكة مدن واماكن كثيرة مشهورة في الكتب العربية واهالي البلاد جميعاً نحو ١٧ مليوناً والدين المتحكّم بها هو المذهب الكاثوليكي وكان لا يُباح بها التعبد بغيره اما الان فالحرية مطلقة بها لسائر الاديان

(البرتوكال) وكذلك بلاد البورتغال كانت خاضعة للرومانيين في الزمن القديم مثل اسبانيا وكان اسمها عند اليونانيين والرومانيين لوسيستانيا واهاليها من اصل اهالي اسبانيا ويشبهونهم في اللغة والاخلاق والعوائد ثم استقلت بنفسها سنة ١١٢٩ واشتهرت في الجبل الخامس عشر وامتدت املاكها في الشرق وفي امريكا وهي التي اكتشفت طريق الهند بحراً على رأس الرجاء الصالح كما سبقتم تفاصيل ذلك في المطلب الثاني من امتيازات القرن الخامس عشر وصارت في القرن السادس عشر ملكة قوية جداً ولكنها اُضيفت الى مملكة اسبانيا بعد وفاة الملك سبستيان سنة ١٥٧٨ اذ كان لم يترك وارثاً له ثم قام اهاليها سنة ١٦٤٠ واستقلوا غير انهم لم يحصلوا على ما كانوا عليه قبلاً من الحرية والسطوة والقوة برّاً وبحراً وكان لهم قريبا لا يمكن ان يدخل احد من اليهود الى بلادهم ولا الى بلاد اسبانيا البتة

ومن اعظم مدن هذه المملكة مدينة ليسبون وهي قصبة البلاد وفيها ابنية فاخرة جميلة وقصورها اجل قصور اوروبا وبها ١٤٠ كنيسة و٧٥ ديراً ومكتبة فيها ٨٠ الف مجلد وسكانها نحو ٢٦٠ الف نفس
وامالي المملكة جميعاً نحو ٢٥٠٠ الف نفس وراضي بلادهم مخصصة حسنة وفيها معادن غنيّة ولكنها قلما تُطرق نظراً لتهاونهم وكسلهم كما انهم لا يعتنون بالملاحة والزراعة ولا يوجد فيها الآن الا قليل من المنجم والصنائع لسبب الحروب والمخاضات التي ابتدأت فيها من سنة ١٨٢٠ والديانة المتخكمة هي الديانة الكاثوليكية وفيها ٢٦٠ ديراً للرهبان فيها ٦٠٠٠ راهب و١٢٨ ديراً للراهبات فيها ٦٥٠٠ راهبة ولا يوجد بها سوى مدرسة كآية في مدينة كويمبا وفي غيرها قابل من المدارس العامة ولذلك كانت علماءها قليلة

(انكلترة) اما انكلترة فهي الجزيرة التي كانت تسمى بريتانيا ولما تغلب عليها البرابرة الهاجون على الامبراطورية الرومانية في سنة ٤٤٨ م سميت انكلترة باسم طائفة الانكلسكسون الذين تملكوها وفي سنة ١٠٦٦ تغلب عليها الملك غليوم الفاتح دوق نورمنديا وعمرها بالنورمنديين ومن ذلك الوقت الى الآن لم يتغلب عليها احد من الغرباء وقد سبق الكلام على تقدمات هذه المملكة الى نهاية القرن الماضي

وهي الآن تحوي على ٢٧ مليوناً من النفوس عدا ما يوجد من السكان في املاكها الخارجيّة كالهند وغيرها والديانة المتخكمة فيها هي المذهب الانجيلي البروتستانتى وفيها كثير من الكاثوليكين والحرية مباحة لجميع الاديان وفيها من الحرية والانصاف ما لا يوجد بغيرها من الممالك الافرنجية
وقصبتها مدينة لندن وتسمى لندرة ايضاً سكانها نحو مليونين من النفوس فهي اعظم مدن العالم ما عدا بكين قصبة ملكة الصين طولها ٧ اميال وعرضها ٥ وفيها ١٠ الاف سوق مبنية على نهر يسمى تيمس والناس يعبرون من احد

جانبيها إلى الآخر على خمسة جسور منهم ٢ من الحجر و٢ من حديد وكذلك يوجد تحت أرض النهر دهليز معقود بالحجارة واسع بحيث يرفيه أكبر العربانات وهو طريق لهم تحس الماء وفي هذه المدينة كثير من الابنية العظيمة ومن أشهرها كنيسة مار بولس وكنيسة وستمينستر التي فيها مقابر العائلة السلطانية وأكابر علماء الانكليز وصومعة وهي هيكل متسع قديم يضعون فيه صولجان ملك الانكليز وتاجه وفيها مجلسان احدهما للاشراف ويدعى مجلس السادات وعضاؤه ٢٠٠ نفر والثاني مجلس العوام وعضاؤه ٧٠٠ نفر وهما برتبان القوانين التي أقيم لها محاكم ومجالس في كل بلدة ومقاطعة

وروت الجرائد الأخيرة بانة عن عهد قريب أقيمت فيها ساعة أكبر من سائر ساعات العالم قطر ميناها ٤٠ قدماً ومساحتها ١٢٠٠ قدم وثقل عقربها وما يوازنها فنطار وطول عقرب الدقائق ١٩ قدماً أي نحو ٨ اذرع وبتنقل كل ثانية ١/٢ قيراط فيقطع في الاسبوع ٤ اميال ولم تختلف في ١٧ يوماً أكثر من ٨ ثوانٍ

ومن هذه المدينة خرج عدة من اكابر المولفين مثل فرنشيسكو باكوس واضع القواعد الصحيحة للفلسفة العقلية ومانتون وبويه وغيرهم منهم من قد ذكر في ما مرّ ومنهم من سوف يأتي ذكره

ويوجد في باقي مدن المملكة الانكليزية ٩ مدارس جامعة منها واحدة في مدينة ايدمبرغ التي ولد فيها المؤرخ الشهير هوم وهي دار علماء مشهورين وأشهر مدارس الطب في بريطانيا وكان يدرس بها المعلم روبرتسون ومدرسة اخرى في مدينة يقال لها غلاسكو كان يدرس بها المعلم آدم سميث وقد مرّ ذكرهم جميعاً في الكلام على تقدمات هذه المملكة في القرن الماضي . وتوجد غير ذلك ايضاً مدارس متوسطة كثيرة والكتب رخيصة وصحائف الاخبار متعددة نظراً لما في بلادها من المطابع الكثيرة

وطرقات هذه البلاد مهمة وتكثر بها طرق الحديد وسلوك التلغراف وقد

بلغ اهلها الى اعلى طبقة في جميع انواع الصنائع والمعامل التي هي اشهر معامل الدنيا تُصنع فيها جميع انواع الاقمشة الفظنية والصوفية والبسول والآلات المحد بديّة وتباع بارخص الاثمان نظراً لاستخدام الآلات البخارية في عملها ولذلك كانت تجارتها اعظم تجارات العالم على ما تقدمت تفاصيله في القرون السالفة

المطلب الثاني

في الكلام على الدول التي حدثت بعد ذلك في الاقاليم الشمالية والشرقية التي كانت خرجت منها تلك القبائل التي سبقت الاشارة اليها في تعريف المطلب الاول

(المانيا) لا يخفى بان المانيا هي البلاد التي كان يُطلق عليها سابقاً اسم جرمانيا وكانت قديماً دخلت تحت حكم الرومانيين الا انهم لم يتغلبوا عليها كلها بل بقي منها ما لم يدخل في قبضتهم ومنها خرجت قبائل الهمل المتوحشين الذين لا يمكن عددهم كطائفة السويوة والافرنك والسكسون والوندال واللمبردية وغيرهم ممن سبقت الاشارة اليهم في صحيفة ٢١٦ وخربت بلاد اوربا مدةً مدينة قال بعض الجغرافيين ان هذا الجنس الجرمانى لا يُعرف اصله ولا من ابن ابي اولاً

ثم لما افتتح كرلوس مانوس (اي الاكبر) هذه البلاد التي هي مصدر اجلاد الاصليين اجتهد في ادخال الدين المسيحي اليها وفي تمدن اهلها ونشر العلوم والمعارف التي كانت شائعة في تلك الاوقات بينهم وكان ذلك من بداية القرن التاسع للميلاد على الوجه الذي سبقت تفاصيله في الفصل الثاني من البحث

المذكور ومن ذلك الوقت صارت السلاطين النمساوية تحكمها الى سنة ١٨٠٦
 عندما نزل سلطان النمسا عن كونه سيد معاهدة هذه البلاد ولقب ملك النمسا
 او ملك بلاد اوستريا وبطلت الاحكام الجرمانية ونشأت معاهدة بلاد الرين
 (الرين اسم نهر) تحت حاية فرانسوا وبقيت الى سنة ١٨٣٠ ومن هذا الوقت
 اقيمت المعاهدة الجرمانية وهي مركبة من ٢٩ قسماً بادخال ما هو من الاقاليم
 تحت حكومة النمسا وبروسيا والفلمنك ودانيمارك منها ذوات ملوك اعظمهم ملك
 بافاريا ومنها امراء وكان الحد منها القسم الشمالي تحت حاية ملك بروسيا في سنة
 ١٨٦٧ وتسمى دولة المانيا الشمالية ثم في سنة ١٨٧٠ اتحدت باقي الولايات مع
 المانيا الشمالية في اثناء محاربة فرانسوا لدولة بروسيا وقدمت جميعاً تاج
 الامبراطورية الالمانية الى غليوم ملك بروسيا عندما كان على حصار باريس
 عن يد ملك بافاريا المشار اليه

وتحتوي هذه الولايات جميعها على ٢٩ مليوناً من النفوس منها
 ١٨,٠١٨,٢٥٣ بروستانت و ٦٥١,٠٥٠,١٤٠ كاثوليكين خلا ما اضيف
 اليها مؤخراً من سكان الالزاس واللورين الذين سلبتهم من فرانسوا بواسطة
 الحاربة المذكورة وتختلف احكامها من نوع الملكي المطلق الى نوع المحكم الجمهوري
 وكل فريق من اقسامها يرسل وكيلاً الى الديوان العمومي الذي ينعقد في
 فرانكفورت

واها لي هذه البلاد اصحاب همة وحرص وامانة وثبات في الاعمال واستنارة
 في التصرف ولهم موهبة الاختراع التي اشتهروا بها منذ القرن الخامس عشر
 للميلاد والعلوم منتشرة بينهم انتشاراً بليغاً وخرج منهم علماء كثيرون مشهورون
 بالعبارة في تاليف الكتب وقواميس اللغات والتدقيق في مباحث العلوم ومن
 هانورة احدي مدنها التي كانت في حكم الانكليز خرج المعلم هرشل الفلكي الشهير
 ولهؤلاء العلماء المذكورين ٢٠ مدرسة كلية يجتهدون فيها غاية الاجتهاد على
 ايجاد الفوائد للناس و ١٥٠ مكتبة فيها ٥ مليونات من الكتب ومن العلماء

المولفين ١٠ الاف رجل يكتبون في كل سنة ٥ الاف كتاب وعندهم مدارس عديدة ووسائط لتسهيل المعرفة ليست بقليلة ومن هذه البلاد اتشر المذهب الانجيلي في القرن السادس عشر وهو المتحكّم ببلاد الشمال كما ان المذهب الكاثوليكي متحكّم في بلاد الجنوب وانما في جميعها يباح التعبد بكلّ الاديان وفي بعض مدنها تكثر التجارات والبيع والشراء في الكتب وفي بعضها يوجد ايضاً ورش ومعامل من جملتها معامل لتكرير السكر وفي مدينة نورمبرغ تُعمل اشياء كثيرة للعب الاطفال

(النمسا) واما بلاد النمسا التي ذكرنا في ما تقدم بان سلاطينها كانت تحكّم على بلاد الالماني فكانت تخنوي على ما كان يُسمى سابقاً اورتيا ونوريكا واثونيا وداسيا اودافيا واما تملك كراوس الاكبر بلاد نوريكا سماها اوستريا ومعناه بلاد المشرق ومن ذلك الوقت اخذت سلاطين هذه المملكة تدعي بالخلافة عن قياصرة رومية لان كرلوس الاكبر كان لقبه البابا بهذا اللقب عندما وضع على رُؤس تاچ الامبراطورية وسماه بالامبراطور الروماني في افتتاح القرن الثامن للبلاد على ما سبقت الاشارة اليه في الفصل الخامس من البحث الثاني من الكلام على المعارف عند الرومانيين ومع ذلك لم تكن تحسب هذه المملكة شيئاً الى القرن الثاني عشر ثم في اوائل القرن التاسع عشر اخذت تتقوى وتمتد حتى صارت الآن تُحسب من الممالك العظيمة

وهي تخنوي الآن على ٢٧ مليوناً من النفوس والديانة الغالبة فيها هي المذهب الكاثوليكي لكن بها كثيرون من الروم السلاو والبرونستانات ويوجد بها ٨٠٠٠ دير للربان ويباح بها التعبد بسائر الاديان وقصبتها مدينة فيانا ويقال ويانه ايضاً جميلة المنظر وبها ابنة فاخرة واساحة للاجتماع و٢٣ ديراً و٥٠ كنيسة واهلها ٢٠٠ الف نفس ويوجد في كل المملكة ست مدارس كلية ومدارس متوسطة عديدة ونظرًا لبعدها عن الاجمر الكبار لم تكن تصلح لتجارة

واسعة ولكن لما حظ في التجارة البرية وفيها عدة معامل غير ان اهلها ليس لهم حذافة في الصنائع ومن اعمالها اقمشة الصوف والكتان ويصنع بها القرباس والآلات الحديدية والخزف والزجاج وامتعة البيوت اما الفلاحة والزراعة فقابلة نظراً لعدم خبرة اهالي البلاد فيها

(بروسيا) واما بروسيا التي هي الآن عوضاً عن المملكة المذكورة في امبراطورية بلاد المانيا فكانت قد تغابت عليها في ما سلف طائفة تسمى التونيقية ثم ادخلوا فيها الدين المسيحي في اواسط القرن الثالث عشر من الميلاد واول من جعل لها الشهرة كان الملك فريدريك وليم الاول الذي تولى المملكة سنة ١٧٠١ ولكنهما لم تحسب من الممالك العظام الى بعد سقوط نابوليون بونا بارتة الاول عن امبراطورية فرانسوا في سنة ١٨١٥ ولم يعل شأنها الى بعد ان اسقطت نابوليون الثالث عن عرش الامبراطورية المذكورة ايضاً في سنة ١٨٧٠ وصار ملكها غليوم امبراطوراً على المانيا حسب ما تقدم ابراده في الكلام على تلك البلاد وسكانها الآن نحو ١٥ مليوناً من النفوس والديانة المتحكمة بها هي المذهب الانجيلي وفيها كثير من الكاثوليكين واليهود والحرية مطلقة لجميع المذاهب

وقصبتها مدينة برلين اهلها نحو ٢٥٠ الف نفس جميلة المنظر واسواقها واسعة مستقيمة وابنيها فاخرة وهي مقام العلماء وبها مدرسة كلية ومدارس اخرى عديدة ويشغل فيها الفغفوري الجيد والعربيات العظيمة ويوجد في باقي مدن المملكة ٦ مدارس كلية تحسب من احسن مدارس اوروبا وعدة مدارس متوسطة و٢٢ الف مدرسة عمومية وكل انسان يلزم ان يرسل اولاده الى المدرسة ولا يوجد ملكة مثلها في اوروبا نظراً الى المعرفة العمومية وعساكرها احسن عساكر اوروبا وجميع اهاليها يفتون رديفاً الى سن الثلاثين وينصبون خيامهم ثلثة اسابيع في السنة لاجل التعليم ولذلك قيل لها ارض المدارس والفشل لكن ليس لهم حق الخبرة في امور الفلاحة وانما لهم معامل لاقمشة الصوف والكتان والقطن وصناعة الفخار

ومطابعتها عديدة وناجحة ومتمجها في المواشي والمحجوب غيران متمجها البحري هو في
اياتي الغربا

ومن مدنها كورنغسبرج وهي مدينة حسنة يحيط بها سور حصين عظيم
طوله نحو ٧ اميال وفيها كنيسة كبيرة مشهورة فيها ارغن له خمسة الاف انبوبة
وبها قصر للملك على شكل مستطيل طوله ١٢٦ خطوة وعرضه ٧٥ وفيه محل
طوله ٢٧٤ قدماً وعرضه ٥٩ ومنها خرج الفيلسوف كنت. ومنها ايضاً مدينة كولونيا
يُصطنع فيها ماء روي معطر يُعرف بماء كولونيا او ماء الملكة وبها كنيسة عظيمة
جيدة البناء العتيق. ومنها كذلك مدينة مغدبرج التي اخترع فيها اوتود بغيريك
طلبة الهوا (راجع الاكتشافات العلمية في القرن السابع عشر) ومنها مدينة ترن
اوطن ووطن كبرنيك الفيلسوف الذي اثبت دوران الارض وثبوت الشمس
(راجع الاكتشافات العلمية ايضاً في القرن السادس عشر)

(الفلمنك) واما الفلمنك ويقال لها هولاندا وتسمى ايضاً نثرلاندا اي البلاد
الواطية فان اهلها من جنس اهل جرمانيا وبعد ان جرى عليها تقلبات كثيرة
استقلت منذ سقوط نابوليون الاول في سنة ١٨١٥ واهلها يبلغون ثلاثة ملايين
من النفوس واكثرهم من البروتستانت والباقي من اللاتينيين واليهود وهم
مشهورون في النظافة التي تقيم ضررها وبلادهم الذي كابدوا مشقات كثيرة
بسبب رداءة وورداة تربة البلاد ومائها ايضاً الى ان صيروها من اخصب
بلاد اوروبا حتى انهم اصطنعوا طلمبات تدبرها الرياح لتدفع المياة الكثيرة التي
ترشح من البحر الى الانهر والزرع الكبيرة التي اصطنعوها لذلك وقصبة هذه
الملكة مدينة هاك اهلها ٦٠٠ الف نفس وفيها عدة من القصور والمجالس لترتيب
الحكم ومنها خرج درييل مخترع الميكروسكوب والتيرموتر ومن توابعها
امستردام وهي اعظم مدن الفلمنك واعمر مدن اوروبا ذات مينا يمكنها ان تسع
١٠٠٠ سفينة وكانت قديماً ملكة البحر واعظم مدن العالم في التجارة والقوة

البحرية والى الان يوجد فيها مدارس كثيرة ومكاتب وقاعات للخطب ومحافل لغرائب الصناعات والنوادير . ومنها مدينة اخرى تسمى ليدن مشهورة بمدرستها الكلية وعلمائها الذين هم من افاضل المدرسين عند الافرنج ويوجد لهم مدارس اخرى كلية غيرها في باقي البلاد كمدينة لويين ومدينة اغرنتفة ومن مدينة هرلم خرج لورانت كستر الذي يعتقد اهل الفلمنك بانه هو اول من احدث الطباعة ولذلك اقاموا فيها صورته على ما سبق ايراده في محله

. واهل هذه المملكة يرغبون في العلم ويسهل عليهم اكتسابه لكثرة المدارس وهم اقوياء في الاعمال يعتنون بها جداً واكثرهم مغرمون بشرب التبغ والنظافة والمحرص وعمل الخير والاحسان وبناء المدارس وطرقهم جيدة وقراهم حسنة واسواقهم واسعة نظيفة ومن البان مواشيم يستخرجون السمن اللذيذ ويصطنعون الجبن الدسم المعروف بالفلمنكي وكان متغيرهم سابقاً متسعاً جداً لكنه قل الآن بسبب المحروب الكثيرة التي حدثت في اوروبا وعندهم معامل وورش عديدة تعمل فيها اقمشة الصوف والكتان والحبر والادم والقصبات لشرب التبغ ومن هذه المعامل ما هو لنسج الخمل والمشجر في مدينة اوترخت والى الان يشاهد في قرية ساردام الكائنة بالقرب من امستردام البيت الصغير الذي كان ساكناً فيه بطرس الاكبر سلطان روسيا لما كان يتعلم بها عمارة السفن البحرية (راجع الكلام على امبراطورية روسيا في القرن السابع عشر)

(بلجيكا) وكذلك بلجيكا يقال لها بلجيوم او البلجيك ايضاً فانها استقلت بعد بلاد الفلمنك المذكورة بمدة جزئية اعني في سنة ١٨٣١ وكانت قبل ذلك دخلت تحت تسلط عدة مالكة واهلها نحو ٤ ملايين من النفوس والديانة المتعممة بها الآن هي الكاثوليكية وبها كثير من البروتستانت ومن امهات مدنها بروسيل ويقال بركسيلة واهلها نحو ١٠٠ الف نفس وهي مدينة معتبرة حسنة المنظر مشهورة بصناعة البسط وانواع الاقمشة الصوفية

وقصب الذهب والنضة والشبابك اللطيفة وبها مكتبة فيها ١٠٠ ألف مجلد
ومدرسة كلية وفي باقي مدنها مدرستان غيرها ايضاً وتحصيل المعرفة عندهم
سهل للخاص والعام وقد بلغوا الدرجة التصوي في صناعة الفلاحة واكثر
زراعتهم من الحبوب ولم اليد الطولى في التجارة والصنائع فهم يصنعون لطائف
كثيرة ولوجود الحرية في المتجر يمكنهم بيعها بثمن ارخص مما يبيعها غيرهم ويلي هذه
المدينة مدينة انتورين وهي ذات ابنية فاخرة وكبسة على شكل البناء القوطي
بها منارة علوها ٤١ : قدماً

(الدانيمارك) واما بلاد دانيماركه فكانت تسمى سابقاً شرزوتن قهريك
ومنها تولدت الطوائف القهريه التي اهلكت اوروبا سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ثم بعد
كل ما صادفته من التقلبات لازالت الى الان مستقلة وتحتوي على مليونين من
النفوس والمذهب الانجيلي هو المتحكّم بها والحرية مباحة لجميع الاديان
وقصبتها مدينة كوبنهاغن او كوبنهاغ ويقال قبتهاق مشهورة بحسن منظرها
وابنتها الجميلة وفيها مدرسة كلية ومدارس اخرى عديدة ومرصد ساطاني لرصد
الاجرام السماوية (راجع الكلام على هذه المملكة في القرن السادس عشر) وجنية
عظيمة فيها اكثر النباتات الموجودة على وجه الارض وبها مكتبة تحتوي على
١٠٠ ألف مجلد واهلها نحو ١٥٠ ألف نفس وتجاراتها عظيمة ممتدة في غالب
بلاد الدنيا حتى انه يكاد ان تكون جميع صناعات الدانيماركه وبراعة فنونهم
مجموعه في هذه المدينة فهي مركز تجارات وصنائع هذه المملكة
وتوجد لهم عدا عن المدرسة الكلية المذكورة مدرسة كلية اخرى في مدينة
كيال ويوجد في جميع المملكة اكثر من ٥ الاف مدرسة متوسطة وفي قلعة
كريستانبرغ قصر فيه كثير من النساوير البديعة ولم مكتبة فيها ٣٠٠ ألف
مجلد ويعتنون بتعليم اولادهم كثيراً ومنهم خرج كثير من اصحاب المعارف السامية
كريبير الذي اظهر سرعة سبر الضو وغيرها ولكنهم الآن لم يتقدموا في العلمين

مثل باقي طوائف أوروبا

(السويس) ويسمى العثمانيون اسويجر ويطلق عليها اهالي بلادنا اسم سويسرا وكانت تسمى سابقاً هلوطينية جرت عليها نقابات كثيرة ودخلت تحت عدة حكومات ثم لما اجتذأت ملوك جرمانيا في ان نظلم اهاليها قام رجل من الفلاحين يقال له ولم اوغايوم نزل ومعه البعض من اهالي البلاد واستخلصوا بلادهم وعقدوا معاهدات بينهم دخلت فيها بقية المقاطعات واحدة بعد اخرى وهي الان جمهورية مستقلة تخضوي على ٢٠٠٢ الف نفس النصف منهم بروتسانت والنصف الآخر كاثوليك والى الان يوجد في مدينة الطرف او الترف حنفية ماء عظيمة موضوعة في محل مكث فيه وليم المذكور لما اراد ان يرمي على ما قيل نقاحة وضعها هدفاً على رأس ابنة بضرية ربح وسيل ماء اخر موضوع محل شجرة سوسن كان وضع عليها حين ذلك ابنة الصغير المذكور وكان اجبره على هذا الامر حاكم المدينة املاً بان يخطي سهمه فيقتل ابنة ويكون ذلك بمنزلة انتقام منه لشهرة بأسه لكنه اصاب المرعى وكان هذا الاقتراح سبباً في هيجانه لتخليص بلاده على ما ذكرنا

واول مدينة في هذه الجمهورية هي مدينة جنيف او جنيفورة ويقال جينوا وهي مدينة عظيمة ذات ابنة فاخرة شهيرة بنصب التعليم العام بها وبمعاملها خصوصاً معامل الساعات فان فيها هي وحدها فضلاً عن غيرها من البلاد ثلاثة الاف ساعاتي يصنعون كل سنة نحو سبعين الف ساعة وبها اكثر منجز البلاد وهي وطن عدة من مشاهير فرنساوية مثل جنجاك روسو وغيره

واهل هذه البلاد مشهورون بالرغبة في اكتساب العلوم والمعارف واصحاب الفلاحة منهم لم نباهة في صناعتهم حتى اصحوا اراضيهم الى الغاية مع انها ردية التربة في الاصل ولم انوال يصطنع فيها القمشة الحرير والقطن والكتان وآلات الحديد والصياغة وزعم بعضهم ان صناعة الورق اخترعت في باله التي هي من

مدن هذه الجمهورية ولهم نجاح معتبر في الامور التجرية

(اسوج ونروج) اما بلاد اسوج الواقعة في شرقي بلاد روسيا فكانت معورة سابقاً باهل افاندة الذين لم يزل جنسهم باقياً الى الان في الشمال منها بقرب لا بونيا ثم سكن بها طائفة الغوثة او الغوطة الشهيرة كغيرها من المتبررين المهاجرين على المملكة الرومانية بافساد ارض اوروبا ومنها خرج ايضاً قطاع الطريق المسنون بالنرمندية الذين خربوا البلاد الغربية منها وسكن قوم منهم في اقليم من اقاليم فرانساً يسمى الى الآن اقليم نرمندي في نفس الوقت الذي فيه اسست طائفة اخرى منهم يقال لها الوريفية (او الروريفية) الساطنة المسكوبية واخيراً استولى الملك غليوم الفانخ دوق نورمنديا (اي اقليم نرمندي المذكور) على مملكة انكلترة كما سبقت الاشارة الى ذلك في محلاته ثم دخلت هذه البلاد تحت حكم دولة الدانيمارك التي تقدم الكلام عليها وتقيمت الى ان تخلصت واستقلت بذاتها في سنة ١٥٢٢ ومن ذلك الوقت اخذت اولاً في الاشتهار ثم في التقدم على ما ذكرنا ذلك بتفاصيله عند الكلام عليها في القرن الثامن عشر

وفي بداية القرن التاسع عشر الذي نحن بصدده تولى عليها كارلوس الثالث عشر في سنة ١٨٠٩ وفي زمانه انضمت اليها مملكة نروج حيث استخلصها هذا الملك من ساطنة الدانيمارك ايضاً وذلك في سنة ١٨١٤ ومن ثم تسمت المملكة باسم مملكة اسوج ونروج وصارت الفنون والصنائع والتجارة فيها زاهرة وانشأ هذا الملك في مملكته نخفانة ومدرسة عسكرية وتبنى جنرالاً فرانساً وياً يقال له برنادوت وجعله ولي عهد حيث لم يكن له وارث يخلفه فتولاهما بعد موته وتسمى كارلوس الرابع عشر

وسكان هذه البلاد الآن نحو خمسة ملايين من النفوس وتعلم بها المذهب الانجيلي ويباح بها التعبد بسائر الاديان ولازال في جهة الشمال منها قبائل صغيرة تعبد الاوثان

وقضيتها مدينة استوكهلم اهلها نحو ١٠٠ الف نفس مبنية على سبع جزائر في بحيرة يهونها ملارو وهي ذات معامل كثيرة ومركز تجارة الملكة بتامها وبها يقيم الملك ومجلس الاحكام واهالي البلاد جميعاً يعتنون باشهار العلوم ولهم مدارس عامة في كل بلدة ولاسيا في نروج و٢٢ مدرسة متوسطة و٢ مدارس كلية من جعلتها مدرسة اوسال التي كان يدرس فيها لنيه (راجع القرن الثامن عشر) واكثر الفلاحين بها يعرفون القراءة والكتابة وينصفون بالكرم والامانة والحشمة والبشاشة والشجاعة والميل الى الحروب ومحبة اوطانهم

(روسيا) اما بلاد روسيا الواقعة غربي بلاد اسوج التي تقدم ذكرها فقد سبق الكلام عن اصل اهاليها واحوالهم القديمة في المطلب الاول والثاني من امتيازات القرن الخامس عشر ثم في ما تلى القرن المذكور قد تتبعنا تقدم ما تبنا تفصيلاً الى نهاية القرن الثامن عشر فلا حاجة لتكرار شيء من ذلك هنا وكذلك قياصرة هذه الدولة الذين جالسوا على تخت المملكة من بداية هذا القرن التاسع عشر حتى الآن قد بذلوا جهدهم في سبيل تقدم البلاد وتثمين الاهالي ونجاحهم وتوسيع دائرة ثروتهم فان اسكندر الاول الذي تولى الايمبراطورية في سنة ١٨٠١م قد كان في اول امره من اهل الحماسة لبن العريكة خالياً من العناد بسيطاً في معيشته يتجنب الابهة والعظمة عقد معاهدات تجارية مع كثير من الدول وقرر نظامات جديدة للسفر في البحر ونشط البضائع واذن لاصناف الرعية كلها ما عدا العبيد الذين كانوا ملكاً خصوصياً ان يشتغلوا ويحجروا كيفما شاءوا فاخذت محاصيل البلاد الروسية وبعض مصنوعاتها تظهر في اسواق اوروبا وبني في سنة ١٨٠٩ ثلاث مدارس كلية واحدة في بطرسبرج واخرى في كركوك والثالثة في قازان ثم اضاف اليها مدرسة اخرى بناها في دربات للولايات الجرمانية المجاورة بحر الباطيك ونظم مدرسة ولنا لتهديب رعاياه البولونيين وكان في ذلك الوقت يعاملهم بكرامة ورفق واقام

عدّة مدارس عالية وادبية وامر بان يزداد عددها حتى تبلغ ٢٠٤ مدارس
 وبأن يقام ٢٠٠٠ مدرسة غيرها لتعليم الاشياء الابتدائية وكان بطون في انحاء
 البلاد ويقابل كبارها وصغارها ويصغى الي احاديثهم وتشكياتهم واستمر يجري
 الاصلاحات في داخلية بلاده وطرده اصحاب المعامل الانكليزية منها فتنشطت
 بذلك الصناعة الوطنية وفي سنة ١٨١٠م الف ديوان المشورة وثماني وزارات
 منفصلة بعضها عن البعض وحدد قيمة النقود وجعل لفنلاندة نظاما جديدا وفي
 سنة ١٨١٨ اشرع في عمار كنيسة القديس اسحق وهي من الابنية الهائلة في بطرسبرج
 وفي ايام زمت تجارة روسيا وصناعتها وانتشرت الثروة في البلاد وشرع في
 ابطال الرق فحرر الارقاء من ولايات البلطيك الجرمانية الا انه لم يسع
 للفلاحين بالانتقال من ولاية الى اخرى لكن في اواخر عمره تسلطت عليه
 السوداء وجعل للجرائد قوانين صارمة وصار حزينا كثير الظنون والشكوك وبعد
 ان كان عضوا نشيطا للفرن ماسون استاصل الفروع التي امتدت منها الى
 روسيا وفي سنة ١٨٢١م طرد اليسوعيين لانهم نشروا المذهب الكاثوليكي بين
 بعض عيال روسية غنية وسلم دبرهم الى الدومنيكيين في بطرسبرج واخيرا
 توفي سنة ١٨٢٥ وتولى بعده اخوه نيقولا الذي اقام مستوليا على التفتت الى سنة
 ١٨٥٥م وتوفي والبعض يسمون ملك حكموا التي تاهزت ٢٠ سنة بالعصر الحديدي
 حيث ما افادت المملكة شيئا بل حملت الامة الروسية انتقال الادارة الحربية التي
 كانت شغلت دوائر الدولة كلها وخلفه وليك الاسكندر الثاني الحالي الذي اقام
 باصلاحات لم يستطعها غيره اذ انه وضع حدا لالعمال ابوه التي كانت تتجاوزت
 حدود الاعتدال على ما تقدم فحفف عن الامة تلك الانتقال وفصل نظارة
 المعارف عن نظارة الحرب واقام عوضا عن الضباط المتقاعد بن الذين كانوا
 يتعينون معلمين للدارس رجالا متقنين صالحين للتعليم والتهديب وجعل
 للطبوعات قوانين تؤذن ببعض الاعتدال واعاد جمعية انتشار الكتب المقدسة
 التي كان اسسها عمه الامبراطور اسكندر والغاما ابوه الامبراطور نيقولا واصدر

أوامر برقع الموانع عن أعمال المرسلين الى اليهود في ممالكهم وعدد هم نحو ٢ ملايين وأطلق للفلم في روسيا عنان الحرية ومنع التجسس ووضع قوانين لنساق المأمورين وسخ بإعلان نقائصهم للناس ورقي الشبان في فروع الادارة العمومية مكان الذين لا فضل لهم الا كونهم وجدوا فيها من زمن طويل وساعد على امتداد صناعة البلاد وتجاريتها وجد في زيادة عدد السفن التجارية الوطنية وحمل التجار الروسيين على مد علاقتهم ومواصلاتهم الى الممالك الاجنبية وابطل النظم التي كانت تمنع الاهالي من زيارة البلاد الاجنبية وعفا عن المجرمين السياسيين من البولونيين والروسيين وارجع المنفيين الى سيبيريا الى اوطانهم وسخ للفارين بالرجوع الى منازلهم وامر بحد السكك الحديدية في ممالكهم لتقريب المواصلات واعظم الاصلاحات التي اقام بها هو تحرير الارقا الآتي ذكرهم لكنه رفض ما كان طلبه اشرف موسكو القدا في سنة ١٨٦٥م من اقامة مجلس نواب (مبعوثين) وابطل نظام الخلافة القسسية ونظم جيوشه على نسق الجيوش الالمانية واتخذ وسائل شتى لنشر التهذيب في ممالكهم التي لا يوجد لها مائل في اتساع اراضيها على ما يستبين ذلك من الشرح الآتي

ذكرت النشرات المطبوعة في سنة ١٨٧١ انفلا عن كتابة نشرها وزير الحرب الروسي لجهة مساحة هذه البلاد واهاليها ما نصه ان مساحة اراضي روسيا كانت في سنة ١٧٢٥ (٢٧٥,٥٧٢) ميلاً مربعاً منها (٨٢,٦٨٧) ميلاً في اوروبا و (١,٠٢,٨٨٤) ميلاً في بلاد اسيا وقد زادت منذ ذلك الزمان الى الان زيادة كلية بواسطة الفتوحات فصارت (٣,٨٩,٢١٠) امال مربعة منها (١,٠٦,٢٥١) في اوروبا و (٢,٨٢,٩٥٩) في اسيا ومنها ٢,٦٨٠ ميلاً مغطاة بياه بحر قزوين وبحر اورال ومن هذه الاراضي البلاد الشمالية المنفرة التي يسكنها قليل من البشر اما البلاد المخصصة للمأهولة فهي نحو ٢٠٠ الف ميل مربع وهي تزيد عن مساحة اوروبا بتامها نحو ٢٢ الف ميل مربع وبالاجال فان هذه الاراضي جميعها مقدرة بنحو ١/٢ من كرة الارض

وسكان هذه الاراضي يبلغون ٨٦٥٨٦٠٠٠ نفس اغلبيهم من الروسيين ويوجد بينهم ١٦ مليوناً من البولونيين و ٨٠ الف من الفنلانيين و ١٠ ملايين من السيبيريين والقوقاسيين واكثر من مليون من الاتراك لكن البلاد المأهولة اكثر من الجميع فهي البلاد التي يسمونها مملكة بولونيا فان في ولاية وارسو الروسية يسكن كل ميل مربع ٢١٠١ من الاهلين اما في ولاية موسكو فيسكن ٢٥٩٨ وفي ولاية بطرسبرغ ١٤٤٦ وفي ولاية اربانجل ٢٠ وفي ولاية امور ٢ واكثرهم من طائفة الروم الاورثوذكسيين فانهم يبلغون نحو ٥٢ مليوناً والباقيون من طوائف مختلفة منهم لاتينيون وروم كاثوليك وارمن كاثوليك وبروتستانت ويهود واسلام ووثنيون وعبدة نار انما الدين المتحكّم فهو مذهب الروم الاورثوذكسي والحكومة من النوع الملكي المطلق

وفي اخلاق الاهالي الفناعة وسهولة المعاشرة وسرعة التناول ومحبون البدخ والهو والحوادث الجديدة والاكابر منهم يرغبون في الملاهي ولم حدة في اخلاقهم وبعضهم بلغ درجة معتبرة في التمدن والادب وكانوا ينقسمون الى اربع رتب وهي الشرفاء والاكابروس والعامّة والفلاحون غير ان الفلاحين كانوا بمنزلة عبيد للملك والاشراف الذين يبلغون نحو ٨٠ الف ولهم حقوق خاصة لا ينازعهم فيها احد لكن لما تولى الامبراطور الحالي اسكندر الثاني في سنة ١٨٥٥ اصدر امراً امبراطورياً بعد جلوسه بنحو ثلاث سنين بابطال الرق والاستعباد وقد ذكروا النفوس التي تحررت فقالوا انها ٢٢ مليوناً من النفوس منها تسع ملايين كانوا ملك الدولة والباقيون كانوا ملك ١٢٧ الف سيد من الاشراف وغيرهم اما مدارس هذه المملكة فهي على مقتضى ما نشره وزير الحرب في سنة ١٨٧١ كثيرة فان الامبراطور اسكندر المشار اليه منذ جلوسه على تخت المملكة اخذ في اصلاحها وتنشيطها ومنها ثمان مدارس عمومية في بطرسبرغ وموسكا وكايف وفاركوف واودسا ودوريا وهنكفور وفي هذه المدارس ٥٥٧٦ تلميذاً ومنها ايضاً ثلاث مدارس خطية عدد تلاميذها ٢٩٠١ اما اكثرية المدارس الوسطى بالنظر

الى نسبة عدد الاهالي فهي في بولونيا فان فيها مدرسة لكل ١٧٥٠٠٠ من
 الاهالي وفي ولاية مجر باطاق كذلك مدرسة لكل ٢٠٠٠٠٠ وفي ولايات الفلاند
 مدرسة لكل ٦٠٠٠٠٠ وفي ولاية موسكو مدرسة لكل ٧٢٠٠٠٠٠ وفي ولاية كازان
 مدرسة لكل ١٢٠٠٠٠٠ وعدد مدارس الأمة ٩٩٥٥ فيها ٢٨٠ الف تلميذ
 ومع كل هذه الوسائل والوسائط المختلفة لنشر المعارف يكاد لا يوجد في الالف
 من الجنود واحد من الذين يعرفون القراءة والكتابة وقال غيره ان هذه
 المدارس العمومية والمتوسطة هي في اكثر البلاد لكنها كانت لعهد قريب منحصرة
 بافادة اغنياء الشعب عندما كانت الرعية بمنزلة عبيد للاكابر الذين
 يستعبدونهم عبودية عنيفة ولا يرغبون في تعليمهم وتقدمهم ولكن بعد الان لا بد
 ان تتغير احوالهم وتترق نظراً لما حازوه من اطلاق حريتهم (ولاسياً بعد ان
 اصحح الامبراطور اسكندر المشار اليه احوال العساكر ورتب تعليمها على اصول
 التعليم الالماني والزمها بان تتعلم ليس القراءة والكتابة فقط بل واللغة الالمانية
 ايضاً)

وذكر في بعض المولفات ان الكتب التي ألفها المؤلفون المسكوبيون في هذا
 القرن لجد سنة ١٨٥٧ كان عددها ١٤٢٥ مولفاً واما التي ترجمت من غير
 لغات وطُبعت بلغة الروسيين فهي ٢٠٠ مؤلف

اما امهات مدن روسيا فهي اولاً مدينة بطرسبرغ التي هي قصبة المملكة
 بناها بطرس الاكبر على ما تقدم ايضاحه في القرن الثامن عشر وهي الآن
 افخر مدن اوروبا في الحسن والظرافة وفيها مدرسة كلية معتبرة ومكتبة مشتملة
 على ٢٠٠ الف مجلد وفيها تمثال راكب مصنوع من نحاس اصفر موضوع على
 صخرة من الصوان بزن ٢٠٠٠٠٠٠٠ او ثلاثة ملايين من الارطال اقيم تذكراً
 للامبراطور بطرس الاكبر المقدم ذكره وفي سنة ١٨٥٨ اتم بناء كنيسة القديس
 اسحق الذي كان شرع في انشائها الامبراطور اسكندر الاول على ما ذكرنا قبلاً
 وهي كنيسة فاخرة جداً يقال بان مصاريفها بلغت ٧٠ مليوناً من الريالات

المسكوبية تبلغ قيمتها الآن نحو ١٢٦٠ مليوناً من الغروش ويُقال بأن سكان هذه المدينة يبلغون ٥٠٠ ألف نفس ويلها مدينة موسكا التي كانت قصبة المملكة قبل بطرسبرغ المذكورة وأعظم مدن أوروبا قبل مهاجمة الفرنسيين تحت راية نابوليون الأول سنة ١٨١٢ وحينئذٍ أحرقها أهلها كيلا تجد الفرنسية مكاناً نشئ فيهِ وكان قبل ذلك محيطها ٢٠ ميلاً ومن غرائبها الجرس الكبير المشهور الذي اصطنعه أهلها وقد سبقت الإشارة عنه عند الكلام على روسيا في القرن الخامس عشر وإلى الآن تتوج ملوك المسكوب فيها لأنها قصبة المملكة الأصلية وإليها تنسب البلاد وفيها قصور أكابر القدماء ومكاتب وقاعات للعلوم ومدرسة كلية وأهلها يبلغون ٢٠٠ ألف نفس ثم مدينة ريغا وهي بعد بطرسبرغ أنجر مدن روسيا ومن غرائب ما فيها قنطرة من الخشب على النهر عرضها ٤٠ قدماً وطولها ٢٦٠٠ قدم ترفع في أيام الشتاء وفي مدينة قازان مرصد لرصد النجوم أيضاً

ونظراً لكثرة المعادن ووفرة المحاصيل في بلاد روسيا راجت تجارتها رواجاً عظيماً فان في البلاد الداخلة في حوزة هذه السلطنة من قسم آسيا وخاصة سيبيريا التي هي غنية بالمعادن والمجارة الكريمة والجواهر كالزبرجد والماس والبلايت و حجر الفتيمة والبور واللازورد والنظرون وملح الباروت والنفط والذهب والفضة والحديد وحجر المغناطيس والنحاس والخارصيني والبرموث والزرنج والكوبلت توجد مسابك الحديد وخاصة في مدينة كآرينبورغ يوجد مسبك حديدي يقل نظيره في الدنيا وهناك يصطنع شي كثير من آلات الحديد وفي مدينة تلهينسك معامل الزجاج واقمشة الصوف والكتان وفي كاسان معمل للباروت وفي ايلتسكي معمل لاستخراج ملح الطعام وفي مدينة استرخان عدة انوال أيضاً لاصطناع اقمشة القطن ومعامل للباروت واستخراج الملح وصنع الاقمشة وإما في بلادها الكائنة في قسم أوروبا فيعمل كثير من انواع الأتم مشهورة في الغاية واقمشة الكتان والحبال واللباد والصابون والجوخ

والزجاج وقد أُغرس في بلاد روسيا شجر التوت فتم أخذت له اهلها دود الحرير ومن معاصيلها ايضاً انواع الفرا والجلود واخشاب البناء والسك فان في نهر ولغا فقط يوجد ١٥ الف قارب اصيد السمك ويصنع منه زيت السمك والخبياري ويرسل الى الافاق وكذلك المحبوب فانها تنويد عن احتياج الاهالي فيتجر في ما زاد منها تجارة ليست بقابلة كما يتجر ايضاً في ما يخرج ببلاد كرجستان من الخمر والزعفران والافيون والنفط الذي يخرج من مدينة باكو وهي تحسب عند مجوس الفرس والهند مقدسة فيجمعون اليها لاجل ما فيها من قوارات النفط المذكور التي تشتعل من ذاتها حتى تغمر وجه الارض بالنار الى مسافة بعيدة ومن الاسباب العظيمة ايضاً لانساع نطاق تجارة روسيا اتساعاً زائداً عدم وجود الكارك ووجود الترع والانهر ولاسيما سكك الحديد المستجدة التي اخذ الامبراطور اسكندر الحامي المار ذكره في تمديدها في بلاده بعد انتهاء حرب الفرم سنة ١٨٥٦ لان بها يسهل انتقال المحاصيل وبضائع التجارة من اطراف البلاد

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

هذه الاكتشافات قد كان افتتاحها منذ بداية هذا القرن بعمل الآلات العظيمة المتعددة الانواع التي شملت منافعها عامة الجنس البشري ولذلك نبتدي بذكرها على مقتضى تاريخ ظهورها اول نوع منها بحيث نتبع بهما ذكرها وصلت اليها اخباره من نوعه الى نهاية الوقت الذي نجر فيه ناليف هذا الكتاب ثم تانفت بعد ذلك الى غيره بحسب التاريخ ايضاً ولو كانت درجته ارفع وفوائده اعم وانفع ومن ذلك (آلات ميكانيكية) في سنة ١٨٠١ اخترع رجل حائك من مدينة ليون

يقال له جاکر آلة للنسج ميکانیکی تنسج بذاتها بدون مساعدة الاياذي فاورش
تبدلاً كثيراً في هذه الصناعة ورفع اهل المدينة المذكورة صورة هذا المآلک
ببطائها اظهاراً لمنوینهم له

ثم روت جريدة المتقطف المنتشرة في سنة ١٨٧٧ بان رجلاً من برلين
يقال له برنستين اصطنع آلة لعدّ الدراهم وتقدمها فاذا وضع فيها ليرات وكان
زائفاً وضعت الزائف وحده والصحيح وحده

واصطنع هنري دانيال سوفت آلة لعل مغلفات المكاتب وهي تقصّ
الورق وتضع عليه صبغاً وتطويه طياً محكماً

واخترع رجل من مدينة نيويورك بامريکا صبغاً من المغلفات لا يتيسر
فتحها سراً فان حاول احد فتحها ظهرت عليها في الحال كلمات افشت مجنابته
فانه قد طبع على ظهرها بمدايکياوي ابيض اللون لا يرى برأى العين هذه
العبارة مد قد حاولوا فتحها

واصطنع صوثيل هد صن ويوحنا بلتن آلة لعل البراميل بقدم لها الخشب
والمسامير فقط فتخرج البراميل منها كاملة

واخترعت كذلك آلة خفيفة سريعة العمل متينة الصنع تفتح من ذاتها
عري للازرار وتخطيطها وتكمل منها من ١٨٠٠ الى ٢٠٠٠ عروة في ٩ ساعات
واصطنع رجل من شيكاغو آلة لنضع الماء فوق النار نقطاً صغيراً جداً
قال ان بخار الماء المتكون حينئذ ينجل الى عنصريه الاكسجين والهيدروجين
ويحترق بجمارة عظيمة فتشتعل النار بسرعة لا مزيد عليها

(آلات بخارية) وكان قبل ذلك اعني في سنة ١٨٠٧ ظهرت اول
باخرة من السفن البخارية سافرت في البحر من نيويورك الى فيلادلفيا قال بعض
المولفين طالما تنازع مورخو الانكليز والفرنساوية والامريكان في اختراع هذه
الآلة البخارية فكل يدعي ذلك لاهل وطنه اما الذي حرره اراغو الفلكي
الفرنساوي هو ان الماكينه جي هيرون الاسكدراني (وقد تقدم ذكره في الكلام

على المدرسة البطليموسية في الاسكندرية) كان فكر في قوة البخار والمنافع التي يمكن تحصيلها به وكان ذلك في سنة ١٢٠٠م ولكن بقي هذا الرأي عتياً عدة قرون ثم في سنة ١٥٤٢ اكتب بلاسكودي غراي الاسبانيولي الاصول التي يمكن تحصيلها من تلك القوة وفكر في استعمالها وكتب مثل ذلك سلمون دو كس الفرنسي في سنة ١٦١٥ ثم في سنة ١٦٦٢ اشتغل بهذا الشأن ورشستر الانكليزي الا ان ما انتجته فكرته لم يكن كافياً في حصول الانتفاع بتلك القوة ثم في سنة ١٦٦٠ فكر في شأنها دينيس بايين الفرنسي (الذي تقدم ذكره في الكلام على اكتشافات القرن السابع عشر) الى ان ركب في سنة ١٦٩٥ الآلة البخارية باليستون وهو شي يشبه مدق المحلّة وهو اول من ظهرت له القوة القابلة للبيسط في آلة نارية حيث ان البخار يبسط عند شدة الحرارة وينقبض عند البرودة ثم اعنى جامس وات الانكليزي وقد ظهرت اعماله في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (راجع الكلام على انكثرة في القرن المذكور) بتوجيه العناية لهذه المائدة وبمختر عن سائر اجزاء الآلة البخارية حتى ارتقى في ذلك درجة تبيّله منصب الاختراع لها وقد كان دينيس بايين المذكور اشار الى امكان السفر بها في البحر وبين كيفية ذلك بغاية الايضاح وفي سنة ١٧٢٦ اخذ جونتان هلس الانكليزي الاذن من الدولة في استعمال الآلة المذكورة لسفينة لكن لم تتم له الواجبات فكانت جدوى فعلاً قليلة وفي سنة ١٧٧٥ صنع الماكينه جي بريا الفرنسي السفينة الاولى البخارية وبعد ثلاث سنين اخترع جوفروي الفرنسي الآلة المذكورة والقاهما على وادي دوب بفرانسا وفي سنة ١٧٨١ التي على وادي صون بفرانسا ايضاً سفينة كبيرة من ذلك النوع وسارت ثم استقل بالمائة المذكورة جماعة في انكثرة ونجح سعيهم فيها منهم ميلر في سنة ١٧٩١ ثم في سنة ١٩٠٢ جرب فلطن الامريكاني بباريس عملة بتلك الآلة فرأى مخايل النجاح وكان معه من اهل وطنه ليونسطن فوضعا على وادي صون الذي مر ذكره اول وايورنام بالعجلات وذلك في التاسع من آب من السنة المذكورة لكن لم يتفق انجاز ذلك

بفرانس لعدم اعتناء الدولة به في ذلك الوقت فلما ايس فلطن من نجاح سعيه هناك حمل مخترعه الى وطنه امرىكا واشهره بها ولذلك يقول الفرنساويون ان من سوء الحظ عدم انجذاب بال الدولة وقتئذٍ لهذا النتيجة الباهرة وفي سنة ١٨٠٦ سافرت السفينة البخارية المسماة كلرمونت من مدينة نيويورك الى مدينة فيلادلفيا (كما ذكرنا) في البلاد المتحدة بامرىكا وفي سنة ١٨١٤ شرع المذكور في استعمال الفرقاطة البخارية الاولى وتوفي قبل انمامها وفي حياته صنع بتلك المملكة عدة وابورات صغار منها المسماة فاطن الذي التقى بالسفينة الشراعية التي كانت ذاهبة بناجوليون الاول الى جزيرة سانت هيلنه التي بقي فيها بعد سقوطه من عرش الامبراطورية فلما رأى الوايور المذكور ودخانته تصاعد في البحر ندم على اعراضه عن تلك الماخرة التي تم ظهورها في غير بلاده وجميع التخريرات البخارية مستنبطة من قواعد فلطن المذكور لانه كان مهندساً حاذقاً ليلاً ثم اتمرها هنا المخترع في سائر جهات اوروبا

واما استعمال آلة الذنب المسماة بلغتهم اليس بدلاً من العجلات (ويقال لها في بلادنا الآن الدفاش) فاول من فكر فيها كان دوكي فرنساوي سنة ١٧٢٧ وبوكتون سنة ١٧٦٨ ثم في سنة ١٨٠٢ اخذ شارل واري الرخصة في عمل الآلة المذكورة الا ان سعيه اذ ذلك لم ينجح لعدم وجود المبالغ اللازمة من المال فاغتم المفترغ لهذا العمل اريكسون الشهير من اهالي اسوج وكان في المالك المتحدة الامريكانيه من سنة ١٨٢٦ الى سنة ١٨٤٤ فتم واستعمل في سنة ١٨٤٥ ثم شاع العمل به ايضاً

وكان قبل ذلك اعني في سنة ١٨١٤ اصطنعت المكابس البخارية وفي اثناء تلك المدة كان المهندس جورج وروبرت ستيفانسون بانكتاخرة يصنعان اول مركبة تامة بخارية تجري في الطرقات على الحديد فسافرت اولاً من ليفر هول الى مانجستر في سنة ١٨٢٥ (اقوم المسالك) ثم في سنة ١٨٢٧ اخترع مانوتيل مرتين من جزيرة كوبا قضبان حديد

لسكك الحديد يمكن وضعها على الأرض في حالتها الطبيعية ثم ترتفع عند الاقتضا وتُنقل من مكان إلى آخر بسهولة (المتنطف)

واختراع رجل آخر يقال له جون ايتون نوعاً من الارتال يسير في سكك الحديد إذا كانت المسافة بين قضبانها واسعة أو ضيقة ولا يخفى ما في ذلك من الأهمية لأنه بذلك قد زالت كلفة النقل واحتمال المشقة فيه عندما يكون البعد بين قضبان الواحدة ليس مثل البعد بين قضبان الأخرى (المتنطف)

ومنذ زمن قريب أُستعملت في فيلادلفيا أيضاً الآلة البخارية في المركبات الصغيرة التي تسير في الشوارع عوضاً عن الخيل (المتنطف)

(الستينوغراف) وكان في سنة ١٨١٦ اختراع رجل يقال له زامزي من سكوثلاندا بانكثرة الستينوغراف وهي كلمة يونانية مركبة معناها كتابة ضيقة أو مختصرة وهي طريقة يمكن بها السامع من استيعاب كفاية كل ما يسمعه أو ينطق به اللسان السريع بسهولة (الجنان)

واختراع رجل في لندن آلة للكتابة بها بصغر الخط الاعتيادي إلى جزء من الف الف جزء منه فلا يقرأ إلا بواسطة نظارة مكبرة وقال انه يستطيع ان يكتب الكتاب المقدس كله العهد القديم والعهد الجديد ٢٢ مرة في مساحة قيراط مربع (الاسبوعية)

واختراع توماس اديسون من نيويورك خبيراً يتمكن به العميان من الكتابة إلى بعضهم وهو دواة يُصب فيها ما لا ثم يكتب على قطعة ورق ولون ذلك الماء سنجابي اصفر ثم بعد دقيقة تأخذ تلك الحال المسطرة بذلك الخبير في الجفاف وترتفع حتى تنفر عن وجه الورق فيوضع الاعى يدك عليها ويشعر بنفحة حروفها واخترع رجل من اسبانيا علاجاً اذا عولج به الورق صار غير قابل الاحتراق ولو مما اشتدت حرارة النار وجهه ما تنقل به ان يصير فحمًا فان طرح فيها درج مطفوف يتم خارجه ويبقى داخله صحيحاً وتبقى الكتابة مفروقة في الخالين (المتنطف)

(الطبيعة) وفي سنة ١٨٢٠ اخترع المعلم ارستيدت الطبيعي من كوينهاغن قصة بلاد اسوج الابلكتروود بناميك وهو فرع من العلم الطبيعي غلبته معرفة المحوادث الصادرة من تفاعل الكهرباء والمغناطيسية في بعضها وهناك رجل اخر يقال له كولونب اشتغل بالمغناطيسية ايضاً واطهر انه يوجد جملة معادن قابلة للتمطس وعين وجود عنصر الحرارة المتحد والخفي وكان تكلم عنه رجل قبله بنحو قرن يقال له استال وسماه فلوجيسنيك اي اي عنصر اللهب ثم اثبت رجل اخر يقال له شيلب تشعشعه على خط مستقيم وانعكاسه من سطح المرآة المعدنية وانحصاره في نقطة اذا كانت المرآة مقعرة وذكر في المنتطف بان اهل اليابان اكتشفوا على طريقة معرفة وقوع الزلازل قبل حدوثها بواسطة اكتشافهم على ذهاب قوة المغنطيس ذهاباً وفتياً قبل حدوث الزلزلة فاخترعوا لذلك آلة من مغنيط نضوي وجرس صغير تحته وثقل معلق به فاذا فارقت المغنيط قوته غلب عليه الثقل فسقط على الجرس فيرن مندرأ بالخطر فيبادرون الى الفلاء

واستتب للمعلم ينك الانكليزي من مدينة هانوفر عمل آلة كهربائية لقياس حركة الاجرام الفلكية (النخلة)

واكتشف السيد هوجنس على ان العناصر والمواد المكونة للنجوم الأشد نوراً لا تختلف بته عن المواد والعناصر المكونة لجرم الشمس واهتدى الى ذلك بدليل التصوير اذ ان تصوير الشمس (وسوف يأتي ذكره) يتم بقوة تاثير اشعة النور المنبعثة من الشمس في بعض مواد كياوية او بتاثير نور منبعث من اشتعال مادة مغنيسية فصور هذا العالم قرص الشمس والنجوم فوجد تاثير نور الشمس في المواد الكياوية كملح النضة وباقي اليودورات لا يفرق شيئاً عن تاثير النجوم في المواد المذكورة فلخص ان ما استوى في وحدة المفاعيل استوى في وحدة الجوهر والطبع لاحالة ثم اكتشف الدكتور هنري داير الامريكاني بواسطة التصوير الشمسي ايضاً ان الاكسجين هو علة اشتعال المواد الملتهبة في سطح الشمس فان

الثابت عند علماء الهيئة ان سطح الشمس المذكور مجرد عجاج من النيران المضطربة
المحاذثة من اشتعال معادن وعناصر اخرى كالحديد والنحاس والزنك
والمنغنيس والهيدروجين وغيرها غير انهم كانوا في حيرة من سبب اشتعال
هذه المعادن والعناصر المذكورة فيها فاكتشف ذلك حديثا الدكتور هنري
المذكور واكتشافه هنا كفي الاعتبار عند علماء الهيئة وغيرهم وبوطد الامال
باتصال الانسان في مستقبل الاجيال الى درجة لا تخطر اليوم على بال
(النحلة . المنتطف)

واخترع الانكليز آلة تُعرف بها مدة اشراق الشمس واستعملوها مدة سنة
كاملة بالقرب من لندن فاستدلوا منها على ان الشمس اشرقت عندهم في
تلك السنة ٣٠٠ ساعة فقط
(النحلة . المنتطف)

وأصطنعت مناديل تدل على المطر بناء على خاصية كلوريد الكوبلت في
اللون حسب رطوبة الهواء فصوروا فيها صورة رجل حامل ظلّة (شمسية) مصبوغة
بهذا الكلوريد فاذا كان الطقس حسنا ناشفا ظهرت الظلة زرقاء وان اختلفت
صارت رمادية وان امطرت صارت بيضاء وان غُمِسَتْ زال لونها تماما

وكان في سنة ١٨٢٤ عمل اربو الطبيعي الفرنسي فرست البحارة
والحديد والغبار والجواهر الرطبة الساقطة من الجو من سنة ١٤٧٨ ق م الى
سنة ١٨٢٤ م زعم فيو انها تزيد عن ٢٥٠ سفطة فانكر عليه بعضهم صحة
ذلك بدليل وقوعها بظرف ٣٠ سنة بعد سنة ١٨٢٤ المذكورة اكثر من ٥٠ مرة
(الجغرافية) وفي هذا القرن ارسل الانكليز سفينة تسوح بقصد

الاكتشاف فنضت في الاسفار تلك سنين وستة اشهر وسارت مسافة ٦٨٩٣٠
ميلا فجابت الانلاتيكي مرارا والباسيفيكي مرة وكان اعنى قياس قاسته في
المحيط ٤٥٧٥ باعا بين جزائر ادميرالتي وياهلن واعنى قياس قاسته في
الاقيانوس الانلاتيكي ٣٨٧٥ باعا الى شمالي جزيرة في الهند الغربية ولما رجعت
الى بلاد الانكليز كان معها اشكال غريبة من نوع السرطان منها شكل يطفو

على الماء ليلاً شفاف تظهر كل اعصابه وعضلاته وباقى دقائق جسمه وكل راسه الا القليل عين له ومنها شكل اخر شبيه بسرطان الماء العذب عدم العيون ولما قاربت جزيرة امستردام في الاوقيانوس الهندي الجنوبي اصابت غاباً منسجماً من الاعشاب البحرية الكبيرة الحجم جداً قالت ان منها ما يبلغ الالف قدم طولاً وغلظة غاظ الانسان وفيما هي تسافر في الاوقيانوس المتجمد الجنوبي ثلجت ثلجاً شديداً وكان الثلج بلورات نجمية الشكل اذا اصابت الجلد كونه كما تكويه النار واكتشفت هناك على سبال غزير من المياه ينصب دائماً من جهة بحر خط الاستواء في خليجان بحر القطب الشمالي وعلى نبات اسمه فلوره قد انقلب الى حالة حجرية معدنية فاستدلوا من ذلك على ان الاراضي الكائنة في القطب الشمالي والآن هي مغطاة بالجليد كانت في البدء واقعة تحت المنطقة المعتدلة ومزهره ومثمرة كارضونا الى ان حدث الطوفان وسبب انقلاب كرة الارض وجعل ما كان منها في المنطقة المعتدلة ان يضي قطبا لها في الحاضر (المنتطف والنخلة)

وقد تمكن علماء الهيئة بأبد المراعاة الجديدة من رسم وطبع خارطة جديدة تعطي تفاصيل قعر البحر المحيط في كل جهاته فيروي رسم الخارطة المذكورة ان البحر المحيط مكون من ثلاثة اودية واسعة جداً تفصلها عن بعضها اراض مرتفعة على شبه قارات مغمرة بالمياه وكانت هذه الاراضي في البدء بيضا ومتصلة بالقارات الحالية وهذا الاكتشاف الجديد يسهل للناس الاطلاع على طريقة انتقال بعض الحيوان والنبات من قارة الى اخرى قبل طغيان المياه عليها (النخلة)

وفي سنة ١٨٧٥ اكتشفت منابع النيل عن يد سنغلي الامر بكاني بعد ان كان صبرف العالم في البحث عنه اكثر من الف سنة

واكتشف نرد نسيم كورد طريفاً تصل بين اوروبا وشمال اسيا مما يلي المنطقة الشمالية قال صاحبه المنتطف ان لهذا الاكتشاف اهمية تجارية عظيمة لان يسهل الاتصال الى بلاد اوسع من كل اوروبا خلا املاك روسيا

أما الأعظم من ذلك جميعه هو فتح خليج السويس اذ ان حفر هذه الترعه التي فصلت افريقيه عن قارة اسيا وصيرتها بمنزلة جزيرة هو اعظم دليل على اقدام الانسان وكان ذلك بواسطة اهتمام موسيو دو ايسبس العلامة الشهير الفرنسي وبو تسهلت طرق التجارة الى الممالك الهندية وغيرها وزالت تلك الاخطار والاثقال التي كانت تكابد بها السفن في مسيرها على طريق راس الرجاء الصالح لحد نهاية سنة ١٨٦٩ التي بهاتم هذا العمل العظيم

(الكهربائية) وبعد ان كان عمل المعلم كرويكس هانكس الانكليزي في سنة ١٨٠٤ الحياض الكهربائية (راجع اكتشافات القرن الثامن عشر) اظهر كذلك رجل اخر يقال له سبيك الكهربية بالحك في سنة ١٨٢١ (الساعات البرقية) وفي سنة ١٨٢٩ اخترع رجل يقال له ستانهل من مونيخ عاصمة بافاريا الساعات البرقية وبعد ذلك بسنة انتقها المعلم وانستون الانكليزي

(التلغراف) ومعناه الكتابة عن بعد كان مستعملاً من عهد قديم جداً بعلامات وإشارات متفق عليها يراها الناس عن بعد في عرفون الاغراض الموضوعه لها ولم يقتصر استعمالها على الامم المتقدمة بل كان شائعاً بين الامم المتوحشة ايضاً واشهر العلامات التي استعملت لذلك الرايات في النهار والنيران في الليل وقد اتصلوا بها في القرن الماضي الى درجة عالية من الاتقان الا ان استعمالها كان محصوراً في مصالح الدول وكانت ايضاً عرضة للخطأ وخصوصاً حينما يتكاثر الضباب. ولا زال العلماء باذلين جهدهم في اتقان تلك التلغرافات الى ان بزغت شمس التلغراف الكهربي فاخفت تلك النجيمات واشترك الناس اجمع بفوائد آلة يعجز القلم عن القيام بوصف المنافع التي نالها العالم منها على ان نور هذا الاختراع العظيم لم يشرق بغتة بل جاء من حين عدم الى الوجود تدريجاً كثيراً من الاختراعات وقد تتبع صاحب المنتطف

تاريخ هذه الماثرة من بزوغ الشعاع الاول منها الى ان صارت بداراً كاملاً فقال
ما ملخصه

جاء في كتب الاخبار ان تاليس المليطي الشهير (اول فلاسفة اليونان)
الذي كان قبل المسيح بست مئة سنة لاحظ ان الكهرباء اذا فُرِكت تجذب اليها
الاجسام الخفيفة كالخيوط والهباء وما اشبه وعرفوا في نحو ذلك الوقت ان
ابعض انواع الحديد خاصة جذب الحديد وسموا الحديد الجاذب مغنطيساً
نسبة الى مدينة مغنيسيا التي وجد بقربها ولا تعلم اذا كان القدماء عرفوا من
خصائص الكهرباء والمغنطيس اكثر من ذلك وجل ما نعلم انه حتى الجيل
السادس عشر لم يكن يُعرف سوى ان الكهرباء تجذب الاجسام الخفيفة اذا
فُرِكت والمغنطيس يجذب الحديد وتجه الى الشمال والجنوب وفي الجيل
السادس عشر وما بعد اخذت شمس المعرفة والحريّة تشرق في افطار اوروبا
فقام كبريت الانكليزي (ويقال جليبر او جليبرت على ما اوردناه في الكلام
على القرن الخامس عشر) وكتب كتاباً في المغنطيس والكهرباء مبنياً على
امتحانات وعرفوا حينئذ ان خاصية الجذب لا تقتصر على الكهرباء بل توجد في
مواد كثيرة كالزجاج والكبريت والشمع الاحمر وكل المواد الراتنجية وفي سنة
١٦٧٠ اصطنع الفيلسوف انوفون كيوركي النمساوي آلة من كبريت لظهار
الكهربائية وهي كرة من كبريت تدور على محورها بدولاب ثم ابدلوا كرة
الكبريت باسطوانة او بقرص من زجاج وصنعوا منها آلات كثيرة جداً انفقوا
عليها اموالاً لا تحصى بقصد جمع مقدار عظيم من الكهرباء بالبحث فيه وبعد
البحث المدقق وجدوا ان الكهرباء على نوعين نوع يظهر على الزجاج فسموه
الكهربائية الزجاجية او الموجبة ونوع يظهر على الراتنج سموه الكهرباء الراتنجية
او السالبة (راجع الكهرباء بائية في القرن السابع عشر) وان كلاً منها يجذب
نقيضه ويدفع مثيله وان الكهرباء توجد في جميع المواد وان من المواد ما يصلح
لنقل الكهرباء وسمي موصلاً ومنها ما لا يصلح فسمي فاصلاً او غير موصل ومن

الاول المعدن والحيوان والنبات ومن الثاني الزجاج والراتنج والشمع والزيت
والحرير فهذه هي الدرجة الاولى من اختراع التلغراف على نوع ما ونسب هذه
الكهربائية الفرك (او المحك على ما ذكرناها اولاً)

ولا يخفى ان للكهربائية افعالاً يعرف بها وجودها ومن هذه الافعال
جذب الاجسام الخفيفة كما تقدم ومنها ايضاً هز الاجسام الحيوانية وتفرق المواد
الخفيفة المكهربة من نوع واحد وخروج نور مصحوب بصوت وغير ذلك
وفي سنة ١٧٢٩ اكتشف موسيو له مونييه ان افعال الكهرباء هذه تنجز
على شريط موصل في برهة قصيرة جداً لانه جعل الهزة الكهربائية تنجز من
مكان الى اخر على شريط طوله ٦٠٠٠ قدم في اقل من ربع ثانية ثم في سنة
١٧٤٦ اكتشف الاستاذ كونيوس من مدرسة ليدن ما افتاده الى عمل القنبنة
الليدنية التي يحفظ فيها السبال الكهربائي مدة طويلة (وهي الجرة الكهربائية
او زجاجة ليد التي ذكرناها في القرن الثامن عشر)

ولما كان لا يظهر فعل للكهربائية ما لم يصر اتصال بين الموجبة والسالبة
كان يقتضي لظهار الفعل الكهربائي شريطان احدهما يتصل بالسالبة والاخر
بالموجبة وفي سنة ١٧٤٧ اكتشف الدكتور واطسن الانكليزي ان الارض والماء
صالحان لايصال الكهرباء وانه يمكن استخدامها عوضاً عن احد الشريطين
الموصلين للكهربائية فدل تلغرافاً في لندن طوله ١٠٥٠٠ قدم مستعملاً في شريطاً
واحداً قائماً على اعمدة وكمل الدائرة الكهربائية بالارض كما يشاهد في التلغراف
المستعمل الان الا انه استعمل كهربائية الفرك (او المحك) التي لم يكن معروفاً
غيرها وهي قصيرة الاقامة لا تدوم الا برهة بسيرة ولو جمعت في القنبنة الليدنية
المأزر ذكرها ولا جرم ان اكتشاف هذا الفاضل مهم جداً في التلغراف الا انه لو
وقفت الاكتشافات عندك لم يبلغ الناس الغاية المطلوبة

وقال المجرنال الاسكتسي المطبوع سنة ١٧٥٣ انه وردت اليه رسالة بتاريخ
اول اذار من تلك السنة يذكر فيها ثلاث طرق لعمل تلغراف مؤلف من ٢٦

سلكتا بعدد حروف الهجا عندهم ويدر بكهريائية الفرك وحيث كانت ايضا صاحب هذه الرسالة غير واضحة بني مجهولاً ولا يبعد ان يكون هو المخترع الحقيقي للتلغرافات الكهريائي وبجسب ذلك مدله ساج الفرنساوي تلغرافاً في جنوا سنة ١٧٧٤ اي بعد تاريخ الرسالة المذكورة بعشرين سنة وكان تلغرافاً مولفاً من ٢٤ سلكتا طرها في الارض بعد ان ادخلها في انايب زجاجة منعاً لافلات الكهريائية

وقال ارثرين الانكليزي انه كان في فرانساً سنة ١٧٨٧ فرأى ان موسيو لامند صنع تلغرافاً وكان يتكلم به مع امرأتين من مكان الى اخر وفي تلك السنة مد بينا نكور الفرنساوي تلغرافاً في اسبانيا بين ارانجوز ومدريد وبينها ٢٦ ميلاً ويظهر من المجلات المطبوعة سنة ١٧٩٧ ان رجلاً يقال له فرنسيسكو سلفا صنع تلغرافاً اخر في اسبانيا وعلى هذا المنوال صنع كثيرون تلغرافات متنوعة في بلدان مختلفة وكل منهم يجهل ان غيره سبقه الى ذلك ولكنهم استخدموا كهريائية الفرك التي لا تدوم الا مدة قصيرة ولا يتيسر الحصول عليها في كل حين وفي اوائل هذا القرن استتب لرجال العلم تكميل هذا النقص بايجاد مجرى مستمر من الكهريائية وذلك ان المعلم كلثي معلم التشريح في مدرسة بولونيا من اعمال ايطاليا كان يبحث سنة ١٧٩٠ في كهريائية الجوليري نائرها في اعصاب الضفدع فوجد انه اذا انصت بعض اعصاب الضفدع ميتة وتعرف بالصغيرة القطنية بمضلات ساقها بواسطة قضيب معدني يتشخ ساقها تشنجاً شديداً وكان قد رأى قبلاً ان كهريائية الفرك تشخ اعضاء الضفدع الميتة ايضاً فنسب تشنجها حينئذ الى سيال كهريائي في اعضاءها وزعم انه السبال الحيوي فمن ثم قام قولطه معلم الطبيعات في بافيا ودقق البحث عن سبب تشخ اعضاء الضفدع فوجد انها لا تشخ تشنجاً شديداً ما لم تتصل بالاعصاب بمعدنين مختلفين كالنحاس والتوتيا فنسب ذلك الى فعل كيمياوي ينتج كهريائية وبناء عليه صنع رصيفاً من صفائح نحاس وتوتيا بينها قطع من الجوخ مبنلة بماء ملح

ووصل الطرفين بسلك معدني فجرى عليه مجرى كهربائي من الرصيف ثم ابدل الرصيف بكؤوس ووضع فيها صفائح صغيرة من النحاس والذوتيا ووصل صفائح النحاس التي في الكاس الواحدة بصفيحة الذوتيا التي في الكاس الاخرى ووضع في الكؤوس سيالاً فيه حامض وملح فحصل من ذلك مجرى دائم من الكهرباء (راجع الكهرباء في القرن الثامن عشر)

ولما شاع هذا الاكتشاف في اقطار اوربا تأهل به العلماء وبادروا الى استخدامه للتلغراف فصنع المعلم سومرين البافاري تلغرافاً يدار بالكهربائية الكلفانية وذلك سنة ١٨١١ الا انه ركب من ٢٥ سلكاً ٢٥ منها للحروف الهجائية وعشرة للاعداد الاوائل وكان ناقصاً منبهاً بينه المخاطب بابتداء المخاطبة فخير هذا النقص عالم اخر يسمى شتيكر وفي سنة ١٨١٦ اشار الدكتور درمن كوكس الامريكاني بتلغراف كالمقدم ذكره غير عالم ان سومرين سبقه اليه وكيف كان الامر فلم يكن هذا التلغراف واقياً بالعرض ولو وقفت الاختراعات على هذا الحد لألغى من عين اصلاء او انحصر استعماله بالمصالح الدولية والاعمال الكبيرة ولكن ما كان من رجال العلم ليكتفوا به على تنصه فاعمالوا الفكرة في تكميله على الوجه الآتي

وبين سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢٠ رأى الاستاذ ارستدان السلك الذي تجرى عليه الكهرباء بحرف الابرة المغنطيسية عن وضعها فاخذ هذا الموضوع امبرالفرنساوي وبحث فيه البحث المدقق وكاد يصنع تلغرافاً متقناً الى الغاية وفي سنة ١٨٢٢ الف رولندس الانكليزي كتاباً يقول فيه انه مد تلغرافاً الى مسافة ثمانية اميال ينتهي بابرة مغنطيسية فعندما تصل الكهرباء الى الابرة تتحرك فتحرك دائرة مرسومة عليها الحروف الهجائية فيستدل من حركاتها على الحرف المطلوب وفي سنة ١٨٢٥ اصطنع ولیم سترجيون الانكليزي المغنطيس الاول الكهربائي من حديد لين على ما اشار امبرالفرنساوي وفي سنة ١٨٢٠ قال الاستاذ هنري الانكليزي بطريقة لازدياد قوة هذا المغنطيس وذلك بلف

السلك الكهربائي عليه لفات عديدة وفي سنة ١٨٣٤ لاحظ الاستاذ فراداي الشهيرة اذ اذا تحرك الحديد اللين الملتف عليه سلك من فولاد امام قطبي مغنطيس يحدث في السلك مجرى كهربائي وفي سنة ١٨٣٤ امد وبركوس تلغرافاً يعمل بالكهربائية المغنطيسية الحاصلة من آلة فراداي الماز ذكرها وجميع انواع الكهربية التي استعملت الى ذلك الحين كانت قصيرة الاقامة ولا تصلح للاستعمال في كل مكان الى انه في سنة ١٨٣٦ اخترع العلامة دانيال البطرية المنسوبة اليه وعلى مبداهما اصطنعت بطرية كروف وبنصن وسي وغيرها من البطريات المستعملة الآن فاعدت والحالة هذه جميع الطرق المؤدية الى غاية مشتهى هولاء الاعلام ولم يبق بينهم وبينها الا خطوة واحدة فخطاها مورس الامريكاني ونال اكليل الظفر لانه في سنة ١٨٣٧ قام مورس هذا في امريكا وستاهيل في بافاريا وهويتستون وفريس في انكلترة ووضع كل منهم تلغرافاً خاصاً مخالفاً لما سواه وادعى بشرف الاختراع ففضل تلغراف مورس لبساطته وسهولة ماخذه وفي سنة ١٨٤٨ نصب السالك الاول بين واشنطن و بالتيمور على ما ذكرنا ومن ثم استعمله اكثر دول اوروبا ما عدا انكلترة فانها لم تستعمل الا الطريقة التي وضعها المهندس الانكليزي وانستون وفي سنة ١٨٥٠ انتظم اول تلغراف بحري بين فرانسوا وانكلترا وفي سنة ١٨٥٧ وضع اول شريط تلغراف في البحر الاثلاثينيكي

ثم بعد كل هذه الاتعاب يقال ان رجلاً يقال له موسيو فيلاريت شاسلس وجد كتاباً ايطالياً تاريخ نشره سنة ١٦٦٢ فيه اشارة الى التلغراف الكهربائي وقد ذكرت ذلك مادام دوديفان ايضاً فان كان ذلك صحيحاً فيكون التلغراف اقدم ما هو معروف الآن لان ما جاء في كتب القوم عن التلغراف كان بعد ذلك بكثير بل لم تكن الكهربية الكلفانية معروفة وقتئذ

(البوستة الهوائية) وهي انابيب من الحديد اخترعت في انكلترة وبرلين يضعونها على عمق متر في الارض ليستعملوها في ارسال رسائلهم بواسطة الهوا

وطريقة ذلك انهم ياخذون الرسائل معينة الحجم ويجعلونها رزمة عشرين عشرين ثم يضعون كل رزمة في صندوق من الحديد ويضمون عشرة او خمسة عشر من هذه الصناديق الى بعضها ويضعونها في فم الانابيب المذكورة ثم ياطنون الهول من امامها او يكشفون من ورائها فيسوقها امامه في الانابيب على معدل الف متر في الدقيقة قال بعض المولدين لا غرابة في انه يأتي وقت واعلمه غير بعيد حينما ينتقل الناس على هذا الاسلوب العجيب من بلاد الى اخرى بيضع دقائق (التليفون) ومعناه التكلم من بلدة الى اخرى. ذكرت اصحاب الجرائد ان المعلم ارستاد امتدع الى اختراع آلة كهربائية للرسائل البرقية بسلك الاشارة منذ خمسين سنة ونيف ثم تبعه كثيرون من العلماء في اختراع اوائل شتى لتسهيل المراسلات البرقية وانقاذها ولا جرم انهم برعوا في ذلك براعة استحققت الثناء عليهم ولا سيما العالمان الشهيران السيد اليسع غراي الامريكاني من جند شيكاكو والسيد لاکور الدانيمركي من جند كوبنهاغن قد ادهشا العالم باختراعاتها منذ تلك سنوات خاصة فكان اختراع السيد غراي قائما في تركيب آلة توصل بسلك الاشارة دقائق الانغام و اشاراتها حسب اصطلاح الموسيقى الاوربية وتبلغ قدورا مختلفة بمجرد عدد معلوم من هزات السلك البرقي من بلدة الى اخرى وطريقة ذلك اذا وضعنا في قسبة الارغن سيالا كهربائيا وادخلنا فيها طرف سلك معدني ودقينا الارغن في لندن مثلا فالسلك المعدني يوصل الانغام بدقات محكمة الى طرفه الاخر في اية جهة من جهات الكرة الارضية ولكن قد فاقه اضعاقا ما اخترعه السيد ابراهيم غراهام بل الاسكوسي في امريكا الشمالية فقد استنبه له تركيب آلة برقية توصل صوت المتكلم وكلامه من بلدة الى اخرى و تعريف هذه الآلة بطبلان صغيران على شكل نصف دائرة قطر كل منهما قيراطان وثلاثة ارباع القيراط تكنتها دفتان من جلد رقيق مثل غشاء الامعاء وعلى جلدة الطبل دائرة صغيرة من الحديد الرقيق اللين على قدر بارة ملصوقة بغراء فاذا وضع هذان الطبلان الصغيران

تجاه طرفي قضيب معدني مُشَرَّب بالكهر بائية المغناطيسية وجعل المتكلم فمه في فوهة احد الطبلين من جهة الفراغ وتكلم كلاماً فصيحاً او غنى قدوداً متفتنة سُمِع كلامه وغناه مفضحاً من كان واقفاً عند الطرف الاخر من القضيب فجاه الطبل الاخر واذا كان المتكلم في لندن والسامع في الهند اقتضى امتداد القضيب المعدني مثل سلك الاشارة من لندن الى الهند ليسير الصوت به بهزات الكهر بائية واذا غنى اثنان في فوهة احد الطبلين سوية سُمِع صوت كل منهما صريحا عند الطبل الاخر وقد نال المعلم غراهام بل المشار اليه من الدولة الانكليزية براءة التوحد بالعمل لمدة اربع عشرة سنة واجرى المعلم بايت امتحان هذه الآلة في دار التحف بلندن فاعجب الحاضرين اتقان هذه الآلة ومفاعيلها وقال سر وليم طمسن عدواشهد بان لاسابقة لهذه الآلة في صنف الآلات الكهر بائية . ويقال بان الامريكانيين مصممون على امتحان استعمال هذه الآلة في حاضرتهم وذلك من نيتهم ان يشيدوا معبداً من الرخام في ساحة المدينة المسماة يونيون اسكوار ويضعوا فيه انايبس كهر بائية تنفرع على شبه سلك الاشارة وتصل الى جميع معابد وكنايس المدينة ولما يجتمع الناس نهار الاحد لقيام الصلاة كالمعتاد لا يجتاج الامر الى امام او قسيس لخطب عليهم ولا الى مرتلين وضاربين بالارغن وغير ذلك من آلات موسيقية ولكن سيكتفون بتوجيه نظرم وسمعم الى فوهة بوقٍ عظيم مفتوح في نصف صدر المعبد فيصعد خطيب فصيح ذو صوتٍ جهير على المنبر المنصوب في المعبد الرخامي المشيد وسط في الساحة المار ذكرها ويوجه صوته وخطابه نحو فوهة بوقٍ عظيم يتفرع منه نحو ٥٠٠ انبوب وكل انبوب يمتد الى معبد من معابد المدينة فتنتقل الكهر بائية كلامه وتموجات صوته الى مسامع كل من الحاضرين في معابد المدينة على مسافة اميال عديدة وذلك بتصريحٍ يغني عن حضور الخطيب بنفسه وكذلك الموسيعة الكنائسية يصبر استعمالها على هذا المنوال بواسطة اليريفون وذلك بوضع ارغن ذي انايبس نحاسية مكهربة تنقل دقات الانغام وقدودها بتصريحٍ وجلالوة ودقة لا مزيد

عليها الى جميع معابد المدينة وبواسطة هذا الاختراع سوف يتمكن الناس من استماع موسيقى دينية وموعظة اديية وهم جالسون في منازلهم اذا اخذوا اقبال انبوب من انايبب للمعبد الرخامي الى حجرهم ومخادعهم

وقد نشرت غازنة باكين وهي اقدم جرائد العالم باسرها فصلاً كتبه المعلم جين هود قال فيوان الذي اخترع التليفون كان الفيلسوف كونك فوهونيك الذي عاش سنة ١٧٦٢م وما زال هذا الاختراع معروفاً في الصين باسم ثوم نسين وهما كلمتان صينيتان وقال اخرون بان سودان كامرون وهم قبيلة في غربي افريقيا يستعملون آلة يسمونها الامبيق استعمال الافرنج للتليفون فيتكلمون بها عن بعد اميال بسرعة كلية واستعمالها عندهم قديم ويقال ان الطرش اذا كَلِموا بالتليفون يسمعون الاصوات فاذا امسك الطرش اسلاكه باسنانهم سمعوا الاصوات باكثر وضوح.

(المنجلة)

(الفونوغراف الناطق) وهو آلة اخترعها توماس اديسون الذي مر ذكره تسبك الصوت وتجسده للعيان كما تسبك المعادن بحيث تلبس الانامل وترى الاعين ما لا يشعر به الا السمع بل يجيى اصوات الموتي فضلاً عن ترديد اصوات المغنين والحنان المرغين وهو ينطق بكل لغة حتى لغة العرب ايضاً

(المقتطف)

(الميكروفون) آلة اخترعها المعلم هيوز الانكليزي لاستماع صوت صفار الاشياء وادقها كدبديبة رجل النملة واحنكاك خرطوم الذبابة وهي آلة صغيرة ساذجة التركيب حتى انه لو وضعت ذبابة صغيرة حية تحت قدح من بلور ووضعت هذه الآلة بلامسة القدح سمع الانسان حركة مشي الذبابة ودبديبة نقل ارجلها الست وقيل انهم سمعوا صوت فرك خرطومها ايضاً

(المنجلة)

(الفونسكوب) وهو آلة استنبطها المعلم هنري ادمنديس لظهار
توجات الصوت وطبقة بتغيير في النور المُسَمَّى بنجم غانسبوت
(النحلة)

(الفونديسكوب) آلة اخرى اخترعها مستر تيار لظهار فعل امواج
الاصوات بالاغشية السائلة الرقيقة
(النحلة)

(السيدر بوسكوب) وكان في سنة ١٨٢٨ اخترع المعلم وانستون
الانكليزي السيدر بوسكوب وهي نظارة ذات عينين تُجسَّم بها الصور وتستعمل في
البيوت لاجل الفرجة

(الفوتغراف) وفي سنة ١٨٢٦ اخترع رجل يقال له يوسف نيسفيور
نيالسي الفوتغراف اي التصوير الشمسي وكان ابتداءً به في سنة ١٨١٢ ثم تممه
بالاشتراك مع داغير الباريزي على الصفائح النحاسية في السنة المذكورة حينما
اخترع فوكس ثالبوت الانكليزي اخراج الصورة على الورق ايضاً واشتهر ذلك
في سنة ١٨٤٥ وبهذه الصناعة فوائد جمة في الطبيعيات والفلك

واخبرت بعض الجرائد عن الطبع الالبرتي وهي طريقة يمكن بواسطتها
نقل الصورة الفوتوغرافية بواسطة مطبعة الحجر بسهولة كآلية وانقان عظيم وكان
قد حفظ هذا الاختراع سرّاً الا انه قد اتشرا الآن وعُرف

(الالكتروغراف) وهو اقل اهمية من الفوتوغراف والتليفون الآانه
لا يخلو من الفائدة وهو مؤلف من قلم متصل برصيف كهربائي ويُعرض عليه
نوع من الورق فيثقبه الوقاً من الثقوب يمكن بواسطتها ان تنتقل صورة تحرير
او صورة شخص او كتابة او غير ما دفعات عديدة

(الجنان)

وانصل السيد بنيت العالم الشهير الى الاكتشاف على طريقة غريبة بصور

بها الاشياء بسرعة عجيبة لم يسبته اليها احد فقد صور نقطة ماء وهي ساقطة على زهرة والصاعقة وهي منقضة والرصاصه وهي خارجه من فم البارودة (النحلة) (ورق المحيطان) اصطنع في بلاد الانكليز ورق مزيت تبطن به المحيطان ويُغسل بالماء والصابون فلا يتغير لونه ويستعمل مقدار ٢٠ سنة

(مواد للاسراج) وكان في سنة ١٨٠٤م استخلص رجل يقال له مردوك الغاز من الفحم فابتدي في اسراجه بلندن في سنة ١٨١٦ ثم في سنة ١٨٥٨ صار اكتشاف زيت البترول المسمى في بلادنا بالغاز غلطاً

واخترع رجل من علماء الانكليز طريقة لاستخراج غاز الانارة من الماء وذلك بامرار الماء على الحديد الحامي ويشتمل بنور قليل وحرارة زائدة فيصلح لكل غرض يحتاج فيه الى حرارة عالية مثل الطبخ وما يشبهه وبه يُغلي ٤ ارطال ماء بكلفة ١٠ بارات ثم اذا مر هذا الغاز في البترول يوم اي الغاز الاعنيادي يكتسب منه كربوناً فيصلح للاضاءة وهو اذ ذاك ارخص من غاز الانارة الاعنيادي ٤٠ في المائة (الجنان)

واخترع مستراديسون الذي مر ذكره آلة كهربائية يصدر عنها نور كهربائي ساطع بسر الانسان بالنظر اليه فانه صاف غير متحرك خال من الاكثار ومصرفه ينقص الثلث عن مصروف الغاز ولا تصعبه اخطار كاطار الغاز وذكر في بعض النشرات ان موسيورينه اصطنع قنديل هذا النور الكهربائي قليل النفقة بحيث يمكن استعماله في البيوت والمعامل الصغيرة

(الزجاج) ومنذ برهة يسيرة اصطنع مسترنومس دكتن اسطوانة من زجاج علوها خمس اقدام ومحيطها ٧٤ قيراطاً وهي اكبر اسطوانة صنعت من زجاج في العالم

واخترع موسبودي لابيستي نوعاً من الزجاج لا يتكسر لا بالطرق ولا بالحرارة بل يتسهر بالمسامير ايضاً وهو ابيض شفاف كالبلور التي ذكر في احدي الجرائد الاسبوعية المنتشرة في سنة ١٨٧٥ بان هذا الاختراع كان سبق

اليورجل في عصر الملك طيباريوس قبصر ففتله هذا الملك خرقاً من انحطاط
قيمة الذهب والفضة بسبب اختراعه هذا . وفي المفتطف انه قد عمل له الآن
معمل في جنوبي بركلين من الولايات المتحدة الامريكانية

واخترع موسيو غاستون بلانتة الحفر على الزجاج بواسطة الكهر بائية
(آلات للحرب) ومن الآلات الحربية الفتاكة المستعملة في هذا القرن
التوربيد ويقال التوريل ايضاً ومعناه الرعدة وهي آلة نارية توضع في حمر
المراكب لاحراق البوارج وسائر السفن الحربية واعدامها قال صاحب المفتطف
انه كان اخترع هذه الآلة رجل يقال له داود بشتل امريكاني في سنة ١٧٧٦
ثم تلاه رجل اخر امريكاني في بداية هذا القرن يعرف بروبرت فلتن واصطنعها
في سنة ١٨٠٥

ثم اخترع رجل امريكاني اخر طريقة لوقاية السفن المرقومة من فعل
التوربيد المذكور

وكذلك اصطنع رجل من اهل فرنسيسكو مدفعا يطلق ٧٠ طلقة في ٤
ثوان و ١٠٥٠ طلقة في الدقيقة ويهلك على بعد ١٠٠٠ يرد والآلة بسيطة
جداً ولا يحتاج الا نفران من الرجال ويمكن لرجل واحد ان يديره كيف اراد
واذا ثبتوه مكن كانه صخر في الارض لا يتزعزع

واخترع رجل اخر مدفعا يطلق مع الكلة سيفاً حاداً يمر في الهواء مسلولاً
على طوله فيقطع صفوف الاعداء تنطيعاً فاذا أطلقت كلة قطرها ٨ قراريط
كفت لان تحمل سيفاً طوله ١٤ قدماً مسافة ٦٠٠ يرد

(تخنيط الموتى) اختراع رجل جرمانى يسي لول وطريقة ذلك هي ان
ينشف اجسادهم بغاز يدخله اليها فتبقى كما هي محفوظة من البلى والفساد وتغير
اللون وقد اثبت ذلك بمحض جمهور من العلماء

(الموسيقى) * وركب السيد نيدهام الماهر في فن الموسيقى آلة موسيقية
عبارة عن صندوق في هيئة ارغن صغير يتيسر لاتي من كان ان يضرب به جميع

الحان الموسيقى ولو كان صبيًا أميًا أو آخرس أو اطرش لا يفهم شيئًا من فن الغنا وما عليه في استعمالها إلا أن يضغط برجله دواسات قد ركبت في أسفل الصندوق بثابة منفاخ يلا باطن الصندوق بهواء يضغط اشارات الموسيقى وحينئذ تيدوم من الصندوق انغام حسب المطلوب لا تخل بتدود الموسيقى ادنى خلل (النحلة)

واستنبط في بلاد الانكليز ورق يفعل كالباروت بل هو اقوى منه ويمتاز عن الباروت المعتاد بكونه لا ينفج اثرًا على البنادق والمدافع ودخانه اقل وصد منه الى خلف اضعف

(واقبات الفرق) واخترع رجل يقال له ستونور من امريكا لباسًا للوقاية من الغرق وهو ثوب من الفلين ورداء من المغيط يلبس فوقه وقد جرب اختراعه هذا في نهر السين امام جمع غفير هو ورجل وامرأة غيره فلبس هؤلاء الثلاثة تلك الاثواب والاردية ونزلوا في الماء وكان الرجال يدخنون التبغ والمرأة تقرأ جريئة اولًا ثم جعلوا يتناولون الاطعمة في جوف المياه وبعد ما لبثوا في الماء ساعتين ونيف خرجوا وكان لباس المرأة حتى ادق زينة ثيابها صحيحًا سالمًا وكان زوجها قد لبس قبة من الورق قصدا فلم يلحقها ادنى بلل

واخترع مسيودومانو توماسي الباربيزي سفينة مركبة من سفينتين احدهما تغرق في الماء والثانية متصلة بها بانبوبين كبيرين وتطفو على وجه الماء وتكون مرتفعة عنه بعض اقدام ومزينة هذه السفينة على السفن الاعتيادية هي . اولًا ان الانواء لا تؤثر فيها . ثانيًا ان آلتها البخارية تكون في القسم الاسفل والركاب في الاعلى فاذا انفجرت انية البخار لا يصل ضررها الى الركاب . ثالثًا يمكن ان تبني السفينة المحرّبة على هذه الكيفية فاذا ضربت بالمدافع لانصل الى آلتها ولا تعطلها واذا اصاب صخرًا او رقرقًا برقع قسمها الاسفل حتى يلتصق بالاعلى والانبوبان متصلان بالقسم الاعلى اتصالًا لا يمكن فكّه بسهولة فاذا عرض للقسم الاسفل عارض ما ولم يمكن دفعه ولا اصلاحه يفتك الانبوبان ويسبر القسم

الاعلى كغيره من السفن

واخترع موسيو توسلي اختراعاً لنشل السفن من قعر البحر وهو كناية عن اجربة من الكاوتشوك (كزلا) متصلة ببعضها تنزل الى السفينة الغرقى ويمكن طرفها بها ثم تلف حولها وتملأ هواً بواسطة آلة هوائية فترتفع هي والسفينة

واخترع رجل امريكاني اختراعاً يدعى تساق به السفن الى الامام والوراء وتدور على نفسها او تُرَدُّ من جهة الى اخرى كيف اراد ربانها

واخترع ضابط مجياري يقال له زونس آلة تمكن الخيل من السباحة وتمنعها من الغرق اذا اقتضى ان تقطع نهراً وقد عبر نهر الطونه راكباً على فرسٍ ومتسلحاً في 7 دقائق مع ان المسافة 7٠٠ متر نحو ١٢٠٠ ذراع

(الواقيات من النار) واخترع رجل اسوجي يقال له استبرج ثوباً يلبسه

الانسان على كل جسده داخله مصنوع من المغيط (اللسنيك) وخارجة من الجلد الانكليزي وخوذة يلبسها على راسه وانبوبة من الجلد ضمنها انبوبة اخرى اصغر منها تشد على وسطه الاولى تملأ ماء والثانية هواً بواسطة آلات معمولة لذلك وقد روت صحف الاخبار بان رجلاً يقال له القبطان السنروم اقيم

الديران في قصر الكسندرا بلندن وهو لابس الثوب المذكور وجعل ينمشى على حزم من قرامي الحطب اليابسة جداً وملتهبة اشد الالتهاب بما صبوه عليها من زيت البترول (الغاز) وبعد ان بقي في النار ١٠ دقائق بخطر متبخرآ واللييب يعاوه تارة وينخفض اخرى اخذ كرسيًا مشتعلًا وجلس عليه امام الجمهور يدخلن سيكارتة حتى اذهل كل من حضر مع ان حرارة النار كانت لا تطاق على بعد

٤٠ ذراعاً وينف الى جهة الريح وتقهقر عنه الوقوف كثيراً

واخترع رجل انكليزي يقال له نديال آلة بدبعة يتيسر بها التنفس مدة لا اقل من نصف ساعة في وهط اكثف ما يمكن ان يكون من شدة كثافة الدخان وفائدتها العظي لاصحاب الطلقات في طفي الحريق (المتنطف)

(حروف الكتابة القديمة) وكان في سنة ١٨٢٢ اتقدي المعلم شمبوليون

العالم الفرنسي الشهير بالمخافة الى قراءة كتابه المصيرين المسماة بالحروف
الميروغرافية فاعان هذا الاكتشاف ماريمت بك المامور على دار التحف المصرية
على تأليف تاريخ مصر الذي استنبطه مما استخرجه من الآثار القديمة المدفونة
في اراضيها .

واهتدى السواح الفرنسيون والانكليز الذين طافوا اكثر انحاء بلاد
البن واحفروا كثيراً من خرائب المدن الى معرفة القلم العربي القديم المعروف
بالمسند من الآثار الكثيرة التي اكتشفوها متفوشاً عليها بالقلم المذكور بواسطة
مقابلتها بالخط الحبشي والكوفي والفينيقي والبراني الى ان وصلوا الى قرايتها
وترجمة بعضها وقد كتب مولود جريدة المتطف عن قطعة من البلاط وجدها
مسبوكلدور في اميان الى جهة الشمال الشرقي من عدن شيئاً يسيراً من هذا
الخط وتبعوا ما اكتشف وقري من هذه الكتابات لغاية تموز سنة ١٨٧٥ فاستنجوا
منها حروفاً تقابل كل الحروف العربية ما عدا خمسة منها وادرجوا ما كتبوه
واستنجوه في الجزء الاول من جريدتهم المذكورة

واهتدى سِر هنري روبنصن والسيد سميت الانكليزيان الى معرفة القلم
الاشوري وخاصة السيد سميت المذكور فانه درس اللغة الاشورية وبرع فيها
وتضلع في اصطلاحاتها اللغوية حتى صار يقرأ بطلاقة كل كتابه وجدها منقورة
في الآجر الاشوري وكان مقتنياً في ذلك الطريق التي سبقه اليها العلامة
شمبوليون الماز ذكره في معرفة القلم المصري وقد طبعت صورة هذه الحروف
الاشورية مع ترجمة العلامة المذكور في جريدة من جرائد النحلة المطبوعة في
لندن سنة ١٨٧٧

نقدم الصناعة بالنسبة الى العلوم ومركزها في القرن

التاسع عشر

لا يخفى بان العلوم والصناعات هما صاحبان متلازمان بل شقيقان توأمان اذ

ان افكار البشر لم تلد حقيقة علمية الا وتغضت معها بدقيقة صناعية ولاشعرت
بم حاجة صناعية الا والتجبت فيها الى الارشادات العلمية. قال صاحب المتقطف
ان نمو الصناعة وتقدمها وتنشيطها واتقانها والتفنن فيها وفي انواعها جميع ذلك
لا يتأتى حصوله واجتناء اثمار فوائده الا بوسائط متسلسلة يتوقف بعضها على
بعض فان اتقان الصناعة والتفنن فيها وفي انواعها يتوقفان على الاكتشافات
النافعة والاستظهارات المفيدة وهذان الامران لا يمكن ادراكها والحصول عليها
ايضا الا بواسطة العلوم التي توسع دائرة معرفة الحقائق التي بها يرتقي العقل
البشري الى درجة سامية فتتكشف له اسرار الطبيعة الكائنة تحت اسنار الخفا
فيستخرج منها كل ما هو نافعا ومفيدا لاعماله ومساعد له في ادراك مقاصده
وحيثئذ يميز ما يمكن تصديقه من تصورات عقله ويخرجه من حيز القوة الى
الفعل فالفلسفة اذن تبحث في خواص الموجودات والعلوم تحقق للعالم ما
يتصوره عنده من منافعها وفوائدها والصناعة تتكفل بابراز ذلك من حيز
التصور الى قوة الفعل اه

والالتفات الى هذه الحقيقة عينها جعل اوروبا اما للعلوم والمعارف ومصدرا
للخائف واللطائف ومركزا للتجارة وثروتها ومجتمعا للقوى المادية والادبية
وصولتها الى غير ذلك من الامور التي بها تتحصر ثروة العالم وقوة المالك العظمى
ومجد الشعوب المتدنة ايضا اذ انهم لم يتمتعوا بشيء من خيرات العالم ولم يسلبوا
ثروة امة من الامم بواسطة الصناعة التي تكفلت لهم بالقيام في كل ما تحتاج اليه
اجناس البشر من ضروريات معاشها كلية كانت او جزئية الا وتهدت لهم
صفحات التواريخ بانها تنزىن بذكر مناقبهم وفضائلهم وتغلى بما لا يدبهم البيض
من الاعمال النافعة العائدة لخير النوع الانساني حتى لم تبق مملكة من ممالكهم
بل ولا امة من ائمةم الا وذكر لها فنيها من المآثر الحميدة والمبررات العديدة ما يفتي
الغير في زوايا النسيان ويجعله في خبر كان وما ذاك جميعه الا من اثار قيامهم
حق القيام بخدمة ما ذكرناه من العلوم واعنائهم في اتقان المدارس التي اسسوها

لكل منطوق ومفهوم سواء كان من العلوم العقلية او الفنون الصناعية وشحنوا
 بها بلادهم ليتخرج عليها كبيرهم وصغيرهم جليلهم وحفيرهم غنيهم وفقيرهم
 وازفت الى ذلك القاعات العظيمة المخصصة باجتماع علماءهم ايضاً يجتمعون
 فيها للمذاكرات العلمية وتلاوة الخطابات التي يولفونها في اي فن كان من
 الفنون والبحث في ما تبعث به اليهم مراسلهم في اقطار الارض من المخابرات
 والمداولة في ما اجرهه او سيجرونه من العمليات وما ظهر لهم بواسطة التجربات
 اولاح في افكارهم من الظنون والمحدثيات

وزد عليه خزائن الكتب السلطانية فقد ذكر صاحب كتاب اقوم المسالك
 بان تنالي الذي كان وزير المعارف العمومية في ايطاليا قد عمل جدولاً ببيان
 كميتها بعد تمام مجتبه عنها في سنة ١٨٦٧ فبلغت ما يأتي (واعلم بعد كل ما
 اغضى عن ذكره

مجلدات

الموجود بخزائن ايطاليا واغلبه من الكتب القديمة المتعلقة بالديانة	٤١٤٠٢٨١
بريطانيا العظمى	١٧٧١٤٩٢
بلاد النمسا	٢٠٠٠٤٨٨
بروسيا	٢٠٤٠٤٥٠
الروسيا	٨٥٢٠٠٠
بلجينا	٥٠٩١٠٠
باويرا	١٢٦٨٥٠٠
فرانسا	٤٨٩٠٠٠٠
	<hr/>
	١٧٤٧٢٢١٢

وقال ان في باريس وحدها ثلث العدد الموجود بمملكة فرانسا كلها ففي
 قاموس العلوم المحرر في هذه السنين الاخيرة ان الخزانة السلطانية بباريس بها

من الكتب على ما تحرر في سنة ١٨٦٣ م مليون من الكتب المطبوعة وثمانون
الف مجلد بخط اليد وغاية ما كان فيها وقت تاسيسها سنة ١٨٢٠ م ١٠٠٠ مجلدات .
وهذا القدر الموجود الان هو غير اربعين الف خريطة في فن الجغرافيا
وعدد كثير من الرسائل ونحوها مما لا يطلق عليه اسم مجلد وقال رفاعة بك
الطهطاوي ان هذا كله من تاثير الحرية فيها ويوجد في باريس ثلاثون خزانة
غير الخزانة المذكورة متفاوتة في الكبر كما توجد خزائن معتبرة نظيرها في سائر
مدن اوروبا وهذه الخزائن جميعها تُفتح في ساعات معلومة بالنهار ومنها ما يُفتح
بالليل ايضا للطلبة والراغبين في الاستعارة او لنصد مجرد الاطلاع وحولها بيوت
للتعلم وهي مملوءة على آلات الكتابة ما عدا الورق فانه يأتي به من اراد
الاستنساخ ويطلب الكتاب الذي يريد ببطاقة يدفعها الى المكلف بذلك
واذا احتاج الى اكثر من كتاب يبين السبب فيها فيحضره في المحين ما طلب
وحين خروجه من ذلك المحل يسلم للمكلف المذكور ما اخذه من الكتب وهذه
المنحة مبدولة لكل راغب سواء كان من الاهالي او من الاجانب واما من كان من
المولفين المشهورين فيسوغ له نقل الكتب للانتفاع بها في مهلة اقصاها عام اذا
طلب ذلك بالكتابة وبين السبب الداعي لاخذ الكتاب وعند مضي المدة اما
ان يرجع ما اخذ او يطلب تجديد التسوية مدة اخرى هذا عدا عما يوجد عند
الاهالي من المكاتب الخصوصية فانه قل ان وجد انسان لا يعرف القراءة
والكتابة في اغلب مالكة اوروبا المتقدمة وكل من كان كذلك كبيرا كان او صغيرا
غنيا او صعلوكا لا بد له من خزانة كتب على قدر حاله وفي اغلب هذه المكاتب
الخصوصية كثيرا ما توجد بعض الآلات الهندسية وغيرها ما يلزم الى معاناة
العلوم والنون ومن الآثار القديمة والغريبة ما يشوقهم للدرس والمطالعة واعمال
الفكر في دقائق الصناعة

ومع كل ذلك لا يسي عالماء عندهم الا من كان متضلعا في معرفة الحقائق
بارعا في كثير من العلوم والفنون اما من كان لا يعرف الاعلماء واحدا فلا

بدعونه عالماً ولو كان من امناه الدين فان امناه الدين عندهم لا بوصفون
 بالعلم متى كانت معارفهم مقتصره على الامور الدينية فقط وكذا العارفون بقواعد
 اللغة كالنحو وغيره لا يُعدون عندهم من العلماء الا اذا كانوا يعرفون علوماً غيرها
 تساعدهم على بلوغ ما رغبهم وتنبههم مقاصدهم

وهذه الطريقة قد صارت المشاهير بينهم بالعلوم والصناعات اكثر من ان
 يحصوا والساعون فيما يزيد انواع البشر تحسباً اجل من يضبطوا لان الطلبة
 في اوربا يتصدون المدارس لتعلم لغة اجنبية يتبهون بها عجباً على ابناء وطنهم
 اوندت بواسطتها خمرة الكبر في رؤوسهم فيمهلون قبل كل شيء لغتهم الاصلية
 لزعمهم بانها لم تعد لائقة باناس نظيرهم قد ارتقوا الى درجة سامية من المعارف
 والعلوم التي لا تسمح لهم ان يتنازلوا بعدها الى التعيش من الصناعة ولو كانت صناعة
 آباءهم واجدادهم وانما نقضي عليهم بان ينظوا ذواتهم في سلك العلماء الذين
 لا يعرفون منهم غير وولدير وجانجاك روسو وريبات وامثالهم فيتخذون نتائج
 افكارهم بدون الوقوف على السفسطات التي اوصلتهم اليها ليموهوا بذلك على
 انراهم بانهم قد صاروا اهلاً لاقتباس عوائد الافرنج وملابسهم ويسوغ لهم
 حينئذ ان يستهزئوا باسلافهم وينقدحوا في عوائد بلادهم واداب آباءهم نظراً لما
 وصلوا اليه من درجات التمدن وسمو الافكار التي لا يمكن انتظارها ممن لم
 يمزج كلامه مع ابناء وطنه الذين لم يتعلموا لغات الافرنج بشيء من الالفاظ
 الاعجمية بل يقصدون المدارس لكونها هي الواسطة الوحيدة لتحصيل معرفة
 الحقائق التي ذكرناها ليتوصلوا بها الى الكشف عن اسرار في الطبيعة تمكنهم من
 ادراك غاياتهم التي يقصدون بها لا مجرد اتقان الصناعة فقط بل وايجاد وسائل
 لسهولة علمها فترغب الناس فيها لرخص اثمانها وتعرض عن مصنوعات المحلية
 نظراً لغلاوتها بحسب اكلانها وبذلك يحصلون هم على الغنى الذي يؤتم لهم اسباب
 الرفاه في المعيشة على ما تقدم ولذلك قل ان وجد انسان صاحب صناعة
 من اهالي اوربا غير منخرج في اتقان صناعته على المدارس المعدة لتعليمها كما

انه لا عالم ايضاً يستنكف من معاظاة الصناعة عند الاحتياج اليها
وهذه المقاصد نفسها هي التي جعلت الملوك يرغبون الناس في الاخذ باسباب
التمدن وينشطونهم بالجوائز وبعلامات الشرف والافتخار وبوضع صور مشاهيرهم
في الجامعات العامة لا لتوفير الكفر بل لتوفير دواعي البحث عما يمكن ان ينفع جنسهم
ويخلد ذكرهم فتعمر ما اكهم وتملى خزائهم بواسطة الصناعات واتساع دائرة
التجارات

ولذلك تكاثرت الفلاسفة في اوروبا حتى لاظنه يخفي من يقول انهم
صاروا اكثر عدداً من امبي سوريا واخذوا يطوفون البرور والبحار ويتوغلون
في شوارع الاقطار ويرتكبون المشاق والاختار ليبحثوا في كل ما هو داخل دائرة
الوجود جليلاً كان او حقيراً غير مباليين في ازدراء المتبررين الذين حتى الان
نراهم يهتمون عليهم ضحكاً عندما يرونهم في اغوار البلاد وانجادهما مشتغلين في
رصد حركات ما يقع تحت ابصارهم ولو كان من ادنى الحيوانات وجمع ما هان
او رزل في ابصارها الى الشرق من الاتربة والاحجار بل وادنى النبات او اقدر
الحشرات ولا سيما عندما يستدلون على قلة عقولهم بما يظنون انهم اغتموه منهم
من الدراهم والدنانير وعروضهم عنه ما زعموا بان لاقية اولانفع له ما استخرجوه
بواسطة حفر الاراضي من الاحجار المشغولة او ما باعوه لهم بشئ مناسب من
الكتب والمولفات فالبت القوم حتى سلبوا البلاد حلاها الثمينة وجميع ما كان
فيها من اثار معارفها القديمة ولسان حالهم يتثل بقول القائل

لو كنت تعلم ما اقول عذرتني او كنت اجهل ما تتول عذرتكا
لكن جهلت مقالتي فعذرتني وعرفت انك جاهل فعذرتكا

ويثل هذا الاجتهاد قد فاز السواح منهم ايضاً بفك طلاسم الامم القديمة اذ
عرفوا الحروف الهير وغلينية المصرية والفينيقية والاشورية والحميرية واستخرجوا
من دفاين الخرابات معارف قدماء الامة المصرية وهم الان يشتغلون في البحث

عن اثار بابل وببائي واستخراجها من خراباياها العظيمة (ببائي بلدة في ايطاليا
 خربت ببركان بزوف) فاستخرجوا كثيراً من غرائب ونحف بعجز اللسان عن
 وصفها واستدلوا من فحصها على حالة تينك المدينتين الادبية والسياسية والعلمية
 والصناعية ولم ينتمهم عن عزمهم واقدامهم على ما يتصورونه وتحقق لهم عاومهم او
 ظنونهم انهم ينالونه لوم الانداد ولا مقاومة الحساد ايضاً كما وقع للدكتور هنري
 شلين الجرمانى في الكشف عن الكنوز التي ذكرها اومبروس الشاعر اليوناني
 بانها دفنت مع الملك اغاممنون الذي غزا ترواده واخرها ولما لم ترض معه
 دولة اليونان بان تساعده في مصاريف مجتهد عنها في خرائب مدينة مسيني قبل
 معها بان يصرف تلك المصاريف من مالها فسمحت له حينئذ ان يستخرجها
 بحيث تبقى للدولة اليونانية فلا يستولي على شيء منها فتدفع حينئذ مجرد نسبة
 اكتشافها له في سجلات البلاد واظهر من تلك الدفائن الثمينة ما يبهر العقول
 وتباهى بالاستيلاء عليه تلك المملكة الصغيرة المتخلفة بكثير من الآثار التي هي من
 هذا القبيل فانه يحكى بان دولة انكلترا ارادت ان تسع هذه المملكة بكل ما لها
 عليها من الديون في مقابلة بعض اثار قديمة رغبت فيها من الموجود عندها
 فلم تقبل ومن اعظم فوائد هذه الآثار عند الافرنج وضعها في المعارض العمومية
 التي احدثوها لاجل المباهاة في الصنائع والاشغال فيحصل التنافس فيها وبزاحم
 بعضهم بعضاً على انقائها والنور في اكتساب شهره التقدم في اعمالها
 وقد بلغ من معارفهم وثقتهم في اصابة افكار عظمائهم ان يقدموا على عظام
 الامور التي يؤملون بانها تعود عليهم بالنفع ولذلك لم يتأخروا عن ان يمدوا
 موسيو دوليسيس باموالهم لانجاز مشروعه في حفر ترعة السويس غير ملتفتين
 الى الترهات التي كان يهددهم بها رقبطة عن الطوفان الذي زعموا انه
 يحدث من اخلاط البحر الاحمر بالبحر الابيض ويقال بان في نية رجل اخر
 يقال له موسيو ماينير حفر ترعة مثلها تصل الاوقيانوس الانلانتيكي ببحر الروم
 وتعرف بترعة دوميدى وكذلك في قصد جمعية امرىكانية حفر ترعة تصل بحر

قزوين بالبحر الأسود وربما اغتنيها وصل نهر دون بنهر قولكا
ولم يقتصروا في البذل والسخاء على امور نظير هذه يوملون لغلة التمتع من
حصة اسهام اشتراكهم فيها فضلاً عن رواج متاجرهم الخصوصية بل يبذلونها ايضاً
في سبيل تقدم الصنائع على أية صورة كانت فانه يقال بان تاجر امريكانياً
وهب خمسين فداناً من الارض وخمسين الف ريال لاقامة مدرسة عالية يُعلم
فيها الطبخ على اصول وقواعد علمية في ولاية مسشوستر من الولايات المتحدة
وعقدت كذلك جمعية كياوية في الولايات المذكورة جل منصدما تنشيط
الكياويين ومساعدتهم لترقية اسباب المعارف الكياوية

واوقف تخار من تخاري دانيارك ٧ ملايين و ٢٨٠ الف غرش لاجل انشاء
معامل لترقية العلم والصناعة بالبحث والتجريب وجعل على هذا المال ٥ من
الوكلاء الامناء يبذلون قسماً من دخله السنوي في سبيل ما انشأه حديثاً من
المعامل الكيوية والفيسيولوجية ويبذلون القسم الاخر بعد وفاته ووفاة زوجته
في سبيل العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة والتاريخ وعلم اللغات
واشتهر رجل من زوريك بفن الكييا فلما درت الحكومة بمبلغ علمه وبعد
صنعه وكبر نفعه منحه قطعة ارض واسعة و ٦٠٠ الف فرنك لبناء معمل كياوي
هناك ولما رأى اهل البلد صنيع حكومتهم تكفلوا هم ايضاً بتقديم كل ما ينتضي له
من النفقات فوق ما ذكر

فن هذه المثالات ونظائرها تتحقق ما للصناعة من الشرف عند اهالي اوروبا
ومقدار اعنائهم بها فلا نحصر المجد العظيم الذي لعلماء الطبيعة في مجرد اذلال
العناصر وتطويرها لخدمتهم كتنسيخ المادة التي كان اقام لها اليونان الها من
اولاد جوپتير معبودهم ليبيء لاييه منها الصواعق فجعلوها هم بمنزلة البريد
لايصال مخابراتهم ولا في تنزقهم حرمة تلك المقاسمة التي زعموا بانها جرت بين
ذلك المعبود واخويه حيث سلبوا من ابلوطون السلطة على النار واستخدموها
لامتطاء متون العواصف المائية والتيارات البحرية بل واصبحوا قادرين ايضاً

على ما يظن الجاهلون بوبائه من خوارق الطبيعة ويقرونه بعمل اصحاب الكرامات كالمشي على وجه الماء والجأوس في وسط لهيب النيران على ما قد سبقت الاشارة اليه في الكلام على الاكتشافات العلمية والتقدمات الصناعية في هذا القرن الذي نحن بصدد تقدمات الصناعة فيه بل يلزمنا ايضاً ان نعرف ما لهم من ذلك المجد في ما قد اقاموا به من حقوق الصناعة ايضاً وانقائنا حق الاتقان حتى بلغ اصحاب المعامل في اوربا ان يعملوا اعمالاً لولا انهم بين اظهرينا لابرنا الحكم عليها بانها من صنع الجان

حكى بان امبراطور المانيا الحالي دخل ذات يوم الى معمل من معامل الابري في ميكنو يريد ان يعرف مبلغ الانسان من الدقة في الاعمال بالحرف التي يستعملها لها والآلات التي اخترعها لمعونه وبينما هو يتنقل في المعمل وقع نظره على ابر دقيقة الى الغاية اذا وزن الوف منها ما زادت على الدرهمين ان الثلاثة فاخذة العجب ولا سيما لما راى عاملاً يثقبها ونظره غير مستعين بآلة فقال له العامل اني اري جلالكم ما هو اعظم من ذلك وطلب منه شعرة من شعر راسه فاعطاه فوضعها تحت المثقب وللحال ناوله اياها وفي سها خيط فخرج الامبراطور وهو يثني وقد اعترته دهشة ما راى وكذلك ابرة اخرى عند الامبراطورة فكتوريا ملكة الانكليز الحالية اراد المتأخرون ان يباهوا بها اعمال المتقدمين فنقشوا عليها نقوشاً كثيرة منقولة من حياة الملكة المشار اليها كما كان المتقدمون ينقشون على الاعمدة التي ينصبونها لمن يشتهر منهم وكل ما هو منقوش على الابرة نافر على غاية ما يمكن من الدقة ولا يرى الا بمنظر مكبر والاغرب من ذلك ان ضمن الابرة ابراً ادق منها بعضها ضمن بعض وجميعها منقوشة كالابرة الكبرى هذا ما كان من امر انقائهم النكاة الصناعية الدقيقة ونظير ذلك في الاشياء العظيمة الحجم ايضاً كذلك الساعة للعظيمة المهولة التي ذكرنا في ما مر انهم اقاموها في لندن عاصمة المملكة الانكليزية وقبة الجرس الحديد العجيبة التي اشرنا كذلك بانهم انشأوها لكاتدرال روان في المملكة الفرنسية

واصطنعت كذلك في بارنر ساعة للمعرض متقنة الصناعة تدل على
الساعات والدقائق والثواني وايام الاسبوع واشهر السنة ووجه القمر وتغييرات
التيرومومتر والبارومتر

وبلغ من تحسين عمل الساعات في سويسرا انهم اخترعوا لكتابة الارقام على
اليمين مادة تنير في الليل فتقرأ ليلاً كما تقرأ نهاراً وانما تحتاج ان ترى نور الشمس
ساعة من الزمان

وعلى هذا يمكننا ان نقيس باقي معمولاتهم الصناعية التي ادهشوا بحسنها
وانقاذها اعم المشرق وسلبوا منهم الثروة والغنى سواء كانت من المعادن او غيرها
من الاتربة وسائر العناصر الارضية كانية البلور والمرابي وانواع الفخار الطريف
والبلاط فضلاً عن اواني الذهب والفضة وانواع الحلي التي منها ما برصعونه
بانواع الحجارة الكريمة وما يصنعونه من معادن الحديد والرصاص والقصدير
والتنك كاواني البيوت وخاصة ادوات الصنائع والاتيها للنجارين والمعمارية
والمحلاقين والقوافين والآت العزف الموسيقية والآلات الهندسية والفلكية وما
تفنن فيه الالمان والفرنساويون من ادوات الحرب والاتيها المهلكة التي اخترعها
واعداها لمحاربتها الاخيرة من الطينجات المضاعفة وبواريد الابرة والصاشين
ومدافع المترايوز والكروب ولاسيما المدفع المخترع اخيراً بعد الحراية المذكورة
وقد ذكرت صفاته في ما تقدم والرعادات المسماة بلغتهم توربيد او توربيل
المخترعة لاجل انلاف البوارج المصفحة واحراقها والآلة التي اخترعت في بلاد
الانكلز ضداً لها وغير ذلك من الوسائط الفعالة المتكفلة بافناء الجنس
البشري ايضاً

وقد عرف كل فرد من اهالي بلادنا ما للقوم من البراعة في ما يصطنعونه
على الانوال ايضاً بمساعدة الآلات البخارية من اقمشة الكتان والقطن والصوف
والحرير على اختلاف انواعها ونقشها بالالوان الجميلة كيف لا وهي سبب تعطيل
حرفته وبيعته فقده وفاقته ومنها انواع الغزل والمنسوجات الساذجة كالبنز

الابيض والماناديل والمخارم والشبث والتدويرات والكفوف والجوارب والبرجك
والنول والإناونز والاطلس والجوخ والچواتات والحبال والنخيطان والبسط
والسجادات الرفيعة والشاش والدامسكو والشالات التي يقدون بها صناعة
الكشبر وغير ذلك من الأقمشة الصوفية الساذجة الرفيعة لاثواب النساء
والفانله والمخمل حتى الخمام المصبوغ والديمال والطرايش التي كان يجب ان
نشتغلها نحن اقلما يكون لذواتنا اذ انهم هم لا يلبسونها

واخترعوا حديثاً في باريس صناعة عمل الجوخ من ريش كافة الطيور البينية
والخلوية على ارفع منوال واعظم مثال على انه من ٧٠٠-٨٠٠ جرام ريش يمكن
استخراج متر مربع جوخ اخف من الجوخ الصوفي ٥ مرات ومدف عنه قدر
٣ مرات ويمكن صبغه بكافة الالوان

وبالاجمال نقول انهم لم يتركوا لنا شيئاً نحتل ثقله عملهم من ضرورياتنا حتى
الذبالة التي نحتاجها لاسراج مصابيحنا لابتزيت البترول المعروف عندنا بالغاز
الذي يرسلونه لنا من بلادهم فقط بل وبالزيت الناتج من بلادنا ايضاً فانهم
يرسلونها لنا مع الادوات النارية اللازمة لاشعالها عدا عما يلزمنا من الكراسي
والمناعد والطاولات وسائر الاشياء الخشبية

ولئلا بظن بعض مطالعي كتابنا بان الجمعية التي اشرنا قبلاً الى اهتمامهم
بترتيبها وانعقادها حديثاً لاجل تنشيط الكيماويين في ترقية صناعتهم هي ناشئة
عن تأخر واقع فيها يتتضي ان ندرج هنا ما ورد في احدي جرائد المقتطف
حيث نقول وقد بلغ الكيماويون (في اوروبا) درجة سامية في استغلال الذهب
والفضة ليس من معادن اخرى يحولونها الى هذين المعدنين كما يتوهم الطماعون
بل مما كان يطرح على الدم وتاباه الطباع كراهة واشمئزاً من قدره وكراهة
رائحه فانهم يستخرجون من الجبن المنين وزيت الفوسيل والاوخام الجارية من
حظائر البقر العطورات الطيبة التي يتدهن بها الاشراف والعظام وغيرهم من
رجال ونساء فيضعها التجار في انية مزخرفة ويلفون لها اسماء تستحب كزيت

الاجاص وزيت التفاح وزيت العنب وزيت اللوز المر وزيت الكنيك وماء
 الزهور . ومن قطع القصد بر التي تنساقط تحت مقص التنكاري والمخرق العتيقة
 وما يُشر عن حوافر الدواب الصباغات الزرقا ومن الانارات الحديدية الحبر .
 ويستعملون العظام في عمل الانصبه لآلات القَطْع على اختلاف انواعها وفي
 اللون الاسود العظمي عند الملونين والطالين بالثريش ولتزييل الارض عند
 الفلاحين ولحاجات عند الصباغين ومتممي الاقمشة واعمل الشحيط المعروف
 بشحيط كونكر يف بها من النصفور ولها منافع عديدة . ويستخرجون من المخرق
 الصوفية العتيقة نوعين من الغزل يغزلونها وينسجون منها الثياب . ويصطنعون
 من الثياب الصوفية الرثة البالية ورقا لغطية الحيطان ويتخذون حشا للفرش
 ويستخرجون لونا ازرق يُعرف عند الملونين بالازرق البروسياني . وكذلك
 يتخذون مما يلي من الثياب المنسوجة من قطن وصوف مما تلبسه النساء صوفاً
 للاستعمال ثم يزيل الفلاح ارضه بما يبقى من تلك المخرق الصوفية ولا يصلح لان
 يستخرج منه نوعا الغزل المشار اليها . ويتفنن الكيماويون كل التفنن بانواع
 استعمال القرون والحوافر . ويصطنعون من دهن الكلاب زيت السمك
 المغشوش . ومن الاوساخ الباقية من تنقية الاصواف وغزلها شمعاً يُعرف
 بالاستيارين . ومن عيون السمك ازره للزهور المصطنعة . ومن المثانة والامعا
 اوتار الآلات العزف وصامات مانعة لنفوذ الهواء فيسد بها على الهواء على ما بُراد
 حفظه منه . ويستخرجون من ارجل العجول والغنم زيتاً عطراً الى الغاية . ويتخذون
 من السمك المتين زبلاً جيداً للارض . ومن الروث صباغاً اسمر . وما يلتقط من
 فضلات القطن في المعامل والورش الشراشف واغطية الفرش الافرنجية
 وقرطاس المطابع ونوعاً من الورق الصلب . ومن اعشاب البحر اليود والورق
 واغطية سقوف البيت وحيطانها . ومن حبوب كثيرة علفاً للهواشي بعد ان
 يعتصروا زيتها او يستخرجوا المسكرات منها . ومن قشور العنب لونا اسود تصنع
 به احسن انواع الحبر واجلها . ومن رماد التبغ مسحوقاً للاسنان . ومن الثفل

الراسب في الخمير زينة الطرطير. ومن الفطران الفحيمي الذي يوظف من معامل الغاز الملح البنشادرية وكبريتات النشادر وحبر المطابع والنورور ومضادات الفساد والبنزول وشمع البارافين وكل انواع الانيلين الجميلة في الصباغ ونقش الاقمشة . ومن ميامير نعال الدواب القديمة احسن حلائد البنادق المعروفة . ومن قشور الحمص الارواح وهي تعطى ايضاً علفاً للماشية ويستعملون دم الثيران في تنقية السكر وعمل الفم الحيواني والصباغ الاحمر المعروف بدم العفريت . والنخالة في الدباغة ونقش الشيت وعمل صحون التنيك . ويعملون من حكاكة الخبز المحترق مسحوقاً للاسنان وقد يستعملها الفرنسيون عوض الفهوة . ويتخذون ما يبقى في المدايع بعد الدبغ لتزويل الارض . وقطع الفلين او ما يتحات منه لحشو الامتعة ونحو ذلك وهي مرغوبة جداً عندهم . ويطحنون الجلود العتيقة وما يقص منها قطعاً صغيرة عند المشتغلين بها ويعلمونها غراء . وتستعمل مرارة الثور عند صابغى الالوان ومنظفي الاثواب . وعماشيش الزبيب في ترويق الخل وهي افضل شيء لذلك . ويصطنعون من دقيق الكستنا المعروفة بكستنا الحصان الماكروني وهي طعام معروف . ومن البطاطا والارز والحنطة التي لحتمها الفساد النشا . ومن النشارة الورق ويستفطرون منها الحامض الاوكساليك ايضاً ويذخنون بها السمك ويحلمون بها المصاغ ويحشون اللعب ونحوها ولها ايضاً فوائد اخر عديدة . ويستخرج اهل نروج زيتاً من كبد سمك يعرف عندهم بالسمك الكليبي ويستعملون جلدك بعد ان يجففوه لصفل الخشب والعاج . ومنه نوع اخر يستخرج الفرنسيون من كبد زيتاً ايضاً يستعملونه للدوا ويكون كزيت السمك الخالص في منفعته على ان كل ذلك كان مهملأ عندهم من قبل . وقد عقد الفرنسيون شراكة في فرانساج جمع فضلات المحمية التي تطرح عندنا والكلاب والقطط الفاطسة والذين قد من به السكك الحديدية بعد استعماله ويعالجون ذلك جميعه بالبخار وضغط السائلات ويستحضرون منه السنيارين . ويطحنون القطع التي يقشرها الاساكفة عن الجلد في عمل الاحذية

ويجففونها ثم يدونها جلدًا جديدًا يُسمى بالضببان يستعمل للنعال الداخلية واهل
امريكا يصنعونها على طريقة اخرى ويجمعون الجلود العتيقة وما ينطأه الدباغ
من زعانف الاديم ويغرونها حتى تصير على سمك قيراط ثم يكبسونها بين محذلتين
كبسًا شديدًا جدًا فتخرج جلدًا جديدًا يستعمل للكعاب والنعال الداخلية
والمفسيات . ويستخلص الذين يطبخون الجلود ما يكونون قد استعملوه في طبخها
من زيت السمك والشحم بعد ان يكونوا قد قشروا تلك الجلود قشرًا رقيقًا
فيبيعون القشور لمن يشتريها اما الزيت فيصنعون منه صابون زيت الحوت
المستعمل عند المشتغلين بالصوف لتنظيف الاقمشة واما الشحم فيصنعون منه
صابون الشحم ثم يصنعون من القشور التي تبقى بعد ما تبرد اقراصًا يوقدونها
لاستخراج الزيت والشحم من قشور غيرها وما زاد عن المطلوب يبيعونه وقيدًا
او زيلًا . وكانوا فيما سلف يطرحون ما يتلف من الورق الذي يشرب
الالبوم او يدهن به لستعملوه في تصوير الشمس فانه يتلف منه كثير في مجرى
اصطناعه واما الآن فانهم يلونون الالبوم بالوان الانيلين على طريقة معروفة
عندهم فيتحول الى ورق كالرخام شكلًا . وكذلك كانوا يهلون كل سنة نحو
اربعمائة الف قنطار تبقى من القطن والكتان عند نسج الاقمشة واما الآن فلا
يهلون منها شيئًا بل يتنفعون بها كلها واذا زيد عليها ما يتنفع به في هذه الايام
من بقايا الصوف والحبر زادت قيمة المنفعة كثيرًا . وبطلي الفرنساويون
كيزان الصنوبر وعرائس الذره بعد نزع الحبوب عنها باية مادة كانت راتنجية
ويستعملونها لاشعال النار . وفي باريس توجد جمعية تشتري الفضلات النباتية
التي كانت تطرح خارجًا من ٢٥ مستشفى بها ويطبخونها على البخار ليعلقوا بها
الخنازير . ويستخرجون من النفل الاسود الذي يبقى بعد تصفية بزر اللفت
ونحوه من نبات فصياتو دهانًا ابيض حسنًا ويصنعون مما يبقى بعد معالجة ذلك
النفل طلاءً رخيصًا . ويستخرجون الدهن الذي يبقى في اقراص الكسب
بوسائط كياوية ويحولونه الى سيارين فاخر . ويشترون الدفاتر القديمة

والمكاتب والسندات وكل الأوراق المكتوبة (لا المطبوعة) التي لا يُحتاج إليها
 ليترجوها ببلاد أخرى ويجولوها قرطاساً جديداً تُطبع عليه الجرائد الخسنة
 الاثمان . واقاموا في ايطاليا وورقة برج والولايات المتحدة الامريكانية وغيرها من
 البلاد معامل كبيرة لاصطناع القرطاس من اوساخ القطن والورق العتيق
 والنش والعشبة الاسبانيولية والخشب عداً عن الخرق النطنية والكثانية كما
 انهم يصطنعونه ايضاً من الخشب بواسطة طحن الخشب في دوالب خشنة كحجر
 الرحي ثم يعجنونه ويمدونه على طريقة اصطناع الورق وفي بنسلفانيا في الولايات
 المتحدة معمل يعد كل يوم ٢٠ الف ليبرا من الخشب والنشارة واستعماله اخذ
 الآن في الاتساع ففي اكثر الجرائد الالمانية قليل منه ويقال بان جريدة
 ديلي تريون في نيويورك يصنع ورقها من خشب البهو وان ورق غيرها من
 الجرائد الامريكانية اكثر من ورق قصب بري يكثر على ضفتي نهر ميسيبي
 ويستخلصون من الخشب بعد اصطناع الورق منه روحاً من الارواح ينسب الى
 بعض الكيماويين الالمانيين ويصنعون من النشارة علماً وصناديق مزخرفة
 توضع فيها الحلي وصانها رجل فرنساوي . ويتخذون من البزير التي في علب
 القطن وقيداً للغاز وزيتاً للضوفي القناديل وشماً صلباً حسناً اوستيارينا للصابون
 والشمع ويستعملونها عوضاً عن زيت الزيتون وعلماً للماشية عوضاً عن اقراص
 الكسب . وكذلك يتخذون من ثفل الدبس المصنوع من سكر الشندور الكحول
 الكثيرة الاستعمال ومنه متبلوراً املاح البوتاسيوم . ومن خشب الصباغ بعد
 استخراج اللون منه وقيداً فان بعض اصحاب المعامل الواسعة بفرانسا يترجوه
 بدردي الفطران ويجعله اقراصاً للوقود . ويتخذون من اوراق الصنوبر ما يعرف
 عندهم بالصوف الشجري ويستعملونه لجشو الازرايك عوض الصوف وينسجون منه
 الثياب الداخلية كالتقصان ونحوها وهم يشتغلون بها في فرانسوا وسوج وهولاندا
 وغيرها وما بقي منها بعد ذلك كبسوه كوماً وباعوه وقيداً ويخرجون منه المادة
 الرائجة التي فيها الغاز واذا عاجبها معاملجات اخرى استخلصوا منها زيتاً طياراً

يُستعمل في الروماتيزم والامراض الجلدية وزيتاً اثيرياً يستعمل شافياً ومذوباً
وسائلاً يُستعمل في عمل غسول طبي. ولما فكر بعض الانكليز بان الفحم المذخور
في الاراضي لا يدوم الى الابد التفتوا الى ما يتلف منه من الدق والغبار على
فوهات المناجم ولا سيما لما اشتغلت بلجيوم بتدبير ذلك ومن ثم عقدوا جمعية
لتدبيره فيغربلونه الان ويزوجون كل مئة جزء منه بثمانية اجزاء من القطران
الفحمي ثم يجهونه بالبغار الى درجة ٢٠٠ حتى يصير في قوام العجين فيصنعونه
اقراصاً واساطين يستعملونها وقيداً للارتنال ومراكب النار. ومن غريب ما يأتي
به الجدان البلدان التي يعوزها البلاط عندهم يفرشونها بالحديد وذلك انهم
يذبون ثقل الحديد الذي بطرحه الحداد ويجرونه الى حفرة قطر الواحدة منها
٨ او ٩ اقدام ويتركونه حتى يجرد صفائح رقيقة فيستعملونها عوض البلاط.
وبعالمجون اباريق التنك والطناجر العتيقة البالية وغيرها من الاواني التي لم
تعد تصلح للاستعمال وما يتحصن من التنك في عمل الصعود فيستخرجون منه تنكاً
خالصاً وحديداً والنشادر والازرق البروسياني وقصد يرات الصود يوم ومنافعها
كبيرة عند الانكليز واهل وبلس حيث يصنع من الصعود ما يساوي ما يوتي
قنطار من التنك. وما يفيض من المواد في تليس المعادن بالكهربائية كالبورق
رايح جداً عند الماحصين وفي عمل الدهون للتصوير. وقد اكتشفوا منذ برهة
جزئية على طريقة استفراج السكر من الحشيش لان المادة السكرية توجد بكميات
مختلفة في كل نوع من النبات والبقول اما الحشيش الذي عليه معاش الخيل
وسائر الدواب في اوروبا ففيه مادة سكرية فضلاً عن باقي النبات وقد قرر
الذي اكتشف على هذه الطريقة انه قادر على استقطار ١٧ رطلاً سكرًا من
قنطار حشيش وقد عول ارباب الصنائع على اجراء هذا الامتحان في فرانسوا
واستتمب للاستاذ بير من اساتيد مورنيخ ان يعمل النيل عملاً وهذا بعد من
اعظم اثمار الكيمياء الا ان طريقة عمله لم تنزل كثيرة النفقة وليس لهذا الاكتشاف
مثيل الا عمل الفوة الذي اكتشفه الاستاذان غراب ولبير في سنة ١٨٦٨ م

وأستعمت في الصباغ

(المتكطف والنخلة)

ومع كل ذلك ما فترت همتهم ولا قلت رغبتهم ولا خارت قواهم ولا ضعف
اعتناؤهم في البحث عن الاسباب والوسائل الموجبة لنمو الصنائع وتحسينها وتقدمها
وترويجها وأعظم الوسائط المخترعة لهذا المنصد العظيم هي المعارض التي سبقت
الإشارة اليها في ما تقدمت والمعارض جمع معرض وهو قصر عظيم من البلور
تجميع فيه كل الانواع من البضائع والمحصولات والأوانل والكراسين وكل شيء
مصنوع بيد الانسان من جميع الممالك والقبائل البشرية وتقتصد ملوك الارض
وعظماؤها وكثير من الناس على اختلاف طبقاتها لاجل التفرج لان الذي يحضر
ذلك المعرض العظيم يكون كأنه زار المسكونة بتمامها في يوم او اسبوع واحد
ويسمع كل انسان لغته ويرى كل انواع مصنوعات بلاده وينظر اناسا لاسبين
ملايسه ويجد حوائث فيها كل نوع من المأكولات والمشروبات المناسبة لكل
شعب وامه ويرى ايضا في تلك المكاتب العظيمة كل انواع الكتب الموجودة
في كل لغات العالم ودارا فيها خريطات رسم الارض ومساظر اصنام الوثنيين
من كل القبائل ونسخ من الكتب الوثنية ايضا وبالجملة كل ما تشوق النفوس الى
رؤيته والإطلاع عليه ولا بد ايضا من ان يكون بالقرب من هذا المعرض
معابد وقهاوي وحمامات تلامي اغلب الطوائف الاجنبية التي تاتي للفرجة. وكان
اول معرض شرع بعمارة في مدينة لندن قصة الملكة الانكليزية ونلاها فيه
الدولة الفرنسية في عهد الامبراطور نابوليون الثالث ومن ثم اخذت باقي
الدول في متابعتها لما في ذلك من تقدم الصناعات بواسطة ترغيب اربابها
ليتنشطوا في اعمالهم وينزيدوا من الاعتناء بانفاق اشغالهم وحسبنا برهاننا على ذلك
انه كان في جنة ما بعث به منذ بضع سنين من محاصيل بلادنا السورية الى
المعرض العمومي في باريس حصة من الدخان الناتج في قرية من قرى مقاطعة
الكوره التابعة لجبل لبنان ومربوط عليها ورقة صغيرة تعلن اسم صاحبها واذني

السنة التي بعدها طلب الرجل المذكور الى بيت الدين مركز المتصرفية وسلطة دولة المتصرف وقتئذ وهو المرحوم فرانتو باشا اوراق شهادات وامتيازات ارسلت له من فرانساً علامة على تقدمه وبراعته في زراعة الدخان فجعلها في محفظه وعلقها على ما قيل في صدره كعلامة امتياز يتباهى بها بين أنداده في عصر فكيف اذن لا يبذل بعد ذلك هو وامثاله بل وجميع من عرف ذلك من ارباب الصناعات مزيد الكد ونهاية الجهد بانقان ما يارسونه من الاعمال الى ان يبلغوه درجة الكمال في الجودة

والكي تعلم شدة اعثناء القوم في هذه الممارض ومقدار ما يبذلونه عليها من الاموال نذكر هنا ما قد حكى في الجزء الثامن من المقتطف ايضا بان الفرنسيون سيقبون معرضاً عمومياً في سنة ١٨٧٨م والمسومع انه سيكون من المعارض العظيمة جداً وقد عينوا برسم هندسته ٩٤ مهندساً من باريس فامتاز فيهم ستة نال كل منهم ٦٠٠ ريال امريكاني جائزة وستة اخرون نال كل منهم ٣٠٠ ريال جائزة وستشغل ابنية المعرض ٦٨ فداناً من الارض ويصرف عليها ٧ ملايين من الريالات ويعين للفرنساويين نصفها والنصف الاخر لسائر شعوب الارض وذكر ايضا في الجزء الثاني عشر من الجريدة المذكورة بانه سيصنع في هذا المعرض حوض للسماك يسع ٤٠٠ الف جالون من الماء و٤ ملايين ليبرا من السمك وسيصرف على اصطناعه ٤٠٠٠٠ و٤٠٠ ليبرا انكليزية وبرتغالية ترتيباً عجيباً جويلاً الى الغاية بحيث يقدر المتفرج ان يرى كل ما فيه من الحيتان والاسماك ويشاهد مساكنها وحركاتها كما تكون في الحج البحار وسيسيرون في سفينة محمولة نحو ٤٠ قنطاراً ويفرقونها في الماء ويرفعونها بالآلات فيتفرج الناس مطمئنين على ما يجري امامهم من الاهوال التي يهل الانسان الى رؤيتها (فليتأمل اهالي بلادنا)

الفصل الثاني

في الكلام على المعارف في بلاد الدولة العلية العثمانية

لا يخفى بانه لما كانت مدينة القسطنطينية التي هي عاصمة المملكة الامبراطورية الرومانية الشرقية مؤسسة على صخر السعادة وقد اعتادت منذ حصلت في عالم الوجود على التراس والسيادة فلم تظن الذل والنكال بعدما نشأت عليه من رونق العز والابهة والجلال ولذلك كان من امرها ما سبقت الاشارة اليه في خانة الجزء الاول من هذا الكتاب باوجز عبارة وهو انه لم يسمعها الا ان تملص من ابادي قوم لم يراعوا قدرها ولا عرفوا كيف يحسنوا صيانة ثغرها ومن ثم ارتأت برايتها السيد ان تدخل في قبضة سيد تبلغ بسطوتها القاهرة ما تشا وتريد فخطبت ذاتها بلسان المرشد الناصح ان المعول عليه في هذا الامر لا يكون الا السلطان محمد الفاتح فخرت للعين حصونها الحصينة على الاقدام وسلمت له ولذريته مقاليد امورها على الدوام وهو كذلك مدلسا عفتها على ما ارادت بك البين ولي نداء طالعها السعيد الهاتف نحو جيوشه الجرارة ادخلوها بسلام امنين وجعلها كرسي مملكة العلية من سنة ٨٥٧ للهجرة الموافقة الى سنة ١٤٥٣ مسيحية فنالت بذلك ما كانت تمنناه اذ انها بقيت حافظة للزايا التي امتازت بها دون غيرها من العواصم بكونها كرسي مملكة عظمى وصاحبها له رتبة اولى بين ملوك الارض وسلاطينها .

وكان هذا الفاتح من العائلة العثمانية التي قد امتازت بفخر لا ينحصر في قدميتها وشرف اصلها فقط بل من وجوه اخرى عديدة ايضا منها انها لم تسد

بوسائط ردية كارتكاب نقيصة ضد ساداتها او خيانتة بحق مواليها بل أستمرت على مراعاة حقوق السلطنة السلجوقية والخضوع لاوامرها منذ استولى سليمان شاه الجدا على لآل عثمان على بلاد ارمينية الكبرى في سنة ٦٢٠ للهجرة (سنة ١٢٢٤م) الى ان انتقل زمام الملك اليها طبعاً من يد الدولة المهار اليها على ما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية

ثانياً انه منذ استيلائها على تخت السلطنة الى الآن لم يتغلب عليها احد اصلاً

ثالثاً ان جميع الدول التي سلفتها كالامويين والعباسيين والفاطيين لم تقدر ان تحافظ على خصائصها كما حافظت هي على ذلك ولا سيما من زمن السلطان سليم الاول الذي جلس على سرير الملك في سنة ٩١٧ للهجرة سنة ١٥١١م وفتح بلاد مصر والشام التي كانت وقتئذ بيد الجراكسة سنة ٩٢٢ للهجرة (سنة ١٥١٦م) وجمع بين الخلافة والسلطنة فصار هو وخلفاؤه امراء المؤمنين وائمة المسلمين

وكان العثمانيون في الاصل من القبائل الرحالة النزلة جاءوا الى هذه البلاد من بلاد التتار وتملكوا في الاناطولي واول من تملك منهم الامير عثمان الغازي الذي اليه ينتسبون وكان ذلك في ايام سلطنة غياث الدين مسعود بن كيكائوس السلجوقي وكان هذا الامير في اول الامر بوظيفة قائد العساكر السلطانية عند السلطان المشار اليه

ولما ارسل اليه هذا السلطان طلباً ونصيحاً وعلماً وصلوا اليه في اليوم السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ٦٨٧ للهجرة (سنة ١٢٨٨م) وقت العصر فانصب حينئذ واقفاً على اقدامه وضربت النوبة بحضرتة فمن ثم جرت العادة في ضرب هذه النوبة كل يوم وقت العصر ووقوف السلاطين عند ضربها الى ان بطل الوقوف في زمن السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية الذي تولى على المملكة سنة ٨٥٦ للهجرة (سنة ١٤٥٢م) ثم بطلت عادة ضرب النوبة رأساً في زمن

السلطان محمود الثاني الذي تولى السلطنة سنة ١٢٢٣ للهجرة (سنة ١٨٠٨ م) ولما اتخذه السلطان غياث الدين المشار اليه الامير عثمان بسكة ضرب المعاملة وامر ان يُخطب باسمه على المنابر ايضاً لُقِبَ من ذلك الوقت بلقب خان ثم لما تولى السلطنة السلطان علا الدين كيتباد بن فرامر السلجوقي ارسل الى هذا الخان الجديد منشور السلطنة مع الطبل والعلم الابيض المخصوص بالسلطين السلجوقية نقلياً الى الجنكيزية فاستقر استقلاله من تاريخ هذا المنشور وكان ذلك في سنة ٦٩٢ للهجرة (سنة ١٢٢٥ م) ومن الاتفاق العجيب ان لفظ آل عثمان يواقع في حساب الاعداد عدد سني الهجرة المذكورة . ثم لما فر السلطان علاء الدين المذكور خوفاً من التتار والتجى الى الامبراطور ميخائيل الباليولوجس قيصر القسطنطينية وتوفي هناك انقضت عائلته بموت فاروق حبيذ عثمان خان المشار اليه الى رتبة السلطنة في سنة ٦٩٩ للهجرة (سنة ١٢٩٩ م)

وجعل هذا السلطان كرسية اولاً في مدينة قرا حصار ثم بنى مدينة ودعى اسمها بكي شهر ومعناه المدينة الجديدة ونقل تخت المملكة اليها الى ان تولى السلطنة بعد ابنه ارخان في سنة ٧٢٦ للهجرة (سنة ١٢٢٥ م) فنقل كرسية الى مدينة بروسا ولما تولى السلطان مراد بن ارخان سنة ٧٦١ للهجرة (سنة ١٢٥٩ م) بنى سراية في ادرنه ونقل تخت السلطنة اليها فدامت على ذلك الى ان افتتح السلطان محمد الفاتح مدينة القسطنطينية وجعلها دار السلطنة الثانية حتى الان وكان لما افتتح هذا الفاتح هذه المدينة سح ببعض كائنها الى الاهالي وجعل المعتبرات منها جوامع ومن ذلك كنيسة ابا صوفيا التي مر ذكرها في الفصل السابع من البحث الاول في الكلام على المعارف عند الرومانيين ولم يوقع بها تغييراً الا ما كان مغايراً لاصول الدين الاسلامي فامر باخفاء ما على جدرانها من النقوش الذهبية بالكلس ووضع لها منبراً ومحراباً وكرسيّاً وابقى ما عدا ذلك على حاله الاصلية غير ان بعض الموليين يقول بانها لما تولى السلطنة السلطان عبد المجيد الاول في سنة ١٢٥٥ للهجرة (سنة ١٨٤٩ م) امر بازالة الكلس عن

تلك النقوش وتجديد ما انعدم منها لكي ترجع الى روتها الاول (والمعده على الراوي)

ثم ان السلطان محمد الناصر المشار اليه واخذ هو وخلفاؤه من بعده في ترميم ما كان خرب في مدة الحصار بينك المدينة من الابنية وتجديد غيرها ايضا وكان اول ما شرع به بناء جامع ابي ابوب الانصاري الذي كان قتل فيه اول هجوم هجينة العرب على القسطنطينية في ايام خلافة يزيد بن معاوية الاموي سنة ٤٩ للهجرة (سنة ٦٨٨ م) ورجعوا عنها بلا طائل بعد حصار ٦ سنوات ولما تم بناؤه واقيت فيه الصلاة قلده شيخ الاسلام بيده سيفاً فجرت العادة منذ ذلك الوقت ان يذهب السلطان عند جاوسه على تخت المملكة الى هذا الجامع ويتفقد فيه السيف فيكون له ذلك بمنزلة التتويج عند ملوك النصارى

ثم بنى بعد ذلك السلطان سليمان الثاني الذي تولى المملكة سنة ٦٢٩ للهجرة (سنة ١٥١٩ م) مباني عظيمة جليلة ومدارس كثيرة من جعلتها جامع السليمانية المشهور وكذلك السلطان احمد الاول الذي جلس على التخت سنة ١٠١٣ للهجرة (سنة ١٦٠٢ م) فانه بنى جامع الاحمدية ذا الست منارات ويقال بانه لما حسبت نفقته وجد ان كل اوقية من الحجر كلفت درهما من الفضة وبنى ايضا بركة الطوبخانة وكذا السلطان احمد الثالث الذي تولى السلطنة سنة ١١١٦ للهجرة (سنة ١٧٠٢ م) فانه بنى الكاغد خانه وهي قصر عظيم في مرجة خضرا تحيط به جنة ظريفة مشحونة بانواع الزهور وفيها قناة الماء العظيمة الشهيرة ثم بنى السلطان مصطفى الثالث الذي تولى سنة ١١٧١ للهجرة (سنة ١٧٥٧ م) الجامع المعروف باللالي ويدعى نوري عثمانية وانشا ايضا جمعية علماء تعرف باسمه ومكتبة مشهورة وكان وزيره راغب باشا رجلاً بارعاً في العلوم والمعارف وانه عدة تاليف ودبوان شعر ساه شفيينة العلماء فانشا كذلك مكتبة شهيرة تعرف باسمه ومدرسة للعلوم ومطبخاً للفقراء وتربة جميلة بالقرب من مدرسته ثم بنى السلطان عبد الحميد الاول وقد مر ذكره طوله بفجه الشهيرة قال بعض المؤلفين

انها من الاعمال العجيبة ويقال بانها صرف على بنائها نحو ٣٠ الف كرس وانشأت
والدنة بالقرب من ساحة هذا المحل مكانا لمعالجة المرضى مجاناً واقامت له مصاريف
ومباشرين واطبا لمعالجة كل من يحضر اليه من المرضى فيمكنك فيه المريض الى
ان يتعافى بدون ان يتكلف لشيء من الادوية والاطعمة والخدمة وحيث لا يمكن
ان نستوفي هنا كل ما احده سلطين آل عثمان من الابنية والعمارات في قصة
الملكة وخارجها فلا ينبغي ان نطيل الشرح باكثر ما ذكرناه من المحلات
المشهرة داخل القسطنطينية بل نعدل الى ذكر اوصاف هذه الامة فنقول
ان العثمانيين هم شعبة من الاتراك الذين يسكنون في بلاد الخطا والختن
ودشت وقبچاق وهم بيض الالوان سود العيون والحواجب جفاة قساة ولذلك
يطلق عندهم هذا الاسم (اي ترك) على الحاييب ايضاً ومنه تسميتهم الغنا توركوي
چاغرمق وتفسيره الحرفي نداء المحبوب ومع كل ذلك هم ينفرون من هذا الاسم
ويأبون ان يسموا اتراكاً لان هذا الاسم عندهم الان يرادف كلمة برايرة او خشنين
فيما ثاون في هذا المعنى كثيرين من الامم الذين ينفرون الآن من اسمهم القديمة
التي كانت تطلق عليهم في زمان بربريتهم

وقال مطبرون بان لغتهم التركية يبدو منها في قواعدها تشابه عظيم
للسان التاروكادت تنحى من العالم في بداية امرهم لان كتابة ديوان السلجوقية
وغيره من البلاد التي كانت تحت سلطة الاتراك والتار كانت باللغة الفارسية
وكان لا يوجد من نفس الاتراك من يعرف القراءة فضلاً عن الكتابة حتى ان
السلطان عثمان المقدم ذكره هو ذاته كان أمياً مثل والده قال العلامة
خير الله افندي انه لما اراد ان يتزوج بنت الشيخ اده بالي اوقف قرية يقال لها
ايت بوروني (اي منغار الكلب) على والدها واولاده ولما لم يجد في قومه من
يعرف الكتابة ليجر له بها حجة الوقفية اعطى الامير المشار اليه سيقاً ومشربة
تذكراً لهذا الامر وقد بقيا محفوظين في عائلته لحد القرن التاسع من الهجرة
(الخامس عشر من الميلاد) ولذلك منع السلطان المشار اليه التكم في اللغة

الفارسية وغيرها وامربان جميع التخريرات والوامر السلطانية وكل ما تازم كتابته تحرر باللغة التركية وهكذا الدفاتر والمحاسبات ايضاً فانها كذلك كانت تكتب بالعربية والفارسية لحد سنة ٦٧٦ للهجرة (سنة ١٢٧٧ م) فن ثم اخذت هذه اللغة في الاتعاش من ابتداء هذا التاريخ اه وادخل فيها علماءها كثيراً من الكلمات والتعبيرات الماخوذة من اللغتين المذكورتين اي لغة العرب واللغة الفارسية الجديدة وذلك كانت تُنَّسَبُ بالمفأمة او المحجة وما ادخلوه من هاتين اللغتين على ما ذكرنا نظوه على شكل الارجيز الشعرية ليسهل حفظه على الطلبة فلا يمكن لاحد منهم ان يكون كاتباً او ينظم الشعر ما لم يدرس هذه الارجيز ويحفظها ليعرف معاني هذه الكلمات الغريبة كما انه لا يقدر ان يفهم قواعدها النحوية وتصريف الافعال فيها بل ولا سبك عباراتها الا من الممارسة باللغتين والاخذ من افواه المترنين اذا كان لا يدرس قواعد اللغتين الاصلية حيث لم تكن لهم قبل الآن كتب تكفي في ذلك لحد زمن السلطان عبد الحميد الاول الذي في زمنه جمعت هذه الكلمات الماخوذة من اللغتين المذكورتين في كتاب سموه متخبات اللغات العثمانية وهو يمخوي على ١٨٨٩٧ لفظة عربية و ٦٧٦١ لفظة فارسية وطبع في المطبعة الخيرية سنة ١٢٦٩ للهجرة (سنة ١٨٥٢ م) وجعلوا في اوله مقدمة تشير الى معرفة بعض قواعد تازم معرفتها في استعمال هذه الالفاظ ثم اشهروا بعد ذلك مولفاً اخر مستوفياً للقواعد التي تازم معرفتها من نحو و صرف وغير ذلك يستحق مولفوه مزيد الشكر حيث سهلوا تحصيل هذه اللغة على الطلبة تسهلاً كافياً وقد ترجمه بعضهم منذ برهة بسيرة الى اللغة العربية فكافأتهم الدولة بنياشين من الرتبة المحمدية الرابعة

وبناء على ما ذكر كان نظم الشعر بمجرد اللغة التركية الاصلية ليس له رونق ولا بهجة كما يكون له في لغتي العرب والفرس ولم يتقدم عند العثمانية نقداً ما يعتد به ويعجب الاجانب بخلاف الانشا فانه بلغ عند فحول الكتبة منهم مبلغاً من الحسن واللفظ والرقعة والظرف ولا سيما بعد ان مارسوا تعلم اللغة الفرنسية

واستمدوا منها كثيراً من المعاني الرائقة والعبارات الراشقة وابتلوا ما كانوا يستعملونه فهلاً من الالفاظ المستهجنة والمعاني المتأونة والتكلفات التي لا طائل تحتها

وقال ملطبرون ان رجال الامة العثمانية يوصفون بالهية والوقار والشهامة والكبرياء غير ان كبرياءهم كانت شديدة منضمة الى خشونة تأذى منها كثيرون من ارباب الاسفار وكانت كتابات السلاطين الى ملوك النصارى تحوي على شيء من البخس في قدرهم وامانتهم فضلاً عن كونهم لا يلقبونهم بالقباب عالية حسب ما تقتضيه مراتبهم او واحسن ما خوطب به ملك نصراني من سلطان عثماني ما كتب به من الانقلاب السلطان احمد الثالث الذي تقدم ذكره الى كرلوس الثاني عشر ملك اسوج عندما كان هارباً من وجه بطرس الاكبر سلطان روسيا وملتجئاً الى الدولة العثمانية وبالجملة فان اطلاق لقب امبراطور على من كان من ملوك الافرنج معروفاً به لا يتصل الا بوسائط صعبة متعبة فان السلطان احمد الاول وقد تقدم ذكره لما استرجع البلاد التي كانت اخذتها دولة النمسا من اسلافه بشرط ابطال الثلاثين الف دوكة (نوع من المعاملة) التي كانت تعطىها دولة النمسا الى العثمانية خراجاً سنوياً اشترط عليه وقتئذ بان تكون تجاربه لهذا الامبراطور محنوية على الاعتبار والمحبة ككتاب ابي لولده وان يلقبه بالقيصر الروماني عوضاً عن لفظة قرال (واظنها لفظة مصحفة عن غران لفظة افرنجية معناها كبير) وكذلك في ايام السلطان محمود الاول الذي تولى المملكة سنة ١١٤٢ للهجرة (سنة ١٧٢٠ م) لما ترخص الروسيون ان يتجروا في البلاد العثمانية ويكون لدولتهم سفير ذوا اعتبار في القسطنطينية نظير باقي الدول كان من جملة شروط الدولتين بان الدولة العثمانية تعطى كاترينا الثانية لقب امبراطورة حيث انها لم تحدد ذلك الوقت لم تلقها بذلك على ان الدولة العثمانية لم تكن وقتئذ كدولة فرانس او غيرها من الدول التي تخشى نتائج هذا اللقب كطلب اصحابه تقدم موظفيهم على موظفي غيرهم من الملوك

في الدواوين الاجنبية او غير ذلك . قال بعض المؤلفين انه بانضمام مثل هذه الامور الى غيرها من الاسباب التي تشاكلها كانوا بوصفون الامة التركية بتامها الى الذبرير والحشونة ومع ذلك يعترفون لها بالمخنولين بجانب نظراً لما يرونه من الرأفة التي تشمل الحيوانات ايضاً فان الكلاب والهرات في البلاد العثمانية تعيش بارغد عيش في حالة الشبع اكثر من فقراء البشر في بعض البلاد الافرنجية ويشاهد الحمام والطيور المائية التي تعمر شطوط خليج القسطنطينية تسرح وترح بدون ان يتعرض لما احد حتى ولا من الاولاد الصغار بالاذية

وكان العثمانيون في ماسلف يافظون اشد المحافظة على اديانهم واخلاقهم وعوائدهم التي كانت تميزهم عن غيرهم وكانوا ياكلون يسيراً من الغذاء الذي يكون معظمه من النباتات ولا يتسربون الخمر الا النادر منهم ويعتادون على رياضة الجسم كركوب الخيل والتدرب على استعمال السلاح ويكرمون الضيف ويسلكون في ذلك سبيل البند والاحتفال واعطاء الرسوم حتها وكثرة الضيقت ويسكنون في مساكن غير مزينة بدون هرج ولا كثير حركة ويتخذون بساكنين بسيطة منعزلة منفردة ولا يعرفون التملات والذوانات التي تكون في جمعيات الافرنج ولا المحركات والمبادرة في الامور ويتلذذون بشرب الدخان والقهوة بكثرة ومنهم من يتعاطى شيئاً من الافيون قال بعض المؤلفين لم تبدي العثمانية بشرب الدخان في القسطنطينية الا في زمن السلطان احمد الاول لما جلبه اليها اهالي هولندا في سنة ١٠١٤ للهجرة (سنة ١٦٠٥ م) وعلوهم شربه فتواعوا به واعا شديداً الى انه افضى الامر بان اخرج المني فتوى بابنائه فواج الشعب ولم يقبلها الكون ولا يعد من المسكرات

وكانت ملابس هذه الامة واسعة مثل ملابس العرب وكان السلطان عثمان الاول المقدم ذكره يتعم على برك خراساني من الجوخ الاحمر ويلبس فراجية من الجوخ المذكور ايضاً فلما تولى ابيه السلطان ارخان عقد مجلساً في بروسا لوضع بعض قوانين ونظامات فكان من جملة ما ترتب فيه ان البرك الاحمر

يكون العساكر واما نفس السلطان وخواصه من الاعوان والانتصار الذين يطلق عليهم لقب عثمانية فيكون البرك الذي يلبسونه ابيض فمن صار المتصفون بوصف عثمانية في الخدمات السلطانية المخصوصة يلبسون البرك الابيض واما العساكر المعروفون بالاقينجية والاتراك والاكراد فيلبسسون البرك الاحمر ولكن ضباط العساكر يتعممون على اسكوف ذهب بعائم معقده غير انه مع نمادي الزمان قسدزي تلك العائم وكذلك الاسكوف صار على نوع اخر. قال البكري في تاريخه ان البرك بضم الباء وسكون الراء يكون من اللباد الابيض ويشفي الى خلف سماه بذلك السلطان مراد الاول وهو اول من اتخذ اليكورية اي العسكر الجديد من الممالك اه اما العائم فقد قال العلامة خير الله افندي المورخ العثماني بانها كانت تعين وقتئذ على نوع ما بانهم من شرقي اسيا وقد نظرت عائم مثل عائمهم هذه التي يتعمم بها اليوم اهل خراسان على روس النصارى التي توجد في خرابات مدينة تسمى جهل منار (اي الاربعين عموداً) كان افنتحها الاسكندر المكدوني في بلاد العم قبل الميلاد باكثر من ثلاثة قرون وحاصل الامر ان هذا البرك كانت الروم تلبسه مذهباً ويتعممون عليه ولذلك ترتب له معامل مخصوصة في بلجيك تصطنعه وتسج ايضا الشاش الذي يتعممون به عليه اه ثم لما ابطل السلطان محمود الثاني العساكر اليكورية وغيرها من الوجافات العسكرية القديمة على ما سوف يذكر ذلك في محله ابطل ايضاً ما كانوا يلبسونه الى عصرنا هذا من تلك الملابس الواسعة المذكورة وما كان نراه من القواويق المصرية التي كانوا يضعونها على رؤوسهم اشبه بالتيجان والعائم التي كانوا يتعممون بها عليها من الشاش الابيض وما كانوا يتعممون به على الطرايش المحمر من الشالات الكشميرية والاغاباني وغير ذلك من الفراشيات والشخاخير المحمر والعمال من القواسم او البوابج والخفاف الصفر وما كانت تحمله القواسم والجاويشية بايادها امام المحكام من العصي المنفضة والمجوكلات ذات الاجراس وما كانوا يتزينون بلبس في ايام المواسم والاعياد والمواكب المحافلة من الكبايت

والسراويل الخجل الملون المنصبة والاسكوف المذهب وكان على شكل الكلاه اللباد الذي تلبسه حتى الان الدراويش المولوية وشي اخر من اللباد يلبس في الراس ويشني الى الفنا منسدلاً من اعلى الراس الى قرب الاقدام وعرضه نحو شبر وازيد (ولعله البرك المار ذكره) وابدل جميع ذلك بالملايس الاوربية الضيقة المعروفة بالساتري والبنطالون الملايكة للرشافة الحربية العسكرية ومن ثم اخذت سكان المملكة من تبعة الدولة العلية في التلبس بهذه الملايس ايضاً

ولحينما تولى السلطنة السلطان محمد الاول في سنة ١٠٤٠ للهجرة (سنة ١٤٠١ م) وهو اول سلطان ارسل الى شريف مكة صرة من الذهب ليوزعها على فقراء الحرمين لم يكن شائعاً بين العثمانية استعمال الخلي والمصاغات والاواني الثمينة واول من ابتدا بذلك كان هذا السلطان فانه جعل اواني مائدتو كلها من الفضة فانكر العلماء عليه ذلك لكونه مخالفاً للسنة فلم يعمل بعده احد من خلفائه مثله الى زمن السلطان بايزيد الثاني الذي جلس على التخت سنة ٨٨٧ للهجرة (سنة ١٤٨٢ م) فانه صنع نظيرها من الذهب والفضة ولما تولى التخت السلطان سليم الثاني في سنة ٩٧٤ للهجرة سنة (١٥٦٦ م) ارسل اليه شاه العجم هدية عن يد سفيره وهي لوآوتان وزن كل واحدة منها ٤٠ درهماً وياقوتة بقدر النفاحة الصغيرة فلما تولى السلطان محمد الرابع في سنة ١٠٢١ للهجرة (سنة ١٦٢٢ م) جعل معالف خيوله وسلاسلها وارسانها من الفضة واخوه السلطان ابراهيم الذي جلس على التخت سنة ١٠٤٩ للهجرة (سنة ١٦٤٠ م) جعل لنفسه زورقاً مرصعاً بحجارة من الماس وهكذا الى ان صار التزين بالجواهرات وترصيع سروج الخيل بالحجارة الكريمة من شعار الدولة العثمانية الى ان اخذ في تخفيض ذلك السلطان محمود الثاني وكان اول ما شرع به في هذا الباب ان اخذ كثيراً من حلي جواربه وفك ما كان من حجارة الماس على سروج خيوله ورضع بها علامات الامتياز ونياشين العساكر النظامية هنا ما كان من جهة السلاطين واما ما كان من جهة غيرهم فهو حيث كانت العادة بانها اذا مات

احد من الاثراك ولم يترك اولاداً فيرثه السلطان واما اذا كان له اولاد ذكور فيكون العرش من خلفائه فقط للسلطان يستولي عليه نائبه في الاحكام الشرعية وهو القاضي لكن المستخدمون من رجال الدولة وكبرائها عندما يموت احد منهم فكان يرجع كل ما هو في يده الى الخزينة السلطانية ولذلك كان مثل هؤلاء الرجال يعتنون باقتناء الحلى والمصاغات دون الاملاك والعقارات ليسهل على الورثة اخفاؤها والامن عليها من الضبط للميري اوان يعمل الانسان منهم بها اوقافاً تعود الى احد المساجد بعد انقراض ذريته فتصير بذلك عقاراً ثابتاً لا يتزع من يده ولا من ايادي ورثائه من بعده

ويكثر الاعتياد والامراء من العثمانية تعدد الزوجات والتسري بالجواري بقدر ما شاءوا فيطربونهم بالغنا والرقص على نغم الآلات وقد يقع ان بعض النساء الغنيات يشترطن على ازواجهن بان لا يتزوجوا عليهن اصلاً وكانت السلاطين العثمانية في ابتداء امرهم يتزوجون من بنات قبيلتهم او من بنات ملوك النصرى كالسلطان ارخان فانه تزوج ثيودوره بنت الملك يوحنا كونتا كوزين وابنة السلطان مراد تزوج ببنت سيجيوند ملك الباغار والسلطان بايزيد الاول الذي تولى السلطنة سنة ٧٥٨ الهجرة (سنة ١٣٥٦ م) تزوج بنت لازار صاحب السرب والسلطان محمد الفاتح تزوج بفيلبي بنت الملك ديميريوس البالبولوغس اخي قسطنطين اخر قيصرية الروم ومن ثم بطلت هذه العادة وترتب قانون لا يجوز للسلاطين العثمانية ان يعقدوا زواجا صحيحاً شرعياً كغيرهم من الناس وانما يقتصرون على التسري بالجواري الارقا وهذا القانون هو حتى الآن من القوانين المعتبرة في هذه الدولة ويعدونه من الاسرار التي لا يعلم سببها واما بعض الافرنج فينسبونه الى ما وقع من تيمورلنك سنة ٨٠٤ للهجرة (سنة ١٤٠٢ م) في حق ديسبينة زوجة السلطان بايزيد من الاساءة بما اسره واحضرها امام عسكره تكاد تكون عريانة وبعضهم يقول لا بد لذلك من سبب سياسي اهم من هذا وقال بعض الكتبة من المصريين في هذا العصر بانة

لما تثبت العثمانيون في بلاد أوروبا خافوا من ان يصير ادول الافرنج في ما بعد
تأثير وكلمة في الدولة ودخل في احكامها فرتبوا هذا القانون الذي به انقطعت
المصاهرة بين سلاطين الاسلام وملوك الصارى

ومساكن النساء تكون عندهم منعزلة لا يقربها انسان لاحترامها وتسمى
الحرم ولا تخرج النساء منها الا مستورات كسائر نساء الاسلام واعظم مسراتهن
وافراحهن يكون في الحمامات وخاصة اذا كانت تلك الحمامات في بيوتهن
ويشبهن الرجال في شرب القهوة والتدخين ولكنهن يتزينن باحسن الملابس
والاثواب الفاخرة الرفيعة وتحلین باللآلي والجواهر النفيسة وحيث لم يكن
لاغلبهن نصيب بمعرفة القراءة والكتابة كانت الالغاز بواسطة باقات الزهور
التي يرتبها ترتيباً مخصوصاً تعوض عليهن ما فاتهن من ذلك وكما انهن لا يذهبن
الى الجوامع والمساجد بقصد العبادة اصلاً حيث ان الدين الاسلامي لا يوجب
على النساء صلاة الجماعة كذلك ليس من عاداتهن الرقص في المحافل كما يفعل
نساء الافرنج بل للرقص نساء مخصوصات عندهم يسمين بالرقاصات يحضرون
متى شئن ليرقصن لهن والرقص الذي يرقصنه مثل هولاء في البلاد العثمانية
لا بد ان يكون مخلاً بالحيا كالغوازي في بلاد مصر اللآتي يرقصن في المراح
العامية والشوارع وقد يكون بعضهن من الرجال يزيلون ما على وجوههم من
الشعر بعلاجات يصطنعونها لذلك ويتزينون بحلى النساء وملابسهن وما
يطلين به وجوههن ويشاركونهن في الرقص ويسمون الخول وقد خرج نابوليون
الاول من مصر متحسراً حيث لم تساعده مدة اقامته القصيرة فيها على ابطال هذا
الرقص القبيح منها

ولسراية الحرم الملوكي خدم يسمون بسناخجية كانوا دائماً متقلدين الاسلحة
كالمستعدين للقتال واما اغاوات الحرم فيكونون من النخعيان السود
وظيفتهم الخدمة وحراسة السراي ورئيسهم منهم يسمى قزلباغاسي ومعناه بالعربية
مولى البنات وهو غالباً مؤتمن سر السلطان وسيره وذوقبول عظيم في الدولة

ونفذ كلهم لا يكون لغيره أصلاً

ومن أصول الدولة العثمانية بان اولاد السلطان الجالس على التخت المملوكي هم وحدهم الذين يشهرون في المملكة وتُعان اسماؤهم للناس بفرامين سلطانية فتزين البلاد وتظهر الاهالي افراحها بهم لبقاء سلسلة هذه العائلة وظهور شهرادات منها لأبدان يؤهل بعضهم يوماً ما للجلوس على كرسي السلطنة واما المولودون لغير السلطان ان كانوا من اخوتهم واعمامهم سواء كانوا مخلوعين من السلطنة او شهرادات لازالوا ما ارتقوا على السدة الملوكية اذا امكن انهم بقوا في قيد الحياة فلا يمكن ان يعرفوا الا اذا قُدِّرَ لآبائهم بعد ذلك ان يستولوا على التخت وحينئذ يصدرا بوم فرمان البشارة بما كان ولدته من الاولاد مع التصريح باسمائهم وتعيين تاريخ ولادتهم وكانوا يتربون في السراية التي هي منشاهم مع غاية التشديد والتضييق تحت ادارة احد اغاوات الحرم الذين سبقت الاشارة اليهم قال ملطبرون انه لا بد لاولاد السلاطين من حفظ القرآن حفظاً جيداً مع تعلم اعرابه وتفسيره حتى يكون لهم اقتدار على شرح احكامه ويجب ان يتعلموا تاريخ الخلفاء وتاريخ العثمانية والتاريخ العام والجغرافيا ومبادئ العلوم الرياضية واللغة التركية والعربية والفارسية ويتعلموا غالباً الموسيقى واللغة اللاتينية

وقولنا هنا اذا امكن انهم بقوا في قيد الحياة هو لكون ان المبايعه للسلاطين من هذه العائلة لا تكون الاعلى سبيل الانتخاب فيما لو توفي السلطان او خلع مثلاً وكان له اخوة او اولاد فكان اهل الديوان ينتخبون من كان صالحاً للحكم منهم فينتقى ان يولوا الاخ دون الابن او الصغير دون البكري بحسب ما يشاهدونه من حالة كل منهم قبل انتقال المتوفي فلما ان تولى السلطان بايزيد الاول قتل اخاه يعقوب لكونه كان البكر وصاحب الاستحقاق في ارث السلطنة بعد ابيه ولما لامه على ذلك رجال دولته قال ان امير المؤمنين الذي هو ظل الله على الارض يجب ان يكون واحداً فيها كما ان الله واحد في السماء فمن ثم جرت العادة بين السلاطين العثمانية بقتل اخوة السلطان او سجنهم في حبوس معدة

لم تحت المحفظ وكذلك لما عُزل السلطان مصطفى الاول الذي تولّى السلطنة سنة ١٠٢٦ للهجرة (سنة ١٦٢١ م) وحجروا عليه في مكانه الاول ترتيب العادة ايضاً في قتل الاولاد الذين يولدون لهم في مدة سجنهم وبقي ذلك مستمراً الى ان ابطاه السلطان عبد المجيد الاول كما ابطل جميع ما كان من مثل هذه العادات المكروهة

ومع ان اطلاق اللحي سنة من سنن الديانة الاسلامية التي هي ديانة الدولة العثمانية فقد جرت العادة بان سلاطين هذه الدولة لا تطلق لحامها الا عند جلوسها على تخت المملكة ولكن السلطان سليم فاتح مصر خالف هذه العادة ايضاً فكان هو اول سلطان لم يطلق لحيته

ولما كان السلطان بايزيد الثاني ذاهباً الى حرب الارنبود والسرب عن طريق مناسير لاقاه رجل من الدراويش فتقدم اليه واراد ان يضربه بخنجره فابتدره من كان حوله من الجنود وقتلوا ذلك الدراويش فصارت العادة من ذلك الوقت بان لا يدخل احد على السلطان بسلاحه اما احد مورخي العرب فيقول بان السلطان مراد الاول لاقاه في اثناء فتوحاته امير من امراء النصراني اسمه بلواش فتقدم ليقبل يده مظهراً له الطاعة ولما قرب منه ضربه بخنجر كان اعده في كفه فقتله فصار القانون العثماني من ذلك اليوم بان لا يدخل على السلطان سفير او غيره بسلاح وان تفتش ثيابه ويدخل على السلطان بين رجلين

ونشأ عن وجوب الوضوء والاغتسال كثرة السبل والمخفيات والمغاطس والحمامات والمباضات في بلاد هذه الدولة ومن المبررات عندهم بناء المقابر العظيمة المحفوفة بالازهار ويظللها شجر السرو فتنتفي بوج حر الشمس في وسط النهار اما الصور والتماثيل فهي عندهم من المكروهات نجس بانها لما افتتح السلطان سليمان الثاني فتوحاته العظيمة كان جلب وزيره ابراهيم باشا من بلاد الجمار ثلاثة تماثيل من الحجارة ونصبهم في ات ميدان تذكراً لفتح تلك البلاد فانكر عليه ذلك جماعة

ومنهم شاعر نظم قصيدة قال في احدايبتها ما معناه ان ابراهيم الخليل فرض
الاصنام وابراهيم هذا يريد اعادتها فلما بلغ السلطان ذلك امر بقتله . لكن في
هذا العصر الذي نحن فيه قل في البلاد العثمانية من نفشى قريحتهم ظلمة
الوساوس والاهوام فلا يميز بين الحلال والحرام لان الانصاب رجس اذا اتخذت
للعباداة وليس اذا كان القصد بها مجرد الزينة او التذكر والاستفادة ولذلك
كانت صورة السلطان ورجال دولته العظام هي الآن موضوع حلية المنازل
وزينة المجالس والمحافل منذ زمن السلطان عبد المجيد خان

ومع كثرة الاديان واختلف المذاهب وتنوع المعتقدات الموجودة في بلاد
هذه الدولة كان لا يباح في ما سلف النظار في التعبد بأي مذهب كان بل
كما انه لا يجوز ان يتظاهر سائر الفرق الاسلامية بغير مذهب السنية ومن
تظاهر منها بغيره أهرق دمه كذلك كان لا يجوز للنصارى ان يتظاهروا بأي
مذهب كان من المذاهب المسيحية وخاصة المذهب الكاثوليكي حذراً من ان
ينبتر تابعيه للانحياز لجهة الافرنج في الاعراض السياسية ايضاً ولذلك كانت
الفرق الخاضعة الى الكنيسة الرومانية من الروم والارمن وغيرها تبقى تحت سلطة
اساقفة كنائسها القديمة المعروفة من الدولة العثمانية لان السلطان محمد الفاتح
لما استولى على القسطنطينية كان احضر جناد بوس سخولاريوس بطريرك الروم
واقره على منصبه واعطاه بنفسه عكاز البطريركية وخانها كما كانت تفعل
قياصرة الروم قبله ثم يلي هذا المذهب مذهب الارمن وكذلك القبط الذين
عرفتهم الدولة منذ افتتح السلطان سليم البلاد المصرية فكان من أتبع غير
ذلك من المذاهب النصرانية او كان يهودياً وخرج عن الديانة اليهودية قتل
ما لم يحتمن دمه بقبول الدين الاسلامي ومع كل ذلك وانضمامه الى ما كان
لبطاركة هذه الفرق المعروفة من الدولة ولكثير من روسائها الروحانيين ورهبانها
ايضاً من الامتيازات كالمعافية من الجزية وسائر التكاليف التي لم يُعفَ منها
غيرهم ولم يكن للقضاة ايضاً دخل في تقسيم موارث ابناء مذهبهم ولا في امر

تزويعهم أو تطليق نساءهم وبعض امور اخرى تتغلق بمصالحهم كان لا يباح لآية
فرقة كانت من تلك الفرق ان تظهر شعائر دينها ولا ان ترم ما تشعث من
معابدها فضلاً عن ان تجدد كنيسة الأ بصعوبات كلية وخمائر بليغة خارجة
عن تحمل اصحابها وكان لا يُسمع في المدن والتصبات بل ولا القرى المأهولة
بالاسلام صوت ناقوس يُضرب في الكنائس وبالاختصار لم تكن حرية هذه
المذاهب المعروفة التي ذكرناها الا منحصرة في الترخيص لمن كان من ابناءها ان
يجابوا اذا سُئِلَ عن ديانتهم بانهم روم او ارمني مثلاً لكن اذا كان ذاهباً الى الكنيسة
ليصلي وسُئِلَ عن الغرض الذي هو قاصده فالإتيق بوان لا يقول الى الصلاة
بل الى الكنيسة لان الصلاة ليست من شعار اهل الكفر الذين يطلقون عليهم
لفظة كاور ومعناها في لغتهم كافر حتى ان الجزية التي ياخذونها منهم في كل سنة
فداء عن قطع الراس يسمونها جزية كبران وهذه اللفظة معناها باللغة الفارسية
جزية الكفار ايضاً ولا يلاطفون احداً منهم باكثر من ان يلقبونه بهواجه بالهاء
فلا يقولون خواجه بالحاء لان هذه اللفظة تعادل عندهم لفظه اخدي التي معناها
سيد واما بنا دونه بلقب چوربه جي ومعناه مطعم الشوربا وهو من الالقاب
التي لا مزيد عليها في اكرام النصراني وكان قبل الآن من الالقاب المختصة
بالبيكرية وكانوا لا يكتبون اسم النصراني على صحفه بل اذا كان اسمه يوسف مثلاً
كتبوه ياسف او ابراهيم كتبوه ابرام وعبدالله عبيدلا واسحاق ايساق وهكذا الخ
واذا تكرر ذكره في الكتابة فيشيرون اليه بلفظ المسفور فلا يقولون المذكور
فضلاً عن الموما اليه او المشار اليه فان ذلك وامثاله لا يكون لقب اهل الاسلام
وخاصة العثمانية ويعتبرون من احوجتهم الضرورة الى استخدام من النصراني
كالاناء النجس الذي يضطرون الى لقتنائهم وكثيراً ما كانت تصدر اوامر
السلطين فضلاً عن نوابهم في الايلات باذلال النصراني فانه يقال بانه في زمن
السلطان احمد الثاني الذي تولى السلطنة في سنة ١١٠١ للهجرة (سنة ١٦٩٠ م)
منعت النصراني بتديير وزيره احمد باشا من لبس الاثواب الملونة وقلائق

السمور والبايج الاصفر وركوب الخيل في المدن والزمهم بلبس الأسود وان
 يضعوا في اعناقهم علامة تميزهم عن المسلمين وذكر بعضهم وقوع مثل ذلك في
 ايام السلطان مصطفى الثالث وبقي الحال على هذا المنوال الى عصر السلطان
 محمود الثاني الذي كان سلك هذا المسلك عينه في بداية امره وخاصة في ايام
 قيام اليونانيين وطلبهم الاستقلال لكنه اخيراً عدل عن تلك السياسة حتى ان
 ابنة السلطان عبد المجيد الاول منح منذ جلوسه على تخت المملكة حقوقاً متساوية
 لجميع الاديان فعرفت منذ ذلك الوقت المذاهب الكاثوليكية وبعدها يهودية
 وجيزة اعني في سنة ١٨٤٧م عرفت ايضاً الكنيسة الانجيلية المعروفة بالبروتستانتية
 وأبج التعبد بها فاستقل اصحاب المذاهب المذكورة من الروم والارمن وباقى
 الطوائف الشرقية وتحرروا من سلطة اساقفة كنائسهم الاصلية وفي سنة ١٨٥٦م
 أعطيت الحرية التامة لمطلق الاديان والمذاهب من اي نوع كانت وأبج
 لاصحابها التظاهر في الشعائر وانواع الاحتفالات التعبدية جهاراً في الشوارع
 والاسواق وأعتقت الضمائر من قيود الاسترقاق فلم يبق حرج على من اراد ان
 يتظاهر بما استراح اليه خاطره من الطرق التي يظن بها الفوز برضاة خالقه
 وصدرت كذلك الاوامر السلطانية بمنع الالفاظ المهينة التي جرت العادة بالتلفظ
 بها او بكتابتها بحق نبي النصرانية وصار التشديد الكلي خاصة بمنع لفظه كاور
 وأعفيت النصارى من الجزية ومن بعض الغرامات الخصوصية التي كانت
 مضرورة على كنائسهم تؤدى بها في كل سنة ومن تذكرة الاذن التي كان لابد للرجل
 منهم ان ياخذها من القاضي متى اراد الزواج اذناً الى النسيس بان يعقد زواجه
 اولد فن له ميماً توفي من اقارب وشرع في اعطاء المتوظفين في الخدمات
 الاميرية من النصارى وغيرهم من الاكابر القاباً نظير القاب اندادم من العثمانية
 كلقب بك وافندي واغا واشركوهم معهم ايضاً في الخطابات الرسمية كتابة وفي
 النياشين المعتبرة على اختلاف مراتبها وتميزت روساؤهم الروحجون باعتبارهم
 يعهد نظيره من قبل ولاسيما منذ تولى السلطنة السلطان عبد العزيز في ختام

سنة ١٢٧٧ للهجرة (سنة ١٨٦١م) فانه امر باقامتهم في مجالس اداوات الابلات والالوية عدا عن الاعضاء الموظفين رسماً من طوائف المسيحيين وحصل التساوي بين عموم تبعة الدولة في المحقوق والامتيازات الوطنية فارثي بعض النصارى الى المراتب العالية والوظائف السامية والمناصب الداخلية والخارجية من اية طبقة كانت ملكية او عسكرية بما فيها الوزارة ايضاً غير انهم اعفوا من الخدمة العسكرية بالفعل واكتفي باخذ بدل نقدي منهم عن الانفار التي يجب ان يقدموها وهذا البدل بوزعونه هم ذواتهم على انفسهم وبعد ان يحصلوه من محلاته يدفعونه الى صناديق الاموال عن يد روساء مذاهيمهم

وكانت عوام العثمانية في ما سلف تحضر المعارف المتعلقة بالتمدن والتحضّر والفنون النافعة وكذلك كان تقدم خاصتهم في مثل هذه الامور قليلاً ايضاً ولكن مع كل ذلك كان يوجد في الجوامع السلطانية الموجودة في ادرنه واسلامبول وروسا مدارس يقصدها الطلبة من جميع اجزاء المملكة ليتعلموا فيها العلوم الشرعية من توحيد وفقه وحديث وتفسير وكانوا يستحسنون فيها فن وجد بينهم صالحاً للتدريس اجيز عاين وهذه المدارس أسسها عدة من السلاطين العثمانية واول مدرسة منها هي الجامع الذي بناه السلطان ارخان في ازنيق واعظم منه جامع السليمانية الذي ذكرنا في ما مر بان السلطان سليمان بناه في القسطنطينية ولهذا بن الجامعين ترتيبات تكفي لحو ثلاثه الاف تلميذ وكانت تلامذتهما بعد تعلمهم فيها يتقلدون وظائف القضا ونحوه او وظائف اخرى في خدمة الدولة وظهر بينهم بعض علماء مشهورين الفوا مولفات معتبرة تتعلق بالعلوم العربية والفارسية والفلسفة والادب وعلم السير وجغرافية اقاليمهم ومنهم الحاج حسن الادرناوي الذي كان قاضياً في بغداد فانه الف كتاباً سماه بهجة الاسرار ترجمه رجل يقال له مرد بنى الى اللغة العربية سنة ١٠٠٧ للهجرة (سنة ١٥٩٨م) ومنهم رجل مورخ يقال له بلغيري ادرناوي ايضاً الف كتاباً في تاريخ ادرنه والروم ايلي سماه انيس المسافرين وذلك سنة ١٠٤٥ للهجرة (سنة ١٦٣٥م) واخر يقال له

شرف بن شمس الدين الكردي الف كتاباً في تاريخ السلطان محمد الفاتح
وقره جلي زاده عبد العزيز الف كتاباً في تاريخ السلطان سليمان القانوني
صاحب السلطنة سماه سليمان نامه وكثيرون غيرهم كشانجي محمد باشا الذي
كان في عصر السلطان المشار اليه وصولاً زاده خواجه سعد الدين صاحب
كتاب تاج التواريخ ونشري جلي صاحب التاريخ المسمى جهان نما وهناك تواريخ
لم نقف على اسماء مؤلفيها كدر الاثار وعالم اراء وغيرها ومنهم الشيخ ابوبكر بن
بهرام التركي الذي ظهر في القرن الحادي عشر للهجرة المقابل للقرن السابع عشر
للهيلاد وكان جغرافياً فالف كتاباً في جغرافية البلاد العثمانية وتوفي قبل اتمامه
فاكمله الحاج خليفة الشهير الذي الف ايضاً كتاباً في جغرافية ارمينية وسوريا
والاراضي الواقعة بين النهرين الا ان هذه المؤلفات التي الفوها بتدريجها وجود
بعض معارف صحيحة وفوائد مهمة ولم تكن تصل ابادي اغلب الناس الى اقتنائها
لما ان الذين يتعشون من نساخة الكتب كانوا يعارضون في طبعا وبساعدهم
على ذلك بعض العلماء لكن في ايام السلطان عبد المجيد الاول الذي تقدم
ذكره ترتب في اغلب البلاد العثمانية مدارس تسمى بالرشدية لتعليم اللغة التركية
ودرس بعض العلوم النافعة التي توهم الرعايا للقبول في الوظائف والخدمات
الاميرية وقد ترخص لهم وللأفرنج من اية ملت كانت بفتح مدارس لتعليم اللغات
الشرقية والاروروبية وغير ذلك من انواع العلوم فصارت لكل طائفة من الطوائف
النصرانية مدارس خصوصية وعمومية لتحصيل العلوم الرياضية واللغات المارة
ذكرها وفي ايام اخيه السلطان عبد العزيز كثرت المدارس في مدينة بيروت
كثرة بالغة وانشئت فيها المدرسة الكلية الانجليزية التي اسستها جمعية خصوصية
امر بكانية واقم فيها بيت للرصد تحت ادارة الفاضل العلامة الشهير بانواع
العلوم والطعارف الدكتور كرنيل يوس فاند يك وكثرت كذلك المطابع وانتشرت
الجرائد والتراجم المفيدة بل والمؤلفات العظيمة في اغلب قطعات المملكة وخاصة
القسطنطينية وبيروت ولم تنجز المحررية في ما يراد طبعة من المؤلفات والنشرات

بانواع اللغات كالتركية والعربية والرومية والارمنية والفرنساوية وغير ذلك
الآ ما كان منها بقصد تشويش الراحة العمومية او مخلاً بالامور السياسية والدينية
والادبية او متعرضاً لامور خارجة عن وظائف العامة وأعلن باعطاء الامتيازات
المشوقة والجالية لرغبة ذوي البراعة في التأليف والاختراعات والاحداثات
العلمية والصناعية المفيدة لخير المملكة

وكان السلطان محمود الثاني احدث نياشين الافتخار فجدد ابنة السلطان
عبد المجيد النياشين الجديدة واخوه السلطان عبد العزيز النياشين العثمانية ومن
ثم اخذ سلاطين العثمانية وملوك الافرنج في اظهار علايم المحبة المتبادلة بين
الطرفين بواسطة اتحاف بعضها بعضاً بالنياشين الفاخرة وفي التكريم بها على
كثيرين من تبعة المجانبيين ايضاً غير ان سفاوة الدولة العلية الموقوفة على اغراض
الولاية لم تنصرف في ذلك على من ظهرت صداقتهم وتحققتم امانتهم من الموظفين
في الخدات الاميرية والعسكرية وذوي البراعة من صنوف الرعية فقط

وكانت الفلاحة في البلاد العثمانية مطروحة في زوايا الخمول والذبول
والفلاحون لا يريدون ان يجيدوا زراعة الارض خشية على محصولها من ارباب
الصيال على انه يوجد بينهم ارباب زراعة ماهرون ولكن في ايام السلطان
عبد العزيز اخذت في التقدم نوعاً نظراً للامنية التي حصلت في اكناف البلاد
وقطع دابر ارباب الصيال والفساد والرفق من جانب السلطان وحده باحوال
الرعية ورغبته في تعديل الاموال الاميرية وحسن ترتيبها اذ انه وضع لذلك
قوانين وخاصة لتقوية الزراعة ونحوها وكيفية تصرف الامالي والاجانب في الاراضي
الزراعية بالطابو وتملك الغراسات والعقارات مع ما يوطد امنية الزراعين
ويوجب راحتهم وثمرتهم ونحو محصولات اراضيهم برفع ما كان عليها من المرتبات
القديمة المضادة لاصول العطللة اذ انها كانت تؤخذ منهم مالا راتباً سنوياً
سواء اقبلت زراعتهم او عملت ورتب عوض ذلك الاعشار الشرعية التي تؤخذ
عن مقدار الناتج فقط عيناً ووضع كلاً من ذلك تحت قانون معتبر في غاية

الجودة لو لم يكن امر انفاذه منوطاً برحمة الملتزمين واعتناه الولاة ومن دونهم من الحكام

واما المهارة في اشغال المعامل والورش فانها مقصورة على عدة مدن اعظمها القسطنطينية ويليها في اسيا دمشق وحلب والموصل وانكورة وقسطنوني وبروسا وازمير وفي اوروبا سلانيك وادرنه ورومى واصل ما يخرج من هذه المعامل العجايب والسفنجان والقمشة الحرير والظن ومنسوجات قصب الذهب والفضة ونوع من السلك يسمى الافرنج خيط الترك والسلاح الابيض ومنهم من له براعة في الجوخ والاسلحة والديباغ وغير ذلك من بعض اشغال البولاد والنحاس وصباغهم يعادل صباغ الافرنج اذ قد بلغوا فيه درجة كمال ويوجد فيهم خياطون واساكفة ونجارون ومعارية بارعون في صنائعهم ويصنع في نواحي اورشليم وبيت لحم كثير من المسابح والصور من الصدف المسمى بعرق اللؤلؤ الذي يجلبونه من البحر الاحمر وكثيراً ما ترصع به اهل دمشق الاسرة والموائد وغير ذلك من الاواني التي يصطنعونها من الخشب المعتاد والابنوس ترصيعاً متقناً ويرسل من ذلك جانب عظيم الى ايطاليا وفرنسا وفي ايام السلطان محمود الثاني عملت في جبل لبنان معامل لتصفية الحرير على طريقة اوروبا وكذلك معاصر في اكثر المحلات لعصر الزيت مثل معاصرها ايضاً وكانت تجددت فبريقة لغزل القطن في الشام في زمن ابي السلطان عبد المجيد ولكنها لم تنجح كما نجت فبريقة النصب في بيروت ومعمل الورق في ازمير ولولا غلط الاهالي برغبتهم الزائدة في مصنوعات اوروبا على اختلاف انواعها ولو كانت مما يوجد نظيره من نوعه بل وامتن منه قاشاً من مصنوعات بلادهم لكانت الصناعات تتقدم في هذا العصر تقدماً عظيماً ويستردون بواسطتها شيئاً من الثروة التي خطفنها عنهم ابادي الغرباء الذين لم يسمحوا لهم بترك شيء يصطنعونه لانفسهم حتى ولا فتائل السرج ونظائرها مما يجنلون على استغلال رغبتهم فيه بالزخرفة وسهولة المناولة على ما قد سبقت الاشارة اليه في باب

وبناء على ما ذكر كان معظم استمداد التجارة وزيادتها في البلاد العثمانية
منصراً في نقل المحاصيل الغشبية وحملها منها لتباع في غيرها كالصوف والحبر
والقطن والجلد والدخان وبعض المعادن ولا سيما النحاس والخمر والزيت
والادمان والتين والتمر واللوز والزبيب وغير ذلك من انواع الفواكه والخنطة
وسائر الحبوب التي تنقلها التجار الى البلاد الافرنجية وكذلك دودة الصباغة
والعفص والشاب وعدة اطبان واثرة مخصوصة ولا سيما ما يسمى بالطين الخنوم
وزيد البحر ثم منذ ترتبت شركات المراكب البخارية المسماة بأبورات واستعدت
لحمل البضائع ونقلها من الاساكن العثمانية الكائنة على شواطئ بحر الروم اتسعت
دائرة هذه التجارة اتساعاً زائداً ولا سيما منذ عملت طريق المراكب البخارية في
بعض انحاء هذه المملكة وتمهدت طريق مراكب الخيل بين الشام وبيروت
وامتد الموصل البرقي المعروف بالاعراف في اقطار المملكة في زمن السلطان
عبد العزيز امتدت كذلك هذه التجارة بنوع لم يسبق له مثال في هذه الاقاليم
حتى صار العنب الزيني الشهير في دمشق ينقل منها طرماً الى الاساكن برسم
التجارة وانواع الليمون تنقل من طرابلس في المراكب البخارية الى اودسا على
شواطئ البحر الاسود بكثرة بالغة فضلاً عن غيره من نوحه مع ان تجارة هذه
المدينة الكثيرة الفواكه كانت منحصرة في الحبوب والحبر والدخان والسفنج
والزيت والصابون الذي يصطنع في معاملها اما فواكهها فكانت لخصوص
اهاليها كما في صيدا ويافا وسائر امثالها من الاساكن الشامية وبذلك نعوض
عليها ما كانت خسرتها قبلاً بواسطة تعطيل انوال منسوجاتها الحريرية وخاصة
الزناز الشهير بالطرابلسي منذ ابدلت الدولة العلية ملابسها القديمة بالملابس
الاوروبية واتباعها الاهالي في ذلك

وقبل ان نتكلم عن تلك القوانين التي وضعت منذ زمن السلطان عبد المجيد
وخلفائه لاصلاح الاحكام يلزم ان نبسط الكلام قليلاً على ما كانت عليه تلك
الحكومة قبل ذلك فنقول ان الدولة العثمانية وان كانت مطلقة التصرف لكن

السلطان نفسه لم يكن يتباعد عما في الكتاب والسنة غير انه كان يقلد فقط المناصب المدنية والعسكرية لمن يريد وبصرفه في ذلك كيف شاء فكان غالباً يوجد بين ارباب المناصب من ليس هو املاً للوظيفة التي تقلدها ونظراً لعدم انتظام الاحكام السياسية التي كان عليها المعول وقتئذ كان كل متوظف او صاحب منصب في الدولة يمكنه كذلك ان يعطي قدرته لاي انسان اراده ليقوم مقامه مثال ذلك ان السلطان الذي هو خليفة صاحب الشريعة الاسلامية كان يعطي قدرته الى الوزير الذي هو نائبه في الاقليم الذي يولي عليه ثم ان كل من ولاه ذلك الوزير على عمل من الاعمال كانت له قدرة ذلك الوزير نفسه في ذلك العمل وهكذا الى ما لا يمكن تناهي سلسلته الا بتناهي سلسلة التولية وحيث لم يكن هناك قوانين لهؤلاء المحكام ثابتة غير متغيرة فكانت احكام كثيرين منهم احكاماً عسكرية شديكة الظلم اشبه بجيش منصور غالب حطاً في وسط امم مغلوبة منهزمة يعاملهم معاملة المدينة الماخوذة عنوةً بجذ السيف وليس كما ينبغي ان تعامل المحكام ابناء اوطانهم فصار كل ما يصدر عنهم من الجور والتعدي وسوء الاحكام ينسب عند الاجانب الى الشريعة الاسلامية كانهي التي تجيزه او تامر به ولذلك اُنقوا من قبول احكامها حتى ان نفس الرعايا ايضاً نفرت وصار من يمكنه الالتجاء الى الاجانب من ذوي الوجاهة منهم لا يتأخر عن ذلك ليحتمي من المظالم التي كان يجربها اولئك المحكام الجائرون الذين كانت تعطى لهم الولايات اشبه بالتزامات في مقابلة بدل مقرر سنوي يدفعونه الى الخزينة السلطانية رأساً او بصرفه في عمل من الاعمال ثم ما فاض عن ذلك من ايرادات تلك المناصب فيكون لمتولي الايالات من الوزراء الذين هم ايضاً يعاملون من كان ضمن دائرة حكوماتهم من متسلي البلاد وغيرهم بمثل هذه المعاملة عينها ولذلك كانت مناصبهم هناك كأنهم مشتراة بالثمن ليتمتعوا بغيراتها وبما ان مدة حكوماتهم تكون في الغالب قصيرة ايضاً فكانوا مجرد وصولهم الى مراكز ولاياتهم يبادرون بدون توقف الى اخذ ما كانوا قد صرفوه على تحصيل

مناصبهم من الرعايا بطريق البص والجرم او مصادرة اموال الناس لذنوبهم
 يجترعونها لهم. ومع ان السلطان نفسه لا يامر بقتل احد بدون مراجعة الشريعة
 واعطاء فتوى بذلك من شيخ الاسلام كان المسلمون ومن دونهم من المحكام
 ايضاً فضلاً عن الولاة يسفكون دم من ارادوا قتل من الرعية بمحض ارادتهم
 استناداً الى ذنبه ضرورة له او شايته صدرت من احدٍ بجهنم

وكانت مراتب هولاء الوزراء على انواعٍ بحسب اهمية مناصبهم فكان منهم
 من له ثلاثة انواعٍ ويسمى وزيراً ويرايا بالتوغ اللواء وهو ربح طويل يعقد عليه
 شي من شعر الخيل ويعطى للباشاوات منه ثلاثة على ما ذكرتمجل امامهم علامة
 على الوزارة ومنهم من له توغان فقط ويسمى بكربكي ومعناه امير الامرا وكان
 هذا اللقب يطلق سابقاً على وزيرين من وزراء الدولة احدهما باشا الروم ايلي
 والثاني باشا الانا طولي ومنهم من يكون له توغ واحد ويقال له امير اللواء وكان
 لكل باشا عساكر على قدر حاله بعولم من ايراد ولايته ورئيس هولاء الوزراء هو
 الصدر الاعظم اول وكلا السلطنة بل الوكيل المطلق للسلطان ومعه ختم المملكة
 وعليه تكون امارة الجيوش ايضاً ويتصرف في اموال الخزينة كيف شاء وبوجه
 جميع المناصب الملكية والعسكرية وعليه درك جميع ما يقع في الدولة من الخلل
 والتمط والحريق وانهمزام العساكر في الحروب وقيام الرعايا للعصاة وامثال
 ذلك من الضمانات التي جعلت قل ان يموت احد من اصحاب هذا المنصب
 حنق انه

وكان رئيس مشورة الدولة يسمى رئيس افندي يعني الافندي المتراش
 على زمة الافندية ارباب الاقلام فان هذه الزمة كان لها كلمة نافذة في
 الدولة لكونها تحوي على فضلاء الامة العثمانية واكثرها معرفة في الادبيات
 والسياسيات

اما العلماء اصحاب العلوم الشرعية فهم المحافظون على ناموس الشريعة
 الدينية في المملكة ويقتنون افندية ايضاً ويعلمون الناس امور دينهم ويفتنون في

مواد المعاملات والجنايات ورئيسهم هو شيخ الاسلام الذي يستفتيه الهاتان في الامور الشرعية ولا يعقد حرباً او يضرب ضريبة على الرعية الا بفتوى منه وهو الذي يولي النضاة الذين يحكمون في الدعاوي بين الخصمين واحكامهم تكون مؤسسة على ما يستدلون به من القرآن او يستندون اليه من الحديث او من كلام الفقهاء ولم ان يقيموا الحدود ويحكموا بقتل القاتل وترتيب جزاء السارق وغيره من ارباب الجنايات وقل ان حوكم جان تأدب لجريرة او عرف سبب قضاة الا اذا كانت جرت مما كنهه وترتب جزاؤه بمعرفة هؤلاء النضاة ولما كان في معسكر السلطان عثمان الاول يجري حكم النضاة في اقامة الدعوى نظير حكم مشورة عسكرية اهلها رحالة نزاة لقب كل من الفاضلين العظييين في المملكة وهما قاضي روم ايلي الذي هو قاضي بلاد الدولة التي في اقليم اوروبا وقاضي اناطولي الذي هو قاضي بلادها التي في اقليم اسيا بلقب قاضي عسكر مع انها في الحقيقة قضاة مدن وليسوا قضاة عساكر وقال بعض المؤلفين ان اول من جعل قضاة العساكر اثنين واحداً في الروم ايلي والاخر في اناطولي هو السلطان محمد الفاتح

وكما ان شيخ الاسلام يعين النضاة الموما اليهم لا بدلة كذلك من ان يخصص مفتياً لكل بلدة من البلاد التي يعين لها قاضياً ويكون من المتصلعين بمعرفة الامور الشرعية لمراقبة ما يجريه ذلك القاضي من الاحكام الشاذة او ليستعين به القاضي في القضايا المشككة فلا يبرم فيها حكماً الا من بعد ان يستشيرهُ ويحصل على جواب ممضي ومختم منه مبني على نص شرعي يوثق به

اما نقابة الاشراف فهي وان تكن من الوظائف العلمية الا انه لم يبق لها من الاهمية ما كان في ازمنة الخلفاء من العرب لانحصارها في المحافظة على سلسلة انساب الذين ينتمون الى العصاة الهاشمية وكانوا يتوصلون بها الى الخلافة او الاستمقاق في بيت المال

وكان من اصعب الامور معرفة مقدار ايرادات الدولة ومصاريفها على

وجه الصحة والتدقيق بل ان ما يصل من الاموال الى السلطنة كان هو كولا الى
 الدفتر دار الذي هو امين خزينة الملكة ويجمع تحت يد ما يتحصل من بيع
 تلك المناصب العظيمة وما يعطيه اصحابها عند تقريرات الابقا في اول كل سنة
 وما يؤخذ من اصحاب الاقطاعات والملتزمين وما يتحصل من الخراج اي جزبة
 الذميين والتزام بعض المكوس والكارك وهناك شخص اخر غير الدفتر دار الموما
 اليه يقال له وكيل الخزينة ويكون من الخصبان السود موكلا بتدبير الخزينة
 السلطانية الداخلية التي تدخل فيها الاموال التي تضبط من اربابها بذنب من
 الذنوب والتي يرثها السلطان ومنها تكون مصاريف السرايا السلطانية وهذه
 الخزينة هي ايضا غير خزينة السلطان التي لاموال الخاصة فان تلك تكون تحت
 يد احد غلمان السرايا الذين ياتهم ويلقب خزنها بلقب خزينة دار و ابرادها
 يكون من دار الضرب وتزيد دائما بما يوفره فيها اغلب السلاطين

وليسست معرفة مقدار ابرادات الملكة ومصاريفها كانت مجهولة فقط وغير
 محققة عند الدولة على ما ذكرنا بل ان كثيرا من المحلات والامكنة الملتزمة الى
 الابالات ولم تكن اشغالها متصلة بكرسي الملكة كانت اما غير معروفة بالكلية او
 لم يكن لاسمائها قيد على وجه الصحة في دفاتر الميري نظرا لما كان يقع بها مع
 مرور الازمنة من التصحيف الماشي من اقلام الكتبة كلها اوجب الامر تجديد
 قيودها. اما عدد نفوس الاهالي فلم ياتفت اليه في هذه الملكة اصلا الى ان
 جرى نظام قيد النفوس في زمن السلطان عبد العزيز

وكانت العساكر الخيالة في الزمن القديم معتبرة عند العثمانية اكثر من
 المشاة كما كان ذلك عند ملوك الافرنج ايضا وكانوا يلبسون في رؤوسهم مغافر
 من الحديد ودروعاً مئة على اقفيتهم ايضا ويسمون اقبينجة لكن في زمن السلطان
 ارخان اهتم اخوه علا الدين باشا بترتيب جانب من المشاة ورتب لكل نفر
 منهم اقبجة واحدة علوفة في كل يوم (والاقبجة ربع درهم شرعي) وكذلك كان في
 زمن السلطان المشار اليه قاضي عسكر يقال له قره خليل استحصل مئة امرا

بتعيين عساكر خيالة ومشاة من اولاد المسيحيين قاصداً بذلك اولاحماية النصارى من تعدي العساكر ثانياً اشتراكهم في خدمة الفتوحات مع احزاب الدولة واصحاب عصبيتها حذراً من ان تعرضهم الحروب فتضعف قواهم وتكثر شعوب النصرانية بواسطة اعفاهم من الخدومات الحربية ثم املاً بان يكون ذلك مع تملدي الزمان واسطة لدخولهم في الديانة الاسلامية فكتب جانباً من اولاد المسيحيين عساكر سماهم ينكجرية وصار يعطي لمن يدخل منهم في الدين الاسلامي وظائف لاجل التزغيب فاسلم منهم في اول سنة مقدار الف نفر جعل منهم جماعة روساء عشرات ومئات وقواد الوف وارثى ارباب الاستعداد منهم الى مناصب سامية وكان من القواعد المرعية ايضاً اسلام الذين يؤسرون في الحروب فانضموا الى الذين اسلموا وكان يُعطي للنفر الواحد منهم في اوقات الحرب اقمحه عثمانية في كل يوم مثل العساكر الاقينية الذين مر ذكرهم . اما الذين يتبعون نصارى فكانوا يعافون من التكاليف العرفية الديوانية وجماعة الفرسان منهم كانت تختص لهم اعشار الاراضي المزروعة تباراً بدل الوظائف والعلائف فاذا رجعوا من الحروب ذهب كل منهم الى محله وقيل ان العساكر الذين تعينوا بشرط ان يكونوا معافين من التكاليف الديوانية تسهوا اولاً اسلام ثم قيل لهم اخيراً اسياحية وان هذه التسمية هي منشأ العداوة التي كانت بين اليكجرية والاسياحية حيث ان اليكجرية كانوا مرتين من النصارى وقال مطبرون ان وجاق اليكجرية تجدد في زمن السلطان مراد الاول (بن ارخان) واول من سماه بهذا الاسم رجل من الاوليا عندهم يقال انه الحاج بكتاش اشتهر بالكرامات والخبار بالمغيبات لما ارسل اليه السلطان المشار اليه اول ارطة من هذه العساكر لكي يسمي هذا الجيش باسمه ويعطيه لواء ويسأل الله له المعونة في غزواته فوضع هذا الولي كمة على رأس احد الروساء وقال سهوم ينكجرية (ومعناه العسكر الجديد) ثم اخذ في الدعاء لهم وكان ينتخب لهذا الوجاق خمس الاسرى ثم انضم الى ذلك عشر اولاد النصارى ولازال هذا القانون معمولاً به

الى زمن للسلطان مراد الرابع الذي تولى السلطنة سنة ١٠٢٣ للهجرة (سنة ١٦٢٣ م) ثم صار لا يدخل به اَخيراً الا العساكر الاسلامية وكثيرون من الناس الاغنياء كان ينتظم في سلك هذا الوجاق لاجل الحماية فقط بدون جامكية اه وقال اخرون ان السلطان سليمان الثاني المعروف بالقانوني كما انه ابداع تدير الخزانة في هذه الدولة وجعلها في صورة منتظمة احكم كذلك ترتيب العساكر فقسم الجيوش الى عساكر قايوقولي (اي حرس الباب) وهؤلاء هم الذين كانوا في الحقيقة ملازمين للخدمة العسكرية والظاهر انهم الحجاب وانهم يدل على ذلك وكانت وظيفتهم المحافظة على التخت وفي زمن الصلح لا يشتغلون بالفنون العسكرية وكان عددهم قليلاً بالنسبة الى العساكر الاخرى المسماة سراناقولي وهي العساكر المدة للمحافظة على الرساتيق (والرساق البلاد المشتتة على قرى ومعاملات) وهؤلاء العساكر كان يجلبهم اصحاب الاراضي المسماة تيارات وقد مر ذكرها وهي اراضي يعطيها السلطان على سبيل العصري (اي التمتع بها مدة حياة الانسان الذي تُعطى له) بشرط ان يخدموا في العسكرية ورتب في القانوننامة التي وضعها هذا السلطان مفاد: يرهن هذه الاراضي في كل اقليم من اقاليم السلطنة وعدد العساكر التي يجب على صاحب الارض جلبها وبين معاش كل عسكري ما دام في الخدمة العسكرية فكانت هذه العساكر المرتبة على هذا الوجه الغريب الذي لا يوافق ولا يمازج اصول الصناعة العسكرية هي قوى الدولة التي بها افتتح السلاطين العثمانية فتوحاتهم وقال مطبرون ان هذا الوجاق اقدم عند العثمانية من وجاق اليكبرية ويسمى وجاق الساقية واصحابه يقاتلون تحت رايات الزعاء واصحاب التيارات وبرع العثمانية في فن تحصين الثغور حتى ان اهل ايطاليا تعلموا منهم هذا الفن ثم آل الامر الى انقراض هذه الوجاقات كلها وذلك لما اتصلت شوكة اليكبرية الى ان صاروا كالعساكر البريطانية في زمن التياصرة الرومانية، يعزلون سلاطينهم ويقتلونهم ويولون من ارادوه من العائلة السلطانية العثمانية وكان اول من اراد ابطال هذا الوجاق السلطان عثمان الثاني فنهأ العلماء عن

ذلك فلم ينته فأدى ذلك الى عزله وقتله ثم في ايام السلطان عبد الحميد الاول الذي تولى السلطنة سنة ١١٨٨ للهجرة (سنة ١٧٧٤ م) اراد كذلك ابطالة وجلب الى مملكته ضباطاً فرنسايه ورتب فيها التعليمات العسكرية والسفن الحربية ووجد العساكر الطوبجية وطوبجية الفنبرة والرماة بالبندق لكن لما اراد خلفه السلطان سليم الثالث الذي تولى السلطنة سنة ١٢٠٢ للهجرة (سنة ١٧٨٩ م) ان يحدو حدوساته المشار اليه في هذا الامر ويرتب العساكر التعليمية صار ذلك سبباً في عزله وقتله وخلاصة الكلام انه لم يفر بهذا المقصد العظيم الا السلطان محمود الثاني الذي تولى به فانه هو الذي نجح في هذا المشروع بعد ان اباد وجاق البيجيرية المذكورين ودمره وازرة العلماء والاهالي لكونهم كانوا انقوا للغاية من رذائل هذا الوجاق الرديئة وقطع كذلك شاقة العساكر المسماة باليتي التي كانت تميل اليهم واتحق بهم الدراويش البكتاشية ورتب العساكر التعليمية الجهادية الجديدة الموجودة اليوم وادخل فيها جميع الوجاقات العسكرية القديمة (يراد بالوجاق في اللغة التركية موقد للنار بيني بالطين والحجر لطبخ القهوة في النهاوي كان يوجد نظيره في مراكز روساء العساكر القديمة حيث يجتمعون للتشاور والمناكرات فيكون لكل فرقة منها مثل هذا الوجاق في مجال اجتماعاتها واحتفالاتها الرسمية لتطبخ عليه القهوة لاجل شرب انفارها فينتسب اليها ويقال اوجاق البيجيرية واوجاق الدالانية وهلم جرا ولذلك سمت تلك الفرق بالوجاقات اخذاً عنه كما كان يقال للاغا من البيجيرية چوربه جي يعني صاحب الشوربا او طعام الشوربا نسبة الى الشوربا التي كانت جارية العادة بطبخها في ايام رسمية معينة في قشلة (اي مشتاً) العساكر البيجيرية لثورات هذا الوجاق وكان يترتب على تعدد قلب مراجعها المسماة بلغة الاتراك قزغانلر جمع قزغان الثورات العظيمة التي كانت توذي احياناً الى خلع السلاطين وقتلهم ولذلك جرى المثل على السنة العامة من اهالي البلاد بقولهم فلان قلوبا لة القازان يعنون بذلك طرده من مسند او تنكيسه بتد في منزله فلما ابطل

السلطان محمود المشار اليه العساكر المذكورة امر ايضاً بابطال عمل هذه
الوجاقات المعدة لطبخ القهوة من الفهاوي بمدينة القسطنطينية لئلا يسي ذكر
الوجاق من اصله فصاروا من ذلك الوقت لا يطبخون القهوة في الفهاوي الأعلى
المناقل المعتادة)

وكانت آلات حروب العثمانية في زمن السلطان عثمان الأول الفوس
والنشاب والسيوف والسكاكين والحرايب وكانوا يضربون اسوار المداين والقلاع
بججارة كبار يضعونها في المنجنيقات ويطلقونها عليها فيهد موتها كما يضربون
داخلها بالججارة الصغار في المقابع وكان احسن تلك الآلات الفوس والنشاب
والسهام الثرية الكبار على العربانات مع ان الباروت كان ظهر في زمن هذا
السلطان الفانح لكنه كان لا زال ما اشتهر ولذلك لم يستقر حال ما تجدد
بعدئذ من معامل المدافع المسماة باغنهم طوبخانات وورش البنادق وغيرها التي
شُرِع في انشاءها عدة مرات ثم تبطل باسباب الضرائب التي كانت تجدد لاجل
مصاريفها الا في زمن السلطان سليم الثالث

اما قوة العثمانية البحرية فكان تجديدها في زمن السلطان محمد الفانح الذي
هو اول من رتب العساكر البحرية في هذه الدولة ثم عظمت قوتها وشوكتها في
زمن السلطان سليمان الثاني لكنها اخذت في الانحطاط منذ القرن الثاني عشر
الهجرة المقابل للقرن الثامن عشر من الميلاد واخيراً اعتبروا في عمارتها طرق
الانكليز وقلدوهم في ذلك على ما كان نواه السلطان سليمان الثالث الذي
جلس على تخت في سنة ١١٠٤ للهجرة (سنة ١٦٩٢ م) وبجربتها غالباً كانت
تكون من الاروام وقد اخذت في الرجوع الى ما كانت عليه من القوة في بداية
امرها منذ زمن السلطان عبد العزيز الأول الذي البسها حلل الرونق والبهجة
بما زادة فيها من البوارج البخارية والثواني المصنعة المديدية

ولم يكن عند المجالس للتشاور ووضع القوانين الادارية مجهولاً عند الدولة
العثمانية في ابتداء امرها اذ قد سبقت الاشارة الى المجلس الذي كان عند

السلطان ارخان في بروسا لما تولى السلطنة بعد ابيه السلطان عثمان الاول
لوضع بعض قوانين ونظامات تلائم احوالهم البدوية مع طنطنة السلطنة والدولة
وكان ذلك المجلس مركبا من علاء الدين باشا اخي السلطان المشار اليه
والشهباده سليمان باشا والسلطان مراد وغيرهم من الاعيان والاكابر فرتبوا فيه
اولا امر الملابس على ما سبقت الاشارة اليه في صحيفة ٥٢٦

ثانيا منعا فيه تداول المعاملة التي كانت متداولة وقتئذ في ابادي الناس
من ضرب العلاتين السلجوقية وان تضرب معاملة جديدة غيرها باسم السلطان
ارخان وبعلامة الدولة فمن ثم ابتدي بضرب السكة باسمه في محرم سنة ٧٢٨
للهجرة (سنة ١٢٢٧ م) وكتب عنوانها امير وسلطان الروم وبقي يكتب عليها
هذا العنوان لحد زمن السلطان بايزيد الاول الملقب بيلد برم ومعناه في التركية
البرق لقب بذلك لخته في الحروب وقيل ان السبب الاصيل فيه هو لكون ان
اسمه هذا الذي هو بايزيد لم يكن فيه حرف الميم خلافا لما اعناده آل عثمان
من الاسماء تيمنا بوجود الحرف المذكور فيها ولذلك لقبوه بهذا اللقب لوجود
هذا الحرف فيه ولم يقل اعتبار هذه المادة الا في زمن السلطان محمود الاول
وابنه السلطان عبد العزيز ونرجع الى ما كنا بصدده من امر السكة وضرب
العملة فنقول ثم تغير ذلك العنوان عن المعاملة بعد فتوح البحر الابيض والبحر
الاسود وكتب عوضه سلطان البرين و خاقان البحرين ثم لما افتتح السلطان
سليم الاول مصر و اعجاز ضم الى ذلك خادم الحرمين الشريفين (يعني مكة
والمدينة) وكتب عليها احيانا سلطان سلاطين زمان ولا يلزمنا استثناء كل ما
كتب عليها ولا مقدار انواعها وكيفية ما وقع من التغيير والتبديل في عباراتها
واوزانها بل ينبغي العدول الى ما هو اهم اعني الاصلاح العظيم الذي جرى فيها
في زمن السلطان عبد المجيد الاول فانه امر بضرب المبرات الذهبية والريالات
الفضية المنسوبات اليه خالصات من الزغل تحت عبارتي ووزن معلوم لا يتغيران
بقهمة عادلة بحيث لا تزيد عن اثمان الذهب والفضة الخالصين الا بها قل في

نظير اجرة السك فقط واكتفى بوضع الطغراء السلطانية من الجهة الواحدة
ومحل ضربها ان يكن التسطينية او مصر او غيرها من القصبات الماذونة
بضرب المعاملة من الجهة الاخرى (والطرءاء هي اسم السلطان يكتب بصورة
مخصوصة نظير العلامة)

وكان لم يترتب في مجلس بروسا الذي كنا بصدده من الامور المهمة غير
ما ذكرنا الا اقامة نواب من طرف السلطان للخطابة في الجوامع وقت صلاة
الجماعة يوم الجمعة نيابة عنه وان السلطان يامر بالمكافاة لمن يخدم بنصح
وبالمجازاة لمن كان بعكس ذلك وان تعيين مراتب مخصوصة الى اصحاب
الخدمات السابقة الذين اوفوا بخدماتهم في باب الدولة بالصدق والاستقامة
وان تحصل المبادرة بجميع العساكر الخيالة والمشاة وغيرهم وامثال ذلك من
القوانين التي جددوها باتفاق الاراء لتظهر لهم حقوق دولية فيما بين السلاطين
والمملوك المجاورة لهم

اول

فلما تولى السلطنة السلطان سليمان الثاني وضع قوانين اخرى لقب بسببها
بالقانوني اخذت بعض احكامها من قوانين ملوك الروم مزوجة باحكام الشريعة
الاسلامية وانما لا توجد بها قوة لضبط ارباب المناصب ولا احكام تكفل بتنفيذ
تلك القوانين

اما القوانين العظيمة والاحكام المتكفلة بانفاذها على وجه اتم واكمل بها فيها
من الاصول العادلة والترتيبات الدافعة العائدة للدولة خصوصاً وللتبعية عموماً
وقد ذكرت بعض نتائجها بالمناسبة في ما مرّ فان الفخر كل الفخر فيها للسلطان
محمود الثاني الذي هو اول شارع فيها منذ اعتق مملكته من ظلم اليكبرية
وغيرهم من تلك الوجاقات العسكرية المفقوتة لجورها وتصديها للسلاطين
ومنعها ايّام عن انفاذ ما ربههم وتبنيهم مناصد هم في اصلاح احوال المملوك وتقوية
شوكنها وسعادة اهلها وراحتهم

وبهذا العمل المبرور قد مهد الطريق لابن السلطان عبد الحميد الاول

الذي منحه جلوسه على التخت العثماني عاهد الله بقسم في حجة المخرقة الشريفة على صيانة دماء الرعايا واعراضهم واموالهم وحفظ ناموسهم ثم انه اخذ هذا العهد عينه ايضاً بقسم على العلماء وجميع الوكلاء والوزراء وبعد ان أعلن ذلك بفرمان عالٍ مورخ في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ للهجرة الموافق الى ٢٢ تشرين الاول سنة ١٨٢٩م تلي في المحل المعروف بكلخانة في مدينة القسطنطينية وأرسلت صورته الى سفراء الدول الاجنبية ايضاً اخذت قوانين التسوية بين الرعايا والترتيبات التي سُميت بالتنظيمات الخيرية ان تظهر شيئاً فشيئاً في جميع اقطار هذه المملكة الواسعة بفرامين عالية واوامر سامية متتابعة

ولازل الحال على هذا المنوال الى ان ظهر دستور القوانين السلطانية وطبع مرتين في زمن اخيه السلطان عبد العزيز والطبعة الثانية كانت حاوية على كل ما نجز وضعه وترتيبه ليخرج من القوة الى الفعل ما قد ترخص بهما الوكلاء والمأمورون الذين قد أنيط بهم هذا العمل الجيد سواء كان ذلك ما ورد في نصوص الفرمان العالي المشار اليه او في غيره من الاوامر الملوكية الصادرة في اوائل شهر جادي الاخرة سنة ١٢٧٧ للهجرة او اخر كانون الثاني سنة ١٨٥٦م وغير ذلك من التواريخ وثبتت اخيراً بالخط الشريف السلطاني الصادر الى مقام الصدارة العظمى عقيب الجاوس الهايوني بتاريخ ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٧٧ للهجرة (٢٠ حزيران سنة ١٨٦١م) وماك ملخص مضامينها العلية التي بها ألغيت احوال السياسة القديمة التي كانت الدولة مجبورة اليها في عصر تلك العساكر البربرية على ما هو مندرج في فاتحة الدستور المذكور وقد كنت منذ مدة ترجمت منه مجاد بن كبيرين وما الاول والثاني الى اللغة العربية خدمة للدولة والوطن تقديماً الى دار السعادة عن يد صاحب العزق خليل افندي الخوري مهذب المطبوعات ولازال العارفون بذلك يتوقعون سنوح الترخيص بطبعتها ونشرها ليعرف كل ما عليه وماله مما تكفلت لم يؤلفه الفصول الآتي ذكرها وهي

أولاً ابطال ما كانت تجر به العمال من المظالم الآتي ذكرها وهي

- (١) البص ومصادرة الاموال
 - (٢) سفك الدماء بغير وجه
 - (٣) العوائد والقوانين الخشنة القديمة
 - (٤) حرم الورثة حقوقهم في ارث المتوفي من آية رتبة كانوا
 - (٥) حجز محصولات المملوكة واحتمكارها بيد شخص واحد يجمع بارباحها
- وحده
- (٦) اخذ اقارب المذنب مجرماً
 - (٧) الالفاظ المهينة والعبارات السخيفة التي كانت تستعمل لفظاً وكتابةً وخاصة بحق من كان على غير دين الاسلام
 - (٨) حجز حرية الضمير في الامور التي بين الخالق والمخلوق

ثانياً اباحة مراحم اما كانت مخصوصة واما مفقودة بالكلية وهي

- (١) اباحة الحرية في استعمال الشعائر الدينية لاي مذهب كان
 - (٢) اعطاء المناصب والمراتب الاخوية الملكية والعسكرية لاصحاب اللياقة والاستحقاق من آية ملته كانوا من الرعايا
 - (٣) ترتيب المحاكم وتعيين المعاشات للقضاة على طرق خزينة الدولة
 - (٤) ترتيب التاديبات لمن يرتكب الرشوة ووضع قوانين الجزاء لكل من ساء اصحاب الجرائم والقبائح بحسب استحقاقه
 - (٥) ترتيب معاشات كافية للمأورين وجميع مستخدمين الدولة بحيث لا يبقى لهم عذر في قبول الرشوة وابتلاع الاموال
 - (٦) تقييد المحكام بقوانين معتبرة يجرى عليها تصرفهم في كليات الامور
- وجزئياتها بحيث لم يترك شي لاجتهادهم الخاص

(٧) ربط هذه المنظمات كلها بدواوين يجمع فيها كبار البلاد ووجوهها ذوو الاعتبار من جميع التبعة على اختلاف مذاهبهم للنشاور والنظر في الامور الملكية والمالية والجزائية والاصلاحيات البلدية والنضاي التجارية وكل متفرعات الاحكام هذا عدا عن المجالس المخصصة الموجودة في عاصمة المملكة لتنظيم القوانين النافعة والاحكام المدلية المائدة لخير الملك والشعب

(٨) وضع القوانين التي يلزم ان تجرى عليها عمالية هذه المجالس في كل الامور والنضاي الحالية الى عهد اهتمام اعضاءها بحيث ان كل حكم أبرم فيها غير مستند الى قانون صريح فلا يكون نافذا ولا يعمل به اصلاً بل لكل انسان حق المدافعة عن نفسه بقوة هذه القوانين والاستناد اليها فاذا خسر احد حقه مجهله اياها فلا يكون لومه الا على ذات شخصه

(٩) ترتيب الاموال والعائدات الاميرية وكيفية تحصيلها على وجه السهولة وراحة الاهالي بحيث يكون توزيعها على كل شخص بقدر احتمالها بطريقة الاعشار الشرعية

(١٠) تخصيص الصناديق البلدية ببعض عائدات رسومية كانت تؤخذ الى خزينة الدولة لتصرف في الاصلاحات المحلية كتهدد الطرق واصلاح القناطر والجسور واقنية الماء وغير ذلك من الامور الموجبة اصلاح احوال المدن ونظافتها

(١١) ترتيب المدارس الرشدية لتعليم الاهالي وتهديبهم وتاهيلهم للقبول في خدمات الدولة ومناصبها السامية

(١٢) مساواة الاهالي على اختلاف مذاهبهم ايضاً بالاجانب الذين يحصلون على شيء من الامتيازات في الامور التجارية

(١٣) حفظ ناموس الرعية وتمتع كل انسان منها بامواله واملاكه وسائر وجوه نعماته بدون معارض

(١٤) تطهير الجوس وتنظيمها ورعاية المسجونين والمحافظة عليهم ما

بوجوب الاضوار على صحتهم والقيام بالتبوت اللازم لذوي الفاقة منهم الى غير ذلك من الامور التي لانسئنا تفاصيلها ومن هنا يعلم القاري بان ما صدرت الارادة السلطانية باطاله قد كان جارياً من ذي قبل وما اباحته قد كان اما مخصصاً واما ممنوعاً وما احدثته قد كان معدوماً بالكليّة

ثم في زمن السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى العرش في سنة ١٢٩٢ للهجرة (سنة ١٨٧٦ م) وضعت النظمات الاساسية التي بها تكرمت الدولة بابطال السلطة الاستبدادية اي التسلط المطلق الذي يتسلطه شخص واحد او اكثر ومُنحت الحرية والعدالة والمساواة لكل الطوائف المختلفة التي تتألف منها الهيئة الاجتماعية في بلاد الدولة العلية واعلنت بفرمان عال مؤرخ في ٢ ذي الحجة سنة ١٢٩٢ للهجرة (٢٢ كانون الاول سنة ١٨٧٦ م) وهي تتضمن على

١٢ فصلاً

- (١) يتعلق بالسلطة العثمانية او بممالك الدولة العثمانية تبييناً لها وبتناول بعض متعلقات الذات المملوكة وحقوقها وسائر السلالة العثمانية المملوكة
- (٢) حقوق تبعة الدولة العلية العمومية
- (٣) في وكلاء الدولة
- (٤) في المأمورين
- (٥) في المجلس العمومي
- (٦) في هيئة مجلس الاعيان
- (٧) في هيئة مجلس المبعوثين
- (٨) في المحاكم
- (٩) في الدبوان العالي
- (١٠) في الامور المالية
- (١١) في الولايات
- (١٢) في مواد شتى ولا يصح هنا المختصر تبين تفاصيل المواد المدرجة

تمت هذه النصول بافرادها بل نقول على وجه الاجمال ان الدولة العملية منذ
 تولي السلطان عبد المجيد الاول الى زمن السلطان عبد الحميد الثاني الحالي لم
 تكف قط عن بذل السعي والاجتهاد في سبيل راحة الاهالي وترفيه احوالهم
 وسعادتهم وصيانة ارواحهم واعراضهم واموالهم ووقاية ناموسهم ولم يبق شيء
 ناقصاً الا ما كان عمله من متعلقات القدرة الالهية الفادرة وحدها ان تحوّل
 اخلاق العمال المنوط بهم انفاذ القوانين عن بعض امور مخلة في شرف النفس
 الى العمل بموجب المنظمات السلطانية كما تن علينا نحن ايضاً بتحويل طباعنا
 عن التعصبات الدينية والاعراض المذهبية وعن صرف اوقانتنا مع الجّد
 والاجتهاد على الاتصاف بوصف اول لعيب حاذق مثلاً في اللعبة الفلانية الى
 الرغبة في اكتساب شرف الاتصاف بفضيلة من فضائل الاداب والمعارف
 الحقيقية

يقول موله الفقيه نوفل بن نعمة الله بن جرجس نوفل هذا اخر ما امكني
 تمليقه في كتابي هذا الثاني المسى بزينة الصحائف في سياحة المعارف مما وصلت
 اليه يدي النقاط من تلك الكتيبات والرسالات والنشرات التي
 اشترت اليها في مقدمة كتابي الاول ويلي الكتاب الثالث
 المسى بصناعة الطرب في تقدمات العرب
 والحمد لله اولاً واخراً

اصلاح غلط

صواب	خطا	سطر	صفحة
على مقتضى	وعلى مقتضى	٨	٤
ابتدى	ابتدى	٢	٥
وتأليه	وتأليه	٢٤	١٠
منغطا	منغطا	١٠	٢٢
يجب بالوطن	يجب بالوطن	١٩	٢١
بعضهم زمن علمها	بعضهم من علمها	١٧	٧٢
انوبيس	ابونيس	٢	٧٤
انوبيس	ابونيس	٤	٧٤
فلاسفوس	فلاسفوس	٤	١٠٢

يوجد غلط في عدد الصحائف الآتي ذكرها وترويسها

صواب	خطا
المعارف عند اليونان	المعارف عند الرومانيين
١٢٩	١٢٧
١٣٠	١٢٨
المعارف عند اليونان	المعارف عند الرومانيين
١٣١	١٢٩
١٣٢	١٤٠
المعارف عند اليونان	المعارف عند الرومانيين
١٣٣	١٤١
١٣٤	١٤٢
المعارف عند اليونان	المعارف عند الرومانيين
١٣٥	١٤٣

صفحة . سطر	خطا	صواب
١٤٤		١٢٦
١٢٩		١٢٧
١٢٠		١٢٨
١٢١		١٢٩
١٢٢		١٤٠
١٢٣		١٤١
١٢٤		١٤٢
١٢٥		١٤٣
١٢٦		١٤٤
١٥٧	٢٤ بوقامون	بوتامون
١٦١	٧ اذان الدروديون	اذان الدروديين
١٧١	الترويس الفياصرة الرومانيين	المعارف عند الرومانيين
١٧٨	٢١ ذلك وقت من	ذلك في وقت من
١٨٤	٢١ الرهبان كانوا	الرهبان لانهم كانوا
١٩٦	٢١ ولما اراد وان ايزينو	ولما ارادوا ان يزينوا
٢٠٨	١٢ على تقدمات	عن تقدمات
٢١٠	١٢ وكما ان	كما ان
٢١٥	الترويس الامبراطورية الغرقية	الامبراطورية الغربية
٢٤٣	٨ بايطاليا	في ايطاليا
٢٤٤	٢٠ ورنفريد	ورنفريد
٥٥٣	١٩ ورنفريد	ورنفريد
٢٥٧	٢٣ وبولين واكيليا	وبولين داكيليا
٢٦٤	٢١ جيلا القس	جيلا انمس

صفا	سطر	خطا	صواب
٢٦٦	الترويس	٢٢٦	٢٦٦
٢٦٧	٢٠	بعد استولوا	بعد ان استولوا
٢٠٦	٧	سواله	سوله
٢٤٠	١٢	ميشالوز وميشالوزي	ميشيلود وميشيلوزي
٢٩٤	٧	عساكر	عسكر
٤٠٧	٦	استدراجات امكانية	استدراجات مدنية
٤٠٨	٣	ديغرميان	ديغرميان
٤١٧	الترويس	٤٢٥	٤١٧
٤١٧	١	منذ قرن مما كان	منذ قرن ما كان
٤١٨	الترويس	٤٢٦	٤١٨
٤١٩	"	٤٢٧	٤١٩
٤٢٠	"	٤٢٨	٤٢٠
٤٢٠	١٢	الامور الآتية وهي	من بعض تاثيراتها الردية منذ الامور الآتية وهي
٤٢١	الترويس	٤٢٩	٤٢١
٤٢٢	"	٤٣٠	٤٢٢
٤٢٣	"	٤٣١	٤٢٣
٤٢٤	"	٤٣٢	٤٢٤
٤٢٥	"	٤١٧	٤٢٥
٤٢٦	"	٤١٨	٤٢٦
٤٢٧	"	٤١٩	٤٢٧
٤٢٨	"	٤٢٠	٤٢٨
٤٢٩	"	٤٢١	٤٢٩

صفحة	سطر	خطا	صواب
٤٢٠	"	٤٢٣	٤٢٠
٤٢١	"	٤٢٢	٤٢١
٤٢٢	"	٤٢٤	٤٢٢
٤٤٧	"	مئة القرن الثامن عشر	مئة القرن التاسع عشر
٤٥١	١٢	باديه	باويا
٤٥٥	الترويس	مدة القرن الثامن عشر	مدة القرن التاسع عشر
		في الفصل الثاني من	في الفصل الخامس من البحث
٤٦٤	١٩	البحث المذكور	الثاني صحيفة ٢٤٠
٤٦٦	١٢	افتتاح القرن الثامن	نهاية القرن الثامن
٤٧٥	١٧	(٢٧٥٥٧١)	(٢٨٥٥٧١)
		المعارف في بلاد الدولة	المعارف في بلاد الدولة العلية
		العلية العثمانية	العثمانية منذ الفتح الى القرن
٥١٩	٢		التاسع عشر
٥٢٤	١	تتعلق	تتعلق
٥٢٩	١٨	النصب	النصب

To: www.al-mostafa.com